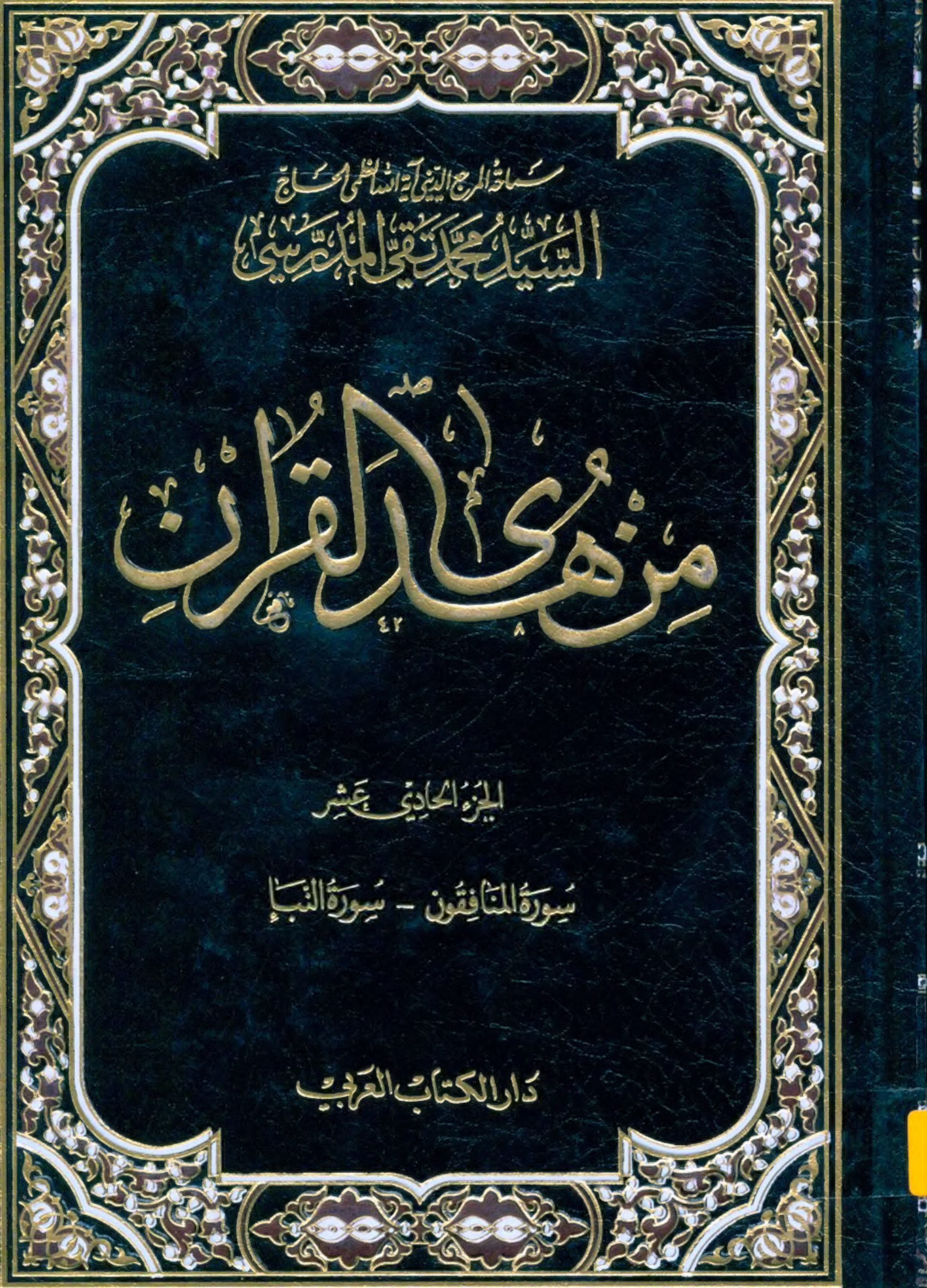


سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي
من هدى القرآن
الجزء الحادي عشر
سورة المنافقون - سورة النبأ
دار الكتاب العربي


والكاظمين الغيظ
الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة



١١

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي

من هدى القرآن

الجزء الحادي عشر

سورة المنافقون - سورة النبأ

دار القارىء

الطبعة الثانية

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

■ الكتاب: من هدى القرآن ١/ ١٢.

■ المؤلف: سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

■ الطبعة: الثانية، تاريخ النشر: ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، (طبعة محققة ومنقحة ومزيدة).

■ إخراج وتنسيق: زكي حسن أحمد

■ zakiht@gmail.com

■ الناشر: دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون: ٠٣/٤١٣٢٥٦ - ٠٣/ ٩٠٢٩٤٤

Email:dar_alkari@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ صَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ الطَّاهِرِين



سُورَةُ المنَافِقُون

* مدنيّة.

* عدد آياتها: ١١.

* ترتيبها النزولي: ١٠٥.

* ترتيبها في المصحف: ٦٣.

* نزلت بعد سورة الحج.

فضلُ السُّورة

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَهَا بَرِئَ مِنْ الشَّكِّ وَالنِّفَاقِ فِي الدِّينِ».

(المصباح للكفعمي: ص٤٤٧)

الإطار العام

النفاق؛ بين الانحطاط والهزيمة

في هذه السورة يفضح الوحي خط النفاق في الأمة، وذلك ببيان معالم مسيرته، حيث التكلف في إظهار الإيمان والطاعة للقيادة الرسالية، والعيش بوجهين وشخصيتين؛ إحداهما التظاهر بالإيمان المؤكد بالأيمان والاهتمام بالمظاهر الدينية والمظاهر المختلفة (الآيات: ١-٤)، والأخرى الكفر العملي المبطن. فالمنافقون يستنكفون من الاعتراف بالقيادة والذهاب إليها لتستغفر لهم، وهكذا يصدون أنفسهم عنها لإضعاف مركزها بشتى الطرق والأساليب، ومن بينها شن الحرب الاقتصادية ضدها لفض الناس عنها وتعطيل مشاريعها. و لكن الآيات تتركز عند نقطة محورية، هي موقفهم من الحياة الرسالية مبدئياً ونفسياً واجتماعياً واقتصادياً. (الآيات: ٥-٨).

ويقف السياق في نهاية السورة ضد هذه الخطة الغادرة ليدفع المؤمنين نحو حركة معاكسة ومضاعفة ضد مكر المنافقين،بدعوتهم لعدم التلهي بالأموال والأولاد عن ذكر الله والجهاد في سبيله (كما يريد المنافقون) لما في ذلك من عظيم الخسارة (الآية: ٩)، وبتحريضهم -من جهة أخرى- على سبق الأجل بالإنفاق من مال الله في سبيله، بصورة تضعهم في سياق التحدي مع الموت والعدو، سباقاً معطياته (الأجل القادم، والفرصة الوحيدة القليلة، والمصير الحاسم؛ فإما الانتماء للخاسرين حيث العذاب، وإما الانتماء لفريق الصالحين حيث الجنة). وهكذاسبق لا يدخر العاقل فيه جهداً، ولا يضيع فرصة أبداً. (الآيات: ١٠-١١).

ونقرأ في آيات هذه السورة بياناً لجانب من ركائز النفاق، كمخالفة القيادة الرسالية، والاستكبار على من حولها من المستضعفين الفقراء، والاغترار بما عندهم من الأموال. وهنا يطرح السؤال التالي نفسه: لماذا هذا الحديث العريض عن النفاق والمنافقين في كثير من مواضع القرآن، إلى حد يخصص الله سورة باسمهم؟.

والجواب كما يبدو لي لثلاثة أمور رئيسية:

الأول: لتحذير المؤمنين من خطر الوقوع في النفاق بالذات، وأن المؤمن أقرب للتورط في مرض النفاق منه إلى الكفر،إذن فهو بحاجة لمعرفة حدود هذه المنطقة الخطرة، وصفات أهلها، وسبل تجنب الدخول فيها للخلاص من شرورها.

الثاني: لتوجيه اهتمام القيادة الرسالية والمجتمع الإسلامي إلى خطر هذا الفريق على مسيرة الأمة ومستقبلها.

الثالث: ثم إن تنوع الحديث عن النفاق في القرآن الكريم ضرورة يفرضها البحث في هذه القضية، فالنفاق -كما أعتقد- هو انهزام الإنسان أمام الحقيقة، فلا هو يقبلها بإخلاص، ولا هو يردها بصراحة، وهذه الحالة تختلف باختلاف الحقائق، فهناك نفاق يقع فيه الذين لا يؤمنون بالله عز وجل، وآخر في مواجهة القيادة الرسالية، بل هناك نوع منه في مواجهة بعض التشريعات الإلهية.

وبتعبير آخر؛ إن النفاق هو الاتجاه المعاكس للإيمان، وباعتبار الإيمان يمتد على مساحة الحقائق كلها، فإن النفاق يمتد بالتضاد على المسافة ذاتها، وتناول القرآن لموضوع النفاق في سور كثيرة يستهدف معالجته من جوانبه المختلفة علاجاً شاملاً.

ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً (١) فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ (٢) وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي

(١) جُنّة: أي وقاية، والجُنّة هي السترة المتخذة لدفع الأذية كالسلاح المتخذ لدفع الجراح.

(٢) لوّوا رؤوسهم: أمالوها عن الحق، وقيل: إكثار التحريك لها بالهزء.

إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

بينات من الآيات:

[١] حينما يكون الحديث عن المنافقين وفضيحتهم تتركز الآيات عن علاقة هذا الفريق بالقيادة الرسالية، لأنها أظهر شاخص يميزهم عن غيرهم، إذ من السهل أن يخضع الإنسان لمجموعة من الشعائر والتقاليد، كصلاة الركوع والسجود، وصوم الجوع والعطش، ويتقن التستر بها على نواياه الحقيقية، ولكن من الصعب جدا أن يخضع في سلمه وحربه، وفي اقتصاده وسياسته، وفي اجتماعه وأسرته، وفي كافة جوانب حياته اليومية، لقيادة إلهية خضوعاً دائماً وشاملا دون تكلف أو تناقض أو تمرد. إن أبرز دوافع المنافقين السعي وراء السلطة، وأهم استراتيجية يسعون لتحقيقها هي الوصول إلى مركز القيادة في الأمة الإسلامية، بالتأثير على قراراتها، أو بالسيطرة التامة عليها. وهم يتحركون لتحقيقها بكل مكر وحيلة ومن وسائلهم في ذلك التظاهر بالإخلاص لها والقرب منها بالملق والتكلف، من هنا تراهم أكثر الناس تظاهراً بالولاء للقيادة، يخفون به ما تنطوي عليه قلوبهم من النوايا الخبيثة تجاهها. واليقظة التامة ضرورة لكيلا يصدعوا جبهة الحق في الساعات الحرجة عندما يخوضون حربا أو يعيشون حالة التحدي أو تعيش الأمة فراغا قياديا يشغلونه لمصلحتهم أو فراغا توجيهيا فيحرفون مسيرتها، من هنا قرعت الآيات الأولى جرس الإنذار بقوة.

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فهم قد يتعنون قاصدين القيادة دون أية مناسبة تستدعي تجديد الولاء والبيعة ليشهدوا للرسول بالقيادة بتكلف وملق.

﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ﴾ وهنا ثلاثة تأكيدات لفظية: ﴿نَشْهَدُ﴾ و(أن)، (و اللام)، إذ كان من الممكن أن يقولوا ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ﴾ فقط، إلا إنهم أضافوا كلمة ﴿نَشْهَدُ﴾ بغرض التأكيد. وكل ذلك لا يضيف شيئا في الواقع، بلى؛ لو صدرت هذه الشهادة من مؤمن صادق فهي تضيف شيئا جديدا باعتبارها تدفعه إلى المزيد من التسليم للقيادة، وتكشف عن ارتقائه في الإيمان درجة، وهي حالة الشهود والحضور عند حقيقة الرسالة والتي تستدعي البوح بها وتحمل مسؤولياتها وتحدي الأعداء من أجل ترسيخها.

بيد أن المنافقين كاذبون في ادعائها فلن تنفعهم شيئا.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ إذن فشهادتهم لم تضف إلى الواقع شيئا كما لم تضف إلى حياتهم

شيئاً جديداً.

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ وفي الآية ملاحظة أدبية رفيعة حيث لم يقل الله مباشرة: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ وَذَرُوا .﴾، إنما قدم قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ..﴾، وذلك ليؤكد رسالة نبيه بعلمه من جهة، وليؤكد كذب المنافقين في ادعائهم الإيمان والولاء من خلال شهادتهم بشهادته دون نفي ما شهدوا عليه. فليس الكذب هنا بمعنى مخالفة الكلام للواقع، إذ رسالة النبي حق وهم عبروا عنها، ولكن الكذب بمعنى مخالفة لازم الكلام لواقعهم وهو اعتقادهم بالرسالة وبلوغهم مستوى الشهادة عليها. ولكن لماذا لم يقل ربنا: (والله يشهد إنك لرسوله)؟ ربما لأن علم الله تعالى ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، بالغ مستوى الشهادة، بينما الشهادة عندنا كبشر تختلف عن العلم إذ لها مفهوم أوسع منه، لأن العلم يحصل بطرق مختلفة، أما الشهادة فلا تكون إلا بالحضور والمعاينة وهو مستوى رفيع من العلم.

[٢] الكذاب يحتاط لنفسه بمبالغة لفظية يغطي بها خواء كلامه، والدين لا يعترف بالادعاءات والتمنيات لأنه دين الواقعيات والمصاديق[1]، ولذلك يمكن فضح كل دعوى كاذبة يصطنعها المنافقون.

ولأن الكذب هو مخالفة الكلام أو الادعاء مع الحقيقة فإن المنافقين كاذبون، لأنهم لا يلتزمون بمقتضيات الولاء للقيادة والإيمان بها، بل يخالفون شهادتهم في سلوكهم تجاه القيادة الرسالية.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والجُنَّة هي الترس والستر، والمنافقون يتدرعون بكثرة القسم والأيمان المغلظة في إظهار الإيمان بهدف إخفاء ما هم عليه من الكفر والانحراف، وهذه من طبيعتهم في كل زمان ومكان، وليس الأيمان منحصرة في صيغ القسم المتعارفة: (والله، وبالله، وتالله) بل هي شاملة لكل ما من شأنه تأدية نفس الغرض من كلام أو سلوك يقوم به الإنسان ليصدقه الناس وليطمئنوا إليه، مثل رفع الشعارات المتطرفة والمبالغة في الاهتمام بالقشور. ومن ذلك ما نجده لدى بعض الأنظمة -المتعاونة (الموالية) لقوى الاستكبار- ترفع شعارات تتباين مع واقعها، فحكومة توالي الاستكبار الغربي ترفع شعارات يسارية متطرفة لإخفاء تبعيتها للغرب، وحكومة أخرى تبالغ في الاهتمام بالمظاهر الدينية كبناء

---

(١) حينما نراجع مادة (صدق والصادقين) ونقرأ الآيات التي وردت فيها هذه المفردة تتضح لنا هذه الحقيقة وهي أن الإسلام لا يكتفي بمجرد الادعاء بل يطالب بالمصداق ويضع كل مدع ولو كان مؤمنا أمام المحك العملي والامتحان، ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨].

المساجد، بل وتوزع فتاوى التكفير والمروق للآخرين من منافسين أو مؤمنين في حين أن حقيقة أمرها الخيانة والفسوق.

وقد سمى القرآن الأيمان جنة ليس لأنها تستر حقيقة المنافقين بل لأنهم يتحصنون بها عن ردات فعل المؤمنين والمجتمع التي تتوجه ضدهم لو انكشفت لهم حقيقة هذا الفريق الضال.

وثمة دور خبيث وخطير يقوم به المنافقون في الخفاء هو صد الناس عن سبيل الله المتمثل في القيم الرسالية، والمتمثلة هي بدورها في حزبه وخطه في المجتمع، وكلاهما يتجليان في نقطة مركزية هي القيادة الرسالية فهي سبيل الله[1]. ومع ما يتكلف المنافقون إظهاره بمختلف الأيمان من الإيمان بها إلا أنهم يحاربونها ويصدون الناس عنها. وما شهادتهم وأيمانهم المعلنة إلا فخاخ الشيطان، وهذه صورة لكذبهم الذي يشهده الله.

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وتأتي هذه الخاتمة لتؤكد بأن المنافقين يحسنون صناعة الكلام والشعارات البراقة، ويبرعون في إظهار الولاء للقيادة، ولكن ينبغي أن لا ينخدع المؤمنون بهم فإن أعمالهم مناقضة لأقوالهم بالكامل. وهاتان الآيتان تعطيان صورة واضحة للنفاق والمنافقين يمكن التعبير عنها بعملة ذات وجهين: احدهما المظهر الحسن والآخر المخبر السيىء، أحدهما الوردة النضرة الجميلة والآخرة الشوكة السامة.

ومن منهجية القرآن في نقد الأعمال والأشخاص أنه عندما يذكر عملاً سيئاً (كالصد عن سبيل الله) يؤكد سوءه حتى لا يصبح القائمون به مثلا يحتذى به، بل أمثولة يحذر منها. ولعل كلمة ﴿سَآءَ﴾ تهدي إلى أن أعمال المنافقين تترك آثارا سيئة في أنفسهم وفي المجتمع.

وليس بالضرورة أن يتحقق الصد في لا وعي الناس، بل يكون أحيانا في نتيجة الضغوط المختلفة التي يمارسها المنافقون ضدهم، كالإرهاب البدني والفكري والسياسي والضغط الاجتماعي والاقتصادي جنبا إلى جنب الإشاعات المؤذية ونشر الثقافة السلبية التي هي وسائل الطغاة والمنظمات المرتبطة بهم لتضليل الناس ومحاربة القيادات الرسالية، وإن أخطر فئات المنافقين على الدين والناس هم علماء السوء. وقد أكد أمير المؤمنين علي عليه السلام هذه الحقيقة لأنهم يتلبسون بمظاهر الإسلام ليخدعوا الناس، قال عليه السلام: «**وَإِنَّمَا أَتَاكُمُ الْحَدِيثُ مِنْ أَرْبَعَةٍ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ: رَجُلٍ مُنَافِقٍ يُظْهِرُ الْإِيمَانَ مُتَصَنِّعٍ بِالْإِسْلَامِ لَا يَتَأَثَّمُ وَلَا يَتَحَرَّجُ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى رَسُولِ اللهِ** صلى الله عليه وآله **مُتَعَمِّداً، فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَذَّابٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ وَلَكِنَّهُمْ**

(١) هناك أخبار كثيرة تفيد هذا المعنى، قال الإمام أبو الحسن عليه السلام: «**وَالسَّبِيلُ هُوَ الْوَصِيُّ**»، الكافي: ج١ ص٤٣٢، بحار الأنوار: ج٢٤، ص٣٣٦، تأويل الآيات: ص٦٦٩، المناقب: ج٣، ص٧٤.

قَالُوا هَذَا قَدْ صَحِبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ورَآهُ وسَمِعَ مِنْهُ وأَخَذُوا عَنْهُ، وهُمْ لا يَعْرِفُونَ حَالَهُ وقَدْ أَخْبَرَهُ اللهُ عَنِ المُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَهُ ووَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ فَقَالَ عَزَّ وجَلَّ: ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ ثُمَّ بَقُوا بَعْدَهُ فَتَقَرَّبُوا إِلَى أَئِمَّةِ الضَّلالَةِ والدُّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ والكَذِبِ والبُهْتَانِ فَوَلَّوْهُمُ الأَعْمَالَ وحَمَلُوهُمْ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ وأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا وإِنَّمَا النَّاسُ مَعَ المُلُوكِ والدُّنْيَا إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ فَهَذَا أَحَدُ الأَرْبَعَةِ»[1].

[٣] ونستفيد من خاتمة الآية السابقة أن النفاق الذي وصل إليه هذا الفريق لم يكن وليد لحظته، إنما كان نتيجة تراكمات لسوابق أعمالهم السيئة التي لم يتطهروا منها حينما دخلوا دار الإسلام، وهذه الفكرة تقودنا إلى التأمل في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فلا تستقيم مسيرة الإنسان العاكف على الخطايا في ردح من عمره إلا بالتطهر عن السوابق السيئة بالتوبة المستمرة، لأن آثار الذنب تهدد بالانحراف في أي لحظة. لذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ﴾ فهم حين اختاروا الإيمان ربما كان ذلك نتيجة نفحة إلهية تعرضوا لها ولحظة إشراق عمت صدورهم وقرروا الإيمان[2]، ولكنهم لم يكنسوا من أنفسهم رواسب الضلال السابقة فنمت من جديد إلى حد غيرت مسارهم إلى الطريق الآخر.

﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ وكان ينبغي لهم أن يرسخوا الإيمان في قلوبهم وسلوكهم ويعمدوا إلى التطهر من سوابق الضلال ودواعيه فلم يفعلوا فعادوا إلى الكفر اتباعا للأهواء والمصالح، أو كان إيمانهم إيمانا سطحيا دعتهم إليه الظروف والمصالح فلما وجدوا الفرصة المناسبة رجعوا إلى شخصياتهم الحقيقية.

وحينما يتمادى الإنسان في الانحراف ويصر على الكفر يصل إلى درجة تموت في نفسه جذوة الإيمان، وينطفئ عنها نور الهدى (العقل والفطرة والإيمان) فلا يحدث نفسه بالهداية ولا يرتجى له ذلك. وهذه المرحلة يسميها القرآن بالطبع.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ولكن لم يكن هذا الطبع جبرا من الله فرض عليهم، وإنما كان نتيجة اختيارهم الحر للكفر بعد الإيمان والتمادي فيه. ولأن حكمة الخلق كانت الرحمة الإلهية ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٩]، فإن الله لا يطبع على قلب أحد إلا إذا علم أنه يستحق ذلك، ولا يمكن أن يهتدي في المستقبل. والطبع في أحد وجوهه لون من العذاب في الدنيا بسلب حلاوة الإيمان والهدى، أما في الآخرة فإنه يؤدي إلى الخلود في العذاب الأليم.

---

(١) الكافي: ج١، ص٦٢-٦٣. وإنه لجدير بنا أن ندرس تاريخنا وواقعنا على ضوء هذه الرواية العظيمة.

(٢) لقد مرت الإشارة إلى هذه الفكرة عند تفسير الآيتين: [١٧-٢٠] من سورة البقرة فراجع.

وفي هذه الآية بيان لمراحل الانحطاط التي يمر بها المنافقون وهي ثلاث: (الإيمان، الكفر بعده، الطبع على القلوب)، كما تنطوي على تحذير للمؤمنين بأنهم معرضون للوقوع في النفاق عبر تلك المراحل. أوليس أولئك بدؤوا مؤمنين وانتهوا إلى منافقين؟، إذن فكل مؤمن يمكن أن يصبح منافقا في يوم من الأيام إن لم تبق أسباب إيمانه، لأن الإيمان كيان متكامل قائم على أساس مجموعة من العقائد والسلوكيات والأعمال، والكفر هو الكيان المناقض له، فكلما انسحب الإنسان خطوة من دار الإيمان وكيانه دخل بقدرها دار الكفر وكيانه، فالصدق والأمانة والوفاء من الإيمان، والكذب والخيانة والخلف من الكفر، والتعبير الحسن عن هذه الحقيقة نجده في نصوص الروايات أن الخلق الفلاني شعبة من النفاق أو خصلة من خصال المنافقين، وجاء في حديث نبوي عن رسول الله ﷺ قوله: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَ إِنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَ إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَ إِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَ إِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»[1].

فإذا تمحض أحد في الشر صار كافرا، وإذا أصر على الشر المحض طبع على قلبه[2]، وقد طبع على قلوب المنافقين بالكفر والنفاق إلى حد لم تبق معه وسيلة حسية ولا عقلية يهتدون بها إلا الإيمان والصلاح أو يفرقون بها بين الكفر والإسلام.

﴿**فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ أي لا يفقهون دلالات الآيات فيهتدون إلى الحق، ليس لأن الله يسلبهم السمع والأبصار والأفئدة فهي موجودة ولكن لا ينتفعون بها، كما وصفهم الله بقوله: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وإذا تعطل العقل عند الإنسان؛ وفقد الوعي والقدرة على التمييز، فهل يبقى منه سوى مظهره الخارجي وصورته المادية؟، وما هو الفرق إذن بينه وبين الحيوان أو الجماد؟!، ولا عجب أن يشبه القرآن المنافقين آنئذ بالخشب المسندة.

[٤] ويعرض السياق لبيان جانب من الصفات اللصيقة بالشخصية المنافقة، والتي يتميز بها المنافقون عن غيرهم في المجتمع، وهي:

١- المزيد من الاعتناء بالمظاهر الدينية بهدف خداع الناس وإثارة إعجابهم، فقد تراهم

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٩ ص٢٦١، تفسير القرطبي: ج١٩، ص١٢٢.

(٢) وقد وردت في الروايات تحذيرات كثيرة من الاغترار بالإيمان، قال رسول الله ﷺ: «**الْعُلَمَاءُ كُلُّهُمْ هَلْكَى إِلَّا الْعَامِلُونَ وَالْعَامِلُونَ كُلُّهُمْ هَلْكَى إِلَّا الْمُخْلِصُونَ وَالْمُخْلِصُونَ عَلَى خَطَرٍ**». تنبيه الخواطر (مجموعة ورّام): ج٢، ص١١٨.

وقد أكلت ثفنات السجود جباههم وركبهم، أو تسابقوا إلى حضور المسجد والقيام في الصف الأول من الجماعة، ويتماوتون في صلاتهم، ويقصرون ثيابهم، ويطلقون اللحى، ويتراؤون بسمات البطولة والشهامة.. وهكذا تلاحق عقدة المظهر المنافقين أينما كانوا لإحساسهم الملح بأهمية المظهر، فهم لا يملكون جواهر سليما فلا بد أن يبحثوا عما يسترون به خبثهم وكفرهم، بالذات وهم يعيشون في مجتمع المسلمين ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ ولعل الجسم أعم من البدن، فهو كل ما يتصل بكيان الإنسان المادي.

٢- الكلام المنمق، فالمنافقون يحسبون لكل كلمة تصدر منهم حسابها ويفكرون في كلامهم قبل نطقه كثيرا:

أولاً: لكي لا يحكي ما يخبئون. أوليس المرء مخبوءا تحت لسانه؟، أولم يقل ربنا سبحانه وتعالى عنهم: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾؟ [محمد: ٣٠].

ثانياً: لكي يدعموا آراءهم الباطلة التي لا رصيد لها من حقائق الواقع شيئا فيعوضون نقص الأدلة بزخرف الكلام، وينتقون مفرداته واحدة واحدة، ليتمكنوا من قلب السامع فيضلونه، فظاهر كلامهم الطيب والحلاوة ولكنك إذا تطلعت على خلفياته وما بين سطوره تجد السم الزعاف.

﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ والقول كل ما يحاكي به الإنسان الآخرين كالكلام والكتابة، وما أكثر الأفواه والأقلام المأجورة التي ترقى منابر المسلمين، وتقبع في دوائر التثقيف والإعلام، تضلل الناس، وتمكن الطغاة منهم، مستفيدة من الوسائل الدعائية المتقدمة والإمكانات الكبيرة لتسخير أسماع الناس واهتمامهم. وما أكثر الشعارات البراقة التي يطلقها الحكام المنافقون لخداع الناس، وبالخصوص في المناسبات السياسية والاجتماعية العامة، ولكنك تطلع على الخواء والسراب عندما تواجه الواقع!.

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ والخشب هي الأغصان اليابسة التي لا ينتظر منها نماءً وثمراً، ولا ينفعها تعديل أحد، بلى؛ إنما تنفع لو تحولت سقفا أو باباً أو وقوداً أو أي شيء يستفيد منه الإنسان في حياته، ولأن القرآن شبه المنافقين بالخشب قال عنها: ﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ لينفي أدنى دور إيجابي لهم في المجتمع الإسلامي.

٣- الهزيمة النفسية أمام الانتقاد، لأن المنافقين لا يستطيعون مواجهة الحقيقة الواقعية، وموقف القيادة والمجتمع من شخصيتهم الأخرى، كما إن دورهم الخبيث يعتمد كليًّا على مظهرهم الخادع، ولو أنهم افتضحوا لفشلوا في الوصول إلى مآربهم ولنبذهم الناس. وقد أكد

العلم الجنائي وجود هذه الصفة في كل مجرم، بل اعتبرها المحققون وعلماء النفس مرتكزاً في معرفة المجرمين، وأسسوا عليها منهجا في التحقيق الجنائي الحديث. ومضى القول: (كاد المريب أن يقول خذوني).

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ إنهم يعلمون حقيقة أنفسهم وأعمالهم السيئة، لذلك تراهم يهبون للدفاع عن أنفسهم أمام أدنى اتهام أو انتقاد بصورة ملفتة (كما يدافع المجرم عن نفسه في المحكمة) بغض النظر إن كان الانتقاد ضدهم أو ضد غيرهم أو بصورة عامة. ومن طرائف ما جاء في قضاء أمير المؤمنين عليه السلام أنه جيء له بعدة أشخاص مشكوك في قيامهم بجريمة ما، فأمر بأن تعمل في الجدار فتحات بعددهم، وأمرهم أن يضعوا رؤوسهم فيها ولا يخرجونها، ثم صاح بصوت عال: اضرب عنقه، فاخرج المجرم رأسه، وافتضح أمره. وعبر القرآن عن هذه الصفة النفسية للمنافقين في موضع آخر بقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ...﴾ [التوبة: ٦٤].

ولكن المنهجية الإسلامية في تقييم الأشخاص لا تعتمد على المظاهر وحدها حتى تمر عليها أساليب المنافقين وحيلهم، فكيف وهي مدعومة بعلم الله المطلق وتوفيقه الدائم لأوليائه والمؤمنين به؟ لذا لا يعبأ القرآن بشهادتهم عند الرسول وأيمانهم المغلظة، ولا بأجسامهم وأقوالهم، إنما ينظر إلى حقيقتهم حيث الأعمال السيئة المعادية للأمة وللقيادة الربانية، وحيث النوايا الخبيثة المبيتة ضد الإسلام، وكلها صورة للعدو اللدود، وكذلك وصفهم الله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾.

ونستلهم من هذه الكلمة بصيرتين:

الأولى: أن تظاهر المنافقين بالمحبة والود وممارستهم للطقوس والشعائر قد يفقد المؤمنين الجرأة على اتخاذهم عدوا، أو يشككهم في كونهم من الأعداء، وقد أشار القرآن إلى صورة من الاختلاف في الموقف تجاههم، قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨]، فتأتي الآية تبصرنا بأنهم هم العدو لرفع التردد بالقول الفصل.

الثانية: تحدد الآية الموقف العملي تجاه المنافقين، ففي البداية ينبغي أن نؤمن بعداوتهم ثم نأخذ الحيطة والحذر منهم، وبالذات القائد الذي تتوجه إليه ضغوطهم المختلفة الهادفة إيقاعه في فخاخهم، فإن من الخطأ الفظيع أن تتعامل قيادة المسلمين سياسية أو دينية بصورة ساذجة أو مائعة مع هذا الخط الذي همه -كما تقدمت الإشارة- الالتفاف حولها وتغيير آرائها ومسارها

بالاتجاه الذي يخدم مصالحه.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ وهذه الخاتمة من الآية تعطي شرعية للعداء معهم بل ومقاتلتهم، فما دام الله يقاتلهم يجب على المؤمنين الذين هم جنده أن يقاتلوهم أيضا. ومن قاتله الله فهو مهزوم لا ريب، أما الإفك فهو الكذب والضلال، ويؤفكون هنا يصرفون عن الحق إلى الباطل، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨-٩]، فإلى أين وأي حد يصرف المنافقون عن الحق؟! وكأن في الآية إشارة إلى وجهة تضللهم كالشيطان والزعامات المنحرفة التي يسيرون تحت لوائها، ويصنعون من أنفسهم عملاء أجراء لمصالحها. وهذه نتيجة طبيعية، لأن المنافق لا يفقه شيئا بتعطيل ضميره وعقله، فليس ثمة مقياس يميز به الحق عن الباطل، ولا حد يقف عنده سوى المصالح والأهواء التي لا تعرف لها نهاية. وقال المفسرون في معنى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أنه لعنة أي أبعدهم الله.

[٥-٦] ويبين القرآن صورة أخرى من حالات المنافقين ومواقفهم فيما يتصل بالقيادة الرسالية، وهي رفضهم الاعتراف بشرعيتها، وبالتالي الصد عنها والاستكبار عليها. إنهم مستعدون للتظاهر بكثير من الشعائر الدينية كالصلاة والصيام والحج لأنها لا تكلفهم مسؤولية كبيرة، أما أن يخضعوا للقيادة الشرعية فذلك أمر لا تطيقه نفوسهم. ومن هذا المنطلق أصبحت الطاعة للقيادة الرسالية مقياس الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ٦٥].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ باعتباره (كما القيادات التي تمثل امتداداً له) بابا من أبواب رحمة الله.

﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾ ماذا تعني تلوية الرأس؟ إما باعتبارها علامة للرفض، وإما لأنه العضو الذي حدد به الإنسان وجهته، فهم يصرفون وجهتهم خلاف تلك الدعوة.

وبوضع هذه الآية إلى جنب الآية الأولى التي تحدثنا عن تكلفهم في إظهار الإيمان بالرسول القائد نهتدي إلى أنهم يعاشرون القيادة بوجهين:

الأول: وجه الإيمان والصلاح الذي يظهرونه في حضرة الرسول ﷺ.

الثاني: وجه الصد والتكبر الذي يعيشون به في المجتمع ضدها.

أو أن تكون الآية الأولى تحكي ظاهرهم، والرابعة تحكي واقعهم وحقيقتهم ثم إن صدق

الإيمان بالقيادة لا يثبت بالقول: ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، إنها يثبت بالعمل، وليس في واقع المنافقين ذرة من الشهادة بذلك، بل على العكس تجدهم يحاربون الرسول. وبالمقارنة نجد في الآيتين لفتة لطيفة، فهناك قال الله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، وهنا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ﴾ أي أنهم حين التظاهر بالشهادة والإيمان هم الذين يتعنون ويجيئون للقيادة، ولكنهم عند العمل بها يستنكفون عن المجيء رغم دعوة الآخرين وإلحاحهم، فالشهادة كما يراها الإسلام ليست مجرد التلفظ والقول، بل هي الشهادة للحقيقة بالقلب والقول والعمل، ومسيرة المنافقين تناقض ذلك كله.

ونستوحي من الآية أن المنافقين كانوا يتعاملون مع الرسول باعتباره قائداً سياسيًّا، يخشون صولته، ويطمعون في منائحه، وليس باعتباره إنسانا ربانيا يوصلهم إلى رب العزة والعظمة، ولذلك تراهم لا يقبلون حتى استغفاره لهم، بينما الاستغفار في مصلحتهم، ويهدف تخفيف ذنوبهم.

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ وهذا الموقف الجاحد تجاه الرسول (التمرد والتحدي) يميز المنافقين عن العصاة الذين لا يلبثون أن يعودوا إلى رشدهم ويستغفروا لدى القيادة. ولعل الصد والاستكبار عن الخضوع للرسول نابع من تشربهم بالقيم الدنيوية واتباعهم مقاييسها في تشخيص القائد الحق، فالمنافقون وأكثرهم من أهل المدينة ومن أصحاب المال والجاه كانوا يرون الأولى بالزعامة هو ابن بلدهم (وليس المهاجر من مكة إليهم) ويشرط أن يكون أكثرهم مالا وولدا، وليس تلك من صفة الرسول ﷺ فصدوا عنه واستكبروا على قيادته، وذلك لون من محاربة الله عز وجل ومحاربتهم الوحي مما يجعلهم في صف أعداء الله، وليس تنفع أعداء الله شفاعة أحد ولو كان حبيبه محمد ﷺ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

ونقرا في هذه الآية عدة أفكار تتصل بموقف الإسلام من قضية الشفاعة:

الأولى: أن السعي الذاتي هو الركيزة الأولى لتأثير الشفاعة في مسيرة الإنسان عمليا وفي مصيره عند الله، حيث إن الشفاعة تُقبل في من يكون أساس مسيرته سليما، فتشفع له صالحاته، ويقبل فيه استغفار المقربين، أما لو كان منافقا أو كافرا أو مشركا فلن يستغفر له المقربون، ولو فعلوا فإنما يفعلون ذلك بصورة ظاهرة لان المقربين (الأنبياء والأوصياء) يرضون بمرضاة الله ويسخطون لسخطه فلا يحبون المنافقين ولا يرغبون في نجاتهم إذا تبين لهم أنهم أعداء الله، كما أن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه قبل أن يتبين له أنه عدو لله فلما تبين له ذلك تبرأ منه. كما إن مجرد استغفار الآخرين لا يحيل المنافق مؤمنا إذا لم يغير هو ما بنفسه، ولا يغفر الله له إذا لم يستغفر

لنفسه. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

الثانية: أن الشفاعة في التحليل العميق هي أن حسنة كبيرة كحب الرسول وطاعته والعمل بما يقول تذهب بالسيئات التي لا تمس بجوهر الإيمان وأساسه.

الثالثة: أن الآية توضح الفاصل بين نظرية الفداء وشبيهاتها القائمة على الإيمان بتعدد الآلهة، وأن بعضها يفرض رأيه على البعض الآخر، والتي ترى بأن شفاعة الأولياء والملائكة تفرض على الله فرضا، وبين نظرية الإسلام التي ترى أنها مجرد دعاء من قبل المقربين، ولله أن يتقبله أو يرده من دون فرض أو حتم. والفارق المهم بين النظريتين أن الأولى تبرر للإنسان عدم تحمل المسؤولية اعتمادا على اختلاف الملأ الأعلى وتعدد إدارة الكون، بينما تؤكد الثانية ضرورة تحملها إذ ليس مؤكدا أن يقبل الله شفاعة الآخرين واستغفارهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ والآية هذه تختصر المعادلة كالتالي: إن الله لا يوفق المنافقين لأنهم فاسقون، وبالتالي لا يتم التحول الايجابي في حياتهم فلا يستغفر لهم الرسول، وإذا لم يستغفر لهم لن يغفر الله لهم. وبالتدبر في خاتمة الآية قد يتضح لنا أن مغفرة الله تتجلى في هدايته للإنسان إلى الحق، وأن الفسق هو سبب النفاق، وأن من تجاوز حدود الله يقع في تيه النفاق والضلال.

[٧] ومن اظهر مصاديق صد المنافقين واستكبارهم وفسقهم هو حربهم الاقتصادية التي يشنونها على الرسالة والرسول، حيث لا يكتفون بعدم إنفاقهم إنما يوجهون الآخرين إلى عدم الإنفاق، بهدف إضعاف المسيرة الرسالية من خلال تفرق الناس عن القيادة، وتعطيل مشاريعها نتيجة فقدان العامل الاقتصادي الذي هو جزء من القوانين الاجتماعية.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ وهذه سياسة أعداء الإسلام عبر التاريخ، ولكنها لا تحقق لهم ما يريدون لأسباب واقعية، وأهمها:

أولاً: أن الذين حول القيادة الرسالية من المؤمنين الصادقين لم يكن الدافع لهم نحو الانتماء إلى خطها والطاعة لها هو الاقتصاد، كما يتصور المنافقون المنهزمون أمام المادة، إنما تبصروا طريق الحق، وإنهم لعلى استعداد للبقاء معها حتى الشهادة بالسيف أو الموت جوعا، فهذا أحدهم عبد الله بن حذافة: «وقد أسرته الروم وعرضت عليه التنصر فأبى، فأغلي الزيت في إناء كبير، وأتي برجل من أسرى المسلمين فعرض عليه التنصر فأبى فألقي في الزيت المغلي، فإذا عظامه تلوح، ثم عرض على عبد الله هذا النصرانية فأبى، فأمر به أن يلقى في الزيت المغلي،

فبكى، فقالوا: جزع، قد بكى! قال كبيرهم: ردوه، فقال: لا ترى أني بكيت جزعا مما تريد أن تصنع بي ولكني بكيت حيث ليس لي إلا نفس واحدة يفعل بي هذا في الله، كنت أحب أن يكون لي من الأنفس عدد كل شعرة في ثم تسلط علي فتفعل بي هذا»[١].

ثانياً: أن الموارد الاقتصادية ليست حكرا على المنافقين حتى يكون منعهم أو حصارهم سببا في شلِّ الحركة الرسالية، إنما الموارد وأسباب الغنى موجودة في الطبيعة ولها سبلها ومناهجها التي يمكن أن يأخذ بها المؤمنون فيستقلوا عن الآخرين. وإن الله الذي أغنى أولئك لقادر على إغنائهم لو توكلوا عليه وفتحوا خزائنه بالتسليم له والعمل بمناهجه.

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذه الآية وآيات أخرى في القرآن تشير إلى أن المنافقين الذين ينتمون في الأغلب إلى الطبقة المترفة يحاولون بما لديهم من قوة اقتصادية أن يؤثروا على مسيرة الحركات الرسالية والمجتمع وتحريف مسيرتهما، وحيث يدعمون بعض المشاريع فلكي يجدوا من ورائها بعض المكاسب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وإلا فإنهم غير مستعدين للإنفاق المخلص لوجه الله فقط! ولذلك تراهم يتوقفون عن الدعم ويرفعون سلاح الاقتصاد في وجه القيادة بمجرد أن تكون مصالحهم وشهواتهم غير مؤمنة من قبلها. وتكفي هذه الآية تحذيرا للقيادة الرسالية من مكر المترفين وخططهم السيئة عند التعامل معهم. ولعلنا نستفيد من هذا السياق تحريضا لطيفا للمؤمنين نحو وجوب الاستقلال والاكتفاء الذاتي في الاقتصاد باعتباره ركيزة الاستقلال السياسي والعزة، وذلك كله كامن في التوكل على الله والاعتماد من بعده على سواعد الرجال وألبابهم التي يفتح الله بها خزائنه عليهم، حيث إن الحرب الاقتصادية واحدة من أساليب صراع المستكبرين مع الرسالة وعلى حملة الرسالة أن يستعدوا لهذه الحرب منذ البداية بالاجتهاد في جمع المال، والتقشف في صرفه، والاكتفاء الذاتي في مختلف الحقول.

وقد استطاع الرسول ﷺ أن يبني حركة مستقلة لا يضرها المحاصرة الاقتصادية شيئا. وهذه الحقائق كلها غائبة عن أذهان المنافقين لكونهم لا يعلمون إلا ظاهر الحياة المادية، أما عمقها فهم بعيدون عن فهمه، لأنه يحتاج إلى البصيرة النافذة.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ولذا تجدهم يزعمون أن المؤمنين سوف تتوقف حركتهم أو يموتون جوعا إذا لم ينفقوا عليهم من أموالهم، بينما تراهم قد حصلوا عليها عبر قوانين موضوعية يمكن للمؤمنين أن يتبعوها فيحصلون على المال أيضا.

[٨] كما إنهم يزعمون بأن عزة المؤمنين في المجتمع مستمدة منهم، وبالتالي فهي رهن

(١) سفينة بحار الأنوار: ج٢، ص١٢٨، تاريخ دمشق لابن عساكر: ج٢٧، ص٣٥٩.

إرادتهم، بينما الحقيقة أن عزة المؤمنين هي من عزة الله وبالقيم الحضارية الجديدة التي يؤمنون بها ويلتزمون بحدودها ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾.

وتأكيدهم على الرجوع إلى المدينة حيث يجدون القدرة هناك لأسباب ثلاثة:

١ - لأنهم اعتمدوا على القيم الوطنية وحيث أن الرسول والمهاجرين من مكة فهم ليسوا (حسب زعم هؤلاء المنافقين) وطنيين، فتراهم يقومون بإثارة الحس الوطني لدى أهل المدينة واعتماده مقياسا في العزة والذلة، وبالتالي إخراج الرسول وأصحابه باعتبارهم أجانب.

٢- لأنهم حينذاك كانوا خارج المدينة وفي غزوة بني المصطلق، بالذات وإن الجيش يمثله خلص أصحاب الرسول ﷺ المنضبطون في تنفيذ أوامره، وبالتالي فأي محاولة هناك لمواجهة القيادة ستؤدي إلى الفشل حيث لن يجدوا لهم أنصارا، أما في المدينة حيث المجتمع العام فإنهم يمكنهم تضليل البعض وخداعه.

٣- كما تشير الآية إلى أن المنافقين قد بنوا لهم قاعدة في المجتمع حيث أعطوا الرجوع إلى المدينة تلك الأهمية، لأنهم يتحركون داخلها بجبهة عريضة هي جبهة النفاق وأنصارها.

وقد غاب عن أذهانهم وعي ذلك التحول العظيم في القيم الذي أحدثه الإسلام في المدينة، وكيف تسامى أهلها فوق قيمة الوطن والعشيرة والمال والسن وكل القيم الجاهلية الأخرى، واستعاضوا عنها بالإيمان والكفاءة والعلم، وهكذا أصبحوا لا يرون العزة إلا من خلالها، فكيف يستطيع المنافقون إذن أن يطبقوا خططهم ويصلوا إلى أهدافهم في مجتمع هذه أفراده؟

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وليست العزة بالمال فقط، فقد يكون تجمع المؤمنين فقيرا نسبيا ولكنه مجتمع مستقل متماسك فاعل ويعتمد من القيم ما يعطيه القدرة على التوسع والامتداد، ومجتمع المدنية المؤمن ليس مستعدا للدفاع عن العظام البالية، ولا عن الرجعية المهترئة بما تعينه من القيم الفاسدة.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقد تبدلت الشرعية في مجتمع المدينة فأصبح محور المجتمع المدني الوحي، فبينما كانت قائمة على قيمة القبيلة أصبحت الآن قائمة على القيم الربانية. أن الله قال كذا.. ونحن عباده فيجب أن نطيعه ونعمل بقوله. وقد تمثلت هذه الشرعية الجديدة في موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي حيث منع أباه (رأس المنافقين) من دخول المدينة فلم يدخلها إلا بشفاعة الرسول ﷺ له، وأعظم من ذلك أنه جاء النبي ﷺ فقال: «يا

رسول الله إن كنت عزمت على قتله فمرني أكون أنا الذي أحمل إليك رأسه فو الله لقد علمت الأوس والخزرج أني أبرهم ولدا بوالدي»[١]. وهذه صورة للتحول الحضاري الجديد، واستيلاء الشرعية الجديدة على الشرعية القديمة التي ليس فيها أقرب من علاقة الابن بأبيه.

ونتساءل: لماذا اختتمت الآية السابقة بأن المنافقين: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ بينما اختتمت هذه الآية بأنهم: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؟.

الإجابة هي: أن معرفة القوانين الاقتصادية، وأن المال يأتي نتيجة الجهود التي تستخرج خزائن الله في الأرض، أن معرفة ذلك بحاجة إلى الفقه وهو الفهم العميق، بينما لا تحتاج معرفة القوانين الاجتماعية، ومنها تبدل القيم عند الناس إلى ذلك الفهم، بل يستطيع أي إنسان أن يعلمها. وهكذا نفت الآية فقه المنافقين للقوانين الاقتصادية، ثم نفت الثانية علمهم (وهو أقل من الفقه) حتى من فهم التحولات الاجتماعية.

[٩] ولأن المنافقين يسعون لتعميق الروح المادية في المجتمع، وبالتالي تجييره في صالح حربهم الاقتصادية السياسية ضد الإسلام والقيادة الرسالية، نجد القرآن ينمي في ضمير الأمة القيم المعنوية التي تستلهم من الإيمان بالآخرة، لكي لا يقع في حبائل النفاق، ولكي يفشل خطط المنافقين ضد الإسلام. والدعوة التالية للمؤمنين في ظروف المحنة والحرب الاقتصادية تعني بصورة أكبر أغنياءهم فإنهم مسؤولون، والرسالة تواجه هذا اللون من التحدي أن ينهضوا بأعباء المسؤولية في دعم مسيرة القيادة والدولة والأمة الإسلامية بالمزيد من الإنفاق، ولا يمكن ذلك إلا إذا حلق الإنسان في سماء ذكر الله، وترفع عن شح النفس والتلهي بالأموال والأولاد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وهما زينة الحياة الدنيا وأجلى صورها، والمؤمن ينبغي أن يجعل ذكر الله محوره الذي يتحرك ضمنه دون أن يخرجه عنه شيء. والأموال هنا ليست الدراهم والدنانير والذهبان فقط، بل كل ما يملكه المجتمع من أرض وإمكانية ومصلحة اقتصادية وما أشبه، وهكذا الأولاد ليسوا الأبناء وحدهم، إنما المقصود هنا صلة الإنسان بالمادة وصلته بالآخرين والأموال والأولاد اظهر المصاديق للاثنين. ولعل الدعوة إلى عدم التلهي بالأموال تقابل سياسة المنافقين الاقتصادية ضد الرسالة والرسول (الآية: ٧)، بينما الدعوة إلى عدم التلهي بالأولاد تقابل سياستهم العنصرية والوطنية التي أرادوا الاعتماد عليها بعد الرجوع إلى المدينة (الآية: ٨).

ثم يحذر القرآن المؤمنين من عواقب السير في ركاب المال والأولاد فيقول: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وليس الإسلام هو الذي يخسر، وخسارتهم بخسارة

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٧٠.

معطيات الإنفاق حيث الطهارة والتزكية، وبالمصير الوبيل في الآخرة حيث العذاب، والحسرة على التفريط في جنب الله. وهذه الآية تجتث جذور النفاق الذي يقوم على أساس المصالح المادية والعنصرية، إذ تتجلى بأبهى صورها في علاقة الإنسان بماله الشخصي، وتتجلى الثانية بأظهر مصاديقها في علاقته بولده.

[١٠] أما الطريق للتخلص من شح النفس فهو بالإنفاق، وهذا ما تذكر به الآيات وتثيره في أذهانهم، حيث تضع المؤمنين أمام حقيقة الدنيا أنها فرصة قصيرة حاسمة، كما تضعهم في سباق خطر مع الأجل الذي يطوي صفحة الحياة ليلاقي الإنسان بعدئذ مصيره الأبدي فإما مع الصالحين في الجنة وإما مع أصحاب النار في العذاب.

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ وحينئذ يواجه مصيره لوحده، ويقدم على الله فردا لا مال ولا أولاد ولا معين. وإذ يذكر القرآن الإنسان بمسؤوليته الفردية فلكي يفصله عن المؤثرات السلبية المادية والاجتماعية التي تمنعه من الإنفاق والاستجابة لدعوة الله.. ولماذا يبخل الإنسان بماله على ربه الذي رزقه إياه وهو منتقل عنه لا محالة بالموت؟!.

﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ إنه حينئذ لا يطلب من الله التأخير لألف سنة، إنما يريد أجلا قريبا كاللحظة لينقذ نفسه من الحسرة والعذاب، وهذا يدل فيما يدل على أن باستطاعة الإنسان أن يتغير جذريا بقرار واحد وخلال لحظة، فينقل نفسه من جبهة إلى أخرى، ومن مصير إلى مصير. ونهتدي من الآية الكريمة إلى أن الصدقة (والإنفاق) معراج المؤمن إلى الصالحات والصالحين، وهنا نجد إيحاء لقول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

[١١] وكما يكشف الوحي للإنسان واقعه المستقبلي وهو يعالج سكرات الموت، يؤكد له أن الدنيا هي الفرصة الوحيدة، وأن الموت هو نهايتها.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ وهذه حقيقة حاسمة لو تفكر فيها البشر لاهتدوا إلى الحق حيث الانصياع لأوامر الله، وإن عدم استجابة الله لتمنيات الإنسان بالتأخير تنطوي على حكمة هامة، فلو كان يستجيب لكان الناس يستبدلون السعي بالمنى، والعمل بالتسويف. كيف والله يعلم بأنهم لو ردوا لعادوا لما كانوا عليه من الأعمال؟!.

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فعلى افتراض أن الله يؤخر أحدا فإنه يعلم بأنه سوف يعمل ما كان يعمله قبل الموت.

وفي ختام السورة ننقل القصة التاريخية التي تناقلها المفسرون في تفسير هذه السورة

وسبب نزولها، قال صاحب المجمع:

«نزلت الآيات في عبد الله بن أُبي المنافق وأصحابه، وذلك أن رسول الله ﷺ بلغه أن بني المصطلق يجمعون لحربه وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية زوج النبي ﷺ فلما سمع بهم رسول الله ﷺ خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق وقتل منهم من قتل ونفل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فبينا الناس على ذلك الماء إذ وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن سعيد يقود له فرسه فازدحم جهجاه وسنان الجهني من بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني يا معشر الأنصار وصرخ الغفاري يا معشر المهاجرين فأعان الغفاري رجل من المهاجرين يقال له جعال وكان فقيرا فقال عبد الله بن أبي لجعال وإنك لهناك فقال وما يمنعني أن أفعل ذلك واشتد لسان جعال على عبد الله فقال عبد الله والذي يحلف به لأذرنك ويهمك غير هذا وغضب ابن أُبي وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم حديث السن فقال ابن أُبي قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، أما والله ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ يعني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ.

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولأوشكوا أن يتحولوا من بلادكم ويلحقوا بعشائرهم ومواليهم فقال زيد بن أرقم أنت والله الذليل القليل المبغض في قومك ومحمد في عز من الرحمن ومودة من المسلمين والله لا أحبك بعد كلامك هذا فقال عبد الله اسكت فإنما كنت ألعب فمشى زيد بن أرقم إلى رسول الله ﷺ وذلك بعد فراغه من الغزو فأخبره الخبر فأمر رسول الله ﷺ بالرحيل وأرسل إلى عبد الله فأتاه فقال ما هذا الذي بلغني عنك فقال عبد الله والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك قط وإن زيدا لكاذب وقال من حضر من الأنصار يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه كلام غلام من غلمان الأنصار عسى أن يكون هذا الغلام وهم في حديثه فعذره ﷺ وفشت الملامة من الأنصار لزيد ولما استقل رسول الله فسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة ثم قال يا رسول الله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها فقال له رسول الله ﷺ: أو ما بلغك ما قال صاحبكم زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل. فقال أسيد فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت هو والله الذليل وأنت العزيز ثم قال يا رسول الله ارفق به فو الله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه وإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أمر أبيه فأتى رسول الله ﷺ فقال يا

رسول الله إنه قد بلغني أنك تريد قتل أبي فإن كنت لا بد فاعلا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه فو الله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالديه مني وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي أن يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار فقال ﷺ بل ترفق به وتحسن صحبته ما بقي معنا. قالوا وسار رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يكن إلا أن وجدوا مس الأرض وقعوا نياما وإنما فعل ذلك ليشتغل الناس عن الحديث الذي خرج من ابن أبي ثم راح بالناس حتى نزل على ماء بالحجاز فويق البقيع يقال له بقعاء فهاجت ريح شديدة آذتهم وتخوفوها وضلت ناقة رسول الله وذلك ليلا فقال ﷺ مات اليوم منافق عظيم النفاق بالمدينة قيل من هو قال رفاعة فقال رجل من المنافقين كيف يزعم أنه يعلم الغيب ولا يعلم مكان ناقته أ لا يخبره الذي يأتيه بالوحي فأتاه جبرئيل فأخبره بقول المنافق وبمكان الناقة وأخبر رسول الله بذلك أصحابه وقال ما أزعم أني أعلم الغيب وما أعلمه ولكن الله تعالى أخبرني بقول المنافق وبمكان ناقتي هي في الشعب فإذا هي كما قال فجاءوا بها وآمن ذلك المنافق فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد في التابوت أحد بني قينقاع وكان من عظماء اليهود قد مات ذلك اليوم. قال زيد بن أرقم فلما وافى رسول الله ﷺ المدينة جلست في البيت لما بي من الهم والحياء فنزلت سورة المنافقين في تصديق زيد وتكذيب عبد الله ثم أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد فرفعه عن الرحل ثم قال يا غلام صدق فوك ووعت أذناك ووعى قلبك وقد أنزل الله فيما قلت قرآنا.

وكان عبد الله بن أبي بقرب المدينة فلما أراد أن يدخلها جاء ابنه عبد الله بن عبد الله حتى أناخ على مجامع طرق المدينة فقال ما لك ويلك قال والله لا تدخلها إلا بإذن رسول الله ﷺ ولتعلمن اليوم من الأعز ومن الأذل فشكا عبد الله ابنه إلى رسول الله ﷺ فأرسل إليه أن خل عنه يدخل فقال أما إذا جاء أمر رسول الله فنعم فدخل فلم يلبث إلا أياما قلائل حتى اشتكى ومات فلما نزلت هذه الآيات وبان كذب عبد الله قيل له إنه نزل فيك آي شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك فلوى رأسه ثم قال أمرتموني أن أؤمن فقد آمنت وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمد فنزل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ أي هلموا ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ أي أكثروا تحريكها استهزاء وقيل أمالوها إعراضا عن الحق ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ عن سبيل الحق ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ مظهرون أنه لا حاجة لهم إلى استغفاره ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي يتساوى الاستغفار لهم وعدمه ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لأنهم يبطنون الكفر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي لا يهدي القوم الخارجين عن الدين والإيمان إلى طريق الجنة. قال الحسن أخبره سبحانه أنهم

يموتون على الكفر فلم يستغفر لهم ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ من المؤمنين المحتاجين ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ أي يتفرقوا عنه ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما بينهما من الأرزاق والأموال والأعلاق فلو شاء لأغناهم ولكنه تعالى يفعل ما هو الأصلح لهم ويمتحنهم بالفقر ويتعبدهم بالصبر ليصبروا فيؤجروا وينالوا الثواب وكريم المآب ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك لجهلهم بوجوه الحكمة ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ من غزوة بني المصطلق ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ﴾ يعنون نفوسهم ﴿مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ يعنون رسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ ﴾ بإعلاء الله كلمته وإظهار دينه على الأديان ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بنصرته إياهم في الدنيا وإدخالهم الجنة في العقبى ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيظنون أن العزة لهم»[1].

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٣٧٥، بحار الأنوار: ج٢٠، ص٢٨٤.

سُورَةُ التَّغَابُن

* مدنية.

* عدد آياتها: ١٨.

* ترتيبها النزولي: ١١٠.

* ترتيبها في المصحف: ٦٤.

* نزلت بعد سورة الجمعة.

فضل السورة

قال ﷺ: «ومَنْ قَرَأَ سُورَةَ التَّغَابُنِ دُفِعَ عَنْهُ مَوْتُ الْفُجْأَةِ».

(مستدرك الوسائل: ج٦، ص٣٥٢)

***

قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ التَّغَابُنِ فِي فَرِيضَةٍ كَانَتْ شَفِيعَةً لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ شَاهِدَ عَدْلٍ عِنْدَ مَنْ يُجِيزُ شَهَادَتَهَا لَا يُفَارِقُهَا حَتَّى يَدْخلَ الْجَنَّةَ».

(بحار الأنوار: ج٧، ص٢٩٦)

الإطار العام

كيف نربح صفقة العمر؟

كيف يمكن أن نربح صفقة العمر ونأتي يوم التغابن بالفوز الكبير، ذلك اليوم الذي تُبلى الحقائق ويظهر مدى خسارة الإنسان ومدى ربحه؟.

قبل أن يبصرنا السياق بالجواب، يذكّرنا بجلال الله القدوس عن أي نقص وعجز، وأن كل شيء يسبح بحمده، لأن له الملك والحمد جميعاً.. (الآية: ١).

وإنما يكفر من كفر بعد إتمام الحجة عليه، فهو المسؤول عن ضلاله، وهو المجزي عن عمله، لأن الله قد خلق السماوات والأرض بالحق، والجزاء صورة من صور الحق.. وأكمل خلق الإنسان، فأعطاه ما يحتاجه لاختيار الحق وأكمل عليه الحجة، وإليه المصير للجزاء.. وهو عليم بما يسرون وما يعلنون، فأنى لهم الفرار من الجزاء؟ (الآيات: ٢-٤).

والجزاء حق واقع تاريخياً، أفلا نعتبر به؟ فكم ذاق الكفار الغابرون وبال أمرهم، لماذا؟ لأنهم قالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؟ فمن الذي خسر؟ هم أم الرسل الطاهرون؟ (الآيات: ٥-٦).

كانت تلك عاقبة أمرهم في الأولى، وفي الآخرة ينبؤهم الله بما عملوا، ويتم عليهم الحجة البالغة ثم يعذبهم، ويا ويلهم!!.

في ذلك اليوم يربح المؤمنون الجنة تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وإنه حقاً فوز عظيم، أما الكافرون المكذّبون فإنهم يخلدون في النار وبئس المصير. (الآيات: ٧-١٠).

وهكذا يبلغ السياق محور السورة، ويبين كيف يفوز عباد الله الصالحون في يوم التغابن، وذلك عبر بصائر تترى.

الأولى: الرضا بالقدر، والإيمان بأن كل مصيبة تصيب الإنسان فبإذن الله (الآية: ١١).

الثانية: الإيمان هدى القلب، وبه يعرف الإنسان سبيل النجاة عن المصائب وبه يتحداها.

الثالثة: الطاعة لله وللرسول، والتوكل عليه. (الآيات: ١٢-١٣).

الرابعة: الحذر من أقرب الناس إليه (وهم الأزواج والأولاد)، لأن فيهم من هو عدو له، ولكن الحذر لا يتحول عند المؤمن إلى عداء أو جفاء أو مواقف حدية. (الآية: ١٤).

الخامسة: اليقظة التامة من حب الأموال والأولاد والافتتان بهم. (الآية: ١٥).

السادسة: التقوى بكل استطاعته، (و الاجتهاد في الطاعة)، والاستماع إلى أوامر الشريعة ووعيها، والطاعة للقيادة الرشيدة، والإنفاق وتجاوز شح الذات. (الآية: ١٦).

إن هذا سبيل الفلاح.

وفي خاتمة السورة يأمرنا الله بأن نقرضه قرضاً حسناً (بالإنفاق أو الاستدانة)، لأنه يضاعف ذلك ويغفر لصاحبه والله شكور حليم، وإنه عالم الغيب والشهادة، وهو العزيز الحكيم. (الآيات: ١٧-١٨).

ذلك يوم التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ[1] وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠)﴾.

(١) وبال أمرهم: أي وخيم عاقبة كفرهم وثقل أمرهم بما نالهم العذاب.

هدى من الآيات:

لكي نؤمن بالآخرة إيمانا عميقا لا بد من المعرفة بالله أولا، لأنها الدين[١]، والأساس الصحيح الذي تُبنى عليه سائر البصائر والحكم والشرائع، لذلك نجد السياق القرآني وهو يمضي بنا في التذكرة بالبعث والجزاء (يوم الجمع والتغابن) يهدينا إلى الله وأسمائه الحسنى (الآيات: ١-٤)، فهو السبوح، الملك، المحمود، القادر، الخالق، البصير، المصور، إليه المصير، وهو بكل شيء عليم، ثم تذكرنا الآيات بالجزاء الذي لقيه الكافرون في التاريخ دليلاً على الجزاء الأكبر في الآخرة، وأن سبب كفرهم هو الاعتماد على المقاييس المادية في موقفهم من قيادة الرسل، وكفرهم بالبعث والحساب، مما يبرر لهم عدم تحملهم المسؤولية في الحياة، لذلك يؤكد القرآن حقيقة الآخرة وضرورة الإيمان بالله ورسوله والكتاب باعتباره السبيل إلى الصالحات والمستقبل الحسن في الآخرة، على العكس من الكفر الذي يقود الإنسان إلى بئس المصير في الدارين.

بينات من الآيات:

[١] تتصور الفلسفات البشرية -التي تتحدد بالجهل والعجز وضيق الأفق وشح النفس عند الإنسان- العالم الكبير وما فيه من اختلاف وتسابق ركاما من القوى المتناقضة والمتصارعة، وبالتالي حلبة لصراع الآلهة والشركاء المختلفين، كلا.. إنما العالم -في القرآن- ينضوي تحت راية العبودية لله.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هكذا يسبح جميع ما في السماوات والأرض لرب العزة، لأن كل شيء عارف باستحقاق ربه للتنزيه عن كل نقص وعيب، فهو وحده الكمال المطلق في ضمير الخلق وعقله. وفعل المضارعة من التسبيح يدل على الاستمرار في التسبيح، والسبب أن الله تجلى لكل شيء بقدر وعيه، وأعطاه حسب ما شاء من نوره، فَوَلِهَ كل شيء بربه وسبَّحه وقدَّسه بقدره.

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ وحده، وإنما يملك أحد شيئا بتمليكه إياه، ومع ذلك يبقى ملكه محدودا، وملك الله نافذ يسلبه متى شاء. وربنا ليس متصرفا في الأشياء وحسب بل يملكها ويملك شهودها وضميرها ومبدأها و مصيرها، يملكها دون أن تملك هي منه شيئا، بعكس البشر الذين لا يملكون شيئا إلا بقدر ما يمتلك منهم، لأنهم وإياه سواء في حد العبودية والضعف

(١) وفي الخبر: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ» كما في نهج البلاغة الخطبة الأولى.

والعجز. وحري بالمملوك أن يخضع لمالكه المطلق ويتوجه له بالتسبيح دون سواه. وإن هذه الصفة كما صفة القدرة وغيرهما لا تدعوه سبحانه كما الملوك إلى الظلم والقهر لمن تحت سلطانه، فكل أفعاله حميدة ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ مما ينزل عليهم من نعمه ويدفع عنهم من البلاء، فسبحان الذي لا يأخذ أهل الأرض بألوان العذاب. و من تجليات حمده قدرته، فهو ذو القدرة على كل ما يريد ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وهذه البصيرة (قدرة الله على كل شيء) هي التي ينبغي أن يتحسسها الإنسان، لأنها محور لكثير من الحقائق والعقائد التي منها الإيمان بالآخرة، فإن الذي لا يؤمن بقدرة الله الثابتة يصعب عليه التصديق بحقيقة البعث والجزاء. وهكذا تتصل هذه البصيرة بما يأتي من التذكرة بالبعث. و تذكير الإنسان بأن الوجود كله يسبح لله يزرع في نفسه الشعور بالشذوذ إذا ما كفر بربه وخالف رسالته، بل ويزرع في داخله الوازع الذي يدفعه للانتظام في المسيرة الحقة الواحدة حيث العبودية لله وحده والمعرفة به. كما تهدينا هذه التذكرة إلى حقيقة أخرى هامة وهي: أن الخليقة بكينونتها والسنن الحاكمة عليها تدعم المؤمن في مسيرته، لأنه يلتقي معها في المسيرة والهدف، وهذا ما يجعل اتّباع الحق سهلا ميسورا واتباع الباطل عسيرا في الدنيا والآخرة، وبهذا المضمون جاءت بعض الأخبار التي منها قول الإمام علي عليه السلام: «**وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ**»[1].

[٢] ويتساءل الإنسان: من أين أتيت؟ ومن الذي خلقني؟ والإجابة عن ذلك هي التي تحدد مبادئ الناس ومسيرتهم، فيهتدي البعض ويضل آخرون، والقرآن هنا يوجهنا إلى الإجابة الحق ليضعنا على الصراط المستقيم في الحياة. ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ و ليست الصدفة ولا الشركاء المزعومين من دونه. تلك الفلسفات التي تاهت بعقول الكثيرين ولا زالت حتى اليوم تضلها. وحيث إن الله هو الخالق فإنه أهل الملك والحمد والقدرة، ولكنك مع ذلك ترى بين الناس من يكفر به سبحانه بالرغم من تجليات أسمائه وآياته في الطبيعة وفي ضمير الإنسان وعقله ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾. وكما يؤكد هذا المقطع حرية الإنسان في اختيار مسيرته ومصيره فهو يبين مدى طغيان البشر الذين يكفرون بخالقهم بدل أن يشكروه على نعمة الخلق وسائر النعم. وتنسف الآية فلسفة الجبر التي تقول إن الكفر والإيمان أمر تكويني يحدده الله، فكما يخلق الأسود والأبيض كذلك يخلق المؤمن والكافر، كلا.. إن الخلق منه تعالى بينما الكفر والإيمان رهين اختيار الناس وإرادتهم ﴿فَمِنكُمْ.. وَمِنكُم﴾.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إذا فعمل الإنسان هو الذي يحدد مذهبه ومصيره عند الله

(١) بحار الأنوار: ج ٤١، ص ١١٦.

وليس لونه أو مجيئه من والدين كافرين أو مؤمنين ولا أي شيء آخر. وفي الآية تحذير من طرف خفي من أن حريتك أيها الإنسان ليست أبدية، وأن الله لم يخلق الناس ليتركهم سدى، أو أنه مغلولة يداه ومحجوب عن الخلق، إنما هو رقيب ومهيمن عليهم، وهكذا تنفي الآية التفويض كما تنفي الجبر لتثبت -بالتالي- أمرا وسطا بين الأمرين.

وكلمة أخيرة في هذه الآية هي: أن اختلاف الناس إلى مؤمن وكافر، ومظلوم وظالم، وقاتل ومقتول، تجعل البعث والجزاء ضرورة فطرية في ضوء الإيمان بالإله الملك الحميد الذي من مظاهر حمده العدل. وهذه من الأفكار الرئيسية في المبادئ الإسلامية.

[٣] ونجد آية هادية إلى الآخرة عند النظر إلى الحياة مفردة مفردة، فهي قائمة على أساس الحق بكل ما تعني هذه الكلمة من آفاق الواقعية والنظام السليم، وأهم تلك الآفاق بالنسبة للإنسان أن الحياة عرصة يجري الله فيها الحق ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، و الهدفية من الحق، كما أن العبثية من الباطل. وإن الإنسان حينما يلقي بنظره وفكره إلى خلق الكون يراه بكل أجزائه حتى الذرة قد خُلق بحكمة وهدف معين، كما أنه عندما يعود إلى نفسه من رحلة الآفاق يرى الحقيقة نفسها، فهو قد صُوِّر وخُلق كل عضو منه لغرض محدد، فالعين للإبصار، والأذن للسمع، والأنف للشم والتنفس وهكذا.. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فهل يعقل أن يكون الإنسان ككل بلا هدف؟! كلا.. بل له هدف معين هو أن يقوم بالحق، وهذا يقتضي أن يكون هناك جزاء ومصير. ولأن الدنيا تقصر أن تكون محلا للجزاء الأوفى فلا بد من دار ثانية يرجع فيها الناس إلى ربهم ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

[٤] وهو تعالى لا يقضي للناس بمصائرهم اعتباطا، إنما يجازي كل فرد وكل أمة الجزاء الأوفى القائم على علمه النافذ في كل دقائق الأمور ولطائفها حتى النوايا المنطوية عليها الصدور، ولا يشغله علم عن علم، ولا سمع عن سمع، بل يعلم كل شيء في آن واحد. ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ خيراً أو شراً. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وتأكيد الله على علمه المحيط بحياة الإنسان يتصل بمنهج الإسلام التربوي القائم على أساس زرع الوازع الديني في نفوس المؤمنين، فإن المتحسس لرقابة الله عليه لن يقتحم المحرمات والمعاصي، ولن يتخلف في أداء الواجبات.. وهذه المنهجية ذاتها هي التي تضع نهاية للخداع الذاتي (النفاق)، حيث تضع الإنسان أمام يقين بعلم الله بذات صدره، وأن جزاءه للناس لا يعتمد على أعمالهم وأقوالهم الظاهرة فحسب إنما يعتمد على ما في القلوب من النوايا والخلفيات أيضا.

[٥] ويحثنا القرآن إلى التفكر في واحدة من الآيات الكاشفة لحقيقة كون المصائر بيد الله،

ولحقيقة البعث والجزاء في الآخرة، وهي تاريخ الأمم والأقوام الذين كفروا بالحق فاستأصلهم الله بألوان من العذاب. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ في الدنيا، والوبال هو السوء، وهنا بمعنى العاقبة السيئة، وما دام الإنسان مسؤولا عن أفعاله في الدنيا وهي دار امتحان فكيف لا يكون مسؤولا عنها في الآخرة؟! وعموما: فإننا سوف نواجهه إن خالفنا عاجلا أم آجلا في الدنيا أو في الآخرة، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ينتظرهم في الآخرة. ووصف الله للعذاب بأنه ﴿أَلِيمٌ﴾ ينسف بعض الفلسفات التي حاولت تبرير الذنوب للناس بزعمها أن الإنسان يوم القيامة لا يشعر بحرارة النار، ومثلوا لذلك بالقول: إن هناك بعض الحشرات تعيش في النار ولا تتأثر بها! وهو زعم لا دليل عليه.

[٦] أما السبب الذي انتهى بأولئك إلى عذاب الدارين فهو تكبرهم على الرسل، وكفرهم بهم، وتوليهم عنهم إلى غيرهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي الآيات الواضحة التي لا غموض فيها. إذن كانت الحجة قائمة وبالغة مما يجعل العقلاء يخضعون لها، ولكن الكفار لم يتبعوا العقل، إنما اتبعوا الأهواء. لذلك لم يسلّموا لقيادة الرسل.

﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ إنهم لم يجدوا ثغرة في رسالات الله لكي يعيبوها، ولا نقصا في أخلاق الرسل وسلوكياتهم، ولكنهم مع ذلك لم يكونوا مستعدين للخضوع لقيادة واحد منهم، ولا لتحمل المسؤولية بأية صورة، لذلك صاروا يبحثون عن تبرير يتخلصون به من المسؤولية، فكان قولهم: إن الرسل بشر لا يصح الخضوع لهم، وهذا ما يتشبث به الكفار عبر التاريخ.. فلماذا إذن يبعث الله الرسل من البشر أنفسهم؟ والجواب: لأمرين أساسيين:

الأول: أن الكفار أرادوا من ذلك تبرير انحرافهم وكفرهم، فلو أن الله بعث ملائكة أو جنًّا لبحثوا لهم عن تبرير آخر، ولو كان يهمهم الحق لاتبعوا الرسل الذين جاؤوهم بالبينات.

الثاني: أن الهدف من بعث الرسل هو تزكية الإنسان وتطهره من أمور النزعات السلبية التي فيه كالكبر، والسمو به إلى آفاق العبودية والتسليم للقيم والحق، وهذا يقتضي أن يكون الرسل من البشر أنفسهم حيث إن التسليم لهم أبلغ أثرا في امتحان البشر، فهل تخلصوا من نزعة الكبر، وتعالوا إلى سماء التواضع لله؟ علما بأن الصراع على السلطة أعظم من أي صراع آخر، وشهوة الرئاسة أشد من أية شهوة أخرى. وقد جاء الرسل ليحكموا بين الناس بالعدل، وكان الطغاة يحكمونهم بالجور. وترى كيف يتنازل الطغاة عن سلطانهم ويسلّموا لأمرهم ولأمر من ينوب عنهم من أوصيائهم وأوليائهم؟! إنه حقًّا ابتلاء عظيم للطغاة ومن أيدهم واتبعهم، وإنها لفتنة عمياء سقطت فيها أكثرية النفوس الضعيفة. ونجد صورة لها في أمر الله إبليس بالسجود لآدم وليس لأعظم ملائكته مما أثار رفضه وتمرده، مما يؤكد بأن ظاهر القرآن

الشريعة وباطنه الولاية، حيث إن خضوع الإنسان لبشر مثله باعتباره وليًّا عليه من عند الله أمر صعب مستصعب، وهكذا رفض الكفار ذلك.

﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ﴾ كفروا بالرسول والرسالة ولم يشكروا هاتين النعمتين، وحيث لا يمكن للإنسان أن يعيش في الفراغ فإنهم حولوا وجهتهم إلى القيم الفاسدة والقيادات المنحرفة (الضلال)، ولعل التولي هنا بهذا المفهوم، أي تولوا إلى غير الله بمعنى ولاية غير الله، كما جاء في بعض تفاسير الآية الكريمة: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]، وقد يكون الكفر هو الموقف النفسي والمبدئي، في حين أن التولي هو الموقف العملي السياسي.

﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ﴾ أي أنه تعالى كان يريد أن يظهر دينه ورسوله بهم فلما كفروا استغنى وأظهر غناه عنهم فنصر دينه بغيرهم من الناس والملائكة، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. وهكذا يكون معنى الاستغناء فعل ما يُظهر الغنى، وذلك على ضوء معرفتنا بربنا وأنه لا يصدق عليه ما يصدق علينا من التحول والتبدل سبحانه، فلم يكن لربنا حاجة فيهم ولكن أراد أن يتفضل عليهم بنصر دينه عبرهم فرفضوا، حيث إن من نعم الله على عباده أن يجعلهم وسائل لنشر دينه ونصر رسله فيطلب منهم الدعوة أو الجهاد أو القرض والإنفاق وما أشبه.. لا لحاجة منه إليهم إنما ليتلطف بهم وينعم عليهم بفضله!.

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ بذاته، واستغناء الله عن أحد يعني قطع حبل رحمته عنه، وهذا سبب هلاك الأقوام التي كفرت من قبل، لأنه إنما يستقرضهم ويستنفقهم ويدعوهم للإيمان لكي يرحمهم، ولعل تأكيد الله على غناه واستغنائه يأتي لعلاج عقبة نفسية طالما منعت ولا زالت تمنع الكثير من الإيمان بالرسالة والتسليم للرسول، وهي عقبة الإحساس بالغنى عن الحق من جهة، وحاجة الله ورسوله إليهم كما قال بعضهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]. من جهة أخرى ﴿حَمِيدٌ﴾، وقد أضاف تعالى هذه الصفة للغنى لأنه ليس كل غني حميد، فقد يطغيه الغنى، أو تبطره النعم.

[٧] ثم يبين السياق موقف الكفار الأساسي الذي انشطر عنه الاستكبار والكفر والتولي، وهو عدم إيمانهم بالآخرة، وطبيعي أن من يكفر بالجزاء لا يبالي بتحمل المسؤولية ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ﴾ للجزاء بعد الموت، والزعم هو مجرد الادعاء الذي لا يقين للإنسان به، وحيث إن الكفار لم يجدوا دليلا ينفي الآخرة باعتبارها حقيقة واقعية فطرية فإنهم لجؤوا إلى تأكيد زعمهم بكلمة ﴿لَّن﴾ تبريرا لكفرهم بالحقائق، ولكن القرآن يكذب زعمهم بالتأكيد على

البعث والحساب ومن ثم على الجزاء إذ يقول تعالى يخاطب رسوله ﷺ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ و في هذه الآية تأكيدات عديدة وذلك في مواجهة زعمهم الباطل، فالتأكيد اللفظي يواجه بتأكيدات في الكلام أقوى منه. وأمره تعالى الرسول ومن خلال ذلك كل مؤمن يواجه شبهات الكفار ﴿قُلْ﴾ لا يعني مجرد الدعوة للقول بل هو دعوة لاتخاذ موقف مضاد، إذ إن القول هو ما يحكي إيمان الإنسان، والمؤمن مكلف أن يحكي إيمانه بالآخرة موقفا صريحا يتحدى موقف الاستهزاء والإنكار. ثم إنهم نفوا البعث في حين نجد السياق يؤكده ويضيف بالتأكيد على الجزاء لأنه محور القضية، فهم زعموا أن لا بعث لكي يتحللوا من المسؤولية، في حين أن القرآن أكد أن إنكارهم البعث لا يخفف عنهم من العذاب شيئا ولا يهوّن لهم من المسؤولية أمرا.

وفي خاتمة الآية إشارة إلى أهم عقبة نفسية عند الكفار أمام إيمانهم بالآخرة ونسفها ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأنه تعالى قدير، فهو ليس كما نحن البشر عاجزا أو محدود القدرة، بل هو صاحب المشيئة التامة فلا شيء يمتنع عنه أو يصعب عليه. وقد نتلمس في الآية إشارة إلى أن الكفار زعموا لله مجموعة من الصفات البشرية التي تجعله عاجزا عن بعث الناس بعد الموت في فكرهم، وذلك امتداد لتصوراتهم ومقاييسهم البشرية التي دعتهم للكفر والتولي عن بينات الله ورسله.

[٨] ولكي يتجنب الناس وبال الأمر في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة، ويفوزوا الفوز العظيم، يرسم القرآن المعالم الأساسية لطريق النجاة والفوز. إنه في الإيمان بالله ورسوله والنور المنزل من عنده ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الإيمان بالله هو الأصل ولكنه لا يكتمل إلا بالتسليم لرسوله حتى تتحول الرسالة الإلهية إلى واقع حضاري بالانتظام تحت راية القيادة الرسالية، ولا بد أن تصير واقعا تفصيليًا يضع لمساته على جوانب حياته ومفرداتها المختلفة، وبعبارة أخرى: إن الإيمان بالله والرسول ليس عقيدة مجردة في القلب، ولا مظاهر وطقوس فقط، إنما هو منهج حياة يجب على الإنسان (فردا وأمة) أن يلتزم به.

﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ و القرآن نور لأنه يخرج الإنسان من ظلمات الجهل والكفر، ويثير دفائن عقله، وينمي بواعث الخير في وجدانه، ويرسم له مناهج الحياة. وأي نور أعظم من حبل الله وكتابه الذي يوصل البشرية بالله ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]؟! و لقد مضى القول في سورة النور وفي سورة الصف عن أن القيادة الرسالية هي الأخرى مظهر وتجلٍّ لنور الله، لأنها صورة ناطقة لكتاب الله ومثل أعلى لرسالاته، وأن اتباعها ينير للإنسان دروب الحياة الفرعية المتداخلة، ومن هنا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام: «لَنُورُ الْإِمَامِ فِي

قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْوَرُ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ بِالنَّهَارِ»(١).

والإسلام الأصيل لا يرى الإيمان مجرد الاعتقاد (بالله وبالرسول وبالنور)، إنما الإيمان تسليم لله، واتباع للرسول، وتطبيق للكتاب، وبعبارة أخرى: الإيمان هو العمل المستمر والمتقن والمخلص الذي يستمد جذوره من اليقين التام بهيمنة الله عز وجل، وهذا ما نفهمه من النصوص الدينية ومن قوله سبحانه في هذه الآية ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ فالمؤمن يقرأ في هذه الخاتمة أن عليه الاستمرار في الإيمان والعمل به، وأن يخلص فيه لوجهه تعالى، بل ويتقن أداءه، لأنه في حضرة خالقه الذي لا يمكنه خداعه أو التدليس عليه، فهو الخبير بأعمال الإنسان بأشمل وألطف مما عند الإنسان نفسه.

وكلمة أخيرة: كما أن الرسالة نور وأن الرسول نور فإن من يحمل رسالة الرسول اليوم ويكون امتدادا لقيادته الربانية ونائبا عن خلفائه الأمناء عليهم السلام فإنه هو الآخر نور. أوليس داعيا إلى الله؟ أوليس يحمل رسالات ربه إلى العباد؟ كذلك كان علماء أمة محمد صلى الله عليه وآله كأنبياء بني إسرائيل. أوليسوا هم خلفاء الرسول؟ وكذلك نقرأ في حديث النبي يعظ سلمان المحمدي: «إِنَّ أَكْرَمَ الْعِبَادِ إِلَى اللهِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ الْعُلَمَاءُ ثُمَّ حَمَلَةُ الْقُرْآنِ، يَخْرُجُونَ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَخْرُجُ الْأَنْبِيَاءُ، وَيُحْشَرُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ، وَيَمُرُّونَ عَلَى الصِّرَاطِ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ وَيَأْخُذُونَ ثَوَابَ الْأَنْبِيَاءِ فَطُوبَى لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ مِمَّا لَهُمْ عِنْدَ اللهِ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالشَّرَفِ»(٢).

[٩] وتأكيد الله على ضرورة الإيمان به وبرسوله وبنوره المنزل باعتبار ذلك هو طريق النجاة يوم القيامة ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ أي يجمع أوصالكم التي تفرقت بعد الموت ويجمعكم إلى بعضكم مؤمنين وكافرين، وكذلك يجمع الناس مع الرسل ليشهدوا عليهم. وسميت القيامة بيوم الجمع وفي مواضع أخرى بيوم الحشر لأنها اليوم الذي تجتمع فيه البشرية كلها من آدم حتى آخر مولود آدمي.

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ ماذا يعني التغابن، ولماذا سمي يوم القيامة بيوم التغابن؟.

الجواب: إن الغبن في البيع أو الشراء هو ظهور الخديعة والغلبة، غبن فلانا نقصه في الثمن وغيره، فهو غابن وذلك مغبون، والتغابن من التفاعل أي أن كل فرد أو طرف يسعى لإيقاع الغبن بالآخر. وسميت الآخرة بذلك لأمور أهمها:

١ - أن لكل إنسان خلقه الله منزلين في الآخرة، أحدهما في الجنة والآخر في النار، فإذا

(١) الكافي: ج١، ص١٩٤، تفسير القمي: ج٢ ص٣٧١.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٤، ص٢٤٤.

أفلح أن يكون أهلا للجنة ملك قصوره فيها وورث أهل النار منزله فيها، كما يرث منازل أهل النار التي كانت لهم في الجنة، وذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١]، ويومئذ يظهر الغبن لدى أهل النار بخسرانهم الجنة ووقوعهم في الخسارة العظمى بدخول جهنم، ولأن المؤمنين يرثون منازلهم في الجنة فكأنهم أوقعوا بهم الغبن.

٢- إن المؤمنين والكافرين في صراع وتحدٍّ دائمين، وكل فريق يحاول إيقاع الخسارة بالطرف الآخر عبر الانتصار عليه أو تحطيمه، وحيث إن الدنيا دار الابتلاء لكلا الفريقين فهي للكافرين على المؤمنين تارة، وتارة للمؤمنين على الكافرين، والغبن فيها نسبيّ محدود، أما في الآخرة وهي دار الخلود فإنها المصداق الأعظم للتغابن، فالغابن فيها غابن حقّاً، والمغبون فيها خاسر بتمام المعنى. صحيح أن أساس الغبن في الدنيا، لأن الدنيا هي دار العمل، ولكن ظهوره لا يكون إلا في الآخرة، ولا يسمى الغبن غبنا إلا بعد أن يظهر للناس جليّاً.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي يترجم إيمانه إلى العمل فإن الإيمان الحقيقي بالله أصل كل خير والباعث على كل صلاح، ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ أي الخطايا الجانبية، ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وهذا مصير الطرف الغابن. وفي الآية إشارة إلى أحد معاني الشفاعة وهي أن تكون لدى الإنسان حسنات كبيرة تذهب بالسيئات الصغيرة.

[١٠] وفي نهاية الدرس الأول من سورة التغابن يضع القرآن بين أيدينا صورة للفريق المغبون، وأي غبن وخسارة أعظم من الخلود في عذاب النار؟! ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ إن السبيل إلى الفوز كان في الإيمان بالله الذي بيده مصائر الناس، وفي اتباع رسله والقيادات الرسالية، وفي العمل بمنهج الفوز الذي تنطوي عليه آيات القرآن، وقد نبذوها وراء ظهورهم فصاروا إلى الخسران.

إنما أموالكم وأولادكم فتنة

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

كيف نتجنب الغبن في يوم التغابن؟.

١ - لنعلم أولاً: أن المصائب أقدار إلهية، وبالإيمان يهتدي الإنسان كيف يتحصن ضدها أو يتعامل معها دون أن ينهار.

٢ - الطاعة لله والرسول، والتوكل على الله لمقاومة ضغوط الشهوات ونوائب الدهر.

٣- الحذر من الأزواج والأولاد، لأن فيهم من هو عدو لنا، ثم العفو عما تبدو منهم من إساءة، ولنعلم أنهم فتنة، فلنقاوم الفتنة بابتغاء ما عند الله من أجر عظيم.

٤- التقوى حسب المستطاع، والطاعة للقيادة، ومواجهة شح النفس بأداء الحقوق.

٥- القروض الواجبة والإنفاق المستحب.

بينات من الآيات:

[١١] ليس من تَغَيُّرٍ خيرا كان أو شرا إلا ويمر عبر تدبير الله وإذنه ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، لأنه تعالى الذي يمد كل شيء بنور الوجود والاستمرار، ولأنه الذي وضع السنن في الخليقة ويجريها بسلطانه وليست من مصيبة إلا في سياق تلك السنن، وله الإرادة غير المحدودة بأن يفعل ما يشاء ويغيِّر ما يريد. وما دامت المصائب تكون بإذنه تعالى وهو الحميد العادل الحكيم فلن تكون بلا سبب ومن دون حكمة. بلى، ومن حكمته ولطفه أنه بيَّن في كتابه كيف يتخلص الإنسان من المصيبة، ولكن أنى للإنسان أن يستفيد من كتابه دون أن يؤمن به؟! ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ ولهداية القلب هنا معان أبرزها:

١- أن الإيمان بالله، وبالتالي معرفة أنه الفعَّال لما يشاء، وأنه المهيمن على العالم، وأنه لا تقع مصيبة إلا بإذنه، معرفة هذه الحقائق جميعا تجعل الإنسان يسمو إلى سماء التسليم لله عز وجل، مما يجعله قادرا على الاستقامة في طريق الحق رغم التحديات والمشاكل. وتقديم هذا البيان هو تمهيد للأمر القادم بطاعة القيادة الرسالية حيث يواجه المؤمنون في هذا الطريق ألوان الفتن والمصائب، وإذا كانت المصائب تسبب للكثير الانحراف عن سواء السبيل فهي لا تزيد المؤمن إلا إيمانا وتسليما. المؤمن كما الذهب يزداد صفاء كلما تعرض لفتنة النار، وإن إيمانه بالله ليزيده صلة بربه عند المصائب، لأنه يعلم أنها لا تقع إلا بإذنه ولا تزول إلا بإذنه، وأن خير وسيلة لتحديها هو المزيد من الاتصال به والتقرب إليه، بل يزداد إحساسه بالحاجة إلى الله وضرورة الاستعانة به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

٢- وكما أن الإيمان معراج الروح إلى التسليم فهو معراج الفكر إلى الصواب، فإن المصيبة تُفقد أكثر الناس توازنهم النفسي لما تحمله من الضغوط، فتزرع فيهم اليأس من التغيير، وقد تشل عقولهم عن التفكر، ولكن المؤمن يقف أمامها كالجبل الأشم لا تخرجه عن طوره، وهذا يبقيه مهتديا، وقادرا على الوصول إلى الصواب حتى في ظروف المصيبة، بل إنها تصبح مدخله لكثير من المعارف، فالمرض يدفعه لمعرفة سنن الله في جسم الإنسان، وطغيان الظلمة يجعله يعرف سنن الله في المجتمع، وهكذا..

٣- أضف إلى ذلك أنه يجد الحل للمصيبة والموقف السليم منها نتيجة الإيمان، فالإيمان

بالله أكثر من مجرد الاعتقاد. إنه منهجية حياة شاملة، والمؤمن عند المصيبة يتذكر أن الله حكيم لا يفعل شيئا إلا لسبب فيبحث عن ذلك السبب، ويتذكر أن الإنسان بأعماله هو السبب الرئيسي لكل ما يجري عليه، تسليما لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] ثم يسعى للتغيير إيمانا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ويستعين بالله بكل ما يستطيع من دعاء وصدقة، لإيمانه بأنه على كل شيء قدير، وأنه يمحو ما يشاء ويثبت، ولأنه قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، فالمصيبة إذن تتحول عند المؤمن إلى عمل بمناهج الله، وبالتالي الوصول إلى الحل، وذلك من مصاديق الهداية.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ و هذه الخاتمة تبني روح التسليم لقضاء الله عند كل مؤمن، حيث تؤكد له أن إذن الله وتدبيره متأسس على علمه، فهو لحكمة يعرفها، ولأسباب أحاط بها. ونجد في الآية التفاتة لطيفة تتصل بنظرية الجبر التي عالجها كثير من المفسرين عند هذه الآية، فقد زعم البعض أن الإنسان ليس له اختيار في الحياة ما دام الله هو الذي يقدر شؤونها -كالمصائب- ويجريها كيف يشاء! ولكن القرآن يحل هذه الإشكالية باختصار وبأسلوب بليغ حيث يؤكد دور الإنسان في صنع واقعه ومصيره بالقول: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾. إذن فالهداية التي هي من عند الله لا تحصل إلا بعد إيمان الإنسان نفسه بالله، وعلى هذه السنة تمضي الحياة بخيرها وشرها، بأفراحها وأحزانها، كما أننا نستطيع أن نفسر كل الحوادث بهذه البصيرة.

وسؤال أخير في الآية: لماذا قال ربنا: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ ولم يقل: يهديه، كما في كثير من الآيات الأخرى؟ والجواب:

أولاً: لبيان أن صلاح الإنسان وفساده (هدايته وضلاله) كل ذلك متصل بما ينطوي عليه قلبه من الأفكار والمعتقدات، وبالتالي فإن التغيير الحقيقي والجذري يتم بتغيير القلب.

ثانياً: لبيان شمولية الهداية فهداية الله لقلب المؤمن تجعله خالصا من كل انحراف وضلالة، فإن القلوب قد تكون مزيجا من الحق والباطل إلا قلب المؤمن حيث يصفو للحق دون الباطل وللهدى دون الضلال، أي أن الإيمان صنو لهداية القلب حيث يقوده إلى سائر الحقائق، ويبصّره في جميع أبعاده وجوانب الحياة، وكلما زاد إيمان أحد زاد هدى قلبه.

[١٢] وأعظم مصيبة تصيب البشر هي التخلف في الدنيا ودخول النار والتعرض لسخط الله في الآخرة، ولكي يتجنبها الإنسان يجب أن يطيع الله، ويتبع القيادة الشرعية، ويعمل

بمناهج الحق التي بلّغها الرسول ﷺ وفصّلها أئمة الهدى والعلماء الصالحون. وهكذا يربط القرآن حقيقة الإيمان بالله وبالآخرة بحقيقة الإيمان بالرسول (القيادة الإلهية). ولقد مهد السياق للحديث عن طاعة القيادة بما تضمنته الآية السالفة من بيان عن المصاعب، وانطوت عليه من دعوة للتسليم لله فيها، لأن الطاعة لله واتباع القيادة الرسالية التي تنشد التغيير سوف يتسبب ذلك بلا شك في كثير من المشاكل والضغوط التي ينبغي تحديها بروح التسليم لله عز وجل، ولكنها تقضي على مشاكل أكبر بصورة جذرية. ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ ونقف هنا عند تعبير القرآن الكريم، فهو تارة يقول: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأنفال: ١]، وأخرى يقول: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾، بإضافة فعل الأمر ﴿أَطِيعُواْ ﴾، كما في هذه الآية. أوليس العطف بالواو وحده كافيا لتأدية المعنى نفسه؟.

والجواب: أن لكلا التعبيرين ظلاله الخاصة في المعنى والنفس، ولعل العطف بالواو وحدها يبين أن طاعة الرسول هي امتداد لطاعة الله، في حين أن العطف بها مع الفعل: ﴿وَأَطِيعُواْ ﴾ يؤكد استحالة الفصل بين طاعة الله وطاعة القيادة الرسالية، بأن يزعم البعض بأنه يكتفي بالقرآن طاعة لله وبعدها لا داعي لطاعة أحد رسولا أو إماما أو عالما.. واللطيف أن هذا التعبير ورد في سياق سورة التغابن التي تعرضت لإشكالية الفصل بين طاعة الله وطاعة رسوله حيث قال الكفار: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [الآية: ٦] محاولة للفصل بين الطاعتين. ويحذر الله من عصيانه ورسوله وتولي غيرهما إذ يقول: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ وكفى بهذه الآية تحذيرا للناس وتهديدا للكفار.

[١٣] ولما انتقد القرآن موقف الكفر والتولي من قبل الكفار تجاه رسلهم لكونهم بشر أمثالهم، وبالتالي التقليل من شأنهم وتبرير عصيانهم، أكد هنا في سياق أمره بطاعة الرسول (القائد الرباني) وانطلاقا من منهجيته المتوازنة على حقيقة التوحيد بوصفه حدًّا لتقديس الرسل والأولياء القادة، فإنه لا يجوز بحال من الأحوال اعتبارهم شركاء لله أو أنصاف آلهة، كما صنع بعض النصارى واليهود بالنسبة لعيسى وعزير ﷺ، فالطاعة للقيادة والعبادة لله وحده. ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ وقد أكد القرآن على ضرورة التوحيد والتوكل في سياق أمره بطاعته وطاعة رسوله لأن هناك سببين يدعوان الإنسان للتخلف عن الطاعة لهما:

الأول: الشرك بالله سبحانه شركا مبدئيًّا باتباع الأفكار والفلسفات الضالة، أو عمليًّا بالخضوع للإرادات الأخرى من دون الله لمجاراة الشهوات والمصالح، أو اتباع الطواغيت والركوع إليهم. ولكي يسمو الإنسان إلى آفاق الطاعة والتسليم لله ولقيادة الحق يجب أولا أن

يتطهر من رواسب الشرك، ويتخلص من أغلاله، ويتحدى الأنداد المزعومة.

الثاني: الضعف والانهزام أمام الضغوط والتحديات المضادة لخط الرسول والقيادة الإلهية، فإن أجلى صور التحدي والضغوط تبرز في مواجهة النظام الاجتماعي بكل أبعاده سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وأخلاقيًّا ويجب على المؤمن أن يستقيم في خط التوحيد رغم ذلك، وهذا بحاجة إلى إرادة صلبة تجعله أشد من الجبال، وهذه يستمدها من الاستعانة بصاحب القدرة الواسعة والتوكل عليه. وما أحوج الحركات الرسالية والمجاهدين للصمود في مسيرة التغيير عبر التوكل على خالق السماوات والأرض، والالتجاء إلى حصن ولايته وعزته وقدرته.

[١٤] ويذكرنا الوحي بأحد أقوى وأخطر التحديات التي يواجهها المؤمنون في طريق الجهاد والطاعة لله وللقيادة الرسالية وهو تحدي الأسرة، ذلك لأن الأسرة هي حلقة الوصل الأساسية بين الإنسان ومحيطه الثقافي والسياسي، ولذلك فهي أقرب تأثيرا وأبلغ نفاذا في إرادة المجاهد.

ثم إن مقاومة المؤمنين للطاغوت تنعكس بصورة حادة وسريعة على أسرهم، فإذا بها كلها أو بعضها تقف عقبة في طريق الجهاد، فينهاروا نتيجة الصِّلات التي تربطهم بها. ولكي يستقيم المؤمن لا بد أن يتذكر هذه الحقيقة، ويحرق سفن العودة إلى الشرك، ويتحصن ضد وسائل الضغوط، ومن أبرزها الأسرة، وذلك عبر تحديها بصلابة التقوى والإيمان.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾ قال الإمام الباقر عليه السلام: «**وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ إِذَا أَرَادَ الْهِجْرَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله تَعَلَّقَ بِهِ ابْنُهُ وَامْرَأَتُهُ، فَقَالُوا: نَنْشُدُكَ اللهَ أَلَّا تَذْهَبَ عَنَّا وَتَدَعَنَا فَنَضِيعَ بَعْدَكَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُطِيعُ أَهْلَهُ فَيُقِيمُ، فَحَذَّرَهُمُ اللهُ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ، وَنَهَاهُمْ عَنْ طَاعَتِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْضِي وَيَذَرُهُمْ وَيَقُولُ: أَمَا وَاللهِ لَئِنْ لَمْ تُهَاجِرُوا مَعِي ثُمَّ جَمَعَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فِي دَارِ الْهِجْرَةِ لَا أَنْفَعُكُمْ بِشَيْءٍ أَبَداً**»[1].

وفي توجيه القرآن الخطاب للمؤمنين بالذات في هذه الآية بيان لحقيقة واقعية وهي: أن المؤمن الحقيقي مجاهد بطبعه، لذلك تتوالى عليه الضغوط والتحديات، ولأنه من دون سائر الناس يتحمل المسؤولية الرسالية، وبالتالي فإنه الأولى بمثل هذا الخطاب، والأقرب لفهم معانيه، فهو هنا ذلك الإنسان الذي آمن بربه وحده، وأطاع قيادة الحق متوكلا على الله. وكيف يدرك المتقاعسون معنى التحديات الأسرية والاجتماعية والسياسية وهم يسبحون مع تيارها وليس ضده كما يفعل المؤمنون الصادقون؟!.

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٧٢، بحار الأنوار: ج١٩، ص٩٨.

ولا تعني الآية من الأزواج النساء وفقط، فقد تكون الزوجة مؤمنة مجاهدة ويكون العدو هم الزوج والأولاد فهي مسؤولة أيضا. وما أروع موقف وهب النصراني حينما تحدى تثبيط زوجته إذ تعلقت به لتردعه عن خوض القتال دفاعاً عن الإسلام بين يدي الإمام الحسين عليه السلام ولكنه اندفع إلى الشهادة، لأن حب الله كان أنفذ بقلبه من عاطفته تجاه زوجته الشابة! وما أعظم موقف آسية بنت مزاحم وهي تتحدى طغيان زوجها فرعون حتى استشهدت موثقة بالأوتاد! ولعمري إن التاريخ الرسالي لحافل بمواقف البطولة للنساء والرجال على سواء، الذين فكوا حلقة الأسرة، وانطلقوا في رحاب الدفاع عن القيم السامية.

وكما أن العداوة تتخذ ألوانا فإن عداوة الأزواج والأولاد قد لا تظهر على شفرة سيف، ولا سنان رمح، ولكنها تتمثل في مظاهر أخرى عاطفية واجتماعية واقتصادية، فحينما يكون المؤمن متفانيا لقضيته منصهرا في بوتقة أهدافه فإن معاداة أسرته للقضية والأهداف هي في الواقع معاداة له ذاته، ولو جاءت تلك المعاداة في صورة قشيبة من جهة التظاهر بحبه.

وإذا لم يحذر المؤمن هذه العداوة فإن عاقبته الخسران، ذلك أن الطغاة والمترفين والكسالى والمرجفين يحسنون استخدام سلاح الأسرة ضد المؤمن الرسالي، لذلك تراهم ما يبرحون يسعون بشتى الأساليب ترغيبا وترهيبا وتضليلا لإدخالها في معادلة الصراع ضد الرساليين. ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ أي خذوا الحيطة المسبقة، وتحصنوا ضد عداوتهم. وأمره تعالى بالاحتياط هنا ثم دعوته إلى الصفح والتسامح بعدئذ يدل على أن العداوة المعنية ليست التي تصل إلى حد القتال بل هي العداوة الخفية، كالتي تستهدف التثبيط والنيل من عزيمة الجهاد لدى الإنسان المؤمن.

وثمة ملاحظة جديرة بالانتباه تجدها في وزن كلمات الآية من الزاوية البلاغية، فقد قال تعالى: ﴿عَدُوّٗا﴾ بالإفراد، ثم قال: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ بالجمع، لأن العدو قد يكون واحدا منهم ولكنه مندس بين أبناء العائلة ومؤثر فيهم فلا بد أن يحذر المؤمن الجميع ويتوجس خيفة من أي كلمة تثبيط تتغلف بالود والعاطفة، سواء صدرت من أمه وأبيه أو زوجته وبنيه أو أخته وأخيه، وبهذا الحذر وحده يستطيع أن يتجنب الفضل الذي وقع فيه الكثير من الناس، فما أكثر القرارات الصائبة التي ضربت عرض الحائط بسبب دمعة تحلقت في جفون الزوجات أو كلمة عاطفية صدرت من أم أو أب؟!.

وليست الدعوة إلى الحذر تعني المقاطعة التامة مع الأسرة، كلا.. بل لا بد أن يتحرك في علاقاته ضمن معادلة متوازنة إحدى كفتيها الاحتياط والحذر، والأخرى العفو والصفح والغفران ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ﴾، وهذه ثلاث درجات لصفة واحدة هي التنازل

عن الحقوق الشخصية بالسماحة وسعة الصدر لصالح الأسرة. وينبغي للمؤمن أن يسمو بنفسه إلى آفاق الحلم والسماحة تخلقا بأخلاق الله، ويتحمل بعض الإساءات من أجل جذب أسرته إلى الرسالة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر للمتسامحين ويرحمهم، وهي أعلى درجات التسامح. وتحسس المؤمن بحاجته إلى غفران الله ورحمته لا شك يدعوه للتلطف بمن هو تحت يده وقدرته.

ونعود الآن إلى معنى الكلمات الثلاث: (العفو، الصفح، الغفران)، فالعفو هو التنازل عن حق الانتقام والمماثلة في القصاص وبالذات عند المقدرة، والصفح درجة أرفع، إذ قد يتنازل الإنسان عن حقه في الاقتصاص مثلا ولكن علاقته مع الطرف الآخر تبقى كدرة بسبب الإساءة، أما إذا صفح عنه فهو يطوي صفحة الماضي ويفتح صفحة جديدة فتعود علاقته الظاهرة به علاقة طبيعية، وليس بالضرورة أن تزول الآثار النفسية الداخلية بذلك. بلى، إذا غفر أزال حتى هذه الآثار، بل وتنازل عن طلب الانتقام من الله عز وجل. وهذه الصفات ينبغي أن يتحلى بها المؤمن تجاه أسرته والآخرين على كل حال وفي كل الظروف، وبالذات عندما يحتدم الصراع المبدئي بينه وبينهم، فإن هذا الصراع ينبغي أن يبقى في حدود المبدأ ولا يتحول إلى صراع شخصي مستمر، فإذا عادت زوجته التي كانت تمنعه من العمل في سبيل الله إلى رشدها أو اقتنع أبواه وسائر أسرته فإن عليه أن ينسى الإساءات التي صدرت منهم تجاهه، ولا يذكّرهم بها، ولا يحمل في نفسه غضاضة، ولا يطالبهم بالغرامة، وما أشبه.

[١٥] وقد لا تبدر العداوة من قبل الأسرة تجاه المؤمن، ولكنه يفتتن بهم أو بماله، ولربما نجد البعض تحرضه زوجته أو أسرته على الجهاد ولكن تفكيره في مستقبلها بعده يمنعه من الإقدام عليه، لذلك حذرنا الله من ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ قد ينجح المؤمن في مواجهتها وقد يفشل ولكنها كلها بالحصر ودون استثناء فتنة، أي أنها تضعه إمام مفترق طريقين: أحدهما الحق والآخر الباطل، وتثير فيه نفسه الأمارة والأخرى اللوامة، ليختار بعقله ويمشي بإرادته في أيهما شاء.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وإنما يذكّر ربنا بهذه الحقيقة لأن الإيمان الصادق بها كفيل بأن يدفع الإنسان لتجاوز الفتنة بنجاح فيختار ما عند الله على ما في الدنيا، كما أن هذه البصيرة ترغب المؤمن ليسخّر الأموال والأولاد في سبيل الحصول على ما عنده تعالى، وليس جعلها عقبة دون ذلك، وفرق بين الإمام الحسين عليه السلام الذي جعل أولاده وأصحابه وأهل بيته وأمواله وسيلة للتقرب من الله وبين الزبير الذي أدخله افتتانه بولده عبد الله في حرب مع ولي الله وحزبه في موقعة الجمل، فقال عنه أمير المؤمنين عليه السلام يصف عامل الانحراف في حياته:

«مَا زَالَ الزُّبَيْرُ رَجُلًا مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ حَتَّى نَشَأَ ابْنُهُ الْمَشْئُومُ عَبْدُ الله»[1]، لأنه الذي دفعه إلى حب الدنيا والرئاسة، وحرَّضه على الحرب ضد الإمام عليه السلام. وهذه البصيرة تجعل المؤمن يتصرف تصرفا معتدلا مع أمواله وأولاده، فلا يفرط في حق أبنائه، ولا يبذر في صرف أمواله، إنما يتبع طريقا وسطا يزن كل موقف منه تجاههما بدقة، ويتصرف بحكمة، ويتجنب الاسترسال في موقف إيجابي أو سلبي.

وهكذا روى المفسرون حديثا عن الرسول صلى الله عليه وآله نستلهم منه معنى إيجابيًّا للفتنة، وأنها لا تعني طرد الأولاد أو نبذ الأموال، بل التصرف الحكيم معها. الحديث كما يلي: روى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: «كَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله يَخْطُبُ فَجَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عليهما السلام وَعَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ، فَنَزَلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله مِنَ الْمِنْبَرِ فَحَمَلَهُمَا وَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ صلى الله عليه وآله: صَدَقَ اللهُ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فَنَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا»[2]. ثم أخذ في خطبته.

[١٦-١٧] وليس من درع يتحصن به المؤمنون ضد الفتن أفضل من تقوى الله:

أولاً: لأنها الحبل المتين الذي يوصل الإنسان بربه في كل مكان وفي كل لحظة من عمره، وفي كل سعي وقول يصدر عنه.

ثانياً: السماع لله ولرسوله والطاعة لهما.

ثالثاً: الإنفاق في سبيل الله والتضحية بكل ما يملكه الإنسان، فإن ذلك هو السبيل المستقيم لنيل ما عنده تعالى من الأجر، والانتصار على شح النفس الذي هو أساس كل انحراف في حياة البشر، وبالتالي الفلاح الحقيقي في الدنيا والآخرة.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ و هذه الآية بيان لقول الله في موضع آخر: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وذلك من وجهين:

الأول: أن الله سبحانه حينما فرض التقوى على الإنسان أعطاه من الاستطاعة ما يمكنه بها إحرازها كما يريدها منه تعالى، قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَا كَلَّفَ اللهُ الْعِبَادَ كُلْفَةَ فِعْلٍ وَلَا نَهَاهُمْ عَنْ شَيْءٍ حَتَّى جَعَلَ لَهُمُ الِاسْتِطَاعَةَ ثُمَّ أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ»[3]. وقال عليه السلام: «وَإِنَّمَا وَقَعَ التَّكْلِيفُ مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ الِاسْتِطَاعَةِ

(١) بحار الأنوار: ج٤١، ص١٤٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٤٣، ص٣٠٠.
(٣) بحار الأنوار: ج٥، ص٣٨.

فَلَا يَكُونُ مُكَلَّفاً لِلْفِعْلِ إِلَّا مُسْتَطِيعا»[1] كما قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة: ٢٨٦]. إذن فتقوى الله بقدر ما يستطيع الإنسان هي حق التقاة نفسها.

الثاني: أن تقوى الله حق تقاته تختلف من إنسان إلى آخر باختلاف الظروف والإمكانات الذاتية، فتقوى الأعرج والأعمى والمريض تختلف عن تقوى السليم في بدنه، وتقوى العالم تختلف عن تقوى الجاهل، وتقوى السجين تختلف عن تقوى الحر، وهكذا.. فإذا ما بذل الإنسان كل ذرة من جهد يستطيعه فقد اتقى ربه حق تقاته عمليًا. ولذلك فرّق تعالى في الكم بين إنفاق الموسع والمقتر فقال: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [الطلاق: ٧].

ونستوحي من الآية: أن المؤمن يجب أن يكون واقعيًا في نظرته إلى الدين، فيتقي الله حسب استطاعته ومكنته، وإذا لم يستطع فلا يؤنب نفسه ولا يقنط من رحمة الله، بل يفعل بقدر وسعه. مثلا: من لم يستطع طَوْلا أن يصلي قائما فلا يترك صلاته رأسا، بل يصليها عن جلوس، ومن لم يستطع أن يعارض حاكم السوء فلا يجاريه بقلبه بل يتقيه ظاهرا ويستمر في مقاومته في السر، وهكذا..

قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦]. والحاصل: أن الإنسان حينما يضطر إلى التقوى الممكنة عمليًا لسبب مشروع فهو في الواقع صار إلى التقوى المأمور بها، لأن تقوى الله حق تقاته تكون بالتزام أحكامه سواء كانت أحكاما أولية أو ثانوية، وقد لا تحرز التقوى بحق إلا بتجاوز بعض الأحكام وأكل الميتة والعمل ظاهريًا في جهاز الحكم الجائر، كما أكد ذلك الإمام الكاظم عليه السلام لصاحبه علي بن يقطين الذي أراد الاستقالة من الوزارة في عهد هارون حيث منعه وبيّن له أن بقاءه هو الواجب المطلوب شرعا.

والآية الكريمة التي نحن بصددها تعبير عن النظرة الواقعية في الإسلام، وينبغي للحركات الرسالية اعتبارها أصلا من أصول التحرك حيث إن النظرة المثالية إلى الشريعة تجعل الأولويات ضحية للأمور الثانوية والأصول ضحية للفروع. ﴿وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ ﴾ فالمهم إذن

(١) بحار الأنوار: ج٥، ص٣٥.

ليس الاستماع إلى كلام الله وتوجيهات القيادة الرسالية فقط، إنما الأهم هو الطاعة والاتباع، لأن التوجيه لا يؤثر في الواقع إلا إذا سلَّمنا له وعملنا بمضامينه، وبالذات تلك التي تتطلب من الإنسان التضحية لأنها الأصعب، والتزام الإنسان بها مؤشر على عمق إيمانه، واقتحامه عقبة الشح الكبرى. لذا قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي أن الإنفاق يعود على صاحبه بالخير، فهو يزكي النفس ويزيد إيمانها، ويتقدم بالمجتمع اقتصاديًا لما يسببه من نماء في الثروة وتدوير لها. وللآية تفسير آخر هو: أنفقوا خيرا في مقابل الشر، فإن الخير هو الذي يعود للنفس والمجتمع بالنفع.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ و شح النفس هو مجموع الصفات السلبية التي تعبر عن حب الذات وحب الدنيا، كالبخل والحرص والعنصرية وما أشبه، وإذا انتصر الإنسان على شح نفسه صار من المصلحين لأنه جذر كل ضلال وانحراف ومعصية في حياة البشر، ولأن الانتصار عليه يفتح الطريق له نحو كل فضيلة وصلاح، ولذلك يحدثنا أبو قرة فيقول: «رَأَيْتُ أَبَا عَبْدِ الله (الإمام الصادق عليه السلام) يَطُوفُ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى الصَّبَاحِ وهُوَ يَقُولُ: **اللَّهُمَّ قِنِي شُحَّ نَفْسِي**، فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ مَا سَمِعْتُكَ تَدْعُو بِغَيْرِ هَذَا فَقَالَ عليه السلام: **وأَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنْ شُحِّ النَّفْسِ؟ إِنَّ الله يَقُولُ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾**»[1].
والإنفاق من أهم العوامل التي تقضي على شح النفس، جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «**مَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ فَقَد وُقِيَ شُحّ نَفْسه**»[2]. والتعبير بالمبني للمجهول ﴿يُوقَ﴾ إشارة لحاجة الإنسان الماسة إلى التوفيق الإلهي في التغلب على هذه الرذيلة.

﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ ما هو القرض هنا؟ قال بعضهم: هو الدَّين، وقال البعض: بل هو كل إنفاق، أو الإنفاق المندوب (بينما الأول كان في عموم الإنفاق). وأنى كان فإن لكل هذه المفردات آثارا مباركة في حياة الفرد والمجتمع، ولها أيضا آثار معنوية تتصل بمصير الإنسان في الآخرة، إذ تسبب غفران الذنوب باعتبارها من الحسنات الكبيرة التي تشفع في السيئات. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ فهو يرد القرض مضاعفا بشكره، ويغفر الذنوب بحلمه.

[١٨] وكلما كان الإنفاق أصفى من شوائب الرياء والسمعة والمن والاستكبار وابتغاء المصالح المادية كان أقرب إلى الله وأنفع للنفس وأزكى لها، وربما لذلك ختمت السورة بالتذكرة بأسماء الله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يعرف ما ينفق، ويعرف لماذا وبأية نية. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٧، ص٣٠، تفسير القمي: ج٢ ص٣٧٢.
(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٣٨٣.

الذي لا يحتاج إلى إنفاق أحد أو نصر أحد، قال سبحانه: ﴿وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.
﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يثيب من يثيب بقدر طاعته وإخلاصه، ويعاقب من يعاقب حسب ذنبه وكفره.

نسأل الله أن يجعلنا ممن يتبصر هذه الحقائق حتى لا نكون من المغبونين.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

* مدنيّة.

* عدد آياتها: ١٢.

* ترتيبها النزولي: ٩٩.

* ترتيبها في المصحف: ٦٥.

* نزلت بعد سورة الإنسان.

فضل السورة

قال ﷺ: «ومَنْ قَرَأَ سُورَةَ الطَّلَاقِ مَاتَ عَلَى سُنَّةِ رَسُولِ الله ﷺ».

(مستدرك الوسائل: ج٤، ص٣٥٢)

***

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الطَّلَاقِ والتَّحْرِيمِ فِي فَرَائِضِهِ أَعَاذَهُ الله مِنْ أَنْ يَكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمَّنْ يَخَافُ أَوْ يَحْزَنُ، وعُوفِيَ مِنَ النَّارِ وأَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ بِتِلَاوَتِهِ إِيَّاهُمَا ومُحَافَظَتِهِ عَلَيْهِمَا لِأَنَّهُمَا لِلنَّبِيِّ ﷺ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص١٤٨)

الإطار العام

التقوى الضمانة الأكيدة لتطبيق القانون

في بادئ الأمر يتراءى أن سورة الطلاق تتحدث عن قانون الطلاق، ولكن حينما نتدبر في سياقها نجد محور السورة الحديث عن التقوى، وما الحديث عن قانون الطلاق وسنن الله في الغابرين و... إلا إطار لهذه المحور، و**السؤال**: ما هو سبب مزج السياق بين الأحكام الشرعية وبين الأوامر المؤكدة بالتقوى؟.

والجواب:

١- إن التقوى هي أفضل ضمانة لتنفيذ الأحكام الشرعية، والتزام الحدود الإلهية، والاعتبار بالمواعظ، والعمل بقيم الذكر، وبالذات في صورتين:

الأولى: القضايا الفردية التي لا تتصل بالنظام السياسي للأمة بقدر اتصالها بالنظام الاجتماعي وبالقرارات الفردية للإنسان.

الثانية: غياب النظام الإسلامي المتكامل (المجتمع الإسلامي، والحكومة الإلهية) إذ مع وجود هذا النظام يصعب على الفرد أن يتجاوز حدود الله، لأنه سيجد من يمنعه ويقف في طريقه، وبالذات في المسائل الاجتماعية، لذا فقد يلتزم الإنسان بالأحكام خشية الناس والقانون، أما إذا نمت روح التقوى عند أحد فإن خشيته من ربه ستكون أعظم من كل شيء، وذلك ما يدعوه لاتباع الحق في أي مكان وزمان حتى لو لم يكن ثمة نظام إسلامي قائم، بل ولو كان وحده لا يراه أحد من الناس.

٢- إن حقيقة التقوى لا تنمو في القلب إلا إذا اتصلت بمجمل سلوك الإنسان، فهي ليست مفهوما ذهنيًّا أو مادة للمعرفة، إنما هي صبغة حياة ولون سلوك، ومنهج تكامل،

وموقف من الأحداث المتحركة حول الإنسان، لذلك يحدثنا الوحي عنها عبر تيارات الحياة وتطوراتها، وأمواج ضغوطها المختلفة، لكيلا نتعامل مع التقوى كقضية مجردة، وبعيدة عن التفاعل في قضايانا اليومية.

وبهذه الطريقة تتصل التقوى بكل التعاليم الدينية، فإذا أمر الله بالتقوى عند الحديث عن قانون الطلاق فإن معناها يكون الالتزام بأحكام الله وحدوده فيه.

ومن يتق الله يجعل له مخرجا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥)﴾.

هدى من الآيات:

الأسرة كما يراها الإسلام هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع الإسلامي، وقد أولاها القرآن اهتماما بالغا باعتبارها حصن الفرد والمجتمع، والمدرسة التي تتربى فيها الأجيال، فهو ما يفتأ يعالج القضايا المتصلة بها بين سورة وأخرى، ليرسم المنهج المتكامل لمسيرة النكاح والمعاشرة

والتربية، ولنظامها الداخلي (الدخول والخروج، والأكل والنوم) وعلاقاتها المختلفة، وفيما بينها حالات الشقاق والطلاق. وبالرغم من أن بعضا من المذاهب كالمسيحية الكاثوليكية تحرم الطلاق البتة، وبالرغم من أنه في شريعة الإسلام نفسه أبغض الحلال إلى الله، فقد جاء الحديث المأثور عن النبي ﷺ أنه قال: «**تَزَوَّجُوا ولَا تُطَلِّقُوا فَإِنَّ الطَّلَاقَ يَهْتَزُّ مِنْهُ الْعَرْشُ**»[1]. وجاء في حديث آخر عنه ﷺ: «**لَا تُطَلِّقُوا النِّسَاءَ إِلَّا عَنْ رَيْبَةٍ فَإِنَّ الله لَا يُحِبُّ الذَّوَّاقِينَ والذَّوَّاقَاتِ**»[2].

إلا إنه تعالى يشرعه لأن الروابط الزوجية في نظر الإسلام إنما وضعت لأهداف فردية وأسرية واجتماعية وحضارية، فإذا أصبحت لا تؤدي الأغراض أو أضرت بها فإن الطلاق يصير أولى منها. وحيث إن الطلاق عملية هدم لكيان الأسرة فقد أسس الله دينه على الوقاية منه، وفي هذا السياق تنتظم الكثير من القيود التي وضعت ليصبح الطلاق مشروعا، كوجوب العدة، وبقاء الزوجة في بيت زوجها حينها لا هو يخرجها ولا هي تخرج منه، وحضور شاهدي عدل حين الطلاق، وما إلى ذلك. ولا يعتبر الإسلام الطلاق مسألة شخصية يتصرف فيها الرجل كيف يشاء -كما يظن البعض، وكما هي عند بعض المذاهب- إنما هو قضية اجتماعية ذات تأثيرات سلبية على كيان الأسرة بصورة خاصة والمجتمع بصورة عامة. لذا يضع الله حدودا يحذر من تجاوزها، بل لا يقع الطلاق من الناحية القانونية والواقعية والشرعية إلا ضمنها.

ويلاحظ إلى جانب السياق الذي يعالج مشكلة الطلاق من الناحية القانونية تأكيدات متتالية على أهمية التقوى وبصيغ مختلفة، لأنها الدرع التي تحصّن المجتمع ضد المشاكل كالطلاق، ولأنها الضمانة الحقيقية والأهم لالتزام الإنسان بحدود الله وتنفيذها في كل مكان وزمان.

بينات من الآيات:

[١-٢] في أول آية من السياق يوجه الله الخطاب إلى رسوله بصورة خاصة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ باعتباره مسؤولا عن الأمة وشاهدا عليها، ثم يعم المسلمين ببلاغة فائقة: ﴿طَلَّقْتُمُ﴾، وذلك لكي ينسف المزاعم التي تقول: أن علاقة الرجل بزوجته وتدبيره لشؤونها أمر خاص به، ولا يمت بصلة إلى الدين الذي تمثله القيادة الإسلامية، ويؤكد أن هذا الوهم غلط فاضح، لأن علاقة الرجل بزوجته لا تقف عند حدود مصالح الفرد بل تنتشر إلى كل امرأة. أوليست الزوجة عضو في المجتمع الإسلامي، وبالتالي لها امتداداتها وعلاقاتها بالمجتمع وبقيادته؟ فلابد

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٢، ص٨.

(٢) وسائل الشيعة: ج٢٢، ص٩.

إذن أن يكون التعامل معها ضمن حدود الله وتوجيه القيادة الإلهية، ولذلك بدأ الخطاب بالنبي ثم توسّع إلى سائر المسلمين ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

والملاحظ أنه تعالى قال: ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾ بصيغة الماضي، ثم قال: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ مما يدل على أن للطلاق مرحلتين: المرحلة النفسية الداخلية، والمرحلة القانونية الظاهرية، وتلك تسبق هذه إلا أنها لا تكفي لتحقق الطلاق لأنه يجب إجراء الطلاق وفق حدوده ومنها الصيغة التي تفيد إيقاعه كقول الرجل: زوجتي فلانة طالق، أو: أنت طالق.. كما يفيد قوله: ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾ الجزم والاستقرار أي جزمتم واستقريتم على هذا القرار في أنفسكم وأردتم إيقاعه. و لعل كلمة ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ تنصرف إلى الزوجات اللاتي تم الدخول بهن، فإن غير المدخول بها ليس لها عدة، لأن الحكمة منها -حسب الأخبار- منع اختلاط المياه، وهذا منتفٍ إلا في المدخول بهن. و لأن هناك طلاق الجاهلية وطلاق البدعة لم يدع الوحي الكلمة هكذا إنما حدد النوع المشروع والصحيح من الطلاق، وهو الذي تأتي الآيات اللاحقة على بيان حدوده وشروطه، ومن شروطه العدة، وأن يتم في طهر لم يواقعها فيه، لأنه وحده الذي يدخل في حساب العدة الشرعية[1].

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وكلمة ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ من الناحية القانونية تعتبر تشريعا للطلاق، الأمر الذي يختلف فيه الإسلام عن بعض المذاهب التي حرمته ومنعته فلم تحل المشكلة، بل تسببت في كثير من المشاكل النفسية والأسرية والاجتماعية. ولم يقل الله: للعدة؛ لكونها تختلف من امرأة لأخرى، فعدة الحامل تختلف عن غير الحامل، قالوا في تفسير كلمة ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي لزمان عدتهن، وذلك أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه، «عن ابن عباس وابن مسعود والحسن ومجاهد وابن سيرين وقتادة والضحاك والسدي، فهذا هو الطلاق للعدة لأنها تعتد بذلك الطهر من عدتها، وتحصل في العدة عقيب الطلاق. فالمعنى فطلقوهن لطهرهن الذي يحصينه من عدتهن، ولا تطلقوهن لحيضهن الذي لا يعتدون به من قرئهن، فعلى هذا يكون العدة الطهر»[2].

وتهدينا الآية إلى أن المرأة لا تنفصل كليًا عن زوجها بمجرد أن تنطلق من لسانه صيغة الطلاق الأولى، لتكون حرة في اختيار غيره مثلا، إنما تبقى في بيته وتحت مسؤوليته أثناء عدتها، فإذا انتهت العدة سرى مفعول الطلاق عمليًا فتنفصل المرأة عن زوجها تماما لتصبح في غير عهدته إلا أن يرجع إليها وترجع إليه، لذلك قال تعالى: ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾

---

(١) قال الإمام الصادق عليه السلام: «لاَ طَلاَقَ إِلاَّ عَلَى طُهْرٍ مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ» أصول الكافي: ج١، ص٣٥٠.
(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٣٨٦.

وقد أمر الرجل بالذات بالإحصاء لأن الطلاق بيده ولأنه المسؤول عن المرأة في سكنها ونفقتها وحمايتها، فلا بد أن يحصي لكي يعرف بالضبط متى يمكنه التحلل من هذه المسؤولية الشرعية. والتأكيد على التقوى بعد الأمر بإحصاء العدة يهدينا إلى ضرورة الدقة في الحساب، لأن التقوى هي التي تمنع الكذب والتلاعب. وفي الآية تحذير للزوجين من أن الله رقيب وشاهد لا يمكن مخادعته أبدا، وينبغي اتقاء سخطه وعذابه. ولأن فترة العدة مصيرية بالنسبة لعلاقة الطرفين ففيها يراجع الرجل نفسه ويُقَوِّم زوجته من جديد ليقرر الرجوع إليها أو الانفصال عنها فيجب عليه أن يراقب الله من كل ذلك ويكون منصفا. ولعل الرجل بالذات يستطيع مضارة زوجته فيتلاعب بالمدة بعيدا عن علم أي أحد، وحيث لا يوجد النظام المتكامل المحيط بالإنسان فهو قادر على صنع ما يشاء دون أن يُواجَه أي إجراءات قضائية وقانونية تخالف هواه، لذا فهو محتاج إلى مراقبة الله قبل كل شيء وتقواه (باعتبارها أهم الضمانات التنفيذية للحدود والشرائع).

ويصل القرآن الدعوة للتقوى بالنهي عن إخراج المطلقات من بيوت الزوجية قبل العدة، وهكذا نهيهن عن الخروج، لأن ذلك هو الآخر يحتاج إلى المزيد من خشية الله وتقواه ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ إذن فقول الرجل لامرأته: أنت طالق؛ لا يخرجها من مسؤوليته، ولا يبرر لها التمرد عليه.. فإن البيت يبقى بيتها لا يجوز له إخراجها منه، وهي تبقى في عهدته لا يحق لها الخروج من تحت يده مادامت العدة لم تنقض، كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ثَلَاثَةُ قُرُوءٍ وَهِيَ ثَلَاثُ حِيَضٍ، وَإِنْ لَمْ تَحِضْ فَثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ، وَإِنْ كَانَ بِهَا حَمْلٌ فَإِذَا وَضَعَتِ انْقَضَى أَجَلُهَا»[1]، فبمجرد بدء الحيض الثالث تنتهي العدة.

ولعل بقاء المرأة في بيت زوجها أثناء العدة -بالذات مع ملاحظة ما ندب إليه الإسلام من التبرج والتزين لزوجها- صلاح كبير، باعتباره يشدهما لبعضهما، ويعيد الرجل إلى زوجته من زوايا إنسانية عاطفية وجنسية حيث يرى ضعفها بين يديه وحيث يرى الزينة والجمال، ومن زاوية دينية باستشعار التقوى إن كان ثمة طريق للرجعة والانسجام. قال الإمام الصادق عليه السلام: «الْمُطَلَّقَةُ تَكْتَحِلُ وَتَخْتَضِبُ وَتَطَيَّبُ وَتَلْبَسُ مَا شَاءَتْ مِنَ الثِّيَابِ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ لَعَلَّهَا أَنْ تَقَعَ فِي نَفْسِهِ فَيُرَاجِعَهَا»[2].

ويستثني القرآن مبررا واحدا تَبِيْنُ بسببه الزوجة من زوجها مباشرة بحيث يجوز له إخراجها من بيته فلا يكون بيتها ولا يتحمل مسؤولية الإنفاق وما أشبه في العدة، وهو أن تأتي بفاحشة ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾. الأقرب أن الفاحشة هي المعاصي الجنسية وأظهرها

(١) تفسير القمي: ج٢، ص ٣٧٣، بحار الأنوار: ج١٠١، ص ١٤٨.
(٢) الكافي: ج٦، ص٩٢.

الزنا والسحاق، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[الإسراء:٣٢]، وفي ذلك جاء الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال في تفسير الآية: «**إِلَّا أَنْ تَزْنِيَ فَتُخْرَجَ وَيُقَامَ عَلَيْهَا الْحَدُّ**»[1].. ولكن الفاحشة المبينة تعم حتى سائر الذنوب الكبيرة، وبالذات تلك التي تؤثر في العلاقات الزوجية، كما جاء في عدة نصوص منها المروي عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية «**إِنَّمَا الإِيْذَاءُ**»[2]، ومنها المأثور عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «**الْفَاحِشَةُ أَنْ تُؤْذِيَ أَهْلَ زَوْجِهَا وَتَسُبَّهُمْ**»[3].

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ و ما دامت حدود الله فهي مفروضة وواجب مراعاتها بالسير على هداها والخريطة التي ترسمها، لما فيها من صلاح للفرد وللأسرة والمجتمع، ولا يجوز للإنسان أن يصطنع لنفسه حدودا غيرها ويتبعها باللف والدوران، أو بادعاء أن القضية شخصية، كلا... إنما التشريع لله وحده. ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ لأنه لا تبقى سعادة ولا قيمة في العلاقات الزوجية التي لا تحكمها الضوابط، ولأن المجتمع الذي لا يحترم النظام يحطم بعضه بعضا ويسوده الظلم والتبادل، ولكن أجلى صورة لظلم الإنسان نفسه بتعدي حدود الله العذاب الذي يلقاه في الآخرة جزاء انتهاكه حرمة أحكام الله وشرائعه.

ويبين الله الحكمة الأساسية التي جُعلت من أجلها العدة، ووجب بقاء المرأة في بيت زوجها أثناءها، وهي رجاء تغير المواقف وعودة العلاقة إلى حالها الطبيعي حيث الوئام والمحبة، فلا يصح إذن أن يحكم الإنسان في لحظة غضب وانتقام وردَّة فعل حكم يأس على علاقته مع شريكة حياته بأنها لا تصلح أبدا، فإن الأمور بيد الله يبدل فيها كيف يشاء، فربما عطف القلوب على بعضها، وألَّفها بعد الفرقة برحمته ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، ولعلنا نهتدي هنا إلى فكرة تشريعية هامة هي: أن تشريع الطلاق من قبل الله عز وجل ينبغي ألَّا يتنكر له البشر، أو يلغوه من قائمة القوانين الاجتماعية، لأنه إذا يُرى في موارده الموضوعية وضمن الحدود الإلهية فإنه يعود على المجتمع بالنفع، فإذا بتلك الروابط الضعيفة تصير متينة جدًّا، وتنتهي المشاجرات وأسباب الخلاف، ويزداد الحب بين الطرفين فلا يفكرا إلا في المزيد من التلاحم بعد أن ذاقا طعم الفراق بينهما، وبعبارة: يحدث تحول إيجابي في الروابط الزوجية والأسرية بسببه. ومعرفة الإنسان أنه مكره على قبول زوجته لا يبعث فيه التطلع إلى تطوير علاقته معها وتنمية حبه لها بل يجعلها وكأنها شر لا بد منها.

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٢، ص٢٢٠.
(٢) تفسير نور الثقلين: ج٢، ص ٣٥١.
(٣) الكافي: ج٦، ص٩٧.

وإذا انقضت العدة هنالك لا يسمح له بأن يذرها كالمعلقة انتقاما كما يفعل أهل الجاهلية الذين لا يؤمنون بحد ولا قيمة في العلاقة الزوجية سوى الهوى والشهوة، كلا.. إنه مخيَّر بين أمرين لا ثالث لهما، فإما أن يرجع إلى العلاقة الطبيعية مع أهله والتي شعارها المعروف (الحب والاحترام والعقلانية)، وأما الفراق والانفصال بالمعروف (بعيدا عن التشفي والأذى وسوء الخلق). ويقدم القرآن خيار الرجوع ترجيحا له على الفراق لأن الله يريد خير الأسرة والمجتمع والحفاظ على كيانهما بالحفاظ على تماسكهما من خلال العلاقات الوطيدة التي منها العلاقات الزوجية ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾. واستخدام القرآن تعبير ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ يؤكد على أن الطلاق في الإسلام قبل انتهاء العدة لا يعني إنهاء العلاقة الزوجية وطرد الزوجة من أسرتها، إنما يبقى كل شيء على طبيعته، فالزوج لا يزال زوجها والقائم عليها (ممسك بها) إلا أن يختار الفراق فهنالك تتغير الأمور، فتطلق من زوجها بالمفهوم العرفي.

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ على الطلاق إذا كان هو الخيار لا الرجعة، لأنها لا تحتاج إلى شهود بل يكفي التصريح بإرادتها أو مقاربة الزوجة، فقد جاء في كتاب الكافي قال الإمام أبو الحسن موسى الكاظم عليه السلام: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ فِي كِتَابِهِ بِالطَّلَاقِ وَأَكَّدَ فِيهِ بِشَاهِدَيْنِ وَلَمْ يَرْضَ بِهِمَا إِلَّا عَدْلَيْنِ»[1]، وأهمية الشهود في الطلاق لأمور، منها وضع النقاط على الحروف في الإرث وفي حرية المرأة بعد فراق زوجها. فلولا الشهود لكانت المطلقة تدَّعي في الإرث ما ليس لها، ولكان الرجل يمنع مطلقته من الزواج بادعاء أنها لا تزال في عصمته مثلا. ولكن الشهادة العظمى التي يجب على المؤمن اعتبارها وإقامتها هي الشهادة لله ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾، ولا تقوم الشهادة لله إلا بشروطها التي تتوافر عند المتقين الذين يؤمنون بالغيب، لأن الله لا يحضر عند العيون والأسماع إنما يحضر عند القلوب المؤمنة به عز وجل. وكذلك الآخرة ليست شيئا محسوسا في الدنيا إنما يؤمن بها المؤمنون بالغيب ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي يؤمن بعلم الله بالحقائق كما تكون، ويؤمن بالجزاء بعد البعث على كل خير وشر، وشهادة الله لمن يؤمن بذلك أعظم واعظ له عن مخالفة أمره وحدوده علنا أو بما يسمى بالحيل الشرعية.

وقد أورد الدكتور بدران أبو العينين أستاذ الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق بجامعتي الإسكندرية وبيروت العربية بحثا حول الشهادة على الطلاق ودورها في تقليل نسبة الطلاق، هذا نصّه من كتابه: (الفقه المقارن للأحوال الشخصية): «ذهب أكثر الفقهاء على أنه لا يشترط الإشهاد على الطلاق، بل استحبوه فقط استنادا إلى أنه لم يُؤْثر عن الرسول ولا صحابة رسول

---

(١) الكافي: ج ٤، ص ٣٥٢.

الله ﷺ اشتراط الشهود في الطلاق، وحملوا الأمر الوارد في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ على الندب كما في: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾[البقرة: ٢٨٢]، واشترط الإمامية والظاهرية لوقوع الطلاق إشهاد عدلين، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[الطلاق: ٢] فالله سبحانه طلب الإشهاد على الطلاق الذي سيق الكلام لبيان أحكامه، ومن المستهجن أن يعود طلب الإشهاد إلى الرجعة، لأنها إنما ذكرت تبعا واستطرادا، كما قالوا: إن من المعلوم أنه ما من حلال أبغض إلى الله من الطلاق، فالدين الإسلامي لا يرغب في أي نوع من أنواع الفرقة، ولا سيما في العائلة والأسرة، وعلى الأخص في الزوجية بعدما أفضى كل منهما إلى الآخر بما أفضى. فالشارع بحكمته العالية يريد تقليل وقوع الطلاق والفرقة، بتكثير قيوده وشروطه بناءً على القاعدة المعروفة من أن الشيء إذا كثرت قيوده عَزَّ، أو قَلَّ وجوده. فلهذا اعتبر الشاهدين العدلين للضبط أولا، وللتأخير والأناة ثانيا، عسى إلى أن يحضر الشاهدان، أو يحضر الزوجان، أو أحدهما عندها يحصل الندم، ويعودان إلى الألفة، يشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ وأيضا قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فهذا الأمر بالشهادة جاء بعد ذكر إنشاء الطلاق، وجواز الرجعة، فكان المناسب أن يكون راجعا إلى الطلاق، وإن تعليل الإشهاد بأنه يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر يرشح ذلك ويقويه، لأن حضور الشهود العدول لا يخلو من موعظة حسنة يُزجونها إلى الزوجين، فيكون لهما مخرج من الطلاق.

فإذا لم يُشْهِد على الطلاق شاهدين ظاهرهما العدالة يسمعان إنشاء الطلاق كان غير واقع، وكذا لا يقع إذا أشهد عدلا واحدا أو فاسقين يكون باطلا، فإنهم قالوا: إن بالإشهاد على الطلاق يظهر التناسق بين إنشاء الزواج وإنهائه، بل قالوا: إنه لو طلق ثم أشهد لم يكن ذلك شيئا، والشرط أن يكونا رجلين عدلين، فلا شهادة للنساء منفردات ولا منضمات للرجال.

ورأي الشيعة الإمامية هو الراجح إذ إنه يضيِّق دائرة الطلاق التي اتسعت الآن كثيرا، كما يسهل إثباته فيما لو وقع خلاف بين الزوجين في الطلاق، ويجري العمل في مصر على أنه يجب على الموثق «المأذون» أن يجري الطلاق بحضور شاهدين يثبتهما في إشهاد الطلاق، ويوقعان على وثيقة الطلاق بالشهادة. وقد نص قانون حقوق العائلة في المادة (١١٠) على أن الزوج الذي يطلق زوجته مجبور على إخبار المحاكم بذلك»[1].

وهذه شهادة بصورة أخرى يقرها القانون المدني نظرا لأهميتها وواقعيتها.

---

(١) الفقه المقارن للأحوال الشخصية بين المذهب الأربعة والمذهب الجعفري والقانون: ص ٣٧٨.

ويقول الدكتور محمد يوسف موسى -أستاذ ورئيس قسم الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة عين شمس بالقاهرة- في كتابه: (الأحوال الشخصية) مشيدا برأي الإمامية في الشهادة: «وهذه وجهة نظر يجب عدم التغاضي عنها، فإن الأخذ بهذا الرأي يمهد السبيل للصلح في كثير من الحالات حقا»[1].

ومن هنا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قَالَ لِأَبِي يُوسُفَ (الفقيه الحنفي الشهير): «**إِنَّ الدِّينَ لَيْسَ بِقِيَاسٍ كَقِيَاسِكَ وقِيَاسِ أَصْحَابِكَ، إِنَّ الله أَمَرَ فِي كِتَابِهِ بِالطَّلَاقِ وأَكَّدَ فِيهِ بِشَاهِدَيْنِ ولَمْ يَرْضَ بِهِمَا إِلَّا عَدْلَيْنِ، وأَمَرَ فِي كِتَابِهِ بِالتَّزْوِيجِ وأَهْمَلَهُ بِلَا شُهُودٍ، فَأَتَيْتُمْ بِشَاهِدَيْنِ فِيمَا أَبْطَلَ الله وأَبْطَلْتُمْ شَاهِدَيْنِ فِيمَا أَكَّدَ الله عَزَّ وجَلَّ**»[2].

ويعود القرآن ليؤكد أهمية التقوى بالذات في الظروف الصعبة والحرجة، فإنها قبل كل شيء سبيل الإنسان للانتصار على المشاكل وحلها، لما فيها من زخم إيماني يثبِّت المؤمن على الحق، ولأن التقوى في حقيقتها برنامج متكامل يجد فيه حلا لكل معضلة ومخرجا من كل حرج مهما كان الظاهر باعثا على اليأس والقنوط ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾. وتنقض هذه الآية ظنون البعض بأن اتباع شرع الله وأحكامه يضيِّق على الإنسان مدار حريته، ويسبب له الحرج والضيق، كلا.. إنما يصل البشر لأهدافه ويتخلص من مشاكله، ويجد الحلول الناجعة لها والمخارج من العسر والحرج باتباع سنن الله وأحكامه، وذلك لأن سنن الله كما السبل اللاحبة التي لو مشى عليها الإنسان بلغ أهدافه بيسر وبلا عقبات، ومن يتقي الله يتق -في الواقع- الانزلاق عن هذه السنن إلى المتاهات التي لا تزيد السائر فيها إلا ضلالا وبعدا عن أهدافه، فقد يبدو للبعض أن السرقة والانتهاب والحيلة والغش والظلم والاعتداء والربا وسائر الطرق المحرمة هي وسائل جيدة للارتزاق لما في بعضها من ربح عاجل، إلا أن عاقبة هذه الطرق هي الخسارة، في حين أن السعي النظيف والكسب الحلال هو باب الرزق الواسع والسبيل اللاحب للثروة المشروعة، أما غير المؤمن فهو ينهزم أمام الأزمات والمشاكل إلى حد الانتحار، وكثير هم الذين انتحروا بسبب عقدة الفشل في العلاقات الزوجية أو الجنسية. وفي تضاعيف الآية إشارة إلى أن المآزق التي يتورط فيها الإنسان تأتي في الأغلب نتيجة ذنوبه ومخالفته لأحكام الله، فإذا اتقى ابتعد عن الذنوب ونفَّذ القوانين، وهل نأتي الطرق المسدودة إلا بسبب مخالفة القوانين والأنظمة؟!.

[٣] ولأن الفقر والضيق من المآزق التي يواجهها الرجل في إدارة أسرته والإنفاق على

---

(١) الأحوال الشخصية: ص٢٧١، طبعة ١٩٥٨م.

(٢) وسائل الشيعة: ج٢٢، ص٢٩.

أهله وعياله، فإن الإسلام يسعى ألّا يكون مبررا للطلاق، وذلك من خلال تنمية روح الأمل بالله والتوكل عليه في روعه بأنه يضمن له رزقه، وهذه الأفكار والمنهجية ترتكز على قيمة أساسية في الإسلام هي إيمانه بضرورة دفع الإنسان باتجاه المزيد من تحمل المسؤولية وليس تبرير التهرب منها ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي أن هناك آفاقا للرزق لا يتوقعها الإنسان لمحدودية علمه وإحاطته يفتحها الله له، وخير شاهد على ذلك ما يكتشفه العلم الحديث من الوسائل والآفاق الجديدة للتنمية والاستثمار والاقتصاد والتي ما كانت تخطر على بال أحد من قبل، جاء في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام في رسالته إلى بعض أصحابه: «**أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى الله فَإِنَّ الله قَدْ ضَمِنَ لِمَنِ اتَّقَاهُ أَنْ يُحَوِّلَهُ عَمَّا يَكْرَهُ إِلَى مَا يُحِبُّ وَيَرْزُقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَخَافُ عَلَى الْعِبَادِ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَيَأْمَنُ الْعُقُوبَةَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[1]. وقال عليه السلام: «**إِنَّ الله عَزَّ وجَلَّ جَعَلَ أَرْزَاقَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، وذَلِكَ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَمْ يَعْرِفْ وَجْهَ رِزْقِهِ كَثُرَ دُعَاؤُهُ**»[2]. و قال -في حديث آخر يفسر هذه الكلمة-: «**يُبَارِكُ لَهُ فِيمَا آتَاه**»[3].

والإيمان بهذه الحقيقة يقشع عن عقل الإنسان وروحه سحب اليأس ويفك أغلاله، ويدعوه إلى المزيد من البحث والسعي طلبا لتلك الآفاق. وما دام ربنا يرزقنا من حيث لا نحتسب فبالأولى أن يأتينا رزقه من حيث نتوقع حيث نعمل ونسعى ونتبع سبله، ومن المعروف: أن مالتوس[4] كان قد حذَّر العالم قبل قرن من نقص هائل في الموارد الغذائية في هذا القرن، واتَّبعه الكثير من الكتاب والمؤسسات الدراسية، في وقت فتح الله آفاقا جديدة في حقل التقدم العلمي وتنمية الموارد الغذائية التي تضاعفت خلال القرن الحاضر.. وتبشر الدراسات بأنها ستتضاعف في المستقبل. إن آفاق التقدم لا تحد، وإن قدرات الإنسان على التكامل عبرها لا تحصى، وإنما اليأس وسائر الأغلال والإصر تقيد البشر من الانبعاث، ولو عرف الإنسان قيمة التوكل على الله فاتقى ربه لرزقه الله من حيث لا يحتسب.

ولا ريب أن الآية لا تدعونا إلى الكسل والجلوس في البيت على أمل نزول رزق الله بالمعجزة، كلا.. بل ينبغي النظر لمعناها والتدبر فيها ضمن الأصول العامة التي جاء بها الإسلام والموجودة في الآيات الأخرى، كأصل السعي والعمل والكدح، بل الآية نفسها تشير إلى ذلك في الخاتمة وتدعو إلى نفض غبار اليأس والقنوط، والانبعاث بروح الأمل والتوكل. كذلك

---

(١) الكافي: ج٨، ص٤٩.

(٢) الكافي: ج٥، ص٨٤.

(٣) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٢٨١.

(٤) توماس مالتوس: الاقتصادي البريطاني المتشائم (ت: ١٨٣٤م).

الآية تواجه الوسوسة الشيطانية التي تجعل البعض يزعم أن الرزق لا يتأتى إلا عبر الحرام، لذلك يجد مثلا انفصاله عن دوائر الأنظمة ومؤسساتها أمرا لا يطاق، في حين أنّا لو توكلنا على الله فسوف نجده عند حسن ظننا به ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي الذي يكفيه، ولا ينبغي للمؤمن أبدا أن يشك في قدرة الله على تحقيق ما يعد به، مهما كانت الظروف صعبة ومعاكسة كما يبدو للإنسان فإن إرادته تعالى فوق كل شيء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾. بلى، نحن البشر تثنينا الأسباب، وتحول بيننا وبين ما نريد العقبات والموانع، لأن إرادتنا محدودة، أما الله فإن إرادته مطلقة. ولكنه تعالى أبى أن يُجري الأمور إلا بحكمة وموازين ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ على الإطلاق، فليس من شيء خارج على هذا القانون الإلهي العام، وكما تحكم المقاييس الظاهرية (الحجم والوزن والكثافة واللون والأجل) وجود كل شيء ومن ذلك المشاكل فإن هناك سننا وقوانين معنوية تحكمه أيضا، فلا يمكن للإنسان أن يجد رزقا حلالا من غير سعي مادي أو معنوي. ووعد الله برزق من يتقيه ويتوكل عليه أمر من أموره وهو لا ريب بالغه، ولكنه جعل لذلك موازين وضوابط ﴿قَدْرًا﴾ ينبغي للإنسان معرفتها وحل مشاكله من خلالها، ويجب عليه السعي في الحياة لتحقيق أهدافه وتطلعاته ومقاصده انطلاقا من الإيمان بهذه الحقيقة في تدبير الله لشؤون خلقه. من هنا جاء في تفسير هذه الآية: أن الإمام الصادق عليه السلام سأل بعض أصحابه: «مَا فَعَلَ عُمَرُ بْنُ مُسْلِمٍ؟. قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ أَقْبَلَ عَلَى الْعِبَادَةِ وتَرَكَ التِّجَارَةَ. فَقَالَ عليه السلام: وَيْحَهُ أَمَا عَلِمَ أَنَّ تَارِكَ الطَّلَبِ لَا يُسْتَجَابُ لَهُ دَعْوَةٌ، إِنَّ قَوْماً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أَغْلَقُوا الْأَبْوَابَ وأَقْبَلُوا عَلَى الْعِبَادَةِ، وقَالُوا: قَدْ كُفِينَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ صلى الله عليه وآله: مَا حَمَلَكُمْ عَلَى مَا صَنَعْتُمْ؟.

قَالُوا: يَا رَسُولَ الله تَكَفَّلَ الله عَزَّ وجَلَّ بِأَرْزَاقِنَا فَأَقْبَلْنَا عَلَى الْعِبَادَةِ، فَقَالَ صلى الله عليه وآله: إِنَّهُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَسْتَجِبِ الله لَهُ. عَلَيْكُمْ بِالطَّلَبِ»[١].

[٤-٥] وكما تتجلى هذه الحقيقة في عالم التكوين الطبيعية (الاقتصاد والفيزياء وما أشبه)، فإنها تطبع آثارها في عالم التشريع أيضا، حيث فرض الله عدة معينة بوصفها حقًّا من حقوق المرأة وواجبًا من واجبات الرجل بعد الطلاق. وبالطبع إن هناك حكمة ليست للاعتداد ذاته وحسب، بل لاختلاف العدة من امرأة إلى أخرى كذلك، قد تتكشف للإنسان في مفردات العدة بالتفكير العميق. ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ في كونهن هل يئسن أم لا. هن في سن أمثالهن تحيض، لذا تنشأ الريبة: ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ بناء على الأصل

(١) الكافي: ج٥، ص٨٤.

السابق وهو عدم اليأس، مما يجعل حكمهن كحكم النساء العاديات. أما لو تبين كونهن يائسات فليست لهن عدة، فعن أبي جعفر عليه السلام في الَّتِي قَدْ يَئِسَتْ مِنَ الْمَحِيضِ يُطَلِّقُهَا زَوْجُهَا قَالَ عليه السلام: **«قَدْ بَانَتْ مِنْهُ وَلَا عِدَّةَ عَلَيْهَا»**[1]. ويظهر من النصوص أن الأشهر هي الأشهر الهلالية.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ إذا ارتيب في كونهن بلغن الحيض فإن عدتهن كالمشكوك في يئسهن، أي ثلاثة أشهر، تأسيسا على الاحتياط، فإن كن لم يحضن فليس ذلك بضار أحدا، وإن تبين حيضهن يكون الرجل قد أحرز التكليف الشرعي الملقى عليه. وإلا فإن الصبية التي لم تبلغ البلوغ الشرعي لا عدة لها ولو دخل بها، فعن علي بن إبراهيم، عن أبيه عن بن محبوب، عن حماد عن عثمان، عمن رواه عن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام فِي الصَّبِيَّةِ الَّتِي لَا تَحِيضُ مِثْلُهَا وَالَّتِي قَدْ يَئِسَتْ مِنَ الْمَحِيضِ قَالَ: **«لَيْسَ عَلَيْهِمَا عِدَّةٌ وَإِنْ دُخِلَ بِهِمَا»**[2] واعتبار الإسلام مجرد الريب والشك بمنزلة اليقين بعدم اليأس لدى النساء وبالحيض للصبية عمليًّا بحيث يعطي للمرأة حق الاعتداد ثلاث أشهر؛ يظهر حرصه على سلامة الأسرة والعلاقات الزوجية، إذ لعل الاختلاف يحل وتعود المياه إلى مجاريها في هذه الفرصة.

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ فإذا ما وضعت الحمل انتهت عدتها، قال أبو عبد الله عليه السلام: **«طَلَاقُ الْحُبْلَى وَاحِدَةٌ وَإِنْ شَاءَ رَاجَعَهَا قَبْلَ أَنْ تَضَعَ، فَإِنْ وَضَعَتْ قَبْلَ أَنْ يُرَاجِعَهَا فَقَدْ بَانَتْ مِنْهُ، وَهُوَ خَاطِبٌ مِنَ الْخُطَّابِ»**[3] أي تقبله أو ترفضه. ووضع الحمل خروجه من بطنها ولدا أو سقطا، تماما أو مضغة، عن عبد الرحمن الحجاج عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن الحبلى إذا طلقها زوجها فوضعت سقطا تم أو لم يتم أو وضعته مضغة فقال: **«كُلُّ شَيْءٍ وَضَعَتْهُ يَسْتَبِينُ أَنَّهُ حَمْلٌ تَمَّ أَوْ لَمْ يَتِمَّ فَقَدِ انْقَضَتْ عِدَّتُهَا وَإِنْ كَانَتْ مُضْغَةً»**[4]، ولا يعتد بالمدة أكانت ثمانية أشهر أو لحظة واحدة بين الطلاق ووضع الحمل. وقد تكون العلة التي صارت من أجلها عدة الحامل وضع الحمل أن مسؤولية الحمل مشتركة بين الأم والأب لذلك تمتد عدتها زمنيًّا حتى تضع وقد يطول ذلك ثمانية أشهر، كما أن ذلك يعطي للزوج فرصة أكبر للمراجعة والتفكير، فعسى يعود إلى تكفل الولد بعد أن يلقي الله في قلبه حبه، ولعل ظاهر الآية يدل على أن العدة تنقضي حتى لو أجهضت المرأة نفسها لأن المعول على وضع الحمل. أما الحامل التي يتوفى زوجها فعدتها أبعد الأجلين، فعن سماعة عن الصادق عن الباقر عليهما السلام قال: **«الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا الْحَامِلُ أَجَلُهَا آخِرُ الْأَجَلَيْنِ، إِذَا كَانَتْ حُبْلَى فَتَمَّتْ لَهَا أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ**

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٢، ص١٨١.

(٢) الكافي: ج٦، ص٨٥.

(٣) تهذيب الأحكام: ج٨، ص٧١.

(٤) من لا يحضره الفقيه: ج٣، ص٥١١.

ولَمْ تَضَعْ فَإِنَّ عِدَّتَهَا إِلَى أَنْ تَضَعَ، وإِنْ كَانَتْ تَضَعُ حَمْلَهَا قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ لَهَا أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وعَشْرٌ تَعْتَدُّ بَعْدَ مَا تَضَعُ تَمَامَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وعَشْرٍ، وذَلِكَ أَبْعَدُ الأَجَلَيْنِ»[1].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ إذن فالطريق السليم الذي ينبغي للإنسان أن ينتهجه للخروج من العسرة والمشاكل المتأزمة هو التقوى، وخطأ ظن البعض أنه يصل إلى اليسر في أموره بمخالفة حدود الله وأحكامه. ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ و أمره أحكامه وتعاليمه.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ و نتساءل: كيف تكفر التقوى سيئات الإنسان؟ والجواب لسببين:

١- لأن أخطاء الإنسان التي تنتهي به إلى المآزق والمشاكل كالطلاق وخراب علاقته مع أهله نتيجة مباشرة لمنهجية خاطئة يتبعها في الحياة، كمنهجية الهوى أو المناهج البشرية الضالة، وبالتالي عدم اتباعه لنهج الله القويم. والتقوى بمفهومها الواسع ليست مجرد الإيمان بالله والخشية منه، بل هي إضافة إلى ذلك عودة الإنسان إلى نهج ربه المستقيم الكفيل بتصحيح أخطائه وإزالة آثارها السلبية في الواقع.

٢- ولأن التقوى حسنة كبيرة تشفع عند الله في الأخطاء الجانبية.

وإلى جانب التكفير عن السيئات هناك ثمرة عظيمة أخرى للتقوى تتمثل في المزيد من الجزاء والثواب ﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ إذ لا شك في أن العمل الصالح كالصدقة أعظم ثوابا وأجرا مع التقوى منه دونها، ذلك أنه كلما زاد إيمان الإنسان زاد إتقانه للعمل وخلوصه فيه وقربه بالتالي به إلى ربه، مما يزيد في جزائه عنده.

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٢ ص٢٤٠.

فاتقوا الله يا أولي الألباب

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ[1] وَلَا تُضَارُّوهُنَّ[2] لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا[3] بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس الأخير من سورة الطلاق يشرع الله مجموعة من الأحكام المتصلة بالأسرة،

(١) وجدكم: أي بقدر إمكاناتكم وغناكم وطاقتكم، وعن الحسن والجبائي: أي ما تجدونه من المساكن، وعن الفراء: يقول على ما يجد، فإن كان موسعاً وسّع عليها في المسكن والنفقة، وإن كان فقيراً فعلى قدر ذلك.

(٢) تضاروهن: أي تضيقوا عليهن بالضرر في المسكن والنفقة.

(٣) وأتمروا: من الائتمار، والائتمار: قبول الأمر، وملاقاته بالتقبل.

وبالذات بالعلاقة بين الزوجين حيث العدة، ليقرر للمرأة حق السكنى والنفقة على زوجها، بل أخذ أجرة على الرضاعة، كما وينهى الرجل عن الإضرار بها والتضييق عليها تشفيًا أو للخلاص من المسؤولية بالضغط، ثم يؤكد أن الائتمار بالمعروف بوصفه واجبًا شرعيًا على كل مؤمن ومؤمنة تجاه بعضهم لا ينبغي أن يقطع حباله الاختلاف مهما بلغ. ولو بلغ حالة الطلاق.. لأن المسؤولية الاجتماعية واجب إلهي يجب أن تبقى حاكمة في علاقة المؤمنين بعضهم ببعضهم، حيث بعضهم أولياء بعض في كل زمان ومكان وظرف.. وتبلغ عناية الدين الحنيف بالمرأة إلى حد يقرر لها الحق في قبول الرضاعة أو رفضها، خلافا للعرف الذي جرت عليه المجتمعات، وسارت عليه الجاهلية والكثير من المذاهب البشرية.

ثم يعود القرآن ليضع الميزان الحق في شأن النفقة، فهو كما يوجبها على الرجل حقًا للمرأة، لا يسمح من جهة أخرى للزوجة استغلال هذا الحق لتطالب زوجها عند قراره بالطلاق نفقة أكثر مما يتحمل تشفيًا منه، فليس أحد مكلفًا في شرع الله أكبر وأكثر مما يستطيع.

وينتهي السياق القرآني الذي يتمحور حول التقوى في هذه السورة ليحذر من مخالفة شرائع الله وحدوده بصورة عامة وفي حق الأسرة بالذات، مشيرا إلى أن الأسرة لا تختلف في ظل سننه عن المجتمع الكبير الذي لو تجاوز الحدود فإن عاقبته الخسارة والدمار كما ينطق بذلك تاريخ الحضارات التي دُمِّرت فأصبحت عبرا وأحاديث.

ولأن المؤمنين أولى بدراسة التاريخ من غيرهم فإن الخطاب يتوجه إليهم خاصة لكي يخرجوا بذلك إلى النور، ويختم السورة بالإشارة إلى الحكمة من خلق الإنسان والعالم المسخر له ألا وهي أن يتجلى الله لعباده عبر آياته المبثوثة في النفس وفي الآفاق لعلهم يخلصون من ظلمات الضلال والشرك.

بينات من الآيات:

[٦] لكيلا يظلم المرء زوجته التي عافتها نفسه، ومشى الشيطان بينهما بألف عقدة وعقدة، يأمر القرآن بأن يختار لها زوجها سكنا مناسبا لوضعهم الاجتماعي بلا تميز ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ والوجد: ما يجده الإنسان ويقدر عليه، وفي المنجد: أنا واجد للشيء أي قادر عليه. والوجد القدرة، يقال: أنا واجد الشيء أي قادر عليه. والآية تحدثنا عن نوع السكن وأنه واجب على الرجل ليس السكنى وحسب بل إسكان زوجته في العدة بالذات كما يسكن، فلا يصح أن يسكن هو في المكان المكيف صيفا وشتاء ويسكنها فيما دون ذلك، ولهذا جاء التعبير بـ ﴿مِنْ﴾ التبعيضية ولا يكون بعض الشيء إلا من نوعه وجنسه. ويحرِّم

الإسلام أن يضر الرجل بزوجته أثناء العدة ليضطرها للتنازل عن النفقة أو الخروج من بيته قبل انتهاء العدة باستخدام الضغوط المختلفة المادية أو المعنوية نفسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية أو ما أشبه مما يحقق الغرض نفسه، بل لا بد أن تجد الزوجة الراحة والسعة من جميع جوانبها قدر الإمكان.

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾ ولعل أبلغ ضرر تناله المرأة المطلقة من زوجها هو جراحات اللسان، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**لَا يُضَارُّ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِذَا طَلَّقَهَا فَيُضَيِّقَ عَلَيْهَا حَتَّى تَنْتَقِلَ قَبْلَ أَنْ تَنْقَضِيَ عِدَّتُهَا، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قَدْ نَهَى عَنْ ذَلِكَ**»[1] والتي لزوجها عليها السكنى والنفقة غير المبتوتة[2].

عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عِيسَى عَنْ سَمَاعَةَ قَالَ: «قُلْتُ لَهُ -عليه السلام- الْمُطَلَّقَةُ ثَلَاثاً لَهَا سُكْنَى أَوْ نَفَقَةٌ؟ فَقَالَ عليه السلام: حُبْلَى هِيَ؟. قُلْتُ: لَا، قَالَ عليه السلام: **لَيْسَ لَهَا سُكْنَى ولَا نَفَقَةٌ**»[3] وعن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**إِنَّ الْمُطَلَّقَةَ ثَلَاثاً لَيْسَ لَهَا نَفَقَةٌ عَلَى زَوْجِهَا إِنَّمَا هِيَ لِلَّتِي لِزَوْجِهَا عَلَيْهَا رَجْعَةٌ**»[4].

وكما تمتد عدة الحامل إلى الوضع كذلك يجب أن يسكنها وينفق عليها حتى تضع حملها، لأن الولد له، وثابت علمياً أن الولد يستهلك ما يحتاج من أمه، فلو نقص الكالسيوم في غذاء أمه فإنه سوف يؤثر على تركيبة عظامها، يقول الدكتور محمد علي البار[5] في كتابه (خلق الإنسان بين الطب والقرآن): «تصاب بعض الأمهات الحوامل بلين في العظام أثناء الحمل، كما تصاب أسنانهن بالالتهابات المتكررة، والسبب في ذلك أن الجنين لكي يبني عظامه يسحب من دم أمه وعظامها الكالسيوم والمواد الضرورية لبناء عظامه، حتى ولو تركها هزيلة هشة العظام شاحبة الوجه تعاني من لين العظام ومن فقر الدم.. ويضيف: يقول مجموعة من أساتذة طب النساء والولادة: والطفل يعتبر كالنبات الطفيلي الذي يستمد كل ما يحتاج إليه من الشجرة التي يتعلق بها، يعيش ويأخذ غذاءه من الأم مهما كانت حالتها أو ظروفها حتى ولو تركها شبحا»، لهذا فالمرأة أحوج ما تكون للعناية في فترة الحمل.

﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ وجاء في أصول الكافي عن أبي

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٢، ص٢١٣.
(٢) المبتوتة: المطلقة بائناً فلا يحق لزوجها الرجعة لها البتة.
(٣) وسائل الشيعة: ج٨، ص٥٢٠.
(٤) الكافي: ج٦، ص١٠٤.
(٥) طبيب وباحث، له مؤلفات عدة، غلب عليها البحث في الإعجاز القرآني والبحوث ذات المساس بالقضايا الفقهية.

جعفر عليه السلام قال: «الحَامِلُ أَجَلُهَا أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا، وعَلَيْهِ نَفَقَتُهَا بِالْمَعْرُوفِ حَتَّى تَضَعَ حَمْلَهَا»[1]، ولو أنها أرضعت وليدها بعدئذ فلها الحق أن تتقاضى أجرا على الإرضاع، لأنه من الناحية الشرعية ليس واجبا على الأم بشكل عام حتى المطلقة التي تنتهي عدتها وقيمومة الرجل عليها بعد الوضع، فالحليب ملكها وإن كان من الناحية التكوينية يتكون مع الحمل وبسببه. والعلم الحديث يقر هذه الحقيقة، وعلى أساسه دعت التشريعات الحديثة إلى تخصيصات للمرأة أثناء الرضاعة، وبعض البلدان تشرف على طعام المرأة المرضع والحامل، وتدعو إلى الاهتمام بطعامها في هاتين الفترتين.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ في مقابل الرضاعة. أما السكنى والنفقة فليسا واجبين على الزوج بعد الوضع. و لا يحق للزوج أن يلزم زوجته -وبالذات المطلقة- بالرضاعة. بلى، يجوز التفاهم في هذه المسألة بين الطرفين بعيدا عن أي لون من الضغوط والسبل الملتوية، بل بالحق. ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي ليأمر بعضكم بعضا بالمعروف بالتشاور والتحاور، ولا بد أن يتم ذلك في إطار صحيح لا يتنكر له العقلاء ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ حتى يستقر الائتمار على رأي يرضاه الطرفان. أما إذا حدث الاختلاف فإن الحق للأم تقبل الرضاعة أو ترفضها لتكون المرضعة غيرها ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾، ولا يجوز للأب أن يجبر أم ولده على رضاعته حلًّا للتعاسر، لأن ولاية الرجال على النساء لا تمتد إلى هذه الحدود في الظروف الطبيعية فكيف بعد الطلاق؟! ونهتدي من خاتمة الآية إلى أن للحاكم الشرعي أن يلزم الأم بالرضاعة لو توقفت حياة الولد عليها، فيكون الزوج حينئذ ملزما بإعطاء أجرة المثل.

[٧] ويعود القرآن لبيان المقياس الذي ينبغي أن يكون ميزانا فيصلا بين الطرفين في مقدار النفقة، ولكن الوحي لا يحدد دينارا ولا درهما بل يضع قيمة تصلح لكل زمان ومكان واحد لأنه لم ينزل لأمة دون أخرى، ولا لجيل دون جيل. من هنا يطرح المقاييس الفطرية العامة بوضوح كاف لينطبق على كل عصر، فما هو المقياس الذي يحدد كيف وكم تكون النفقة؟ إنه استطاعة الزوج المادية الممكنة، وليست صفاته، فلو كان غنيًّا بخيلا فإنه لا يجوز منه التقتير على زوجته المطلقة بالذات حيث تجب عليه نفقتها، بل عليه التوسيع عليها، كما لا يجوز للزوج ولا للحاكم أن يفرض عليه التوسيع في النفقة لو كان مقترا فقيرا ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ أي بعضها وبنسبتها، فليس مطالبا ببذل كل ما يملك، إنما الواجب أن يفيض عليها من غناه بحيث يوسع عليها. ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ وكان فقيرا ﴿فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ فتشريعه عز وجل تشريع واقعي عملي، وحاشا له أن يكلف أحدا ما لا يطيق، وهذه

---

(١) الكافي: ج٦، ص١٠٣.

الآية لا تقتصر على مسألة النفقة على الزوجة حيث العدة، بل هي قاعدة لتنظيم الاقتصاد الفردي، وحل المشاكل المتصلة به في المجتمع والأسرة، فلا غرو أن يوسع الغني على نفسه من المال الحلال لأن الله إذا أنعم على عبد نعمة أحب أن يراها فيه، قال الإمام أبو عبد الله عليه السلام -وقد سأله أحد أصحابه: «عَنِ الرَّجُلِ الْمُوسِرِ يَتَّخِذُ الثِّيَابَ الْكَثِيرَةَ الْجِيَادَ وَالطَّيَالِسَةَ وَالْقُمُصَ الْكَثِيرَةَ يَصُونُ بَعْضُهَا بَعْضاً يَتَجَمَّلُ بِهَا أَيَكُونُ مُسْرِفاً؟- : لَا؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾»[1]، ومن جهة أخرى يجب ألاَّ ينفق الفقير أكثر من طاقته تلبية لرغباته الشخصية أو تظاهرا بين الناس أو لكي يوافق المجتمع المحيط في معيشته ومظاهره، فإن ذلك يوقعه في مشاكل اقتصادية تنتهي إلى انحرافات خطيرة بعض الأحيان. و هذه الآية يجب أن يتخذها الإنسان شعارا في إدارة نفسه وأسرته. وحيث إن النفقة من واجبات الرجل تجاه أسرته وأهله فإن للمرأة الحق في طلب الانفصال عنه لو لم يؤدها الرجل، فعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى امْرَأَتِهِ مَا يُقِيمُ ظَهْرَهَا مَعَ الْكِسْوَةِ وإِلَّا فُرِّقَ بَيْنَهُمَا»[2]، ولكن الله يعطي الإنسان شحنة من الأمل برحمته ورزقه، وفي الوقت نفسه يدعو من طرف خفي الزوجة إلى الصبر والتحمل تسليما لقضاء الله، وأملا في فضله، فإنها لا تدري لعل زوجها الفقير يصبح غنيًّا مقتدرا بفضله تعالى ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

[٨] وبعد أن يبين ربنا هذه الحدود الشرعية يحذر من عواقب خرقها وتعديها حيث الفشل والعذاب في الدارين، فإنها سنة الله التي تتجلى في تاريخ البشرية، وهي كما تجري في المجتمعات الكبيرة حينما تحادد الله وتخرج عن أمره تجري في الأسرة ذلك المجتمع الصغير، لأن سنن الله واحدة تجري في الموضوعات الصغيرة بمثل ما تجري في الحقائق الجليلة، أرأيت سنة الله في النار. إنها تحرق سواء كانت في عود الثقاب أو في فرن عظيم ! من هنا علينا أن ندرس التاريخ لنعتبر به في سلوكنا الفردي في تنظيم حياتنا الأسرية وفي نظام المجتمع وحركة الحضارة.. لأن التاريخ تجسيد لسنن الله وسنن الله واحدة في الصغير والكبير.

وتنتظم الآيات اللاحقة في السياق العام للسورة (التقوى) من زاوية مباشرة لهذا الموضوع، ذلك أن التفكر في مصير الأمم الماضية التي تمردت على شرائع الله وسننه فلقيت من العذاب ما لا يخطر ببال بشر كفيل بتنمية روح التقوى عند الإنسان. ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: وكم من قرية؟! فكأين تفيد الكثرة. و لعل التعبير بصيغة الكثرة الرهيبة يهدف مواجهة حالة الاسترخاء التي تصيب الإنسان بسبب تواتر نعم الله وتتابع آلائه الكثيرة، حتى يزعم أن الرب قد غفل عنه أو أهمله أو فوض إليه أمره فيدعوه ذلك إلى الإيغال في الذنوب، كلا.. إن قرى

(١) وسائل الشيعة: ج٥، ص٢٢.
(٢) وسائل الشيعة: ج٢١، ص٥١٢.

كثيرة قد دمرت فحذار أن تدمر أيضا قريتك الصغيرة المتمثلة في الأسرة والكبيرة المتمثلة في بلدك، لأنها ليست فوق سنن الله بل هي كأي من القرى الأخرى.

والقرية -كما يبدو- تطلق في القرآن عادة على المجتمعات المتخلفة الفاسدة، بينما تستخدم كلمة بلد أو المدينة عن المجتمعات المتحضرة، وعدم تحديد الآية لقرية بذاتها ينطوي على دعوة لدراسة شاملة لتاريخ البشرية، ذلك لأن الإنسان مفطور على مراجعة التاريخ والاعتبار به، ونظرته إليه تحدد نظرته إلى الحاضر وتطلعه نحو المستقبل. والرسالات الإلهية تسعى إلى تصحيح تقييمه للتاريخ، لكيلا تكون نظراته خاطئة ولا حتى عابرة، وذلك لأن الكثير حينما يمرون على آثار الماضين يكتفون بالسياحة أو النياحة، والأدب العربي - كما سائر آداب البشر - زاخر بروائع الشعر التي تستوقف الإنسان على الأطلال والبكاء حزنا عندها، وقد اشتهر هذا الاستهلال في شعر العرب، قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل.. حتى قيل إنه مطلع لسبعين رائعة شعرية !.

وبينما القرآن الكريم يستوقف الإنسان أيضا عند القرى المدمرة ولكن ليس لمجرد السياحة أو النياحة بل للاتعاظ والاعتبار. و لقد مر المسلمون في عهد الإمام علي عليه السلام على أطلال عاصمة كسرى فانشد بعضهم:

جرت الرياح على ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد

فنهره الإمام عليه السلام وقال له: أفلا قلت: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾[1].

وهكذا يوجه القرآن هذه النظرة الكامنة في الإنسان ليقف على الأطلال، ويتذكر الغابرين، ويعتبر بمصيرهم، ويهتدي بالسنن التي كشفتها حياتهم ومماتهم من أجل بناء حياة سعيدة آمنة.و عادة ما ينقل القرآن تاريخ الشعوب وليس الأفراد، وحتى إذا تحدث عن فرد كفرعون أو هامان أو قارون فغالبا ما يضع الحديث عنه في إطار اجتماعي باعتباره طاغية أو مرتزق أو مترف، والسبب أن حركة التاريخ أجلى وأوضح حينما يوجه الإنسان نظره وفكره إلى مسيرة الأمم وتاريخها، وتدمير المجتمعات والشعوب أدل على سنن الله وحاكميته من هلاك فرد لأن موته قد يكون بسبب طبيعي، بل إن موته لا يثير الإنسان للتفكر والاعتبار كما يثيره هلاك الأمم والمجتمعات.

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٢٧.

إن هلاك الأمم وبصورة متعاقبة لا يمكن أن يكون أمرا اعتياديًّا، وهذا ما يتضح عند دراسة تاريخ القرى التي دمرت والحضارات التي بادت، فإننا لا شك سنجد سببا لهذه العاقبة وهو الفساد الواقع الذي أفقدها مبرر الحياة، حيث تمردت على النظم الإلهية، كما قال الله: ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ والعتو: هو المبالغة في العصيان والانحراف والتحدي، أما الأمر فهو النهج والسبيل المتمثل في الشرائع والحدود الإلهية، كما قال تعالى بعد أن عدد مجموعة من الأحكام والحدود في الآيات: (١-٤): ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق: ٥]، ولكن الله سماها كلها أمرا بصفة الإفراد ربما ليؤكد لنا بأنها لا تقبل التجزئة أبدا، فمن يعصِ الله أو الرسول ولو في أمر واحد فإنه يعتبر عاصيا لهما، كما لا يسمى مطيعا وملتزما إلا من يسلِّم لكل ما يصدر عنهما ويعمل به.

و قد أضاف إلى أمره ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ لأن الطاعة للقيادة الرسالية من أعظم وأجلى أوامر الله، لأن أمر الله هو القيم التشريعية كالأحكام والنظم والقوانين الصادرة عن الله مباشرة والمذكورة في رسالته التي أنزلها للناس، في حين أن أمر الرسول ﷺ هو الجانب العملي والسياسي من أمر الله المتجسد في النظام السياسي والديني الذي يقوده ﷺ ومن يمثله بحق، فلا يصح إذن أن يزعم المسلم أنه يكتفي بالقرآن في حياته، بل لا بد له من البحث عن القيادة الإلهية لكي ينتمي إلى خطها ويجند نفسه تحت لوائها فلا يعتو عن أمر من أوامرها أبدا، فإن في ذلك الخسران وبئس العاقبة.

إن الهدف من الخلق والوجود هو عبادة الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإذا لم يحرز المجتمع هذا الهدف لم يبق مبرر لوجوده، وإن قيمة الإنسان يستمدها من مدى تجسيده للحق وطاعته لربه، فإذا تمحض في الشر والعصيان لم تبق له قيمة عند الله، ولا عجب حينئذ أن ترى في التاريخ تلك القرى التي دمرها الله لعتوها عن أمره.

﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ إذن العذاب الذي حل بتلك القرى ليس بالصدفة، وإنما هو نتيجة طبيعية لأعمالها السيئة التي تتكشف بالدراسة والمتابعة والتحليل لمسيرتها التي سبقت الهلاك، فلكل فعل رد فعل، ولكل معصية مردود سلبي على صاحبها، فشرب الخمر يسبب مجموعة من الأمراض، والربا يؤدي إلى الفساد الاقتصادي، والزنا يعدم الأسرة، ولكنك إذا جمعت بالحساب الدقيق انحرافات أمة من الأمم تعتو عن أمر ربها فستجد رد فعلها الخسران والدمار لا غير، وهذا ما حل بتلك القرى من العذاب المنكر الذي لا يتصوره البشر. وما دامت حركة التاريخ في الأمم والأفراد قائمة على الحسابات الدقيقة فحري بالإنسان أن يدرس كل خطوة يقوم بها في الحياة، وكل قرار يتخذه صغيرا وكبيرا، في ضوء معادلة الربح

والخسارة والعاقبة المصيرية.

والحساب الشديد هو الحساب الدقيق، ذلك لأن الله يحاسب الناس بلطفه فيتغاضى عن كثير من سيئاتهم، ولكنه إذا سخط على أحد بسبب انحراف مجمل سلوكه (أمة أو فردا) حاسبه بعدله فيصير من الحساب اليسير إلى الآخر الشديد والعسير، وحينئذ لا ينجو من العذاب، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وكما أن الله يحاسب الإنسان الذي يكون مجمل مسيرته الصلاح والحسنات الكبيرة حسابا يسيرا فيكفِّر عنه سيئاته، فإنه سبحانه يحاسب الذي يكون مجمل مسيرته الفساد والفواحش الكبيرة حسابا عسيرا لا تغفر فيه سيئة بل تتضاعف، وهكذا فعل الله بالقرى التي دمرها، من هنا قال العلامة الطبرسي رحمه الله: «الحساب الشديد هو الذي ليس فيه عفو»[1]. وتعذيب الله لتلك القرى ينسف ظنون البعض بأنه وهو الرحيم أجلُّ من أن يؤاخذ العباد بما يعصون، وبالتالي مما يبعثهم نحو الاسترسال في الفسق والانحراف من خلال هذا التبرير الواهي، وهذا أحد معاني قوله سبحانه: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[فصلت: ٢٣] وذكر ذلك يزرع روح التقوى في القلب، ويوقف مسيرة الاسترسال نحو الهاوية!

[٩] إن الإنسان لا يمكنه أن يتحرك في الفراغ، لذلك فإن القرى حينما عتت عن أمر الله (وتمردت على مناهجه ونظمه) اصطنعت لنفسها نظما وقوانين بشرية، ولكن هل وصلت إلى أهدافها الحقيقية، بل هل حققت مصالحها ورغباتها؟ كلا.. لأن رسالات الله وسبله وحدها التي تسعد الإنسان وتلبي حاجاته، لذلك بقيت وحدها الخط الثابت عبر الزمن، رسالة بعد أخرى، وجيلا بعد جيل، أما المذاهب البشرية فهي تبطل الواحد بعد الآخر، فكلما ابتدع المترفون مذهبا وضعيا ليكون بديلا عن رسالات الله ورسله وغطاء لتسلطهم غير المشروع على رقاب الناس لم يلبث أن ظهر فساده، وانتشرت آثاره السيئة فاستبدلوه بمذهب آخر أو أفسد منه، وها نحن اليوم نسمع ونقرأ عن إفلاس الشيوعية (بوصفها نموذج للمذاهب المادية العاتية عن أمر الله) بسبب ما جرَّت على الناس من دمار وقمع وفساد عريض. أوليس هذا وبالا وعذابا؟! بلى؛ ولكن هل يعود الناس إلى مناهج الوحي؟ كلا.. إنما يبتدع لهم كبراؤهم مذهبا باطلا آخر ويأفكونهم به.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي ثقل عاقبة أمرها المتمثلة في الخسران ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ فهي من جهة خسرت المكاسب والمعطيات العظيمة التي تنال بتطبيق أمر الله ورسله، ومن

(١) مجمع البيان: ج ١٠، ص٣٩٣.

جهة أخرى خسرت سعيها وجهودها والأهداف التي تمنت بلوغها وهذه هي نتيجة المسيرة الخاطئة التي اختارها الناس لأنفسهم، وهكذا كل حضارة لا تقوم على أساس رصين من الحق فإنها تكون كبناء على شرف هار، كلما ارتفع البناء اقترب من الانهيار، وفي لحظة يتلاشى كل شيء، وتذهب جهود الملايين من البشر!.

[١٠-١١] والخطير في الأمر أن الخسارة والعذاب ليسا في الدنيا فحسب فإن ما في الآخرة أشد وأخزى! ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ولعل إعداد العذاب بسبب أنه يأتي نتيجة الأفعال التي يجترحها المذنبون في الدنيا فيهيئ الله لكل ذنب ما يناسبه من العذاب كما وكيفا، مما يجعلنا أشد حذرا من السيئات لأنها تتحول إلى عذاب شديد فور وقوعها ولكننا محجوبون عنه اليوم.

وكما تهبط الأمم إلى حد الهلاك بالعتو عن أمر الله ورسله، واتباع المناهج البشرية، فإنها ترتقي في مدارج الكمال والتقدم بالتسليم لأمر الله ورسله وبالتقوى وتطبيق شرائعه ومناهجه في الحياة، فتفلح في الدنيا بالخروج من الظلمات إلى النور، وفي الآخرة بالخلود في جنات النعيم.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إن التقوى درجة رفيعة من الإيمان بالله تبعث الإنسان إلى المزيد من الوعي لأمر الله والتسليم له، فهي إذن تكمل لبّه وعقله، كما تكمل إيمانه وجوانبه الروحية. من هنا فإنها أكبر عامل وأوثق ضمانة لاستجابته للحق والتزامه به.

وقد قالوا: إن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدل عن ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، واللب هو مخ الشيء وعمقه، وذو اللب هو صاحب البصيرة التي تنفذ إلى أغوار الأمور، وقد خاطب الله المؤمنين من هذه الزاوية لأن دراسة التاريخ وما صارت إليه تلك القرى والاعتبار منه يحتاج إلى الإيمان وإلى الألباب والبصائر التي هي محور الثواب والعقاب، ففي (المحاسن) للبرقي مرفوعاً إلى أحد الأئمة عليهم السلام، قال عليه السلام: **«مَا يُعْبَأُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الدِّينِ بِمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ. قَالَ: قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنَّا نَأْتِي قَوْماً لَا بَأْسَ بِهِمْ عِنْدَنَا مِمَّنْ يَصِفُ هَذَا الْأَمْرَ لَيْسَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْعُقُولُ، فَقَالَ عليه السلام: لَيْسَ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ خَاطَبَ اللهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْعَقْلَ فَقَالَ لَهُ: أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي مَا خَلَقْتُ شَيْئاً أَحْسَنَ مِنْكَ وَأَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ، بِكَ آخُذُ وَبِكَ أُعْطِي»**[1]. إن تقوى الله تعني تجنب الوقوع في سخطه وعذابه، وهي لا تتحقق بالإيمان وحده، بل لا بد من لب يعرف به الإنسان ما يسخط الرب وما يرضيه، ذلك لأن الشروط الموضوعية للتقوى متوافرة، فتلك هي عبر التاريخ أمامنا، وهذا كتاب الله ورسوله يذكرنا الله بهما ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ يذكر الإنسان بربه، وبالحقائق الفطرية، ويذكره بطاقاته، وقدراته

(١) المحاسن: للبرقي: ج١، ص١٩٤.

الكامنة، وأهدافه، وتطلعاته، ويستنقذه من الغفلة، فما هو ذلك الذكر؟.

﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ قال أكثر المفسرين: إن الذكر هو الرسول، والذي يبدو لي أن الذكر أعم. إنه الرسول والرسالة، لأنهما جنبا إلى جنب يكمل أحدهما الآخر ذكر الله للناس، والرسول ليس منزلا إنما المنزل هي صفة الرسالة التي اشتق اسم الرسول منها، وهكذا وصف الرسول بالذكر لأنه يتلو آيات بينات، ومن هنا: لا يكون الذكر الكتاب وحده، ولا الرسول وحده، وإنما هما معا. وهما معا يشكلان حالة واحدة لا ينفصلان ولا يفترقان حتى يوم القيامة. والآية هي العلامة والدلالة، وآيات الله كل ما يعرِّف الإنسان به ويهديه، فالسماء آية، والشجر آية، والمطر آية و... ولكن أجلى الآيات هي التي جاءت بها رسالة الله عز وجل، والتي وصفها بأنها ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ لأنها آية في ذاتها وتهدينا إلى سائر آيات الله، وهذا ما يميز آيات القرآن عن الآيات الطبيعية الأخرى.

ثم إنها ترسم الطريق المستقيم، فتبين الصواب والخطأ، وما أحوجنا أن نتبعها. أوليست تنصب لنا أنوار الهداية، كما قال تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات التفرق إلى نور الوحدة و... وبعبارة أخرى: من كل شر وظلمة إلى كل خير ونور. ونتساءل: أوليس المؤمنون قد خرجوا فعلا من ظلمة الكفر إلى ضياء التوحيد، فماذا يعني بيان أن الله يخرجهم من الظلمات إلى النور؟.

الجواب: للإنسان في البدء فرصتان متساويتان للإيمان وللكفر، وقلبه كالشفق فيه ضغث من نور وآخر من ظلمة، وآيات الله لا تكشف له عن النور والظلمة فقط، بل ترجِّح فيه فرصة الإيمان وتزيد النور الذي في قلبه لتميل به إلى الحق، ثم ترقى به درجة فدرجة في مدارج النور والكمال حتى يتمحض في الإيمان فيخرج خروجا كليًّا من الظلمات إلى النور، لأن كل عمل قبيح ونية فاسدة وصفة ذميمة ظلام في القلب، وكل عمل صالح ونية رشيدة وصفة حميدة نور، وكلما تزكى القلب وتطهر السلوك من السيئات زاد القلب نورا حتى يصبح العبد من المخلصين، كالذهب المصفى لا يشوب نور إيمانه أي ظلام، وهذا مقام أولياء الله المقربين.

وهكذا ليست آيات الله بديلا عن سعي الإنسان نفسه، إنما دورها هو رسم النهج السليم للكمال والرقي، وعلى الإنسان الاجتهاد للعروج إلى الكمال. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ و الرزق ما يعطى للإنسان شيئا فشيئا مما يوحي بأن نعيم المؤمنين في الآخرة لا ينحصر فيما يعطونهم أول مرة، إنما هو في ازدياد وتكامل يوما بعد يوم.

[١٢] وحيث دعتنا أكثر آيات السورة إلى تقوى الله جاءت الخاتمة تعرفنا بربنا سبحانه، لأن التقوى بنت المعرفة، فكيف إذن نزداد معرفة بربنا لكي نزداد تقوى؟.

لننظر إلى الآفاق من حولنا، إلى السماوات والأرض، وإلى أسمائه المتجلية في هذه الآفاق. إنها سبيلنا إلى معرفته تعالى، فحيثما رميت ببصرك رأيت عجيب الصنع وعظمة الخلقة، وأنى جلت ببصرك وتعمقت بفكرك فلن تجد إلا إجابة واحدة تقودك إلى حقيقة التقوى وسنام المعرفة. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ قيل: السبع كالسبعين كلمة تدل على الكثرة، وقيل: إن الظاهر هو المقصود، فهناك سبع سماوات، فما هي السماوات السبع؟ هل هي ما تحيط بالأقاليم السبع من الفضاء القريب، باعتبار أن السماء هي الجهة المقابلة للأرض، فإذا كانت الأرضون سبعا -حسب تقسيم الناس يومئذ- فإن سماواتها أيضا سبع، وعلى هذا فإن الأرضين السبع هي تلك الأقاليم المشهورة في أدب العرب وفي عرف الذين خوطبوا بالقرآن، وقد جاء في حديث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «والله لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا»[1]، أم أن السماوات السبع إشارة إلى الكواكب أو إلى سبع منظومات شمسية أو إلى المجرات؟ لعل الإنسان يطلع على معاني أخرى إذا تقدم به العلم. والمماثلة بين السماوات والأرضين هنا قد تكون عددية وجنسية حيث إن الأرض من رتق السماء.

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ و ﴿ٱلْأَمْرُ﴾: سنن الله وقضاؤه وتقديراته وما يبدو له مما يدبر به شؤون الخلق، ولعل ذلك سمي أمرا لأن الله وكَّل ملائكة على كل شيء ينفذون إرادته في الكائنات، فهو يأمرهم من فوقهم وهم يعملون بما يريد.

وإذا بحثنا عن الفلسفة الأساسية التي خُلقت من أجلها السماوات والأرض، وبالذات السماوات التي لا يطالها الإنسان فإننا سنجدها ليست المتعة بالنظر إليها، ولا ما تقوم به من دور في وجوده وحياته، إنما هي كماله المعنوي والروحي بمعرفة ربه من خلال أسمائه المتجلية في الكون من حوله ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ حيث تتجلى آية قدرته في الخلق العظيم للسماوات والأرض لتهدينا إلى هذه الحقيقة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾، وآية ذلك أمره الذي يتنزل لتدبير كل شيء. وعلم الإنسان بقدرة الله على كل شيء وعلمه المطلق وبالتالي إيمانه بذلك هو الذي يزرع في نفسه التقوى، حيث يخشى سطوة الله القادر، ويتحسس رقابته عليه فلا يعصيه في علن ولا خفاء.

وكلمة أخيرة: إن الإنسان الذي لا يتخذ الخليقة وسيلة لتكامل معرفته وإيمانه بربه ضال عن هدف الخلقة، أَوَ تدري كيف؟ لأن الله سبحانه قد خلق ما في الأرض للإنسان حتى أصبح

(١) نهج البلاغة: خطبة: ٢٢٤.

الإنسان محور الخليقة، فهل خلقها لجسده أم لروحه؟ إن الإنسان لا يتميز بجسده عن أي حيوان آخر، ولا فضيلة له في ذلك أبدا. إذن حكمة الخلق تكمن في روحه، وماذا في روح الإنسان غير العقل الذي ينمو بالنظر في آفاق السماوات والأرض؟! فمن لم يتكامل عقله فإنه لا يبطل حكمة خلقه فقط، بل وحكمة الوجود من حوله أيضا. أليس كذلك؟.

سُورَةُ التَّحرِيم

* مدنيّة.

* عدد آياتها: ١٢.

* ترتيبها النزولي: ١٠٨.

* ترتيبها في المصحف: ٦٦.

* نزلت بعد سورة الحجرات.

فضل السورة

عن النبي ﷺ قال: «وَمَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ أَعْطَاهُ اللهُ تَوْبَةً نَصُوحاً».

(مستدرك الوسائل: ج٤، ص٣٥٢)

***

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ (الطَّلَاقِ) و(التَّحْرِيم) فِي فَرَائِضِهِ أَعَاذَهُ الله مِنْ أَنْ يَكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمَّنْ يَخَافُ أَوْ يَحْزَنُ، وعُوفِيَ مِنَ النَّارِ، وأَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ بِتِلَاوَتِهِ إِيَّاهُمَا ومُحَافَظَتِهِ عَلَيْهِمَا لِأَنَّهُمَا لِلنَّبِيِّ ﷺ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص١٤٨)

الإطار العام

أسس العلاقة الزوجية

لقد ارتفعت ولا تزال راية الجدل بين المذاهب الإسلامية في شأن زوجات الرسول ﷺ فاختلفوا إلى ثلاثة آراء رئيسية:

الأول: أضفى عليهن مسحة من العصمة متابعة لبعض النصوص، كقول الله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦]، وكونهن مشمولات بآية التطهير وأخبار وردت، ولأنهن زوجات أفضل خلق الله ﷺ الذي لا يعقل أن يختار لنفسه من الزوجات إلا خير النساء، وقد دعمت هذا الرأي اعتبارات مذهبية أخرى.

الثاني: وتطرف فريق إلى حد الطعن فيهن لدوافع مصلحية أو مذهبية، كالمنافقين الذين نالوا بالإفك والبهتان من بعض زوجات الرسول ﷺ.

الثالث: وبين هذا وذلك أخذ فريق سبيلا وسطا، فلا تبرير للأخطاء، ولا تضخيم لها: ولكي يصل الباحث إلى الرأي الموضوعي لا بد أن يدرس أمرين أساسيين: أحدهما: تاريخ زوجات الرسول ﷺ دراسة موضوعية، والآخر: موقف القرآن عبر دراسة شاملة لكل ما أوردته آياته في الموضوع، ولكن بما أن في التاريخ اختلافا وتزويرا فإن القرآن يبقى هو الميزان الثابت والفرقان الأعظم وبالخصوص في القضايا الحساسة كالموقف من زوجات سيد الرسل ﷺ، فما هو موقف القرآن؟.

لقد سجلت الآيات القرآنية موقف الرسالة الإلهية في هذه القضية، ويكفينا أن نعرض هنا ما جاءت به سورة التحريم التي يبدو أنها تحدثنا فيما تحدثنا عن هذا الموضوع بوصفه خطًّا عامًّا لآياتها.

١ - ففي البداية تبين أن الرسول ﷺ كان يتعرض للضغط من قبل بعض أزواجه،

حتى يضطر في بعض الأحيان أن يحرم على نفسه ما أحله الله له، فيضيق عليها طمعا في مرضاتهن (الآيات: ١-٢)، وهاتان الآيتان تعريض ببعض زوجات الرسول وليس به ﷺ.

٢- إن اثنتين منهن خانتا النبي بإفشاء بعض ما أفضى إليهما من الأسرار (الآية: ٣).

٣- إنهن أو بعضهن كنَّ يملن عن الحق في بعض الأحيان (تصغي قلوبهن) ويمكن أن يتبن عن ذلك إلى الله، كما يمكن أن يتمادين في الميل إلى حد المظاهرة ضد الرسول ﷺ، وبالتالي الوقوف ضد جبهة الحق التي مثلها الله، وأمين وحيه (جبرائيل)، وخيرة المؤمنين، والملائكة الذين ينصرون النبي (الآية: ٤).

٤- إن نساء النبي لسن أفضل النساء على الإطلاق، فهو لو طلقهن فقد يجد خيرا منهن بين الناس ممن جُمعت فيهن بصورة أفضل صفات الخير والفضيلة كالإسلام والإيمان والقنوت والتوبة والعبادة والسياحة، (الآية: ٥).

٥- ويفصل القرآن بين الزوج وزوجته في التقويم، لأن قيمة كل إنسان ما يحسنه هو لا ما يحسنه الآخرون مهما كانت الرابطة بينه وبينهم قريبة وحميمة، كما أن مقياس القبح هو ما يقوم به الفرد من السيئات لا ما يقوم به الآخرون مهما قربوا منه، إذن فالتقويم الموضوعي الدقيق لأي أحد يكون بتقويمه بوصفه فردًا منقطعًا عن أي أحد، وهذا ما يجعل زوجتي نوح ولوط مثلا للكفار فتدخلان النار لا فرق بينهما وبين سائر الناس عند الله من جهة، ومن جهة أخرى هذه الحقيقة نفسها هي التي تجعل آسية بنت مزاحم زوجة فرعون الذي ادعى الربوبية مثلا للمؤمنين عبر التاريخ، وكذلك مريم التي أحصنت فرجها وصدقت بكلمات الله وكتبه وقنتت له مع القانتين (الآيات: ١٠، ١١، ١٢).

٦- وهكذا كانت سورة التحريم تدور حول علاقة الزوج بزوجته حيث ينبغي أن تكون وفق المقاييس الإلهية، فلا يجوز لأحد أن يُقَوِّم الزوجة على أساس زوجها سلبا أو إيجابا، فقد كانت زوجتا لوط ونوح خائنتين وكانت آسية صالحة.. ولا يجوز للمرأة أنى كانت أن تنشر أسرار البيت خارجه. وهكذا تتواصل آيات سورة التحريم لتكمل بصائر آيات سورة الطلاق في مراعاة التقوى في سائر أبعاد الحياة الزوجية.

لم تحرم ما أحل الله لك

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ(١) أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ(٢) وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ(٣) وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ(٤) فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ

---

(١) تحلة أيمانكم: أصل الحل حل العقدة، وهذه الآية تقصد حل عقدة الإيمان من الكفارة، وروي في الحديث: «لَا يَمُوتُ لِلرجُلِ ثَلَاثَةٌ أَوْلَادٍ فَتَمَسهُ النَّار إِلَّا تَحِلَّةَ القَسَم» أي قدر ما يقول: إن شاء الله تعالى، وفي الآية دلالة على أن النبي كان قد حلف على الترك، وأمر بتحلة يمينه بالكفارة، فالتحلة تحلل اليمين.

(٢) عرّف بعضه: أجمع المفسرون على أن المعنى أبان وفضح لزوجاته ما أذعنه، ولكن يبدو لي أن الكلمة ﴿عَرَّفَ﴾ بالتشديد تعني الإبراز كما الجبل يسمى عُرفاً، وقد قال الله: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ أي أبرزها وأظهرها كما العرف، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ أي على مشارف، والإعراض عكس الإعراف أي الإهمال والتغافل.

(٣) صغت قلوبكما: أي مالت، وقيل: ضاقت وعدلت عن الحق، ويبدو أن ذلك لا يسنجم والآية إذ تقول: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾، ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فكأن التوبة إلى الله تفتح أسماع القلوب.

(٤) تظاهرا عليه: تتعاونا وتتعاضدا عليه، وجواب هذا التظاهر والتعاون أن يتظاهر معه الله ﴿مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾، أي معين وناصر، وفي المصطلح الحديث: تظاهر الناس تظاهرة، أي اجتمعوا أو خرجوا متعاونين كما في المنجد، واستظهر به استعان، والظهرة: العون.

أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ[(١)] تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ[(٢)] ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا[(٣)] فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾.

بينات من الآيات:

[١] قالوا: «أَنَّ رَسُولَ الله كَانَ فِي بَعْضِ بُيُوتِ نِسَائِهِ، وَكَانَتْ مَارِيَةُ الْقِبْطِيَّةُ تَكُونُ مَعَهُ تَخْدُمُهُ، وَكَانَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي بَيْتِ حَفْصَةَ، فَذَهَبَتْ حَفْصَةُ فِي حَاجَةٍ لَهَا فَتَنَاوَلَ رَسُولُ الله ﷺ

---

(١) مؤمنات قانتات: وجوابهما قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ وقوله عن مريم: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ ولعل ذلك يؤيد الروايات التي تقول: إن الله سوف الجنة من امرأة فرعون ومريم عليها السلام.

(٢) سائحات: قيل: صائمات، وقيل: مجاهدات من الحديث: «سِيَاحَةُ أُمَّتِي الْجِهَادُ» وفي أخرى: «جِهَادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعُّلِ».

(٣) فخانتاهما: الخيانة والنفاق واحد، إلا أن الخيانة تُقال اعتباراً بالعهد والأمانة، والنفاق يُقال اعتباراً بالدين، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر، ومن الخطأ استعمال كلمة الخيانة في الفاحشة، والقرآن لم يورد الخيانة في الفاحشة قط، وعلى ذلك فمن الخطأ القول: إن الخيانة الزوجية تدل على الفاحشة.

مَارِيَةَ فَعَلِمَتْ حَفْصَةُ بِذَلِكَ فَغَضِبَتْ. وَأَقْبَلَتْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ الله هَذَا فِي يَوْمِي وَفِي دَارِي وَعَلَى فِرَاشِي فَاسْتَحْيَا رَسُولُ الله ﷺ مِنْهَا فَقَالَ: «**كُفِّي فَقَدْ حَرَّمْتُ مَارِيَةَ عَلَى نَفْسِي**»[1]، وعلى رواية الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**وَاللهِ مَا أَقْرَبُهَا**»[2]، وتكشف لنا هذه الحادثة التي ذكرها الرواة عن جانب من حياة الرسول مع زوجاته ببيان حقائق ثلاث:

الأولى: ما عليه الرسول ﷺ من عظيم الأخلاق، إذ كان يتنازل عن حقوقه الشخصية شريطة ألَّا تتعارض من الناحية الشرعية مع حقوق الآخرين، مع ما في ذلك من الحرمان والمشقة ليعيش الآخرون في راحة، فهو بأبي ونفسي كما وصف أمير المؤمنين عليه السلام: «**نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ، أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ فَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ**»[3]، وذلك مما يليق بمقام النبوة.

الثانية: أن بعض زوجات النبي -وبالذات المعنيتين بمطلع سورة التحريم- كن يمارسن ضغوطا عليه لأغراض لا مبرر لها، بل تتعارض الاستجابة لها عمليًّا مع أحكام الدين فتصيِّر الحلال حراما.

الثالثة: وهكذا كان الرسول وحده الأسوة للمؤمنين، أما من حوله فليسوا موضع تأسٍ إلا بمقدار تجسيدهم للحق في حياتهم واقتدائهم بشخص الرسول، وهكذا بالنسبة إلى كل رسول وكل قائد رسالي إنه وحده المقياس أما من حوله فقد يكونون أبعد الناس عن مثاله ومنهجه، ألم يكن ابن نوح من الهالكين؟ أَوَلم تدخل زوجة نوح وزوجة لوط النار مع الداخلين؟ وهكذا ينبغي أن ندرس التاريخ في ضوء هذه الآية من جديد.

أما كيف تدخَّل الوحي في حادث التحريم وعالجه؟ فهذا ما يجيب عنه السياق حيث يؤكد على أن تحريم النبي لما قد حرمه على نفسه (مقاربة مارية، أو لعق العسل، أو مقاربة كل نسائه) مما هو حلال في الأصل لم يكن تشريعا إلهيًّا تنزل به الوحي ليكون حكما جاريا إنما هو مبادرة شخصية في حدود الحقوق الشرعية اختارها النبي لنفسه، لحكمة بالغة تمثلت في ابتغاء مرضاة الأزواج، ولهذا جاء الخطاب بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ وربما لم يخاطبه الجليل بصفته رسولا يبلغ أحكام الله ورسالته بل بصفته نبيًّا لكيلا يعد إيلاؤه جزءا من الرسالة.

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إن التحريم هنا بمعنى الامتناع الشخصي وليس بمعنى التشريع، قال الله تعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]،

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٧٥.

(٢) بحار الأنوار: ج٢٢، ص٢٣٩.

(٣) نهج البلاغة: خطبة: ١٩٣.

ولو كان الرسول بتحريمه مشرِّعا لجاء التعبير (لا تحرم) بالنهي، لأنه لا مشرع إلا الله ولا يجوز لأحد مهما كان أن يشرع من دونه.

فعن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «سَأَلْتُهُ عَنْ رَجُلٍ قَالَ لِامْرَأَتِهِ أَنْتِ عَلَيَّ حَرَامٌ، فَقَالَ لِي عليه السلام: لَوْ كَانَ لِي عَلَيْهِ سُلْطَانٌ لَأَوْجَعْتُ رَأْسَهُ وقُلْتُ لَهُ: الله أَحَلَّهَا لَكَ فَمَا حَرَّمَهَا عَلَيْكَ إِنَّهُ لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ كَذَبَ فَزَعَمَ أَنَّ مَا أَحَلَّ الله لَهُ حَرَامٌ ولَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ طَلَاقٌ ولَا كَفَّارَةٌ»(١)، ولم يحرم الرسول مشرِّعًا، إنما امتنع عن مقاربة مارية القبطية لغاية هي إرضاء زوجاته اللاتي أثارتهن الغيرة، وبعبارة درءاً للفتنة. ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾، وفي الآية تحذير للرسول ولكل قائد ألَّا يتأثر بأحد ولو كان أقرب الناس إليه، لأن الضغوط التي يوجهها المقربون للقيادة ليست بالضرورة آتية من دوافع داخلية وإن كانت تتلبس بهذا الثوب، إنما تنتقل عادة إلى بيت القائد من أبعد نقطة، ولكن عبر حلقات متواصلة حتى تبلغ القائد، وبالخصوص في هذا العصر الذي تستهدف الدوائر الاستكبارية فيه محاربة القيادات الدينية والقضاء على الدين. فليس من شك في أن أعداء الأمة وشبكات الأحزاب الفاسدة تسعى للتأثير في القيادات الدينية عبر وسائط عديدة، وأنها قد تؤثر حتى في مواقف بعض القيادات وآرائها وفتاواها، فكيف ينبغي أن يتعامل القائد مع مجاميع الضغط هذه فينفي تأثيراتها السلبية؟.

إن للقائد صفتين: إنسانية وقيادية، وعليه أن يحافظ على توازن حكيم، ففي الوقت الذي يتعامل مع زوجته وأولاده وذوي قرباه بصفته الإنسانية وبكامل عواطفه وأحاسيسه عليه ألَّا يسمح لذوي النفوذ أن يؤثروا فيه من خلالها وفي مركزه القيادي، وهذا ما يشير إليه القرآن في آية التحريم. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وينبغي للقائد أن يتحلى بهاتين الصفتين أيضا، ففي الوقت الذي لا يتأثر بضغوط الزوجات لا ينال أذاهن من حلمه وسعة صدره بل يغفر لهن ويرحمهن تخلقا بصفات الله وطمعا في غفرانه ورحمته.

[٢] ومن مظاهر غفرانه ورحمته عز وجل أن جعل للمؤمنين مخرجا يتحللون به من اليمين وآثاره المادية والمعنوية بالكفارة، ولو كان الله يجعل تحريم الإنسان على نفسه تشريعا لوقع الكثير من الناس في العسر ولتفككت الكثير من الأسر، حيث تدعوهم الضغوط وحالات الغضب إلى التحريم باليمين في أحيان كثيرة ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ قال الإمام أبو جعفر عليه السلام: «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْهِ جَارِيَتَهُ مَارِيَةَ وحَلَفَ أَلَّا يَقْرَبَهَا فَإِنَّمَا جَعَلَ عَلَيْهِ الْكَفَّارَةَ فِي الْحَلْفِ ولَمْ يَجْعَلْ عَلَيْهِ فِي التَّحْرِيمِ»(٢)، وهذا واضح في الآية ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾، فلو قال أحد:

---

(١) الكافي: ج٦، ص١٣٤.

(٢) المصدر السابق: ص١٣٥.

فلانة عليّ حرام دون يمين فلا هي تحرم عليه ولا تجب عليه الكفارة بخرقه لكلامه وقراره، بل لا يكون إيلاء إلا باليمين ولمدة أربعة أشهر، فعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**لَا يَكُونُ إِيلَاءٌ حَتَّى يَحْلِفَ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ**»[(١)] أي بهذين الشرطين، والذي يظهر من النصوص أن ما كان من رسول الله تحريم بيمين وليس إيلاء، لأن مارية جارية لا إيلاء فيها، فعن أبي نصر عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «**سَأَلْتُهُ عَنِ الرَّجُلِ يُؤْلِي مِنْ أَمَتِهِ فَقَالَ لَا كَيْفَ يُؤْلِي وَلَيْسَ لَهَا طَلَاقٌ**»[(٢)] إلا أن يكون النبي صلى الله عليه وآله كما قال بعض المفسرين: قد حلف بأن لا يقارب أزواجه جميعا بعد تحذير الله له من تحريم ما أحل له ابتغاء مرضاتهم، والله أعلم.

ولكي يتحلل الرجل من الأيمان بالإيلاء أو مجردة فرض الله كفارة مخرجًا وعقوبةً حتى لا يعود لها مرة أخرى، وهي في صالحه، وهذا يدل عليه قوله سبحانه ﴿لَكُمْ﴾ بالرغم من أن البعض يراها كلفة وغرامة لله عليه، فهي تزكي النفس، وتوقف الغضب عند حده. وكفارة نقض اليمين واجبة فرضها الله، إلا أن العود إلى ما كان قد حرمه بها ليس متعلقا بأدائها، فلا تتكرر الكفارة بتكرار العود قبل أدائها كما هو في الظهار، إنما تجب مرة واحدة لكل يمين، ومقدارها إطعام عشرة مساكين، فعن أبي حمزة الثمالي قال: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَمَّنْ قَالَ والله ثُمَّ لَمْ يَفِ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: **كَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ**»[(٣)].

ويأتي هذا الفرض من موقع الولاية الإلهية على المؤمنين ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ فالذي يفرضه هو الواجب، ولا يجوز للمؤمنين أن يأخذوا تشريعاتهم من مصدر سواه، لأنه حيث يشرع أهل لذلك، لإحاطته علما بكل شيء، ولأنه لا يضع حكما إلا لحكمة بالغة ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. وإيمان الإنسان بهاتين الصفتين لله يبعث فيه روح التسليم والرضا بكل ما يفرضه عليه حيث يشعر بفطرته وعقله أنه يتلقى تشريعاته من لدن عليم حكيم، بل إن ذلك يجعله لا يؤمن إلا بما يتنزل من عنده، أما ما يضعه البشر من النظم والأحكام فإنها لا تدعو إلى الاطمئنان بها، لأن واضعها محدود العلم والحكمة.

[٣] ويكشف لنا الوحي بعد الكلام عن حادث التحريم الذي جاء نتيجة ضغوط بعض أزواج النبي عن صورة أخرى سلبية من تعاملهن معه صلى الله عليه وآله حيث يفشين أسراره إلى الآخرين. الأمر الذي ينطوي على خيانتين: خيانة له بوصفه زوجًا فالزوجة المخلصة يجب أن تكون مستودع سر زوجها ولا يليق بها إشاعته لأحد مهما كانت قرابته ومكانته، وخيانة له

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٢، ص ٣٤٥.
(٢) وسائل الشيعة: ج٢٢، ص٣٤٦.
(٣) وسائل الشيعة: ج٢٢، ص٣٨٩.

بوصفه نبيًا وقائدًا للأمة.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ قيل: إنه تحريم مارية على نفسه، وقيل: إنه تحدث عن التيارات السياسية والاجتماعية التي كانت في الأمة، وعن مستقبل السلطة السياسية فيها، وهو الأقرب والأهم، لأن تحريم مارية لم يكن في الخفاء، ولا يحتاج الكلام عن إفشاء هكذا حديث إلى التأكيد على مظاهرة الله والملائكة وصالح المؤمنين للنبي.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ قيل: إن كلًّا من حفصة وعائشة أخبرتا أبواهما بالأمر، إما بسبب العلاقات العاطفية المتينة بين البنت وأبيها، أو لحب التظاهر بالحظوة عند الرسول، وهذان الأمران من أوسع الأبواب التي تخرج منها أسرار الإنسان إلى الآخرين. وإذا كان الإنباء بأسرار النبي يتم بعيدا عن سمعه ونظره فإنه لن يكون بعيدا عن رقابة الله الذي أخبر رسوله بالأمر ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي كشف له أن هذه الزوجة لم تصن سره. ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ مما يفصح عن معدن الرسول ﷺ حيث الأخلاق والحكمة، فهو لم يعاتبها على كل شيء بل أظهر جانبا من أمرها وكأنه يجهل الجوانب الأخرى، ولعل ما أعرض عن ذكره كان يتسبب لو ذكره في حرج عظيم لها، وآثار سلبية لا تحمد عقباها، وذلك غاية في الحكمة لكل زوج في أسرته، ولكل قائد تجاه أمته. ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا﴾ ولعلها حينئذ كانت مرتابة في أن من أطلعته على السر هو الذي أخبر النبي ﷺ وغاب عن بالها وإيمانها أنه متصل بالوحي ومؤيد من عند الله سبحانه، فأجابها ﷺ: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ الذي يحيط بكل شيء. وموقف الرسول ﷺ تجاه زوجته التي أذاعت سره ينبغي أن يدرسه كل زوج قائد، ويتخذه منهجا في أمثال تلك المواقف وظروفها.

[٤] ويؤكد القرآن أن ما حدث من اثنتين من نسائه كان زيغا عن الحق وميلا إلى الباطل، وأنه بالتالي يحتاج إلى الإصلاح والتوبة ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي أنكما تحتاجان إلى غسل دَرَن الانحراف، وإصلاح الخطأ بالتوبة إلى الله والاعتذار من الرسول ﷺ لأن قلوبكما قد صغت أي مالت، وأصغى سمعه لفلان أي مال به إلى كلامه. وتأكيد الله على انحراف القلب يبين أن ما حدث لم يكن خطأ عابرا، إنما هو انحراف له جذور تمتد إلى أعماق القلب. بلى، إن كشف أسرار النبي ليس إلا علامة على انحراف داخلي في الجذور، وهكذا الكثير من مواقف وسلوكيات الإنسان الخاطئة. إنها مرة تكون سطحية وأخرى جذرية.

ويحذر الله الاثنتين من أنهما لو رفضتا التوبة وتمادتا في التظاهر ضد الرسول ﷺ فإن العاقبة ستكون للخط الرسالي السليم لأنه مدعوم بقوة لا تقهر ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي خيرتهم وأفضلهم، وأفضل كل المؤمنين هو الإمام علي عليه السلام

الذي نصر الرسول في كل معاركه وحروبه العسكرية والسياسية وغيرهما، ولذلك جاءت بعض النصوص بهذا التأويل، قال الإمام الصادق عليه السلام: «﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام»[١]. ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ قال ابن عباس: «فَسَأَلْتُ عُمَر بن الخَطَّاب عَنْ المَرْأَتَانِ اللتَان تَظَاهَرَتَا عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله فَقَالَ: حَفْصَة وَعَائِشَة» أورده البخاري في الصحيح[٢].

[٥] ويحذر الله زوجات الرسول من السلوك السلبي تجاهه بأن مصلحة رسالته فوق كل شيء، وهو مستعد لتطليقهن لو عارضن الرسالة دون أن يجعل قيادته وقراراته عرضة للتأثر بالضغوط وتبعا لأهواء الزوجات وميولهن. ثم إنه لو فعل ذلك فلن تتعطل مسيرته بل ستستمر، وسيجد بين الناس وعند الله من هو خير من زوجاته ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾ من الجهة المعنوية والمادية. وقد وبدّلَ القرآن الحديث من المثنى إلى الجميع لكي يكون ما حدث عبرة للجميع، فلا تحدثهن أنفسهن بالسير على خطا الاثنتين. أما الصفات المعنوية التي ينبغي أن تكون في شريكة حياة الإنسان المؤمن فهي التالية: ﴿مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ من السياحة وهي الجهاد لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «سِيَاحَةُ أُمَّتِي الجِهَادُ»[٣]، والهجرة صورة من السياحة بهذا المفهوم، والصفات الآنفة صفات متدرجة فالإيمان فوق التسليم، والقنوت فوق الإيمان، وهكذا.. وهذه الصفات هي الأهم، وتأتي في الدرجة الثانية الصفات المادية الظاهرة: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ إشارة لزوجتي النبي صلى الله عليه وآله.

[٦] وبعد أن بيّن القرآن أن من الممكن للرسول صلى الله عليه وآله أن يجد في المجتمع زوجات خيرا من زوجاته لو طلقهن ملوِّحا لهن بالطلاق لو لَم يَتُبنَ إلى الله، أمر المؤمنين بتحمل المسؤولية الرسالية في إطار الأسرة، إذ يجب السعي الحثيث لإنقاذ الإنسان نفسه وسائر أسرته من نار جهنم، وهذه أعظم مسؤولية للمؤمن تجاه أهله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ وإنها لآية عظيمة ترسم للإنسان المؤمن خطوط مسؤوليته لتخرجه من إطار الفردية إلى التطلعات الإنسانية والدينية الواسعة، حيث التفكير في نجاة الآخرين وفلاحهم كجزء من المسؤولية في الحياة. وعلى هذا أكد أئمة الهدى في تفسيرهم لهذه الآية الكريمة، قال سليمان بن خالد: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ الله عليه السلام إِنَّ لِي أَهْلَ بَيْتٍ وَهُمْ يَسْمَعُونَ مِنِّي أَفَأَدْعُوهُمْ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ إِنَّ الله عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾»[٤]، عنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ

(١) بحار الأنوار: ج٣٦، ص٣٠.
(٢) صحيح البخاري: ج ٦، ص٧٠.
(٣) مستدرك الوسائل: ج١١، ص١٤.
(٤) الكافي: ج٢، ص٢١١.

وَجَلَّ: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ قُلْتُ: هَذِهِ نَفْسِي أَقِيهَا، فَكَيْفَ أَقِي أَهْلِي؟ قَالَ: **تَأْمُرُهُمْ بِمَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ وَ تَنْهَاهُمْ عَمَّا نَهَاهُمُ اللهُ عَنْهُ فَإِنْ أَطَاعُوكَ كُنْتَ وَقَيْتَهُمْ وَ إِنْ عَصَوْكَ فَكُنْتَ قَدْ قَضَيْتَ مَا عَلَيْكَ**»[1]، وهذه الرواية تؤكد أن الدعوة لله مسؤولية مفروضة على المؤمن في أوساط الأسرة (الزوجة والأولاد)، وأنه يجب عليه أن يكون رسولا لربه فيها يدعوهم إلى الحق وينهاهم عن الباطل.

ولا يُسقط المسؤولية عدم استجابتهم للدعوة، «وسُئِلَ الصَّادِقُ عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ كَيْفَ نَقِيهِنَّ؟ قَالَ عليه السلام: **تَأْمُرُونَهُنَّ وتَنْهَوْنَهُنَّ**. قِيلَ لَهُ: إِنَّا نَأْمُرُهُنَّ ونَنْهَاهُنَّ فَلَا يَقْبَلْنَ! قَالَ عليه السلام: **إِذَا أَمَرْتُمُوهُنَّ ونَهَيْتُمُوهُنَّ فَقَدْ قَضَيْتُمْ مَا عَلَيْكُمْ**»[2]، ولعل الوقاية من النار تمر من خلال اجتناب السيئات وتركيز الصفات المشار إليها في الآية اللاحقة في النفس والأهل. وأي نار تلك التي يدعونا الله للوقاية منها؟.

أولاً: إنها تشتعل باحتراق الناس والحجارة ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ فليس الناس هناك يحترقون بالنار بل يتحولون نيرانا، لأن كل شيء في جهنم ذو طبيعة نارية، فهل يتم الاحتراق بتفاعلات ذرية في الجسم لذلك لا يتحولون رمادا بسرعة، بل يبدل الله جلودهم كلما نضجت ليذوقوا عذاب الهون، أم بطريقة أخرى؟ لا نعلم، إنما يكفينا أن نتصور ذلك المنظر الرهيب فنخشى ونتقي. وقالوا عن الحجارة: إنها حجارة الكبريت، ولكن يمكن أن يكون عموم الحجارة ويكون احتراقها بتفاعلات ذرية.

ثانياً: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ فهم قساة التعامل مع أهل النار، فلا ترى في شخصيتهم البشاشة واللطف، كما إنهم أقوياء فتعذيبهم وأخذهم لا يكون إلا بالشدة ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ من قبل في تعذيب أهل النار ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ في كل زمان وعلى كل حال، فلا يتصور الإنسان أنه قادر على إقامة علاقات خاصة معهم تثنيهم عن أمر الله تجاهه، فإنهم عباد مأمورون لله وليسوا شركاء، وطاعتهم له عز وجل ليس فيها ثغرة يهرب عبرها المعذَّب من عذاب الله. وإذا كان ثمة طريق لاتقاء غلظتهم وشدتهم وعذاب النار فهو الالتجاء إلى سيدهم والتحبب إليه بالإيمان والطاعة، ولا يتم ذلك إلا في الدنيا، فلماذا يضع البعض حجبا بينه وبين ربه باتباع الفلسفات البشرية الشركية كعبادة الأصنام والملائكة؟!

[٧] هنا في الدنيا عندما يواجه الإنسان حقيقة رهيبة أو مسؤولية ثقيلة يحاول أن يتهرب منها بالخداع الذاتي، فتراه يلتمس الأعذار والتبريرات، ويتحصن وراء الأوهام والظنون،

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٧، ص٧٤.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج٣، ص٤٤٢.

كلا.. إنها لا تفيده هنالك في الآخرة شيئا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ومادام جزاء الآخرة هو عمل الإنسان في الدنيا ذاته فلا معنى للعذر إذن، وكيف يتخلص الإنسان مما هو جزء ذاته؟ وفي الآية إيحاء بأن عدم استعداد الكفار للآخرة ولقاء الله نتيجة طبيعية لكفرهم بها.

[٨] وينبغي أن تكون هذه التذكرة باعثا نحو المبادرة إلى التوبة في الدنيا قبل فوات الأوان، توبة صادقة كأروع ما تكون التوبة، فإن ذلك وحده الاعتذار الذي يقبله الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ بالندم على ما فات، والعزم على ترك الذنب، وإصلاح آثاره السلبية نفسية واجتماعية واقتصادية و...، والاجتهاد في الصالحات، هكذا سأل أحمد بن هلال الإمام الهادي عليه السلام «عَنِ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ مَا هِيَ؟ فَكَتَبَ عليه السلام: **أَنْ يَكُونَ الْبَاطِنُ كَالظَّاهِرِ وأَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ**»[1]، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**هُوَ صَوْمُ يَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ والْخَمِيسِ والْجُمُعَةِ**»[2]، لأن العمل الصالح جزء من التوبة، وقال الإمام أبو الحسن عليه السلام: «**يَتُوبُ الْعَبْدُ مِنَ الذَّنْبِ ثُمَّ لَا يَعُودُ فِيهِ**»[3]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله عن التوبة النصوح: «**أَنْ يَتُوبَ التَّائِبُ ثُمَّ لَا يَرْجِعُ فِي ذَنْبٍ كَمَا لَا يَعُودَ اللَّبَنُ إِلَى الضَّرْعِ**»[4].

وهذه التوبة هي التي يقبلها الله فيعفو عن سيئات الإنسان بها ويدخله جنات النعيم يوم القيامة ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ حقًا: إن التائب عن صدق يُرجى له أن تتحول ذنوبه من عقدة سيئة تعيق مسيرته نحو التكامل إلى دافع قوي نحو الخير والفضيلة، كما أن الله سبحانه يمحو من ديوانه السيئات فلا يطلع عليها أحدا حتى أقرب المقربين إليه، قال معاوية بن وهب: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ: **إِذَا تَابَ الْعَبْدُ تَوْبَةً نَصُوحاً أَحَبَّهُ الله فَسَتَرَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا والْآخِرَةِ**، فَقُلْتُ وكَيْفَ يَسْتُرُ عَلَيْهِ؟ قَالَ عليه السلام: **يُنْسِي مَلَكَيْهِ مَا كَتَبَا عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ، ويُوحِي إِلَى جَوَارِحِهِ اكْتُمِي عَلَيْهِ ذُنُوبَهُ، ويُوحِي إِلَى بِقَاعِ الْأَرْضِ اكْتُمِي مَا كَانَ يَعْمَلُ عَلَيْكِ مِنَ الذُّنُوبِ، فَيَلْقَى الله حِينَ يَلْقَاهُ ولَيْسَ شَيْءٌ يَشْهَدُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ**»[5]، فلا يبقى سبب يدخل به النار، وفوق هذا كله يدخله إلى رضوانه ونعيمه في الجنان ﴿وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وتأكيد الله على الجنات يزرع في الإنسان المؤمن إرادة التحدي للشهوات ولزخارف الدنيا الزائلة حيث يتطلع إلى النعيم الأعظم كمًّا ونوعًا في الآخرة.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٧٦.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٧٨.
(٣) الكافي: ج٢، ص٤٣٢.
(٤) مجمع البيان: ج١٠، ص٦٢.
(٥) الكافي: ج٢، ص٤٣٠.

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ بالعذاب والمذلة بين الناس، ولعل في الآية إشارة إلى أن الله يُمضي شفاعة الرسول ﷺ والمؤمنين معه من أئمة الهدى والصالحين. ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ التي كدحت في سبيل الله. أما عن النور فالأظهر فيما قيل ثلاثة آراء لا تناقض بينها:

الأول: أنه العمل الصالح والإيمان يظهر في صورة نور يوم القيامة.

الثاني: أنه القرآن الذي مشى على هداه المؤمنون فهو يقودهم إلى الجنة كما قادهم في الدنيا إلى الصواب والسعادة.

الثالث: أنه أئمة الهدى والقادة الصالحون الذين اتبعوهم في الدنيا، فهم يقودونهم إلى الجنان كما قادوهم إلى الحق والعمل الصالح في دار الدنيا، قال الإمام أبو عبد الله عليه السلام: «**أَئِمَّةُ الْمُؤْمِنِينَ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمَانِهِمْ حَتَّى يَنْزِلُوا مَنَازِلَ لَهُم**»[1].

وعندما نبحث عن الأسباب التي نجا بها المؤمنون من الخزي يوم القيامة، وسعى لأجلها نورهم بين أيديهم، نجد من أهمها طموحهم الكبير للكمال، وتوكلهم على ربهم، ودعاؤهم إليه أن يغفر لهم.. هكذا يدعون ربهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ ومن تمام النور كمال الوعي وإصابة الحق في كل جوانب الحياة وأبعادها المختلفة، وهناك علاقة بين دعاء المؤمنين بتمام النور وغفران الذنوب فإن الخطايا في الحقيقة ظلمات معنوية تتمثل يوم القيامة، الظلم ظلمات، والغش ظلمات وهكذا الكذب والإسراف. فهم من جهة يسألون ربهم تمام النور، ومن جهة أخرى يطمحون إلى النجاة من ظلمات الذنوب والخطايا. ودون هاتين الغايتين تقف التحديات الصعبة التي تحتاج إلى عزم الإرادة، واستقامة الإيمان اللذين يستمدهما المؤمنون من ذي القوة المطلقة بالدعاء والتوكل، إذ يعلمون أن بلوغ الغايات السامية (تمام النور، والغفران) يحتاج إلى توفيق الله وأن تُجانب سعيهم قدرته، وهذا ما تشير إليه الخاتمة: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وكلمة أخيرة: إن الله سبحانه بعد الأمر بالتوبة النصوح والدعوة إليها لم يقل جزما: ﴿رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ..﴾ إنما أضاف ﴿عَسَىٰ﴾ التي تفيد الترجي.. فالنتيجة المترتبة قد تكون وقد لا تكون حسب المفهوم الظاهر للكلمة، وذلك لكيلا يتسرب إلى أفئدة المؤمنين الغرور والعجب فيكون الاعتماد منهم على التمنيات بغفران الله بدل السعي والعمل.

[٩] وبعد أن أمر الله بوقاية النفس والأهل من النار، والتوبة النصوح إليه عز وجل،

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٧٨، بحار الأنوار: ج٢٣، ص٣٠٤.

وبالتالي السعي للكمال، أمر النبي ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين بوصفه ضرورة لتهيئة الظروف والأسباب من أجل الوقاية والتوبة والكمال، وذلك أن كثيرا من أسباب الانحراف والنقص التي يتعرض لها المؤمنون تأتي نتيجة تحرك الكفار من الخارج والمنافقين من الداخل ضد الحق وأتباعه، فلا بد إذن من مواجهة بؤرة الفساد هذه والقضاء عليها بالجهاد لتكون الظروف ملائمة لبناء المجتمع النموذجي (المتقي، والتائب، والتام). لذلك جاء الأمر للنبي ﷺ بمواجهة الكفار والمنافقين ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي جهادا لا هوادة فيه، باعتبار أن القائد الرسالي ليس مسؤولا عن أسرته وحسب بل هو في المجتمع كالأب مسؤول أن يقي نفسه ويقي المجتمع من النار والضلال، فلا بد أن يعمد إلى اجتثاث بؤر الانحراف عنه ومما حوله مهما كان ذلك الكافر أو هذا المنافق بعيدا أو قريبا. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ففي الدنيا يلقون جزاءهم بمجاهدة المؤمنين لهم، وفي الآخرة الجزاء الأوفى حيث الخلود في أسوأ ما يصير إليه مخلوق من عاقبة.

[١٠] وبمناسبة الحديث عن زوجات الرسول الذي يحدد لنا سياق هذه السورة الموقف السليم منهن تأتي الآيات الثلاث الأخيرة لتؤكد حقيقة هامة يجب الالتفات إليها في تقييم الناس، وهي أن قيمة كل إنسان بأعماله ومواقفه هو صالحةً أو فاسدةً، بغض النظر عمن حوله ومن ينتمي إليه. إذن لا يصح أن نفسر التاريخ والقرآن والمواقف تفسيرا تبريريًّا توفيقيًّا عند الحديث عن أخطاء أقرباء الأنبياء نسبا أو مصاهرة أو أزواجاً، وأيضاً صحابة النبي ﷺ. لأن ذلك يجعلنا في غموض، فقد يكون أقرب الناس إلى نبي من الأنبياء مثلا للكفار كزوجتي نوح ولوط عليهما السلام، في حين يصبح أقرب الناس إلى بؤر الانحراف أمثال فرعون والبيئات الفاسدة مثلا للمؤمنين كآسية بنت مزاحم ومريم بنة عمران، دون أن يكون في ذلك إساءة إلى الأنبياء والصالحين ولا إحسان إلى المنحرفين الذين ينتمي إليهم كلا المثلين.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ لأن الشفيع الحقيقي للإنسان عمله الصالح لا القرابات ولو كانت من الأنبياء والأولياء، وأعمالهما كانت سيئة لما انطوت عليه من خيانة لزوجيهما بإذاعة السر والتظاهر لجبهة الكفر[1] وخيانة للرسالة والقيم التي جاءا بها، فما نفعتهما القرابات وما بقي لهما شيء يتميزان به عن الناس، فالقرابة وحدها ليست ذات قيمة عند الله إنما العمل، بل إن انتماء الإنسان إلى أي شخص أو أية جبهة لا يقاس بالحسابات

(١) في مجمع البيان ج١٠، ص٤٠٤: قال ابن عباس: «كانت امرأة نوح كافرة تقول للناس: إنه مجنون، وإذا آمن بنوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به وكانت امرأة لوط تدل على أضيافه». وأيضاً في: بحار الأنوار: ج١١، ص٣٠٧.

المادية كالمسافة، والنسب إنما بنوع العمل، وانتهاء هاتين الزوجتين كان إلى جبهة الكفار في الدنيا وأهل النار في الآخرة لتجانس الأعمال، لذلك لم يغنِ عنهما نوح ولوط شيئا.

﴿وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ وقد اعتبر الله هاتين المرأتين مثلا للذين كفروا لأنهما كان يفترض أن تكونا قمة في الإيمان حيث كانتا تحت عبدين صالحين من الأنبياء، إلا أنهما اختارتا الكفر بدل الإيمان رغم الظروف المساعدة، وهذا المثل يهدينا إلى أن سعي المؤمنين لوقاية أهليهم من النار ليس بالضرورة أن يؤدي إلى نتيجة إيجابية، وأنه من الخطأ تقييم أحد كالأنبياء من خلال زوجاتهم ومن حولهم، إنما التقييم السليم يكون عبر أعمالهم ورسالتهم.

ولنا في الآية وقفة عند كلمة الخيانة فهي -كما أعتقد- خيانة بالمقياس الرسالي أي خيانة لحركة الرسول ومبادئه، وليس كما قد يتقول البعض لما فيه من عقد جنسية أو لاعتماده على الإسرائيليات إنها خيانة أخلاقية، كلا.. إنها خيانة في رسالة النبي بدليلين:

الأول: بدلالة السياق، فقد وقع الحديث عن الخيانة في سياق الحديث عن إفشاء السر من قبل زوجات النبي، وحينما تكلم عن زوجتي نوح ولوط ضربهما مثلا للجبهة المضادة للحق ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ولو كانت الخيانة جنسية لضربهم مثلا للذين فسدوا.

الثاني: لأن تفسير الخيانة هنا بالخيانة الزوجية ليس يمس زوجات الأنبياء وحسب بل يمس الأنبياء أنفسهم ويصور بيوتهم محلا للفاحشة، حاشا الأنبياء عليهم السلام.

[١١-١٢] ويضرب الله مثلا معاكسا للذين آمنوا، أحدهما من بيت فرعون الطاغية، والآخر من بيئة بني إسرائيل المنحرفة مريم بنت عمران. ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ التي آمنت بنبي الله، وتحدت إغراءات السلطة وضغوط الطاغية زوجها في سبيل الله، رغم تضافر العوامل المادية التي يعتبرها البعض من الحتميات، حيث كان فرعون زوجها وكانت في الوقت ذاته من رعاياه. كانت تنتمي إلى بني إسرائيل الطبقة المستضعفة والمعدمة في حين كان فرعون قائد المستكبرين والمترفين، وكانت مصالحها المادية مؤمّنة عند فرعون، فما الذي جعلها تتحداه وتواجه جبروته وسلطانه؟! إنه الإيمان الذي جعلها تتحدى كل الظروف لتكون مثلا رفيعا يقتدي به المؤمنون عبر التاريخ، وجبلا لا تتأثر بإغراء ولا بإرهاب أو تضليل. ﴿إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ وهنا إشارتان لطيفتان نستوحيهما من الآية:

الأولى: أن أعظم سبب للانحراف كانت تواجهه آسية هو غرور السلطان والملك، فلقد كانت زوجة لأعظم الملوك الذين عرفهم تاريخ البشرية، إلا أنها انتصرت على قمة تحدي الدنيا

للإنسان بالرغبة في نعيم الآخرة الذي يتصاغر أمامه كل نعيم، ولقد جاء في الأخبار أنها كانت ترى قصورها في الجنة وهي موتدة يُصَبُّ عليها ألوان التعذيب.

الثانية: أن هذه المرأة الشريفة لم يحالفها الحظ في الزوج الذي ترغب فيه أمثالها من المؤمنات فطلبت من الله أن تصير إلى نعم بيت الزوجية، وكان طلب البيت بمثابة طلب من فيه، وماذا يطيب من البيت للمرأة من دون زوج كريم؟ وإذا كان دعاؤها بهذا المعنى فلماذا لم يصرح به في القرآن؟ لعل ذلك لأن الآداب الاجتماعية عند العرب (وربما عند غيرهم أيضا) ما كانت تستسيغ للمرأة العفيفة أن تطلب زوجا.

ومما يؤكد هذه الفكرة الروايات التي بينت أنها تصبح زوجة لرسول الله ﷺ في الجنة، فقد أُثر عن رسول الله ﷺ أنه دخل على خديجة عليها السلام وهي في مرض الموت فقال لها: «بِالرَّغْمِ مِنَّا مَا نَرَى بِكِ يَا خَدِيجَةُ فَإِذَا قَدِمْتِ عَلَى ضَرَائِرِكِ فَأَقْرِئِيهِنَّ السَّلَامَ، فَقَالَتْ: مَنْ هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ ﷺ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وكُلْثُمُ أُخْتُ مُوسَى وآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ»[1]، وتوحي بهذه الحقيقة أيضا بقية الآية: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ فكانت ترفض البقاء في ظله، ويهدينا قوله سبحانه: ﴿وَعَمَلِهِۦ﴾ إلى فكرة هامة هي أن الإنسان المؤمن قد ينجو بالهجرة أو بسقوط النظام الفاسد من أذى الظالمين المباشر، لكنه قد لا ينجو من أعمالهم، فإذا به يصبح ظالما مثلهم ويعمل الفواحش ويقع في الفساد، لذلك ينبغي الدعاء للنجاة من الظلمة ومن الظلم ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أما المثل الثاني للمؤمنين فهي مريم بنة عمران عليها السلام فإنها رغم انحراف بني إسرائيل بعد موسى وشياع الفاحشة بينهم تحدت الانحراف فحافظت على عفتها وطهارتها ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾. ولا ريب في أن الأرحام المحصنة والفروج العفيفة والحجور الطيبة الطاهرة ستكون منطلق الأجيال الصالحة، وموضع تجلي روح الله ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾. وبرزت عظمة مريم عليها السلام في تصديقها بكلمات الله وكتبه، ولعل كلمات الله هي أنبياؤه كعيسى بن مريم، لأن الأنبياء لسانه في خلقه وينطقون بوحيه وكلماته، أو هي البصائر الإلهية البارزة التي من الصعب التصديق بها، أما الكتب فهي الرسالات. ولقد جعلت مريم نفسها مصداقا للحق الذي جاء به الأنبياء وانطوت عليه كتب الله ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ والقانتون هم المثابرون بالدعاء إلى الله المسلمون له مما يؤكد روحانيتها وتبتلها الدائم. ونستوحي من الآية تأكيدا للروايات التي قالت بأنها تكون من زوجات رسولنا الأكرم ﷺ في الآخرة حيث وعده الله فيها وعده بالزوجات القانتات التي هي منهن. وقد

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص١٣٩.

يكون من معاني التصديق بكلمات الله وقنوتها أنها بلغت مرحلة العصمة، حيث إن الإنسان بين أمرين: بين الاستجابة لنداء الباطل وكلماته، أو التصديق بالحق واتباع ندائه ومناديه، وإذا كان الإنسان جادا في اتباع الحق تمايز في داخله نداء الشيطان المنبعث من شهواته ووساوس نفسه الأمارة بالسوء، وهمزات شيطانه الرجيم تتمايز عن نداء الرحمن المنبعث من عقله ووجدان نفسه اللوامة وإلهامات ربه عبر ملائكته الكرام. و هذا أحد وسائل الوحي الذي هو نقر في القلب، والذي من أمثلته ما ألهمت أم موسى عليه السلام أن تلقي بولدها في اليم.

وهذه الآيات الثلاث تهدينا إلى حقيقة رئيسية هي أن الإنسان قادر على الاستقلال بإرادته وقراره وعمله مهما كانت الظروف مساعدة أو معاكسة لما يختاره لنفسه، فالكفر والإيمان يبدآن من داخل الإنسان وليس من الظروف والعوامل المحيطة، وبالتالي يمكن القول: إن هذه الآيات بما ضربته من الأمثال تنسف الفلسفات الضالة القائمة على أساس الإيمان بالحتميات اقتصادية أو اجتماعية أو وراثية وغيرها من الحتميات، فيما يتصل بقرار الإيمان والكفر في حياة الإنسان، فهذه آسية بنت مزاحم ومريم بنة عمران تحدتا الظروف والضغوط وآمنتا بالله، في حين كفرت زوجة نوح ولوط رغم العوامل الإيجابية والمساعدة على الإيمان، وإذا كانت هذه البصيرة صادقة في المرأة فإن صدقها بالنسبة إلى الرجل أوضح وأجلى أليست المرأة ضعيفة أمام الرجل؟.

سُورَةُ المُلك

* مكية.

* عدد آياتها: ٣٠.

* ترتيبها النزولي: ٧٧.

* ترتيبها في المصحف: ٦٧.

* نزلت بعد سورة الطور.

فضلُ السُّورة

عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام قال: «سُورَةُ المُلْكِ هِيَ المَانِعَةُ تَمْنَعُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وهِيَ مَكْتُوبَةٌ فِي التَّوْرَاةِ سُورَةَ المُلْكِ. ومَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَتِهِ فَقَدْ أَكْثَرَ وأَطَابَ ولَمْ يُكْتَبْ بِهَا مِنَ الغَافِلِينَ. وإِنِّي لَأَرْكَعُ بِهَا بَعْدَ عِشَاءِ الآخِرَةِ وأَنَا جَالِسٌ.

وإِنَّ وَالِدِي عليه السلام كَانَ يَقْرَؤُهَا فِي يَوْمِهِ ولَيْلَتِهِ، ومَنْ قَرَأَهَا إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ فِي قَبْرِهِ نَاكِرٌ ونَكِيرٌ مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ قَالَتْ رِجْلَاهُ لَهُمَا: لَيْسَ لَكُمَا إِلَى مَا قِبَلِي سَبِيلٌ، قَدْ كَانَ هَذَا العَبْدُ يَقُومُ عَلَيَّ فَيَقْرَأُ سُورَةَ المُلْكِ فِي كُلِّ يَوْمٍ ولَيْلَتِهِ، وإِذَا أَتَيَاهُ مِنْ قِبَلِ جَوْفِهِ قَالَ لَهُمَا لَيْسَ لَكُمَا إِلَى مَا قِبَلِي سَبِيلٌ قَدْ كَانَ هَذَا العَبْدُ أَوْعَانِي سُورَةَ المُلْكِ، وإِذَا أَتَيَاهُ مِنْ قِبَلِ لِسَانِهِ قَالَ لَهُمَا: لَيْسَ لَكُمَا إِلَى مَا قِبَلِي سَبِيلٌ قَدْ كَانَ هَذَا العَبْدُ يَقْرَأُ بِي فِي كُلِّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ سُورَةَ المُلْكِ».

(الكافي: ج٢، ص٦٣٣)

الإطار العام

الإنسان بين تقوى الله ومعرفته

لعل زرع الخشية من الله بالغيب هو المحور الذي تتصل به كل آيات سورة الملك، التي هي بداية انعطافة كبيرة في السياق القرآني نحو البصائر التي تنزَّل بها الوحي في الجزأين الأخيرين، واللذين يتألفان في الأكثر من السور المكية التي تذكُر بأصول الإسلام كالإيمان بالله، وبالرسول والرسالة، وبالآخرة.

١- ففي مطلع السورة يتجلى الله العظيم بأسمائه الحسنى (تبارك، الملك، والقدير، والخالق، والعزيز، والغفور، والرحمن) لأن المعرفة السليمة بالله تضع الإنسان المخلوق بوجدانه وعقله وكل حواسه أمام الله الخالق سبحانه، مما تمنحه الخشية منه عز وجل. ولا ريب أن خشية الإنسان من ربه تكون بقدر معرفته به. أولم يقل تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾؟ [فاطر: ٢٨]. ولكي تكون المعرفة بتلك الدرجة نجد السياق يمزج بينهما وبين تعريف الإنسان بأعظم الأهداف التي خُلق من أجلها ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فليس في منهج الإسلام إذن معرفة لا تقود إلى العمل الصالح، بل إن أحسن الناس عملا أكثرهم معرفة بربه.

ويزداد الإنسان معرفة بربه كلما جال ببصره وبصيرته في الآفاق من حوله، ففيها تتجلى أسماء الخالق (قدرته وعظمته وتعاليه..) وبالذات إذا كر ببصره مع عقله المرة بعد الأخرى، في مظهر الخلق وجوهره، وفي صلة بعضه ببعض، حيث يتجلى له ربه وجماله الذي عكس بعض آثاره في الكون بمظهره وجوهره ونظامه المتقن الذي لا يعتوره تفاوت ولا فطور. (الآيات: ١-٥).

٢- ولأن الكفر من الحجب التي تمنع المعرفة بالله ومن ثم خشيته بالغيب جاءت الآيات تذكر الكافرين بعذاب الآخرة، وتحذرهم من التكذيب بالنذر، وسيلةً لهز ضمائرهم وإخراجهم من غرور الكفر وغفلته، إذ تضعهم أمام صور من عذاب الخزي في جهنم التي تكاد تتفجر من

الغيظ، وبصورة تجعل ذلك الغيب المستقبلي شهودا لمن يسمع أو يعقل، مما يزرع خشية الله في النفس، فهنالك تحوط الكافرين الحسرة، ويغمرهم الندم على ما فرطوا في جنب الله وما صاروا إليه من سوء العاقبة، ولا يملك أحدهم إلا الاعتراف بذنوبه دون أن يجد مبررا يتملص به من المسؤولية أو يستر به الفضيحة، وأنى له ذلك وشهادة الله محيطة بكل شيء وهو عليم بذات الصدور؟! وكيف لا يعلم اللطيف الخبير بخلقه؟! (الآيات: ٦-١٤).

٣- ثم يأتي السياق على الأفكار الشركية فينسفها نسفا، لأنها تدعو الإنسان إلى الاعتماد على الأنداد المزعومين، والاعتقاد بأنهم قادرون على تأمينه وحمايته ورزقه من دون الله، باعتبارهم شركاء أو شفعاء أو أنصاف آلهة يؤثرون في مشيئته سبحانه، الأمر الذي يجعله لا يخشى ربه عز وجل. (الآيات: ١٥-٣٠).

وبناء على الحقائق الثلاث المتقدمة يمكن القول: إن قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ..﴾ هي الآية التي تفصح بجلاء عن المحور الأساسي في هذه السورة المباركة.

تبارك الذي بيده الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَٰرَكَ[1] ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ[2] مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ[3] فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ[4] ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا[5] وَهُوَ حَسِيرٞ[6] ۝٤ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا[7] وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ[8] مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا

---

(١) تبارك: من بَرَك أي دام في خير، ومنه البركة.

(٢) طباقاً: أي واحدة فوق الأخرى، وقيل: المراد بالمطابقة المشابهة أي يشبه بعضها بعضاً في الإتقان والإحكام والاتساق والانتظام.

(٣) تفاوت: اختلاف وتناقض.

(٤) فطور: شقوق وفتوق.

(٥) خاسئاً: مطروداً مبعداً، أي أن البصر سوف يعود متعباً دون أن يعثر على عيب في خلق الله.

(٦) حسير: هو العاري من الحَسْر وهم الرجّالة في الحرب يحسرون عن وجوههم ورؤوسهم أو يكونون لا درع عليهم، ويقال: أرض عارية المحاسر، فالبصر يعود وهو عارٍ من أيّ دلالة ونتيجةٍ تثبت التفاوت أو الفطور في خلق الله.

(٧) شهيقاً: في مفردات الراغب: الشهيق طول الزفير وهو ردُّ النفس، وأصله من جبل شاهق - أي متناهي الطول.

(٨) تميّز: تتقطع وتتفرق.

فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ(١) ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

لكي يزرع القرآن خشية الله في القلوب يذكّرنا بآيات الله وأسمائه، لأن المعرفة أساس الخشية، فهي التي تظهر للإنسان عظمة ربه وأنه أهل التقوى، وتجعله يراه ببصائر قلبه عبر آياته وأفعاله، فمن خلال سنة الموت والحياة يتحسس خلقه الأشياء، وملكه لها، وقهره إياها، ومن خلال النظر في أنظمة الكائنات يتجلى له قدرته وحكمته، وإنه لَيَكلّ بصره فيعود خاسئا حسيرا دون أن يرى ثغرة في خلق الله وتدبيره، مما يعزز لديه الإيمان به عز وجل كلما كر ببصره وبصيرته في الكائنات. وحيث يسمو البشر بنفسه وعقله إلى آفاق المعرفة يحضر ذلك الغيب أمامه حضورا يبعثه على الخشية.

ثم يذكّرنا الله بجهنم التي أعدها للكافرين وكيف أنها من شدة حرارتها ذات شهيق، بل تكاد تتفجر من الغيظ غضبا على أعداء الله، وأن الوسيلة للخلاص منها هو سماع النذر والآيات واستثارة العقل على أثرهما في الدنيا، لأن تقصير الإنسان في ذلك هو أعظم الذنوب التي لا يجد مفرا دون الاعتراف بها في الآخرة، وكيف لا يعترف وتحوطه شهادة الله النافذة؟!.

بينات من الآيات:

[١] في أول كلمة من سورة الملك يطالعنا اسم من أعظم أسماء الله وهو ﴿تَبَٰرَكَ﴾ الذي يقول عنه (وعن اسمين آخرين يماثلانه في العظمة) الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام:
«إِنَّ الله تَبَارَكَ وتَعَالَى خَلَقَ اسْماً بِالْحُرُوفِ غَيْرَ مُتَصَوَّتٍ، وبِاللَّفْظِ غَيْرَ مُنْطَقٍ، وبِالشَّخْصِ غَيْرَ مُجَسَّدٍ، وبِالتَّشْبِيهِ غَيْرَ مَوْصُوفٍ، وبِاللَّوْنِ غَيْرَ مَصْبُوغٍ، مَنْفِيٌّ عَنْهُ الأَقْطَارُ، مُبَعَّدٌ عَنْهُ الْحُدُودُ، مَحْجُوبٌ عَنْهُ حِسُّ كُلِّ مُتَوَهِّمٍ، مُسْتَتِرٌ غَيْرُ مَسْتُورٍ فَجَعَلَهُ كَلِمَةً تَامَّةً عَلَى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ مَعاً لَيْسَ مِنْهَا وَاحِدٌ قَبْلَ الآخَرِ.

فَأَظْهَرَ مِنْهَا ثَلَاثَةَ أَسْمَاءٍ لِفَاقَةِ الْخَلْقِ إِلَيْهَا، وحَجَبَ مِنْهَا وَاحِداً وهُوَ الِاسْمُ الْمَكْنُونُ

(١) فسحقاً: أي بُعداً، وهو دعاء عليهم أي أسحقهم الله وأبعدهم عن النجاة.

الْمَخْزُونُ، فَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ الَّتِي ظَهَرَتْ، فَالظَّاهِرُ هُوَ الله تَبَارَكَ وتَعَالَى، وسَخَّرَ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ اسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ أَرْبَعَةَ أَرْكَانٍ فَذَلِكَ اثْنَا عَشَرَ رُكْناً ثُمَّ خَلَقَ لِكُلِّ رُكْنٍ مِنْهَا ثَلَاثِينَ اسْماً فِعْلًا مَنْسُوباً إِلَيْهَا»[1].

وربما بسبب عظمة الأسماء الثلاثة التي أظهرها الله لخلقه نجد أئمة الهدى ينعتون عادة ربهم بها، فما تكاد تقرأ حديثا عن الله إلا يقولون فيه: قال الله تبارك وتعالى.. فما هو معنى ﴿تَبَارَكَ﴾؟.

إن أهم وأظهر معاني هذا الاسم العظيم الخير الكثير المستمر الذي يتصل في مقام الخالق بتواتر نعمه على الكائنات وتتابع آلائه، التي لولاها ما استمرت ولزالت وتلاشت السماوات والأرض وما بينهما، كما يتصل في مقام الخليقة بأنها في حالة نمو وتكامل مستمر، لأن خالقها يعطيها بركة تلو أخرى، مما يدل على أن مسيرة الخلق تصاعدية. وما التوسعة التي يضيفها الخالق للسماوات حينا بعد آخر والتي أشار إليها بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧] إلا مظهر لبركات الله، وفي القرآن إشارات إلى هذا المعنى إليك بعضها: قال تعالى وهو يتحدث عن الرسالة: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] ذلك لأن الفرقان نعمة تتواصل وخير يستمر وعطاء لا ينقطع من الدنيا وإلى الآخرة. إذن فهو تجعّل لاسم ربنا ﴿تَبَارَكَ﴾، وقال في معرض حديثه عن إنشاء الإنسان من طور إلى آخر حتى سوّاه كاملا بنعمة العقل: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقال في سياق بيانه لنعمه التي في السماء وبركاته: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾ [الفرقان: ٦١][2].

وهكذا يكون اسم ﴿تَبَارَكَ﴾ الركن الأخير من أربعة أركان جعلها الله لاسمه الأعظم، وهو يشير إلى صفات فعله، الفعّال لما يريد، الجواد، الكريم، المنان، المتفضل، الوهاب، الخالق، الباريء، المصور، وهو صانع كل مصنوع، وخالق كل مخلوق، ورازق كل مرزوق، ومالك كل مملوك، وراحم كل مرحوم، و... أما الأركان الثلاثة فإن واحدا منها مخزون عند رب العزة، في حين أن الثاني هو: (الله) الذي يشير إلى صفات الذات، والثالث هو: (تعالى أو سبحان) الذي يشير إلى صفات الجلال.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ فالملك الحقيقي بيده وحده تعالى، لأنه الباقي بعد فناء كل شيء، ولأنه وحده القادر على التصرف في ملكه بصورة مطلقة، أما ما يملكه الخلق فمالكيتهم

---

(١) بحار الأنوار: ج ٤، ص ١٦٦.

(٢) ولقد مر في مطلع سورة الفرقان تفصيل في بيان هذا المعنى من ﴿تَبَارَكَ﴾ فراجع.

له محدودة بقدر ما منحهم الله، فمتى شاء زاده أو نقص منه أو سلبه وحوَّله إلى غيرهم. و هذه الآية تفتح آفاقنا على وجود أوسع من الأرقام الفرضية التي يقدرها العلماء والفلكيون، بل أوسع مما للإنسان من مقدرة على تخيله مهما ذهب بعيدا، وأنى له تصور ملك الله وهو بيد قادرة على كل شيء وتمده بالبركة بعد البركة؟!.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وكفى دلالة على أن الملك بيده تعالى وأنه صاحب القدرة المطلقة أن ينظر الإنسان إلى الوجود من حوله وما فيه من آيات القدرة والعظمة، وكيف أنه مسيَّر وفق نظام دقيق وضعه الله له لا يخرج عنه، ولا ترى فيه ثغرة أو نقصا أو فطورا. ولقد وردت رواية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في بيان جوانب من معاني أسماء الله الحسنى نذكر بعضها للفائدة: «**وَلَمَّا تَسَمَّى بِالْمَلِكِ أَرَادَ تَصْحِيحَ مَعْنَى الِاسْمِ لِمُقْتَضَى الْحِكْمَةِ، فَخَلَقَ الْخَلْقَ وَأَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ لِيَتَحَقَّقَ حَقِيقَةُ الِاسْمِ وَمَعْنَى الْمُلْكِ** (ويظهر من هذه الكلمات أن الشرائع من مظاهر اسم الملك الإلهي). **وَالْمُلْكُ لَهُ وُجُوهٌ أَرْبَعَةٌ: الْقُدْرَةُ** (على التصرف في الملك بمطلق التصرف)، **وَالْهَيْبَةُ** (وهي انعكاس لقدرة المالك على المملوك)، **وَالسَّطْوَةُ** (بأخذ المملوكين بالقوة والبطش حين المخالفة. فسبحان من لا يعتدي على أهل مملكته بسطوته)، **وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ** (تشريعيًّا وتكوينيًّا)»[1].

[٢] ومن أظهر آيات ملك الله، وأظهر آيات قدرته: الموت والحياة، وقد اختلف في معناهما هنا إلى رأيين: أحدهما: أنهما ظاهرتا الموت والحياة اللتان تطبعان آثارهما على كل شيء، سواء الماديتين كموت الإنسان وحياة الأرض بالزرع، أو المعنويتين كالهدى والصلاح في مقابل الضلال والفساد، والآخر: أنهما إشارة إلى تقسيم الكائنات إلى أشياء جامدة وذات حياة.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ وقد أشار الإمام الباقر عليه السلام إلى المعنيين فقال: «**الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ خَلْقَانِ مِنْ خَلْقِ الله فَإِذَا جَاءَ الْمَوْتُ فَدَخَلَ فِي الْإِنْسَانِ لَمْ يَدْخُلْ فِي شَيْءٍ إِلَّا وَقَدْ خَرَجَتْ مِنْهُ الْحَيَاةُ**»[2]. والذي يظهر لي أن الموت هنا بمعنى انفصال الحياة من كائن حي كما تفيد الرواية، وبما أن معرفة الحياة بصورة أجلى تتحقق بمعرفة الموت فإنه قدَّم الموت على الحياة، ولا أعتقد أن ما قاله بعض المفسرين والفلاسفة من أن الموت سابق للحياة صحيح، لأن الإنسان قبل خلقه ووجوده لا يقال له ميت، وكيف يقال للعدم ميت؟! من هنا جاء في الحديث المروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «... **وخَلَقَ الْحَيَاةَ قَبْلَ الْمَوْتِ**... »[3]. وقد يكون تقديم الموت على الحياة في

(١) بحار الأنوار: ج٩٠، ص٤١-٤٢.
(٢) الكافي: ج٣، ص٢٥٩.
(٣) الكافي: ج٨، ص١٤٥.

الآية لحكمة أخرى هي أن قدرة الله تتجلى بالموت حيث لا يجد أحد سبيلا لتحديه ولا مفرا من سطوته. كذلك جاء في الدعاء المأثور: «وَقَهَرَ عِبَادَهُ بِالْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ»[١].

ويضع الله الإنسان أمام سنة الموت الحتمية، وفرصة الحياة، ويذكّره في الوقت نفسه بالهدف الذي خُلق هو كما خُلقا من أجله، ألا وهو الابتلاء لاستخراج معدن كل فرد واستظهار خبايا شخصيته، ومع أن الموت من مفردات الابتلاء إلا أن الابتلاء أكثر وأعظم تجلّيًا بالحياة.. بل لا يكون إلا أثناء الحياة، ولذلك تأخر ذكر الحياة عن الموت لتكون هذه الكلمة لصيقة بكلمة الابتلاء ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ إذن يجب على الإنسان وهو يعيش فرصة الحياة ألّا يضل عن هذا الهدف الكبير، بل يقاوم كل عوامل الانحراف والغفلة عنه، ويسخر كل قدراته المعنوية والمادية للفلاح والفوز فيه، بأن يجعل عمره مزرعة لأحسن العمل. فما هو أحسن العمل؟ إنه ما أخلص فيه الإنسان النية، وأتقن الأداء، وتحدى به هوى نفسه وأهواء القوى الشيطانية في مجتمعه، وكان العمل نفسه من أشرف الطاعات وأعظمها ثوابا عند الله، هكذا روي عن النبي ﷺ أنه قال في تفسير الآية: «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَقْلًا وَأَوْرَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ وَأَسْرَعُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وقال ﷺ: أَتَمُّكُمْ عَقْلًا وَأَشَدُّكُمْ للهِ خَوْفاً وَأَحْسَنُكُمْ فِيمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ نَظَراً»[٢]، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لَيْسَ يَعْنِي أَكْثَرُكُمْ عَمَلاً وَلَكِنْ أَصْوَبُكُمْ عَمَلاً، وَإِنَّمَا الْإِصَابَةُ خَشْيَةُ اللهِ وَالنِّيَّةُ الصَّادِقَةُ»[٣]. وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ لا يعني أنه تعالى لا يعلم بخلقه، بل ليتحقق ذلك العلم في عالم التكوين ويطلع الناس أنفسهم على معادنهم، ويعقلون جزاء الله أنه بعدل لا بظلم، قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «إِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ لِيَبْلُوَهُمْ بِتَكْلِيفِ طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ لَا عَلَى سَبِيلِ الِامْتِحَانِ وَالتَّجْرِبَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ عَلِيماً بِكُلِّ شَيْءٍ»[٤].

ولعل أظهر تأويل لهذه الآية هم الأنبياء والرسل وأئمة الهدى من أهل بيت الرسول، حيث إنهم جميعا كانوا الأحسن عملا بين خلق الله، فهم -على هذا- أبرز الحكم الإلهية للخلق. أليس قد أظهرت البلايا أنهم القمم المضيئة، والذرى المتسامية؟ وأن الله ما اختارهم ولا اصطفاهم إلا بعلم وحكمة، وما جعلهم سادات البشر وأمراء الصالحين من عباده إلا لأنهم السابقون في طاعة الله.

وقد قدر بعضهم في الآية كلمة فقالوا: الأصل هو: «ليبلوكم فينظر أيكم»، ولا أرى لهذا الافتراض مبررا في كتاب الله، فالآية أعمق بلاغة بوضعها مما لو أضفنا إليها شيئا، لأننا نفهم

---

(١) بحار الأنوار: ج٨٤، ص٣٣٩. من دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٢٣٢.
(٣) الكافي: ج٢، ص١٦.
(٤) بحار الأنوار: ج٤، ص٨٠.

منها أنه تعالى يصنع الصالحين في رحم الابتلاء، بل إن خلق الإنسان يكون ناقصا لو لم يأت إلى الدنيا ويُبتلى فيها. وهكذا تكون الآية مظهرا من مظاهر اسم ﴿تَبَٰرَكَ﴾ حيث تظهر بركة الله بأجلى صورها وشواهدها في الصفوة من عباده المؤمنين الصالحين، الذين يتجاوزون في سبيله كل الجاذبيات السلبية والعقبات الكأداء، ويسمون بأنفسهم إلى آفاق الفضيلة ببركة الإيمان به عز وجل وبنعمة العقل التي وهبها لهم، ولذلك جاء في الأخبار عن رسول الله ﷺ في قوله: «﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ثم قال: أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَقْلًا»[1].

ولأن الإنسان يفلح تارة ويخطئ أخرى وهو يواجه الابتلاءات، أو يتعنت أحيانا على الحق، جاءت خاتمة الآية لتسوقه نحو أهدافه في مسيرة العمل بمعادلة متوازنة كفتها الأولى الخوف وكفتها الأخرى رجاء رحمة الله وغفرانه، وذلك من خلال تعريفه باسمين لربه من أهم ما ينبغي له التعرف إليهما.. فلا يسترسل مع الرجاء المفرط، ولا يصير فريسة للقنوط. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ يأخذ بعزته العاصين المذنبين، ويغفر لمن يتوب، فمن أحسن العمل غفر له، ومن أساء عذبه. ثم إننا نهتدي من هذه الخاتمة أن للابتلاء هدفا آخر غير استظهار معدن الناس، وهو الجزاء.

[٣-٤] ثم تأخذ الآيات بأبصارنا وبصائرنا إلى بديع خلقه الكائنات، فإننا إذا أمعنا النظر فيها وألقينا نظرة إلى السماء التي تمتد مدى أبعد من أدق النواظير وأعظمها التي اخترعها الإنسان بما لا يقدر بشر على تخيله.. وأعظم من حجم السماوات ذلك النظام المتناهي في الدقة الذي يحكمها على ما فيها من المنظومات والمجرات الهائلة، فسنقرأ في الآفاق أسماء ربنا الجليل. إن التفكر في خلق الله يوقف الإنسان أمام حقيقة بديعة هي متانة الحق والتدبير في كل مفردات الكون وأجزائه، والنظرة السليمة التي ينبغي أن نسلكها ليست التي تقف بنا عند ظواهر الأشياء، بل التي تحملنا من الظاهر المشهود إلى الباطن المحجوب، ومن معرفة المخلوق إلى معرفة الخالق الذي أنشأه وأبدع له النظام الذي يسير عليه.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ قالوا: يعني بعضها فوق بعض، كما قال الله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩] ويبدو أن التطابق هنا بمعنى الدقة في التكامل والتناسق، من باب المطابقة والموافقة ضد التناقض والتنافر، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على دقة النظام الحاكم في الكون ومدى قدرة خالقه وعظمته، فإنك مهما بحثت وأجهدت نفسك فلن تجد ثغرة ولا عيبا في خلق الله ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أي ثغرات وتناقضات، فإن التفاوت بمعنى الاختلاف، والاختلاف يعني التناقض، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وقد ذكر اسم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٢٣٣.

هنا عند الحديث عن نظام الخليقة لأن ذلك من أعظم تجليات رحمته عز وجل. أترى لو كان النظام الكوني متناقضا هل كانت الحياة ممكنة أو ميسرة؟! كلا.. وإننا مهما تفكرنا في الخلائق فإننا نجدها محكومة بنظام التكامل المتقن، فالشمس تختلف عن القمر ولكن أحدهما يكمل مسيرة الآخر، بل يقوم بدور محدد بحيث لا تنتظم مسيرته إلا به. بلى، قد نزعم أنهما متناقضان لأن أحدهما (الشمس) نار مشتعلة والآخر (القمر) نور هادئ ولكن أحدهما وجه للثاني.

واللطيف في التعبير القرآني عند هذه الآية أنه حدثنا في المطلع عن السماوات السبع، ولكنه عندما نفى وجود التناقض نفاه عن كل خلق الله، وذلك أن الإنسان قد يسلم بأن خلقا من خلقه تعالى كالسماوات محكم ومتقن، ولكنه يشك في وجود هذه الحقيقة عندما يتفكر في خلق آخر، فإذا به يتساءل: ولماذا خلق الله الذباب والميكروبات المهلكة؟ لماذا الزلازل التي يذهب ضحيتها الألوف من البشر؟.

ولكن عليه:

أولاً: أن يقيس ما يعرفه من خلق البشر بما لا يعرفه.

ثانياً: أن يعالج شكه باليقين، فلا يسترسل مع وساوس الشيطان، بل يظل باحثا عن الحقيقة حتى يكتشفها. لذلك يأتي الخطاب الإلهي الكريم يدعو كل فرد فرد من أبناء البشر للنظر والتفكر في خلق الله، ودراسة الظواهر المختلفة، لأننا كلنا مسؤولون عن معرفة الحقيقة والوصول إلى درجة اليقين من الإيمان بالله، ويقول: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ وإلى جانب البصر ينبغي أن يُعمل الإنسان بصيرته أيضا، فإن العين نافذة القلب على الحياة. ولعل الفرق بين كلمتي ﴿تَفَٰوُتٖ﴾ و ﴿فُطُورٖ﴾ أن التفاوت يكون بين خلق وخلق آخر، وهو منفي لأن كل خلائق الله يكمل بعضها بعضا فهي منسجمة مع بعضها، أما الفطور فيكون في ذات الخلق الواحد بين أجزائه، وليس في خلق من خلقه تعالى ثغرة.

وإنه لعجيب قول ذلك الدكتور الألماني بخنر: «بما أننا لم نجد ظاهرة واحدة في هذا الكون الرحيب من أبعد نقطة اكتشفناها في الفضاء وإلى أقرب جرم إلينا، لم نجدها شاذة عن النظام الكوني، فليس لنا الحاجة إلى افتراض وجود الله»[1]. سبحانه الله كيف عمي قلبه ولم يعرف أن وجود النظام دليل على من نظمه وهيمن على إجرائه؟!.

نعم لو كان ثمة تناقض أو تنافر في نظام الكون لأمكن افتراض أن الصدفة[2] هي التي

---

(١) الفكر الإسلامي مواجهة حضارية: للمؤلف: ص ١٧٧، ط٥، ١٩٨٨م، عن دار البيان.

(٢) الصدفة بمعنى: الضرورة الفاقدة للعقلانية، لا بمعنى الخلق بدون خالق، فالبحث في الصدفة يتجاهل

تدبره، أو أن هناك آلهة متعددة شركاء في الربوبية يتناقض الكون بتناقض آرائهم وتدبيرهم، ولكننا لا نرى شيئا من ذلك، فما هي إلا حقيقة التوحيد الخالص إذن. وليست مشكلة الدكتور بختر إلا واحدا من أمرين: فإما أن يكون جاحدا معاندا لم يرد التسليم للحق، وإما أن يكون قد أخطأ في منهج البحث والدراسة لظواهر الكون، بحيث إنه جعل المزايا العلمية المجردة هدفا من بحثه فلما وجدها توقف عندها، وهذا خلاف المنهج السليم الذي يأمر به العقل والدين، والذي يدعو إلى تجاوز ظواهر الأمور إلى بواطنها.

إن الإنسان لا يستطيع أن يصنع شيئا إلا وفيه ثغرة، ولكنك لا تجد ولا بعضا من فطور في خلق الله، وأنى يكون ذلك وهو الرحمن، الذي لا يريد لخلقه عناء ولا نصبا؟ أترى لو كانت الشمس تتغير من موقعها هل نستطيع العيش على هذا الكوكب؟! وهل يمكن لنا الحياة على الأرض لو انعدم الأوكسجين أو تلاشى قانون الجاذبية؟! كلا.. إذن فذلك من رحمة خالقنا وتلطفه بنا سبحانه.

بلى؛ قد ينظر الإنسان إلى خلق الله ويتفكر فيه فيزعم أن وجود اللوزتين -مثلا- ثغرة في خلق الإنسان، الأمر الذي دعا بعضهم قبل سنين معدودات إلى اقتلاعهما بُعيد الولادة! أو يسمي عضوا داخله بالزائدة الدودية، وتسود هذه الأفكار بين الناس بل في الأوساط العلمية أيضا ردحا من الزمن، ولكنه بعد أن يتقدم العلم يكتشف خلاف تلك المزاعم، ويتبين له أن اعتقاداته السابقة كانت ظنونا سببها الجهل والتسرع في الحكم. علماً أن بناء العلم يعتمد على ركيزتين تتنافيان مع (الصدفة) وهما (السببية والغائية). لذلك يدعو القرآن للتفكر والنظر في الأمور بإمعان مرات عديدة: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ وأكثر من ذلك، وابحث بكل ما تستطيع عن تناقض وثغرات في خلق الله، بل افترض ذلك ثم حاول أن تثبت وجوده، فهل ستجد إلى ذلك سبيلا؟ كلا.. وإنما ستصل إلى حقيقة واحدة هي التي أشار إليها القرآن: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ عند تفكرك في أي خلق من خلقه تعالى، حتى ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ والخاسئ المطرود المبعد، وتقال هذه الكلمة للكلب والخنزير، قال صاحب المنجد: «الخاسئ من الخنازير والكلاب المبعد المطرود، لا يترك أن يدنو من الناس»[1]، وكأن الإنسان حينما يجول ببصره يبحث عن عيب في خلق الله يطرد بلسان حال الخلائق، وكأنها تقول له: اخسأ إننا خلق الرحمن الحكيم العليم فلن تجد فينا نقصا، حيث يقال: «خَسِئَ وَخَسُؤَ البصر: كَلَّ وَأَعْيَا»[2]، وهذا المعنى قريب أيضا لأن الباحث سوف يتعب ويشقى دون العثور

البداية ويحاول تفسير التطور في الخلق بـ (الصدفة) فقط.

(١) المنجد: مادة خسئ.

(٢) المصدر السابق.

على عيب، وكيف يعثر على شيء ليس بموجود؟! ويؤيد هذا القول قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ﴾ فهو يتعب ويكل من النظر إلى الخلائق فلا يعود إلى ذلك مرة أخرى.. بل يرجع إلى صاحبه منهكا دون نتيجة.

أما الحسير فقيل: المحقَّر، وقيل: «من اشتدت حسرته وندامته على أمر فاته»[1]، وهما محتملا الصحة.. وهناك معنى قريب جدًّا من الآية هو العاري من الحسر: الرجالة في الحرب يحسرون عن وجوههم ورؤوسهم، أو يكونون لا درع عليهم، ويقال: «أرض عارية المحاسر أي لا نبات فيها»[2]، وإن الإنسان ليعود ببصره وبصيرته من رحلة البحث عن التفاوت أو الفطور في خلق الله وهما مجردان عاريان من أي دلالة ونتيجة تثبت ذلك. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ وأَعْمَلَ فِكْرَهُ لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ وكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ وكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ وكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً وعَقْلُهُ مَبْهُوراً وسَمْعُهُ وَالِهاً وفِكْرُهُ حَائِراً**»[3].

ولنا في الآية الرابعة وقفة عند معنى ﴿كَرَّتَيْنِ﴾، فلماذا قال الله: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾؟ والإجابة:

١- للتأكيد على ضرورة أن يركز الإنسان في بحثه ودراسته، فلا يحكم على شيء من نظرة واحدة عابرة، إنما يجب أن يدرس أموره مرات عديدة ثم يقول رأيه، فقد يكون في مرته الأولى غفل عن بعض الجوانب والمعطيات، أو لم يفكر تفكيرا كافيا.

٢- إن المعرفة السليمة قد لا تتأتى إلا بالمقارنة بين الأشياء، فينبغي للدارس أن يراجع ببصره وفكره مرتين، مرة يرجع إلى ما يريد معرفته والتحقيق في شأنه، وأخرى يرجع إلى ما يشابهه أو يناقضه للمقارنة.

٣- إن دراسة الشيء دراسة شاملة تتم بدراسة جانبين فيه: الجانب المادي الظاهر، والجانب المعنوي الباطن، ويحتاج الباحث أن يكر مرة ببصره لملاحظة الجانب الأول، وكرة أخرى يرجع بها إلى الجانب الثاني منه.

٤- لكي يرقى الإنسان في معارفه سلَّم التكامل فهو بحاجة إلى إعادة النظر فيما توصل إليه سابقا بهدف نقده أو تكميله من خلال نظرة تفكر جديدة، لاحقة بعد السابقة وهكذا.

---

(١) المنجد: مادة حسر.

(٢) المصدر السابق.

(٣) نهج البلاغة: خطبة: ١٦٠.

[٥] ومما يؤكد حاجة الإنسان إلى إعادة النظر في معارفه أن هناك جملة من الأفكار والاعتقادات الخاطئة (الأساطير) ينطوي عليها فكره لا تتصحح إلا بكرّات أخرى جديدة يرجع فيها البصر والبصيرة، ومن بينها تصوره المتصل بنظام السماء أنه فيه ثغرات تنفذ منها الشياطين إلى الملأ الأعلى فتطلع على أقدار الله، وزعمه بأن النجوم هي مراكز الأقدار وأن لكل فرد نجماً يخصه إذا مات سقط، وعلى ذلك فسروا ظاهرة الشهب والنيازك، لذا مضى القول: (نجمي لا يوافق نجمك) شائعاً. والقرآن يشير إلى تلك التصورات ويصححها حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي النجوم التي تعتبر لأهل الأرض قناديل الليل، إذ تهتدي بها السفن التي أضلتها العواصف عن مسارها وتضيء درب الراعي الساري بغنيماته ليلا في صحراء بعيدة، كما تناغي المستلقي تحت السماء في الليالي الصافية. ولكن متانة الخلقة تربط بين تلك الزينة والإضاءة وبين حراسة السماء بتلك النجوم، فهي كما تزين السماء وتضيء لأهل الأرض كذلك تقصف الشياطين رجما فلا يستطيعون العبث بمقدرات الكون، ولا حتى استراق السمع لمعرفة تلك المقدرات. ولعله هاهنا ثمة إشارة للناحية الجمالية في الكون والتي تتنافى مع الصدفة. فالصدفة (الضرورة) مطلقاً لا تفسر الجمال في الكون ولا الحس الجمالي عند الإنسان المتذوق له. ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ وهذه الآية تنسف زعم الجاهلين بأن الشياطين قوى خارقة وعالمة بأقدار الله لأنها تخترق السماوات وتصل إلى الأعلى، الأمر الذي جعل البعض يشرك بهم، ويتبعون الكهنة باعتبارهم وسائط بين الشياطين وبين الآدميين، فإن النجوم ليس كما يتصورون بل هي زينة ومصابيح ورجوم، وإن الشياطين ليسوا كذلك لأنهم يرجمون. ولعل هذه الآية تؤكد متانة النظام الكوني وهيمنة الله من زاويتين:

الأولى: أن ما نراه من الشهب والنيازك ليست مجرد قطع تنفصل عن مدار بعض النجوم والشموس في الفضاء نتيجة عوامل وقوانين فيزيائية بحتة ومن دون هدف، إنما تنفلت من مواقعها بإرادة الله ولأهداف محددة من بينها رجم الشياطين.

الثانية: أن النظام الكوني نظام متقن، وهو بالرغم من وجود العوامل المضادة التي تحاول خرقه كالشياطين فإنها لا تؤثر في مسيرته ونظمه، وأن مصير كل محاولة لخرقه هو الفشل. وهذه الحقيقة تعطي الإنسان الاطمئنان والأمن حيث يشعر أنه يعيش في كون منظم ومحروس.

ويؤكد ربنا في خاتمة الآية بأن ما هو أعظم من جزاء الرجم الدنيوي للشياطين هو ذلك العذاب المعد لهم في الآخرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾. ويدل هذا المقطع على أن الشياطين مخلوقات مكلفة ومختارة ومسؤولة حيث تجري عليهم سنة الجزاء.

[٦] وبعد أن انتهى الفصل الأول الذي استهدف زرع الخشية من الله بالغيب من خلال

معرفته بالشهود ومن خلال تعريفه نفسه بالآيات، يبدأ السياق القرآني فصلا آخر لا ينفك عن الأول، بل يلتقي معه في الهدف ذاته، حيث تذكّرنا الآيات التالية بعذاب جهنم وجزاء الله للكافرين ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾. إن الكفر بالله من قبل الإنسان هو الآخر كعمل الشياطين خرق لنظم الله مما يستوجب العذاب. ولهذه الآية صلة متينة بالآية الثانية في السورة التي بينت أن حكمة الخلق استظهار معدن الإنسان بالابتلاء، والكفر والعذاب صورة لفشل الإنسان في القيام بدوره وواجبه الذي خُلق من أجله، فيتردى في الجحيم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ والمصير من الصيرورة أي ما يصيّر الإنسان نفسه إليه.

ويلاحظ في هذه السورة تأكيد الله على اسم الرحمن أربع مرات (في الآيات: ٣، ١٩، ٢٠، ٢٩)، وكأنه تعالى يريد أن يؤكد أنه إنما خلقنا ليرحمنا لا ليعذبنا ولكننا نحن الذين نختار العذاب لأنفسنا بإرادتنا حينما نكفر به، فإن ما يصير إليه الإنسان من العقاب نتيجة كفره لا لأن الله سبحانه يريد له بئس المصير.. وبماذا يكفر ويمارس الكفر؟ إنه يكفر بخالقه ورازقه وواهبه الحياة وكل ما يملك، ويمارس عناده له بنعمه.. بنعمة المال والقوة والصحة والسمع والبصر و..! ولعل هذا ما توحي به كلمة ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ أي به وبوسيلة نعمه.

[٧-٩] ويفصل القرآن القول في موضوع العذاب مبينا بعض صفات جهنم وأحوال أصحابها حينما يلقون فيها، لعلنا نتحسس ذلك الغيب، ونخشى سطوة الله.. فما هي صفات جهنم؟.

أول صفة لها أنها -كما الحفرة أو الوادي- ذات قعر سحيق، وقد يكون أول عذاب يواجهه أهل جهنم فيها هو الإلقاء من الأعلى إلى الأسفل، فعن الإمام الصادق عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله عن جبرائيل قال: «**وَإِنَّ جَهَنَّمَ إِذَا دَخَلُوهَا هَوَوْا فِيهَا مَسِيرَةَ سَبْعِينَ عَاما**»[1] ويعلم الله كم هم يقاسون في هويهم من ألوان العذاب؟!.

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ وبناء الفعل هنا للمجهول يدل على أنهم يلقون مكرهين في النار، وفي النصوص إشارة إلى ذلك، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ يُسْتَكْرَهُونَ فِي النَّارِ كَمَا يُسْتَكْرَهُ الْوَتَدُ فِي الْحَائِطِ**»[2].

﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ ومن أنواع العذاب ما يسمعه الكافرون حين هويهم في جهنم من عظم شهيقها. والشهيق هو أخذ الهواء إلى داخل الرئة، وكأن النار يومئذ تُعطى قدرة هائلة

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٨١، بحار الأنوار: ج٨، ص٢٨٠.
(٢) بحار الأنوار: ج٨، ص٢٥٥.

على الجذب فتسحبهم إلى جوفها بشهيق ذي صوت مرعب أعظم بملايين المرات من الرعد القاصف.

وصفة ثانية لجهنم أنها تفور ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾، وللفوران معنيان:

الأول: الغليان بارتفاع ما في الإناء لشدة الحرارة، وفي المنجد: «فارت القدر: غلت وارتفع ما فيها»[1]، وجهنم يومئذ تتداخل ألسنتها وتتموج بما يشبه فوران الماء في القدر لشدة حرارتها.

الثاني: الغضب، ويقال: «فار فائره أي ثار ثائره وهاج غضبه»[2]، وكلا المعنيين مجتمعان في هذه الكلمة القرآنية، فإن النار يومئذ تفور كالقدر غضبا.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ إنها أعظم من ملايين القنابل النووية التي تنفجر مرة واحدة، حتى تكاد تنفجر ويمتاز بعضها عن بعض لولا مشيئة الله! والغيظ الذي يكاد يفجرها هو انعكاس لغضب الله على الكافرين في واقع جهنم، والآية توحي بأن النار لها شعور يوم القيامة، وليس من شيء يدعوها للغيظ أعظم من عصيان أصحابها لربهم عز وجل!.

ويأبى الله سبحانه إلا أن يظهر عدالته حتى لأولئك الذين تسير بهم الأقدار إلى قعر جهنم فإذا بملائكته يسألونهم عن سبب وصولهم إلى هذا المصير البئيس، لكيلا يدخل النار أحد وفي قلبه ذرة من شك بأنه سبحانه قد ظلمه، ولكي يصير أهل النار إلى العذاب وهم في أعظم ما تكون الملامة لأنفسهم على ما فرطوا في جنب الله وفي الإعداد لتلك الدار الآخرة ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يحذركم من معصية الله ومن هذه النار ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ فالحجة إذن بالغة عليهم، وأسباب الهداية إلى الحق والوقاية من العذاب وأهمها المنذر والإنذار كانت متوافرة. فعن الإمام الصادق عليه السلام «أنه سأله رجل فقال: أَنَّهُ سَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ لِأَيِّ شَيْءٍ بَعَثَ اللهُ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ إِلَى النَّاسِ فَقَالَ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وَلِئَلَّا يَقُولُوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ وَلِتَكُونَ حُجَّةُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَلَا تَسْمَعُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ حِكَايَةً عَنْ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ وَاحْتِجَاجِهِمْ عَلَى أَهْلِ النَّارِ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾»[3].

وحيث انتفى التقصير عن الله المعذِّب ثبت على الطرف الآخر وهم الكافرون المعذَّبون، فما هو

---

(١) المنجد: مادة فور.

(٢) المصدر السابق.

(٣) بحار الأنوار: ج١١، ص٣٩.

خطؤهم الفظيع الذي أدى بهم إلى بئس المصير؟ إنه التكذيب بالنذر ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ وفي الآية بيان لثلاثة ذنوب كبيرة أقدم عليها الكفار:

الأول: تكذيبهم الحق في داخل أنفسهم وعدم استجابتهم له.

الثاني: أنهم بادروا للهجوم المضاد ضد القيم الرسالية التي جاء بها المرسلون وأئمة الحق محاولين سحب الشرعية (أنها من عند الله) عنها، بتصنيفها في خانة القيم البشرية للتحلل من مسؤولية الالتزام بها، وذلك أن الملزِم للإنسان هو الحق الذي يتصل بالله فقط.

الثالث: اتهام النُّذرُ المصلحين بألوان التهم في محاولة لإسقاط شخصيتهم وضرب قيادتهم في المجتمع، ومن أبرزها اتهامهم بالضلالة من خلال قيمهم الفاسدة وثقافتهم الخاطئة.

وكلمة ﴿وَقُلْنَا﴾ تدل على أنهم يحاربون الرسالات والقيادات الرسالية بالإعلام المضلل الذي يحكي ثقافتهم ومواقفهم الجاهلية، والإنسان قادر على القول للآخرين والتعبير عما يريد بوسائل شتى.

[١٠-١١] وغاب عن الكفار أنهم هم الضالون، وأن وراءهم يوما تنتصر فيه الحقيقة وتظهر رغم أنف أعدائها، يوما يُفصل فيه القول، ويخسر هنالك المبطلون، يوما يشهد فيه الإنسان على نفسه ويعترف بذنبه. ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾. فالإنسان إذن يحدد موقفه ومصيره في الدنيا، فهو الذي يختار الحق أو الباطل، وينتمي إلى حزب الله أو حزب الشيطان، وبالتالي يسلك طريق الجنة أو النار، وهذه الحقيقة تكون في أجلى صورها يوم القيامة إذ يلاقي كل واحد مصيره الذي هو نتيجة مباشرة لاختياره وعمله في الدنيا، وكفى بهذا البيان الإلهي داعيا للناس إلى التفكر في مستقبلهم الأبدي.

وفي هذه الآية إشارة لطيفة تتصل بمعارف الإنسان، فهو إما يكون تابعا لعاقل فيسمع منه، وإما أن يكون بنفسه قادرا على الاهتداء إلى الحق والاجتهاد في المعرفة فيعقل، وإما أن يكون ضالا كهؤلاء الكفار الذين كانوا يسمعون ولا يعقلون، بعلمهم بهذه الحقيقة في الدنيا وباعترافهم بها في الآخرة. و إشارة أخرى تهدينا إلى أنهم كانوا شيئيين يقيِّمون الأمور بالمظاهر المادية، فكأنهم يعيشون في الدنيا بأبصارهم فقط وبطونهم و.. أما الأسماع والعقول فإنها معطلة، والحال أن قيمة الإنسان بعقله.. ولو أنهم كانوا يستفيدون من عقولهم لما ضلوا، لأن العقل يوافق الحق تماماً. قال الإمام الصادق عليه السلام: «**مَنْ كَانَ عَاقِلًا كَانَ لَهُ دِينٌ وَمَنْ كَانَ لَهُ دِينٌ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[1].

---

(١) الكافي: ج١ ص١١.

وقال عليه السلام حين سُئل عن العقل: «مَا عُبِدَ بِهِ الرَّحْمَنُ واكْتُسِبَ بِهِ الْجِنَانُ»[١]، وقال الإمام علي عليه السلام: «هَبَطَ جَبْرَئِيلُ عَلَى آدَمَ عليه السلام فَقَالَ: يَا آدَمُ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أُخَيِّرَكَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ فَاخْتَرْهَا ودَعِ اثْنَتَيْنِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: يَا جَبْرَئِيلُ ومَا الثَّلَاثُ؟ فَقَالَ: الْعَقْلُ والْحَيَاءُ والدِّينُ، فَقَالَ آدَمُ: إِنِّي قَدِ اخْتَرْتُ الْعَقْلَ، فَقَالَ جَبْرَئِيلُ لِلْحَيَاءِ والدِّينِ انْصَرِفَا ودَعَاهُ، فَقَالَا: يَا جَبْرَئِيلُ إِنَّا أُمِرْنَا أَنْ نَكُونَ مَعَ الْعَقْلِ حَيْثُ كَانَ، قَالَ: فَشَأْنَكُمَا، وعَرَجَ»[٢] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنَّمَا يَرْتَفِعُ الْعِبَادُ غَداً فِي الدَّرَجَاتِ وَيَنَالُونَ الزُّلْفَى مِنْ رَبِّهِمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ»[٣]، وإذا لم يكن الكفار يعقلون فهم لا ينالون شيئا، بل يتسافلون في دركات العذاب. وإن إغفال الإنسان لدور العقل هو أعظم الذنوب، لأنه الذي تتفرع عنه كل معصية وخطيئة، وهذا ما يكتشفه أهل النار يوم القيامة.

﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ وكيف لا يعترف البشر لله بذنبه وله الحجة البالغة عليه، وكل شيء يشهد عليه حتى جوارحه؟! وربما نهتدي من كلمة ﴿فَٱعْتَرَفُواْ﴾ -بإضافة إيحاءات السياق- أن الكفار يرفضون الحق وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم يختارون الباطل إلا أنهم لا يعترفون بذلك في الدنيا. ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي ليكن جزاؤهم أن يسحقوا بالعذاب وبالأقدام، والسحق: هو دق الشيء أشد الدق (حتى يصير جزيئات صغيرة في مثل الرمل والطحين أو أنعم من ذلك، وقيل: هو الإبعاد عن رحمة الله)، والمعنيان متحدان لأن السحق في الآخرة بالمعنى الأول نتيجة لطرد الله الكافر من رحمته.

[١٢-١٤] ويصل السياق إلى محور السورة حيث التأكيد على خشية الله بالغيب، فإن الآيات التي عرَّفتنا جانبًا من عظمة ربنا في مطلع السورة، وهكذا التي حدثتنا عن عذاب الكافرين وبعض أحوالهم يوم القيامة، وكذلك بقية الآيات حتى خاتمة سورة الملك والتي تنسف أفكار الشرك بالله ومزاعم المشركين.. إنها كلها تهدف رفعنا إلى مستوى خشية ربنا بالغيب. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما سبقت منهم من سيئات وخطيئات. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وذلك لأن خشية الله بالغيب من الحسنات الكبيرة التي تُذهب السيئات وتضاعف الصالحات. فما هو معنى الخشية بالغيب؟.

الجواب: إنها خوف الله بالمعرفة الإيمانية، وليس نتيجة العوامل المادية التي يعانيها الإنسان، ويلمس آثارها في الدنيا.. فتارة يلتزم الواحد منا أحكام الله ويطبق رسالته لأن الحكم

(١) الكافي: ج١، ص١١.
(٢) الكافي: ج١، ص١٠.
(٣) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٢٠٩.

بيد أوليائه الذين يجرون حدوده وأحكامه، فهو لا يقدم على السرقة ولا الزنا لأن الحاكم سوف يقطع يده ويجلده أو يرجمه بالحجارة، وتارة يستجيب لله لمعرفته وإيمانه بالآخرة، وأنه تعالى يعذب العصاة بالنار، فإذا بذلك العامل الغيبي الذي لا يراه ببصره ولكنه يعاينه ببصيرته يعكس الخوف من الله في كل كيانه.

ومن المعارف التي تبعث في النفس روح الخشية من الله هي معرفة الإنسان برقابته المطلقة تعالى على كل شيء وعلمه به، لا فرق بالنسبة إليه بين السر والجهر، لأن هذه المعرفة تجعل من الغيب حاضرا في وعي البشر وسلوكه. ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي مطلع على النوايا الباطنية التي تنطوي عليها نفوس الناس، وتصدر عنها الأقوال والأفعال في مرحلة متأخرة عن تكونها. وهذا المستوى من المعرفة إذا سمى إليه الإنسان فإنه ليس لا يقترف الذنب في المجتمع ولا بعيدا عن أعين الناس وحسب، بل لا ينجّس صدره بنية سوء أبدا، لأنها هي الأخرى يعلمها الله. وهذه أكبر ضمانة للالتزام بالنظام، وقد أثبتت الإحصاءات أن ثمانين بالمئة من حوادث الإجرام التي تقع في العالم ناشئة من اعتقاد المجرم بأنه قادر على الإفلات من الرقابة والجزاء، لأن الحاكم مهما بلغ فهو بشر مثله محدود القدرات اطلاعا ومجازاة، ولكن هل يصدق ذلك بالنسبة إلى الله سبحانه؟ كلا.. والقرآن ينسف أدنى تصور بهذا الاتجاه إذ يقول متسائلا: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ الذي ينفذ علمه إلى أدق الأشياء وأخفاها، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ العالم علما شاملا وكاملا بخلقه، وإذا كان الخبير من البشر يعلم بدقائق ما يصنعه من الأجهزة فكيف بالخالق المطلق العلم؟! إذن فلا تحاول أيها الإنسان أن تخادع نفسك، ولا تسمع لنداء الشيطان الذي يحاول تغريرك والإيحاء لك بأنك بعيد عن الأنظار فتمارس الخطيئة.

وهناك رواية في معنى ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ مأثورة عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «**وأَمَّا الخَبِيرُ فَالَّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ ولَا يَفُوتُهُ، لَيْسَ لِلتَّجْرِبَةِ ولَا لِلاعْتِبَارِ بِالأَشْيَاءِ فَعِنْدَ التَّجْرِبَةِ والاِعْتِبَارِ عِلْمَانِ ولَوْلَا هُمَا مَا عُلِمَ لِأَنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ جَاهِلًا** (قليل العلم ومحدود المعرفة) **واللهُ لَمْ يَزَلْ خَبِيراً بِمَا يَخْلُقُ، والخَبِيرُ مِنَ النَّاسِ المُسْتَخْبِرُ عَنْ جَهْلِ المُتَعَلِّمُ، فَقَدْ جَمَعْنَا الاسْمَ واخْتَلَفَ المَعْنَى**»[1] فنقول: إن الله خبير كما نقول: إن فلانا من الناس خبير، فالتسمية واحدة، ولكن معنى خبرة الله يختلف عن معنى خبرة الناس.

---

(١) الكافي: ج١، ص١٢٢.

إن الكافرون إلا في غرور

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا[1] فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا[2] وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ[3] (١٥) ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ[4] (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا[5] ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ[6] (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟[7] فِى عُتُوٍّ[8] وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ[9] فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا

---

(١) ذلولاً: سهلة، مسخرة للبناء والزرع ودفن الأموات والسير وإجراء الأنهر والقنوات وغيرها.. من ذلَّ بمعنى خضع ولان.

(٢) مناكبها: أي ظهورها وطرقها، ومنكب كل شيء أعلاه، وأصله الجانب، ومنه منكب الرجل، والريح النكباء.

(٣) النشور: الحياة بعد الموت، وأصله من النشر ضد الطّي.

(٤) تمور: تضطرب وتموج.

(٥) حاصباً: الحاصب الحجارة التي يُرمى بها كالحصاء، وحصبه بالحصاء إذا رماه بها.

(٦) نكير: أي إنكاري عليهم حيث عذّبوا بألوان العذاب من غرق وخسف وحصب وغيرها.

(٧) لجوا: استمرّوا في اللجاج والمخالفة.

(٨) عتوّ: تعدٍّ عن الحق.

(٩) ذرأكم: أي خلقكم بالتناسل والتوالد.

ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً(١) سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ(٢) ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا(٣) فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ(٤) ﴿٣٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

إن الفلسفات الشركية التي تربط ظواهر الكون ونظمه بالقوى المزعومة من دون الله هي المسؤولة عن مشي الإنسان مُكِبًّا على وجهه، ضالا عن الحقيقة، وهي التي تحجب عنه نور الخشية من ربه، وتصنع في نفسه هالة من الأمن والاطمئنان الكاذب، الأمر الذي يسوقه نحو ممارسة المعصية ومخالفة النظام الحق دون وازع أو ضابط، ويسقط من عنده قيم الشرائع والعهود. أوليست الخشية روح الالتزام بالنظام؟.

بلى؛ إن الشرك والاعتقاد بالأنداد هو الذي يترك الإنسان غير مسؤول، فإذا به لا يخشى من مخالفة الحق، ولا يرى ضرورة للشكر على النعم، لأنه يزعم أن الله خلق الوجود وقدَّر نظامه ثم فوَّض إلى الناس أمورهم، أو فوضه إلى الأنداد ثم اعتزل، أو أن هناك قوى الشركاء التي تنصرهم من دونه تعالى فتقاوم قدرته ومشيئته سبحانه، فإذا منع رزقه عنهم رزقتهم، وإذا غار ماؤهم جاءتهم بماء معين غيره.. ويعالج القرآن هذا الضلال (الغرور والعتو والنفور) ببصيرتين:

الأولى: بصيرة التوحيد، وأن الله وحده الذي بيده الأمر والقدرة التامة، ويذكِّر القرآن بهذه الحقيقة بصورة تكون فيها آيات الدرس الأخير من سورة الملك تفسيرا لآية محورية في السورة هي الآية الأولى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الثانية: حقيقة البعث والجزاء، ذلك أن جزءاً كبيرا من شرك الإنسان وعدم إحساسه بالمسؤولية نتيجة لكفره بالآخرة أو شكه فيها، فلا بد أن يعلم بأنه منشور محشور. وعندما يذكِّر القرآن بهذه الحقيقة يعيدنا إلى آية محورية أخرى في السورة هي الآية الثانية: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

---

(١) زلفة: قريباً.
(٢) تدّعون: تطلبون وتستعجلون، من الدعاء، وقالوا: تَدْعون وتَدَّعون بمعنى واحد.
(٣) غوراً: غائر في أعماق الأرض لا يتمكّن الإنسان من إخراجه.
(٤) معين: ظاهر للعيون، أو بمعنى جارٍ سهل التناول.

بينات من الآيات:

[١٥] لم يكن الناس يعرفون في عصر نزول القرآن أبعاد نعمة الحياة على الأرض كما يعرفون اليوم، وأن الأرض تختلف من جهات كثيرة عن سائر الكواكب الأخرى من حيث القوانين الطبيعية التي تحكمها، فجاء القرآن ليفتح أفقهم على معرفة هامة وهي: أن الكوكب الذي يعيشون على وجهه كسائر الكواكب الأخرى يشبه كرة تدور في هذا الفضاء الرحب ولكنه يختلف عنها في كونه مهيّأ من جميع الجوانب لحياتهم عليه. وكان حريًّا بالإنسان وهو ينشد غزو الفضاء وركوب الكواكب الأخرى أن ينطلق من هذه الآية الكريمة.

أما هدف القرآن من بيان هذه الميزة للأرض التي نعيش فوقها فليس أن يضيف إلى العلم معرفة وحسب، بل هنالك هدف أبعد من ذلك.. ومن دونه لا تكون معارف البشر ذات قيمة حقيقية، ألا وهو تعريفه بربه، فإنه لو تفكر مليًّا لعرف أن توفير الأرض لحياة البشر آية من آياته عز وجل. بلى؛ ربما يفكر البعض في ذلك ولكنك تجدهم يضلون بإجابات لا رصيد لها من الصحة فإذا بهم يشركون بالله، فأما القدماء فكانوا يتصورون أن الأصنام أو الشياطين هي التي صنعت ذلك، وأما المعاصرون فقالوا: إنها الصدفة!! ولكن القرآن يذكر الإنسان بالحقيقة التي أُركزت في فطرته، ويجد أصداءها حينما يستنير عقله، فينقذه من ضلالات الجهل والشرك، إذ يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي مذللة ميسرة لكم كالحصان المروَّض أو البقرة المستألفة، حيث جُعل نظامها وما فيها لصالح الإنسان طعما وشرابا وهواء وزينه وما أشبه مما يحتاجه وينفعه كالليل والنهار والشمس والقمر.. الخ.

وتذليل الله للأرض انعكاس لاسم ﴿تَبَـٰرَكَ﴾ حيث أن ذلك من بركته ورحمته.

﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟﴾ ليس مجرد أمر تشريعي يوجب السعي، بل هو أمر تكويني، إذ لو لم يقدّر الله المشي لما كان أحد يستطيع المشي حتى في مناكب الأرض. والمنكب مفرد مناكب وهو مجتمع رأس الكتف والعضد، وناحية كل شيء وجانبه، يقال: سرنا في منكب من الأرض أو الجبل أي في ناحيته، والمنكب من الأرض الطريق[١] وكان القرآن حينما أمر بالمشي في مناكب الأرض شبهها بالإنسان، رأسها الجبال ومناكبها السفوح والسهول وما دون القمم العالية الوعرة التي يصعب المشي فيها. وحينما نمشي فإننا لا نحصل فقط على الرزق بل ونزداد معرفة أيضا. وهناك علاقة بين فعلي الأمر ﴿فَٱمْشُوا۟﴾ و ﴿وَكُلُوا۟﴾ ذلك أن رزقنا لا يمكن أن يمشي إلينا بل لا بد أن نسعى إليه بأنفسنا،

---

(١) المنجد: مادة نكب.

وهذه هي القاعدة السليمة التي يجب علينا أن نتبعها في الحياة لنمارس مسؤوليتنا فيها ونصل إلى اللقمة الحلال والمرضية عند الله، إذن فليس في الدين دعوة للخمول والكسل والتطفل على الآخرين، كما يصوره البعض، إنما هو صورة لسنن الحياة الواقعية التي لا يمكن لأحد الوصول إلى أهدافه وأغراضه إلا من خلالها ومن أهمها سنة السعي والكدح.

ثم تنسف الآية الكريمة في خاتمتها كل القيم المادية التي تفسر الحياة تفسيرا شيئيًّا، وتحصر مسؤولية الإنسان في الوجود في مساحة ضيقة وتافهة، فإذا بها تنزل به إلى وادٍ سحيق وطموحات ضالة، وكأنه يشبه الأنعام خُلِقَ ليأكل، ليعيش بلا هدف! كلا.. إن الإنسان له أن يتعلم من الحياة والطبيعة من حوله درسا أساسيًا، فلينظر إلى ما حوله هل يجد شيئا خُلِق بلا هدف؟ فما هو هدفه؟ دعه يبحث عن هدفه فإنه سيجد هدفه أعظم من مجرد الأكل والشرب والتلذذ، كلا.. إن له تطلعا أسمى وطموحات أكبر.. مثلا يتطلع كل إنسان لملك الأرض والخلود في الحياة. هل يتحقق له ذلك في هذه الحياة؟ كلا.. وهكذا يهتدي الإنسان إلى الإيمان بالآخرة، وبعبارة موجزة: سيواجه الحقيقة التي تطرحها الآية في خاتمتها: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ وتنطوي هاتان الكلمتان على مجمل حقائق الإيمان حيث الإيمان بالآخرة، والتسليم لله عز وجل نفسيًّا بالإيمان وعمليًّا باتباع رسله ومناهجه. وعندما نتأمل في ترابط أجزاء الآية الكريمة ببعضها نكتشف حقيقة هامة وهي أن على الإنسان أن يضع هدفه ويفكر في مستقبله الأبدي وهو يمارس الحياة بكل صورها، أكلا وشربا وسعيا في طلب الرزق. ومن ضرورة الأكل والشرب الحياتية يجب عليه أن يتحسس حاجاته وهو يمضي إلى مصيره، ومن ارتكاز الحصول على الرزق بالسعي (أو بتعبير الآية المشي) يجب أن يعرف بأن وصوله إلى غاياته في الآخرة هو الآخر يرتكز على السعي، وأن خير الزاد في ذلك السفر الطويل لهو التقوى.

الأكل والرزق في الآية أعم من ظاهرها، فالأكل صورة من صور الاستهلاك، والرزق هو عموم ما يحتاج الإنسان إليه، والآية بمجملها توحي بأن الأرض خلقت مذللة في بعض الجوانب ولكن الله يريد للإنسان أن يذللها كلها بسعيه، وبالرغم من أنه لا يقدر على تذليل كل شيء فيها لتصبح الأرض جنة الفردوس لأنه يتنافى مع حكمة خلق الإنسان فيها ألا وهي الابتلاء، فإنه قادر على تطوير حياته إلى الأفضل أبدا.

[١٦-١٧] وكما ينبغي للإنسان أن ينتفع من تذليل الأرض له ويتحسس اسم ﴿تَبَٰرَكَ﴾ من هذه الرحمة الإلهية عليه، كذلك يجب عليه أن يستشعر قدرة الله على كل شيء، وأنه لو شاء لسلب تلك البركة منه فإذا بتلك الأرض المذللة تصبح كالفرس الجامح تمور مورا، أو يُحدِث تغييرا في النظام الكوني فإذا بالسماء التي تحميها تستحيل منطلقا لعذاب مصبوب لا طاقة

للأرض وسكانها به. وتذكُّر هذه الحقيقة مهم لأمرين:

الأول: أنها إلى جانب تنعُّم الإنسان ببركات الله ورحماته التي في الطبيعة تعطيه توازنا نفسيًا وعقليًا وعمليًا يسوقه نحو المسيرة الصحيحة في الحياة، فلا تبطر به النعم وتضلله عن أهدافه. فإنه متى وصل الإنسان إلى اليقين بقدرة الله عليه سلَّم له أمره واتصل به وخضع له، وهذه من أعظم أبعاد الخشية منه تعالى.

الثاني: أنها تجتث من نفس الإنسان جذور الشرك، لكيلا يأمن مكر الله ثم يعصيه اعتمادا على الشركاء المزعومين (كالشياطين والأصنام والملائكة بأنهم قادرون على مقاومة قدرة الله ومنع مشيئته) أو استرسالا مع رحمته تعالى.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي تموج وتضطرب كما يمور البحر، وذلك بإحداث انهيارات أرضية وزلازل، أو بتغيير النظام الأرضي مرة واحدة مما يفقدها توازنها بصورة رهيبة، وفي الآية إشارة إلى ذلك بكلمة الخسف التي تعني التغيير والتبديل باتجاه سلبي. ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾ وفي التساؤل بـ ﴿أَمۡ﴾ تلويح بالنهي عن أن يأمن أحد مكر الله لما فيه ذلك من دواعي المعصية والاسترسال، والحاصب حجارة العذاب المتقدة نارا، وقوله تعالى: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ في الآيتين محمول على أحد وجوه ثلاثة: فإما هو كناية عن تعاليه سبحانه، وإما لأن في السماء عرشه الذي تصدر منه أوامره عز وجل، وإما يكون إشارة إلى الملائكة التي تنفذ أمر الله ومشيئته في الحياة.

ونتساءل: ما هي العلاقة بين تحذير الله للناس من الكفر به وتهديده بتحطيم النظام الكوني لو كفروا؟.

والجواب: لأنه تعالى (كما بيَّن في الآية الثانية) إنما خلق الوجود الحي والميت لأجل الإنسان، فإذا أفسد البشر حكمة وجوده (أي العبادة) بطلت حكمة الوجود الذي حوله أيضا.

وما تحمله آيات الله من الإنذار لا تستوعبه إلا قلوب المؤمنين فإذا هم يخشون ربهم بالغيب، أما الكافرون والمشركون فهم في غفلة عنه لأنهم محجوبون بالجهل والشرك عنه، وذلك لأنهم ماديون لا يرون إلا الأمور الظاهرة، ذلك لأن العقل هو الذي يهدي الإنسان إلى الباطن من خلال الظاهر، وإلى الغيب عبر الشهود، وهو معطل لديهم، كما أنهم لا يسمعون الموعظة من العقلاء، هكذا تراهم يعترفون في الآخرة، وإليهم يوجه القرآن هذا التحذير المبطن: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ حينما تخسف بهم الأرض ويحل عليهم العذاب في الدنيا، أو في الآخرة حيث العذاب المقيم والأليم، هنالك يعرفون حقيقة النذير.

[١٨] ولكن القرآن لا يكتفي بالمستقبل الغائب دليلا على حقائقه بل ويستدل عليها بالشواهد الظاهرة، لكيلا يبقى لبشر ما يبرر له الكفر والزيغ، ولتكون لله الحجة البالغة، فما هو الدليل على عذاب الله وقدرته على صنع ما يشاء؟.

لندرس التاريخ البشري فهو خير معلم للإنسان، حيث يهديه إلى سنن الله وآيات معرفته، ونحن حينما نتتبع حوادثه فسنجد الكثير من الأمم والمجتمعات التي ذهبت ضحية كفرها وفسوقها عن أمر الله، فذاقت ألوانا من العذاب لا يستوعبها فكر بشر لهولها وفظاعتها. ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فأين قرى لوط المؤتفكة؟ وأين فرعون وقومه؟ إنك لن تجد غير إجابة واحدة: إنهم دحروا وبادت حضاراتهم لأنهم لم يخشوا ربهم ولم يتبعوا رسالاته ورسله. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فكيف كان العذاب المنكر الذي لم يكونوا يحتسبوه والذي نزل بساحتهم من عند الله سبحانه؟! و يحتمل هذا المقطع معنى آخر غير المنكر الفظيع إذا تصورنا القرآن يتساءل: كيف إذن تنكرون، والشواهد ظاهرة، والآيات قائمة؟.

[١٩] ويلفت القرآن الأنظار والأفكار إلى مشهد الطيور وهي تطير في الفضاء، ليثير عقولنا نحو دراسة هذه الظاهرة التي تحكي تذليل الله السماء للطيور برحمته، وتكشف عن مئات القوانين العلمية التي تفيد الإنسان في حياته وحضارته. فلماذا لا يتساءل ما هي القوانين الفيزيائية التي يمكن في ضوئها الطيران؟ ولماذا لا يبحث عن الأسباب والعوامل التي تجعل الطائر يسبح في الفضاء دون أن يقع على الأرض؟ وأهم من ذلك كله لماذا لا يحاول أن يتصل قلبه بروح هذا العالم ليراه آية واضحة من آيات ربه العظيم؟.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ﴾ والصف هو بسط الجناحين والقبض هو جمعهما إلى الجسم، ولعل في الآية إشارة بهاتين الكلمتين إلى نوعين من الطيور: أحدهما صفه أكثر من قبضه، والآخر العكس، وإلى أيهما نظر الإنسان تجلت آيات رحمة الله، ولكنها أظهر عند رؤية ما يصفُّ منها، وربما لذلك تقدم ذكره على الذي يقبض.. وإنما يكون طيران الطيور مظهرا لرحمة الله لأنه تعالى لو لم يذلل لها الفضاء بالنظام الذي يسمح لها بالطيران لما كانت تجد سبيلا إلى ذلك فهو الذي يمسكها، ولأنها بالطيران تستطيع الهرب من الأخطار. ولعل كلمة ﴿فَوْقَهُمْ﴾ في الآية تثير الإنسان نحو التحدي فيسعى ليكون قادرا على الطيران، وما كان الإنسان ليكتشف أسرار الطيران لو لم يكن يدرس هذه الظاهرة الكونية ويطلع على قوانينها فإذا به يصنع مختلف وسائل الطيران.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ فهو يعطي كل خلق من خلقه القدرات والصفات ما يتناسب معه ومع دوره في الحياة، حتى يكون كل شيء في نفسه وحسب هدفه كاملا قد منحه ربه كل ما يحتاج،

وذلك يؤكد الحقيقة التي تعلنها الآية: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ يتبصر حقيقته ودوره والهدف من خلقه وتناسب هذا الخلق مع سائر خلقه سبحانه. ونحن يجب أن نهتدي إليها حينما نشاهد طائرا يطير وقد جعل كل شيء مناسبا لحركته في الفضاء: حجمه، أجنحته، تركيبة بدنه، طعامه وشرابه، وتوالده وتكاثره، هذا ما نعرفه وسائر البشر، أما العلماء والمتخصصون الذين يدرسون حياة مخلوقات الله جامدة أو متحركة فهم كلما ازدادوا معرفة بها ازدادوا إيمانا بدقة صنعه عز وجل.

تعالوا نستمع إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يحدث رجلا من شيعته (المفضل بن عمر) عن الدقة في خلقة الطير والحكمة في صنعه: «تَأَمَّلْ يَا مُفَضَّلُ جِسْمَ الطَّائِرِ وَخِلْقَتَهُ فَإِنَّهُ حِينَ قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ طَائِراً فِي الْجَوِّ خُفِّفَ جِسْمُهُ وَأُدْمِجَ خَلْقُهُ فَاقْتَصَرَ بِهِ مِنَ الْقَوَائِمِ الْأَرْبَعِ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَمِنَ الْأَصَابِعِ الْخَمْسِ عَلَى أَرْبَعٍ وَمِنْ مَنْفَذَيْنِ لِلزِّبْلِ وَالْبَوْلِ عَلَى وَاحِدٍ يَجْمَعُهُمَا ثُمَّ خُلِقَ ذَا جُؤْجُؤٍ مُحَدَّدٍ لِيَسْهُلَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرِقَ الْهَوَاءَ كَيْفَ مَا أَخَذَ فِيهِ. كَمَا جُعِلَ السَّفِينَةُ بِهَذِهِ الْهَيْئَةِ لِتَشُقَّ الْمَاءَ وَتَنْفُذَ فِيهِ وَجُعِلَ فِي جَنَاحَيْهِ وَذَنَبِهِ رِيشَاتٌ طِوَالٌ مِتَانٌ لِيَنْهَضَ بِهَا لِلطَّيَرَانِ وَكُسِيَ كُلُّهُ الرِّيشَ لِيُدَاخِلَهُ الْهَوَاءُ فَيُقِلَّهُ.

وَلَمَّا قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ طُعْمُهُ الْحَبَّ وَاللَّحْمَ يَبْلَعُهُ بَلْعاً بِلَا مَضْغٍ نُقِصَ مِنْ خَلْقِهِ الْأَسْنَانُ وَخُلِقَ لَهُ مِنْقَارٌ صُلْبٌ جَاسٍ يَتَنَاوَلُ بِهِ طُعْمَهُ فَلَا يَنسجِحُ مِنْ لَقْطِ الْحَبِّ وَلَا يَتَقَصَّفُ مِنْ نَهْشِ اللَّحْمِ وَلَمَّا عَدِمَ الْأَسْنَانَ وَصَارَ يَزْدَرِدُ الْحَبَّ (أي يبتلعه) صَحِيحاً وَاللَّحْمَ غَرِيضاً أُعِينَ بِفَضْلِ حَرَارَةٍ فِي الْجَوْفِ تَطْحَنُ لَهُ الطُّعْمَ طَحْناً يَسْتَغْنِي بِهِ عَنِ الْمَضْغِ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِأَنَّ عَجَمَ الْعِنَبِ وَغَيْرِهِ يَخْرُجُ مِنْ أَجْوَافِ الْإِنْسِ صَحِيحاً وَيُطْحَنُ فِي أَجْوَافِ الطَّيْرِ لَا يُرَى لَهُ أَثَرٌ ثُمَّ جُعِلَ مِمَّا يَبِيضُ بَيْضاً وَلَا يَلِدُ وِلَادَةً لِكَيْلَا يَثْقُلَ عَنِ الطَّيَرَانِ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَتِ الْفِرَاخُ فِي جَوْفِهِ تَمْكُثُ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ لَأَثْقَلَتْهُ وَعَاقَتْهُ عَنِ النُّهُوضِ وَالطَّيَرَانِ فَجُعِلَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ مُشَاكِلًا لِلْأَمْرِ الَّذِي قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ... تَأَمَّلْ رِيشَ الطَّيْرِ كَيْفَ هُوَ فَإِنَّكَ تَرَاهُ مَنْسُوجاً كَنَسْجِ الثَّوْبِ مِنْ سُلُوكٍ دِقَاقٍ قَدْ أُلِّفَ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ كَتَأْلِيفِ الْخَيْطِ إِلَى الْخَيْطِ وَالشَّعْرَةِ إِلَى الشَّعْرَةِ ثُمَّ تَرَى ذَلِكَ النَّسْجَ إِذَا مَدَدْتَهُ يَنْفَتِحُ قَلِيلًا وَلَا يَنْشَقُّ لِتُدَاخِلَهُ الرِّيحُ فَيُقِلَّ الطَّائِرُ إِذَا طَارَ وَتَرَى فِي وَسَطِ الرِّيشَةِ عَمُوداً غَلِيظاً مَتِيناً قَدْ نُسِجَ عَلَيْهِ الَّذِي هُوَ مِثْلُ الشَّعْرِ لِيُمْسِكَهُ بِصَلَابَتِهِ وَهُوَ الْقَصَبَةُ الَّتِي هُوَ فِي وَسَطِ الرِّيشَةِ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَجْوَفُ لِيَخِفَّ عَلَى الطَّائِرِ وَلَا يَعُوقَهُ عَنِ الطَّيَرَانِ»[1].

[٢٠] ولا شك أن ذلك الجهل بواقع الحياة هو جهل بآيات الله سبحانه، مما يدعو الإنسان إلى التكذيب بالحق والكفر بربه، وبالتالي أن يشرك به الأنداد المزعومين، ظنا منه بأنه قادر بواسطتهم على الفرار من سلطان الله القاهر وعلى التهرب من مسؤولية الحق، الأمر الذي

(١) بحار الأنوار ج٣، ص١٠٣.

يجعله يعيش في الحياة من دون قيد أو ضابط، ولكن القرآن ينسف هذه الأفكار والمزاعم من جذورها مبينا أنها ليست سوى نشوة من الغرور الجامح ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ و ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تتسع إلى معنيين هما:

١ - الضد.. وعليه تنصرف الآية إلى الشركاء الموهومين والقوى التي يغتر بها الكافرون كالمال والسلطة فإنها كلها لا تنصرهم ضد الله، ولو نصرتهم جدلا فهي لا تنفعهم شيئا.

٢ - أو تكون الآية منصرفة إلى الشفعاء فإنهم كذلك لا يمكن أن يشفعوا لأحد من دون إذن الله ورحمته، فلماذا يجعل الإنسان بينه وبين ربه حجبا ووسائط، وهو قادر على الاتصال بمصدر الرحمة والنصر؟!.

إن الشفعاء الحقيقيين كالأنبياء والأولياء ليسوا بدائل عن طاعة الله، وعن الدعاء إليه مباشرة، بل هم وسائل وسبل إلى الرحمن سبحانه.

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ والغرور هو الوهم. أترى كم هو مغرور ذلك الغبي الذي يزعم أنه قادر على مقاومة الانفجار النووي بيمينه؟! بلى؛ قد يزخرف القول ويخادع نفسه ولكنه عند مواجهة الحقيقة يكتشف أنه إنما كان في غرور محيط، وإننا نرى اليوم مدى الغرور الذي فيه قوى الاستكبار العالمي، لما تملك من ترسانات الأسلحة، والقدرة الاقتصادية، ولكن أين هذا كله من قدرة الله المطلقة حتى يبارزونه عز وجل ويدعون أنهم سوف ينتصرون على الحق؟! و عادة لا يكتشف الغرور إلا بعد فوات الأوان عندما يصطدم الإنسان بالحقيقة المرة حيث لا ينفعه شيئا. و نتساءل: ألم يكن من الأنسب أن يذكر هنا أسماء العزة والقوة بدل اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ حيث إن السياق سياق التحدي، ولكننا عند التدبر نهتدي إلى إشارة لطيفة في ذكر اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فكأن القرآن يقول للإنسان: إن مصالحك الحقيقية تجدها عند صاحب الرحمة، فلماذا تتخذ الشركاء من دونه؟! عندما تضيق مذاهب الحياة أين نلجأ. أوليس إلى رحاب رحمة الله؟ وحينما تتوالى المصائب والنكبات إلى من نجأر. أوليس إلى حصن الرحمن؟.

[٢١] وإنه لثابت فطريًا وعمليًا لذوي العقول أنهم إنما ينتصرون على المشاكل والتحديات بفضل الله، ولا يلمسون أثرا لقوى أخرى تنصرهم ويستعينون بها عند الشدائد سواه سبحانه، وعندما تحبس السماء غيثها هل يقدر الشركاء المزعومون أن ينزلوه؟ كلا.. ألا ترى كيف يجأر الإنسان عندما يحبس رزقه إلى ربه، تبعثه إلى ذلك الفطرة، ويحثه العقل؟! ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ ويبدو أن الرزق هو أرضية الاكتساب، فلولا أن الأرض خصبة والمياه متوفرة هل يمكن للزارع أن يكتسب منها شيئا؟ ! ولولا أن البلد يكون فيه معادن ومنابع هل

يمكن للصناعي أن يطور صناعته أو يستخرج نفطا أو ذهبا أو حجرا كريما؟! وهكذا يتقلب البشر في رزق الله يكتسب منه معاشه فإن انعدم الرزق لم يبقَ معاش، ولكن بالرغم من وضوح هذه الحقيقة ترى الكفار يصرون على الكفر والغرور.

﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ لج لجاجة: عَنَدَ في الخصومة، وتمادى في العناد إلى الفعل المزجور عنه، ولج في الأمر: لازمه وأبى أن ينصرف عنه. و العتو: الاستكبار الذي يجاوز الحد، والقلب يقسو فلا يلين، والظالم يطغى ويتجبر. و النفور: يعني التباعد، ونفر الظبي: شرد وابتعد، والإنسان: أعرض عن الشيء وصد، وفي كلمة ﴿وَنُفُورٍ﴾ تشبيه للكفار بالحمير والدواب(١)، إذ تمادوا في معاندة الحق مع وضوحه، وأصروا على لزوم الباطل مع زهوقه، وتجاوزوا الحد في الاستكبار، وركبوا التباعد عن الحق شرودا وإعراضا وصدودا.

[٢٢-٢٣] وكيف لنا أن نتصور مسيرة من كان في غرور ولجاجة من العتو والنفور عن الهدى والحق، إلا كمن يمشي مرسلا نظره إلى الأرض لا يرى أمامه، أو كمن على بصره غشاوة يتخبط ولا يهتدي سبيلا أفهل يستوي هو ومن يبصر أمامه وينتفع بجميع حواسه وهو على صراط مستقيم؟! ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وللمكب معنيان -حسب ما قالوا-: أحدهما الذي ينظر إلى الأرض وهو يمشي، والثاني من لف على وجهه شيئا يقال تكبكب في ثيابه إذا تلفف بها، والمكب على وجهه الذي لف عليه شيئا، والسوي الذي يمشي بكامل حواسه وإمكاناته ووعيه فهو السوي، قال تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]، أي كاملة، وقال: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥]، أي الصراط السليم، وأن الكافرين لا يمشون في الحياة بكامل حواسهم ووعيهم، وليس أدل على ذلك من أنهم معطلة أسماعهم عن تلقي المواعظ، وعقولهم عن وعي الحق واستيعابه كما وصفوا أنفسهم وكما وصفهم ربهم في قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ويؤكد هذه الحقيقة قوله تعالى في الآية اللاحقة مفسرا معنى المكب.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ قيل: إنكم لا تشكرون إلا قليلا، وقيل: إن المعنى لا يشكر منكم إلا قليل، وكلا المعنيين صحيح. وإن لشكر النعم جانبين:

الأول: ألّا يستخدم الإنسان نعم الله عليه في معصيته، فلا يسمع بإذنه ما حرَّمه عليه كالغيبة والكذب والغناء، ولا ينظر بعينه ما هو محظور كأعراض الناس وعوراتهم، ولا يجعل

(١) قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥٠-٥١].

فؤاده عشا للشيطان فيملأه بالظنون والنوايا السيئة والأفكار الضالة.. وهكذا. قال الإمام الصادق عليه السلام: «**شُكْرُ النِّعْمَةِ اجْتِنَابُ الْمَحَارِمِ**»[1]، وقال الإمام علي عليه السلام: «**شُكْرُ كُلِّ نِعْمَةٍ الْوَرَعُ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ**»[2].

الثاني: أن يسخِّر ما أنعم الله به عليه في طاعته وإعلاء كلمته، بأن يجعل وجوده وكيانه في طاعته وخدمة الحق وأهله، ومحاربة الباطل وأعداء الله، فيستمع بأذنه علوم الحق ومواعظ الصدق، ويوظِّف بصره في النظر إلى آيات ربه وكتابه، ويُصيِّر فؤاده وسيلة لمعرفة الحق والتفكر فيما ينفع به رسالته ونفسه والناس، وهكذا سائر النعم والهبات الإلهية.

وإذا فعل الإنسان ذلك يكون شاكرا، ولا يتم الشكر إلا بمعرفة المنعم والتوجه إليه به، فإن الإنسان عرضة للشرك في الشكر أيضا، لذلك جاءت بداية الآية توجهنا إلى المنعم وأنه أهل الشكر، وعلى هذه الحقيقة أكدت النصوص المستفيضة عن أئمة الهدى، قال الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: «**والحَمْدُ للهِ الَّذِي لَوْ حَبَسَ عَنْ عِبَادِهِ مَعْرِفَةَ حَمْدِهِ عَلَى مَا أَبْلَاهُمْ مِنْ مِنَنِهِ الْمُتَتَابِعَةِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمِهِ الْمُتَظَاهِرَةِ، لَتَصَرَّفُوا فِي مِنَنِهِ فَلَمْ يَحْمَدُوهُ، وَتَوَسَّعُوا فِي رِزْقِهِ فَلَمْ يَشْكُرُوهُ. وَلَوْ كَانُوا كَذَلِكَ لَخَرَجُوا مِنْ حُدُودِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى حَدِّ الْبَهِيمِيَّةِ فَكَانُوا كَمَا وَصَفَ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾**»[3]. وقال الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «**لَا يَعْرِفُ النِّعْمَةَ إِلَّا الشَّاكِرُ وَلَا يَشْكُرُ النِّعْمَةَ إِلَّا الْعَارِفُ**»[4]. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: «**يَا مُوسَى اشْكُرْنِي حَقَّ شُكْرِي، فَقَالَ: يَا رَبِّ وكَيْفَ أَشْكُرُكَ حَقَّ شُكْرِكَ ولَيْسَ مِنْ شُكْرٍ أَشْكُرُكَ بِهِ إِلَّا وأَنْتَ أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيَّ؟! قَالَ: يَا مُوسَى الْآنَ شَكَرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ مِنِّي**»[5].

[٢٤-٢٧] وعند التفكير في الآية (٢٣) والآية (٢٤) نجدهما تجيبان عن أهم الأسئلة المصيرية التي تخطر على بال كل إنسان: من الذي أوجدني ووهبني ما أنا فيه من النعم؟ ومن الذي ذرأنا في الأرض؟ ثم ماذا بعد الدنيا، وإلى أين تسير بنا الأقدار؟ هذه الأسئلة وأمثالها تؤكد أن معرفة الخالق مسألة فطرية ملحة عند كل إنسان، وهي إن لم يجب عن الإجابة السليمة فسوف يظل الإنسان حائرا لأنها أسئلة مصيرية ترسم إجابة كل واحد عليها شخصيته (فكره وسلوكه وعلاقاته) كما تحدِّد مستقبله.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٤٠.

(٢) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٤٢.

(٣) الصحيفة السجادية: الدعاء الأول.

(٤) بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ٣٧٨.

(٥) الكافي: ج٢، ص٩٨.

وحيث إن القرآن متنزَّل من رب الإنسان الذي خلقه ويعلم ما توسوس به نفسه وذات صدره، فإن آياته جاءت واقعية وشفاء لما في صدره، وعلاجا لكل قضاياه ومسائله، وإن هذه الآيات بحق تعبر عما في ضمير كل بشر وحاشا لله وهو الرحمن اللطيف بعباده أن يدعهم في حيرة من هذه الأسئلة الخطيرة فيضلون كفرا وشركا، وهكذا قال ربنا سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وليست الصدفة أو الطبيعة أو القوى المزعومة من دونه سبحانه، والذرء هنا بمعنى الخلق والنشر، فإنه تعالى خلقنا في الأرض ونشرنا في أقطارها، قال الله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، أي مما خلق وبث، وقال: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ [النحل: ١٣]، أي خَلَقَ ووَزَّع، وذرأ الحبوب في الأرض فرَّقها وبذرها. والحشر هو الجمع، والسؤال: هل خلق الإنسان في الأرض ليعود إليها بعد الموت دون هدف ومسؤولية؟ كلا.. إنما هي مرحلة في دورته الحياتية التي لا تنتهي، فقبل أن يُذرَأ في الأرض ذُرِئ في عالم الذر، وبعد هذه الدنيا يبدأ رحلة إلى عالم البرزخ ثم عالم الحشر والجزاء حيث يلاقي مصيره الأبدي، ومادامت بداية الإنسان من الله ونهايته إليه ومصيره بيده فما أحوجه أن يوظف وجوده في هذه الأرض ونعم الله عليه من أجل حشر سعيد في الآخرة.

وما أعظم ذكر الآخرة والحشر في قلوب الصالحين، وحسب ما يقول الإمام علي عليه السلام: «**وَلَوْلَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ الله عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ**»[1]، ولكنك ترى الضالين الذين حجبهم الكفر والشرك عن رؤية هذه الحقيقة يستهزئون بها فيُذهبون فرصتهم الوحيدة في بحوث عقيمة تافهة، فيتساءلون -مثلا- عن موعد الساعة ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وأسئلة أخرى تافهة كقولهم: كيف يحيي الله الموتى؟ وإنك حين تدرس خلفياتها وأهدافها في نفوسهم تجد أنهم لا يريدون بها معرفة الحقيقة، إنما مجرد الجدل والعناد. أوليسوا يبحثون عن تبرير للتملص من مسؤولية الالتزام بالحق، واتباع القيادة الرسالية في الحياة، والهرب من وخز الضمير ونداء الفطرة؟ إذن لا بد أن يكفروا بالآخرة لأن الإيمان بها قمة الشعور بالمسؤولية، ولكن هل يغير إنكارهم للحقيقة الواقعية شيئا، فلا تقع الساعة ويصبح الداعية إليها كاذبا لو كفروا بها؟ كلا.. فلينكر أحد حقيقة الموت، وليُكذِّب من يذكِّره بها، فهل يبقى خالدا إلى الأبد ويصير المذكِّر كاذبا؟ وسؤال آخر: هل إن عدم علم الإنسان بلحظة موته -مثلا- ينفي حقيقة الموت؟ فلماذا يعتبر الجاحدون عدم إخبار الرسول صلى الله عليه وآله لهم بموعد الساعة دليلا على انتفائها وكذب المؤمنين بها؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ وهنا نتساءل: لماذا تأتي هذه الإجابة كلما تحدى الكفار الرسول بالسؤال عن موعد الساعة، أَوَليس

(١) هكذا وصفهم إمام المتقين علي بن أبي طالب في الخطبة ١٩٣ من نهج البلاغة.

الأفضل أن يطلعه الله عليها فيجيبهم وينتصر عليهم في الجدال؟.

والجواب: هنا أسباب تكشف عن جانب من الحكمة الإلهية، تبرر عدم الإجابة عن سؤالهم تبريرا موضوعيًا واقعيًا، هي:

أولاً: لأن عظمة الساعة (ساعة الموت والقيامة) وأثرها في الإنسان يكمن في أنها مستورة، مما يدعوه لاجتناب الباطل واتباع الحق في كل لحظة من حياته خشية أن تحل به الساعة فيها فيلقى ربه على معصية. وإلا لكان الناس يسترسلون في الباطل ويزعمون أنهم سوف يتوبون قبل موتهم بساعة! وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى ذلك في حديث مطوّل بقوله: «.. **وَإِنْ كَانَ طَوِيلَ الْعُمُرِ ثُمَّ عَرَفَ ذَلِكَ وَثِقَ بِالْبَقَاءِ وَانْهَمَكَ فِي اللَّذَّاتِ وَالْمَعَاصِي وَعَمِلَ عَلَى أَنَّهُ يَبْلُغُ مِنْ ذَلِكَ شَهْوَتَهُ ثُمَّ يَتُوبُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ، وَهَذَا مَذْهَبٌ لَا يَرْضَاهُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَا يَقْبَلُه**»[1].

ثانياً: أن الكافر الذي أركس في الغرور والعتو والنفور عن الحق لا يغير فيه إخبار أحد له بموعد الساعة، بل لا يصدق أحدا لو أخبره ولو كان مصيبا، لأن مشكلته أنه لا يؤمن بالأساس وهو الساعة. فهب أن الرسول صلى الله عليه وآله قال له: إنك تموت بعد خمسين يوما، أو إن الساعة تقع بعد ألف عام، فهل يصبح من المتقين؟ كلا.. إذ إن سؤاله ليس بهدف معرفة الحق والتسليم له عند ظهوره، إنما لمجرد الجدال والمعاندة.

ثالثاً: أن الرسول وكل داعية إلى الحق ليس مسؤولا أن يجاري الناس وبالذات الملحدين منهم في كل شيء، ويجيب عن كل سؤال، فإن الأسئلة لا تنتهي، ولو أنه ينصب نفسه للرد والمجادلة فسوف يضيع الكثير من وقته وجهوده في أمور لا طائل منها ولا فائدة دون أن يصل إلى ما يريد، وبالخصوص أن من بين الناس من هو بارع في صناعة السؤال الذي لا يهدف من ورائه إلا الجدل الفارغ، إنما مسؤولية المؤمن الرسالي إبلاغ رسالة الله إلى الناس بأمانة ووضوح.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وتهدينا خاتمة الآية إلى حقيقتين في منهجية الدعوة السليمة إلى الله:

الأولى: أن على الفرد الرسالي التحرك وفق ما ترسمه له رسالته وتوحي به أهدافه في الحياة، دون أن يلتفت كثيرا إلى ما يثيره الآخرون -أعداءً ومنافسين وجاهلين- من إشكالات وأسئلة وملاحظات تافهة، لأنه لو التفت إلى ذلك فلن يصل إلى أهدافه.

الثانية: أن التواضع للحق مسألة مهمة في الدعوة، فإذا سئل عما لا يعلم يجب أن يقول: لا أعلم.. وإلا أصيبت مقاتله كما يقول الإمام علي عليه السلام، فليس العيب أن يعترف الإنسان

---

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص٨٤.

بالجهل إنما العيب الكبير أن يقول ما لا يعلم. فهذا سيد البشر ﷺ على عظمته يجيب وقد سئل عن الساعة التي لا يعلم ميعادها: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ و (إنما) للحصر، فليس من أحد يعلم بميقات وعد الله غيره، ولا يكتفي القرآن بهذه الإجابة بل يضع الكافرين أمام آثاره المريعة عندما يحين أجله فتُساء وجوههم، ويعلمون إلى حد اليقين حقّا بالآخرة وصدق الرسول، ويشهدون وقوعه الرهيب، يوم لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي وقد اقترب منه الموت، أو عندما تظهر للناس علامات الساعة وآياتها كزلزلة الأرض، هنالك يكتشفون فظاعة خطئهم، فيتحسرون ويندمون على ما فرطوا في جنب الله في أنفسهم، ولكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد إنما تعلوهم آثار الهوان والعذاب حتى تظهر على وجوههم التي طالما صدوا بها عن الحق ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي أساءها شيء أو أحد كالملائكة الذين هم خزنة جهنم، ولا ريب في أن تلك الآثار التي تظهر على وجوههم يومئذ وتسوؤهم هي بأعمالهم السيئة وعقائدهم الخاطئة. قال أهل اللغة: ساء الأمر فلانا أي أحزنه، أو فعل به ما يكرهه[1]، وكذلك يُصنع بالكافرين.

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ ولكلمة ﴿تَدَّعُونَ﴾ في هذه الآية معنيان:

الأول: الادعاء بمعنى الزعم والتكذيب، أي تتحدثون بشأنه مما لم يكن في قلوبكم، قال ابن عباس: أي تدعون الأباطيل به، ولا ريب في أن الكافرين حينما كانوا يستعجلون وعد الله ما كان هدفهم البحث عن الحقيقة بل كان مجرد الإنكار والجدال، ولعل في الآية إشارة إلى حقيقة واقعية وهي أن كثيرا من عقائد الكفار ومواقفهم الضالة وهكذا أعمالهم السيئة كانت متأسسة على جحود الآخرة (وعد الله)، فكأن إنكارها وسيلة مزاعمهم وادعاءاتهم.

الثاني: الادعاء بمعنى المبالغة في الدعاء، حيث يقال لهم من قبل الله: إن هذه الساعة هي الوعد الذي كنتم تكفرون به، وتطالبون مستعجلين وقوعه. مما يكشف عن مدى جحودهم واستبعادهم للساعة.

وهذا القيل وأمثاله عذاب نفسي إلى جانب العذاب المادي، وقد يكون أشد أثرا منه، لما ينطوي عليه من الاستهزاء والتبكيت وإثارة الحسرة في نفوسهم.

[٢٨] وبعد حديث الآخرة يأمر الله رسوله أن يبين للكافرين خاصة وللناس عامة مجموعة من البصائر ذات الأثر المهم في إيمان الإنسان وواقعه في الحياة ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ وللهلاك في القرآن معنيان:

(١) المنجد: مادة ساء.

الأول: الموت والفناء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾[غافر: ٣٤] أي حتى إذا مات.

الثاني: الموت بالعذاب والدمار، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾[القصص: ٥٩] وتهدينا هذه الآية إلى الحقائق التالية:

١- أن الكفار عادة ما يتهربون من مسؤولية الحقائق الإلهية بتحويل قضية الرسالة إلى صراع شخصي بينهم وبين الرسول، وكأن الرسالة قضية تَهُمُّ النبي لذاته وأنه يبحث عن مصلحته الذاتية، لذلك فهو يخوض الصراع مع الذين لا يؤمنون بها. وهذه الآية تبين سفه هذا الرأي وتذكر بأن الرسالة في البدء قضية بين الإنسان وربه وما الرسول إلا واسطة بينهما، وعبد من عباد الله إن شاء أهلكه وإن شاء رحمه، وقد حذر النبي شعيب عليه السلام قومه من الدخول في هذا النفق فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[هود: ٨٩].

٢- وتحذر الآية من الفهم الخاطئ للشفاعة سواء شفاعة الأولياء أو شفاعة الشركاء المزعومين، بزعم أنهم قادرون على منع الله عما يشاء أو التأثير في قراره، الأمر الذي يدعو الإنسان إلى الاسترسال في الانحراف واللامسؤولية. وذلك ببيان أن الأمر لله وحده فيما يريد، فهو بيده أن يهلك الرسول ويعذبه أو يرحمه لو شاء. وهكذا تنسف الآية الأفكار الضالة في الشفاعة، حيث يقول النبي محمد صلى الله عليه وآله وهو أقرب الخلق إلى الله وأعظمهم عنده، وهو الموعود بالشفاعة، أنه لا يملك من الله شيئا، فكيف بمن هو دونه من الأولياء الصالحين؟ وكيف بالشركاء الموهومين؟!.

﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فالكافر إذن معذب لا محالة لأن الشفاعة والشركاء الموهومين لا يملكون له من الله شيئا. قال البعض: «إنها تربط إجارة الكافرين من عذاب أليم ببقاء الرسول هاديا ومبشرا ونذيرا»[1]. ويبدو أن ذلك مستوحى من قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال:٣٣].

[٢٩] وبعد التخويف والتحذير يفتح القرآن على القلوب باب الرجاء بذكر اسم الرحمن حتى لا تصاب باليأس والقنوط ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾. ويبدو أن في الآية إشارة لطيفة إلى

(١) تفسير الفرقان: ج٢٩، ص٥٣.

أن الله لا يهلك الرسول ﷺ ومن معه إنما يرحمهم، لأنه الرحمن وقد آمنوا به وأطاعوه بالتوكل عليه وحده ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، ولا يخيب من توكل على الرحمن، فإنه سيكون حسبه، يفيض عليه من بركاته ورحماته، ويجيره من العذاب والهلاك. أما الكفار والمشركون فقد ضلوا ضلالا مبينا حينما كفروا بربهم وبالآخرة، واعتقدوا بالأنداد المزعومين واعتمدوا عليهم، وإذا كانوا يجهلون مدى ضلالتهم، أو استطاعوا أن يخفوها عن الآخرين، فإن الحقيقة ستظهر جلية في المستقبل، وسيفتضحون أمام الناس عند الجزاء، بالرغم من أنهم يتهمون المؤمنين والقيادة الرسالية بالانحراف ويحاولون أن يقنعوا الرأي العام بذلك. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

[٣٠] ويختم السياق سورة الملك مثيرا الخشية من الله بما يؤكد أنه وحده الذي بيده الملك وأنه على كل شيء قدير وأنه الرحمن، ويحذر من أنه قادر على الذهاب بمائهم الذي ترتكز عليه الحياة، فلا أحد حينئذ يقدر على أن يأتيهم بماء، أترى لو جعل الله الماء أجاجا من الأساس بحيث لا يصلح للشرب والزراعة، أو جعله لا يمكن تفكيك أجزائه وتحليته، أو قرَّب موقع الشمس حتى تبخرت المياه جميعا، هل استمرت الحياة عليها، ومن أين كانوا يأتون بالماء؟.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ والغور: القعر والعمق من كل شيء، وغار الماء: ذهب في أعماق الأرض واختفى فلا تصل إليه يد الناس. وإن وقع هذا الإنذار في الوسط الذي تنزلت فيه يومئذ (شبه الجزيرة العربية) حيث يعز الماء، وفي تلك العهود حيث الإنسان لم يكتشف بعد وسائل التنقيب عن الماء وحفر الآبار العميقة، لا شك أنه كان عظيما، ولا يزال وسيبقى كذلك عند أولي الألباب من المؤمنين الذين يعرفون ربهم وقدرته المطلقة، فهم يخشونه دائما ويخافون سطواته، ويدركون الإجابة عن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ إنما النفي القاطع الشامل الأبدي: لا أحد يا رب العالمين. لأن الله وحده هو الرحمن والمالك والقادر الذي لا يُغلب. وقد قال المفسرون في معنى ﴿مَعِينٍ﴾ أنه الماء الذي من كثرته يظهر على وجه الأرض ويُرى بالعين، فهو معين، خلافا للغائر الذي شحَّ واختفى، وقيل: هو الماء الجاري من العيون.

وقد أعطى أئمة الهدى عليهم السلام بُعدا عميقا للآية بتأويلها في إمام الحق، بأنه الماء بما يحمله من رسالة الله والهدى للناس، أوليس الماء عصب الحياة وعمادها؟ كذلك الإمام، لأنه يحيي أتباعه ببصائر الوحي وبالهدى إلى الحق في حياتهم. أوليس الكفر والضلال موتا؟ قال الإمام الصادق عليه السلام: «هَذِهِ نَزَلَتْ فِي الْقَائِمِ يَقُولُ: إِنْ أَصْبَحَ إِمَامُكُمْ غَائِباً عَنْكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيْنَ هُوَ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِإِمَامٍ ظَاهِرٍ يَأْتِيكُمْ بِأَخْبَارِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَحَلَالِ اللهِ جَلَّ وَعَزَّ وَحَرَامِهِ»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ج٥١ ص٥٢.

سُورَةُ القَلَم

* مكية.

* عدد آياتها: ٥٢.

* ترتيبها النزولي: ٢.

* ترتيبها في المصحف: ٦٨.

* نزلت بعد سورة العلق.

فضل السورة

عنه ﷺ قال: «ومَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ أَعْطَاهُ الله ثَوَابَ الَّذِينَ حَسُنَ أَخْلاَقُهُمْ».

(مستدرك الوسائل: ج٤ ص٣٥٣)

***

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ فِي فَرِيضَةٍ أَوْ نَافِلَةٍ آمَنَهُ الله أَنْ يُصِيبَهُ فَقْرٌ أَبَداً وأَعَاذَهُ الله إِذَا مَاتَ مِنْ ضَمَّةِ الْقَبْرِ إِنْ شَاءَ الله».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص ١٤٦)

الإطار العام

فوارق القيادة الإلهية والجاهلية

يبلغ الصراع بين الرسالات الإلهية والجاهلية أوجه في القيادة، واستقامة النبي وأتباعه تحسم الموقف لصالح الوحي. من هنا جاءت فاتحة السورة في عظمة الرسالة والرسول، وانعطفت سريعاً نحو رفض القيادات الجاهلية، وبالذات تلك التي تقوم بقيمة الثروة.. وتبين الآيات الستة عشر الأولى مفارقات القيادتين، فبينها الرسول مقام نعم الله، وله عنده أجر لا ينقطع، وهو على خلق عظيم، وتتجلى آيات حكمته على كل أفق؛ ترى القيادات الجاهلية تتشكل من كل دجال حلاف مهين، يستهزئ بالناس ويفرق بينهم، وهو مناع للخير معتد أثيم.. قد أغلق منافذ قلبه دون أي شعاع من نور الحق، فإذا تليت عليه آيات الله قال إنها أساطير الأولين.

ولابد أن يبقى التمايز بين الفريقين قائماً أبداً، فلا يجوز أن يداهن الرساليون مثل هذه السلطات الفاسدة التي تستعد لتقديم بعض التنازل من أجل هذه المداهنة.(الآيات: ١-١٦).

ويمضي السياق في قصة أصحاب الحقل الذين منعوا المساكين حقهم فأهلك الله زرعهم، لعلها تكون عبرة لأصحاب الثروة فلا يطغون بها، ولكي يعلموا أن هذا العذاب إشارة إلى العذاب الأكبر في الآخرة. (الآيات: ١٧-٣٣).

وفي المجموعة الثالثة من الآيات يبين السياق عمق الفجوة بين المتقين والمجرمين، وينسف أساس تفكير المبطلين بأنهم شرع سواء مع المتقين، لأن العقل يرفض ذلك، ولا حجة لهم بذلك، لا من كتاب مدروس ولا عهد من الله، ولا كفيل ولا شركاء، ويحذرهم الله يوم القيامة الذي لا ينفع فيه عمل أو ندم، ويبين أن أموالهم قد تكون لعنة عليهم، لأن الله يستدرجهم بها، ويملي لهم بكيده المتين. (الآيات: ٣٤-٤٦).

وإن بعضهم يخشى من أجر يعطيه إزاء الرسالة. كلا؛ بل الرسالة تنفعهم في دنياهم.. وينهي السياق هذا الحديث بأنهم لا يعلمون الغيب، فكيف يتشبثون بأفكارهم؟ وينعطف نحو الرسول وكل رسالي يتبعه أن يصبر (حتى يحكم الله)، ولا يكون كصاحب الحوت الذي استعجل في الدعاء على قومه، فلولا أن نعمة من الله تداركته لكان ينبذ بالعراء (بعد التقام الحوت له) وهو مذموم، ولكن الله اجتباه بنعمته فجعله من الصالحين. (الآيات: ٤٧-٥٠).

وتختم السورة بأن الذين كفروا يكادون يزلقون الرسول بأبصارهم التي يتطاير منها شرر البغض والحسد، وذلك حينما يسمعون الذكر، ويتهمون الرسول بالجنون خشية تأثرهم به ومن شدة عداوتهم له، بينما هو ذكر للعالمين يذكرهم بالله واليوم الآخر، ولو اتبعوه لكان شرفاً لهم ومجداً. (الآيات: ٥١-٥٢).

وبهذا تنتهي سورة القلم التي فصلت بين خطي العلم والجهل على صعيد الفكر وفي صميم الحياة حقاً.

ولا تطع كل حلّاف مهين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ[١] (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ[٢] فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ[٣] مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ[٤] (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ[٥] بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ[٦] (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ[٧] عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ[٨] إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[٩] مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ

---

(١) المفتون: المبتلى بتخبيل الرأي، كالمجنون.

(٢) تدهن: أي تجامل الكفار وتلين لهم، فكأن المجامل يستعمل الدهن ليتلائم مع الطرف المقابل كما يُستعمل الدهن ليتلاءم الشيئان الخشنان حتى لا يصطدما ولا يصطكّا بعنف.

(٣) همّاز: أي كثير الهمز للناس، والهمز هو الطعن في الغير بشدة، وفي مفردات الراغب: الهمز كالعصر يقال همزتُ الشيء في كفّي، وهمز الإنسان اغتيابه.

(٤) مشاء بنميم: كثير المشي بين الناس بالنميمة.

(٥) عتل: العتلّ الجافي الغليظ.

(٦) زنيم: الزنيم الدعيّ الملصق بالقوم وليس منهم، وأصله الزنمة وهي الهُنيّة المتدليّة تحت حلق الجدي.

(٧) سنسمه: سنعلّمه بعلامة يُعرَف بها أنه مجرم.

(٨) أصحاب الجنة: أصحاب البستان الذي كان قرب صنعاء.

(٩) ليصرمنها: أي يقطعون ثمرها من الصرم بمعنى القطع.

مِن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ[1] (٢٠) فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ (٢٢) فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ[2] قَٰدِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ (٣٠) قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (٣٣)﴾.

هدى من الآيات:

بالأدلة الدامغة يفند السياق تهمة المكذبين، ثم يحذر النبي ﷺ ومن خلاله كل قائد مؤمن من التأثر بقوى الضغط، سواء الظاهرة منها التي تكذبه جهرا أو المنافقة التي لا يهمها سوى مصلحتها الشخصية.

ثم يفضح القرآن فئة المنافقين ببيان صفاتهم السيئة، كالمبالغة في الحلف، والمشي بالنميمة، ومنع الخير عن الآخرين، وإذ يولي الوحي هذا الاهتمام بفضحها بالتركيز على بيان صفاتهم تفصيليًّا فلأنها الأبلغ أثرا في المؤمنين بحكم سريتها، وتؤكد الآية (١٤) على حقيقة أساسية وهي أن جذر تلك الصفات السيئة يكمن في الافتتان بالمال والأتباع، محذرا المسلمين من مغبة الفتنة بالثروة والأولاد.

ثم ينعطف السياق نحو قصة أصحاب الجنة مثلا سيئا لأولئك الذين افتتنوا بزينة الحياة الدنيا، إذ استكبروا على الحق، وتعالوا على المساكين، إلا أنهم اكتشفوا خطأهم فتابوا إلى ربهم ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بل قالوا: إننا تجاوزنا الحد فطغينا. وإننا نجد في هذه القصة دعوة للمترفين إلى التوبة والحذر من مغبة الافتتان بزينة الدنيا لأن ذلك ينتهي إلى عذاب الدارين.

بينات من الآيات:

[١] اختلفت أقوال المفسرين[3] في معنى ﴿نٓ﴾ فقائل: إنها الحوت لقوله تعالى في

---

(١) كالصريم: أي كالمقطوع ثماره، أو كالليل المظلم.

(٢) حرد: بمعنى المنع، يقال: حاردت السنة، إذا منعت قطرها.

(٣) راجع: مجمع البيان: ج١٠، ص٤٩٩، الدر المنثور: ج٦، ص٢٥٠.

هذه السورة: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ وقوله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقائل: إنها اللوح المحفوظ الذي كتبت فيه الأقدار الإلهية، وروي ذلك مرفوعا إلى النبي ﷺ، حيث ذكر أنه لوح من نور، واستدلوا من الآية على هذا الرأي بذكر القلم، وقيل: هي الدواة التي منها يأخذ القلم مداده، وفي الدر المنثور والتفسير الكبير أنها إشارة لاسم الرحمن باعتبارها من حروفه، وقيل: «هي من أسماء رسول الله ﷺ». والذي أعتقده -بالإضافة إلى ما سبق وأن بينا في شأن الحروف القرآنية المقطعة- أن تفسير ﴿نٓ﴾ يتسع لبعض ما ذهب إليه المفسرون، ولكن يبقى علمه عند الله والراسخين فيه لما علمهم إياه من المعاني والتأويلات.

واختُلف في القلم ما هو؟ فقالوا: إنه القلم الذي يكتب أقدار الله في اللوح المحفوظ، قال الإمام الصادق عليه السلام (يعني الله): «**ثُمَّ أَخَذَ شَجَرَةً فَغَرَسَهَا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَالْيَدُ الْقُوَّةُ وَلَيْسَ بِحَيْثُ تَذْهَبُ إِلَيْهِ الْمُشَبِّهَةُ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: كُونِي قَلَماً، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: يَا رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ**»[١] وفي حديث آخر قال لسفيان الثوري: «**فَنُونٌ مَلَكٌ يُؤَدِّي إِلَى الْقَلَمِ وَهُوَ مَلَكٌ، وَالْقَلَمُ يُؤَدِّي إِلَى اللَّوْحِ وَهُوَ مَلَكٌ، وَاللَّوْحُ يُؤَدِّي إِلَى إِسْرَافِيلَ، وَإِسْرَافِيلُ يُؤَدِّي إِلَى مِيكَائِيلَ، وَمِيكَائِيلُ يُؤَدِّي إِلَى جَبْرَئِيلَ، وَجَبْرَئِيلُ يُؤَدِّي إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ**»[٢]. ويبدو لي أن معنى القلم يتسع لمصداقه المعروف عند الإنسان، باعتبار القلم وسيلة لنقل العلم وتثبيته بالكتابة، والعلم قيمة اعتمدها الوحي، فيكون القسم بالقلم بوصفه وسيلة للعلم كاشفا عن عظمته لأنه يرفعه إلى مرتبة سائر الحقائق التي أقسم الله بها في القرآن، وإذا كان الإنسان يستمد قوة لحديثه بالقسم والمقسم به فإن كلام ربنا يعطي ما يحلف به قيمة وشأنا، فنحن إذن نعرف عظمة القلم لأن ربنا أقسم به. وهكذا نستوحي من هذا القسم دور القلم في منح المؤمنين الكرامة والعزة وفتح آفاق العلم، وأن علينا أن نملك ناصية القلم إذا أردنا امتلاك ناصية الحياة، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤-٥] ويدل على ذلك القسم بما يسطر القلم، وهو العلم.

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قالوا: يعني الملائكة الذين يكتبون بالقلم أقدار الله في اللوح، أي قسماً بالبراع وبما يكتبه سطرا بعد سطر، أو بما يسطره من العلوم الحقة، فإن العلم هو الآخر عظيم وحري أن يقسم به، وهكذا يأتي قسم القرآن بالقلم والعلم تمهيدا لتفنيد تهمة الكهانة والسحر والشعر عن رسالة الله. وليعلم الناس أن العقل والوحي صنوان، وأن الرسالة والعلم كجناحي طائر تحلق به الإنسانية عاليا، وأن ما يتقوله أدعياء الدين من أن العلم ليس من الدين هراء، وما يزعمه أدعياء العلم من أن العلم يتنافى مع الدين ضلال بعيد.. فما هو الكتاب

(١) بحار الأنوار: ج١١، ص١٠٨.
(٢) بحار الأنوار: ج٥٤، ص٣٦٨.

يشيد بالعلم وبما يكتب به. و نستوحي من كل ذلك أن موقع القلم هو خدمة الدين والعلم لا تضليل الناس أو استعبادهم، ولا يكون ذلك إلا إذا تسلح به المؤمنون وبادروا للانتفاع به قبل الجبارين ومرتزقتهم.

[٢] ويربط الوحي بين حقيقة العلم الذي يسطره القلم وحقيقة الرسالة، وقد ظهرت هذه الصلة مرة أخرى في سورة العلق عند قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق: ٣-٥] فما هي العلاقة بين الأمرين؟.

إن هذا الربط يكشف بصيرة مهمة وهي علاقة العلم بالإيمان، وبتعبير آخر علاقة العقل بالوحي، ذلك أن العقل هو الذي يذكّرنا بالوحي ويهدينا إليه، كما أن الوحي هو الذي يستثير العقل ويستخرج كوامنه ويوجه مسيرته نحو الحق. وإن من يتعلم ويقرأ تجارب العقل البشري عبر التاريخ لا ريب يهتدي إلى أن الرسالة الإلهية ليست جنونا، ولا إلقاءات الشيطان، ولا أساطير الأولين، وأنها لا يمكن أن تتنزل إلا من رب العالمين، لو أنصف الحق من نفسه وقصد سواء السبيل. إلا أن المكذبين يكيلون التهم الباطلة التي يرفضها كل عاقل ليبرروا رفضهم للحقيقة، وتهربهم من المسؤولية التي تفرضها. ثم هل اكتفوا بذلك؟ كلا.. لقد حاولوا التأثير على الرسول ليداهنهم في بعض قيم الرسالة بما يحفظ مصالحهم ويحوّلها إلى طائفة من الطقوس الخفيفة الفارغة من قيم الحق والتقوى والعدل والاجتهاد، فقالوا له ما قاله الطغاة لكل مصلح وداعية حق عبر التاريخ. قالوا: إنك لمجنون. لماذا؟ لأن القيم التي تؤمن بها وتسعى لنشرها تتنافى وقيم النخبة المستكبرة التي تتحكم بمصائر الناس، ثم جنّدوا لنشر هذه الدعايات إمكاناتهم المادية والمعنوية، وهكذا استهدفوا هزيمة المصلحين نفسيًّا لعلهم يتنازلون عن بعض قيمهم.

وأمام الهجمة التي يشنها أولئك المضللون ضد الرسول والرسالة يقف الوحي مسددا للرسول ﷺ ولكل الرساليين عبر التاريخ، ومدافعا عن قيم الحق، حيث يؤكد القرآن أن ما يزعمونه ما هو إلا كذب وافتراء، وذلك بالتذكرة بالبصائر التالية:

أولاً: إن الرسالة التي يحملها الرسول ويدعو إليها نعمة إلهية لا يدانيها جنون، لأنها حيث يدرسها الإنسان ويتدبر معانيها يجدها قمة العقل، بل هي متقدمة بخطوات كثيرة على مسيرة العقل البشري لأنها من عند رب العقول. ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ لأن المجنون هو الذي سلب الله عقله، وقد أنعم الله على رسوله بالوحي الذي يكمل العقل، وكيف يكون من يحمل للبشرية نور الحكمة والعلم والبصيرة مجنونا؟!.

إن الرسالة التي تنظم حياة الإنسان الشخصية والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية

و..، وتنطوي على أسرار الوجود، وتكشف للبشرية السنن الإلهية، والأقدار التي تسير الخليقة، وما أمر الخالق به من خير وما نهى عنه من ضر وسوء وشر ! بل وتتجاوز هذه الحياة إلى المستقبل الأبدي البعيد لتحدثنا عن العالم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، وتبين تفاصيل دقيقة متناسبة وعقل الإنسان وأحاسيسه، فهل يمكن أن تكون هذه الرسالة طيشا ومن يحملها إلى الناس مجنونا؟!! وهل يتسنى لغير المجنون والمكابر أن يتجاهل حقيقة الرسالة التي هي نعمة ونور ويزعم أنها جنون ونقمة وظلام؟! ولعلنا نستشف من قوله سبحانه: ﴿أَنتَ﴾ أن الذي لا يكتشف الفرق بينهما هو المجنون حقا وليس أنت يا رسول الله.

وعند التأمل في قول الله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ نهتدي إلى فكرتين:

الأولى: أن عظمة النبي ﷺ ليست بذاته فهو بشر كسائر الناس، وإنما عظمته برسالة ربه (نعمة الله عليه)، وقد قدم ربنا السبب (نعمته) ربما لبيان أنه ليس هناك سبب آخر غير الرسالة استمد منه النبي عظمته وبلوغه كمال العقل.

الثانية: أن إضافة النعمة إلى الله سبحانه ينفي نفيا شديدا مزاعم الكفار بأنه قد تلقّى الوحي من الجن ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾[الفرقان: ٤].

[٣] ثانياً: إن النتائج والمعطيات العظيمة التي وصل إليها الرسول في الدنيا، والتي ستكون له في الآخرة، أظهرت بجلاء أن الرسالة وحي، وأن النبي أعظم الخليقة، وأن جهلهم هو الذي جعلهم لا يفرقون بين العظمة والجنون، ولا بين رسالة الغيب وأساطير الأولين. كيف ذلك؟.

إن الكفار والمشركين كانوا يعدُّون الرسول ﷺ مجنونا لأنه ينشد التغيير الحضاري الجذري والشامل ليس لمجتمع شبه الجزيرة العربية فقط بل للبشرية كلها، فيوحد المجتمع المتمزق بالتناحر، والمختلف بالأديان، ويرقى به إلى قمة التقدم الحضاري السامقة، وينتصر على أعدائه الأقوياء والكثيرين وهو اليتيم العائل.. وما إلى ذلك من الأهداف العظيمة. كانوا يعدونه مجنونا لأنه يطلب المستحيل الذي لا يخطر ببال بشر ولا خياله، ولكن القرآن جاء ونسف هذه المزاعم مؤكدا أن النبي يبلغ ما يريد بإذن الله، كما قال في سورة الضحى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥] وكما قال في هذه السورة: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع، فهو أجر متواصل يزداد مع الزمن، وما توسُّع الأمة التي بناها ﷺ إلا جزء من ذلك الأجر ودليل عليه، فكيف وفي الآخرة ما هو أعظم إذ يعطى من قبل الله الوسيلة والشفاعة وأعلى درجات الجنة والثواب؟ إن بلوغ الرسول ﷺ أهدافه التي تراءت لهم بأنها مستحيلة

أوضح دليل على عقلانيته وسلامة رسالته التي حققت أهدافه باتباعها، لأن وصول الإنسان إلى أهدافه يحتاج إلى معرفة بسنن الحياة وقوانينها.

وكلمة أخيرة نقولها في الآية هي: إن تأكيد الله للنبي وكل رسالي يتبعه أن له أجرا غير ممنون يصنع في الإنسان المؤمن روح التعالي على إغراءات الدنيا التي يقدمها الأعداء والتي قد يثني الافتتان بها الرساليين عن أهدافهم الربانية فيداهنون فيها.

[٤] **ثالثاً**: وآية أخرى لعظمة الرسول ﷺ أخلاقه العظيمة التي فاق بها عظماء البشرية وهم النبيون والصديقون مما يكشف مدى كمال عقله وعظيم حلمه وواسع علمه ونفاذ بصيرته ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وكفى بعظمة أخلاقه أن يصفه رب العالمين بالعظمة، وكيف لا يكون كذلك وقد أدبه الله حتى قال ﷺ: **«أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي»**[1] وقال الإمام الصادق عليه السلام: **«إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أَدَّبَ نَبِيَّهُ فَأَحْسَنَ أَدَبَهُ فَلَمَّا أَكْمَلَ لَهُ الْأَدَبَ قَالَ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾»**[2].

ومن تأكيد الله أن الرسول على خلق عظيم يتبين أنه ﷺ ما كان يتكلف الأخلاق، ولا كانت عرضية تأتي وتزول، بل هي سجايا وملكات اختلطت بكيانه فلا تفارقه ولا يفارقها، وذلك من أفضل ما يصير إليه بشر في الأخلاق. وإنما بلغ النبي تلك العظمة والمكانة الرفيعة لأنه جسّد الدين في حياته، قال الإمام الباقر عليه السلام في قول الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾: **«هُوَ الإِسْلامِ»**[3]، وقال: **«عَلَى دِينٍ عَظِيمٍ»**[4]، إذن فالطريق إلى العظمة موجود في القرآن، ومن أرادها فإنها ثمرة تطبيقه.

وحيث ندرس حياة حبيب الله ﷺ فإننا نهتدي إلى أن من أعظم أخلاقه وما يمكن لإنسان أن يبلغه هو سعة الصدر، التي كانت آلته للرئاسة بعد الإسلام، ووسيلته التي استوعب بها الناس في الدين، وملك قلوبهم.. وفيهم العدو الحاقد، والجلف الصلف، والكافر الجاهل، والمشرك الضال و.. ، وإنها لأهم ما يحتاجه المصلحون من الأخلاق، ولذلك مدحه رب العالمين بها وثبّت ذكرها بالذات في كتابه من دون سائر الأخلاق فقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وروى البرقي عن أحد الأئمة عليه السلام: **«إِنَّ اللهَ أَدَّبَ نَبِيَّهُ ﷺ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُ فَقَالَ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فلما كان ذلك**

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٨ ص٣٨٢.
(٢) الكافي: ج١، ص٢٦٦.
(٣) بحار الأنوار: ج٦٨، ٣٨٢.
(٤) بحار الأنوار: ج٦٨، ٣٨٢.

أنزل الله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وهذه بعض أخلاقه ﷺ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَيِيّاً لَا يُسْأَلُ شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاهُ»[2]، وكان يقول لأصحابه: «لاَ يُبْلِغْنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ أَصْحَابِي شَيْئاً فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَ أَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»[3]، و «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ كَفّاً وَأَكْرَمَهُمْ عِشْرَةً مَنْ خَالَطَهُ فَعَرَفَهُ أَحَبَّهُ»[4].

[٥] رابعاً: ويبقى المستقبل دليلا فصلا يكشف عن الحقيقة للجميع، وهنالك يتبين العاقل والمجنون، فهل هو أبو لهب وأعداء الرسالة الذين خُلِّدوا باللعنة، أم الرسول ﷺ وأتباعه الصادقون؟ ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ باعتبار كل المقاييس المادية والمعنوية عندما يأتي المستقبل بالحقيقة.

[٦] ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي المجنون، لأن افتتان الإنسان بأي شيء دليل اتباعه لغير العقل، فإن العاقل لا ينهزم في الابتلاءات وعند الفتن، إنما يتجاوزها وينتصر عليها، والمفتون يعني أيضاً: المضلَّل المصدود عن الحق. فالمعنى أنكم ستبصرون في المستقبل بمَنْ هو مجنون ومن هو عاقل، أو تكون الباء بمعنى في فيكون المفهوم أنكم سوف ترون في أيّكم سكن الشيطان (المفتون عن الحق) فأعماه عن رؤيته، وفتنه مثله عنه. وبالتالي سيظهر الطرف المحق الذي يتلقى الهدى من ربه وهو الرسول، وأن الرسالة ليست من إلقاءات الشيطان كما يزعم الجاهليون، بل مواقفهم المعادية لها وللنبي وبهتانهم العظيم. ويبدو لي أن الباء هنا ضرورية وليس كما قال بعض المفسرين: إنها زائدة، وذلك لأن الجنون حقيقة معنوية لا يمكن أن يبصرها الإنسان بذاتها، وإنما يبصرها من خلال الدلالات والعلائم الموحية بوجودها، فهي تبصر بالواسطة، ولعله لذلك جاءت الباء في الكلمة ﴿بِأَييِّكُمُ﴾ كما جاءت في قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠] لأن الشجرة لا تثمر دهنا وإنما تثمر ثمرة فيها الدهن.

ونستوحي من الآية أن المنهج السليم لتقييم الأمور معرفة عواقبها، لأن الإنسان في بادئ الأمر ومع المتغيرات قد يدخله الريب والتردد في استصدار حكمه الأخير على الأمور، ولكنها حينما تستقر في مستقبل الزمن يرى بوضوح تام الموقف الواقعي الحق منها. إذن الإحباطات الآنية التي يواجهها المؤمنون في مسيرتهم وانطلاقا من هذه البصيرة لا ينبغي أن تبعث فيهم

---

(١) بصائر الدرجات: ص٣٧٨.
(٢) بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٣٠.
(٣) بحار الأنوار: ج١٦، ص٢٣٠.
(٤) بحار الأنوار: ج١٦، ص٢٣١.

اليأس أو التشكيك في صحة خططهم وسلامة قيادتهم، فإن المستقبل مهما طال الزمان ورغم الظواهر السلبية في صالحهم وفي صالح رسالتهم، لأنهم يتَّبعون الحق.

[٧] ومع أن هذه من القواعد الأساسية التي يجب على الرساليين اعتمادها في تحركهم، إلا إنهم يستمدون مناعتهم من الحق، وإيمانهم بسلامة الخط من الإيمان بالله، فليس المهم عندهم أن يكونوا في نظر الآخرين أصحاب حق، أو أن يكشف لهم واقع الدنيا عن هذه القضية، إنما الأهم أن يكونوا عند الله من المهتدين، ذلك أنهم لا ينفعهم ثناء أحد إذا كانوا عند الله من الضالين، كما لا يضرهم شيء لو كانوا عنده من أهل الهداية. وإن الرساليين إذا ما تمسكوا بهذا الأصل فلن يتأثروا بالضغط أو الإعلام المضاد، ولن ينال أحد من قناعتهم قيد شعرة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

والسؤال: كيف يكتشف الإنسان واقع انتمائه هل هو إلى فريق الضالين أم إلى فريق المهتدين؟ وبتعبير آخر: كيف يصل المؤمنون إلى القناعة التامة والراسخة بأنهم أهل الحق؟.

والجواب عن ذلك: أن لله في هذه الحياة سبيلا واحدا هو الصراط المستقيم (الحق) الذي يتجسد في رسالة الله وفي القيادة الرسالية وخطها السليم، فمن اتبع رسالته ودينه، وسلَّم لقيادة الحق (الرسل وأئمة الهدى الذين يمثلون امتدادا حقيقيًّا لهم عبر التاريخ) وانتمى لخطهم، فهو من المهتدين، وإلا فهو من الضالين.

ونهتدي من الآية الكريمة إلى أن هناك علمين هما: علم الإنسان عبر عقله، العقل الذي يتجلى في المستقبل، وعلم الله الذي يكشفه الوحي، وأن الإنسان قد يعجز عن تمييز الأشياء بعقله، في حين أن علم الله يجليه له تماما.

[٨-١٣] ويمضي بنا السياق إلى محور أساسي في السورة عندما يبين الموقف السليم الذي يجب على القيادة الرسالية اتخاذه من قوى الضغط، التي تحاول التأثير على القائد وتجيير قراراته ومواقفه في صالحها، بتطويعه لخدمة أغراضها من حيث يدري أو لا يدري، وعادة ما تكون تلك القوى من المترفين أصحاب المال والقدرة الاجتماعية أو السياسية أو هما معا في المجتمع. ويتوجه الوحي بالنهي إلى القائد بالذات، لأن قوى المترفين المستكبرة تسعى لإفساد المجتمع ونظامه السياسي، من خلال إفساد جهازه الديني والسيطرة عليه، لأن السيطرة عليه تجعلهم أسرع نفاذا في المجتمع، كما توفر لفسادهم غطاء شرعيًّا. وهم يتسللون إلى الجهاز الديني ويؤثرون فيه بسلاح المال، حيث يجعلونه يعتمد على أموالهم التي يقدمونها خمسا وزكاة وتبرعا أو هدية ورشوة. وإن هذه الحقيقة تظهر بوضوح حينما ندرس مسيرة الجهاز الديني عبر

التأريخ وفي كل المذاهب والأديان تقريبا، فالقوى المترفة هي التي حوَّلت الأحبار إلى جماعة يكنزون الذهب والفضة وأداة طيعة في أيدي أصحاب المال والسلطة. كما أن التحليل المتأني لكثير من الصراعات التي كانت تدور بين القيادات الدينية والمترفين يؤكد أن سببها يكمن في رفض القيادات الدينية لهم ولسيطرتهم على الناس، فهذا السامري ومن حوله بعض أصحاب المال في مجتمع بني إسرائيل يبغون على موسى عليه السلام لأنه وقف ضد مطامعهم ومحاولاتهم الخبيثة في تطويع الدين لصالح شهواتهم وأهوائهم.

وموقف القرآن يبدو موقفا عنيفا وواضحا في تحذير الرسول صلى الله عليه وآله من المترفين، لأن خطرهم عظيم، وعادة ما يكون متسللا بعيدا عن التحديات والضغوط المباشرة الحادة، فقد يظهر أحدهم لدى القوة الدينية بمظهر التقوى والتأييد فإذا به يصارع الآخرين على الصف الأول من الجماعة، ويبذل الأموال التي تخدم الجهاز الديني ومشاريعه في المجتمع ولكن ليس لوجه الله وتقربا منه، ولا عن قناعة بالقادة الدينيين أبدا، بل لحاجة في نفسه وهي أن يستغلهم لمصالحه وأهوائه، اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية، بتزيين الاتجاه السياسي والاجتماعيَ الذي يناسبه من جهة، وباستخراج الفتاوى التي تخدم أغراضه من جهة ثانية.

وتقسم الآيات قوى الضغط المترفة إلى فريقين:

الفريق الأول: المكذبون الذين لا يؤمنون بالرسالة ولا بالرسول، كالطواغيت الذين يجاهرون بالتكذيب، وكالقوى المستكبرة التي في عصرنا هذا، فهم أشبه ما يكونون بالكفار، ولا ريب أن لهؤلاء أطماعهم تجاه الأمة الإسلامية، وبالتالي فهم يسعون للتأثير على قيادة المجتمع الإسلامي الدينية وتطويعها. إنهم -كما الفريق الثاني- لا يسعون في البدء للقضاء على الجهاز الديني إنما يحاولون الإبقاء عليه ممسوخا ومفرغا من محتواه الرسالي، لكي يركبونه مطية إلى مصالحهم.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ ويفضح القرآن خبثهم المتمثل في خطة المسخ والإفراغ التي يتبعونها، مبينا أنهم يسعون لتغيير بعض القيم ومواقف القيادة لصالحهم بمقايضة الدين الحق بأموالهم، وكأن قضية الحق كالتجارة تقبل البيع والشراء. فمن الضرورة أن تكون القيادة الدينية (لكي تُفشل المترفين في مرامهم) على مستوى رفيع من تقوى الله فلا تخدعها زخارف الدنيا عن الحق، وأيضا أن تكون في مستوى عالٍ من الوعي السياسي والحنكة الإدارية والفطنة الاجتماعية، وفي مستوى عالٍ من الوعي يكشف مكرهم مهما كان خفيًّا ومحكما، ولذلك جاءت النصوص الدينية مؤكدة هذين الأمرين

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ يبدو أن أصل معنى المداهنة جاء من وضع الدهن على الشيء لكي يلين جانبه ويكون مطواعا، والمعنى أنهم يطمعون لو أنك يا رسول الله تطيعهم في التنازل عن بعض القيم الإلهية والمواقف فيبادرون هم بالتنازل عن بعض مواقفهم منك ومن الرسالة، كما فعل من قبل بعض أحبار اليهود والنصارى.

وما أكثر ما تتعرض القيادات الرسالية لهذه اللون من الضغط الماكر، فما أحوجها لتقوى الله. ولا ريب في أن أعظم مداهنة يسعى المترفون لإيقاع القيادات الدينية فيها هي فصل الدين عن السياسة لكي يتسنى لهم التلاعب بثروات الشعوب بصورة أفضل، ولكي تبقى سلطتهم في مأمن من ثورة المجتمع، باعتبار أن ربط الدين بالسياسة يبعثه نحو الثورة للتحرر والتغيير.

ويتأثر الإنسان بالمداهنة عبر أحد عاملين:

الأول: الافتتان بحطام الدنيا الذي يقدمه المترفون.

الثاني: تغيير قناعة القائد بالقيمة التي يداهن فيها فيتنازل عنها بحثا عما هو أفضل منها، ولذلك فإن المستكبرين يوظفون جانبا كبيرا من إمكاناتهم الإعلامية لتحقيق هذا الهدف، بمحاربة قناعات الرساليين ليس في المجتمع وحسب بل في داخل أنفسهم أيضا، فمثلا تراهم يوحون عبر إعلامهم المضلل بأن المجاهدين الذين يسعون للإصلاح الشامل إرهابيون، ويضربون على هذا الوتر طويلا لعلهم يجدون تجاوبا عند بعض المجاهدين فيغيروا من خططهم بما لا يتنافى ومصالح المستكبرين! كما كانوا أيام رسول الله ﷺ حيث كانوا يسمونه مجنونا لأنه أراد تغيير الواقع والإنسان تغييرا جذريًا، طمعا في هزيمته نفسيًا ثم تنازله عن ذلك الهدف العظيم.

ومن الجدير ذكره هنا أن من أسباب تحريف الديانة المسيحية واليهودية في التاريخ أن القيادة الدينية تأثرت بعاملين:

الأول: الخوف من المترفين الجبارين.

الثاني: الرغبة في استقطاب المزيد من الجماهير في ظل حماية الدولة، مما دعاهم إلى المداهنة بحذف بعض القيم والأحكام التي في الإنجيل والتوراة، وإدخال بعض الأفكار والأحكام التي تتوافق مع أهواء الناس، ونسوا أن ما بقي لم يعد دين الله، بل دين الجبارين، وأنهم بذلك أصبحوا خدما في بلاط السلاطين وليسوا منقذين لعباد الله المحرومين!.

الفريق الثاني: المنافقون في المجتمع المسلم، الذين يتمسكون بقشور الدين، كالصلاة التي لا تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصوم الذي لا يورث تقوى ولا يعطي صاحبه إحساسا بألم الفقراء، والإنفاق المحفوف بالرياء وحب السمعة، وهكذا الممارسات التي فُرِّغت من محتوياتها الإصلاحية، وهؤلاء لا ريب يكذبون بكثير من الحقائق الإلهية كالجهاد، وحرمة الاستغلال، ويودون لو تداهنهم القيادة الرسالية، ولكنهم لا يجهرون بذلك.

وما يبدو من الآيات التي تبين صفاتهم أن أهم هدف يسعون لتحقيقه من تزلفهم للجهاز الديني في الأمة أن يجعلوه مَقْمَعا في أيديهم يضربون به الآخرين، كالمحرومين المستضعفين والمصلحين المغيِّرين أفرادا وجماعات، والسبب أنهم لا يريدون إلا مصلحتهم، كما أنهم أول من يعارض الإصلاح والتغيير، ذلك أن وجود الأنظمة الفاسدة والمنحرفة عن الحق عامل أساسي في استغلالهم للفئات الاجتماعية المحرومة ووصولهم إلى مآربهم المادية. فما هي صفات هذا الفريق؟.

١- المبالغة في الحلف إلى حد الاحتراف، من أجل إعطاء كلامهم قيمة شرعية ومن ثم التأثير به في موقف القيادة ورأيها، خصوصاً أن للإيمان اعتباراً عظيماً عند المؤمنين، ولا يعني ذلك أن المترفين من هذا الفريق يقتصرون على مجرد الحلف، فهم يكذبون وينمقون الكلام بشتى الوسائل، وما الحلف إلا واحد منها، وعلى القائد أن يحذرهم.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾، ويبدو أن كلمة ﴿مَّهِينٍ﴾ من الهوان والضعة حيث إن الحلاف إنما يلجأ إلى ذلك كونه حقيرا في نفسه وعند الناس، وانطلاقا من ذلك يحس على الدوام ويظن أن كلامه لن يُعطى اعتبارا وقيمة عند الآخرين، الأمر الذي يلجئه إلى المبالغة في الإيمان ليصطنع قيمة لكلامه بها لعله يكون مقبولا. وعادة ما يحاول الوضعاء الذين تمكنت من أنفسهم عقدة الحقارة أن يوصلوا أنفسهم بمراكز القوى في المجتمع دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية ليغطوا على ضعتهم ويجبروا نقصهم، وإنك لو فتشت في أجهزة القمع والتجسس الطاغوتية فلن تجد إلا أمثال هؤلاء.

٢- الهمز والمشي بالنميمة في المجتمع، وبالخصوص عند القيادة، وذلك لأهداف ثلاثة:

الأول: لكي يبقوا هم في المجتمع الشخصية الأفضل، فتجدهم يدأبون في إسقاط الشخصيات المحترمة، وذلك بتقليل قدرهم عند القيادة والمجتمع، وتلفيق التهم. ولقد ثبت في علم النفس أن أصحاب عقدة الهوان والحقارة تنمو فيهم روح الانتقام من المجتمع، ويسعون لكي يكون مجتمعا ساقطا مثلهم فلا يُحسبون شاذين.

الثاني: فصل القيادة عن المجتمع حتى تظل أذنا صاغية لهم وحدهم، فتكون قراراتها ومواقفها لصالحهم فقط، بل لا يريدون أحدا سواهم يتصل بمركز القوة في الأمة، لتكون لهم اليد الطولى فيها. ولأنهم عادة ما يكونون من الطبقة المستكبرة المترفة فإنه يهمهم أن يوجدوا فاصلة بين الأمة وبين القيادة لكي يبقى الناس فريسة لسياساتهم الاستغلالية والمنحرفة دون علم من القيادة يدعوها للتدخل ضدهم.

الثالث: ضرب القوى الإصلاحية والمنافسة، فأنى ظهرت بوادر الإصلاح تصدوا لها، وسودوا الصفحات بالتقارير المضللة التي لا تحوي سوى الطعن والكذب على الآخرين، وملؤوا بيت القيادة وأذنها بالشائعات المغرضة وبالتهمة والبهتان، وكل ذلك ليصير القائد مَقْمَعا في يدهم يضربون به يمينا وشمالا هذا العالم وذلك المُصلح وتلك الحركة الرسالية.

﴿هَمَّازٍ﴾ قيل: «الهماز هو المغتاب، وفي اللغة: الطعَّان العَيَّاب النَخَّاس»، وقال صاحب البرهان: «لكن في الصحاح همزه أي دفعه، وقوس همز أي شديدة الدفع للسهم، وفي النهاية: كل شيء دفعته فقد همزته، وفي سورة المؤمنين: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ أي وساوسهم ونخساتهم وغمزاتهم»[1]. وأضاف مجمع البيان قائلا: «والأصل فيه الدفع بشدة اعتماد، ومنه الهمزة حرف من الحروف المعجمة فهي نبرة تخرج من الصدر بشدة اعتماد»[2]، ويبدو لي أن الهماز هو الذي يثير الناس ويستحثهم ويحركهم ضد الآخرين بالكلام أو الفعل، وآلة الهمز حديدة في مؤخر خف الرائض، أو عصا في رأسها حديدة تنخس بها الدابة فتُستثار لتحث المشي. وما أكثر ما جر المترفون بهمزهم القيادات عبر التاريخ إلى مواقف وآراء راح ضحيتها الأبرياء والصالحون. ولعل من وسائل همزهم النميمة التي يبالغون فيها وفي المشي بها بين الناس كما تمشي جراثيم الأوبئة بالمرض.

﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ فأنى ما حل وارتحل حمل معه داء التفرقة، والنميمة هي نقل كلام الناس على بعضهم عند بعض مما يميت الألفة ويحيي الفتنة، وهي بذلك تعد من أعظم الذنوب وأخطرها لأنه يهدد وحدة الأمة وصفاء أجوائها، وفي هذه الحقيقة وردت الأحاديث الإسلامية: قال رسول الله ﷺ: **«يَا عَلِيُّ كَفَرَ بِاللهِ الْعَظِيمِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَشَرَة (منهم): الْعَيَّابُ وَالسَّاعِي فِي الْفِتْنَةِ»**[3] وقال ﷺ: **«أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله،**

---

(١) تفسير البرهان: ج٤، ص٣٤٠.
(٢) مجمع البيان: ج ١٠، ص ٤١٩.
(٣) تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٣٩٣

قَالَ: «الْمَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ الْبَاغُونَ لِلْبَرَاءِ الْعَيْبَ»[١]. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ! السَّفَّاكُ لِلدَّمِ وَشَارِبُ الْخَمْرِ وَمَشَّاءٌ بِالنَّمِيمَةِ»[٢].

٣- منع الخير عن الغير والاعتداء عليهم وممارسة الإثم. وهذه كلها من الصفات اللصيقة بالمنافقين إذ إنهم يريدون الخير لأنفسهم فقط، لذلك يقفون أمام أي محاولة من قبل القيادة للإصلاح، ويمنعونها بالتعويق والتثبيط عمليًا وبالرأي، فليس من صالحهم أن يعم الرفاه الاقتصادي كل أفراد المجتمع، وأن تُزال الطبقية، لأن قوتهم الاجتماعية والاقتصادية قائمة على معادلة الاستكبار والاستضعاف، والغنى والفقر، وبعبارة: على دماء الآخرين وحرمانهم.

﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ وتتسع الكلمة إلى مصاديق كثيرة منها أن هؤلاء حينما يتحلقون حول القيادة يعملون على حصر اعتمادها فيهم، وسد الأبواب أمام أية كفاءة سياسية أو إدارية أو اقتصادية ناشئة. وأعظم خير يمنعونه هو أنهم يمنعون أئمة الهدى أن يأخذوا مواقعهم الشرعية في المجتمع.. وقد أشار القمي في تفسيره إلى ما ذكرنا مؤوّلا فقال: «الْخَيْرُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ»[٣].

ولا يكتفي المنافقون بمنع الخير عن الآخرين، بل يتمادون في غيهم إلى حد الاعتداء على حدودهم وحقوقهم، ماديًا بضربهم إذا كانوا منافسين أو معارضين، وباستغلالهم إذا كانوا من المحرومين، ومعنويًا بالتهم المغرضة وتشويه سمعتهم و...

﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ ولـ ﴿أَثِيمٍ﴾ تفسيران:

الأول: بالنظر للكلمة مستقلةً فيكون المعنى أنهم في حدود علاقتهم مع الغير يتصفون بمنع الخير والاعتداء، وفي حدود أنفسهم يتصفون بمخالفة أحكام الله (الإثم) كشربهم الخمر وظنهم السوء والحقد والحسد، وبصورة مبالغة كمًّا ونوعا، لأن أثيم صيغة مبالغة من الإثم.

والثاني: بالنظر إلى الكلمة متصلة بما قبلها ﴿مُعْتَدٍ﴾ وفي ذلك معان:

منها: أن اعتداءهم لا يقوم على الحق، فهناك اعتداء على الآخرين بالحق كالذي أمر الله به في قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وهناك اعتداء وتجاوز بالباطل والإثم.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٢، ص٢١٢.
(٢) وسائل الشيعة: ج٢٥، ص٣٠٥.
(٣) تفسير القمي: ج٢، ص٣٨٠.

ومنها: أن اعتداءهم ليس عرضا بل هو من طبيعتهم ومتجذر في نفوسهم التي جُبلت عليه، فما هو إلا مظهر يعكس ما انطوت عليه أنفسهم من الإثم العريض.

ومنها: أنهم حين يعتدون يوغلون في الاعتداء بالمبالغة في آثامه.

وإنه لثابت علميًّا وعمليًّا أن المعتدي لا يعتدي في الواقع الخارجي ويتجاوز الحدود حتى يكون قد تجاوز الحدود في داخل نفسه، وأسقط اعتبار الحق والآخرين قبل ذلك في نفسه وتفكيره. فلاعتداء هؤلاء فلسفة تتأسس عليها حياتهم حيث إنهم لا يعترفون بوجود حق يجب الالتزام به واحترامه، ولا بوجود حدود وقوانين تفصل بين الناس.

٤- وكما تتداعى صفات الخير في الصالحين تتداعى صفات الشر في المفسدين، فهم يبدؤون من الحلف ولكنهم لا ينتهون عند الاعتداء والإثم بل يتسافلون بعد ذلك إلى صفات سيئة أخرى.

﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ فما العتل؟ وما الزنيم؟.

ألف: العُتُل، قالوا: إنه شخص عظيم الجثة، قبيح المنظر، ناقص الخلقة. ولعل ما ذهب إليه المفسرون كان بسببين:

الأول: بالنظر إلى تأويل الآية في (الوليد بن المغيرة) واتخاذه مقياسا لصفاته المعنوية والمادية السيئة.

الثاني: استلهامهم هذا المعنى من الحديث المأثور عن رسول الله ﷺ لما سئل عن العتل الزنيم: «**هُوَ الشَّدِيْدُ الخُلُق، الشَّحِيْحُ، الأَكُولُ الشَّرُوبِ، الوَاجِدُ** (شديد الحب) **لِلطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، الظَّلُومِ لِلنَّاسِ، الرَّحِيْبِ الجَوْفِ**». بيد أن هذه الصفات - حسب ما يبدو- ليست مقصودة بذاتها، بل هي في حقيقتها كنايات عن صفات معنوية أو مقارنات معها تتصل بأخلاق الإنسان، والشاهد على ذلك ما جاء في اللغة من جذر هذه الكلمة حيث نقرأ في اللغة: عتله: جذبه وجره، يقال: عتله إلى السجن أي دفعه بعنف[١]، وقال الله يأمر خزنة النار بعذاب الأثيم: ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[الدخان: ٤٧] أي القوه بدفع وعنف، والعتل في اللغة: الجافي الغليظ، وفي بعض الروايات قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ رَحِيْبِ الجَوْفِ، سَيِّئِ الخُلُقِ، أَكُولٌ، شَرُوبٌ، غَشُومٌ، ظَلُومٌ**»[٢]. وعن ابن مسكان عن

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج٥، ص ٣٩٤.

(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص ٤٢٣.

محمد بن مسلم قال: «قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: ﴿عُتُلِّۢ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ قال: **العُتُلّ العَظِيمُ الكُفْر**»(١).

والذي يبدو لي أن الكلمة تتسع إلى الكثير من صفات الشر والباطل، ولا يكون الإنسان عُتُلًا حتى يعظُم انحرافه كما قال الإمام الصادق صلى الله عليه وآله، وتتداعى فيه الصفات السيئة تسافلا نحو الحضيض، وذلك ما يشير إليه السياق القرآني حيث جعل (العتل) من آخر الصفات، وقال: ﴿عُتُلِّۢ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ مبينا أنها تأتي بعد اجتماع كثير من الصفات السيئة في الإنسان، فهي غاية الشر، ومجمع الأخلاق الدنيئة.

بـاء: الزنيم.. هو اللصيق والمزنم اللاحق بقوم ليس منهم ولا هم يحتاجون إليه فكأنه فيهم زنمة، وسمي الدعيُّ زنيما لأنه شاذ عن المجتمع ولا ينسجم معه فكانه من غير جنسه، ولعل هذه الكلمة تتسع للعملاء الدخلاء على المجتمع الإسلامي، والمتصلين بأعدائه العاملين لمصالحهم، وما أقرب المنافقين من حقيقة الكلمة. أوليسوا في الأمة وليسوا منها ولا معها؟.

وكلمة أخيرة نقولها في الآيات: إن نهي الله عن الطاعة للذين مر ذكرهم هو نهي عن اتخاذهم بطانة للقيادة وأعضاء في جهازها الديني والسياسي، لما في ذلك من أخطار عظيمة على واقع الأمة ومستقبلها، وعلى مسيرة القيادة الفكرية والإيمانية والسياسية، ومكانتها الجماهيرية في المجتمع.

[١٤] ويبين السياق جذور الصفات السيئة عند المنافقين وهما اثنان:

الأول: الافتتان بالدنيا. وقد ذكر الأموال والأولاد من زينة الدنيا لأنهما غاية ما فيها، والمال لا يقصد به الدينار والدرهم بل هو كل ما يملكه الإنسان من حطامها والمال رمزه، كما أن الأولاد لا ينحصرون في الأبناء من الصلب وحسب بل هم كل أتباع المترفين، والأولاد أقرب المصاديق في التبعية والطاعة، وهذا ما أكده الله في قوله: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾[الكهف: ٤٦]، وافتتان الإنسان بهما يعني حبه للدنيا و«**رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ حُبُّ الدُّنْيَا**»(٢) كما قال الإمام الصادق عليه السلام، أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**حُبُّ الدُّنْيَا أَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَأَوَّلُ كُلِّ ذَنْبٍ حَرَامٍ**»(٣).

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ﴾ يعني أن أصل صفات المنافقين والمترفين الذين نهى الرسول

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٩، ص٩٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٧.
(٣) مجموعة ورام: ج٢، ص١٢١.

عن طاعتهم والتي ذكرها القرآن في الآيات السابقة (الحلف والمهانة والهمز والنميمة ومنع الخير والاعتداء والإثم والعتالة والزنامة) كلها بالافتتان بالدنيا (المال والبنين). إذن فطريق تكامل أخلاق الخير في شخصية الإنسان، وبالتالي التسامي إلى قمة الفضيلة السامقة (أعني التوحيد) لا يكون إلا بتجاوز فتنة الدنيا بأموالها وبنيها. وليس تجاوز الفتنة بنبذ المال والأتباع، لأنها حينها يحسن البشر التصرف فيهما يكونان خير معين له على الرقي في سلم الكمال الأخلاقي والإيماني، ففي الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى الله الْغِنَى»[1]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «نِعْمَ الْعَوْنُ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ»[2]، أوليس العوز سبب التبعية، والحاجة تؤدي إلى الذل؟ ونهتدي إلى فكرة أخرى هامة حينها نربط هذه الآية بنهي القيادة عن طاعة المترفين، وهي: أن القائد قد ينخدع هو الآخر بما عندهم من حطام الدنيا (أموالا وأتباعا) فيطيعهم أو يداهنهم طمعا فيهما أو خشية منهما، ويجب عليه أن يتجاوز هذه العقبة بالتوكل على ربه والرغبة فيما عنده.

[١٥] **الثاني**: نبذ رسالة الله وراء ظهورهم. وما هي رسالة الله؟ إنها الحق والفضيلة، وحيث رفضوها واتبعوا أهواءهم وشهواتهم فقد اختاروا الباطل على الحق، والرذيلة على الفضيلة ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي أنها قيم قديمة لا تنسجم مع الواقع المعاصر، فهي أساطير تشبه ما يسطِّره الأولون بخيالاتهم من القصص البعيدة عن واقع الحياة وحقائقها، وهذه من طبيعة الإنسان حينها يتكبر ويعاند لا يبحث عن صحة الفكرة، ولا كونها حقًّا أم باطلا، وإنما يبحث قبل ذلك وبعده عن التبرير بغض النظر عن سلامته.. فالمهم أن يقدِّم عذرا مبررا، ولكن هل درس المترفون رسالة الله دراسة موضوعية عقلانية أوصلتهم إلى هذا الحكم، أم أنهم وجدوها لا تتفق مع أهوائهم، ووجدوا الرسول لا يداهنهم ولا يطيعهم فقالوا ذلك؟ بلى؛ إنهم ربطوا الرسالة بمصدر بشري: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ولم يربطوها بالله لكي يهربوا من مسؤولية الحق، ولكن هل يصير الحق باطلا بمجرد أن يقول أحد إنه أسطورة أو باطل؟ كلا.. وهكذا لا تغيِّر أباطيل المترفين من حقيقة الرسالة شيئا أبدا، ودليل ذلك أنهم لن يفلتوا من الجزاء.

[١٦] بل سيتأكد لهم يوم الجزاء أن الرسالة حقائق واقعية عندما يجازيهم الله ويعذبهم، وهذا ما يوضح لنا العلاقة بين قول المترفين أن الرسالة أساطير الأولين وبين قول الله مباشرة: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ والوسم: العلامة التي يعرف بها الشيء، ويقال للكي وسما لأن العرب كانت تحمي حديدة تكوي بها الدواب لتكون فيها علامة مميزة، والميسم هو آلة

(١) الكافي: ج٥، ص ٧١.
(٢) الكافي: ج٥، ص٧٢.

الوسم، وإن المترفين لَيُكْوَون يوم القيامة بمياسم خزنة النار، التي تترك عليهم علامة يعرفهم بها الخلائق فيُفتضحون ويعيبونهم على أفعالهم وذنوبهم الدنيئة. وقد نستوحي من هذه الآية أن الإنسان وحتى المترف لا يعترف وهو يمارس الذنب كالهمز والنميمة ومنع الخير أنه على الباطل، بل يُخفي الحقيقة بشتى الوسائل والمبررات عن الآخرين، ولذلك كان من جزائه في الآخرة الفضيحة بالوسم على الخرطوم، فما هو الخرطوم؟.

في اللغة: خراطيم القوم ساداتهم وأبرزهم، يسمى بذلك الأنف، ويستعمل خصوصا للفيل، وقيل للأنف خرطوما لأن الوجه أبرز ما في الإنسان، والأنف أبرز ما في الوجه، وربما وصف القرآن أنوف المترفين بالخراطيم (أنوف الأفيال الطويلة) لأنهم عادة ما يشمخون بها على الناس استطالة وتكبرا، حتى لتكاد تطول لو أمكنها. وقد تمحورت كنايات العرب عن التكبر حول الأنف، ويقولون: شمخ بأنفه، وأرغم الله أنفه، وأتى برغم أنفه[1]، وحيث يعذبهم الله بالوسم على أنوفهم فذلك إهانة لهم باعتبارها مقياس العزة والتكبر، يقال: أعز الله أنوفهم إذا رفع القوم شأنا. ولعل الكلمة تتسع إلى اللسان الذي يحلفون به، ويهمزون به، وينمون، ويمنعون الخير، ويحاربون به الرسول والرسالة، وما إلى ذلك من سائر المعاصي التي يلعب اللسان فيها دورا رئيسيًّا، وإنما يطيل الله أنوفهم أو ألسنتهم في الآخرة لتستوعب بمساحتها قدرا أكبر من العذاب.

قصة أصحاب الجنة

[١٧-٢٠] ويشبّه القرآن واقع المترفين مذكّرا بقصة أصحاب الجنة، لأنهم كهؤلاء افتتنوا بزينة الحياة الدنيا فاتبعوا الأهواء وخالفوا الحق واستكبروا على المحرومين، لولا أنهم بعد طائف من الله عليها اكتشفوا خطأهم وبادروا إلى التوبة خشية العذاب الأكبر في الآخرة. قال ابن عباس: «إنه كان شيخ كانت له جنة، وكان لا يدخل بيته ثمرة منها ولا إلى منزله حتى يُعطي كل ذي حق حقه، فلما قُبِض الشيخ وورثه بنوه وكان له خمسة من البنين، فحملت جنتهم في تلك السنة التي هلك فيها أبوهم حملا لم يكن حملته قبل ذلك، فراحوا الفتية إلى جنتهم بعد صلاة العصر، فأشرفوا على ثمرة ورزق فاضل لم يعاينوا مثله في حياة أبيهم فلما نظروا إلى الفضل طغوا وبغوا، وقال بعضهم لبعض: إن أبانا كان شيخا كبيرا قد ذهب عقله وخرف، فهلموا نتعاهد ونتعاقد فيما بيننا ألَّا نعطي أحدا من فقراء المسلمين في عامنا هذا شيئا حتى نستغني وتكثر أموالنا ثم نستأنف الصنعة فيما يستقبل من السنين المقبلة، فرضي بذلك

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٢٢.

منهم أربعة وسخط الخامس وهو الذي قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾. فقال الرجل يا بن عباس كان أوسطهم في السن؟ فقال: لا، بل كان أصغر القوم سنا وكان أكبرهم عقلا، وأوسط القوم خير القوم، والدليل عليه في القرآن إنكم يا أمة محمد أصغر الأمم وخير الأمم قال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ فقال لهم أوسطهم: اتقوا الله وكونوا على منهاج أبيكم تسلموا وتغنموا، فبطشوا به فضربوه ضربا مبرحا فلما أيقن الأخ أنهم يريدون قتله دخل معهم في مشورتهم كارها لأمرهم غير طائع، فراحوا إلى منازلهم ثم حلفوا بالله أن يصرموه إذا أصبحوا ولم يقولوا إن شاء الله، فابتلاهم الله بذلك الذنب وحال بينهم وبين ذلك الرزق الذي كانوا أشرفوا عليه»[١].

ولعل في القصة إشارة إلى أنه تعالى أجرى السنة نفسها على المترفين أو طالهم منه شيء من العذاب في الدنيا، وفي رواية أبي الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام تأكيد لذلك، قال: «إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ ابْتُلُوا بِالْجُوعِ كَمَا ابْتُلِيَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ»[٢]، وإذا لم يكن أهل مكة بأجمعهم فلا أقل مصاديق الآيات السابقة كالمغيرة وآخرين ممن نزلت في شأنهم يومذاك. قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي اختبرناهم بالثروة بمثل ما اختبرنا أصحاب المزرعة ومادامت السنن الإلهية في الحياة واحدة فيجب إذن أن يعتبر الإنسان بالآخرين سواء المعاصرين له أو الذين سبقوه، وأن يعيش في الحياة يتتلمذ فإنها مدرسة وأحداثها خير معلم لمن أراد وألقى السمع وأعمل الفكر وهو شهيد، وبهذه الهدفية يجب أن نطالع القصص ونقرأ التأريخ، فهذه قصة أصحاب الجنة يعرضها الوحي لتكون أحداثها ودروسها موعظة وعبرة للإنسانية.

والقرآن في عرضه لهذه القصة الواقعية[٣] لا يحدثنا عن الموقع الجغرافي للجنة هل كانت في اليمن أو في الحبشة، ولا عن مساحتها، ولا عن نوع الثمرة التي أقسم أصحابها على صرمها، لأن هذه الأمور ليست بذات أهمية في منهج الوحي، إنما المهم المواقف والمواعظ والأحداث المعبرة سواء فصَّل العرض أو اختصر وأوجز.

﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي أول الصباح، وخلافا لعادة الفلاحين الذين يصرمون بعد طلوع الشمس، وذلك لكيلا يعلم المساكين بالأمر فيحضرون طلبا للمعونة، ويظهر أنهم تعاقدوا على ذلك ليلا. والصرم أصله القطع، يقال: تصارم القوم إذا تقاطعوا وهجر بعضهم بعضا، وسيف صارم يعني شديد القطع، والرجل الأصرم الذي قطع طرف أذنيه، وصرم

(١) تفسير القمي: ج ٢، ص٣٨١.
(٢) تفسير القمي: ج ٢، ص٣٨٢.
(٣) أقول: (واقعية) لأن بعض المفسرين والذين درسوا القصص القرآنية حاولوا تصويرها بأنها قصص خيالية وهمية وضعها الله لتكون وسيلة لتوضيح أفكار القرآن، و ليس في ذلك أيّ مقدار من الصحة.

النخل إذا قطع عروقها.. ولعل في الآية إشارة إلى نوع شجرة الجنة بأنه مما يُصرم كالنخل والعنب وليس مما يحصد كالحنطة أو يجنى كالفاكهة. والقسم هو غاية العزم والإصرار. ولعلهم إنما تحالفوا وتعاقدوا لكيلا ينفرد بعضهم بإعطاء شيء للفقراء أو بإفشاء سر مؤامرتهم حيث يبدو أن بعضهم كان مخالفا لمثل هذه العملية وهو أوسطهم. ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ و تنطوي هذه الآية على معنيين:

المعنى الأول: الاستثناء بمعنى أخذ مشيئة الله والمتغيرات بعين الاعتبار، فإنه نهى سبحانه ألّا يعلق أحد عزمه وقراره بمشيئته تعالى فقال: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤] وهذه حقيقة علمية واقعية أن الإنسان العاقل حينما يخطط لأمر ما يجب أن يضع في فكره الاحتمالات الممكنة التي قد يواجهها في المستقبل، ولقد أثبتت التجارب العلمية ما نعايشه يوميًّا من احتمالات الخطأ ومخالفة ما نخططه عما يقع فعلا، مما يكشف أمرين:

الأول: جهلنا بكل الحقائق التي قد تقع.

الثاني: أن هناك إرادة فوق القوانين والأنظمة الواقعية يمكن أن تخرقها وتخرب الحسابات والخطط في أية لحظة بحيث لا يملك الإنسان إلا الاستسلام لها، أو يكون قد استعد للأمر سابقا ووضع الخطط المناسبة، وتعرفنا البصائر الإسلامية بتلك الإرادة أنها مشيئة الله عز وجل.. يقول الإمام علي عليه السلام: «**عَرَفْتُ الله سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ وحَلِّ الْعُقُودِ ونَقْضِ الْهِمَمِ**»[1]، وما أكثر البحوث الفلسفية التي تفتح هذه الآية آفاقها أمام المتدبر، والتي خاض فيها المفسرون والفلاسفة.

المعنى الثاني: الاستثناء بمعنى الاقتطاع والعزل من الثمر للفقراء والمساكين.

ولقد أغفل أصحاب الجنة قول: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ كما عقدوا العزم بالأيمان المغلظة ألّا يعطوا حتى فقيرا واحدا شيئا مما يصرمون، ولكن هل أفلحوا في أمرهم؟ كلا.. ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ قبل حلول موعدهم الذي تعاقدوا على أن يهبوا فيه للصرم (أول الصباح)، وما يدريك لعلهم ناموا أول الليل طمعا في الجلوس مبكرين. بلى؛ إن الله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ما كان ليغفل عن تدبير خلقه وإجراء سننه في الحياة، فقد أراد أن يجعل آية تهديهم إلى الإيمان به والتسليم لأوامره حيث أمر بالاستثناء (إن شاء الله) وبالإنفاق على المساكين، وأن يعلم الإنسان أن الجزاء حقيقة واقعية وأنه نتيجة عمله. والطواف هو المرور

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٢٥٠.

بالشيء وحوله، والطائف الذي يقوم بذلك الفعل، ولقد قال المفسرون: إنه العذاب، وقد يكون تأويله بالريح المدمرة، أو طوفان الرمل، أو الماء العاتي، أو الجراد تأكل الثمر وكأنها تصرمه، ولعل الأخير أقرب الاحتمالات.. يقال: طاف الجراد إذا ملأ الأرض كالطوفان. ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ و كأن أحدا سبقهم إلى صرمها، وهكذا يواجه مكر الله مكر الإنسان فيدعه هباء منثورا ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وإذا استطاعوا أن يخفوا مكرهم عن المساكين فهل استطاعوا أن يخفوه عن عالم الغيب والشهادة؟ كلا.. وأرسل الله طائفة ليثبت لهم هذه الحقيقة، وربما جعله ليلا ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ لتكون القضية أعمق أثرا حيث يعلمون أن الجزاء من جنس العمل، فكما أنهم أخفوا مكرهم عن أولئك كذلك أخفى الله مكره عنهم فما جعلهم يعاينونه.

[٢١-٣٣] ولأن من طبيعة الإنسان أنه سريع الانتباه من الرقاد عند انتظار أمر هام، فإنهم كانوا -فيما يبدو- أيقاظا قبيل الصبح ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ نادى بعضهم بعضا، وأجمعوا بالفعل على ضرورة التبكير في الذهاب إلى الجنة وصرمها، واستحث بعضهم بعضا ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ أي إذا كنتم تريدون الوقت الأنسب للصرم من دون استثناء فلا أنسب من الغدو، وهو السعي أول الصبح. وأصل الحرث من قلب الأرض بآلة الحراثة، وحرثكم يعنون الذي أتعبتم أنفسكم حتى حرثتموه، وفي ذلك استثارة للذات، بأنكم الذين أجهدتم أنفسكم وحرثتم الأرض وزرعتموها وناضلتم منذ البداية حتى أثمرت.. فأنتم وحدكم إذن الذين يجب أن يكون لكم النتاج لا يشارككم فيه أحد من الناس.

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ في سرعة متأنية محفوفة بالحيطة والحذر من الفضيحة، لكي ينجزوا المهمة لو أمكنهم قبل استيقاظ المساكين ورواحهم إلى حوائجهم. والتخافت، نقيض الجهر والإعلان، فهو التسار، ويبدو أنهم يدعون بعضهم إلى المزيد من الكتمان والتخفي. أو كانوا في أثناء انطلاقهم إلى الصرم يتناجون الحديث والتآمر. وعملوا المستحيل من أجل همهم الشاغل الذي تخافتوا به طيلة الطريق إلى جنتهم، وهو إخفاء الأمر على المعوزين حتى لا يسألوهم شيئا مما يصرمون. ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ والمسكين هو المعوز الذي لا يملك حتى قوت يومه، والآية تدل على مدى شحهم إذ لا يريدون أن يتعطفوا حتى على واحد ولو كان من أحوج الناس! وأكدوا على ذلك اليوم بالذات لأنه يوم الصرم والقسمة، فلا يضرهم أن يدخل المساكين بعده إذ لا ثمر ولا قسمة، والآية تعكس ظاهرة كانت شائعة في ذلك المجتمع وهي أن المساكين والمعوزين يدخلون المزارع والبساتين في مواسم الجني والحصاد والصرم، ولعلهم كانوا يحاولون التعرف على اليوم الذي يبادر فيه الملاك إلى ذلك فيطوفون عليهم في حقولهم طمعا في المساعدة والإعانة، ولعل والد الإخوة الخمسة (أصحاب الجنة) الذي توفي

وأورثهم إياها كان قد عَوَّد المساكين على المعونة يوم الصرم من كل عام، وقد أخذ أصحاب الجنة ذلك بعين الاعتبار في خطتهم واحتاطوا للأمر بحيث إنهم من الناحية الظاهرية ما أغفلوا شيئا.

﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ في ظنهم، إذ أحكموا خططهم وكيدهم من كل الجوانب. واختُلف في معنى الحرد فقيل: هو القصد[1]، فالمعنى غدوا على قصدهم الذي قصدوا أي الصرم والمنع قادرين عند أنفسهم، وقيل: الغضب[2]، وقيل: المنع[3]، وقيل: الجد[4]. ويبدو لي أنه المنع المقصود الجاد والمُشْرَّب بالحقد والغضب على المساكين والنفور منهم. وإنما تصوروا أنفسهم قادرين على ذلك لأنهم أخذوا بكل الأسباب التي من شأنها إيصالهم إلى الهدف، وغاب عنهم -بسبب ترفهم وضعف إيمانهم- أن قدرة الله المطلقة فوق كل شيء، وأنه وحده الذي لا يمنعه مانع. ومشوا نحو جنتهم وكلهم ثقة بأن ما أرادوه سوف يتحقق.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ عن الحق، وأن شيئا لا يصير إلا أن يشاء الله، وأنه يعلم حتى السر، وأن في الإنفاق في سبيل الله خيرا عظيما وبركة، وقيل: ضالون أي أننا ضيعنا الطريق وصرنا إلى غير جنتنا إذ لم يصدقوا أنفسهم أن الأرض التي تركوها أمس بأفضل حالة قد تحولت إلى بلقع فزعموا أنهم قد ضلوا الطريق إلى أرضهم إلى غيرها، ولكن كيف يضيع الإنسان أرضه؟! كلا.. إنها أرضهم بعينها، وإنهم ضالون عن الحقيقة وليسوا ضالين عن جنتهم، وإنهم حرمهم الله بمشيئته وحكمته ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ و ثمة علاقة بين ضلالهم وحرمانهم وهي أن بلوغ الإنسان تطلعاته وأهدافه المعنوية والمادية متصل بالمنهج الذي يتبعه في الحياة، فحينما يخطئ اختيار المنهج أو يضل عن المنهج الصحيح فإنه بصورة طبيعية مباشرة سيحرم ليس من معطياته المعنوية بل حتى المادية منها، وهذا ما وقع فيه أصحاب الجنة، وفي الحديث قال الإمام الباقر عليه السلام: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُدْرَأُ عَنْهُ الرِّزْقُ**»[5].

ونستوحي من الآية بصيرة أخرى وهي: أنهم اهتدوا إلى أن الحرمان الحقيقي ليس قلة المال والجاه بالمسكنة، وإنما الحرمان والمسكنة قلة الإيمان والمعرفة بالله بالضلال. و هكذا أصبح الحادث المريع بمثابة صدمة قوية أيقظتهم من نومة الضلال والحرمان، وبداية لرحلة العروج في آفاق التوبة والإنابة، والتي أولها اكتشاف الإنسان لخطئه في الحياة. وهكذا نهتدي

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٢٥، الكشاف: ج٣، ص٥٩١، البصائر: ج٤٨، ص٢١٧.
(٢) المنجد: مادة حَرَدَ.
(٣) مفردات غريب القرآن: ص١١٣.
(٤) الدر المنثور: ج٦، ص٢٥٣.
(٥) الكافي: ج٢ ص٢٧١.

إلى أن من أهم الحكم التي وراء أخذ الله للناس بالبأساء والضراء وألوان من العذاب في الدنيا هي تصحيح مسيرة البشر، بإحياء ضميره واستثارة عقله من خلال ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢]. فما أحوجنا نحن المسلمين إلى أن نتأمل قصة هؤلاء الإخوة الذين اعتبروا بآيات الله وراجعوا أنفسهم بحثا عن الحقيقة لما رأوا جنتهم وقد أصبحت كالصريم، فنغيِّر من أنفسنا ليغير الله ما نحن فيه، إذ ما أشبه تلك الجنة وقد طاف عليها طائف من الله بحضارتنا التي صرمتها عوامل الانحطاط والتخلف. ولو أنهم استمعوا إلى نداء المصلحين لما ابتلوا بتلك النهاية المريعة.. وهكذا كل أمة لا تفلح إلا إذا عرفت قيمة المصلحين المجاهدين، فاستمعت إلى نصائحهم، واستجابت لبلاغهم وإنذارهم. ولهذا الدور تصدى أوسط أصحاب الجنة، فعارضهم في البداية حينما أزمعوا وأجمعوا على الخطيئة، وذكَّرهم لما أصابهم عذاب الله بالحق، وحمَّلهم كامل المسؤولية، واستفاد من الصدمة التي أصابتهم في إرشادهم إلى العلاج الناجح.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ وهو يذكِّرهم ويلومهم، ويرشدهم في آن واحد: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي إن التسبيح هو السبيل لعلاج الضلالة والحرمان، فهو إذن ليس كما يتصور البعض مجرد قول الواحد: سبحان الله، إنما هو شريعة نظام ومنهجية حياة، تتسع لعلاج كل انحراف ومشكلة لدى الإنسان، وهدايته إلى الحق والصواب في كل ميدان وجانب، حيث إنه بالتسبيح يقدس المرء ربه فلا ينسب الذنب إليه وإنما إلى نفسه، ولهذا يأتي التسبيح عند الاعتراف بالذنب، مثل قوله سبحانه في قصة ذي النون وعلى لسانه: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] والذي ذهب إليه البعض[1] من تفسير للتسبيح هنا بأنه الاستثناء (بالعطاء للمساكين، وقول إن شاء الله) أو التوبة بعد الذنب صحيح ولكنه من المصاديق والمفردات التي إلى جانبها الكثير مثيلاتها.

وتتساءل: من هو أوسطهم؟.

قال أكثر المفسرين أنه أوسطهم في السن، وذلك ممكن إلا أن الأقرب للمعنى أنه أعدلهم وأرجحهم عقلا، ذلك أن السن في مثل هذه القضية ليس بذي أهمية حتى يذكر، وإلى ذلك ذهب ابن عباس وقد سأله سائل: «يَا بْنَ عَبَّاسٍ كَانَ أَوْسَطَهُمْ فِي السِّنِّ؟ فَقَالَ: لَا، بَلْ كَانَ أَصْغَرَ الْقَوْمِ سِنّاً وَكَانَ أَكْبَرَهُمْ عَقْلَا، وأَوْسَطُ الْقَوْمِ خَيْرُ الْقَوْمِ، والدَّلِيلُ عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ: إِنَّكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ أَصْغَرُ الْقَوْمِ وخَيْرُ الأُمَمِ قَالَ اللهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾»[2]، وإنما يكتشف

(١) روح المعاني في تفسير القرآن الكريم: ج١٥، ص٣٧.
(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٣١٨، مستدرك الوسائل: ج٧، ص٩٧.

الإنسان الطريق السوي باعتداله في العقل والبصيرة لا بمقدار عمره، وحيث كان أخوهم هذا صاحب بصيرة نافذة فقد سبقهم إلى معرفة الحق ونصحهم، وقرأ النتائج المستقبلية قبل وقوعها، وكذلك يكون أولو الألباب من القادة الصالحين.

ومن موقف أوسط أصحاب الجنة نهتدي إلى بصيرة هامة ينبغي لطلائع التغيير الحضاري وقادته أن يدركوها ويأخذوا بها في تحركهم إلى ذلك الهدف العظيم، وهي: أن المجتمعات والأمم حينما تضل عن الحق وتتبع النظم البشرية المنحرفة تصير إلى الحرمان، وتحدث في داخلها هزة عنيفة (صحوة) ذات وجهين:

الأول: القناعة بخطأ المسيرة السابقة.

الثاني: البحث عن المنهج الصالح، وهذه خير فرصة لهم يطرحون فيها الرؤى والأفكار الرسالية ويوجهون الناس إليها. وإنها لَظُروف أمتنا الإسلامية التي جربت اليمين واليسار وتعيش الآن مخاض العودة إلى الخيار الإلهي الأول بروح عطشة لتلقي الرسالة والطاعة لحملتها والقادة إليها. وكذلك وقف أصحاب الجنة من أوسطهم ودعوته للعودة إلى الحق: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، فالقيم الإلهية إذن صحيحة لا خطأ فيها لأنها تتنزل من عند الله صاحب الكمال المطلق، إنما الخطأ والداء في الإنسان الذي يظلم نفسه بالانحراف عن الحق. وكذلك ينبغي للأمة الإسلامية أن تقيِّم واقعها وهي تبحث عمن هو المسؤول عن تخلفها، هل الإسلام أم المسلمين؟.

وهكذا سبَّحوا ربهم لكيلا يُلقوا بمسؤولية خطئهم على الأقدار، لأن ذلك كان يعيق انطلاقتهم نحو التغيير والإصلاح ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ يلقي كل واحد المسؤولية على غيره، وهذه من الطبائع البشرية أن يدعي الإنسان المكاسب ويتهرب من التبعات والنكسات، وعلى ذلك مضى المثل: «الهزيمة يتيمة وللانتصار ألف أب»، ولكن أصحاب الجنة تجاوزوا هذه العقبة أيضا، واعترفوا جميعهم بالمسؤولية إيمانا منهم بأنها الحقيقة الواقعية، والسبيل النافع الوحيد للتغيير الجذري الشامل ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أي الويل (العذاب) لنا وبسببنا إذ طغينا، والطغيان أعظم من الظلم لأنه تجاوز الحد فيه، وهكذا يجب أن يعترف الإنسان (فردا وأمة) بحجم الخطيئة الواقعي دون تصغير يدعو إلى التبرير، ولا تضخيم يبعث روح اليأس من الإصلاح، بل اعتراف الشجعان الذي ينفخ في النفوس روح التوبة النصوح إلى الله، ورجاء المتطلعين إلى الإصلاح والخير ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ وبالرغبة إلى الله يتجاوز الإنسان فتنة الدنيا وأسرها الذي يقع فيه بالرغبة الطاغية إليها.

وفي نهاية القصة يضع القرآن أمامنا أعظم المواعظ والعبر التي تهدي إليها وهي: ضرورة أن يتخذ الإنسان حوادث الدنيا وأحداثها علامة وآية هادية لما في الآخرة ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ قيل: يعني لو كانوا يعلمون عذاب الآخرة، وهو صحيح، والأقرب منه أن صاحب البصيرة والعلم يعرف وهو في الدنيا بإيمانه وبصيرته أن ما في الآخرة أعظم حينما يرى العذاب في الدنيا. وهنا يتضح الفرق بين صاحب البصيرة الذي يرى الحقائق بعقله (كأوسط أصحاب الجنة) وبين أصحاب الجنة الذين اهتدوا لعظمة عذاب الآخرة بما وقعوا فيه من الويل الدنيوي، أو يكون ضالا فلا يهتدي رغم الآيات والمواعظ.

ولعلنا نستوحي من عموم القصة أن بعضا من المكذبين والمترفين الذين كانوا في محيط الرسول آنذاك ترجى لهم التوبة والهداية كأصحاب الجنة، بالذات وأن الله في الآيات القادمة يدعو النبي ﷺ ألّا يتعجل كصاحب الحوت في الحكم على قومه بل يصبر لحكم الله الذي سيظهر في المستقبل فقد يتوبون كما تاب قوم يونس عليه السلام. ومن هذه الفكرة يجب على الدعاة أن يستمدوا سعة الصدر وكظم الغيظ حين يواجهون الرفض والعناد في طريق نشر الرسالة بين الناس.

فاصبر لحكم ربك

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ[1] ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ[2] مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ[3] (٤٨) لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ (٥٢) ﴾.

(١) ترهقهم: الرهق لحاق الأمر، ومنه: راهق الغلام إذا لحق بالرجال، وقال البعض: الرهق اسم من الإرهاق وهو أن يُحَمَّل الإنسان على ما لا يطيقه، ومنه: ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾.

(٢) مغرم: ما يلزم من الدين الذي يلح في اقتضائه، وأصله من اللزوم بالإلحاح، ومنه قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي لازماً ملحاً.

(٣) مكظوم: المكظوم هو المحبوس عن التصرف في الأمور، ومنه: كظمتُ رأس القربة إذا شددته، وكظم غيظه إذا حبسه بقطعه عما يدعو إليه، وكظم خصمه إذا أجابه بالمسكت.

هدى من الآيات:

في هذا الدرس تعالج الآيات أسباب التكذيب بالرسالة والتهرب من مسؤولياتها، وهي:

أولاً: الأمنيات الباطلة التي تحلم بتساوي الناس في الجزاء، الأمر الذي يبرر للمترفين عدم التصديق بالرسالة والعمل بمضامينها وتحمل المسؤولية في الحياة، ولماذا يكلف الإنسان نفسه ما دام الجزاء واحدا؟.

والقرآن بعد أن يؤكد عظيم ثواب المتقين وشديد عذاب المجرمين، يسفِّه الحكم الباطل لدى البعض بتساوي الفريقين عند الله، وذلك بأدلة وجدانية لا بد للإنسان السوي من التسليم لها.

ثم تبين الآيات أن جزاء الآخرة ليس إلا تجسدات واقعية لأعمال الإنسان التي اختارها بتمام وعيه وإرادته في الدنيا، لذلك لا يستطيع أحد سجودا يوم يكشف عن ساق الجِدِّ رغم الدعوة الإلهية له إلى ذلك، وتغطي وجهه الذلة. لماذا؟ لأنه أعرض عن السجود وقد كان في سلامة مادية ومعنوية في الدنيا، وهذه الحقيقة تبعث في وجدان المؤمنين روح المسؤولية التي يعمقها الوحي بتحذير الإنسان من أنه لو كذب بهذا الحديث فسوف يستدرجه من حيث لا يعلم، الأمر الذي يصير به إلى سوء العذاب، ولا يكون له في الآخرة من خلاق، وذلك من متين كيده عز وجل الذي يحسبه المترفون خيرا.

ثانياً: الموقف الخاطئ من الرسالة والاعتقاد بأنها مغرم، لما فيها من مسؤولية وبالذات واجب الإنفاق المفروض على أصحاب الثروة، وإنها لكبيرة على المترفين الذين أسرتهم الأموال ويتضاعف حرصهم كلما فتح الله لهم أبوابا من الدنيا وأملى لهم.

ثالثاً: البطر الذي يجعل الإنسان لا يشعر بالحاجة إلى الرسول والرسالة، بل قد تراه يزعم أنه قد أعطي الغيب بيده! الآية (٤٧).

وهذه الأسباب الثلاثة ذاتها تجعل الحركة التغييرية في أوساط المترفين وفي ظل هيمنتهم حركة بطيئة وصعبة مما يوجب على كل مصلح رسالي أخذها بعين الاعتبار، فيصبر لحكم ربه، مستقيما على رسالته لا يتراجع عنها، ولا يصاب بردة فعل سلبية قد تقوده إلى تكفير مجتمعه أو هجرته، كما فعل النبي يونس بن متى عليه السلام الذي يئس من التغيير فدعا على قومه فابتُلي بالسجن في بطن الحوت، فإنه يجب على كل رسالي الصبر في طريق الرسالة وإن كان المكذبون

يكادون من الحقد والبغض يزلقونه بأبصارهم، ويمارسون ضده حربا إعلامية شعواء سلاحها الشائعات والتهم والدعايات المغرضة، الآيات (٤٨-٥١).

وكما يجب أن يستقيم الداعية على أهدافه الربانية دون يأس من إصلاح الناس، كذلك يجب ألَّا يفقد ثقته برسالته فيشكك نفسه في قيمها لعدم تجاوب الناس معه أو لإعلام المترفين والمتسلطين ضدها.

بينات من الآيات:

[٣٤-٣٨] بعد التحذير من العذاب في الدنيا ومن العذاب الأكبر في الآخرة يرغبنا السياق في الجزاء الحسن الذي أعد للمتقين دون سواهم، وذلك بالتأكيد على أنه لا يشمل كل من هب ودب، لأن للجزاء الإلهي مقاييس دقيقة حيث يتناسب بنوعه وقدره ودرجات الناس الإيمانية وأعمالهم الصالحة ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، ولم يقل: (نعيم)؛ لأن الألف واللام يجعلان الكلمة أوسع معنى، فبينما يدل قولنا: (نعيم) على جزء منه يتسع النعيم لتمام المعنى مما يتناسب ومعالجة السياق لموضوع الترف حيث يسمو بالمؤمنين عن فتن الدنيا ويفتح أمامهم أفقا من النعيم الذي لا ينتهي عند حد ولا زمان فتتصاغر عنده الدنيا، فلا يجدون ضيرا لأنها زويت عنهم، لأن الآخرة خالصة لهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وبهذا تتعادل الصورة في أذهان المتقين بأنهم أن لم يملكوا في الدنيا من متاعها فالآخرة خالصة لهم. وبيان هذه الحقيقة (أن الجنات للمتقين) يمهد القرآن لإبطال أماني المجرمين بتساويهم مع المؤمنين في الجزاء، وتلك الأماني عامل من عوامل تكذيب المترفين الرسالة يعالجها القرآن الكريم في هذا السياق، وهي التالية:

أولاً: الأمنيات الباطلة بالتساوي في الجزاء مع المؤمنين

هل يتساوى الصالح والطالح؟ كلا.. إنه مرفوض عند كل عاقل ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾، والمسلم هو الذي سلَّم نفسه لله بتطويعها وفق أوامره. والسؤال: لماذا قدم المسلمين على المجرمين في حين يفترض العكس باعتبار السياق ينفي مزاعم المجرمين بأنهم متساوون مع المتقين في الثواب؟ ولكن المتدبر حينما يمعن النظر يهتدي إلى لطائف بلاغية لترتيب الكلمات في الآية:

١- أنه تعالى في نهاية قصة أصحاب الجنة أكد حقيقة العذاب وأنه في الآخرة أكبر، مما

يرجح كفة الرهبة في النفس، فجاءت الآيتان (٣٤-٣٥) لتحقيق المعادلة عند المؤمنين بالتأكيد على أن لهم جنات النعيم، وأنهم لا يعذبون كالمجرمين، ويرفع الله رجاء المتقين إلى أقصاه حينما ينفي تساوي المجرمين مع المسلمين الذين هم أقل شأناً من المؤمنين فكيف بالمتقين الأرفع درجة حتى من المؤمنين؟ ومن جانب آخر يزيد من يأس المجرمين من الثواب حينما لا يفسح مجالاً حتى لمجرد الاحتمال بأنهم يمكن أن يتساووا مع المسلمين بتقديمهم في الآية هكذا: (المجرمين كالمسلمين) وجعل مدارها حول الثواب بدل العقاب، فإن الآية على حالها تجعل العذاب مسلماً به للمجرمين ويبقى التساؤل عن مصير المسلمين هل يتبعونهم فيه أم لا؟.

٢- إن الجزاء في واقعه العمل ذاته الذي يقوم به كل إنسان خيراً أو شراً، ولو أنه سبحانه أعطى للمجرمين جنات النعيم كما يعطي المسلمين له لكان الأمر من أحد جهاته جعلاً لهم كالمجرمين، وكأنهم لم يعملوا ما يتميزون به عنهم، بل وكأنهم عملوا أعمالهم الإجرامية التي ساوت المصير والجزاء بين الفريقين، وهذا ما ينكره كل عاقل سليم، ويستنكره السياق: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يعني على أي أساس ومنهج؟ ولا يملك المترفون المجرمون أمام هذا المنطق إلا التسليم له ونبذ الأمنيات الباطلة بالعودة إلى الحق وتحمل المسؤولية في الحياة بوصفها ضرورة وجدانية وعقلية. وإنه ليضعهم أمام واحدة من إجابتين: فإما أن يحكموا بالتساوي، وهذا ما يرفضه كل عاقل، وإما أن يحكموا بالاختلاف وأن الثواب للمسلم والعذاب للمجرم (كما يحكم العقلاء) فلا بد إذن أن يضربوا بظنونهم عرض الحائط، ثم كيف يتمنون على ربهم ذلك الحكم الجائر وهو المنزه عن الظلم والجهل؟ وما أظهر تسفيه هاتين الآيتين لبعض الفلسفات الصوفية المفرطة في الرجاء، التي يستبعد دعاتها أن يعذب الله أحداً من الناس وهو الرؤوف الرحيم، بل ويفسرون آيات العذاب القرآنية على أنها لمجرد التخويف وسوق الناس نحو العمل بالحق ليس إلا!.

إن أماني المترفين بالتساوي مع المؤمنين عند ربهم من العوامل الخطرة التي تدعوهم إلى التكذيب بالحق والحياة اللامسؤولة، والتي تعيق فيهم أي سعي جاد، بل وتبعث فيهم أسباب الإجرام. وأي قيمة تبقى للأحكام والحدود الإلهية إذا كفر الإنسان بحقيقة الجزاء وبأنه من جنس العمل؟! وأي حافز للالتزام بأوامر الله، والارتداع عن نواهيه يظل إذا كفرنا بالآخرة أو فصلنا بينها وبين الدنيا؟! ولذلك يتصدى السياق حتى الآية (٤٥) للرد على تلك الأماني والظنون.. وهكذا بعد أن أوضح أنها لا تستند إلى أي دليل وجداني ولا عقلي ينفي استنادها إلى الوحي المصدر الثاني للعلم الحق، بل حتى إلى كتاب معتبر لدى العقلاء.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ والكتاب الذي يدرسه الإنسان هو

العلم الثابت الذي يعتمده منهجا في الحياة فيعكف على دراسته بالبحث لفهمه وتطبيق ما فيه، وليس ثمة كتاب إلهي ولا حتى بشري معتبر لدى الناس يساوي في قوانينه وقيمه بين البريء والمجرم مهما اختلفت الكتب البشرية والقوانين الوضعية في تحديد مصاديق المجرم، لأن الكتاب الذي يخالف كل قيم العرف لن يكون مقبولا عند الناس، وإذا يحكم المترفون بالتساوي عند الله بين المجرم والمسلم فإنما ينطقون من الأهواء والأماني التي لا اعتبار لها عند العرف العام. و هذه الآية تستثير فطرة الإنسان ووجدانه وتستشهد بما تعارف عليه الناس على اختلاف مذاهبهم وقومياتهم، كما الآيات القرآنية الأخرى التي تفرق بين المسلمين والمجرمين كالآية (٣٥)، وبين الجاهل والعالم[١]، وبين الأعمى والبصير[٢]، وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار[٣].

والآية (٣٨) تكشف عن حقيقة يمكن لكل إنسان أن يلمسها في واقع المترفين المستكبرين السياسي والاجتماعي، وهي أنهم لا يريدون أن تحكم شريعة أو نظام قانون أنى كان نوعها، فحتى الدستور الذي يضعونه بأنفسهم، وحسب القياسات التي يختارونها لحكمهم تراهم يتهربون منه، ولا يرضون به حكما بينهم وبين الناس. لماذا؟ لأن ذلك الدستور مهما كان ظالما ومنحرفا لا بد أن ينطوي على نسبة من القيم حتى يكون مقبولا عند العرف العام، وتلك النسبة تدين طائفة من تصرفاتهم فلا يريدونها، وهكذا كانت مخالفة حكم العقل والقانون من أظهر سمات المجرمين، كما أن تحكيم الهوى والشهوات من أعظم بواعث الجريمة. ولعلنا نهتدي من ذلك إلى أن من عظمة الإسلام أن فيه قيما أساسية ثابتة لا يمكن تبديلها وتحويلها، بل لابد أن تبقى هي الميزان في المجتمع، وهذه القيم لا يعطي الله لأحد (من رسوله وإمام أو حاكم شرعي أو دولة) الحق في خرقها تحت أي عنوان، ولأي سبب بالغ ما بلغ، والحكمة في ذلك أنها فوقهم جميعا، وأن دورهم هو التنفيذ وليس التشريع، كما أن الرسالة تفقد مصداقيتها وقيمتها لو بدلت فيها هذه القيم. بلى؛ إن المصلحة العامة قد تقتضي تغيير بعض القوانين ولكن ضمن إطار قانوني معين.

[٣٩-٤٣] وبعد أن نفى السياق أي شاهد من عقل أو نقل (كتاب) يؤيد مساواة المسلمين والمجرمين، ينفي أن تكون للمجرمين أيمان على الله تقتضي براءتهم من النار وتحللهم عن أية مسؤولية تجاه أعمالهم ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ﴾، والأيمان البالغة إما بمعنى التامة من جميع جهاتها وشروطها، نقول: بلغ الصبي إذا تمت رجولته واستوى، أو بمعنى الأيمان التي لا تنقض والتي تتصل.. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، وتقضي أن يكون الأمر كما يقولون بضرس قاطع أن

(١) الزمر: ٩ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.
(٢) فاطر: ١٩ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.
(٣) الحشر: ٢٠ ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

لهم براءة من العذاب ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ فأنتم مفوضون من قبل الله؟! وهذا لا دليل عليه، فلو كانت ثمة يمين حلف بها الله فإنها ستكون في رسالته، والحال أن فيها أيمان تناقض أيمانكم المدعاة كقسمه بأن يملأ جهنم من المجرمين. ولعل قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يهدينا إلى أنهم في الظاهر يحكمون رقاب الناس في الدنيا ولكن الوضع يختلف تماما في الآخرة إذ لا تبقى لهم أية سلطة، فهنالك الولاية لله الحق وله الحكم، بل في الدنيا أيضا ليس بالضرورة أن يكون لهم ما يتمنون ويحكمون، لأنهم لا يقدرون على شيء إلا بإذن الله القاهر فوق عباده.

بلى؛ هناك وعد عند الله للمؤمنين بالمغفرة والجزاء الحسن إذا ماتوا مؤمنين، وليس إلى يوم القيامة دون شرط أو قيد. وما يتوهمه بعضهم من أن السلطان ظل الله في الأرض، أو أنه يُعفى عن مسؤوليات أفعاله، لا يعدو مجرد تمنيات تفرزها الأهواء، وهي تتبخر عند الحجة العقلية. من هنا يتحدى السياق أن يملك أحد الشجاعة على تبني ذلك القول والدفاع عنه والمجادلة بشأنه.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ والزعيم: الكفيل الذي يقوم بالأمر ويتصدى له، ومنه زعيم القوم، ولا أحد يتكفل هذا الأمر لأنه لا يعتمد على دليل منطقي، إنما ينطلق من الخيال والظن، وهذه الآية تتشابه وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩].

ويمضي السياق قدما في تسفيه الزعم الواهي بتساوي المجرمين مع المسلمين، حيث ترى كثيرا من المجرمين والمذنبين يتكلون على الشركاء والأنداد، ويزعمون أنهم ينقذونهم من جزاء أفعالهم المنكرة، ويزعمون أنهم يستطيعون التأثير في حكم الله بحكم الشراكة معه في الملك والتدبير، سبحانه، وهكذا تراهم يعتقدون بالشفاعة الحتمية التي تقتضي نجاتهم من العذاب يقينا بفعل تأثير الآلهة الصغار كالأصنام والملائكة والجن والأولياء الذين يتوهم البعض أنهم يتقاسمون مع الله الربوبية سبحانه وتعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ والمشركون حينما يعودون إلى وجدانهم، أو عند المواجهة العلمية بالجدال أو الواقعية حيث يجازي الله الناس، يعرفون أن لا حول للشركاء، وأنهم إنما يخدعون أنفسهم ويخادعون الآخرين إذ يتظاهرون بعقيدة الشرك، ولقد رأينا كيف أفحم نبي الله إبراهيم عليه السلام المشركين في عصره عند المجادلة ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا

تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٧].

وفي هذه النهاية القوية يتضح لنا أنه تعالى في الآية (٤١) من سورة القلم إنما طالبهم بأن يأتوا بشركائهم استثارة لوجدانهم وعقولهم للتحقيق في زعم الشركاء، باعتبار أن بطلانه لا يحتاج إلى أكثر من ذلك، فهناك مزاعم كثيرة يسترسل معها الإنسان ويعتبرها مسلمات بل مقدسات ولكن بمجرد عرضها على عقله ووجدانه والتفكير فيها بجد يتبين له مدى سخفها، وإنما كانت هذه المسلمات تستمد قوتها من التمنيات ومن الغفلة والجهل.

وإذا كان الإنسان قادرا على فضح باطل الشركاء بالوجدان والعقل في الدنيا فإن كذب كل مزاعمهم وظنونهم الباطلة يتبين بأجلى صورة في الآخرة ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ وللكشف عن الساق تفاسير أهمها:

ألف: قيل إنه ساق العرش يكشف الله عنه يوم القيامة، وقال الإمام الرضا عليه السلام: «**حِجَابٌ مِنْ نُورٍ يُكْشَفُ فَيَقَعُ الْمُؤْمِنُونَ سُجَّداً**»[1].

بـاء: وأوغل البعض في الوهم إذ قالوا إنه ساق الله سبحانه عما يصفون، ورووا عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**يَكْشِفُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ سَاقِهِ**» وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن منده عن ابن مسعود.. قال: عن ساقيه تبارك وتعالى.. وضعَّفه البيهقي[2]، ويبدو أن ذلك من أفكار المجسمة التي تسربت إلى الثقافات الدينية لدى بعض المسلمين، كما اختلطت مع الأفكار المسيحية من قبل. وقد رد الفخر الرازي ردًّا مفصلا على هذه الخرافة في التفسير الكبير[3].

جيم: وقد يكون الكشف عن الساق كناية عن أنه يوم الجد والشدة، وفي المجمع عن القتيبي: أصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى الجد فيه يشمر عن ساقه، فاستعير الكشف عن الساق في موضع الشدة.. تقول العرب: قامت الحرب على ساق، وكشفت عن ساق، يريدون شدتها.. قال الشاعر[4]:

قد شمَّرت عن ساقها فشدوا   وجدت الحرب بكم فجدوا

دال: ويمكن القول إنه كناية عن تجلي أصول الحقائق، وإنما استخدم القرآن الكشف عن

(١) بحار الأنوار: ج٤، ص٧.
(٢) الدر المنثور: ج٦، ص ٢٥٤.
(٣) التفسير الكبير: ج٣٠، ص٦١٤.
(٤) مجمع البيان: ج١٠، ص ٤٢٨.

الساق لأن ساق الشيء أصله، وعلى هذا قيل ساق الشجرة. ويوم القيامة هو يوم الكشف عن أصل الحقائق فهنالك يكشف للناس الحق الأصل وأعمالهم، قال علي بن إبراهيم: يوم يكشف عن الأمور التي خفيت[1]، ولعلنا نلمس تلويحا إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[ق: ٢٢]. إذن فيوم القيامة هو يوم سقوط الحجب عن الحقيقة ليراها الناس كما هي، وهل ترى الساق إلا حينما يكشف عنها ما يمنع الرؤية عنها؟!.

وكذلك يتضح للمجرمين بطلان حكمهم بالتساوي مع المسلمين، وأنه ليس من كتاب يؤيد ذلك، ولا يمين بالغة قطعها الله على نفسه لصالحهم، ولا شريك موجود فينفعهم يوم القيامة إن لم يكتشفوا ذلك بأنفسهم في الدنيا، فيهتدوا للحق، ويسلموا لله بدل ممارسة الجريمة حيث الفرصة قائمة لا تزال، وإلا فإن شيئا من ذلك لا ينفعهم قيد شعرة في الآخرة لأنها دار جزاء لا عمل فيها. ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ دعوة تشريعية يوجهها منادي الحق يومئذ، وتكوينية يفرضها هول الموقف وعظمة تجليات الحقيقة، وهنالك يستجيب المؤمنون لربهم بطبيعة التسليم التي كانوا عليها في الدنيا، وبفعل الخشية من مقام الله، بل لا يملك أحد من أهل المحشر إلا الاستجابة لدعوة الحق لولا أنه تعالى بحكمته يمنع المجرمين من ذلك ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ جاء في الحديث المأثور عن النبي ﷺ: «تَبْقَى أَصْلَابُهُمْ طَبَقاً وَاحِداً»[2] أي فقارة واحدة، وفي نور الثقلين عن الإمام الرضا عليه السلام: «تُدْمَجُ أَصْلَابُ الْمُنَافِقِينَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ السُّجُودَ»[3]، وبالإضافة إلى هذا المعنى الظاهري تتسع الآية لمعنى أعم وهو أن المجرمين لا يملكون يوم القيامة أية حرية، ليعلموا أن ليس لهم ما يتخيرون ولا ما يحكمون كما كانوا يظنون، وليسوا على وضعهم في الدنيا حيث أطلقوا العنان لأهوائهم فلم يراعوا حلال الله وحرامه ولا حقًا وباطلا، وبالذات أولئك الذين تسلطوا على رقاب الناس فتمادوا في الجريمة طغيانا وظلما.

ويصور لنا القرآن حالهم حيث الهوان الظاهر على جوارحهم ووجوههم، والذلة الباطنة التي تكاد تقتلهم إرهاقا في المحشر. وقد شمخوا بأنوفهم حتى كادت تستطيل مثل الخرطوم، واستكبروا وبالغوا في التظاهر بالعزة في الدنيا لأنهم في أيديهم المال والسلطة وحولهم الاتباع ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ مرسلة إلى الأسفل لا يرفعونها بين الناس لما هم فيه من ذل الموقف الذي لا يستطيعون معه حتى النظر إلى الآخرين. ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تغشاهم وتعلو وجوههم

(١) تفسير القمي: ج٢، ص ٣٨٣.
(٢) الكشاف: ج٤، ص ٥٩٥، نور الثقلين: ج٥، ص ٣٩٦.
(٣) بحار الأنوار: ج٤، ص٧.

ذلة، ويحتمل أن يكون المعنى أي تحملهم الذلة ما لا يطيقون من الأذى المعنوي، وتتعبهم كما تتعب الكلاب الصيد، يقال: أرهقه أي حمله على ما لا يطيق. و حكمة الله في منع المجرمين عن السجود بعد أمرهم به فضيحتهم في المحشر حيث يمتاز بامتحان السجود المسلم عن المجرم، قال قتادة ذُكِرَ لنا أن النبي ﷺ كان يقول: «**يُؤْذَنُ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي السُّجُودِ فَيَسْجُدُ الْمُؤْمِنُونَ، وَبَيْنَ كُلِّ مُؤْمِنٍ مُنَافِقٍ فَيَتَعَسَّرُ ظَهْرُ الْمُنَافِقِ عَنِ السُّجُودِ**»[1]، وبذلك يعرف الناس حقيقته، حيث إن الآخرة في حقيقتها انعكاس لأعمال الإنسان في الدنيا، وبالتالي فإن التمايز في الجزاء هناك هو صورة للتمايز في الأعمال والصفات هنا في الدنيا، وهذا يعمق المسؤولية في النفوس، ويدفعها باتجاه التسليم لربها واستغلال فرصة الدنيا لمستقبل الآخرة. ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ معنويًا وماديًا بحيث لم يكن عندهم عذر يبرر عدم تسليمهم لدعوة الله سوى اتخاذهم الهوى إلها من دونه عز وجل، ولعلنا نستوحي من الآيتين (٤٢-٤٣) فكرة هامة تتصل بسلوك الإنسان في الدنيا، وهي: أنه حينما لا يستغل نعم الله عليه كالصحة والغنى فإنها قد تسلب منه فيفوته الانتفاع بها، أو يسلبه الله توفيق الطاعة بسبب تماديه في المعصية والجريمة حتى يصل به الأمر أنه قد يفكر في التوبة والاستجابة لدعوة ربه ولكنه لا يوفق لذلك لأنه قد طُبِعَ على قلبه.

[٤٤-٤٥] ولأن المترفين يعتبرون تتالي النعم عليهم دليلا على رضاه تعالى عنهم، فيتمادون في التكذيب بالرسالة ومحاربة الرسول اعتمادا على ذلك، جاءت الآيات تؤكد أن الحقيقة عكس ذلك تماما لأن الله يكيد لهم عبر خطة حكيمة، وأي كيد أعظم من ذلك الذي يحسبه الإنسان خير وهو شر وبيل، وينطوي على حرب مباشرة بين الخالق العظيم الجبار شديد العقاب وبين المخلوق الحقير الضعيف المسكين يمشي إليها برجله ويقع في فخاخها بغتة؟! ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني الرسالة التي هي حديث الله إلى الإنسان، ومن الرسالة حديث الآخرة والعذاب، وما أخوف هذه الآية للمكذبين أن يبارزهم رب العزة مباشرة، وما أسوأ مصير من لا تبقى بينه وبين ربه رحمة! وما أرجى هذه الآية في الوقت نفسه للرساليين الذين يواجهون تحديات المترفين في مسيرتهم الجهادية، فإنها تثلج صدورهم وتزرع فيها الاطمئنان والسكينة بأنهم منتصرون ومحميون لأن الله يدافع عنهم، وأن الله سيدمر المكذبين بدعوتهم الصادقة والمعارضين لها، إن خطة الحرب الإلهية ضدهم تمر خلال كيد متين (قوي لا يستطيع أحد تحديه والانتصار عليه، ومحكم لا يجد الطرف الآخر ثغرة ينفذ فيها حينما يواجهه) بحيث يدخل هو بوصفه عنصرًا فعالًا ضد نفسه دون أن يعلم ومن حيث لا يتوقع. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ في اللغة: تدرج إلى كذا تقدم إليه شيئا فشيئا، واستدرجه صار به من درجة

---

(١) الدر المنثور: ج ٦، ص٢٥٥، جامع البيان للطبري: ج٢٩، ص٥٣.

إلى درجة وخدعه، وفي هذه الآية إشارة واضحة إلى أنه تعالى يجعلهم يتقدمون للوقوع في المكيدة من خلال نقاط ضعف عندهم، هم قاصرون عن وعيها، بحيث يصيرها الله عاملا يستحثهم للوقوع في عذابه. ومن أهم نقاط ضعفهم ما أُترفوا فيه من الأموال والأتباع الذي يُزاد لهم فيه ليطغوا في الدنيا ويأتوا يوم القيامة لا خلاق لهم.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ وكلما أترفهم الله ظنوا ذلك دليلا على رضاه عنهم، وأن مسيرتهم سليمة، فيتمادون في الانحراف ولا يعلمون أن الإملاء كيد متين ضدهم، ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٤-٥٦]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، والإملاء هو الزيادة في النعم والإمهال في الأخذ، ولماذا يستعجل الله وهو لا يفوته أحد وله الأولى والآخرة؟.

وفي النصوص تحذير من حالة الاستدراج الذي تأتي نتيجة لاسترسال الإنسان، قال الإمام الصادق عليه السلام: «إِذَا أَحْدَثَ الْعَبْدُ ذَنْباً جُدِّدَ لَهُ نِعْمَةٌ فَيَدَعُ الاِسْتِغْفَارَ فَهُوَ الاِسْتِدْرَاجِ»[1]. وقال عليه السلام: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْراً فَأَذْنَبَ ذَنْباً أَتْبَعَهُ بِنَقِمَةٍ وَيُذَكِّرُهُ الاِسْتِغْفَارَ، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ شَرّاً فَأَذْنَبَ ذَنْباً أَتْبَعَهُ بِنِعْمَةٍ لِيُنْسِيَهُ الاِسْتِغْفَارَ وَيَتَمَادَى بِهَا، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بِالنِّعَمِ عِنْدَ الْمَعَاصِي»[2]، في الحديث: «كَمْ مِنْ مَغْرُورٍ بِمَا قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ، وَكَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِسَتْرِ اللهِ عَلَيْهِ، وَكَمْ مِنْ مَفْتُونٍ بِثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ»[3].

ثانياً: الاعتقاد بأن الرسالة مغرم

[٤٦] وثمة مرض عضال يستولي على قلوب المترفين يدعوهم للتكذيب بالرسالة والرسول وكل حركة إصلاحية في المجتمع، وهو شعورهم الخاطئ بأن الاستجابة لها واتباع المصلحين مغرم يخالف مصالحهم، ومن طبيعة رؤوس الأموال وأصحابها الجبن والحرص. ولكن هل الرسالة جاءت لتأخذ منا شيئا أم جاءت لتعطينا الكثير وفي مختلف جوانب الحياة الفردية والاجتماعية والحضارية؟.

بلى؛ قد يتصور الإنسان حينما يلاحظ برامج الإنفاق التي تفرضها رسالة الله وتدعو القيادات الرسالية إليها أن الاستجابة لذلك مغرم، ولكن البصيرة النافذة تناقض ذلك تماما،

---

(١) بحار الأنوار: ج٥، ص٢١٥.
(٢) الكافي: ج٢، ص٤٥٢.
(٣) الكافي: ج٢، ص٤٥٢.

فإن المجتمع حينما تحكمه القوانين الإلهية سوف ينمو اقتصاديًّا وحضاريًّا لصالح الناس وحتى لصالح أصحاب الثروة، لما في الرسالة من برامج لتنميتها وتدويرها. وليس أدل على ذلك من دراسة تجربة مجتمع الجاهلية المتخلف في شبه الجزيرة العربية ومقارنتها بواقع الإسلام حينما آمنوا بمناهجه وكيف تطورت حياتهم، فلماذا إذن يُكَذِّب المترفون؟!.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ والمغرم في التجارة: الخسارة أو ما يعطى من المال على كره، والتجارة التي يدل الرسول الناس إليها لا خسارة فيها، بلى هي مشتملة على أرباح الدنيا والآخرة، كما أنه ﷺ لا يسأل أحدا أجرا على تبليغ الرسالة لأنه ﷺ (وكذلك كل قيادة رسالية) إنما يبلغ لوجه الله لا يريد جزاء ولا شكورا، ولا يطالب بمال ولا منصب، إنما لأجر الله عز وجل الذي وعده وكل مصلح مخلص فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾[القلم: ٣] كما مر في مطلع السورة. نعم. إن دعوة الرسول ﷺ خالصة من أي تطلع نحو حطام الدنيا، فلا مبرر يدعو المترفين للتكذيب به أو التشكيك في سلامة رسالته، وحيث يتثاقلون عن اتباعه فلمرض في صدورهم.

ثالثاً: البطر

[٤٧] إن المترفين ينظرون إلى الحياة ويقيمون كل شيء فيها من خلال المادة (المال والثروة) وكأنها كل شيء، وما دامت في أيديهم فإنهم لا يحسون بالحاجة إلى العلم أو القائد العالم الذي يهديهم إلى الحق، ويرشدهم في جوانب الحياة المعنوية، والقرآن ينفي ذلك فيتساءل مستنكرا: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ كلا.. إن علم الغيب يختص بالله، وإذا أخرجه الله فهو إما في رسالاته وإما عند رسله الذين يرتضي، لأنهم وحدهم الذين يتصلون به عبر الوحي. والذي يريد اتصالا بالغيب فلا طريق له إليه إلا بالتصديق بالرسالة والرسول ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ﴾[آل عمران: ١٧٩][1]، والمترفون يكذبون بهما فكيف يدَّعون علم الغيب؟! إن علم الغيب عند الله وهو وحده الذي يستطيع أن يكتبه بالقلم على لوح الأقدار، لأنه لا يتبع الظن أو التخمين. أما البشر فإنهم ولو ادعوا ذلك (كالمنجمين والكهنة) فهم لا يثبتونه بمثل الكتابة باعتباره لا قطع به. وإن المترفين ليدَّعون علم الغيب حيث يظنون في أنفسهم أن أموالهم باقية وسوف تزداد في المستقبل، ولا يدرون لعلها في علم الله تزول، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾[مريم: ٧٧ - ٧٩].

(١) ولقد جاءت هذه الآية الكريمة في سياق مفصل للترف والمترفين.

وما داموا لا يملكون ناصية العلم فهم بحاجة ماسة إلى مصادره (الرسالة) وما تكذيبهم بهما إلا دليل على ما هم فيه من العتو والجحود.

[٤٨-٥٠] والأسباب الثلاثة التي مر ذكرها تجعل الحركة التغييرية في أوساط المترفين تواجه تحديات صعبة من شأنها أن توحي للبعض بأن التغيير مستحيل البتة، وفي ذلك خطران على المصلحين:

الأول: خطر التراجع عن المسيرة، نتيجةً طبيعيةً لليأس من الوصول إلى الأهداف المنشودة من الحركة التغييرية، أو لا أقل التنازل عن بعض القيم والتطلعات، والاستسلام للتحديات المضادة، ومن ثم المداهنة فيها، وإلى ذلك أشار الله في قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

الثاني: خطر اليأس من الناس، مما يؤدي إلى اعتزالهم والانطواء على الذات، ومن ثم إصدار حكم الكفر عليهم مما يفقد المصلحين الفاعلية التغييرية.

وهكذا يحتاج الرساليون إلى مزيد من الصبر في مواجهة تكذيب المترفين. الصبر بوصفه صفة نفسية يُعطيهم روح الاستمرار والاستقامة على طريق الرسالة ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي أن ذلك ليس أمرا شاذا، بل هو من القوانين والسنن الطبيعية التي حكم الله بها أن تكون في المجتمعات، ومعرفة هذه الحقيقة من شأنه أن ينفخ روح الصبر والاستقامة في نفوس المصلحين فلا يستعجلون النتائج أو يكفُّ رون المجتمع، ولا حتى يكونون كيونس بن متى عليه السلام الذي زرعت تحديات قومه في نفسه الغيظ والغضب لرسالة ربه فدعا عليهم بالهلاك.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ قال الإمام الباقر عليه السلام «أيْ مَغْمُوم»[1]، وفي تضاعيف الآيتين (٤٨-٤٩) تحذير للمؤمنين من أن عدم الصبر لحكم الله ليس لا يخدم الرسالة فقط، بل ويضر بهم أنفسهم، كما أضر بيونس عليه السلام ﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ فسبحه واعترف أن النقص كان فيه إذ تعجل بالدعاء على قومه، ولم يصبر لحكم ربه فظلم نفسه، وليس في تدبير الله ولا في حكمه. ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ من قبل ربه أو عند قومه وعبر التاريخ بسبب موقفه، ونبذ الله له بالعراء يدل على عدم رضاه عنه، ولكنه تعالى تداركه بنعمة منه معنوية حيث تاب إليه، ومادية حيث أخرجه من بطن الحوت وأنبت عليه شجرة من يقطين تظله عن ذلك العراء. ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ و الاجتباء هو الاختيار

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٣٨٣، بحار الأنوار: ج١٤ ص٣٨٠.

والاصطفاء، وقد بيّن الله ذلك حتى لا تصير قصة يونس عليه السلام مع قومه سببا للطعن فيه، والنيل من شخصيته. والآية تهدينا إلى أن الإنسان بعد التوبة يمكن أن يسمو بنفسه إلى مقام يجتبيه ربه، فيصيِّره في عداد أئمة الصلاح والتقوى، كما تهدينا عموم قصة يونس إلى أن الله يمتحن الرساليين بعناد أقوامهم ليرى هل يصبرون لحكمه أم لا.

[٥١-٥٢] وبعد أن يأمر الله نبيه (وعبره كل داعية رسالي) بالصبر لحكم الله، مشيرا إلى قصة صاحب الحوت النبي يونس وتجربته مع قومه، ومحذرا له من الوقوف كموقفه في هذا الجانب، يواصل الكلام في ذلك الأمر، مؤكدا على الصبر في طريق الرسالة، مهما كانت التحديات المضادة والضغوط مدعاة للتخلي عن الرسالة أو ردات الفعل العشوائية ضد المكذبين والكافرين. ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ أي اصبر لحكم ربك بالرغم من ذلك، والزلق من الانحراف، قال أهل اللغة: أزلقه: أزلّه وأبعده عن مكانه ونحّاه، وزلقت القدم: لم تثبت، والفرس أجهضت وألقت ولدها قبل تمامه، والأرض الزلقة: الملساء التي لا شيء فيها، ولا تثبت عليها قدم.. فيزلقونك إذن بمعنى يُزلّون قدمك عن مسيرة الحق، سواء بالمداهنة التي يودها المكذبون أو بالمواجهة والتحدي. ولقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن معنى الإزلاق بالأبصار هو الحسد الذي يؤثر في الإنسان بصورة غيبية، ونقلوا عن الرسول صلى الله عليه وآله: «إِنَّ الْعَيْنَ لَتُدْخِلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَالْجَمَلَ الْقِدْرَ»[1]، وقوله يعوّذ الحسنين: «أُعِيذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى كُلِّهَا عَامَّةً مِنْ شَرِّ السَّامَّةِ وَالْهَامَّةِ وَمِنْ شَرِّ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ»[2]، وقد يكتشف البشر أسرار ظاهرة الحسد إذا تقدموا في العلم ودراسة الحالات النفسية. ولكن الأقرب من هذا المعنى أنها كناية عن المواقف الحاقدة التي تعبر عنها نظراتهم الحادة كالسهم النافذ وكحد الحسام المرهف. ونحن من هذه الظاهرة البصرية يجب أن ننطلق لمعرفة ما وراءها وما تعبر عنه من الضغوط، والمواقف النفسية والاجتماعية والسياسية للكفار ضد كل قيادة رسالية تنشد التغيير، وبالذات إعلامهم الموبوء بمختلف الدعايات والتهم الباطلة.

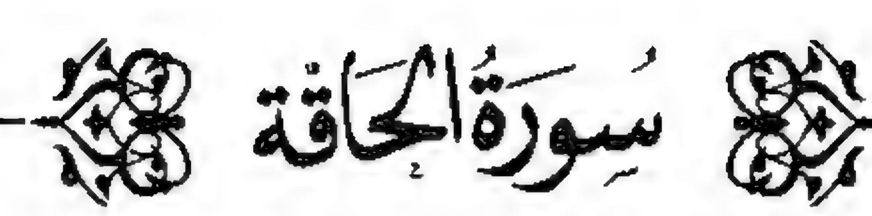
﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ وقولهم هذا يعبر عن ذلك الفيض الذي امتلأت به قلوبهم والموقف الذي أظهرته أبصارهم، وهكذا كلمات القرآن يفسر بعضها بعضا، فقوله سبحانه: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ يفسر قوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾، فعبر أبصارهم الحادة وكلماتهم النابية يريدون إبعادك عن الصراط المستقيم. واليوم ومع تطور الوسائل الإعلامية ينبغي أن يتوقع كل مصلح رسالي أن يواجه المزيد من الضغوط في مسيرته، وبالتالي عليه أن يصبر في

(١) بحار الأنوار: ج٦٠، ص٢٠.
(٢) الكافي: ج٢، ص٥٢٩.

نفسه، ويستقيم في حركته وعمله لوجه الله وتسليما بقضائه وحكمه، فأنى كانت الضغوط والتهم لا يمكنها أن تغيّر من الواقع شيئا، فهل يصبح العاقل مجنونا والذكر أساطير الأولين بمجرد أن يقول الكافرون ذلك؟ كلا.. لأن الحقائق لا تتغير بقول المكذبين المنكرين، وإن الدارس للقرآن لا يمكنه إلا التسليم بأنه رسالة من الله إلى الناس.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ والذكر في مقابل الغفلة والنسيان، وقد سمي القرآن بذلك لأنه يذكر البشر بربهم وبالحق في جوانب الحياة المختلفة، بل ويكشف لهم من أسرار الوجود وقوانينه، ويذكّرهم بعقولهم التي تستثيرها آياته، فهو الذي يحافظ على مسيرة الإنسان مستقيمة على الفطرة والحق ونحو الهدف السليم دون غفلة أو انحراف ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٧-٢٨].

وحينما يكون القرآن ذكرا للعالمين (وليس لقوم النبي وحده) يتبين أنه يتجاوز البيئة الجاهلية الضيقة والموبوءة بتلك الدعايات التافهة، ويتسامى فوق تلك الحواجز التي وضعها الجاهليون حول أنفسهم، ومجرد هذا التجاوز يدل على أن القرآن ليس وليد تلك البيئة، وأن النبي ليس مجرد حكيم عظيم أفرزه ذلك المحيط، بل هو رسول الله رب العالمين. ترى كم هي المسافة شاسعة بين قولهم: إنه مجنون، وبين الحقيقة؟.



* مكية.

* عدد آياتها: ٥٢.

* ترتيبها النزولي: ٧٨.

* ترتيبها في المصحف: ٦٩.

* نزلت بعد سورة الملك.

فضلُ السُّورة

عن الإمام الباقر عليه السلام: «أَكْثِرُوا مِنْ قِرَاءَةِ الحَاقَّةِ فَإِنَّ قِرَاءَتَهَا فِي الفَرَائِضِ والنَّوَافِلِ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ ورَسُولِهِ لِأَنَّهَا إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عليه السلام ومُعَاوِيَةَ، ولَمْ يُسْلَبْ قَارِئُهَا دِينَهُ حَتَّى يَلْقَى اللهَ عَزَّ وجَلَّ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص١٤٢)

الإطار العام

الإنسان بين الجدّ والهزل

ثلاث آيات غرر في هذه السورة ترسم معالمها، وتحدد -فيما يبدو- إطارها.

فاتحتها: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾، وعند الخاتمة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾، وأوسطها: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾. وحين ينفتح القلب على أشعة السورة يلامس الحقيقة -كل حقيقة وكل الحقيقة- بلا حجاب، وكذلك سور القرآن جميعاً هي الجسرين بين الإنسان والحقيقة، يتجاوز المتدبرون فيها كل الحواجز، ولكن كل سورة تسقط عنا حاجزاً.

وسورة الحاقة -كما آيات أخرى مبثوثة في كتاب ربنا العزيز- تسقط حاجز التهاون، ذلك أن الإنسان بطبعه يعيش الغفلة عن الحق، والتهاون فيه، وعدم الجدية في التعامل معه، واتخاذ أمره بسذاجة، بل وبسفاهة. كلا؛ إنه حق، وللحق ثقله، وللحق اقتداره، و للحق حقيقته وطاقته التي تثبته وتجعل مخالفيه في حرج عظيم. ألم تسمع بقصة عاد وثمود وفرعون وقوم نوح والمؤتفكات؟ ماذا حدث بهم حينما اتخذوا موقف اللاهي عن الحق فصارعوه؟ كيف نزلت بهم القوارع فتركتهم صرعى؟!.

أوتدري ما الحكمة في ذلك العذاب العريض؟ لكي يذكّرنا، فلا نبقى سادرين في غياهب الغفلة، ولكي تعيه أذن واعية.(الآيات: ١-١٢).

وتتجلى الحقيقة بكل جلالها وعظمتها في يوم القيامة، وحين نتصور أهوالها نزداد وعياً بها في الدنيا أيضاً. (الآيات: ١٣-١٨).

وأصعب المواقف وأشدها جديةً وهولاً عند استلام الكتاب المصيري، فمن أوتي كتابه بيمينه فطوبى له، ومن أوتي بشماله فيقول من فرط حسرته: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾، ويقول: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾! (الآيات: ١٩-٢٩).

إنها عاقبة المتهاونين الذين لم يكونوا جديين في وعي الحقيقة، وفي الإيمان بالله والحض على طعام المساكين. (الآيات: ٣٠-٣٧).

ويقسم القرآن بكل حقيقة نبصرها، وبكل حقيقة قائمة ولكن لا نبصرها بأن القرآن حق، وهو قول رسول كريم، وإنه بالتالي ليس خيالات باطلة ولا ظنون كاهن. (الآيات: ٣٨-٤٣).

وتتجلى حقانية الرسالة في شدة الله الجبار مع من يخالفها، بل ومع المرسل بها لو افترض التقول عليه ببعض الأقاويل،فإنه ليأخذ منه باليمين ثم ليقطع منه الوتين. (الآيات: ٤٤-٤٧).

ويبدو أن من يتهاون في شأن الحق أو يكذب به أو لا يعيه أو لا يوقن به حق اليقين.. يبدو أنه لم يعرف ربه الذي يضمن الحق، يجريه بقوته الشديدة وقدرته الواسعة. لذلك فنحن بحاجة إلى تقديس الله سبحانه وتنزيهه حتى نقترب من معرفته ومعرفة الحق به، ولعله لذلك اختتمت السورة المباركة بقوله سبحانه: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾. (الآيات: ٤٨-٥٢).

وتعيها أذن واعية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)﴾.

هدى من الآيات:

الحق والجزاء توأمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فإنما تحكم الحياة مجموعة من القوانين والسنن التي وضعها الله وأجراها فيها فهي مخلوقة بالحق، ولأنها كذلك فإن الجزاء واقع لأنه حق، وإيمان الإنسان بالحق مرهون بمدى إيمانه بالحساب والجزاء، إذ لا تعني الدعوة للإيمان به شيئا ولا تعكس استجابة في النفس لولا ذلك، وهكذا جاء التعبير القرآني عن كفر ثمود وعاد ببيان كفرهم بالجزاء (القارعة) مع أنهم كذّبوا أيضا بالرسل، لأن الكفر بالجزاء يساوي الكفر بالحق.

وفي هذا المحور تنتظم آيات الفصل الأول من سورة الحاقة في سياق التأكيد على حقيقة الجزاء في الحياة، كقضية تشريعية وتكوينية، تتصل بالحق اتصالا متينا، ففي مطلعها وحتى الآية الثانية عشرة يبين لنا صورا من الجزاء الذي حل بالأقوام السالفة نتيجة تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، بوصفها دلالات واقعية على هذه السنة الإلهية، وكآيات هادية إلى الجزاء الأكبر في الآخرة.

ولكن تبقى (الواقعة) أجلى آيات الجزاء والحق معا بالنسبة للإنسان، حيث ينفخ في الصور، وتحدث التحولات الكونية الهائلة والمفزعة، ويتجلَّى الملائكة المقربون يحملون عرش الله، ويُعرض يومئذ الناس بكيانهم وأعمالهم لا تخفى منهم خافية، ولعله لذلك جاءت تسمية القيامة في هذه السورة بالحاقة.. باعتبارها ذات وجهين: يتصل الأول بالجزاء التي هي عرصته وأعظم آياته، ويتصل الثاني بالحق، إذ هي جزء لا ينفك من أعظم حقائق الوجود، ولقد سماها ربنا في نهاية الدرس بالواقعة للمبالغة في التأكيد على أنها حقيقة واقعية لا بد أن تقع، ومن ثم فإن التكذيب بها لا ينفيها ولا يمنع وقوعها أو حتى يغير أجلها.

وتبقى الآية ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ محورا في هذا السياق بل في سياق السورة كلها، إذ لا تدرك غور الآيات بما تتضمنه الحقائق إلا تلك القلوب الزاكية التي صيَّرها الإيمان والعلم أذنا لوحي الله وآياته.

بينات من الآيات:

[١-٣] إن الإيمان بالآخرة -كما أكدنا مرارا- حجر الأساس في الإيمان بسائر القيم والمبادئ، ولذلك لا تكاد تخلو سورة قرآنية من التأكيد عليها، بل وإن الحديث بشأنها ترهيبا وترغيبا أصبح السمة الأساسية للجزأين الأخيرين (تبارك، وعم) المكيين في الأغلب عدا سور (الإنسان، الزلزلة، والنصر)، وإذ يوليها الرب هذا الاهتمام فلعلمه تعالى بموقعها في بناء شخصية الإنسان.

والذي يتتبع حديث القرآن عن الآخرة يجد أنه عبَّر عنها بعدة أسماء تختلف في ظاهرها وبعض مضامينها، كأن يكون كل اسم يعبر عن جانب أو مرحلة زمنية منها، إلا أن هدفها واحد لا يتجزأ، وهو زرع الإيمان بالآخرة وتعميقه في النفوس لتتبصر من خلالها بسائر الحقائق. وهنا تطالعنا أولى الآيات باسم من أسماء القيامة وعبر بلاغة فائقة، تهتز لها القلوب، وتقشعر منها جلود المؤمنين ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾، وللمفسرين أقوال كثيرة في معنى هذه الكلمة، ولماذا سميت القيامة بها؟ وأبرزها التفسيرات التالية:

أولاً: اللازمة الواجبة الوقوع، قال تعالى: ﴿وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [السجدة: ١٣] أي وقع فأوجبته، وقال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩] أي وجب ولزم.

ثانياً: المحيطة، جاء في المنجد: «حاق بهم العذاب: نزل وأحاط، والحيق: ما يشتمل على الإنسان ويلزمه من مكروه فعله»، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[فاطر: ٤٣] أي لا يقع ويحيط إلا بهم، وقال: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[هود: ٨] يعني وقع وأحاط.

والذي يبدو لي من معنى الكلمة بالإضافة إلى ما تقدم: أنها الحق الذي يقع فيكشف عن الحقائق ويظهرها، كما قال الله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾[الأنفال: ٧] يعني يثبته ويظهره ويجعل الغلبة له على الباطل. ونحن إذا عرفنا أن أكثر الناس محجوبون بألوان الأغطية عن معاينة الحق فسنهتدي بسهولة إلى معنى ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ إذ هي التي تكشف عن الإنسان غطاءه، وتجعل بصره حديدا يرى الحقائق، حقيقة ما جاءت به الأنبياء والكتب الإلهية، وحقيقة نفسه وأعماله، هل هو من أصحاب الحق ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٨] أم من أصحاب الباطل ﴿ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١]؟ وحقيقة مصيره.. والقيامة ليست تجعل الحق حقا فهي المحقة، لأن الحق والباطل شيئان واقعيان لا تصنعهما الأحداث، إنما دورها الكشف عنه، وسوق النفوس إلى التسليم له، حيث تنسف بأحداثها المريعة كل الحجب عن قلب الإنسان وعينه ليرى الحق، كما قلنا في معنى يوم التغابن، فإنه ليس بيوم يتغابن فيه الناس، وإنما يكشف عنه.

ويؤكد ربنا عظمة القيامة وهذه الصفة منها إذ يقول: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ إنها أمر عظيم ماديًا، حيث الوقائع الكونية المهولة، ومعنويًا بآثارها في النفوس -كل النفوس- وكيف لا ترهب الإنسان الضعيف تلك الأحداث الفظيعة التي أشفقت منها السماوات والأرض، وكيف لا يخشى وهو يلاقي ربه، ويرى عمله، ويمضي إلى مصيره الأبدي؟!.

إن الحاقة ليست كلمة تقال، فهذه الحروف عنوان لأمر عظيم، تتزلزل به الأرض، وتمور السماء، وتسجر البحار، وتتلاشى الجبال، و ﴿تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]. وتساؤل القرآن بـ ﴿مَا﴾ يأتي في سياق التعظيم والتذكير والتحذير والإلفات، ولا يقف عند ذلك بل يضيف: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ و هذه الآية تفيد التعظيم، كما تبين أن أحدا لا يدرك حقيقة القيامة، وقد يعلم بعض المجملات عنها: بأنها حق، وأن من أحداثها زلزلة الأرض، وحشر الناس، ودك الجبال، ولكنه لا يعلم ميقاتها، كما لا

يملك أدوات يتمكن بها وعي أحداثها العظيمة.

[٤-٨] إذن فكيف نؤمن بالحاقة؟.

إننا لسنا مطالبين بمعرفة دقائق القيامة وتفصيلات وقائعها، فإذا عجزنا عن ذلك كفرنا بها. كلا.. إنما يكفي لكي يأخذ الإيمان بها دوره في حياتنا أن نسلِّم بأصل وجودها، وكونها حقًّا لازما مفروضا من قبل الله عز وجل.. وإن نظرة معتبرة إلى التاريخ تهدينا إلى ذلك، حيث إن كل ما حل بالأقوام الأولين صورة مصغرة عن سنة الجزاء، التي تتجلى بكامل حجمها ومعناها يوم القيامة، والدراسة الموضوعية لحضاراتهم وبالذات عند منعطف النهاية والدمار تكشف بوضوح أن حركة التاريخ ليست عفوية تدور في الفراغ، بل هي محكومة بقوانين وسنن ومن أبرزها -على صعيد الأمم- سنة الجزاء، ويضرب القرآن أمثلة على ذلك رابطا بين دمار الأقوام بالعذاب وتكذيبهم بالحق ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ وثمود قوم صالح عليه السلام وعاد قوم هود عليه السلام، والقارعة التي تقرع الناس، وأساس القرع في اللغة هو الضرب، يقال: قُرعت البابُ إذا دُقَّت وضربها ضارب، وقرعته بالعصا: أي ضربته، وسواء كانت القارعة هي الواقعة التي قرعت حياتهم في الدنيا، أو الآخرة التي سوف تقرع الدنيا عند الساعة، فأصلها واحد وهو الجزاء، وحيث ندرس حياة عاد وثمود نجد أنهما كذبوا ليس بالجزاء وحسب، بل كذبوا بالرسل والرسالات وسائر آيات الله، ولكنهم في الحقيقة إنما انطلقوا إلى كل ذلك التكذيب العريض والشامل من خلال التكذيب بالجزاء وبالذات الآخرة، الأمر الذي دعاهم بالإضافة إلى التكذيب بالحقائق الأخرى إلى الطغيان في الانحراف، وممارسة الذنوب، وهذه نتيجة طبيعية للتكذيب بالجزاء أن يتحلل البشر من قيود المسؤولية وحدودها.

ولكن هل بقيت ثمود وعاد على التكذيب بلا رادع؟ كلا.. ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ وفي الطاغية قولان قريبان من المعنى:

الأول: أنها الصيحة التي أرسلها الله عليهم، فجعلتهم غثاء خامدين، وسوّى بها بيوتهم، وسميت بالطاغية مبالغة في وصف عظمتها، وإشارة إلى أنها جاءت خارج السياق المعتاد للظواهر، وزائدة عن حد القوانين الطبيعية فإنا نقول: طغى الماء: إذا تجاوز الحد، وفاض به النهر.

الثاني: ولعلها اسم لحالة الطغيان، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١١-١٥]، والذي يبدو أن

الكلمة تعبر عن المعنيين في أن واحد، ونهتدي منها أن الجزاء الإلهي حكيم للغاية، فهو من جنس العمل وبحجمه.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ أي ريح باردة وذات صوت، جاء في اللغة: الصرصر من الرياح: الشديدة الهبوب أو البرد، وصرصر الرجل: صاح شديدا، وسُمّي الصرصور بذلك لأنه يصيح صياحا رقيقا في الليل.

وأما العاتية ففيها أقوال:

الأول: أنها التي خرجت عن أمر الملائكة الموكلين بالريح (الخزنة) بأن أوحى الله لها مباشرة أن تهلكهم بلا واسطة.

الثاني: أنها التي لا قِبَل لأحد بمواجهتها ومقاومتها، فهي تعتو على كل أحد وكل وسيلة، قال الزمخشري: «شديدة العصف والعتو، أو عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيلة، من استتار ببناء، أو التجاء بجبل، أو اختفاء في حفرة»[1]. والمعنى الأصيل: أنها التي بلغت من الشدة ما تجاوزت به القوانين والمقاييس الطبيعية، وبكيفية لا يمكن للبشر تصورها، لأن أصل العتو هو الخروج عن الحد، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ [الطلاق: ٨]، وقال: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [الذاريات: ٤٤]، وإنما جعل الله الريح عاتية على عاد لكي يعكس عتوهم عن أمره عز وجل، فإنه لو أراد أحد تصوره في عالم التكوين فسيجده تماما كالريح الصرصر حينما تتجاوز الحد المتعارف، بل هي أعظم من ذلك لأن رياح الشهوات العاتية في الحقيقة هي التي دمرتهم، ولم تكن الريح الظاهرة إلا تجسيدا وعاقبة لها.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ فهي لم تأتهم صدفة بسبب نحس أو تغير كوني خارج عن الحساب والسنن، إنما جاءت الريح بإرادة إلهية سخرتها، وكذلك ينظر المؤمنون إلى الأحداث ويحللونها، أما غيرهم فإنهم لا تفيدهم عبرة، لأنهم يفسرونها بالصدفة أو بتغيرات مبتورة تعكس جهلهم أو تجاهلهم، ولا يفكرون بعقولهم التي لو استثاروها لهدتهم إلى يد التدبير التي تهيمن على الخليقة! قال الفخر الرازي: «وذلك لأن من الناس من قال: إن تلك الرياح إنما اشتدت لأن اتصالا فلكيًّا نجوميًّا اقتضى ذلك، فقوله: ﴿سَخَّرَهَا﴾ فيه إشارة إلى نفي ذلك المذهب، وبيان أن ذلك إنما حصل بتقدير الله وقدرته، فإنه لولا هذه الدقيقة لما حصل التخويف والتحذير عن العقاب»[2]، والكلمة نفسها تنفي الوهم بأن العاتية هي التي

---

(١) الكشاف: ج٤، ص٥٩٩.

(٢) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٠٤.

خرجت عن التقدير والتدبير، كذلك تجاوز الخطر عن النبي هود والذين آمنوا معه (حيث كانت تمر عليهم كالنسيم) دليل على أنها كانت مسخرة مدبرة.

ونتساءل: لماذا لم يجعل الله الريح لحظة واحدة وهو قادر على إهلاكهم بها؟ ربما صيَّرها الله سبع ليال وثمانية أيام لأنه أبلغ أثرا في نفوس المعذَّبين حيث المدة أطول، كما أنه أفضل موعظة في قلوب المؤمنين والمعاصرين لهم، وأشد تحذيرا للاحقين، ولعل في ذلك إشارة عبر التاريخ إلى مدى تحصنهم وأسباب البقاء التي كانت في حضارتهم، قال الطبرسي في مجمع البيان: «الحسوم: المتوالية، مأخوذة من حسم الداء بمتابعة الكي عليه، فكأنه تتابع الشر عليهم حتى استأصلهم، وقيل: هو من القطع، فكأنها حسمتهم حسوما، أي أذهبتهم وأفنتهم، وقطعت دابرهم»[١]، وسمي السيف حاسما: «لأنه يحسم الأمر ويقطعه (ويقطع المضروب به)»[٢].

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي في تلك الأيام والليالي، أو في قراهم، وحيث وقعوا صرعى فهم أشبه ما يكونون بجذوع النخل المنتشرة على الأرض والخالية بالنخر من داخلها فهي لا تنفع لبناء ولا لغيره[٣]. والمنظر صورة للحديث الشريف: «مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ»[٤]، والآخر «مَنْ صَارَعَ الْحَقَّ صَرَع»[٥]، وإنها لعاقبة كل من يكذب بالحق ويتنكب عن طريقه.

واللطيف في تعبير القرآن مخاطبته المباشرة للرسول ﷺ ومن خلاله كل تالٍ للآيات، حيث يقول: ﴿فَتَرَى﴾، وذلك أن الله لا يريد من نقل القصص مجرد المعرفة أو التسلية، بل يريد من سامعها الاتعاظ والاعتبار، والذي يتم بتخيل القصص ومشاهدها والحضور في أحداثها وخلفياتها، وبعبارة أخرى: أن يكون الإنسان نفسه شاهدا عليها، ولا شك أن القلب والعقل أعظم شهادة وحضورا، والإنسان قادر على الحضور بهما، ورؤية حتى الماضي والمستقبل، فالخطاب هنا موجه للأذن الواعية. ثم يؤكد ربنا بالتساؤل: إن قوم عاد أهلكوا جميعا، فلم يبق منهم أحد ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ قيل: «لم يبق لهم أثر من نفس وغيرها، وقيل: بل المعنى لا ترى من نفس باقية فقط»[٦] وهكذا حصروا الهلاك في النفوس لقوله تعالى عن قوم عاد: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾[الأحقاف: ٢٥]، وهذا هو الأقرب. إذن

---

(١) مجمع البيان: ج ١٠، ص ٤٣٤.
(٢) التحقيق في كلمات القرآن: مادة حسم، ج٢، ص٢٢١.
(٣) مر بيان مفصل في معنى ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ في الآية ٢٠ من سورة القمر فراجع.
(٤) الكافي: ج ٨، ص ٦٧.
(٥) بحار الأنوار: ج ٢، ص ١٤٣.
(٦) الدر المنثور والكشاف والرازي.

فتكذيبهم بالقارعة لم يغير من الحقائق الواقعية شيئا، بل قرعتهم في الدنيا قبل الآخرة، ونحن الذين نقف على أخبار الأقدمين يجب أن نتخذها حاقة تكشف لنا عن سنة الجزاء، ومن ثم حقيقة الساعة والقيامة والبعث (الآخرة).

[٩-١٠] ويضع السياق صورا أخرى تكشف عن الحقائق ذاتها: هيمنة الله على الحياة، وسنة الجزاء، والآخرة.. وإنما يكثر القرآن الأمثال لكيلا تبقى عندنا ذرة شك أو شبهة أن تلك الحوادث كانت صدفة، وبالتالي لكي يتعمق في نفوسنا الإيمان بالله والجزاء.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي بالقيم والأعمال البعيدة عن الحق والصواب، كالظلم والعلو والشرك وادعاء الربوبية، وقد اختلف في الذين قبل فرعون إلى قولين:

الأول: أنهم الأمم والقرون التي سبقته وأهلكها الله.

الثاني -وهو صحيح أيضاً-: أن فرعون كان حلقة من نظام سياسي كان يحكم مصر، والذين قبله يعني الحلقات الأخرى منه، قال الإمام الباقر عليه السلام في قوله: «﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ﴾ **يعني الثالث** ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ **الأولين**»[1]، وإلى ذلك تشير الآثار والدراسات العلمية للتاريخ السياسي لمصر، وربما الأولى الجمع بين الرأيين، والقول بأن ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ تشمل كل من كان قبل فرعون من ملوك مصر وغيرهم.

وأما ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ فهي قرى لوط التي جعل الله عاليها سافلها جزاء شذوذهم الجنسي، ومشيتهم المقلوبة في الحياة، حيث كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، وإنما خص الله قوم لوط بالذكر مع شمول ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ لهم لأنهم من أظهر شواهد الانحراف، ولعل أعظم الخطيئات التي جاءت بها تلك الأقوام هي اتباع المناهج والقيادات المنحرفة، ومن ثم التكذيب برسالات الله ورسله ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ نتيجةً مباشرة لذلك. وماذا يعني عصيان الرسول؟ إنه الانحراف عن الحق والسنن الطبيعية في الحياة، ومحاربة الله.. وهل ينتهي ذلك إلا إلى الانحطاط والهلاك؟! ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ وأصل الرابية: الزيادة، ويسمى ما ارتفع من الأرض رابية لأنه في حقيقته زيادة فيها بالارتفاع، وأما الأخذة الرابية فهي: إما التي زادت على غيرها من عذاب الله وأخذه، أو التي نمت وتعاظمت بسبب تراكم الخطيئات، وهذا قريب، وفيه دلالة على أنه تعالى أملى لهم وأمهلهم ليزدادوا إثما، فيزيدوا بأنفسهم غضب الله عليهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) البرهان: ج٤، ص ٣٧٥.

[١١] ويذكرنا القرآن بأعظم ما شهده تاريخ البشرية من الجزاء الإلهي، وهو ذلك الطوفان الذي تفجرت به ينابيع الأرض، وانفتحت أبواب السماء بماء منهمر، فابتلع اليابسة كلها في عصر نوح عليه السلام، ولكنه في الوقت نفسه يوجهنا إلى لطف الله بالبشرية كلها حيث حفظ وجودها بحملها في السفينة، هذه الآية التي يهدينا التفكير فيها وبصورة مسلَّمة إلى أن سنة الجزاء ليست صدفة، إنما هي تحت هيمنة الله الحكيم في تدبيره ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي السفينة التي تجري على الماء، وطغيان الماء: زيادته عن المعتاد وعن حاجة الناس والنبات إليه، ويقال للبحر: طغى: إذا تجاوز على اليابسة، وفي الدر المنثور عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، قال: «طغى على خزانه فنزل، ولم ينزل من السماء ماء إلا بمكيال أو ميزان إلا زمن نوح عليه السلام فإنه طغى على خزانه، فنزل من غير كيل ولا وزن»[1]، وأخرج ابن جرير عن الإمام علي عليه السلام قال: «**لَمْ تَنْزِلْ قَطْرَةٌ مِنْ مَاءٍ إِلَّا بِمِكْيَالٍ عَلَى يَدِ مَلَكٍ، إِلَّا يَوْمَ نُوحٍ فَإِنَّهُ أُذِنَ لِلْمَاءِ دُونَ الْخُزَّانِ فَطَغَى عَلَى الْخُزَّانِ فَخَرَجَ**»[2]، ولا يعني ذلك أنه لا مكيال ولا وزنٌ معلوم له عند الله، كلا.. وإنما المعنى أن الله لا ينزل الأمطار إلا عبر حسابات دقيقة، تتناسب مع حاجات الخلق، أما في الطوفان فقد أمر السماء والأرض أن تتفجر ماء ما تستطيعان. و لم يقل الله: (حملناهم) يعني الذين ركبوا السفينة مع نوح، بل قال: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ موجها الخطاب للبشرية جمعاء، لأنها يوم الطوفان كانت منحصرة فيهم، وليس الناس بعدها إلا نسل أولئك، فنحن معنيون بالحمل أيضا، إذ لولا السفينة لما كنا الآن موجودين.

[١٢] وبعد العرض الموجز لقصة الطوفان في آية واحدة يوجهنا القرآن إلى العبرة الهامة منها، والتي ينبغي الإشارة إليها، وهي: أن بقاء السفينة ونجاة ركابها في ذلك الطوفان المروع آية إلهية عظيمة، تذكرنا بكثير من الحقائق الإيمانية، إذا كانت ثمة أذن واعية تستوعب ما تذكر به ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ وإن مرورا سريعا بآية (الجارية) يذكرنا بهيمنة الله على الوجود، وسنة الجزاء، ولطف ربنا، ودور الإيمان به، واتباع رسله ورسالاته في نجاة الإنسان، وفضل الأنبياء على البشرية.. وهكذا الكثير من الحقائق التي من شأنها زراعة تقوى الله وتعميقها في النفس، وما أحوج البشرية أن تدرس هذه الآية لتتذكر بها لتتجنب الأخطاء، وتبني الحياة السعيدة، إلا أننا لا نعيرها اهتماما ولا جزء من تفكيرنا، بل نمر عليها مرور الغافلين اللاأباليين، وكأنها مجرد قصة خيالية أو قصة تروى للتسلية.

بلى؛ إن الآيات والحقائق كما الماء والكائنات الأخرى تحتاج إلى وعاء يستوعبها، ولكن من جنس آخر. إنه القلب المزكى بالإيمان والعرفان هو وحده وعاؤها، وإن في قصة الإعدام

---

(١) الدر المنثور: ج٦، ص٢٦٠.
(٢) المصدر السابق: ص٢٥٩.

الجماعي للبشرية بالطوفان لدرسا يجب أن يبقى نصب أعين الناجين، يعمق فيهم الخشية من ربهم، ويحيي ضمائرهم، ويستثير عقولهم باتجاه الحق أبد الدهر. ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ أي تعي التذكرة. ومن وصل هذه النهاية بالشطر السابق للآية نهتدي إلى أن المسيرة الطبيعية للبشرية هي مسيرة التقدم، حيث تتراكم خبراتها وتجاربها عبر الزمن، مما يزيد وعيها ومعارفها وإيمانها، هذا إذا كانت من الناحية المعنوية سليمة وذات أذن واعية، أما إذا لم تصل بنفسها إلى مستوى القدرة على عقل الحقائق واستيعابها فإنها لن تتقدم إلى الإمام، بل ستهوي في المزالق ذاتها التي دُفِع فيها السابقون، وستواجه المصير ذاته. بلى؛ إن تلك القصص نداءات موجهة إلينا لا يسمعها الصم، وقال تعالى: ﴿أُذُنٌ﴾ لأن السمع هو نافذة المعرفة الإنسانية على التاريخ، ووصفها بـ ﴿وَٰعِيَةٌ﴾ لكي يهدينا إلى أن منهج القرآن في بيان الحق والتذكير به منهج كامل لا نقص فيه، فإذا لم يستوعبه الإنسان أو لم يقبله فإن الإشكال فيه، لأن أذنه غير واعية، وليس في رسالة الله. ولا شك أن المقصود هو ما وراء الأذن وليست الأذن بذاتها، لأنها ليست وعاء للعلم بل وسيلة موصلة إلى وعائه وهو القلب، ومن أهم شروط استيعاب الحق:

ألف: جعله هدفا ومحورا، مقدما على كل اعتبار آخر، فمتى وجده سلَّم له.

بـاء: الطهارة من الحجب التي تمنع اتصال القلب به كالغفلة والجحود، ومن أبرزها الأفكار والمواقف المسبقة، وذلك أن القلب لا يمكن أن يستوعب الحق والباطل معا، فهو إما يكون وعاء للحق وإما يكون وعاء للباطل، ولا بد أن يطرد الباطل من القلب حتى يستوعب الحق.

جيم: أن تكون قدرة الاستيعاب كبيرة، وذلك أن بعض الحقائق عظيمة لا يستوعبها كل قلب، بل تختلف درجات المعرفة بالحقائق باختلاف القدرات العلمية والإيمانية عند الإنسان.. وجاء في الحديث الشريف عن الإمام علي عليه السلام: **«اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَمْدَحْ مِنَ الْقُلُوبِ إِلَّا أَوْعَاهَا لِلحِكْمَةِ، وَمِنَ النَّاسِ إِلَّا أَسْرَعَهُمْ إِلَى الحَقِّ»**[1]، وقال عليه السلام: **«إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا»**[2].

ولقد اجتمعت هذه الشروط وغيرها في شخص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فاستوعب رسالة الله، وأصبح أعرف الناس بعد النبي بها، ولذلك أجمع الرواة والمفسرون على تأويلها فيه عليه السلام بوصفه أعظم مصداق للأذن الواعية.. قال الإمام علي عليه السلام يخاطب أصحابه وخاصته: **«أَلَا وَإِنِّي مَخْصُوصٌ فِي الْقُرْآنِ بِأَسْمَاءٍ احْذَرُوا أَنْ تَغْلِبُوا عَلَيْهَا فَتَضِلُّوا فِي دِينِكُم** -إلى

---

(١) غرر الحكم: حكمة: ٤٥٨٣.

(٢) نهج البلاغة: قصار الحكم: ١٤٧.

أن قال-: «وَأَنَا الْأُذُنُ الْوَاعِيَةُ»[١]، وقال النبي ﷺ يخاطب عليا عليه السلام: «سَأَلْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَجْعَلَهَا أُذُنَكَ يَا عَلِي»[٢] وفي تفسير القرطبي روى مكحول: أن النبي ﷺ قال عند نزول هذه الآية: «سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَجْعَلَهَا أُذُنَ عَلِي»قال مكحول: فكان علي (عليه السلام) يقول: «مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئاً قَطُّ فَنَسِيتُهُ إِلَّا وَحَفِظْتُهُ»[٣] أي ما كنت أنساه وما كنت إلا أحفظه. وعن الحسن نحو ذكره الثعلبي، قال: لما نزلت «الآية» قال النبي ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يَجْعَلَهَا أُذُنَكَ يَا عَلِي»، قال علي: «فَمَا نَسِيتُ شَيْئاً بَعْدُ وَمَا كَانَ لِي أَنْ أَنْسَى»[٤]، وإنما طلب النبي ذلك من الله لأنه يعلم أن عليًّا هو الامتداد الحقيقي له ولخطه، فلا بد أن يستوعب رسالته.. وتتسع الآية لمصاديق أخرى وبدرجات متفاوتة، إذ إن كل أذن واعية هي مصداق لها.

إن التاريخ معلِّم للبشرية، ويجب أن تتلمذ في مدرسته، لأن ذلك هو السبيل للتقدم والسعادة في الدارين، فهي لو درسْت تاريخها وتفكرت في حوادثه ومنعطفاته فسوف تهتدي إلى الحق في كل صعيد وجانب من الحياة.. تهتدي إلى ربها لأن التاريخ كله آيات موصلة إلى الإيمان به، وتهتدي إلى الكثير من السنن والقوانين والحقائق الحضارية التي من شأنها لو وعتها أن تتجنب الأخطاء والأخطار، وتجد طريقها إلى المجد والفلاح.

[١٣-١٤] ثم ينعطف السياق للحديث عن الآخرة لأنها الحاقة العظمى، وأجلى صورة لسنة الجزاء في الوجود.. وإن الأذن الواعية ليتذكر صاحبها بحوادث التاريخ، وما لقيته الأقوام في الدنيا من الجزاء الإلهي فيعي بذلك حقيقة الآخرة، وأنها حقًّا لأذن واعية تلك التي تعاين الغيب من خلال الشهود، وتتسع آفاقها لرؤية المستقبل عبر الحاضر، فلا تُفاجأ بالواقعة، إنما تأتي مستعدة لتجاوز عقبتها بزاد التقوى وذخيرة العمل الصالح. بلى؛ إن الواعين يعيشون في الدنيا ولكن أرواحهم في الآخرة، بل إن حضورها في قلوبهم أعظم من حضور الدنيا، فتراهم لا يغفلون عنها لحظة واحدة، وحيث ينقل لهم القرآن مشاهد منها فكأنها قائمة بين أعينهم وقلوبهم، كما وصفهم صاحب الأذن الواعية الإمام علي عليه السلام بقوله: «فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وأَكُفِّهِمْ ورُكَبِهِمْ وأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ يَطْلُبُونَ إِلَى

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٣، ص٢٨٢.

(٢) بحار الأنوار: ج٣٤، ص٣٣١.

(٣) القرطبي: ج ١٨، ص ٢٦٤، الدر المنثور: ج٦، ص٢٦٠.

(٤) المصدر ذكر ذلك وذكره الكشاف، الرازي، فتح القدير، الدر المنثور، شواهد التنزيل للحسكاني، أسباب النزول للنيسابوري، عند تفسير الآية فراجع، الدر المنثور: ج٦، ص٢٦٠.

اللهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ»[1]، وكل ذلك ينعكس على سلوكهم في الحياة.

ولقد جاءت الآية: (١٢) مؤكدة على دور الآذان الواعية بين الحديث عن تاريخ الأقوام السالفة (الآيات: ٤-١١)، والحديث عن الآخرة (الآيات: ١٣-١٨) في هذا الدرس وامتدادها حتى الآية: (٣٧) في الدرس اللاحق، لأنها وحدها القادرة على استيعاب مواعظ التاريخ وآياته، والإيمان بحديث الوحي عن الآخرة ووعيه، فحقائق الغيب -سواء غيب التاريخ أو غيب الآخرة- حقائق كبيرة، بحاجة إلى أذن مرهفة تنفذ بسمعها من الآيات إلى ما تهدي إليه، وقلب واسع كبير يحتمل أن يكون وعاء لها.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ ويبدو أنها النفخة الثانية لأنها التي يقوم فيها الناس للحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وما يؤكد أنها الثانية أن السياق هو سياق الحديث عن الجزاء، مما يستلزم الكلام عن النفخة الثانية التي يكون الجزاء بعدها. وهو لا يحتاج حتى يهلك الأحياء بالنفخة الأولى ويبعثهم قياما بالثانية إلى أكثر من مجرد نفخة واحدة، لما أعطاه الله من القدرة العظيمة. قال العلامة الطباطبائي: «وفي توصيف النفخة بالواحدة إشارة إلى مضي الأمر، ونفوذ القدرة، فلا وهن فيه حتى يحتاج إلى تكرار النفخة»[2].

ويا لها من نفخة صاعقة مخيفة، لا تذهب بالأنفس وحسب بل تزلزل الكائنات وكأنها ترليونات الترليونات من القنابل النووية التي تنفجر في دفعة واحدة، فتدمر الكون ونظامه، بحيث تخرج الأرض عن مدارها، وتستأصل الجبال الراسية من فوقها، ثم يدكها الله ببعضها ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ وأصل الدك هو الهدم، يقال: دك الجدار إذا هدمه وسواه مع الأرض، ولا ندري هل يضرب الله أجزاء الأرض والجبال ببعضها بتركيز الجاذبية تركيزا هائلا بين أجزائهما، أو برفعها تماما مما يسبب تلاشيها، أم يضرب الجبال بالأرض والعكس، أم يرطمهما معا بكوكب آخر؟ المهم أنهما يتداكان.. وفي الآية إشارة إلى حقيقة علمية جيولوجية: إذ لم يقل الله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ فقط، باعتبار أن الجبال جزء منها، وذلك لأنها في الواقع كيانات شبه مستقلة، جعلها الله فيها، فنصبها وأرساها أوتادا للأرض[3]، فهي كما الشجرة لها هيكلها وجذورها الضاربة في التخوم.. كما نهتدي إلى أن الأرض تكون مستوية بالدك يوم القيامة، ولذلك خص القرآن الجبال بالذكر لأنها الزوائد المرتفعة على سطحها. و يتزامن بعث الناس

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٩٣.

(٢) تفسير الميزان: ج١٩، ص٣٩٧.

(٣) راجع الآيات: سورة الغاشية: آية ١٩، سورة النازعات: آية ٣٢، سورة النبأ: آية ٧.

للحساب مع تلك الأحداث الكونية الرهيبة لكي تتجلى لهم قدرة الله، وتتساقط عندهم كل الحجب والتبريرات هنالك، بل في الدنيا أيضا لمن يؤمن بالآخرة ويعي آياتها.

[١٥-١٧] وبعد أن يصور لنا القرآن مشهدا من القيامة يؤكد أنها أعظم الوقائع التي تمر بالإنسان، لأنها تدمر الكائنات، وتسوق الإنسان إلى مصيره الأبدي ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ والتعريف بالألف واللام يعظمها في ذهن السامع، ويؤكد أن للإنسان معها عهدا أودعه الله في فطرته، فهي ليست نكرة للبشر السوي.. وإن في تسميتها (القيامة) بالواقعة يأتي للتأكيد باللفظ على كونها حقيقة لا بد من حصولها، فكون الشيء الواقعي في الغيب، ويفصل الإنسان عنه الزمن المستقبل لا ينفي أصل وجوده، وهذه مسلمة فطرية وعقلية، وكأن الآية تقول: إن تكذيبكم أيها البشر بالآخرة لن يغير شيئا فيها، ولا فيما يتصل بها من الأحداث، فهل يمنع تكذيبنا - مثلا - من تأثير نفخة إسرافيل في الأرض والجبال؟ كلا.. و يوصلنا كتاب الله بالغيب، إذ يضع أمامنا مشهدا آخر من مشاهد الواقعة وهو انشقاق السماء المحبوكة والمتينة الخلق إلى حد تكون فيه واهية كالخرقة البالية التي تصير رمادا أو هباء ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ المحبوكة التي لا فروج فيها ولا ضعف ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي شديدة الضعف وقليلة التماسك، ليس في هيكلها وحسب بل في جزئيات كيانها، مما يجعلها تتبدل شيئا آخر كالمهل أو الدهان كما قال الله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وهكذا لا تبقى السماء سقفا محفوظا يمنع عن الأرض النيازك والأخطار. ومشهدا آخر عظيم هو منظر الملائكة على الأرجاء والملائكة الثمانية العظام الذين يحملون عرش الله فوقهم. ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ أي أطرافها ونواحيها، قالوا: إن الضمير عائد إلى السماء التي تشقق وتصير قطعا وأجزاء على كل واحدة منها ملائكة كثيرون. ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ من أعظم ملائكة الله، وربما أعظمهم على الإطلاق، ولـ (فوقهم) تفسيران:

الأول: فوقهم بالمسافة.

الثاني: فوقهم بالمرتبة، فالثمانية يحملون العرش من أركانه ومعهم من الملائكة من يحملونه من أطرافه الأخرى، أو أن الثمانية لهم الرئاسة على بقية الملائكة فهم فوقهم مرتبة، وبهذا نجمع بين الروايات القائلة: بأنهم ثمانية، والقائلة: بأنهم أكثر من ذلك.

ولقد خاض بعض المفسرين في مواضيع لا داعي لها، واختلفوا مع بعضهم في عدد الملائكة وأشكالهم، وهي بحوث لم نُكلَّف بها، بل توجه أئمة الهدى عليهم السلام للرد على الأفكار المادية التي حاول أصحابها إثبات معتقداتهم التجسيدية والتشبيهية من خلال الفهم الخاطئ لهذه الآية الكريمة، حيث شبهوا عرش الله بعروش السلاطين التي يتربعون عليها. تعالى الله عما

يصفون علوا كبيرا. قال سليمان المحمدي: «سأل بعض النصارى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال له: أَخْبِرْنِي عَنْ رَبِّكَ أَيَحْمِلُ أَوْ يُحْمَلُ، فَقَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: **إِنَّ رَبَّنَا جَلَّ جَلَالُهُ يَحْمِلُ وَلَا يُحْمَلُ**. قَالَ النَّصْرَانِيُّ: وَكَيْفَ ذَلِكَ وَنَحْنُ نَجِدُ فِي الْإِنْجِيلِ «وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ»، فَقَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: **إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَحْمِلُ الْعَرْشَ وَلَيْسَ الْعَرْشُ كَمَا تَظُنُّ كَهَيْئَةِ السَّرِيرِ وَلَكِنَّهُ شَيْءٌ مَحْدُودٌ مَخْلُوقٌ مُدَبَّرٌ وَرَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ مَالِكُهُ، لَا أَنَّهُ عَلَيْهِ كَكَوْنِ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِحَمْلِهِ فَهُمْ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ بِمَا أَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ**. قَالَ النَّصْرَانِيُّ: صَدَقْتَ رَحِمَكَ اللهُ»[1].

وقال الإمام الرضا عليه السلام: «**الْمَحْمُولُ مَا سِوَى اللهِ وَلَمْ يُسْمَعْ أَحَدٌ آمَنَ بِاللهِ وَعَظَمَتِهِ قَطُّ، قَالَ فِي دُعَائِهِ يَا مَحْمُولُ**، قَالَ أَبُو قُرَّةَ فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ وقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: **الْعَرْشُ لَيْسَ هُوَ اللهَ وَالْعَرْشُ اسْمُ عِلْمٍ وَقُدْرَةٍ وَعَرْشٍ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ، ثُمَّ أَضَافَ الْحَمْلَ إِلَى غَيْرِهِ خَلْقٍ مِنْ خَلْقِهِ لِأَنَّهُ اسْتَعْبَدَ خَلْقَهُ بِحَمْلِ عَرْشِهِ وَهُمْ حَمَلَةُ عِلْمِهِ**»[2].

والعرش حقيقة وهو رمز الهيمنة والسلطان والعلم، والموضع الذي يتجلى فيه علم الله وقدره وقضاؤه وأمره للملائكة، الذين هم بدورهم يُمضون ما يؤمرون به، ولعل أهم حكمة لخلق العرش أنه تعالى قد أوكل إلى الملائكة إنفاذ مقاديره وتدبيره للخلق، وهو الذي لا يحده مكان ما كان لهم أن يتصلوا به، وكيف يتصل المخلوق المحدود بالخالق لولا خلق الأسماء والأشياء كالبيت الذي يكون مركز عبادته، والعرش الذي يكون مركز إدارته للكائنات وهيمنته.

وقد أولت بعض النصوص الحملة في خير خلق الله قال الإمام الصادق عليه السلام: «**حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَالْعَرْشُ الْعِلْمُ ثَمَانِيَةٌ أَرْبَعَةٌ مِنَّا وَأَرْبَعَةٌ مِمَّنْ شَاءَ اللهُ**»[3]، وفي حديث آخر: «**حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثَمَانِيَةٌ: أَرْبَعَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَأَرْبَعَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ، فَأَمَّا الْأَرْبَعَةُ مِنَ الْأَوَّلِينَ فَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى** عليهم السلام، **وَأَمَّا الْأَرْبَعَةُ مِنَ الْآخِرِينَ فَمُحَمَّدٌ وَ عَلِيٌّ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، وَمَعْنَى** ﴿يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ [غافر: ٧] **يَعْنِي الْعِلْمَ**»[4]. وإذا كان الظاهر أن الملائكة هم الذين يحملون العرش فإن الباطن هو أولئك الذين خُلِقت الملائكة لأجلهم وهم الصفوة من عباد الله. أليس قد خلق الأشياء لأجل الإنسان، وأي إنسان أعظم من الأنبياء والأوصياء؟.

[١٨] وأعظم مشهد في القيامة هو عرض الناس للحساب والجزاء، لأنه أشد رهبة،

---

(١) بحار الأنوار، ج٣، ص٣٣٤.

(٢) الكافي: ج١، ص١٣٠.

(٣) الكافي: ج١، ص١٣٢.

(٤) بحار الأنوار: ج٥٥، ص٢٧.

حيث يلقى الإنسان حسابه ومصيره الأبدي، ولأنه الهدف الأساسي من وراء كل أحداثها ومشاهدها المرعبة. ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ وإذا كانت لا تخفى عند الحساب والجزاء ولا حتى واحدة من الأعمال التي أخفاها الإنسان وقام بها في السر، فكيف بالظاهر منها؟ فالحساب إذن دقيق، لأنه يتأسس على علم الله المحيط بكل شيء، وبالحساب يوم القيامة يتجلى عدل الله ولطفه وغضبه وعلمه، قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ اللهِ حَتَّى يَسْأَلَهُ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عُمُرِكَ فِيمَا أَفْنَيْتَهُ وَجَسَدِكَ فِيمَا أَبْلَيْتَهُ وَمَالِكَ مِنْ أَيْنَ كَسَبْتَهُ وَأَيْنَ وَضَعْتَهُ وَعَنْ حُبِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ**»[1]، ويعرض أعمال العباد ليظهر الحق جليًّا، كما تتأكد القارعة والواقعة بوقوعها، ولذلك سميت القيامة بالحاقة.

وكلمة أخيرة: إننا نلاحظ في القرآن أنه لا يكاد يتحدث عن التاريخ ومصير الأقوام السالفة إلا ويصل ذلك بالحديث عن الآخرة، فما هو السر في ذلك وما هي العلاقة بينهما؟.

١ - لأن الإسلام لا يريد للإنسان أن يعيش لحظته الراهنة فقط، إنما يعيش الحاضر على ضوء الماضي والمستقبل معا، فيتحرك من حيث انتهى الآخرون، ويتعظ بتجاربهم لبناء حياة سعيدة في الحاضر، وفي الوقت نفسه يخطط ويعمل لكي يربح المستقبل.

٢- ولأن الآخرة كما التاريخ غيب لا سبيل للإنسان إلى معرفته إلا بالآيات والآثار الدالة عليه، والذي يكفر بالآخرة لأنه لا يعاينها بذاتها كالذي يكفر بالتاريخ لأنه لم يعاصر أحداثه، مع أن الأدلة قائمة تهدي إليه.

٣- ويتشابه التاريخ مع الآخرة في كون الاثنين عرصة تكشف عن سنة الجزاء الحاكمة في الحياة، وهيمنة الله عليها، وتمايز المؤمنين من سواهم، وهكذا الكثير من الحقائق، بل إن التاريخ هو الآية المادية العظمى التي تهدي إلى الإيمان بالآخرة والجزاء.

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص٢٥٩.

وإنه لحق اليقين

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ (٢٧) مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ[1] (٣٦) لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ (٣٧) فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٥٢)﴾.

هدى من الآيات:

يأتي كل إنسان إلى الدنيا وأمامه طريقان وفرصة واحدة: طريق الحق الذي ينتهي به إلى

(١) غسلين: الصديد الذي ينغسل بسيلانه من أبدان أهل النار، ووزنه فعلين من الغسل.

الجنة والنعيم، وطريق الباطل الذي ينتهي به إلى النار والعذاب، وأما الفرصة فهي عمره الذي يفنيه في أحد الطريقين، فإما يختار الجنة ويسعى لها سعيها أو العكس، فالدنيا وحدها هي دار الابتلاء والعمل وحيث تقع الواقعة ويعرض للحساب فإنه لا يملك تبديلا ولا تحويلا، لأن الآخرة دار الحساب والجزاء فقط.

وفي الدرس الأخير من سورة الحاقة يضعنا القرآن وجها لوجه أمام هذه الحقيقة مؤكدا أن هناك عاقبتين وفريقين، فإما العيشة الراضية في الجنة التي هي نصيب أصحاب اليمين، وإما تصلية الجحيم جزاء لأصحاب الشمال. وبعد أن يبين في الأثناء أن المصير في الآخرة متأسس على موقف الإنسان و عمله في الدنيا يوجهنا ربنا إلى رسالته الحقة الصادقة باعتبارها الصراط المستقيم والنهج الذي يقود إلى الفوز والفلاح يوم القيامة، مدافعا عنها ضد ضلالات أعدائه وأعداء رسوله الذين قالوا: إنها شعر تارة وكهانة تارة أخرى جحودا واستكبارا، وإنها لتذكرة للمتقين وحسرة على الكافرين، وإنها لحق اليقين، فسبحان الله عما يصفون ويشركون.

بينات من الآيات:

[١٩] بعد عرض الناس للحساب تظهر حقيقتهم، وتتعين مصائرهم على أساسها في ظل الهيمنة المطلقة للحق، ولعله لذلك سُمِّيت القيامة بالحاقة، فإما أن يكون الحق مع الإنسان فيقوده إلى الفوز بالجنة، وإما أن يكون ضده فيسوقه إلى بئس المصير في جهنم. ويكشف لنا القرآن عن غيب الآخرة ليضعنا أمام مصيرين لا ثالث لهما بعد أن وضعنا في أجواء القيامة وأحضر مشاهدها في قلوبنا لكي نختار أحد الاثنين، وبالطبع نرى السياق القرآني يرجِّح لنا بعرضه الحكيم خيار أصحاب اليمين. ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ مما يعني فوزه بالجنة والرضوان، لأن اليمين رمز ذلك، وكناية عن اليمن والبركة والخير، ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾، قال العلامة الطبرسي: «﴿هَآؤُمُ﴾ أمر للجماعة بمنزلة هاكم وأضاف: بمنزلة خذوا، وإنما يقول ذلك سرورا لعلمه بأنه ليس فيه إلا الطاعات، فلا يستحي أن ينظر فيه غيره»[(١)]، وقال الرازي: دل ذلك على أنه بلغ الغاية في السرور فأحب أن يظهره لغيره حتى يفرحوا بما ناله[(٢)]، ولعل خطابه موجه لإخوانه من أصحاب الجنة، وبالخصوص أئمة الحق الذين ينصبهم الله موازين للأمم عند الحساب، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١].

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص ٤٣٨.
(٢) التفسير الكبير للرازي: ج٣٠، ص١١١.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «كُلُّ أُمَّةٍ يُحَاسِبُهَا إِمَامُ زَمَانِهَا، وَيَعْرِفُ الْأَئِمَّةُ أَوْلِيَاءَهُمْ وَأَعْدَاءَهُمْ بِسِيَاهُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ وَهُمُ الْأَئِمَّةُ ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ فَيُعْطُونَ أَوْلِيَاءَهُمْ كِتَابَهُمْ بِيَمِينِهِمْ فَيَمُرُّونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِلَا حِسَابٍ، وَيُؤْتُونَ أَعْدَاءَهُمْ كِتَابَهُمْ بِشِمَالِهِمْ فَيَمُرُّونَ إِلَى النَّارِ بِلَا حِسَابٍ، فَإِذَا نَظَرَ أَوْلِيَاؤُهُمْ فِي كِتَابِهِمْ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ: ﴿هَاؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾»[1].

وكتاب المؤمنين الذي سُجِّلت فيه صالحاتهم هو جوازهم على الصراط إلى الجنة، وشهادتهم في الانتهاء إلى الصالحين والأبرار، وتسجيل الله لهذه اللقطة ﴿ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ يأتي للتأكيد على أن أحدا لا يدخل الجنة من دون ثمن، بل إن الله خلق كل واحد وأعطاه الإرادة والاختيار بأن يكتب بنفسه حياته ومستقبله المصيري، وصفحات الإنسان التي يتألف منها كتابه هي ساعات عمره التي يكتب فيها ما يشاء من الأعمال التي تحدد مصيره في الآخرة، وفي الخبر النبوي أنه: «يُفْتَحُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ عُمْرِهِ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ خِزَانَةً عَدَدَ سَاعَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَخِزَانَةٌ يَجِدُهَا مَمْلُوءَةً نُوراً وَسُرُوراً فَيَنَالُهُ عِنْدَ مُشَاهَدَتِهَا مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ مَا لَوْ وُزِّعَ عَلَى أَهْلِ النَّارِ لَأَدْهَشَهُمْ عَنِ الْإِحْسَاسِ بِأَلَمِ النَّارِ وَهِيَ السَّاعَةُ الَّتِي أَطَاعَ فِيهَا رَبَّهُ ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ خِزَانَةٌ أُخْرَى فَيَرَاهَا مُظْلِمَةً مُنْتِنَةً مُفْزِعَةً فَيَنَالُهُ عِنْدَ مُشَاهَدَتِهَا مِنَ الْفَزَعِ وَالْجَزَعِ مَا لَوْ قُسِمَ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ لَنُغِّصَ عَلَيْهِمْ نَعِيمُهَا وَهِيَ السَّاعَةُ الَّتِي عَصَى فِيهَا رَبَّهُ ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ خِزَانَةٌ أُخْرَى فَيَرَاهَا فَارِغَةً لَيْسَ فِيهَا مَا يَسُرُّهُ وَلَا مَا يَسُوؤُهُ وَهِيَ السَّاعَةُ الَّتِي نَامَ فِيهَا أَوِ اشْتَغَلَ فِيهَا بِشَيْءٍ مِنْ مُبَاحَاتِ الدُّنْيَا فَيَنَالُهُ مِنَ الْغَبْنِ وَالْأَسَفِ عَلَى فَوَاتِهَا حَيْثُ كَانَ مُتَمَكِّناً مِنْ أَنْ يَمْلَأَهَا حَسَنَاتٍ مَا لَا يُوصَفُ وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾»[2]، أما المتقون الذين لا يفتُرون عن طاعة الله ويذكرونه دائما وعلى كل حال ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فإن أكثر صفحات كتبهم تتألق بنور الأعمال الصالحة التي يستبشرون بها، ويدعون الآخرين لقراءتها يوم القيامة.

[٢٠] ويؤكد الله أن الإيمان بالجزاء (الآخرة) أصل كل خير، وأساس كل عمل صالح في حياة المؤمنين، فهو الدافع الذي يقف وراء الصالحات، والجامع المشترك بينها كلها، وهذه الحقيقة تتضح لو قمنا بعملية استقراء دقيقة لحياة واحد من أصحاب اليمين، الذين يعلن الواحد منهم هذه الحقيقة في صفوف المحشر يومئذ ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ ولا يقول: سأعرف أو سأعلم حسابيه، لأن الإنسان على نفسه بصيرة فهو الذي يكتب كتابه بنفسه.. إذن فهو يعلم بحسابه ولو بصورة مجملة، فكيف والمؤمنون يحاسبون أنفسهم؟ إنما يريد سألاقي من

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٨٤، بحار الأنوار: ج٨، ص٣٣٩.
(٢) بحار الأنوار: ج ٧، ص٢٦٢.

يحاسبني وهو الله وسأجازى، لأن ما بعد الحساب هو المقصود لذاته. والمعنى أن كل ما تقرؤونه في الكتاب من الصالحات هو ثمرة لشجرة الإيمان بالآخرة، ونبتة جذرها يعود إلى ذلك.

وفي معنى الظن اختلفت تعابير المفسرين، فقال الزمخشري وتابعه الفخر الرازي: «أي علمت، وإنما أجري الظن مجرى العلم لأن الظن الغالب يقوم مقام العلم في العادات والأحكام، ويقال: (أظن ظنا كاليقين أن الأمر كيت وكيت)»[1] وهو ضعيف، لأن فيه تضعيف لكون الظن هنا بمعنى العلم واليقين الذي ذهب إليه أغلب المفسرين وهو الأقرب ودلت عليه النصوص، قال الإمام علي عليه السلام وقد سأله رجل عما اشتبه عليه في القرآن: «وأما قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ وقوله للمنافقين: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ فإن قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ يَقُولُ: إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي أُبْعَثُ فَأُحَاسَبُ لِقَوْلِهِ: ﴿مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾، وَقَوْلِهِ لِلْمُنَافِقِينَ: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ فَهَذَا الظَّنُّ ظَنُّ شَكٍّ فَلَيْسَ الظَّنُّ ظَنَّ يَقِينٍ، وَالظَّنُّ ظَنَّانِ: ظَنُّ شَكٍّ وَظَنُّ يَقِينٍ، فَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ مَعَادٍ مِنَ الظَّنِّ فَهُوَ ظَنُّ يَقِينٍ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا فَهُوَ ظَنُّ شَكٍّ»[2].

ويبدو لي أن الظن في هذه الآية مرحلة متقدمة من العلم واليقين، لأنه بمعنى الاستحضار والتصور، فإن المؤمنين المتقين ليركزون الفكر في أمر الآخرة ويتخيلون مشاهدها الغيبية قائمة في الشهود أمام أعينهم، فتارة يتصورون الجنة وما فيها من النعيم، وأخرى يتصورون النار وما فيها من شديد العذاب، مما يزرع فيهم الخوف والرجاء، بل ويرون الجنة والنار بكل وضوح في الأعمال الدنيوية. وإن يقين المؤمنين بوجوب الحساب يجعلهم يتحركون في الحياة على أساس ذلك، فإذا بهم يحاسبون أنفسهم ويسعون جهدهم أن تكون صحائفهم منورة بالصالحات، فلغتهم في الحياة لغة رياضية ذات حسابات دقيقة في علاقاتهم، وأوقاتهم، وجهودهم، وإنفاقهم.

[٢١-٢٣] ويبين الوحي جانبا من نعيم كل صاحب يمين فيقول: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي كاملة لا يعتريها نقص ولا عيب، فإن الرضا لا يحصل إلا إذا وجد الإحساس بالكمال وعدم النقص، وكون المؤمن في عيشة راضية دليل على بلوغه قمة الرضا لأن رضا المحيط والعيشة جزء من رضاه ويعززه، فليس ثمة في محيطه شيء ولا أحد غير راضٍ يبعث في نفسه عدم الرضا والراحة النفسية، فنعيم الجنة وحورها وكل شيء فيها ليفرح بالمؤمن ويرضى به. وفي الآية فكرة عميقة وهي: أن المؤمن أين ما حل يحبه المحيط، وتستأنس به الحياة، لأنه

---

(١) الكشاف: ج ٤ ص ٦٠٣، الرازي: ج ٣٠ ص ١١١.

(٢) بحار الأنوار: ج ٩٠، ص ١٤٠.

مبارك أين ما كان، يرضى عنه الناس والحيوان والنبات وحتى الأرض والجمادات التي تربطه بها رابطة، فهو يخدم الناس ويتعب نفسه من أجلهم، ويرفق بالحيوان، ويرعى النبات، ويصلح الأرض، ويستخدم كل شيء في طاعة ربه ولأهدافه المحددة، مما يسبب شعورا داخله بالرضا، ويضفي جو الرضا على ما حوله، في حين أن الكافر على العكس من ذلك تماما، نفسه ساخطة، وكل شيء ساخط منه، لأن علاقته ليست سليمة بما حوله.

قال الرسول ﷺ: «**النَّاسُ اثْنَانِ وَاحِدٌ أَرَاحَ وَآخَرُ اسْتَرَاحَ فَأَمَّا الَّذِي اسْتَرَاحَ فَالْمُؤْمِنُ إِذَا مَاتَ اسْتَرَاحَ مِنَ الدُّنْيَا وَبَلَائِهَا وَأَمَّا الَّذِي أَرَاحَ فَالْكَافِرُ إِذَا مَاتَ أَرَاحَ الشَّجَرَ وَالدَّوَابَّ وَكَثِيراً مِنَ النَّاسِ**»[1]، فهم غير راضين به، ولا مستأنسين لوجوده، بعكس المؤمن الذي ترضى به عيشته حتى إذا مات تأثر له وحزن عليه كل شيء، حتى جاء في الأخبار أنه: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَمُوتُ فِي غُرْبَةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَيَغِيبُ عَنْهُ بَوَاكِيهِ إِلَّا بَكَتْهُ بِقَاعُ الْأَرْضِ الَّتِي كَانَ يَعْبُدُ الله عَلَيْهَا، وَبَكَتْهُ أَثْوَابُهُ، وَبَكَتْهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ الَّتِي كَانَ يَصْعَدُ بِهَا عَمَلُهُ، وَبَكَاهُ الْمَلَكَانِ الْمُوَكَّلَانِ بِهِ**»[2]، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فالنصوص كثيرة ومستفيضة تحدثنا عن رضا الجنة ونعيمها حتى الفاكهة والطير والقصور بسكانها من المؤمنين، فقد جاء في الروايات أن الفاكهة تخاطب ولي الله أن كلني قبل هذه وتلك، وأن الطير بعد أن يأكله يعود سويًا فيطير في الجنة فرحا يفتخر على سائر الطيور قائلا: من مثلي وقد أكل مني ولي الله؟[3]. وفكرة أخرى نفهمها من الآية وهي: أن المؤمن لفي عيشة راضية حتى في الدنيا بسبب تسليمه لما يقسمه ربه له فيها، وبسبب تطلعه إلى الآخرة ونعيمها، فلا يسأم من فقر، ولا تعكر صفو عيشه مصيبة، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَقَدْ جَعَلَ الله لَهُ مِنْ إِيمَانِهِ أُنساً يَسْكُنُ إِلَيْهِ حَتَّى لَوْ كَانَ عَلَى قُلَّةِ جَبَلٍ**»[4]، ولرضاه في الدنيا لله فإنه يجعله في كمال الرضا معنويًا وماديًا في الآخرة.

﴿**فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ**﴾ في درجتها ومقامها المعنوي، وفي ارتفاعها فإن خير الجنان منظرا وثمرا ما نبت على الروابي وما كان شجرها عاليا رفيعا مما يزيدها روعة وظلالا، ولكن علو الجنة ليس بالذي يجعل ثمارها لا تطالها الأيدي، كلا.. إنما هي أقرب ما تكون ثمرة من قاطفها وجانيها ﴿**قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ**﴾ بحيث لا يحتاج المؤمنون لبذل جهد وعناء من أجل جنيها وأكلها، وللدانية بالإضافة إلى معنى القرب (من الدنو) معنى النضج والبلوغ، فهي مقتربة من حين قطافها وقطعها من شجرتها. قال رسول الله ﷺ: «**مِنْ قُرْبِهَا مِنْهُمْ يَتَنَاوَلُ الْمُؤْمِنُ مِنَ النَّوْعِ**

---

(١) بحار الأنوار: ج٦، ص١٥١.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٤، ص ٦٦.
(٣) راجع: بحار الأنوار: ج٨، باب: ٢٣ الجنة ونعيمها..
(٤) بحار الأنوار: ج٦٤، ص١٤٨.

الَّذِي يَشْتَهِيهِ مِنَ الثِّمَارِ بِفِيهِ وهُوَ مُتَّكِئٌ، وإِنَّ الْأَنْوَاعَ مِنَ الْفَاكِهَةِ لَيَقُلْنَ لِوَلِيِّ الله يَا وَلِيَّ الله كُلْنِي قَبْلَ أَنْ تَأْكُلَ هَذَا قَبْلِي»[١].

[٢٤] وهنالك يُدعى المؤمنون إلى مأدبة الله، والمشتملة على ما لذَّ وطاب من أنواع الأكل والشراب التي لا يعلمها إلا هو عز وجل ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ لا ينغصه عيب فيه ولا سبب خارجه، وإنما يبعث الهناء بمنظره (هو وآنيته ومائدته) وبطعمه اللذيذ وفوائده الجمة. وفي الدعوة بفعل الأمر ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ إشارة إلى فكرتين:

الأولى: الإباحة، فكل شيء هناك مأكول ومشروب حلال مباح للمؤمنين لا حرام فيه.

الثانية: أن الله يعطي أصحاب الجنة القدرة الواسعة على الاستلذاذ بنعيمها فهم يستطيعون الأكل والشرب كلما شاؤوا لا يمنعهم مانع، قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ»[٢].

ولأن منهج الرسالة يهدف إصلاح الإنسان فإن القرآن لا يذكر قصص التاريخ ولا مشاهد القيامة إلا ويوجد رابطا بينه وبينها، ليحدد لنا الموقف السليم تجاه ما يذكره، كما سبق وأن قلنا: بأن القرآن يريدنا ألَّا نعيش اللحظة الراهنة فقط، إنما نعيش الحاضر على ضوء الماضي والمستقبل.. كذلك يبين الوحي أن نعيم الجنة نتيجة للعمل الصالح في الدنيا، ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾، وبهذا ينسف الأماني والظنون الكاذبة، ويضع الإنسان أمام المسؤولية. وقد ذهب أكثر المفسرين إلى القول بأن ﴿أَسْلَفْتُمْ﴾ تعني الصيام، واستشهد الدر المنثور بقول الله في حديث قدسي: «يَا أَوْلِيَائِي! طَالَمَا نَظَرْتُ إِلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ قَلَصَتْ شِفَاهُكُمْ عَنِ الْأَشْرِبَةِ، وَغَارَتْ أَعْيُنُكُمْ، وَجَفَّتْ بُطُونُكُمْ، كُونُوا الْيَوْمَ فِي نَعِيمِكُمْ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ»[٣]، والتفت الفخر الرازي إلى معنى لطيف للكلمة فقال: والإسلاف في اللغة تقديم ما ترجو أن يعود عليك بخير فهو كالإقراض، ومنه يقال: أسلف في كذا إذا قدَّم فيه ماله[٤].

والذي أراه أن الصيام أحد مفردات الإسلاف، أما الكلمة فهي عامة تتسع لكل الصالحات كالإنفاق والجهاد والصلاة و.. التي هي ثمن الجنة بعد فضل الله و: «شَتَّانَ مَا بَيْنَ

---

(١) الكافي: ج٨، ص٩٩.

(٢) بحار الأنوار: ج٨، ص١٤٩

(٣) الدر المنثور: ج ٦، ص ٢٦٢.

(٤) التفسير الكبير للرازي: ج ٣٠، ص١١٣.

عَمَلَيْنِ عَمَلٍ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ وتَبْقَى تَبِعَتُهُ، وعَمَلٍ تَذْهَبُ مَؤُنَتُهُ ويَبْقَى أَجْرُهُ»[1]، وذلك هو الفرق بين أصحاب النار وأصحاب الجنة.

[٢٥-٢٧] ويمضي السياق قدما في تصوير جزاء الكفار الذين يعطون كتبهم بشمالهم دلالة على الشؤم وسوء المصير، وذلك لتتوازن معادلة الخوف والرجاء في ذهن الإنسان ويسمو بنفسه في آفاق القرب من الله، يدفعه الرجاء للمزيد من العمل الصالح، ويردعه الخوف عن محارم الله واقتراف السيئات. ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾ الذي اختطه وألَّف ما فيه بنفسه ﴿بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾، وتعكس هذه الآية مدى الفارق بين الاثنين: الأول: الذي يكاد يطير فرحا بكتابه، ويدعو الآخرين لقراءته حتى يشاركوه السرور، والآخر الذي ليس فقط لا يدعو الآخرين لقراءة كتابه، بل يتعذب هو خجلا وحسرة مما فيه، إلى حد يتمنى لو ذهب به إلى العذاب دون أن يقرأ كتابه.

قال الفخر الرازي: «واعلم أنه لما نظر في كتابه يذكر قبائح أفعاله خجل منها، وصار العذاب الحاصل من تلك الخجالة أزيد من عذاب النار، فقال: يا ليتهم عذبوني بالنار وما عرضوا هذا الكتاب الذي ذكَّرني قبائح أفعالي، حتى لا أدفع هذه الخجالة، وهذا ينبهك إلى أن العذاب الروحاني أشد من العذاب الجسماني»[2]، وإلى مثل هذا ذهب أكثر المفسرين. ثم يضيف القرآن بلسان حال أصحاب الشمال قائلا: ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ مما يدل على وجود ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الفضيحة بين الناس والذي يحل بأصحاب الجحيم فور إعطائهم كتبهم بشمالهم مما يعرِّفهم لأهل المحشر بأنهم من الخاسرين المعذبين، والعذاب النفسي (بالخجل والندم) الذي يحل بالنظر في صحائفهم المسودة بالقبائح والسيئات التي اكتتبوها لأنفسهم، والعذاب الذي يتلقونه عند ورودهم النار، ولذلك فإنهم يتمنون لو أن موتتهم الدنيوية كانت النهاية، فلا بعث ولا حساب ولا جزاء بعدها.

﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ و القاضية التي ينتهي بها كل شيء. وحينما تدقق النظر في الآيات قد تهتدي إلى حقيقة لطيفة وذلك من تكرار صيغة التمني على لسان أصحاب النار (الآيات: ٢٥-٢٧) وهي: أن من أهم أسباب الخسران هو التمني الذي يعتمد عليه الكافر بدلا عن العمل والسعي، والذي لا يغير في الواقع شيئا، لا في الدنيا ولا في الآخرة.. وأنه قادر على النجاة من سوء العاقبة والجزاء والانتقال من أصحاب الشمال إلى أصحاب اليمين ولكن عبر السعي والعمل، وليس بالتمنيات الخادعة التي يلوكها بلسانه حتى في عرصة القيامة.

---

(١) نهج البلاغة: حكمة: ١٢١.

(٢) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١١٣.

[٢٨-٣٠] وحيث إن القيامة -كما سبق وبينا- سميت بالحاقة لكونها تحق الحق (تظهره وتغلّبه) فإن أصحاب الشمال الذين حجبهم ضلالهم عن معرفة الحقائق والتسليم لها في الدنيا تزيل حوادث الآخرة وأهوالها الغشاوة التي على قلوبهم فيرون الحق بكل وضوح وجلاء، ويكتشفون أخطاءهم الفادحة التي طالما أصروا عليها وحسبوا أنهم يحسنون بها صنعا. وتبرز هنا المفارقة الرئيسية بين المؤمن الذي لا يفاجئه البعث والجزاء، باعتباره كان حاضرا عند هذا الغيب وهو في الدنيا ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾[الحاقة: ٢٠]، وبين الآخر الذي كذب بالآخرة، ووجد نفسه أمام حقيقتها يومئذ فاكتشف أخطاءه في وقت لا تنفع المعرفة ولا ينجي الإيمان. ومن أفدح الأخطاء التي يقع فيها الإنسان، وبالتالي يدخل بسببها أكثر الناس نار جهنم، هو الاعتماد على المال، والحال أنه لا ينفع أحدا في الآخرة، لأن العمل الصالح وحده زاد النجاة والفلاح فيها. إن المال بذاته لا يغني، وإنما ينفع إذا عُمِل به أعمال خير وصلاح بالإنفاق في سبيل الله.. ولم يفعل ذلك أصحاب الشمال لأنهم كفروا بالحساب والجزاء. و الآية توجهنا إلى معنى لطيف للغنى فهو لا يتحقق بوجود المال وكثرته، إنما بأدائه دوره، وهدفه في الحياة، فأصل الغنى من ارتفاع الحاجة، ومع أن المال يقضي للمترفين والمخدوعين بعض الحاجات الظاهرية، وتستطيل به أيديهم إلى كثير من بهارج الدنيا وزخارفها، إلا أن ذلك لا يعد غنى إنما الغنى حقًّا يكون بانقضاء الحاجات الحقيقية للبشر، وأهمها رضا الله والزحزحة عن النار التي لم يوظف أصحاب الشمال وبالذات المترفون منهم أموالهم من أجل قضائها.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ ولقد بينت أحاديث أئمة الهدى المعنى الأصيل للغنى، قال الإمام علي عليه السلام: «**الْغِنَى وَالْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَى الله تَعَالَى**»[1]، وجاء رجل إلى الإمام الصادق عليه السلام فشكا إليه الفقر، فقال: «**لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتَ وَمَا أَعْرِفُكَ فَقِيراً**. قَالَ: وَاللهِ يَا سَيِّدِي مَا اسْتَبَنْتَ (ما عرفت)، وَذَكَرَ مِنَ الْفَقْرِ قِطْعَةً وَالصَّادِقُ عليه السلام يُكَذِّبُهُ، إِلَى أَنْ قَالَ: **خَبِّرْنِي لَوْ أُعْطِيتَ بِالْبَرَاءَةِ مِنَّا مِائَةَ دِينَارٍ كُنْتَ تَأْخُذُ**؟ قَالَ: لَا، إِلَى أَنْ ذَكَرَ أُلُوفَ دَنَانِيرَ وَالرَّجُلُ يَحْلِفُ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ، فَقَالَ لَهُ: **مَنْ مَعَهُ سِلْعَةٌ يُعْطَى هَذَا الْمَالَ لَا يَبِيعُهَا هُوَ فَقِيرٌ؟!**»[2]، والعمل الصالح والولاية هما اللذان يبقيان مع الإنسان ويغنيانه يوم القيامة، وليست الأموال التي تفنى أو يرتحل عنها خالي اليدين.

ويضيف القرآن على لسان من يؤتى كتابه بشماله قوله: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ ولعل من أسباب تقديم الحديث عن المال على الحديث عن السلطان أن المال هو طريق الإنسان للسلطة والحكم والهيمنة في أغلب الأحيان. وفي معنى السلطان ذهب أكثر المفسرين القدماء والجدد إلى

(١) بحار الأنوار: ج٦٩، ص٥٣.
(٢) بحار الأنوار: ج ٦٤، ص ١٤٧.

أنه الحجة، باعتبارها تعطي صاحبها الحق والهيمنة، وتجعل الآخرين يسلمون له، قال القمي: ﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾ أي حجته، ومثله الدر المنثور والكشاف والتبيان، وزاد الرازي بقوله: «ضلت عني حجتي حين شهدت عليّ الجوارح بالشرك»[1]، وما أرجحه أن تصرف الكلمة إلى عموم السلطان، و (الحجة) من مصاديقه، وهناك مصداقان أساسيان آخران تجدر الإشارة إليهما:

الأول: السلطان بمعنى الهيمنة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي عادة ما ترافق المال والثروة عند المترفين، فتزيدهم بعدا عن الحق وغرورا ببقائها، فإنها تسلب بالموت وفي الآخرة بصورة أشمل، وقد أشار إلى هذا المصداق العلامة الطبرسي بقوله: ﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾ أي هلك عني «تسلطي وأمري ونهيي في دار الدنيا على ما كنت مسلطاً عليه فلا أمر لي ولا نهي»[2]، وما أحوج الحكام والمترفين إلى استحضار ذلك المشهد في أذهانهم لعله يدعوهم إلى العدل وتوجيه السلطة في مرضاة الله عز وجل.. وإن الآيتين: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ لهما أيضا لسان حال كل طاغية وحاكم قرعته يد القدرة والجزاء في الدنيا قبل الآخرة.

الثاني: السلطان بمعنى الإرادة، إذ إن الوجه البارز من الكلمة هو الهيمنة التي تجعل إرادة المتسلط ماضية ونافذة، وهذه هي الأخرى تُسلب بكل ما تؤدي إليه الكلمة من معنى، لأن السلطة هنالك للحق ولمن تمسك به. وتؤكد الآية اللاحقة هذا المعنى حيث يأتي أمر الله لملائكة العذاب بوضع الأغلال على أعدائه رمزًا لسلبهم الحرية، فلا يستطيعون حتى حراكا وهم يعذبون، وإنه ليقطع عليهم تمنياتهم وملامتهم لأنفسهم بنقلهم إلى عذاب النار ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ «فَمَا لَهُ مِنْ مَأْخُوذٍ لَا تُنْجِيهِ عَشِيرَتُهُ وَلَا تَنْفَعُهُ قَبِيلَتُهُ»[3]، قال رسول الله ﷺ: «ثُمَّ تَجِيءُ صَحِيفَتُهُ تَطِيرُ مِنْ خَلْفِ ظَهْرِهِ فَتَقَعُ فِي شِمَالِهِ ثُمَّ يَأْتِيهِ مَلَكٌ فَيَثْقُبُ [فَيُقَلِّبُ] صَدْرَهُ إِلَى ظَهْرِهِ ثُمَّ يَفْتِلُ شِمَالَهُ إِلَى خَلْفِ ظَهْرِهِ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ كِتَابَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ: أَيُّهَا الْمَلَكُ كَيْفَ أَقْرَأُ وَجَهَنَّمُ أَمَامِي؟ قَالَ: فَيَقُولُ اللهُ: دُقَّ عُنُقَهُ وَاكْسِرْ صُلْبَهُ وَشُدَّ نَاصِيَتَهُ إِلَى قَدَمَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾، قَالَ فَيَبْتَدِرُهُ لِتَعْظِيمِ قَوْلِ اللهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ غِلَاظٍ شِدَادٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتِفُ لِحْيَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْطِمُ عِظَامَهُ، قَالَ: فَيَقُولُ: أَمَا تَرْحَمُونِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: يَا شَقِيُّ كَيْفَ نَرْحَمُكَ وَلَا يَرْحَمُكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ أَفَيُؤْذِيكَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ أَشَدَّ الْأَذَى، قَالَ: فَيَقُولُونَ: يَا شَقِيُّ وَكَيْفَ لَوْ قَدْ طَرَحْنَاكَ فِي النَّارِ؟ قَالَ: فَيَدْفَعُهُ الْمَلَكُ فِي صَدْرِهِ دَفْعَةً فَيَهْوِي سَبْعِينَ أَلْفَ عَامٍ»[4]، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «وَأَمَّا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ فَخَذَلَهُمْ [فَخَلَّدَهُمْ] فِي النَّارِ وَأَوْثَقَ مِنْهُمُ الْأَقْدَامَ وَغَلَّ مِنْهُمُ

(١) راجع التفاسير المذكور: الدر المنثور: ج٦، ص٢٦٢. الرازي: ج٣٠، ص١٤.
(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٣٩.
(٣) بحار الأنوار: ج٤١، ص١١.
(٤) بحار الأنوار: ج٨، ص٢٩٢.

الْأَيْدِيَ إِلَى الْأَعْنَاقِ وَأَلْبَسَ أَجْسَادَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ وَقُطِّعَتْ لَهُمْ مِنْهَا مُقَطَّعَاتٌ مِنَ النَّارِ»[١]، ولعمري إن أمر الله بالأخذ ليخص بالذات الطغاة من الحكام الذين تسلطوا على رقاب الناس فراح ضحية لأوامرهم بالسجن والتعذيب والقتل الكثير من الأبرياء والصالحين.. وقد ذكر صاحب الكشاف (أنها نزلت في أبي جهل) لأنه كان سلطانا يتعظم على الناس[٢].

[٣١-٣٧] وبعد أن يُغَلّ المجرمون تؤمر الملائكة بواحدهم أن تصليه بالنار ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾، ومن طبيعة الإنسان أنه يَهُبُّ للدفاع عن نفسه أو الهرب عند مواجهة الخطر، أما المجرمون الذين تُغَلّ أيديهم وأرجلهم فإنهم يقاسون عذاب جهنم وعذاب الأغلال في الوقت نفسه، وذلك من أشد ألوان العذاب أن يصطلي الواحد بالنار ولا يجد سبيلا للخلاص والمقاومة. قال الرازي عن المبرد: «أصليته النار إذا أوردته إياها»[٣]، وقال القمي: «أي أسكنوه»[٤]، ويبدو لي أن أصل الاصطلاء من الصلة والوصول، و ﴿صَلُّوهُ﴾، أي اجعلوا النار واصلة إليه كأكثر ما يكون وصولها لأحد واتصالها به كيفا وزمنا، وقيل: صلة الرحم لأن المراد العلاقة الحميمة المتصلة فلا انقطاع فيها.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ أي طولها سبعون ذراعا، والذراع ما يساوي ١٨ بوصة × ٧٠ = ١٢٦٠ بوصة، وهذا الطول كاف لتلتف السلسلة على جميع أجزاء البدن، فكيف وبعض المفسرين يعتبر السبعين للمبالغة، كقول الله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[التوبة: ٨٠]؟! وقد ذهب هنا البعض[٥] إلى أنها سبعون ذراعا ولكن من أذرع الملائكة الطويلة التي لا نعلم قياسها، وقيل بأن الحلقة الواحدة منها ما بين الرحبة في الكوفة ومكة، ونحن لا نخوض في هذا الأمر بل نورد حديثا عن السلسلة مرويًّا عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «وَلَوْ أَنَّ حَلْقَةً وَاحِدَةً مِنَ السِّلْسِلَةِ الَّتِي طُولُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً وُضِعَتْ عَلَى الدُّنْيَا لَذَابَتِ الدُّنْيَا مِنْ حَرِّهَا»[٦]، ويحتمل أنها سلسلة عظيمة تمتد في كل جهنم إلا أن لها أذرعا طول الواحد منها سبعون ذراعا يسلك كل مجرم في أحدها (والله العالم). أما كيف يسلكون فيها؟ فهناك احتمالان:

الأول: أنها تخترق أبدانهم، كأن تدخل من أفواههم وتخرج من أدبارهم وتحرق بها

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٢٩٢.
(٢) الكشاف: ج٤، ص ٦٠٤. أنها نزلت في (الأسود بن عبد الأشد) عن ابن عباس.
(٣) التفسير الكبير للرازي: ج٣٠، ص١١٤.
(٤) تفسير القمي: ج٢، ص٣٨٤.
(٥) راجع: الكشاف: ج٤، ص٦٠٥، والتفسير الكبير للرازي: ج٣٠، ص١١٤.
(٦) بحار الأنوار: ج٨، ص٢٨٠.

أبدانهم من كل ناحية، فأصل السلك من إدخال الشيء في الشيء، كإدخال الإبرة في الخيط، وكذلك ينظم فيه الخرز ونحوه، ويقال: «دخل السلك العسكري أي انسلك في الجندية»[1].

الثاني: أنه يُطوَّق بالسلسلة وتُلفُّ عليه فكأنه يسلك فيها، قال الزمخشري في الكشاف: «أي تلوى عليه حتى تلتف عليه أثناؤها»[2].

وقبل أن ننطلق مع الآيات في بيانها للذنوب الأساسية التي صارت بهم إلى ذلك العذاب المقيم نقف عند اللهجة القرآنية المتفردة بها هذه السورة، أعني إضافة الهاء في الكلمات: (كتابيه، حسابيه، ماليه، سلطانيه) وما هو وزنها من الناحية اللغوية؟.

لقد اختلف المفسرون والقراء أمام هذه الظاهرة القرآنية فقيل:

١ - إن الهاء للسكت والاستراحة ومن ثم يجب الوقف عندها بين الآيات لتصح القراءة ولتثبت الهاء، ثم ترى البعض قد أوجب الوقف معتبرا الهاء جزءا من القرآن لا يجوز حذفه بالوصل عند القراءة ولا بغير ذلك.

٢- وقال البعض: إنها جعلت لنظم رؤوس الآي، وذلك مما لا يليق نسبته لكلام الله عز وجل، لأنه كما تؤكد الآية: (٤١) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، لأن الشاعر يعتبر القافية أصلا فإذا عجز من نظمها تخبط في النحو والصرف والمعنى من أجل حفظها واحدة!. وحاشا لله؛ أنه تعالى لو أراد النظم أن تعجزه القوافي، ثم من قال أن القرآن يلتزم بالقافية في سوره وآياته؟ فهذا قوله تعالى: ﴿لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ٢ - ١٠].

٣- والذي يبدو لي أن الهاء ليست زائدة حتى تحذف بالوصل في القراءة، وأنها لم توضع لنظم نهايات الآي، وليست إضافتها خارجة عن لغة القرآن (العربية) التي أنزل بها، كيف وهو ميزانها. ولقد أخطأ أولئك الذين حاولوا تقييم كلام الله بشعر العرب وكلامهم. ويجب ألَّا يدعونا عجزنا عن إدراك بعض المعاني القرآنية إلى افتراضات بعيدة، على أن للصيغة (كتابيه، حسابيه) إيحاء نفسيًّا قد يبلغه الباحثون في يوم من الأيام. وما يهمني التأكيد عليه أننا لم نؤت من العلم إلا قليلا، فالموقف السليم عند العجز عن فهم الآيات هو الاعتراف بالجهل والتواضع للحق لا الخوض فيما لا نعلم أو الطعن في كلام الله.

(١) المنجد: مادة سلك.

(٢) الكشاف: ج٤، ص٦٠٥.

ونعود إلى الآيات الكريمة، ونستمع إلى صفات أصحاب الشمال، فما هي؟.

الصفة الأولى: عدم الإيمان بالله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وعندما كفروا بالله العظيم استحقوا جزاء الضعف من العذاب. لماذا؟.

أولاً: لأن الله عظيم انتشرت آيات قدرته وجلاله في كل شيء، فكيف جاز لهم الكفر به مع ذلك؟.

ثانياً: أن الذنب يزداد قبحا حينما يكون عصيانا لرب عظيم.

ولقد عبر أئمة الهدى عن هذه الحقيقة بقول الإمام السجاد عليه السلام: «**لَا تَنْظُرْ إِلَى الذَّنْبِ وصِغَرِهِ وَلَكِنِ انْظُرْ مَنْ تَعْصِي بِهِ**»[1]، فكيف وأن عدم الإيمان بالله أصل كل خطيئة وذنب؟.

إن عدم الإيمان جذر كل فساد وضلال وفاحشة وزيغ، فمن كفر بالله أشرك به، لأن من لا يؤمن بالله سيتبع غيره ويتأله إليه بشرا أو حجرا أو هوى نفس، ومن لم يؤمن بالله ضل ضلالا بعيدا، لأنه لم يتبع رسالته فتراه يتخبط في ظلمات الباطل، ومن كفر بالله أوغل في الفواحش بغير حساب حيث إن الإيمان هو الذي يحجز البشر عن الزيغ ويردعه عن المعاصي.

وقد وصف القرآن ربنا بالعظمة هنا لأمرين:

الأول: لكيلا يظن أحد أنه تعالى حينما يعذب المجرمين بذلك العذاب الغليظ الذي وصف آنفا في الآيات: (٣٠-٣٢) أو ما سيأتي بيانه في الآيات (٣٥-٣٦) فإنه يظلمهم، كلا.. إن الجزاء يبقى أبدا أقل من الذنب.

الثاني: ربما لكي نهتدي إلى أن مشكلة الكثير من أصحاب الشمال وربما كلهم ليس محض الكفر بالله، ولكن مشكلتهم عدم الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته المثلى، كما قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤]، فأشركوا بالله أو آمنوا بصفات تعالى ربنا عنها: جسدوه أو زعموا أنه مغلول اليدين أو أنه -سبحانه- ظالم للعبيد أو هازل في الوعيد أو ما أشبه وكان ذلك مساوقا لعدم الإيمان به رأسا، وهذه كلها جرَّتهم إلى وادٍ سحيق من الانحراف والضلال في الدنيا والعذاب في الآخرة.

من هنا نستطيع القول: إن حقيقة التسليم والعبودية لله عز وجل تتأسس بصورتها السليمة على المعرفة بعظمته من خلال آياته وأسمائه الحسنى، ومن ثم استشعار عظمته في القلب.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٣، ص ١٥٤.

الصفة الثانية: وثمة صفة سيئة أخرى عند أصحاب الشمال تتصل بعلاقتهم مع عباد الله، وهي عدم قضاء حوائجهم بل عدم الحث على قضائها ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فهو يرتكب ذنبين عظيمين:

الأول: الامتناع عن الإنفاق على المحتاجين الذين فرض الله لهم حقًّا في أموال الناس.

الثاني: تركه لواجب الأمر بالمعروف، والأخير نتيجة طبيعية للأول، ذلك أن الذين يبخلون بأموالهم على الناس يتمنون أن يكون المجتمع مثلهم حتى يبرروا موقفهم. وللمتدبر أن يتصور مدى صلافة من لا يحض على طعام المسكين وانعدام العاطفة والوجدان عنده، حيث يرى مس الجوع والحاجة عند أضعف طبقة اجتماعية ثم لا يبالي بالأمر، ولا يتحمل المسؤولية، مع وجود أمر الله بالإنفاق، وكون ما عنده من نعمه وفضله الذي يأتمن عليه خلقه.

ولقد ربط الإسلام بين الإيمان بالله والنفع لعباده وكأنهما صنوان لا ينفكان، قال رسول الله ﷺ: «**أَحَبُّ عِبَادِ الله إِلَى الله جَلَّ جَلَالُهُ أَنفَعُهُمْ لِعِبَادِهِ، وَأَقْوَمُهُمْ بِحَقِّهِ**»[١]، جاء في حديث قدسي أن الله عز وجل قال: «**الخَلْقُ عِيَالِي فَأَحَبُّهُمْ إِلَيَّ أَلْطَفُهُمْ بِهِمْ وأَسْعَاهُمْ فِي حَوَائِجِهِمْ**»[٢]، وحيث ننعم الفكر في العلاقة بين الكفر بالله وعدم الحض على طعام المسكين نهتدي إلى أن المعنيين بالآيتين لا خلاق لهم في الآخرة، ولذلك يعذبون دون رحمة، لأنهم لا إيمان لهم بالله يدعوهم إلى العمل الصالح من الزاوية الدينية، ولا إنسانية تدعوهم إلى الإحسان، فقد يكون الإنسان كافرا بالله أو مشركا ولكن تبقى فيه بقية من الإنسانية تحثه على بعض الخير، فهو إن لم يخفف عنه العذاب لإيمانه فسوف يخفف عنه لإنسانيته، حيث لا يضيع الله أجر المحسنين.

وإذا آمنا بهذه الفكرة في ضوء الإيمان بأن الجزاء الأخروي صورة لعمل الإنسان واختياره في الدنيا فإن تعامل أصحاب الشمال الصلف مع عيال الله المساكين فيها هو الذي يحدد نوع تعامل الله معهم يوم الجزاء. قال الزمخشري: دليلان قويان على عظم الجرم في حرمان المسكين:

الأول: عطفه على الكفر وجعله قرينة له.

الثاني: ذكر الحض دون الفعل، ليعلم أن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل؟[٣]

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٤، ص١٥٤.
(٢) الكافي: ج٢، ص ١٩٩.
(٣) الكشاف: ج٤، ص ٦٠٥.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ وهو القريب الذي يهتم بالإنسان ويحامي عنه، فأمثاله من المجرمين مشغولون بأنفسهم عن غيرهم، وأما المؤمنون فإنه عدوهم وهم أعداؤه لكفره بالله، ومن يجرؤ على الشفاعة لمن غضب الله العظيم عليه؟ ولعل للآية ظلالا يتصل بعلاقات الإنسان الاجتماعية، وأنه ينبغي أن يبحث عما يدوم منها وينفعه في الدارين، فإن لأصحاب الشمال أخلاء كثيرين وأصدقاء بالخصوص المترفين وأصحاب السلطة منهم ولكنهم لا يحمونهم ولا حتى يسألون عنهم يوم القيامة، ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

أما طعامهم فإن المجرمين يكادون يموتون جوعا لأنهم لا يجدون طعاما، وحيث يَمُضُّ بهم الجوع ويطلبون ما يأكلونه يُؤتى لهم بطعام هو لون من أشد العذاب ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ قال القمي: «عرق الكفار»[1] لأنه غسالة أبدانهم، وفي الدر المنثور عن ابن عباس: «أظنه الزقوم، وفي خبر آخر: (هو) الدم والماء الذي يسيل من لحومهم»[2] إثر التعذيب، وفي التبيان: «وقال قطرب يجوز أن يكون الضريع هو الغسلين، فعبر عنه بعبارتين»[3]، ولعل أقرب المعاني ما يخرج من أبدانهم من جراحة أو أنه يتصف بمجموعة الصفات السيئة التي يمكن أن يحويها الطعام الرديء لونا ورائحة ومذاقا، ولعل النفي بـ ﴿وَلَا﴾ يوحي بأن أصحاب الشمال لا يجدون الطعام بسهولة، بل يبقون مدة طويلة يتضورون جوعا، وإذا جيء لهم بطعام فإنه لا يكون إلا من ﴿غِسْلِينٍ﴾، وهذا يتناسب مع موقفهم من المساكين في الدنيا، حيث كانوا لا يشعرون بجوعهم وعوزهم، فهم بذلك يُذاقون عذاب الجوع مما يكشف لهم مدى قبحهم إذ لم يطعموا المساكين ولم يحضوا على إطعامهم.

إن الجزاء في الآخرة هو الصورة الحقيقية لعمل كل إنسان في الدنيا، فهو في الواقع الذي يطعم نفسه هناك ما يقدمه هنا، فالمؤمنون يأكلون من قطوف الجنات العالية بما أسلفوه من الصالحات، والمجرمون يأكلون طعام الغسلين بما قدموا من الخطيئات والمعاصي ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ فهم إذن كما وصف الله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[النساء: ١٠] حيث يمارسون الخطيئات، ولكنهم -وقد عميت بصائرهم عن الحق- لا يرون ذلك إلا في الآخرة حين تقع الحاقة وتكشف الحجب عن كل حق كشفا معنويًا وماديًا.

[٣٨-٤١] وفي الفصل الأخير من هذه السورة التي سُمِّيت بالحاقة يوجهنا الله إلى كتابه

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٨٤.

(٢) الدر المنثور: ج٦، ص٢٦٣.

(٣) التبيان: ج١٠، ص١٠٦.

العظيم الذي يذكّر بها ويسبقها في الهداية إلى الحق وإحقاقه، وكأن السياق يقول: لنا إن القرآن حاقٌّ لأنه كالحاقة يُجلي كل الحقائق. كما أنه تعالى أخّر الحديث عن أصحاب الشمال على الحديث عن أصحاب اليمين ليكون لصيقا بكلامه عن كتابه، وذلك لأن الحديث عن أصحاب النار سوف يستثير في السامع السؤال عن النهج الذي فيه الخلاص من غضب الله وعذابه، والفوز باجر أهل اليمين وعيشتهم الراضية.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾، والتمهيد لأي حديث بالقسم أو بالإشارة للقسم يؤكد أهميته وعظم شأنه، وإذ لا يقسم الله فذلك يدل على أن ما يريد قوله وبيانه غاية في الوضوح، بحيث لا يحتاج لإقناع الآخرين به إلى القسم، ولكنه في الأثناء يلفتنا إلى حقيقة عملية واقعية، وهي: أن الحياة لا تتلخص فيما يراه الإنسان ببصره، بل لها جانبان: جانب ظاهر يحضر عنده بحواسه المادية، وآخر خفي مغيب يحتاج إلى العلم والبصيرة النافذة لكي يشاهده، وكأنه بذلك يستحثنا نحو توسيع معارفنا والتطلع إلى الوجه الآخر من الحياة، فهل نكفر بوجود الميكروبات والفيروسات لأننا لا نراها بأعيننا؟ كلا.. لأن ذلك لا يغير من الواقع شيئا، فهي موجودة رغم ذلك وهكذا فإن من يكفر بالآخرة لأنه لا يراها بعينه فإنه من الخاطئين.

ومن هذه الزاوية يصل القرآن الآيتين الآنفتين بتأكيده على أن الرسالة ليست من بنات أفكار النبي ﷺ، إنما هي متصلة بالغيب حيث جبريل الأمين يتنزل بمفرداتها كلمة كلمة وبحروفها حرفا حرفا، بل وبحركاتها دون نقيصة أو تغيير، فإن للرسالة جانبين: ظاهرا يتمثل في القرآن الذي يبصره الناس بأعينهم وتدركه حواسهم، وغيبا لا يبصرونه ولا يدركونه ولا ينبغي لهم ذلك وهو جبرائيل الواسطة بين المرسل والرسول ورب العالمين الذي يتنزل من عنده القرآن، وعدم إبصارنا الجانب الغيبي منها لا يبرر الكفر بها، وذلك لسببين:

الأول: إن قصور الإنسان عن الإحاطة علما بغيب الحياة من المسلمات البديهية التي يقبلها كل عاقل، وهكذا لا يمكن للبشر الإحاطة بالوحي الإلهي، وبذلك ينسف القرآن الشيئية المادية عند البعض، كالذين كفروا بالرسالة لأنهم لم يروا جبرائيل ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]، ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢].

الثاني: إن الجانب الظاهر (القرآن) دليل قاطع يهدي كل ذي عقل إلى الإيمان بالجانب الآخر (الوحي)، فإن المتدبر في الآيات القرآنية لا بد وأن يسلّم بأنها من عند الله، لأنه يجدها معجزات لا تتأتى إلا للخالق العظيم ببلاغتها ونظمها ومعانيها الهادية للحق، كما قال الله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ أي رفيع المنزلة عند الله، منزه، وغاية في الأمانة والأخلاق فهو لا يقصّر في التبليغ ولا يحرّف، مما يؤكد أن الرسالة وصلت سالمة وتامة كما أرادها الله وأنزلها، وهذا الأمر

يعطينا الثقة والاطمئنان بها، والاعتماد عليها بضرس قاطع. وفي الآية تأكيدان لهذه الحقيقة: ﴿إِنَّ﴾ واللام في ﴿لَقَوْلُ﴾، وبالإضافة إلى هذين التأكيدين اللفظيين هناك ثلاثة تأكيدات معنوية على أن الرسالة هي من عند الله:

ألف: كلمة ﴿لَقَوْلُ﴾، فالرسول دوره لا يتعدى نقل الرسالة إلى الناس، فهو يقولها وليس يؤلفها أو يخلقها.

بـاء: أنه تعالى لم يقل فلانا (جبرائيل أو محمد) بل لم يقل نبي ولا ملك.. إنما اختار كلمة ﴿رَسُولٍ﴾ لأنها أدل على المعنى المراد من سواها.. فالرسول هو الذي يحمل الرسالة من عند غيره.

جيم: وإذ امتدح الله رسوله بأنه ﴿كَرِيمٍ﴾ دل ذلك على أمانته ووصول الرسالة كما أراد المرسِل، وإذا كان نكران الذات من أبرز صفات الكريم فإننا نفهم من وصف الله لرسوله بذلك أنه تنازل عن ذاته في قضية الرسالة لله، وبالتالي ليس فيها شيء من عند نفسه.

ولقد اختلفت الأقوال في المقصود بالرسول، فقال فريق: إنه جبرائيل الذي يتنزل بالوحي من عند الله إلى النبي ﷺ فهو رسول الله إلى نبيه، وقال آخرون: إنه النبي محمد ﷺ، وما أذهب إليه أن الكلمة منصرفة إلى الاثنين، لأنهما رسولان من عند الله وفيهما الصفات الرسالية ذاتها، ولأن المقصود هنا إثبات أن القرآن من عند الله وليس من عند أحد كالنبي أو جبرائيل، مما يستوجب التأكيد على الصفات المذكورة في الاثنين.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ لأنه لا يشبه أقوال الشعراء لا في أوزانه وقوافيه ولا في بلاغته، إذ المسافة بين بلاغته وأدبه الرفيع وبين بلاغة الشعراء وأدبهم مسافة لا يعلمها إلا الله، فهي كما وصفها الرسول الأعظم ﷺ بقوله: «**فَضْلُ الْقُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ**»[1]، ولا في معانيه لأن الشاعر قد يهمه ظاهر الكلام فقط فيتخبط في المعنى، ولو كان الرسول كالشعراء لكان يضخم الأمور حتى إذا نقل رسالة الله، فتلك طبيعة الشعراء.

وأعظم مفارقة بين رسالة الله والشعر أنها تنطوي على الحق وتهدي إليه، في حين ينطوي أغلب الشعر على الباطل، وأنها تعبر عن الحقائق الواقعية، في حين يطلق الشعراء لعواطفهم وظنونهم العنان دون حساب، فهم يعتمدون على المشاعر والأحاسيس في حين تعتمد رسالة الله على علمه الواسع، من هنا نستطيع القول: إن كلمة الشاعر لا تنحصر في الذي ينظم الأبيات

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٢، ص٢٣٧. بحار الأنوار: ج٨٩، ص ١٧: ولا يعني ذلك أن القرآن في منزلة الخالق لأنه مخلوق له عز وجل و إنما يعني أن كل فضل في الكلام من قبل القرآن فهو كفضل من الله لأنه كلامه تعالى.

والقصائد، وإن كان من مصاديقها الجلية، إنما تتسع لكل من يتبع الثقافة البشرية المنطلقة من الظنون والمشاعر البشرية لا من العلم الإلهي كأصحاب النظريات والفلسفات، ولعل هذه المفارقة هي السر في فشل النظريات البشرية وتزلزلها، وثبات القيم الإلهية ونجاحها، وإلا لم تتبع الملايين جيلا بعد جيل رسول الله ورسالته في حين لا تتبع الشعراء وتعتد بكلامهم؟

نعم، إن إقبال الناس منذ بعث النبي ﷺ إلى اليوم وحتى المستقبل -الذي هو لرسالات الله- على الإسلام وإيمانهم به لآية بالغة على أنها من عند رب العالمين.

﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ قالوا: إن ﴿مَّا﴾ هنا بمعنى العدم، أي إنكم لا تؤمنون البتة، وأضافوا: العرب تقول: قلما يأتينا يريدون لا يأتينا[1]، ولكن يبدو أن القلة هنا بمعناها حيث ينسجم ذلك مع سائر الآيات التي تنفي الإيمان عن الكثرة ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] في حين تثبته للقلة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وكلمة أخيرة: إن الفرق بين الرسول وبين الشاعر هو الفرق بين الكريم الذي يتنازل عن ذاته وبين من تكون ذاته هي المحور في كلامه وتحركه، فالشاعر يسأل الأجر والرسول يعطي ولا يسأل، والرسول يقول الحق ولو على نفسه في حين الشاعر لا يملك هذه الشجاعة والإخلاص. كما أن قلة إيمان الناس لن يكون في يوم من الأيام مقياسا للحق، لأن الرسالة ذاتها حق، وبالتالي فإن الداء فيمن لا يؤمن وليس فيها، لأنها قمة سامقة قَلّ أن يصل ذروتها أحد.

[٤٢] وينفي القرآن أن تكون الرسالة من أقوال الكهنة ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ فما هي العلاقة بين نفي الشعر والكهانة؟.

أولاً: لأن الشعر والكهانة من الظواهر التي كانت شائعة في المجتمع الذي تنزلت فيه الرسالة يومئذ، وكان الشعراء والكهان يمثلون طبقة المثقفين والواعين بين الناس، وإذ ينفي الله كون القرآن من أفكار أوعى أفراد المجتمع فإنه ينفي كونها من عند أي أحد من الناس، لأن ما يعجز عنه الأقدر لا يستطيع الإتيان به غيره.

ثانياً: لأن أي ثقافة يأتي بها الإنسان فإنما يحصل عليها عن أحد طريقين أو عنهما معا: فإما تكون ذاتية يتفتق بها عقله وخياله كالشعر، وأما تأتيه عبر الآخرين كالكهانة التي يتلقى الكهان أفكارها من القوى التي يتصلون بها أمثال الشياطين والجن، بغض النظر عن الصحة والخطأ. وحيث ينفي القرآن الاثنين فإنما يؤكد أن الرسالة ليست من عند الرسول ﷺ نفسه ولا مصدر آخر يتصل به سوى وحي الله عز وجل.

---

(١) الرازي: ج ٣٠، ص١١٧، والكشاف: ج٤، ص٦٠٦.

إن الرسالة هي الحق المرتكز في فطرة الإنسان وعقله، وآياتها تترى وتتواصل الحجج الدالة عليها حتى يقتنع الإنسان بها، ثم إنها تقوم بدور تذكرة البشر وتنمية عقله وإرادته. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ والقليل هنا حسبما يبدو لي بمعناه المعروف. و لعل الترتيب في النفي بتقديم نفي الشعر ثم نفي الكهانة بـ ﴿وَلَا﴾ يهدينا إلى أن الكهانة في عرف المجتمع أرفع وأعجب من الشعر، كما في قول الله: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾[1].

والكهانة من حيث المعنى هي التحدث بالغيب، والكُهَّان هم الذين يدَّعون العلم به، أما من حيث اشتقاقها اللفظي فيبدو أنها من الأسماء الدخيلة لأن أصلها دخيل على المجتمع العربي من الثقافات الجاهلية التي تسربت إلى الديانات السماوية كاليهودية والنصرانية ومن خلالها انتقلت إلى العرب، ويشير بعض أهل اللغة إلى أن الكلمة معربَّة، والأقرب أنها قدمت اسما وحرفة من الشعب العبري، لأن اليهود كانوا يسكنون شبه الجزيرة، وكانت لهم محاولات لنشر مبادئهم وأفكارهم فيها. و ثابت تاريخيًّا أن أغلب رواد الكهانة من اليهود والنصارى وقد اتخذوها سبيلا للوصول إلى الزعامة الروحية. أما كيف يقضي الكهان بما يحسبه الناس غيبا؟ فالجواب للأسباب التالية:

أولاً: الذكاء المتميز الذي يساعدهم على التقاط إشارات الحقائق وإرهاصات الظواهر كبعض المحللين الاستراتيجيين المتفوقين اليوم.

ثانياً: القدرة على استشفاف المستقبل والتنبؤ به، وهذه القدرة يمتلكها أغلب الناس إلا أن الكهنة ينمُّون هذه القدرة في أنفسهم شأنهم شأن السياسيين الكبار.

ثالثاً: الاتصال بالجن والأرواح الشيطانية عبر رياضات روحية معينة شأنهم شأن المرتاضين اليوم.

رابعاً: معرفتهم بالثقافات والعلوم الغريبة عن ذلك المجتمع الجاهلي.

وهذه العوامل كانت تساعد الكهنة على التعرف على بعض الحقائق المجهولة عند الناس والتي كانوا يخلطونها بكثير من الأكاذيب والأساطير.

وحول أصل الكهانة جاء في الخبر المأثور في كتاب الاحتجاج: أن الزنديق سأل الإمام الصادق عليه السلام فمن أين أصل الكهانة ومن أين يخبر الناس بما يحدث؟ قال عليه السلام: «**إِنَّ الْكِهَانَةَ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي كُلِّ حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ كَانَ الْكَاهِنُ بِمَنْزِلَةِ الْحَاكِمِ يَحْتَكِمُونَ إِلَيْهِ فِيمَا يَشْتَبِهُ**

(١) راجع تفسير هذه الآية في سورة الجمعة.

عَلَيْهِمْ مِنَ الْأُمُورِ بَيْنَهُمْ فَيُخْبِرُهُمْ بِأَشْيَاءَ تَحْدُثُ وَذٰلِكَ فِي وُجُوهٍ شَتَّى مِنْ فِرَاسَةِ الْعَيْنِ وَذَكَاءِ الْقَلْبِ وَوَسْوَسَةِ النَّفْسِ وَفِطْنَةِ الرُّوحِ مَعَ قَذْفٍ فِي قَلْبِهِ لِأَنَّ مَا يَحْدُثُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْحَوَادِثِ الظَّاهِرَةِ فَذَلِكَ يَعْلَمُ الشَّيْطَانُ وَيُؤَدِّيهِ إِلَى الْكَاهِنِ وَيُخْبِرُهُ بِمَا يَحْدُثُ فِي الْمَنَازِلِ وَالْأَطْرَافِ»[1]، وتهدينا هذه النهاية إلى أن نسبة الصدق لدى الكهان فيما يتصل بأسرار الناس تكون أكبر من نسبتها في الحديث عن الغيب، لأن الأسرار قد وقعت واطلع عليها الجن الذين يتصلون بهم ويخبرونهم، وليس الغيب كذلك، ولا سيما فيما يتصل بوضع برنامج حياتي متكامل في بصائر العقل وتزكية القلب وتنمية الإرادة ونظام الحياة، فإنه لم يبلغه أي كاهن عبر التاريخ. إنه فقط معاجز الرسل.

[٤٣] إن التمايز بين خط الرسالة والثقافات البشرية واضح لا غموض فيه، ولذلك فإن نظرة فاحصة للقرآن تهدينا إلى أنه ليس شعرا ولا كهانة إنما رسالة الله إلى خلقه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أولاً: إن القرآن معجزة الله الخالدة، لفظًا بأدبه وبلاغته ونظمه و.. ، ومعنًى بهداه ومعانيه، والذي يدرس القرآن من جانبيه (الظاهر والباطن) يتيقن بلا أدنى شك أنه فوق قدرات العالمين إنسا وجنا، وهذا ما توحي به كلمة ﴿تَنزِيلٌ﴾ إذ لا ينزل الشيء إلا من المكان العَليِّ، وبتعبير آخر: إنه تعالى لو لم يتنزل الرسالة بلطفه لما كان العالمون -مهما تفتقت عبقرياتهم وبلغت قدراتهم- قادرين على السمو إلى مقام الإتيان بمثل آيات القرآن.. لا بالشعر ولا بالكهانة، ولو بلغ الأمر أن تضافرت القوى والتقت الحضارتان، حضارة الإنسان والجن ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ثانياً: إن الله تعالى يتجلى في كتابه بصفاته وأسمائه الحسنى، وكتابه يهدي إليه من بدايته حتى نهايته، وإن القارئ آياته والمتدبر كلماته ليرى ربه ببصيرة الإيمان واليقين، قال الإمام الصادق عليه السلام: «لَقَدْ تَجَلَّى الله لِخَلْقِهِ فِي كَلَامِهِ وَلَكِنَّهُمْ لَا يُبْصِرُونَ»[2]، وقال الإمام علي عليه السلام: «فَبَعَثَ الله مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله... بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وَأَحْكَمَهُ لِيَعْلَمَ الْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ، فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ، وَكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِالْمَثُلَاتِ، وَاحْتَصَدَ مَنِ احْتَصَدَ بِالنَّقِمَاتِ»[3].

إن المسافة بين كلام الله وكلام المخلوقين ليست بالتي تخفى على ذي لب وفطرة حتى يجهل أحد التمييز بين الرسالة وأفكار المخلوقين. و لنا وقفة هنا على العلاقة بين الحديث عن الرسالة

---

(١) بحار الأنوار: ج ١٠، ص١٦٨.
(٢) بحار الأنوار: ج ٨٩، ص ١٠٧.
(٣) نهج البلاغة: خطبة: ١٤٧.

وأنها من رب العالمين بالذات، فلم يقل الله: تنزيل من الله.. أو ما إلى ذلك من أسمائه الحسنى الأخرى. إن أصل كلمة ﴿رَّبِّ﴾ من التربية بما تعني الكلمة من نماء وتزكية ولطف، ورسالة الله هي أظهر آية على علاقة الرب الخالق بالمخلوق المربوب. لأنها وسيلة الله في تأديب خلقه وتربيتهم، وطريقهم لكل خير ونماء وبركة إذا عملوا بها، كما أنها علامة حنانه وتلطفه بهم.

وننقل هنا بعض الأخبار التي وردت في شأن الآيات الأربع: (٤٠-٤٣) فيما يتصل بشأن نزولها عند المفسرين، من ذلك ما رواه ابن إسحاق عن الوليد بن المغيرة، وعن النضر بن الحارث، وعن عتبة بن ربيعة، وقد جاء في روايته عن الأول: «ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش! إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا، فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل، وأقم لنا رأيا نقل به، قال: بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا: نقول: كاهن، قال: لا والله، ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: هو ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس -حين قدموا الموسم- لا يمر بهم أحد إلا حذَّروه إياه، وذكروا لهم أمره...»[1].

وحكي عن الثاني (النضر بن الحارث) قال: «فقال: يا معشر قريش! إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد. قد كان محمد فيكم غلاما حدثا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله، ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن! لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر! لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون! لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه. يا معشر قريش ! فانظروا في شأنكم، فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم..»[2].

---

(١) الدر المنثور: ج٤، ص١٠٦.

(٢) سيرة ابن هشام: ج١، ص١٩٤، عيون الأثر لابن سيد الناس: ج٢، ص٤٢٧.

[٤٤-٤٧] ونعود للآيات الكريمة حيث تؤكد أمانة الرسول وصحة الرسالة، بنفي أي إضافة منه ﷺ إليها نفيا قاطعا، مما يهدينا إلى حقانية الحق، وأن الله يفرضه على الإنسان فرضا دون أن يتساهل حتى مع حبيبه وأقرب خلقه إليه النبي محمد ﷺ. ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾، قال الزمخشري: «التقوُّل افتعال القول كأن فيه تكلفا، من المفتعل، وسميت الأقوال المتقوَّلة أقاويل تصغيرا بها وتحقيرا، كقولك: الأعاجيب والأضاحيك، كأنها جمع أفعولة من القول»[1]، والمعنى: «ولو نسب إلينا قولا لم نقله»[2]، والافتراض هنا افتراض جدلي يفيد أن النبي ﷺ لم يتقول -حاشاه- إذ لم نر الوعيد الإلهي تحقق في هذا الشأن. والآية تزكية للرسول ليس فيما يتصل بالقرآن وحسب بل في كل نطقه وكلامه. وهذه الشهادة الإلهية البينة آية على عصمة نبينا ﷺ، وأن سنته كالقرآن ليست من أهوائه إنما هي بعلم الله وحكمته أجراها على لسانه.

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ معنويًّا بسلب سمة النبوة منه، وماديًّا بمجازاته أشد الجزاء، لأن خطأ الإنسان يكون أفظع وأسوأ كلما كان في موقع أهم، وهذا ما يجعل ثواب نساء النبي وعقابهن مضاعفا عند الله. ولعمري إنه إنذار ووعيد لكل من يخون أمانة الله، وبالذات أولئك الذين حملهم مسؤولية الرسالة.. أعني العلماء، فيا ويل الذين يفترون منهم الكذب، ويحرفون الكلم عن مواضعه. و قد اختُلف في الأخذ باليمين، فقال جماعة: «إنه كناية عن الأخذ الشديد باعتبار اليمين رمز القدرة»، وقال آخرون: «إنه أخذ القوة منه أي سلبنا منه القوة»[3]، لأن القوة في اليمين، فإذا أخذت انتفت، وفي المجمع: «لأخذنا بيده التي هي اليمين على وجه الإذلال، كما يقول السلطان: يا غلام خذ بيده، فأخذها إهانة، وقيل: معناه لقطعنا يده اليمنى»[4]، ويبدو لي أنه الأخذ الشديد، وأخذ الله دائما يكون شديدا. أما كيف يأخذ الله؟ فذلك من شأنه.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ في الدر المنثور: عرق القلب (عن ابن عباس)، وعن عكرمة قال: «نياط القلب»[5]، وفي بعض كتب اللغة: عرق في القلب يجري منه الدم إلى العروق كلها، والمهم أنه العرق الذي لو قطع لما بقي الإنسان حيا.. ولو أخذ الله أحدا بيمينه فقطع منه الوتين فمن يستطيع أن يمنع عنه إرادة الله؟

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي مانعين يمنعون نفاذ أمر الله في شأنه. والآية قمة في

(١) الكشاف: ج ٤، ص٦٠٧.
(٢) التفسير الكبير للرازي: ج٣٠، ص١١٨.
(٣) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١١٨.
(٤) مجمع البيان: ج١٠، ص ٤٤٢.
(٥) الدر المنثور: ج٦، ص٢٦٣.

البلاغة إذ تتحدى البشر فرادى ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ ومجتمعين ﴿حَـٰجِزِينَ﴾ في آن واحد، وذلك لكي يمس التحدي أفرادها واحدا واحدا دون استثناء تأكيدا للمراد. وربما يقرأ المتدبر في تضاعيفها أن هناك قوى تسعى للضغط على القيادة الرسالية للتغيير من نهجها والتقوُّل على الله، فيجب ألَّا تستجيب لها أو تنخدع بها عندها، لأنها لا تنفع شيئا ولا تحجز إرادة الرب عز وجل. وحيث إن الرسول ﷺ مطمئن لهذه الحقيقة فإنه لا يتوكل إلا على الله، ولا ينتمي إلا إلى الحق، ولا يقول إلا الوحي. وكفى بقول الرسول ﷺ هذه الآيات وإعلانها للناس مع ما فيها من شديد اللهجة دليلا على نقله بأمانة، إذ لو كان يتقول على الله لكان يحذفها أو يعزز نفسه بصورة مطلقة دون حد ولا شرط، كما يعزز الكثير من الدعاة والحكام أنفسهم حتى على الحق، وما أحوج القادة وكل رسالي إلى هذه الشجاعة تأسيا بسيرة حبيب الله ﷺ.

[٤٨-٥٢] وبعد أن أثبت القرآن أنه قول رسول كريم بالمعالجة الموضوعية الدقيقة، وبالتالي كونه كلام الله عز وجل، ينثني لبيان صفة أخرى لنفسه ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أو كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٣]، لأن المتقي وحده الذي يرتفع بنفسه وعقله إلى مستوى فهم آياته، وهو وحده الذي يخشى ربه فيلزم نفسه ما في كتابه من الحدود والأحكام والقيم لكيلا يتعرض لغضبه وعذابه، وهم وحدهم الذين يملكون الاستعداد للتسليم له، لأنهم يحافظون على فطرتهم سليمة كما أودعها الله فيهم، فإذا بهم يجدون آياته تلتقي بتطلعاتهم السامية في الحياة. ويتأكد لنا أن القرآن تذكرة للمتقين إذا عرفنا أن التقوى ليست مجرد الخشية والخوف.. إنما هي مجموعة من الصفات النفسية والعقلية والاجتماعية التي تجعل الإنسان في مستوى التذكرة بالآيات وفهمها.. فالمتقون كما وصفهم ربهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٣-٤]، فالذي لا يؤمن بالغيب كيف يؤمن بالرسالة التي مصدرها غيب السماوات والأرض؟ والذي لا يؤمن بالجزاء كيف يلتزم بها؟.

إن هذه الآية تهدينا إلى إحدى خصائص الوحي الإلهي المتميز بها عن الأفكار الأخرى والفلسفات، وهي أنه لا يستطيع التفاعل معه وفهمه إلا المتقون فقط، فإذا به ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، ولذلك خاطب الله رسوله فقال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦]، ولقد اعترف بهذه الحقيقة الكافرون والمشركون من قبل: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]، وهذه الخصيصة في الرسالة تفسر ظاهرة

التكذيب بها من قِبَلِ بعض الإنس والجن، لأن الرسالة في مرتبة عالية قَلَّ أن يسمو إليها البشر، والله يعلم أن جِبِلًا كثيرا منهم سوف يكذبون بها.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ بتأكيدات لفظية ثلاثة: ﴿وَإِنَّا﴾ واللام في ﴿لَنَعْلَمُ﴾ و﴿أَنَّ﴾، وإذ يكذبون فلأنهم لم يسموا إلى درجة المتقين الذين يتذكرون بالوحي ويسلِّمون لآياته ويستوعبون حقائقه الكبيرة، وليس لعيب في القرآن. ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ والحسرة بنت الخسارة، والأثر المعنوي المترتب عليها، وبذلك يكون القرآن قد أشار إلى الأمرين معا، وإنما يكون كذلك لأنه الحق الذي يدمغ باطلهم فإذا هو زاهق في الدنيا، كما أنه ميزان لأعمال الخلق في الآخرة، والشافع المشفع والماحل المصدق، وحيث كذبوا به يريهم أعمالهم حسرات عليهم يوم القيامة، ولا يشفع لهم، بل يمحلهم بالشهادة عند الله ضدهم. ومن هنا نكتشف خلفية تأويل الإمام الصادق عليه السلام للآية في الإمام علي بن أبي طالب أنه الذي يكون حسرة على الكافرين بقوله: «يَعْنِي عَلِيّاً»[1]، فإن إمام الحق في كل أمة جنبا إلى جنب القيم الإلهية حجة الله على خلقه عند الحساب والجزاء حين يحشر كل أناس بإمامهم، مما يجعله هو الآخر حسرة على الكافرين إذ يكون شاهدا وحجة عليهم.

﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي حق يفرض نفسه على الإنسان فيصبح موقنا به، فهو حق في عالم الواقع ويقين في عالم النفس. قال صاحب الكشاف: «إن القرآن اليقين حق اليقين، كقولك هو العالم حق العالم، وحد العالم، والمعنى لَعَيْن اليقين ومحض اليقين»[2]، وقال الرازي: «أي حق لا بطلان فيه، ويقين لا ريب فيه»[3]، ويأتي التأكيد على هذه الصفة القرآنية في سياق نفي الشعر والكهانة عن آياته تعريضاً من طرف خفي بالاثنين الأخيرين اللذين ملؤهما الخيال والكذب والرجم بالغيب، وهذه من المفارقات الأساسية بين رسالة الله وثقافة الشعراء والكهنة، أنها تحتوي على الحق والعلم بأعلى درجاته (اليقين) من دونهما حيث ينطويان على التناقض والباطل وحيث يعتريهما الخواء الفكري والعلمي. ونهتدي من نعت القرآن بأنه ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ أن انتهاج القرآن هو الشرط الأساسي في مسيرة الإنسان نحو اليقين إيمانا وعلما، وأنه الواجب الذي يفرض نفسه على العقل حينما يتطلع إلى الكمال المعنوي والمادي باليقين، أي أن الإنسان يبقى في حيرة وشك لا يصل إلى الإيمان التام ليس بالحقائق العلمية والحياتية وحسب، بل بأصل الوجود، وجود نفسه والكون من حوله بكل مفرداته، حتى يكتمل نور عقله بنور وحي الله، لأنه الذي يعرفه بالخالق الموجد، ويرتقي به إلى آفاق اليقين به، فتنكشف عن بصره وبصيرته

(١) الكافي: ج١، ص٤٣٢.
(٢) الكشاف: ج٤، ص٦٠٧.
(٣) التفسير الكبير للرازي: ج٣٠، ص١٢٠.

الحجب والأغطية، وتنزاح الغشاوة.. إذ لا معنى للإيمان بالمخلوق (ماديًّا كالإنسان والطبيعة، أو معنويًّا كالحقائق والقوانين) إلا بعد الإيمان بالخالق، وذلك ما يحققه اتباع القرآن.

ونقف قليلا نتعم الفكر في حكمة الحديث عن القرآن بهذا التعبير: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ في سياق سورة الحاقة التي تحدثنا عن الجزاء. إن نقطة التلاقي بين الحاقة والقرآن تكمن في أن كُلًّا منهما يُحِقُّ الحق ويظهره، ويهدي الإنسان إليه، ويرفعه إلى أعلى درجات الإيمان والتسليم (حق اليقين)، ولكن يبقى القرآن هو الوسيلة العظمى والأقوم للهداية، أعظم حتى من الحاقة نفسها، لأنه يهدينا في الدنيا والآخرة حيث تنفع الهداية، بل هو طريقنا للإيمان بالساعة والقيامة (الحاقة). ولكي نفهم القرآن فهما صحيحا، فنؤمن به، ويكون لنا تذكرة وسبيلا إلى اليقين الخالص، يجب أن نتطهر من الشرك بالله عبر تسبيحه، لأن كل انحراف في حياة الإنسان مظهر من مظاهر الشرك وظلال له، وكلما سبح ربه أكثر فأكثر تسبيحا سليما تميزت في نفسه وفكره حقائق الوحي من وساوس النفس، وإلقاءات الشيطان، ثم إن التسبيح هو الوسيلة لاجتناب القوارع الإلهية في الدنيا والابتعاد عن أصحاب الشمال في الآخرة.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ وقال: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ لأنه السبيل لتسبيحه تعالى، إذ لا يجد الإنسان وسيلة للاتصال بربه لولا أسماؤه. وقال: ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ بالذات لأسباب منها:

١- أنه رمز التسبيح الصحيح، حيث معرفة عظمة الله شرط رئيسي في تقديره حق قدره. أوليست مشكلة كل صاحب شمال ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾؟؟ بلى؛ ولو أننا فتشنا في أي إنسان لما وجدناه خاليا من الإيمان بربه، ولكن أصحاب الشمال (مشركين وكافرين) لا يؤمنون بالله كما هو عظيما منزها عن كل ما لا يليق بمقامه، مما يدعوهم لاتخاذ الأنداد له من خلقه الذين يجدون فيهم بعض العظمة أو يظنونهم عظماء.. وهذا هو مكمن الداء الذي انطلقت منه الفلسفات البشرية الضالة.. تجسيدية تشبيهية وشركية وما إلى ذلك.. ولعله من هنا أصبح تسبيح الله بذكر عظمته في الركوع وعلوه في السجود «سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيْمِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى وَبِحَمْدِهِ» فرضا واجبا في الصلوات، بل أصبحت الصلاة من بدايتها حتى نهايتها تسبيحا لله عز وجل.

٢- لأن السياق يدور حول القرآن وهو أظهر آيات عظمة الله على الإطلاق، ففيه تتجلى عظمته تعالى.. أوضح وأوسع وأعظم من تجليها في الطبيعة وفي النفس وفي كل شيء آخر.

سُورَةُ المعَارِج

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٤٤.

* ترتيبها النزولي: ٧٩.

* ترتيبها في المصحف: ٧٠.

* نزلت بعد سورة الحاقة.

فضلُ السّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أَكْثِرُوا مِنْ قِرَاءَةِ ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ فَإِنَّ مَنْ أَكْثَرَ قِرَاءَتَهَا لَمْ يَسْأَلْهُ الله عَزَّ وجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ وأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ مَعَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله [وَأَهْلِ بَيْتِهِ] إِنْ شَاءَ الله».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥٧)

الإطار العام

الأمراض النفسية، عقبات بوجه التكامل

كما هو سياق غالب السور المكية، تعالج سورة المعارج الأمراض القلبية التي تمنع الإيمان، كما ترسم منهاجاً لبناء الشخصية الربانية، ففي الثلث الأول من السورة (الآيات: ١-١٨) يحدثنا السياق عن مشاهد من الآخرة حيث الأحداث الكونية المريعة، وما تخلفه من الآثار على نفوس المجرمين، فإذا بواحدهم يتمنى النجاة ولو يفتدي بأعز الناس وأقربهم إليه، بل بهم جميعاً.

ومن خلال الحديث يعالج مرض التسويف بتصحيح رؤية الإنسان إلى الزمن عبر وعي الزمن الأبدي الذي لابد أن يعايشه البشر.

وانطلاقاً من ذلك؛ يشير القرآن إلى صفة الهلع لدى الإنسان، والتي تبعثه على الجزع حين الشر والمنع عند الخير،فتجعله متقلب الشخصية، متغيراً حسب المحيط والظروف، مؤكداً بأن هذه المواصفات لا توجد في المصلين بحق، لأنهم تساموا إلى أفق الخلود، فلم يعيشوا لحظتهم الراهنة فقط، ولم يتأثروا بعواملها فحسب.

ثم تعالج الآيات حالة التمني التي يعيشها الإنسان، فيطمع أن يدخل الجنة بلا إيمان أو سعي. كلا؛ إن النجاة من العذاب لا تحصل بالتمني والود، إنما بالعمل الصالح والسعي، وأن الصلاة لهي سفينة نجاة المؤمنين، وهي مفتاح شخصيتهم الإلهية التي تتسم بالإنفاق الصدقة وخشية العذاب ورعاية الأمانة والعهد وحفظ الفروج إلا من حلال، والقيام بالشهادة والمحافظة على الصلوات، هذا في الواقع البرنامج المستوحى من الصلاة لبناء شخصية الإنسان الربانية، والذي يجعله في نهاية المطاف من أصحاب الجنة المكرمين. (الآيات: ١٩-٣٥).

وفي الخاتمة (الآيات: ٣٦-٤٤) ينسف الوحي مركب الأحلام والتمنيات الذي يركبه

الهلكى من المجرمين والكافرين، فلا يرسو بهم إلا في بحر لجّي من عذاب الله وغضبه، وخسران الدنيا والآخرة؛ لأن التمنيات تدخل أصحابها في نفق الخوض واللعب، فإذا بهم وقد حان اليوم الذي يوعدون، ولم يستعدوا للقاء الله، ولم يمهدوا للمستقبل عملاً وزاداً، وإنها لعاقبة كل منهج يعتمد التمنيات بديلاً عن السعي والعمل.

فاصبر صبرا جميلا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ (١) لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ (٢) مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ (٣) تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ (٤) فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا (٦) وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا (٧) يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ (١) (٨) وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ (٢) (٩) وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ (١١) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ (١٣) وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ (١٨)﴾.

هدى من الآيات:

يعايش الكافرون لحظتهم الزمنية الراهنة معايشة حادة، لأنهم لا يعون الماضي بتجاربه ولا المستقبل بتطلعاته، ولا يؤمنون بالآخرة. أما المؤمن الذي يعيها حيث الزمن هناك طويل لا ينتهي، ويعي حقيقة الخلود، فإنه يعيش في عقله ونفسه وعمليًا توازنا زمنيًا.. فلا ينهزم أمام التحديات والمشاكل إنما يصبر صبرا جميلا، لأنها وإن استوعبت كل عمره الدنيوي فهي أقل من ساعة من ساعات الآخرة، التي مقدار يوم واحد منها خمسون ألف سنة، ولأنه لا يدع لحظة تمر عليه إلا ويملأها بالعمل الصالح، ويستغلها في سبيل مستقبل سعيد، ليوازن بين فرصة

---

(١) كالمهل: قيل: هو الزيت المغلي، وجاء في مفردات الراغب: دردريُّ الزيت.

(٢) كالعهن: هو الصوف المنفوش، وقال الراغب في مفرداته: العهن الصوف المصبوغ، قال: ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾، وتخصيص العهن لما فيه من اللون، كما ذكر في قوله: ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾.

السعي والعمل القصيرة (أعني الدنيا)، وبين مستقبل الجزاء والحصاد الخالد (أعني الآخرة)، فإنك حيث تراه وتدرس حياته تجده شعلة من النشاط والسعي المتواصل، ومهما فتشت في سني حياته فلن تجد إلا شذرا تلك الساعات الضائعة التي تملأ عادة حياة سائر الناس. وكيف يسمحون لأنفسهم بالخوض واللعب وكل لحظة من عمرهم هي خطوة إلى اللقاء مع الله؟! إنهم لا يحتملون غضب الله عليهم، ولا أن ترهقهم ذلة عند لقائه، ولذلك تركوا التمنيات والأحلام إلى السعي الدؤوب، لأنه ليس في أنفسهم ذرة من شك في حقيقة الآخرة وعذابها الواقع حتى يطلقوا لشهواتهم العنان، أو يعيشوا عيشة الهازل!.

بينات من الآيات:

[١-٤] قال الإمام الصادق عليه السلام: «لَمَّا نَصَبَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله عَلِيًّا يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ فَقَالَ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ». طَارَ ذَلِكَ فِي البِلَادِ، فَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ النُّعْمَانُ بْنُ الحَرْثِ الفِهْرِي فَقَالَ: أَمَرْتَنَا عَنِ اللهِ أَنْ نَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، وَأَمَرْتَنَا بِالجِهَادِ وَالحَجِّ وَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ فَقَبِلْنَاهَا مِنْكَ، ثُمَّ لَمْ تَرْضَ حَتَّى نَصَبْتَ هَذَا الغُلَامَ! فَقُلْتَ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا مَوْلَاهُ، فَهَذَا شَيْءٌ مِنْكَ أَوْ أَمْرٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟! قَالَ صلى الله عليه وآله: أَمْرٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ. قَالَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّ هَذَا مِنَ اللهِ؟ قال اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّ هَذَا مِنَ اللهِ. قَالَ: فَوَلَّى النُّعْمَانُ وَهُوَ يَقُولُ: [اللَّهُمَّ] إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. فَرَمَاهُ اللهُ بِحَجَرٍ عَلَى رَأْسِهِ فَقَتَلَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾»[1].

وفي رواية أخرى قال أبو بصير عن الصادق عليه السلام: «بَيْنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله ذَاتَ يَوْمٍ جَالِساً إِذْ أَقْبَلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عليه السلام فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله إِنَّ فِيكَ شَبَهاً مِنْ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ... فَغَضِبَ الحَارِثُ بْنُ عَمْروالفِهْرِيُّ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ أَنَّ بَنِي هَاشِمٍ يَتَوَارَثُونَ هِرَقْلًا بَعْدَ هِرَقْلٍ (اسم ملك الروم أراد بني هاشم يتوارثون ملكا بعد ملك) فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيم، فَأَنْزَلَ الله عَلَيْهِ مَقَالَةَ الحَارِثِ ونَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[الأنفال: ٣٣] ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَابْنَ عَمْرو إِمَّا تُبْتَ وإِمَّا رَحَلْتَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ بَلْ تَجْعَلُ لِسَائِرِ قُرَيْشٍ شَيْئاً مِمَّا فِي يَدَيْكَ فَقَدْ ذَهَبَتْ بَنُو هَاشِمٍ بِمَكْرُمَةِ العَرَبِ والعَجَمِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيَّ، ذَلِكَ إِلَى اللهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى، فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ قَلْبِي مَا يُتَابِعُنِي عَلَى التَّوْبَةِ ولَكِنْ أَرْحَلُ عَنْكَ فَدَعَا بِرَاحِلَتِهِ فَرَكِبَهَا فَلَمَّا صَارَ بِظَهْرِ المَدِينَةِ أَتَتْهُ جَنْدَلَةٌ فَرَضَخَتْ هَامَتَهُ ثُمَّ أَتَى الوَحْيُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله فَقَالَ:

(١) شواهد التنزيل: ج٢، ص٣٨١.

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾[1].

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ وسؤال السائل يكشف ليس عن شك في وعد الله عز وجل وحسب، بل يكشف أيضا حالة من الاستهزاء والتحدي دعته إليهما الثقافة الجاهلية التي جاءت الرسالة لتحرير الإنسان منها، كما دعته إليهما الضغائن الدفينة على الرسول والرسالة.

والآية الكريمة -كسائر آيات القرآن- أوسع من حادثة تاريخية، أو مصداق واحد بذاته، بل هي شاملة لكل موقف استهزاء بالحق، وتكذيب به. ولا يصف رب العزة عظمة العذاب ومدى هوله، بل يؤكد واقعيته فيقول: ﴿وَاقِعٖ﴾، وذلك يهدينا إلى حقيقة فطرية وعقلية لا يتردد في قبولها أحد وهي أن جهل الإنسان بالحقائق القائمة في الواقع، أو تجاهله لها (تكذيبه) لا يغير من أمرها شيئا. أترى أن عقيدة المثاليين -الذين زعموا أن الوجود خيال يتراءى للإنسان كالسراب- أعدمت الوجود أو غيرت من الواقع شيئا؟، هل ينفي عدم رؤية الأعمى لما حوله وجوده؟ كلا..

وإذا قلنا إن كلمة ﴿وَاقِعٖ﴾ تدل على الماضي فإنها تأتي هنا للتأكيد من حيث إنه حتمي لا شك فيه ولا تردد في وقوعه، لأن الله قد قدره وقضاه تقديرا حتما وقضاء مبرما.

ويبدو أن السؤال لم يكن سؤال مستفهم، بل سؤال مكذب مستهزئ، ولهذا عُدِّيَ الفعل بالباء فأعطى معنى التكذيب، فكأنه قال: سأل سائل مكذب بعذاب واقع. وهكذا أوحى النص بأن الدافع إلى السؤال لم يكن المعرفة وإنما التشكيك فيه.

وإذ يقع عذاب الله فإنه -وإن كان- يبدِّل وجه الكون وعلاقات أجزائه ببعضها فتكون السماء كالمهل والجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميما، إلا أنه لا يخرج عن إطار حكمة الله وإرادته إلى حالة الفوضى، وإنما يكون بقدر، ولا يصيب إلا من يشاء الله، فإذا بك تراه وقد حان حينه لا يقع إلا على الكافرين، الذين لا يجدون ما يدفعونه به عن أنفسهم ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾ يحجزه عنهم ويدفعه عن ساحتهم، وما عسى أن تبلغ قدرة أحد حتى يكون قادرا على دفع عذاب يصيِّر السماء كالمهل والجبال كالعهن، ويقطع الروابط الحميمة بين الأخلاء والأنساب لهوله وشدته ! والإنسان هناك لا يفكر إلا في خلاص نفسه، فلا يسأل عن غيره، فكيف السعي لدفع العذاب عنه؟! بلى؛ يستطيع الإنسان دفع العذاب عن نفسه يومئذ بفضل الله ورحمته، وبعمله الصالح، ولم يترك الكافرون بينهم وبين الله صلة كي يرحمهم، بل سدوا عن أنفسهم

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٥، ص٣٢٣. ذكره أبو عبيدة والثعلبي والنقاش وسفيان بن عيينة، وأشار إليه الرازي والنيسابوري، ونقل القرطبي نص الرواية في تفسيره والحسكاني في شواهد التنزيل.

كل أبواب الرحمة بكفرهم وعتوهم عن الحق والرسل، ولم يقدموا لآخرتهم ومستقبلهم عملا صالحا. وعلى ضوء هذه الآية الكريمة ينبغي للإنسان أن يكشف عن نفسه وعقله حجب الضلال والشرك المتمثلة في العقائد السفيهة التي تجنح به نحو الموبقات والشهوات ومخالفة الحق، ظنا بأن أحدا من الجن أو الإنس أو الأصنام يخلصه من عذاب الله وسطوته، أو العقيدة الباطلة بأن الله لن يعذب عباده لأنه رحيم ودود، فإذا به يود ويطمع أن يدخل الجنة على جناح التمنيات بلا أي سعي وعمل! ونفهم من قوله: ﴿لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ أنهم ليس لهم يوم يقع العذاب دافع يدفعه عنهم لا من عند أنفسهم أو مَنْ أشركوا بهم ولا من عند الله. وأي قوة يمكن أن تتحدى إرادة الله العظيم حتى يتشبث بها الكفار؟ إن العذاب ليس من بشر مثلهم حتى يقدروا على دفعه، ولا من مخلوق. إنه من رب العزة المتعالي الجبار.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ قال البعض: إن كلمة ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ «ليست اسما لله سبحانه»، وجاء في الدر المنثور: «أخرج أحمد وابن خزيمة عن سعد بن أبي وقاص أنه سمع رجلا يقول: لبيك ذي المعارج، فقال: إنه لذو المعارج، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ لا يقول ذلك»[١]، ولكن الأظهر أنه اسم لله لوروده في أدعية الحج حيث قالوا: «يستحب أن يقول في التلبية: «لَبَّيْكَ ذَا المَعَارِجِ لَبَّيْك»[٢]، على أن نص القرآن ظاهر في ذلك وهو المقياس. وفي معنى المعارج أقوال منها: الفواضل، وعليه جل المفسرين، وزاد صاحب المجمع: «والدرجات التي يعطيها للأنبياء والأولياء في الجنة، لأنه يعطيهم المنازل الرفيعة، والدرجات العلية»[٣]، وفي التبيان قال العلامة الطوسي: «هي معارج أو مراقي السماء»[٤]، وقال صاحب الميزان: «وهي مقامات الملكوت، وقال الدرجات التي يصعد فيها الاعتقاد الحق والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[فاطر: ١٠]»[٥]، وقيل: «هي مصاعد الملائكة..» ويمكن أن تكون الأقوال كلها صحيحة، ويجمعها الأصل اللغوي للكلمة.. فالمعارج مواضع العروج وهي مرتبة بعد مرتبة. ويبدو أن تأويلها هنا ذات العروج المتواصل، وذلك يظهر من الآية التالية.

ولكي ينسف السياق أسس التفكير الخاطئ عند أولئك السفهاء الذين استعجلوا عذاب ربهم العظيم، تلك الأسس القائمة على حسابات قصيرة، يهدينا القرآن إلى حقائق الزمن

---

(١) الدر المنثور: ج٦، ص ٢٦٤.

(٢) الكافي: ج٤، ص٣٣٥.

(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٤٦.

(٤) التبيان: ج١٠، ص ١١٤.

(٥) تفسير الميزان: ج٢٠، ص٧.

اللامتناهي الذي سوف يعيشه الإنسان، لكي يمتد وعي الزمن لدينا من مقاييس اللحظات الحاضرة إلى آفاق الآباد المطلقة والمستقبل الذي لا ينتهي، وهناك نعيش حقيقة أنفسنا وحقيقة الظواهر المحيطة بنا. إن من يتخذ المقاييس الدنيوية معيارا في معادلة الزمن يظن أن مئة سنة شيئا كثيرا، ولكنه حين يطلع على الأفق الواسع للزمن عند الله حيث الحساب بمليارات السنين وحيث الخلود فإن المعادلة تختلف بالنسبة إليه حتى يكاد يرى وعد الله بالآخرة واقعا أمام عينيه.. فهؤلاء الملائكة يسبقهم الروح يعرجون خمسين ألف سنة إلى الله في الآفاق الواسعة، ولأنها حسب فهمنا الأرواح النورانية ذات القدرات الهائلة فإن عروجها ليس بحسابنا نحن في السرعة، بل بحساب لا يستوعبه عقل البشر.. ومع ذلك إن خمسين ألف سنة يعرجون فيها ليست عنده تعالى إلا كيوم واحد لا أكثر!.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ والعروج عروجان: عروج مادي في آفاق الوجود، وعروج معنوي في آفاق القرب من الله، وليس لله مكان، تعالى أن يخلو منه مكان أو يحويه مكان، ومن هنا فإن عروج الملائكة والروح إليه عروج في القرب منه، قرب الفضيلة، ولا ينفي ذلك حقيقة عروجهم ماديًّا في منازل السماوات وإلى العرش، بل هذا العروج بذاته رمز للقرب المعنوي منه سبحانه، ومن هنا اختلفت الملائكة فمنهم من يعرج إلى السماء الرابعة، ومنهم من يعرج إلى العرش باختلاف فضلهم عند رب العالمين. أما الروح فهو أعظم من الملائكة، ولعله الخلق الذي يؤيد به الله ملائكته الكرام وأنبياءه وأولياءه الأبرار، ولعله سُمّي جبريل بـ ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ لكونه مؤيّدا عليه السلام بالروح.

[٥-٨] ومن فتح آفاق المتدبر على الزمن بالحديث عن العروج يعالج القرآن مسألتين:

الأولى: تتصل بالداعية إلى الله، وهو يواجه تحديات الكفار بالرسالة، وبالضبط يواجه تحدي الزمن في الاستقامة على الحق، والاستمرار في الطريق حتى يفتح الله. فإن أكثر الناس قادرون على اتخاذ قرار الجهاد في سبيل الله، ولكن القليل منهم يقدرون على الاستقامة مع طول الأمد وتراكم التحديات المضادة.

وإنما يفتح القرآن آفاق المؤمنين على المعادلة الحقيقية للزمن الكوني، ويؤكد على أن الزمن الدنيوي ليس المقياس، وإنما معادلة الزمن تقاس باليوم الواحد الذي مقداره خمسون ألف سنة، كل ذلك ليسهل الاستقامة في أنفسهم، فلا يَعُدُّ واحدهم حتى الصبر سني عمره مجاهدا في سبيل الله شيئا كثيرا، بل يُعتبر عنده -أنّى طال به الزمن وامتد- أياما قصيرة يصبر فيها على الأذى لتعقبه راحة طويلة، وهكذا جاء الحديث بعد بيان الزمن عن الصبر فقال ربنا: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ وهو الصبر الذي يكون لوجه الله، والبعيد عن أي ضعف أو هزيمة، والذي لا

خروج معه عن الحكمة والصواب. قال أكثر المفسرين: هو الصبر الذي لا شكوى فيه على ما يقاسيه الرسول من أذى قومه، وتكذيبهم إياه فيما يخبر به من الآخرة. وما أعظم ما تعطيه هذه الآية بسياقها من روح الصبر والاستقامة والمقاومة للمؤمنين والمجاهدين في سبيل الله.

الثانية: تتصل بالكافرين الذين يستبعدون عذاب الله ووعده، وربما إلى حد التكذيب البتة. ولو بحثنا عن السبب وراء هذا الموقف من وعد الله فسنجده اعتمادهم على مقاييس الزمن الدنيوية في التقييم والنظر إلى المستقبل. ويعالج القرآن هذه العقدة بأمرين:

الأول: السعي لتوعيتهم بالمقياس الحقيقي للزمان، حيث مقدار يوم واحد خمسين ألف سنة، مما يغير رؤيتهم المحدودة برؤية ربانية واسعة لو أنهم آمنوا واتبعوا الآيات ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ لمحدودية أفكارهم التي تتصور الزمان محدودا. أرأيت الطفل كيف يستبعد وعدا مدته ساعات؟ كذلك الكفار يرون وعد الله بعيدا لأن منهجية الرؤية ووسيلتها عندهم محدودة. أما المنهجية الربانية التي تتلاشى فيها الأرقام الزمنية لسعتها فإن ملايين السنين ليست بذات شأن حتى يكون أمدها بعيدا.. وكيف يكون ذلك والمؤمنون يطلعون بها على عالم الخلود؟! ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ لا فرق بين أجل الموت، أو النصر للمؤمنين، أو عذاب الكافرين في الدنيا، أو قيام الساعة ووقوع الآخرة

الثاني: التذكير بالوقائع والمشاهد التي ترافق وقوع وعد الله، الأمر الذي يهز النفس، ويلقي عنها حجبها وعقدها، ويجعلها ماثلة في وعيهم ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ قال القمي: «الرصاص الذائب والنحاس»[1]، وقيل: «الزيت المغلي»، وقيل: «ما كان ذائبا من المعدنيات».

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي الصوف المتفرق، قال في التبيان: «فالعهن الصوف المنفوش، وذلك أن الجبال تقطع حتى تصير بهذه الصفة»[2]، وزاد صاحب المجمع: «وقيل: كالصوف الأحمر، وقيل: إنها تلين بعد الشدة، وتتفرق بعد الاجتماع»[3]. وعلق العلامة الطباطبائي بقوله: «في هذه الآية وما قبلها تعليل للصبر، فإن تحمل الأذى والصبر على المكاره يهون على الإنسان إذا استيقن أن الفرج قريب»[4].

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٨٦، بحار الأنوار: ج٧، ص١٠٦.
(٢) التبيان: ج١٠، ص١١٦.
(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٤٧.
(٤) تفسير الميزان: ج٢٠، ص٨.

ولا يحدثنا القرآن عن صفة الأرض يومئذ، لأن دمار السماء وهي السقف المحفوظ الذي يُؤَمِّن للأرض ولأهلها الحماية، وكذلك تدمير الجبال التي تحفظ توازنها أن تميد بنا، هذين الأمرين يهديانا إلى ما تكون فيه أرضنا يومئذ من الزلزال والخطر العظيم. وما هو حال الإنسان الضعيف وموقفه حينما يعاصر هذه المشاهد الرهيبة؟ فهذه السماء على عظمتها أصبحت كالمهل ذائبة، وتلك هي الجبال الراسيات صارت عِهْنًا يحركها النسيم! إنه حينئذ يعرف صدق وعد الله، وتقع من على بصيرته كل الحجب.. فيترك الهزل والاستهزاء الذي قاد الكافرين إلى السؤال عن العذاب واستعجاله.. وهل يستعجل عاقل أمرا إرهاصاته تصنع هذا الصنيع بالطبيعة والوجود من حوله؟!.

إن العذاب الإلهي إذا وقع يذهل الإنسان عن كل شيء، وتتقطع به الأسباب والروابط، فينسى أقرب المقربين إليه بحثا عن الخلاص، فلا يجد فرصة حتى للسؤال عنهم ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ والحميم هو الأقرب للإنسان، وعدم سؤاله عنه دليل على شدة الموقف، وذلك أن نفس الإنسان أقرب إليه من كل أحد.. وحيث يهتم بها يغفل عن سواها ولو كان أقرب المقربين كالولد والصاحبة. وفي الروايات أن الأم يوم القيامة توزن أعمالها فتنقصها الحسنة الواحدة حتى تدخل الجنة أو تصير إلى النار، فتذهب إلى ولدها تستعطفه وتطلب منه التنازل لها عن حسنة من حسناته فلا يقبل. وقد جاء في الدعاء (بعد صلاة الليل): «**يَا مَنْ لَمْ أَزَلْ أَتَعَرَّفُ مِنْهُ الْحُسْنَى يَا مَنْ يُغَذِّينِي بِالنِّعَمِ صَبَاحاً وَمَسَاءً ارْحَمْنِي يَوْمَ آتِيكَ فَرْداً شَاخِصاً إِلَيْكَ بَصَرِي مُقَلِّداً عَمَلِي وَقَدْ تَبَرَّأَ جَمِيعُ الْخَلْقِ مِنِّي نَعَمْ أَبِي وَأُمِّي وَمَنْ كَانَ لَهُ كَدِّي وَسَعْيِي**»[1].

ومن أهم ما يقع يومئذ هو رفع الحجب عن المجرمين حتى يروا الحقائق التي عميت عنها أبصارهم وقلوبهم في الدنيا، كما يرون أيضا أقرباءهم الذين يتهربون منهم. ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ قيل: «يرون الملائكة والروح الذين يعرجون إلى الله»، وقيل: «أئمة الهدى والحق»، وقيل: «الأحِمَّاء، لبيان أن عدم سؤالهم عنهم يومئذ ليس لعدم رؤيتهم إياهم، وإنما لانشغال نفوسهم وأفكارهم»، وإلى ذلك ذهب الزمخشري والرازي والسيد الطباطبائي، وهذا أقرب إلى السياق. وبُني الفعل للمجهول لأن المجرمين يحشرون عميانا أعينهم وقلوبهم كما كانوا في الدنيا عميانا لا يرون الحقائق، وإنما يُبصِّرهم الله أو ملائكته بأمره.. وهناك تبلغ ندامتهم ذروتها لما يرون من واقع العذاب الذي كذبوا واستهزؤوا به في الدنيا إلى درجة العتو والتحدي. ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ وهم أقرب الناس إليه، وأعزهم لديه، ﴿وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ في الدرجة الثانية، ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ قيل: «هي العشيرة والقبيلة»، وقيل: «هي المنقطعة عن

---

(١) الإقبال: ص٥٢: من دعاء صلاة الليل.

جملة القبيلة برجوعها إلى أبوة خاصة»، في التبيان والمجمع والميزان، وزاد المجمع والكشاف: «أي عشيرته التي تؤويه في الشدائد وتضمنه، ويأوي إليها في النسب»، ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾. أما المؤمنون فإنهم على العكس يسألون عن بعضهم، ويسعون في خلاص بعضهم البعض بالشفاعة والسؤال من الله، وقلوبهم مطمئنة إلى رب الأرباب لأنهم لم يتورطوا في الجرائم حتى يهولهم الأمر.. إلا خشية الإيمان.

بلى؛ إنهم آمنوا بوعد الله، فسعوا لخلاص أنفسهم، أما المجرمون الذين كفروا، وتمادوا في الجريمة بسبب الكفر بالآخرة والجزاء، فإنهم يجدون أنفسهم بين يدي عذاب شديد. ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ و﴿لَظَىٰ﴾ اسم من أسماء جهنم، وهي النار شديدة التوقد، وقال في المجمع: هي الدركة الثانية من النار، وقال الرازي[1]: «اللهب الخالص، يقال: لظت النار، وتلظّت تلظّيا، والمعنى أنه لا مصير للمجرمين إلا جهنم والعذاب، ولا مفر لهم.. تشويهم حرقا، وتنزع ما ينشوي منهم نزعا ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾». قيل: «الشوى فروة الرأس»، وقيل: «محاسن الوجه وعموم الجلد». وقال صاحب التبيان: «ومعنى ﴿نَزَّاعَةً﴾ كثيرة النزع، وهو اقتلاع عن شدة، والاقتلاع أخذ بشدة اعتماد»[2]، وفي المجمع: «تنزع الأطراف فلا تترك لحما ولا جلدا إلا أحرقته»، وقيل: «تنزع الجلد واللحم عن العظم»[3]. ولعل الشوى هو عموم ما يعد للشواء بالنار، فيكون المعنى أن لظى تجذب المجرمين وتنزعهم نزعا (وهم شواؤها) فتحرقهم. ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أدبر عن الحق إلى الباطل، وتولى عن طاعة القيادة الربانية إلى طاعة غيرها، وإن النار لتتطاول على المجرمين وتجرهم إلى قعرها وحريقها مكرهين، لأنهم قد رفضوا دعوة الرسول إلى الإيمان فأدبروا وتولوا. ﴿وَجَمَعَ﴾ حطام الدنيا وأموالها حلالا وحراما ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾، وقد قال المفسرون المعنى: «جمع المال ولم يخرج حق الله، فكأنه جعله في وعاء على منع للحقوق منه»، وقال العلامة الطبرسي: «جمعه من باطل، ومنعه عن الحق»[4].

(١) التفسير الكبير: ج٣، ص٦٤٢.
(٢) التبيان: ج ١٠، ص ١١٩.
(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٥٠.
(٤) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٥٠.

الذين هم على صلاتهم دائمون

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا[1] ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ[2] ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ[3] ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ[4] سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

(١) هلوعاً: شديد الحرص، شديد الجزع.. وقيل: الهلع هو الخوف وقلق القلب.
(٢) مهطعين: المهطع: المقبل ببصره على الشيء لا يزايله، وقيل: الإهطاع الإسراع.
(٣) عزين: أي جماعات متفرقين، عصبة عصبة وجماعة جماعة. وجاء في المفردات: أصله من عزوتُه فاعتزى أي نسبته فانتسب فكأنهم الجماعة المنتسب بعضهم إلى بعض إما في الولادة أو في المظاهرة، وقيل: عزين من عزا عزاءً فهو عَزٍ إذا تصبّر وتعزّى أي تصبّر وتأسّى فكأنها اسم للجماعة التي يتأسّى بعضهم ببعض.
(٤) الأجداث: القبور.

هدى من الآيات:

نستوحي من القرآن أن الشخصية البشرية نوعان:

الأول: الشخصية المتقلبة التي تتأثر بالظروف المحيطة، وتنعكس عليها كل الظواهر، لا فرق بين ما يسرُّ وما يُحزن، أو بين الخير والشر. وهذه طبيعة السواد الأعظم من الناس.

الثانية: الشخصية المستقرة التي تصوغها الصلاة (والصلة الوثيقة برب الكائنات) ويستمد أصحابها استقامتهم في الحياة من الإيمان برب العالمين، الأمر الذي يجعلهم يتسامون على المؤثرات السلبية، ذلك لأن الصلاة في بصائر القرآن ليست الركوع والسجود فقط، بل هي منهج شامل يستوعب كل بعد من حياة الإنسان، وهكذا ترى المصلي هو المنفق في سبيل الله، والمصدق بالآخرة، والخائف من عذاب ربه، والحافظ لفرجه، والراعي لعهده وأماناته، والقائم بالشهادة الحق على نفسه وفي المجتمع، وبالتالي المحافظ على صلاته (أوقاتها ومظاهرها وجوهرها)، وبهذه الصورة ينبغي أن نعي الصلاة، ونعرف المصلين، ونسعى لكي نكون منهم.

إن الصلاة الحقيقية ثمن الجنة والكرامة عند الله، لأنها كما بينت الآيات مجمع كل صفة حسنة، وسعي صالح. ومن أراد الجنة والكرامة فإنها شرطهما، أما التمنيات التي تفرغ حياة الإنسان من أي سعي وفضيلة، وتسوقه إلى الخوض واللعب -غفلة عن الآخرة- فإنها تجعل أصحابها خاشعة أبصارهم، ترهقهم ذلة في يوم القيامة !

بينات من الآيات:

[١٩-٢١] لأن القرآن رسالة الله وعهده إلى الإنسان فإنه أودع تبيانا لكل شيء حتى لا تكون لأحد حجة على ربه في الإدبار عنه إلى غيره من السبل والمناهج، ففيه يقرأ الإنسان سنن الخالق في الحياة، ويقرأ الخير والشر، والحق والباطل، والجنة والنار، والدنيا والآخرة..

ومن أبرز ما في القرآن تعريف الإنسان بنفسه، ذلك أن الإنسان قد خُلِق جهولا، يجهل أقرب الأشياء إليه (وهي نفسه) وفي ذلك خطر عظيم عليه، فقد يدعوه الجهل بالنفس إلى الشرك بالله، وقد يدعوه إلى ممارسة الأخطاء الفظيعة في قيادتها وتربيتها.. ومن هنا فإن في القرآن توجهاً أساسياً اختص بمعالجة موضوع الذات الإنسانية، وبيان أهم صفاتها وطبائعها، كما الآيات التالية من هذه السورة.

﴿ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ قيل: «الهلع شدة الحرص، وقلة الصبر»، وقيل: «الهلوع الضجور»[1]، وفي البصائر: «أي البخل والحرص، أو الخوف وقلق القلب، واضطرابه من كل صوت وحدوث أمر»[2]. والذي يبدو أن أصل الهلع هو الخوف، فالهلوع يخاف عند الشر فيجزع، ويخاف عند الخير من نفاذه وانتقاله إلى غيره من يديه فيمنع، وهي الصفة التي تفقد الإنسان توازنه وثباته أمام الظروف والعوامل والحوادث المحيطة. ويبقى بيان القرآن لمعنى الهلع أجلى وأبلغ من بيان كل مفسر وأديب حيث يقول تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ فإذا به يصبح طعمة لحالات الخوف النفسية، فيفقد توازنه النفسي والفكري والسلوكي، إلى حد الهزيمة واليأس. و﴿ٱلشَّرُّ﴾ الذي تقصده الآية شامل لكل الحوادث السلبية معنوية ومادية، فالخسارة الاقتصادية شر، وفقدان الأحبة شر، والمرض شر، وهكذا.

ولو أننا حققنا في حوادث الانتحار والحالات النفسية في العالم فسنجد أن معظمها عائد إلى صفة الهلع (الجزع) عند الإنسان. ويقول الله: ﴿مَسَّهُ﴾ لأن المس أدنى ما يصيب الإنسان من الشر أو الخير. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ والسبب حبه المفرط لذاته، وشح النفس الذي يجعله يريد الخير لنفسه فقط، ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] وحق ما جاء في الرواية: «**مَا فَتَحَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ بَاباً مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْحِرْصِ مِثْلَهُ**»[3]، وفي الآية بصيرتان:

الأولى: إن المتتبع لكلمة الإنسان في استخدام القرآن يجدها ترد غالباً عند الحديث عن الصفات السلبية فيه، قال تعالى:

- ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].
- ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ [هود: ٩].
- ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].
- ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ [الإسراء: ١١].
- ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٤].
- ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ج ٣٠، ص١٢٨.
(٢) تفسير البصائر: ج ٤٩، ص١٢٠.
(٣) الكافي: ج٢، ص٣١٩.

وهكذا ترد الكلمة عند الحديث عن الصفات الذاتية للإنسان أو يُخاطب الإنسان بوصفه نوعه وهويته الإنسانية.

الثانية: إن المفسرين اختلفوا في معنى الخلق في الآية، وجرى بينهم بحث كلامي وفلسفي حول صفة الهلع كيف خلقها الله وهي ذميمة أم هي صفة يوجدها الإنسان في شخصيته بنفسه؟ فصاحب التبيان أكد كونها من فعله تعالى فقال: «وإنما جاز أن يخلق الإنسان على هذه الصفة المذمومة لأنها تجري مجرى خلق شهوة القبيح ليجتنب المشتهى، لأن المحنة في التكليف لا تتم إلا بمنازعة النفس إلى القبيح ليجتنب على وجه الطاعة لله تعالى، كما لا يتم إلا بتعريف الحسن من القبيح في العقل ليجتنب أحدهما ويفعل الآخر»[١].

وفي التفسير الكبير: «قال القاضي قوله تعالى: (الآية) نظير لقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍۢ﴾ وليس المراد أنه مخلوق على هذا الوصف، والدليل عليه أن تعالى ذمه عليه، والله تعالى لا يذم فعله، ولأنه تعالى استثنى المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم في ترك هذه الخصلة المذمومة، ولو كانت هذه الخصلة ضرورية حاصلة بخلق الله تعالى لما قدروا على تركها»[٢]، وعلّق الفخر الرازي مفصلا بأن: «الهلع واقع على أمرين:

الأول: نفسي باطن.

الثاني: فعلي ظاهر، وهو يدل على ما خفي..

وقال: أما تلك الحالة النفسانية فلا شك أنها تحدث بخلق الله تعالى، فهي مخلوقة على سبيل الاضطرار (والجبر)، والأفعال الظاهرة من القول والفعل يمكنه تركها والإقدام عليها، فهي أمور اختيارية»[٣].

والظاهر أن صفة الهلع صفة ذاتية مركوزة في الطبائع الأولية للإنسان كقابليات متراوحة بين الفجور والتقوى، وإنما يبينها الله ويذمها لكي يعرفنا بها ويحذرنا منها فنجتنبها، وليس في ذلك شيء من الجبر لأن الله سبحانه قد خلق الإنسان في أحسن تقويم إلا أن ذاته المرتكزة في الجهل والجهالة والضعف والعجلة وما أشبه لم تتغير. أرأيت الذي يشعل شمعة في الليل فتضيء ما حولها يحمد عليها ولا يذم على الظلام المحيط لأنه ليس من صنعه، وهكذا تركب الإنسان من صنفين: النور (من الله) والظلام (من نفسه)، قال ربنا سبحانه: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ

(١) التبيان: ج ١٠، ص١٢١.
(٢) التفسير الكبير للرازي: ج٣٠، ص١٢٨.
(٣) التفسير الكبير للرازي: ج٣٠، ص١٢٩.

حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩]، وسائر ما في الإنسان من جوانب القوة والضعف والخير والشر فإنما هي ظلال لهذين الصنفين، إلا أن على الإنسان أن يسعى جاهدا للتغلب على الظلام وظلاله في نفسه، وتنمية النور، وإشعاعاته، والهلع واحد من ظلال الظلام الذي يجب أن يتغلب عليه بسعيه وعزم إرادته.

والله تعالى عرَّف البشر كوامن نفسه شرها وخيرها، وأعطاه إرادة الاختيار التي يتجاوز بها صفات السوء وطبائعه إن شاء أو يسترسل معها، ورسم له المنهج الذي يسلم بتطبيقه منها. فما هو المنهج القرآني لعلاج صفة الهلع عند الإنسان؟.

أولاً: حضور الآخرة في وعيه نفسيًا وفكريًا، فإن من يتذكر أهوالها ومشاهدها لا يجزعه من الدنيا شر بالغا ما بلغ، لأنه يكون أبدا مشغولا عنه بذلك الشر المستطير، بل تراه يعيش السكينة والاطمئنان كالمؤمنين: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[البقرة:١٥٦]، كما لا يبطره خير في منع خشية العذاب وطمعا في الثواب.. ولعل هذه الفكرة تفسر لنا العلاقة بين الحديث عن مشاهد القيامة: (٨-١٨) وبين الحديث عن الإنسان: (١٩-٢١). والمستقرئ للآيات القرآنية يجد أن الوحي ما يكاد يحدثنا عن صفات الإنسان السلبية إلا ويمهد لذلك بالحديث عن الآخرة، أو يلحقه بالتذكير بها، لأنه علاج ناجح لها.

[٢٢-٣٥] **ثانياً:** الصلاة التي هي معراج المؤمنين إلى الفضيلة، ووسيلتهم للتزكية والتربية الذاتية. أوليست هي الوسيلة التي دعانا الله أن نبتغيها إليه؟ أوليست هي حبل الله وسفينة نجاة الإنسان من الباطل والشر؟.. بلى؛ ولكن يجب أن نفهم الصلاة ونُقيمها بشروطها كما يبينها القرآن حتى نخلص من صفة الهلع وسائر الصفات السيئة، ونعرج بأنفسنا روحيًا وسلوكيًا إلى آفاق الكمال والفضيلة، فإن الإنسان كإنسان متورط في الهلع ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ الذين عرفوا الصلاة على حقيقتها فأقاموها في حياتهم.. عرفوا الصلاة بأنها الاتصال الدائم بلا انقطاع مع الله، والكون في طاعته كل ساعة ولحظة.. عرفوا الصلاة برنامجا متكاملا يتصل بكل شؤون الحياة ومفرداتها الخاصة والعامة، الفردية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية والأخلاقية والقضائية وهكذا. لا صلاة القشور المحصورة في الركوع والسجود وبعض المظاهر. فما هي الصلاة الحقيقية في مفهوم القرآن؟!.

إن القرآن لا يفصِّل لنا في كيفية الصلاة ولا عدد ركعاتها وسجداتها، وإنما يعرِّفنا الصلاة الربانية ببيان صفات المصلين الواقعيين عند الله، وهي:

الأولى: الدوام على الصلاة ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ قال الزمخشري: «يواظبون

على أدائها، ولا يُخلُّون بها، ولا يُشغلون عنها بشيء من الشواغل»[1]، وفي الدر المنثور عن ابن مسعود قال: «على مراقبتها»، وعن عقبة بن عامر قال: «الذين إذا صلوا لم يلتفتوا عن يمين ولا شمال»[2]، وكل ذلك صحيح، إلا أن الآية جاءت لتعطي البعد الأشمل والأصح للصلاة كما يراها الإسلام ويلتزم بها المصلون الحقيقيون، وهي الصلاة الدائمة التي تورث الصلة المستمرة مع رب الكائنات في القيام والقعود في آناء الليل وأطراف النهار.

إن البعض فهم الصلاة فهما خاطئا على أنها مجرد عدد من الركعات والأذكار التي يؤديها المسلم في وقت مخصوص، وقطعوها -وهي عمود الدين- عن الاتصال بمفردات الحياة وسلوك المصلي. أما الصلاة التي يريدها الإسلام فإنها الصلة الدائمة بين العبد وربه، وما العبادة المتعارفة إلا رمز ومظهر لذلك الجوهر.. فالمصلي الحقيقي لا يعيش الحياة مجزأة، ولا يحد الصلاة بوقت معين، إنما يعتبرها موصولة بكل مفردة في حياته، وأنه لو خالف قيمها وأهدافها في واحدة منها فإنها لا تعد في نظره مقبولة، فلا يغش الناس عند المعاملة، ولا يكذب في كلامه، ويبخسهم أشياءهم، ولا يغتاب، ولا يتهم، ولا يركن للظالمين، ولا.. و...، لأن كل ذلك يسلب صلاته روحها ومعناها وثوابها.. فالصلاة لا بد أن تنهى عن كل فاحشة فردية أو اجتماعية، ولا بد أن تقطع المسلم عن كل أحد غير الله فيعيش مستقلا حتى تسمى صلاة. إن الذي يصلي ثم يحيد عن أهداف الصلاة في سائر يومه وحياته لا يمكن أن يطلق عليه مصليًّا، لأن من شروط المصلي أن يدوم على صلاته بالتزام مضامينها وقيمها وأهدافها والاستقامة عليها طيلة يومه وحياته. وحيث فهم الواعون المخلصون من الرعيل الأول الصلاة منهج حياة فداموا عليها أصبحت إليهم معراجا إلى كل فضيلة وكرامة.

ولقد أَوَّلَ أئمة الهدى الصلاة في الآية بأنها النوافل (الصلوات المستحبة)، قال الإمام الباقر عليه السلام: «هَذَا فِي النَّوَافِلِ»[3]، وقال القمي: «إذا فرض على نفسه شيئا من النوافل دام عليه»[4]، وهذه الأخبار تهدينا إلى أمرين:

ألف: مدى حرصهم على صلاتهم الواجبة ودوامهم عليها، فإن من دام على المستحب كان أدوم على الواجب.

بـــاء: درجة التزامهم بالإسلام ومنهجيته في الحياة، بحيث إنهم يرفعون المستحبات

(١) الكشاف: ج ٤، ص٦١٢.
(٢) الدر المنثور: ج٦، ص٢٦٦.
(٣) وسائل الشيعة: ج١٣، ص٥٧.
(٤) تفسير القمي: ج ٢، ص٣١٦.

المندوبة إلى مستوى الواجبات أداء والتزاما، وهذا بدوره يكشف عن مدى حبهم للعبادة. وقد ذكر الله صفة المداومة على الصلاة لأن المعطيات الحضارية وغيرها كالتغلب على صفة الهلع في النفس البشرية لا تتأتى بصورة سريعة منذ أول ممارسة للصلاة من قبل الإنسان، بل لا بد من الدوام عليها والاستقامة حتى تعرج بنا إلى تلك المعطيات.

الثانية: الإنفاق في سبيل الله. وبه يخرج المصلون من سلطان المال والثروة الذي يأسر الكثير من الناس الذين أنعم الله عليهم في منع حقوق الله وحقوق المجتمع، وإنها لآية على تحول الصلاة إلى برنامج عملي في حياتهم. أوليس هدفها أن يتمحض الإنسان في الخلوص لله، ويتنازل عن كل شيء حتى ذاته من أجل الحق؟ بلى؛ فلماذا يبخلون بالمال؟ إن المصلين الحقيقيين حينما يكررون في صلاتهم قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنهم يعون بعمق أن الحمد ليس مجرد كلمات وشعارات يلوكها الواحد بلسانه، بل هو باللسان المعبر عن النية الصادقة والإيمان المخلص، وبالعمل من خلال تطبيق منهجية الحمد في واقع الحياة، ومنها إنفاق نعم الله في سبيله شكرا له وتعبدا. إنهم قد اتصلوا بالله وعرفوه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وعلموا أن ما في الوجود كله من عنده وهو مالكه، حتى أنفسهم، وما الأموال التي عندهم إلا أمانات استودعهم إياها، فكيف يبخلون بها ويمنعون عن أدائها إليه حين يطلبها فيأمرهم بإنفاقها في سبيله؟!.

إن الامتناع عن الإنفاق في يقينهم لون من الخيانة للمستأمن، وهذا ما يدفعهم إلى الإنفاق في وجوه الخير من جهة، ومن جهة أخرى يدفعهم الشعور بالمسؤولية الاجتماعية إلى مد يد العون لأصحاب الحاجة والعوز تطبيقا لمنهجية التكافل الاجتماعي التي تستهدفها الصلاة ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ والسائل هو الذي يعرض حاجته على الناس ويسأل العون مع أنه قد يكون محتاجا وقد لا يكون كذلك، ولكن كرامة المصلين وعزتهم تمنعهم أن ينتظروا يدا تمتد إليهم بالسؤال حتى يعطوه مهما كان المعطى كثيرا..

فهذا سيد الشهداء وقد طرق الباب طارق يناوله صرة من النقود الكثيرة، ولا ينظر إليه بل يمد يده الكريمة من وراء الباب. هكذا قال المجلسي: «فَسَلَّمَ الْحُسَيْنُ عليه السلام وَقَالَ: **يَا قَنْبَرُ هَلْ بَقِيَ مِنْ مَالِ الْحِجَازِ شَيْءٌ**؟. قَالَ: نَعَمْ أَرْبَعَةُ آلَافِ دِينَارٍ فَقَالَ عليه السلام: **هَاتِهَا قَدْ جَاءَهَا مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِهَا مِنَّا**. ثُمَّ نَزَعَ بُرْدَيْهِ وَلَفَّ الدَّنَانِيرَ فِيهَا وَأَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ شَقِّ الْبَابِ حَيَاءً مِنَ الْأَعْرَابِيِّ وَأَنْشَأَ:

خُذْهَا فَإِنِّي إِلَيْكَ مُعْتَذِرٌ 	وَاعْلَمْ بِأَنِّي عَلَيْكَ ذُو شَفَقَه

لَـوْ كَانَ فِي سَيْرِنَا الْغَـدَاةَ عَصًا أَمْسَـتْ سَمَانَا عَلَيْـكَ مُنْدَفِقَـه
لَكِـنَّ رَيْـبَ الزَّمَـانِ ذُو غِيَـرٍ وَالْكَـفُّ مِنِّـي قَلِيلَـةُ النَّفَقَـه

قَالَ: فَأَخَذَهَا الْأَعْرَابِيُّ وبَكَى، فَقَالَ عليه السلام لَهُ: لَعَلَّكَ اسْتَقْلَلْتَ، قَالَ: لَا، ولَكِنْ كَيْفَ يَأْكُلُ التُّرَابُ جُودَكَ؟!»[1].

أما المحروم فإنه يفترق عن السائل في أمرين:

الأول: وجود الحاجة الماسة عنده وكونه مستحقا.

الثاني: حياؤه الذي يمنعه من السؤال.. هكذا جاء في تفسير الرازي والمجمع والتبيان والميزان والكشاف: «والمحروم الذي يتعفف عن السؤال فَيُحسب غنيًّا فيحرم»[2]، وهذا يدل على أن المؤمنين ينفقون أموالهم على المحتاجين وهم يشعرون بأنهم هم أهل الحاجة إلى الإنفاق.. فلا ينتظرون السائل يسألهم، بل يعطونه للسائلين، ويبحثون بأنفسهم عن المحتاجين لينفقوا عليهم لوجه الله، ولقد جاء في التاريخ[3]: أن الإمام زين العابدين عليه السلام استشهد وفي كتفه أثر الجراب الذي كان يمر به ليلا على بيوت الفقراء والمحتاجين وقد ملأه تمرا وخبزا. والظاهر من الروايات أن الإنفاق الذي تعنيه الآية ليس الواجب المفروض في الشريعة بقدر ما هو الإنفاق المندوب الذي يبادر إليه المصلون أنفسهم قربة لله تعالى، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ فَرَضَ لِلْفُقَرَاءِ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ فَرِيضَةً لَا يُحْمَدُونَ إِلَّا بِأَدَائِهَا** (أي أنه ليس فضلا يمدحون بأدائه) **وهِيَ الزَّكَاةُ بِهَا حَقَنُوا دِمَاءَهُمْ وبِهَا سُمُّوا مُسْلِمِينَ، ولَكِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ حُقُوقاً غَيْرَ الزَّكَاةِ فَقَالَ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ فَالْحَقُّ الْمَعْلُومُ مِنْ غَيْرِ الزَّكَاةِ وهُوَ شَيْءٌ يَفْرِضُهُ الرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ فِي مَالِهِ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْرِضَهُ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِهِ وسَعَةِ مَالِهِ فَيُؤَدِّي الَّذِي فَرَضَ عَلَى نَفْسِهِ، إِنْ شَاءَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وإِنْ شَاءَ فِي كُلِّ جُمْعَةٍ وإِنْ شَاءَ فِي كُلِّ شَهْرٍ**»[4]. وعنه قال عليه السلام: «**هُوَ الرَّجُلُ يُؤْتِيهِ اللهُ الثَّرْوَةَ مِنَ الْمَالِ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْأَلْفَ والْأَلْفَيْنِ والثَّلَاثَةَ الْآلَافِ والْأَقَلَّ والْأَكْثَرَ فَيَصِلُ بِهِ رَحِمَهُ ويَحْمِلُ بِهِ الْكَلَّ عَنْ قَوْمِهِ**»[5]، وهذا المحمل هو الأقرب لأن الإنفاق المستحب أدل على رسوخ الإيمان من الواجب.

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٤، ص١٩٠.
(٢) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٣٠.
(٣) مستدرك الوسائل: ج٧، ص١٨٣.
(٤) الكافي: ج٣، ص٤٩٨، تفسير العياشي: ج٢، ص٢١٠.
(٥) الكافي: ج٣، ص٤٩٩.

وحيث بادر المصلون إلى هذا النوع من الإنفاق فإنهم لا يعتبرون أنفسهم متفضّلين على من أعطوا، بل يشعرون في أنفسهم أن ذلك ﴿حَقٌّ﴾ واجب عليهم أداؤه، مما يبعدهم عن الرياء والمن والأذى. ثم إنهم من الناحية الاقتصادية متوازنون في إنفاقهم، فهم لا يسرفون ولا يقترون، بل يقدمون على مواقف وخطوات مدروسة قائمة على الحسابات الدقيقة.. فإنفاقهم كما يصف ﴿مَعْلُومٌ﴾ مدروس ومخطط ومحدد.

الثالثة: التصديق بالآخرة ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ قال العلامة الطبرسي: «يؤمنون بأن يوم الجزاء والحساب حق لا يشكون في ذلك»[1]، وفي الكشاف: «تصديقا بأعمالهم واستعدادا له»[2]. وسميت الآخرة ﴿بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ لأنها يوم الجزاء وفيها الميزان، ولأن الحاكمية المطلقة فيها لدين الله عز وجل. وإذا كانت الدنيا صولات وجولات بين الحق والباطل فإن الآخرة دولة مطلقة للحق. وتصديق المصلين بذلك اليوم وما فيه من الحقائق تصديقان: تصديق القلب بالإيمان واليقين الراسخ أن الآخرة حق واقع، وتصديق الجوارح بالعمل والسعي الصالح، الذي يكون مصداقا للإيمان، ودليلا على صدق مدعيه. وقد أعطى الإسلام لهذه الكلمة مفهومها الحقيقي الشامل حينما اعتبر كل صالحة وحسنة صدقة، قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ إِلَى غَنِيٍّ أَوْ فَقِيرٍ»[3]، وقال ﷺ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَة، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الحَجَرَ وَالشَّوكَ وَالعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ»[4].

ونهتدي من قوله: ﴿يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ إلى أن أعمالهم الصالحة مصداق إيمانهم بالآخرة، فلا يعملون رياء أو سمعة، أو أشرا أو بطرا، أو استعلاء في الأرض. كما نستوحي من ذلك أن يوم الدين هو العامل الرئيسي الذي به يصدقون ويندفعون إلى الأعمال الصالحة. أترى لو كفر أحد بالجزاء ماذا يدفعه إلى التصدق والإنفاق والتضحيات؟ لا شيء، ولهذا فإن توقف مسيرة الإحسان والعطاء عند الكفرة سببه كفرهم بالآخرة. و حيث اعتبر القرآن التصديق بالآخرة صفة أساسية عند المصلين حقا فلأنهم عندما يقومون إلى الصلاة يعيشون بوعيهم الإيماني ظواهر الآخرة وأحداثها الفظيعة. وما هي قيمة الصلاة إذا لم يكن المصلي حاضرا بروحه وبصيرته في الآخرة عند أدائها؟ وإيمانهم بالآخرة له دور أساسي وكبير في حياتهم إيمانا وتفكيرا وعملا، فهو

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٥٠.
(٢) الكشاف: ج٤، ص٦١٢.
(٣) وسائل الشيعة: ج٩، ص٣٨١.
(٤) كنز العمال: ج٥، ص٤١٠، ح١٦٣٠٥.

مقياسهم في القضايا المختلفة، فلا يقربون الذنوب خشية الخزي والعذاب يومئذ، ويستزيدون من عمل الصالحات طمعا في الفوز بالجنة ورضوان الله، ولا يجزعون عند البأساء والضراء لأن الشر الحقيقي ليس الفقر ولا فقدان الأحبة ولا المرض إنما هو عذاب الله وسخطه، ولا يمنعون عند الخير برهم عن أحد طمعا في الخير العظيم عند لقاء الله. وبعبارة أخرى: إن الإنسان لا يمكنه الثبات، بل يبقى هلعا متقلب الشخصية حتى يؤمن بالآخرة، لأن ذلك وحده الذي يعطيه الاطمئنان إذ يشبع تطلعاته الفطرية، ويشعره بأنه يسير نحو مستقبل أفضل وأنبل.

الرابعة: الخوف من عذاب الله ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ في التبيان: «الإشفاق رقة القلب عن تحمل ما يخاف من الأمر، فإذا قسا قلب الإنسان بطل الإشفاق»، وقيل: «من أشفق من عذاب الله لم يَتَعَدَّ له حدا ولم يضيّع له فرضاً»[1]، وخوفهم في الحقيقة ليس من شدة العذاب بقدر ما هو خوف من سخط الله، لأن فراق رضوان الله أعمق وأشد ألما من ألسنة النيران. إن المصلين الحقيقيين يفترضون أنفسهم في النار، وينطلقون من ذلك بالجد والاجتهاد والسعي الحثيث لإنقاذ أنفسهم منها، وإنما لا يفترضون أنفسهم في الجنة لكيلا يستبد بهم الغرور فيركنون إلى الراحة والدعة، ولكيلا يعيشوا في ظل خرافة الشرك أو أمنية الشفاعة المحتومة على الله تعالى سبحانه أو حلم الأعمال الصالحة التي لا يعرفون مدى قبولها من عند الله، فهم لا يعطون لها الأمان بالاعتقاد الخاطئ أن الله لا يعذبهم، ولا بالاتكال اغترارا على أعمالهم، ولا بالفهم السيئ للشفاعة.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ وتأكيد هذه الحقيقة من قبل الله يأتي في سياق المنهج التربوي للقرآن، فإن من لا يأمن العذاب لا يسمح لنفسه بالغفلة، وضياع الفرصة، كما أنه يتحرك في بعدين: الأول: بعد اجتناب الذنوب التي جزاؤها العذاب، والثاني: بعد العمل الصالح الذي يقرب العبد إلى الله، وينجيه من غضبه، ويقربه من الأمان الحقيقي من عذابه. إن الذي يأمن مكر الله وعذابه أو يكفر به ويكذب كأولئك الذين بلغ كفرهم بوعد الله حد الاستهزاء والتحدي بالسؤال عن العذاب؛ إن هذا الإنسان لا يتحسس المسؤولية، ومن ثم يخوض ويلعب، وقد يعتمد على التمنيات فيود لو يفتدي نفسه بالآخرين وينجو، أو يطمع أن يدخل جنة نعيم، ولكنها لا تعطي أمانا أبدا، قال شيخ الطائفة[2] مفسرا الآية: «قيل يخافون ألاَّ يقبل حسناتهم ويؤخذون بسيئاتهم»[3]، وفي الكشاف: «أي لا ينبغي لأحد وإن بالغ في الطاعة والاجتهاد أن

---

(١) التبيان: ج ١٠، ص١٢٤.

(٢) شيخ الطائفة: هو لقب الشيخ الأجل محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ).

(٣) التبيان: ج ١٠، ص١٢٤.

يأمنه، وينبغي أن يكون مترجحا بين الخوف والرجاء»[1]، وقيل: «لأن المكلف لا يدري هل أدى الواجب كما أُمِرَ به، وهل انتهى عن المحظور كما نُهِيَ»[2].

وكون العذاب غير مأمون لا يعني أنه تعالى لا يعدل، حاشا وهو السلام المؤمن، بل لكون الإنسان غير معصوم، ولكن التمحض في الحق من جانبه صعب وقليل أهله، قال الإمام الصادق عليه السلام: «أُتِيَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ قَدْ مَاتَ رحمه الله فَقَامَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وَقَامَ أَصْحَابُهُ مَعَهُ فَأَمَرَ بِغُسْلِ سَعْدٍ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى عِضَادَةِ الْبَابِ، فَلَمَّا أَنْ حُنِّطَ وَكُفِّنَ وَحُمِلَ عَلَى سَرِيرِهِ تَبِعَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله بِلَا حِذَاءٍ وَلَا رِدَاءٍ، ثُمَّ كَانَ يَأْخُذُ يَمْنَةَ السَّرِيرِ مَرَّةً وَيَسْرَةَ السَّرِيرِ مَرَّةً حَتَّى انْتَهَى بِهِ إِلَى الْقَبْرِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله حَتَّى لَحَدَهُ وَسَوَّى اللَّبِنَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ يَقُولُ: نَاوِلُونِي حَجَراً نَاوِلُونِي تُرَاباً رَطْباً يَسُدُّ بِهِ مَا بَيْنَ اللَّبِنِ، فَلَمَّا أَنْ فَرَغَ وَحَثَا التُّرَابَ عَلَيْهِ وَسَوَّى قَبْرَهُ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَبْلَى وَيَصِلُ الْبِلَى إِلَيْهِ وَلَكِنَّ اللهَ يُحِبُّ عَبْداً إِذَا عَمِلَ عَمَلًا أَحْكَمَهُ، فَلَمَّا أَنْ سَوَّى التُّرْبَةَ عَلَيْهِ قَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ يَا سَعْدُ هَنِيئاً لَكَ الْجَنَّةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: يَا أُمَّ سَعْدٍ مَهْ لَا تَجْزِمِي عَلَى رَبِّكِ فَإِنَّ سَعْداً قَدْ أَصَابَتْهُ ضَمَّةٌ، قَالَ: فَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وَرَجَعَ النَّاسُ فَقَالُوا لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ لَقَدْ رَأَيْنَاكَ صَنَعْتَ عَلَى سَعْدٍ مَا لَمْ تَصْنَعْهُ عَلَى أَحَدٍ، إِنَّكَ تَبِعْتَ جَنَازَتَهُ بِلَا رِدَاءٍ وَلَا حِذَاءٍ، فَقَالَ صلى الله عليه وآله: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانَتْ بِلَا رِدَاءٍ وَلَا حِذَاءٍ فَتَأَسَّيْتُ بِهَا، قَالُوا: وَكُنْتَ تَأْخُذُ يَمْنَةَ السَّرِيرِ مَرَّةً وَيَسْرَةَ السَّرِيرِ مَرَّةً، قَالَ: كَانَتْ يَدِي فِي يَدِ جَبْرَئِيلَ آخُذُ حَيْثُ يَأْخُذُ، قَالُوا: أَمَرْتَ بِغُسْلِهِ وَصَلَّيْتَ عَلَى جَنَازَتِهِ وَلَحَدْتَهُ فِي قَبْرِهِ، ثُمَّ قُلْتَ: إِنَّ سَعْداً قَدْ أَصَابَتْهُ ضَمَّةٌ، قَالَ فَقَالَ صلى الله عليه وآله: نَعَمْ، إِنَّهُ كَانَ فِي خُلُقِهِ مَعَ أَهْلِهِ سُوءٌ»[3].

الخامسة: العفة الجنسية. إن مما يبعد المصلين عن صفة الهلع هو سيطرتهم التامة على شهواتهم، فبينما تسير الآخرين غرائزهم وأهواؤهم تجد المؤمنين يوجهونها على أساس القيم كيفا ومقدارا، مما يعطيهم الثبات في شخصيتهم. ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴾.

ويفسر علاقة هذه الآية بالآيتين السابقتين عن الخشية من العذاب حديث أمير المؤمنين عليه السلام: «فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ»[4]، وهذا يؤكد العلاقة بين عقائد الإنسان المؤمن وسلوكه، وأن المصلي بحق هو الذي يترجم القيم

---

(١) الكشاف: ج٤، ص٦١٣.
(٢) تفسير الميزان: ج٢٠، ص٢٠.
(٣) بحار الأنوار: ج٦، ص٢٢٠.
(٤) بحار الأنوار: ج٦٥، ص٣٤٨.

الإيمانية إلى حقائق واقعية في حياته، فالتصديق بيوم الدين والإشفاق من العذاب ليس مجرد أقوال على ألسنتهم أو أفكار في أذهانهم، بل هي واقع ملموس في شخصياتهم.

وبالتدبر في معاني الآية الكريمة نهتدي إلى الحقائق التالية:

ألف: إنها -باستثناء ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾- شاملة للزوجين الرجل والمرأة، فإن المرأة كالرجل مكلفة بصيانة نفسها إلا على زوجها، وألَّا تبحث عن طرق ملتوية لإشباع غريزتها الجنسية.

بـاء: إن حفظ الفرج يبدأ من طهارة القلب بعفة الإيمان وعفة النظر عما حرم الله، وهكذا سائر الجوارح كالسمع واللمس، فإن فرج الإنسان لا يزال محفوظا حتى تدخل قلبه أفكار الشيطان، أو يزيغ نظره إلى الحرام، وكذا سمعه وجلده.

جيم: إن التعبير جاء بالجمع ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ وليس بالمفرد، وذلك يهدينا إلى أن مَنْ حَفِظَ فرجه يشمل بفعله ذلك مَنْ يتعلق به من الفروج فهو يحفظها بحفظه لفرجه، وذلك سنة اجتماعية، وهكذا من يقتحم به الفواحش فإنما يجعل فروجه -زوجته وأخواته وإخوانه وعقبه- عرضة للتورط في الفاحشة، فقد أوحى الله إلى موسى عليه السلام: «**يَا مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ مَنْ زَنَى زُنِيَ بِهِ وَلَوْ فِي الْعَقِبِ مِنْ بَعْدِهِ، يَا مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عِفَّ تَعِفَّ أَهْلُكَ، يَا مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَكْثُرَ خَيْرُ أَهْلِ بَيْتِكَ فَإِيَّاكَ وَالزِّنَا، يَا مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ**»[١]، وفي حديث آخر: «**لَمَّا أَقَامَ الْعَالِمُ الْجِدَارَ أَوْحَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى مُوسَى** عليه السلام **أَنِّي مُجَازِي الْأَبْنَاءِ بِسَعْيِ الْآبَاءِ إِنْ خَيْراً فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرّاً فَشَرٌّ. لَا تَزْنُوا فَتَزْنِيَ نِسَاؤُكُمْ، وَمَنْ وَطِئَ فِرَاشَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ وُطِئَ فِرَاشُهُ، كَمَا تَدِينُ تُدَانُ**»[٢].

دال: وإذا نظرنا إلى الآية بتفكر أمكننا توسيع معنى الفروج ليشمل كل فرجة يساهم بها الإنسان في ممارسة الجنس، كالفم والأذن والعين والأنف. وإن المصلين يعفون بها عن ممارسة الحرام، فلا يقبلون بشفاههم غير أزواجهم، ولا يتلفظون بها كلمات الفاحشة، كما أنهم لا يستمعون بآذانهم أحاديث المجون، ويصونون أعينهم عن النظر إلا إلى ما أحل الله لهم، بل ويحفظون مشامهم قدر المستطاع عن الاستلذاذ بالحرام!.

هـاء: ولعلنا نقرأ في بطون الآية الكريمة أن المصلين يحسنون إدارة عوائلهم في كل الأبعاد ومنها الجنس، بحيث يؤدون حقوق بعضهم بكفاية وتجمُّل، مما يحفظها عن التفكير

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص٢١.
(٢) الكافي: ج٥، ص٥٥٣.

في ممارسة الحرام خارج إطار العلاقة الزوجية، هذا ما يستفاد من السياق وبالذات من قوله سبحانه في خاتمة الآية ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ كما يأتي تفسيره.

وإن الدراسات العلمية في جنس الاجتماع لتؤكد على أن أغلب الانحرافات في هذا الجانب -وبالتالي فشل الأزواج في حفظ أزواجهم وحصر علاقاتهم الجنسية بهم- مبتنية على سوء إدارتهم للعائلة.

إن الإسلام دين الفطرة، ومعنى ذلك أنه ينسجم مع طبيعة الإنسان، والغريزة الجنسية غريزة طبيعية، والإسلام لا يحاربها، ولكنه يفرض عليه منهجا سليما، فهو من جهة يحرِّم ممارسة الجنس الحرام، ومن جهة أخرى يفتح المجال فيما يخص الزوجات وما ملكت اليمين ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، وإذا عرفنا أن الزوجة تتعدد في الإسلام إلى أربع، كما أنها تشمل الدائمة والمؤقتة، فإن مصادر التمتع بالغريزة الجنسية تكون متنوعة ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ لا من قبل الله ولا من قبل الناس. والغريزة الجنسية أشبه شيء بتيار ماء عارم لا يدعه المؤمن يندفع حيث يشاء، بل يصنع حوله السدود، ويحفر القنوات التي تستوعبه وتوجهه إلى ما فيه الحق والصلاح. ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ نتيجة للشذوذ بممارسة الحرام زنا وغيره[1]. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ يقال عدا فلان: اعتدى، وعدا في مشيه إذا أسرع وتجاوز الحد المعروف، وهو الأصل، والعادي: الظالم بالتجاوز. قيل: «فأولئك الذين تعدوا حدود الله، وخرجوا عما أباحه لهم»[2]. ومن مصاديق ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ الاستمناء (العادة السرية) فقد «سُئِلَ الصَّادِقُ عليه السلام عَنِ الخَضْخَضَةِ فَقَالَ: إِثْمٌ عَظِيمٌ قَدْ نَهَى الله عَنْهُ فِي كِتَابِهِ، وفَاعِلُهُ كَنَاكِحِ نَفْسِهِ، ولَوْ عَلِمْتَ بِمَا يَفْعَلُهُ مَا أَكَلْتَ مَعَهُ. فَقَالَ السَّائِلُ: فَبَيِّنْ لِي يَا بْنَ رَسُولِ الله مِنْ كِتَابِ الله فِيهِ فَقَالَ: قَوْلُ الله ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ وهُوَ مِمَّا ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾»[3].

وإن من انتصر على هوى النفس ووسواس الشيطان بشأن الشهوة الجنسية فقد أوتي خيرا كثيرا، قال الإمام الباقر عليه السلام: «مَا عُبِدَ الله بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ عِفَّةِ بَطْنٍ وفَرْجٍ»[4]، وهذه الرواية تفسر لنا العلاقة بين العفة الجنسية وبين كون العفيف من المصلين الحقيقيين عند الله. وكيف يقيم الصلاة من يخبط خبط عشواء في الفواحش وربنا يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أي أن تجنب الفواحش والمنكرات شرط أساسي لإقامة الصلاة بحدودها.

---

(١) راجع سورة المؤمنون عند الآية: ٦-٧.
(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٥١.
(٣) وسائل الشيعة: ج٢٨، ص٣٦٤.
(٤) الكافي: ج٢، ص٧٩.

السادسة: رعاية الأمانات والعهد ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ قال العلامة الطبرسي: الأمانة ما يؤتمن المرء عليه مثل الوصايا، والودائع، والحكومات ونحوها[١]، وقيل: «كل نعمة أعطاها الله عبده من الأعضاء، فمن استعمل شيئا منها في غير ما أعطاه الله لأجله وأذن له في استعماله فقد خانه»[٢]. وإطلاق المعنى هو الأصح، فالأمانة كل ما استؤمن عليه الإنسان، والعهد كل ما تعاقد عليه وقطع على نفسه الوفاء به. وأظهر مصاديق الأمانة العقل وما يفرضه من مسؤولية اختيار الحق الذي يتجلى في رسالات الله، تلك الأمانة التي عرضها على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان. كما أن أظهر مصاديق العهد ما أخذه الله على بني آدم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا، والمشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وما هي قيمة الصلاة التي لا تردع الإنسان عن خيانة الأمانة والعهد؟ وما هي قيمتها إذا لم تعطه روح الوفاء بهما والرعاية لهما؟!.

السابعة: القيام بالشهادة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ فلا يكتمون الشهادة، ولا يشهدون بالباطل، لا فرق عندهم أكانت لهم أم عليهم، لأن المهم هو إقامة الحق وإعلاء كلمته لوجه الله. وبالتالي فإنهم لا يتأثرون بالضغوط التي تدعوهم للعدول بالشهادة عن الحق. والشهادة أوسع من أن نحصرها في القضاء، بل هي قيام الإنسان بالشهادة للحق في كل حقل وبُعْد، وذلك بالدفاع عن الحق قولا وفعلا، مما يجعله ميزانا للحق، وحجة بالغة على المخالفين له، كما قال الله يخاطب حبيبه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وبكلمة ﴿قَائِمُونَ﴾ أعطى القرآن مفهوما أعمق للشهادة، فهي ليست مجرد قول الحق عند اختلاف الناس فيه، بل قد يرقى إلى خوض الصراع الذي قد ينتهي إلى القتل في سبيل الله، وهو قمة شهادة المرء للحق. وبكلمة: إن القيام هنا قد يكون نقيض القعود في قول الله: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥]، مما يجعل كل مؤمن شهيدا شاهدا على عصره، ويجعل الصلاة رمز شهادته ومعراج شهوده.

الثامنة: المحافظة على الصلاة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بمظهرها وكيفيتها (يعني

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٥١.

(٢) تفسير الميزان: ج٢٠، ص١٧.

الصلاة المتعارفة)، وقد قدم الله تلك الصفات للتأكيد أنها الجوهر والأهم في الصلاة، لأنها المحتوى والصلاة إطارها، وهي القيم والصلاة مقامها، وهي النور والصلاة مشكاتها، وينبغي لكل مقبل على الصلاة أن يضعها نصب عينيه قبلها وبعد أدائها، ويسعى للالتزام بها إلى جانب التزامه بمظاهر الصلاة. قال صاحب المجمع: «أي يحفظون أوقاتها وأركانها فيؤدونها بتمامها، ولا يضيعون شيئا منها»[1]، وقال الرازي: «ومحافظتهم عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها حتى يُؤتى بها على أكمل الوجوه»[2]. ولا يمكن لأحد أن يحفظ صلاته من الفساد حتى يلتزم بشروطها فلا يقتحم الفواحش والمنكرات، لأنها تبطل أجرها، وتمنع قبول الله لها من أحد.

ما هو أجر المصلين الحقيقيين الذين تقدمت صفاتهم؟ يقول ربنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ كرامة حقيقية تتمثل في القرب من الله، وكرامة ظاهرة في نعيم الجنات، وفي هذه الآية تسكين لروعتهم من العذاب، وتأمين لهم بأنه بعيد عنهم. وجزاؤهم هذا نقيض جزاء الكافرين الذين تخشع أبصارهم، وترهقهم ذلة وإهانة.

وفي نهاية سردنا لصفات المصلين في مفهوم القرآن نسجل هاتين الفكرتين:

١- أن التعبير يكون صحيحاً لو قال الله عند كل صفة ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ من غير إلحاق للضمير المنفصل ﴿هُمۡ﴾ بالكلام، ولكنه أثبته تعالى لغرض التأكيد أولا، ولبيان أن صفاتهم ليست عرضية، بل هي سجايا وملكات دافعهم إليها مرتكز في أنفسهم، لا اتباعا لهوى أحد أو استرسالا مع ظرف محدد.

٢- إن بيان تعريف المصلين بهذه الصفات يعطينا مقياسا لتقييم أنفسنا، وميزانا لمعرفة الناس من حولنا، فما أكثر من يصلي ولكنه لا يقيم الصلاة، فيكون له الويل واللعنة، لا كرامة الله والجنة.

[٣٦] ومن بيان صفات المصلين التي هي ثمن الكرامة في الجنات ينعطف السياق القرآني لانتقاد موقف الكافرين الذين يطمعون في دخول الجنة، ويتمنونها نصيبا ومصيرا من غير سعي واجتهاد، مؤكدا أنها منهجية خاطئة، لأنها تقوم على التمنيات، ولأنها لا تقود إلا إلى الخوض واللعب في الدنيا، والخسران المبين في الآخرة.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ قيل: «أذلاء»[3]، وقيل: «من ينظر في ذل وخضوع لا

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٥١.
(٢) التفسير الكبير للرازي: ج٣٠، ص٦٤٥.
(٣) تفسير القمي: ج٢، ص٢٣٨.

يقلع، قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾[إبراهيم: ٤٣]، والأقرب هنا أن الإهطاع إسراع في ذل، يقال: استهطع البعير في سيره أسرع، وناقة هطعى: سريعة. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۝ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾[القمر: ٧-٨] أي مسرعين في إجابة داعي الله منكّسي رؤوسهم أمامه».

والآية تستنكر على الكفار بالرسالة مسارعتهم في الفرار من دعوة الرسول ﷺ، كأنهم قطيع بعير شاردة، أو كما وصفهم تعالى حال إعراضهم عن التذكرة: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥٠-٥١]، حيث لا يثبتون قِبَل الرسول الذي يحمل إليهم منهج الفلاح والعزة في الدنيا والآخرة، ولا يعلمون أنهم بذلك الإسراع في الفرار إنما يسارعون في الذل والفشل، وليس كما يزعمون مسارعة في الخير، وهذا ما يعاينونه في الآخرة ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، وهاتان الآيتان بيان واضح لمعنى الإهطاع أنه الإسراع.

[٣٧-٣٩] ولا يفر الكافرون قِبَل الرسول في صف منتظم واحد، بل في صفوف مختلفة، وذلك لأن المسارعة في الفرار من الحق موقف مبدئي اجتماعي سياسي يتخذه المهطعون لعوامل متفاوتة بينهم، مما يجعل مواقفهم التابعة للأهواء مختلفة، فمن مُشرِّق ومن مُغرِّب كما يقول الله ويصف القرآن: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي متفرقين جماعات كل ينتسب إلى جماعة مختلفة. وأصل العَزْيُ من النسبة، يقال: تعزّى إليه يعني انتسب، والعِزَيَة: الانتساب، قال الأزهري: «عزا فلان نفسه إلى بني فلان، يعزوها عزوا، إذا انتمى إليهم، والاسم العزوة. وكأن العزوة كل جماعة اعتزاؤها (وانتسابها) إلى أمر واحد»[1]. ولقد رأينا كيف أن الانحراف عن الرسالة صيّرَ الناس مذاهب وطوائف، في حين أن الرسالة لو استجابوا لها لكانت تجمعهم أمة واحدة قوية وعزيزة.. إلا إنهم مزّقوا أنفسهم بالضلال عن هداها كل ممزق فصاروا إلى الضعف والذل.

وفي الروايات إشارة من رسول الله ﷺ إلى معنى ﴿عِزِينَ﴾ على أنه التفرق جماعات ومذاهب، فعن جابر بن سمرة قال: «دخل علينا رسول الله ﷺ المسجد ونحن خلق متفرقون فقال: مَا لِي أَرَاكُم عِزِيْنَ؟ أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ المَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأَوَّلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»[2]. والتفرق نتيجة طبيعية للكفر بالله والرسالة، لأن الإيمان يجمع الناس على محور واحد هو محور الحق، أما الكفر فإنه يتخذ

---

(١) التفسير الكبير للرازي: ج٣٠، ص١٣٢.

(٢) تفسير البصائر: ج ٤٩، ص ١٢٤.

أشكالا مختلفة.. أحزابا وأفكارا وقيادات. وهناك قول بأن المقصود بالكافرين: «هم المنافقون الذين يُظهرون الإيمان ويخفون الكفر والتكذيب»[1]، والأقرب تعميم المعنى ليشمل الكافرين والمنافقين جميعا.

وإذا تنكب الإنسان عن صراط الجنة: الرسول (قيادة) والرسالة (منهجا) فكيف يسعد؟ ومن أي باب يدخل الجنة؟ وبأي وسيلة؟ إن الإنسان إنما يرفض الحق قيادة ومنهجا فرارا من المسؤولية والاجتهاد، لا بغضا للحق في ذاته أو جهلا به، في حين تظل نفسه تتطلع إلى الخلاص من العذاب والفوز بالجنة، وهكذا تراه يلجأ إلى التمنيات والظنون. من هنا يستنكر عليهم السياق ذلك الطمع الزائف فيقول: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ وللآية إيحاء بأن ذلك الذي رفض دخول الجنة بالصد عن طريقها وبابها من أين يدخلها؟ وهل ينتظر أحدا يأتي ليدخله فيها وهو لا يريد؟ ﴿كَلَّا﴾ إنه لا يكون فلا يدخل أحد من غير بابها، ومن دون أن يسعى إليها سعيها، وما يحمل جناح التمني والطمع صاحبه إلا إلى النار والتهلكة. وقال ربنا: ﴿يُدْخَلَ﴾ مبنيًّا للمجهول لبيان أن صاحب التمنيات لا يسعى بنفسه، إنما يترقب نجاته من غيره، وليس يفعل ذلك أحد، فأما الله والأولياء فهم أعداؤه، وأما الأنداد فإنهم لا يملكون نفعا ولا ضرًّا. ثم إن الإنسان حينما يتفكر في الخليقة من حوله، بل في خلق نفسه، يصل إلى حقيقة مهمة تنفي له التمنيات والأطماع من أساسها، وأنها لا تُدخل أحدا إلى جنة النعيم، لأنه أينما نظر وتفكر لن يجد شيئا يدور في الفراغ، بلا قانون أو سنة، ومن ذلك نفسه.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى خلقة الإنسان المادية (العناصر التي يتكون منها) والمعنوية (الأطوار والقوانين والسنن).

وفكرة أخرى تفسر العلاقة بين نسف القرآن للتمنيات وبين إشارته إلى خلقة الناس وهي أن في الإنسان جانبين لا بد أن يتكاملا: الجسد والروح، وهو لا يملك في تكامل جسمه شيئا كثيرا، فمن نطفة يصير علقة فمضغة حتى يولد طفلا فيشب ويشيخ ثم يموت، بينما يعتمد تكامل روحه على إرادته وسعيه، والجنة جزاء إحرازه للتكامل في هذا الجانب، ولن يدخلها بمجرد الطمع والتمنيات.

وبصيرة ثالثة: أن الكافرين إنما تركوا الإيمان والسعي للطمع والتمني بسبب كفرهم بالآخرة، حيث قالوا: كيف نعود أحياء بعد أن نصير ترابا؟ فذكّرهم الله بأصل خلقتهم (التراب) لبيان أنه تعالى قادر على إعادتهم بشرا أسوياء بعد أن يصيروا ترابا. ولعل الآية تقرير

---

(١) هكذا في مجمع البيان: ج١٠، ص٥٤٣، وإليه ذهب الفخر الرازي والعلامة الطباطبائي وصاحب تفسير فتح القدير (الشوكاني).

بأن جذر ذلك التمني والكفر راجع إلى طبيعة الإنسان الترابية وجانب الظلام في وجوده.

[٤٠-٤١] ويعالج الله موقف الكفار من وعده وعذابه الواقع بالرد على تحديهم للحق وسؤالهم عن العذاب، وذلك من خلال تذكيره بحقيقتين:

الأولى: طبيعتي الجهل والضعف عند الإنسان، واللتين تجعلان تحديه في غير محله، فإنه لو اطلع على عذاب ربه وعرف قدر خالقه لما ساقه الكفر والتحدي. وما عسى أن يكون وهو المخلوق الضعيف حتى يتحدى خالقه، ويسأله إنزال عذابه عليه تكذيبا وهزوا؟! والى هذه الحقيقة تشير الآية: (٣٩).

الثانية: قدرة الله المطلقة وحكمته النافذة، فهو قادر لو أراد أن يهلك الكفار ويمحوهم من الوجود، ولكنه حكيم لا يفعل ذلك.. ومن تحسس هاتين الصفتين لله ينبغي له الإيمان بالآخرة وخشية العذاب.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ وأول سؤال يفرض نفسه: ماذا تعني المشارق والمغارب؟ يجيب الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام عن ذلك عندما وجّه ابن الكواء تهمة التناقض إلى القرآن، فقال له عليه السلام: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ الْكَوَّاءِ هَذَا الْمَشْرِقُ وَهَذَا الْمَغْرِبُ وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ فَإِنَّ مَشْرِقَ الشِّتَاءِ عَلَى حِدَةٍ وَمَشْرِقَ الصَّيْفِ عَلَى حِدَةٍ، أَمَا تَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْ قُرْبِ الشَّمْسِ وَبُعْدِهَا. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ فَإِنَّ لَهَا ثَلَاثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ بُرْجاً تَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ بُرْجٍ وَتَغِيبُ فِي آخَرَ وَلَا تَعُودُ إِلَيْهِ إِلَّا مِنْ قَابِلٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ**»[1]. وعن ابن عباس قال: «**لِلشَّمْسِ كُلَّ يَوْمٍ مَطْلِعٌ تَطْلُعُ فِيهِ وَمَغْرِبٌ تَغْرُبُ فِيهِ غَيْرُ مَطْلِعِهَا بِالْأَمْسِ وَغَيْرُ مَغْرِبِهَا بِالْأَمْسِ**»[2]. والعلاقة واضحة بين إشارة الله إلى آية المشارق والمغارب الكونية، وبين تأكيده على أنه قادر على التبديل، ذلك أن تبدُّل المشارق والمغارب اليومي -هذه الحركة الكونية- آية من آيات قدرته تعالى على التبديل، وإن الخلق والأمر إليه؛ بحيث لو أراد الرد على تحدي الكفار بإنزال عذابه لفعل فأهلكهم، وأتى بغيرهم خيرا منهم، لا يعجزه شيء أبدا.

والسؤال الثاني: لماذا قال ربنا: ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾؟ لعل الجواب: أن سنة هلاك الأمم الغابرة قائمة على أساس أن الأمة الناشئة البديلة تكون أفضل لقربها من فطرة الخلق، وعدم تلوثها بعوامل الفساد والزيغ. لقد أهلك الله قوم نوح، وطهرت الأرض جميعا من فسادهم وزيفهم،

(١) بحار الأنوار: ج١٠، ص١٢١.
(٢) الدر المنثور: ج٦، ص ٢٦٧، فتح القدير: ج٥، ص٢٩٥.

وأنشأ من بعدهم قوما صالحين (هم ذرية الناجين في السفينة)، ثم أهلك فرعون وقومه واستعمر بلادهم بنو إسرائيل، وكانوا أمة مؤمنة وهكذا لا يكون خلق الله إلا صالحا، كما قال ربنا سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي لا يسبقنا شيء، ولا يعجزنا أحد، ولم نمارس في أمر الخلق لغوبا ولا علاجا، ولا تَعَلَّمنا التجربة من أحد أو احتجنا إلى شريك أو مُعِيْن، سبحان الله.. وإنما تقتضي حكمته الإمهال. قال شيخ الطائفة مشيرا إلى هذا المقطع من الآية: وقوله: «الآية» عطف على جواب القسم، ومعناه أن هؤلاء الكفار لا يفوتون بأن يتقدموا على وجه يمنع من إلحاق العذاب بهم، فلم يكونوا سابقين، ولا العقاب مسبوقا منهم، والتقدير: «وما نحن بمسبوقين بفوت عقابنا إياهم»[1]. ويستشف من الكلمة معنى الغلبة لأن من دخل السباق وسُبِقَ فهو مغلوب، وتعالى الله أن يغلبه أحد وهو القادر على كل شيء.

وفي الآية ﴿أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ اختلاف في كيفية الإبدال، فقيل: بالإهلاك وذلك بأن يهلكهم الله ويخلق غيرهم، وقيل: بأنه تعالى يبدل الرسول عنهم -وهم المكذبون المهطعون عن اليمين وعن الشمال عزين رافضين لرسالته- يبدلهم بآخرين قِبَلِه يطيعونه ويصدقون بدعوته. والاثنان صحيحان. ثم يشير تعالى إلى حقيقة أساسية وهي: أن الدنيا وإن كانت تتجلى فيها سنة الجزاء إلا أنه ليس ضروريًا أن يجازي الله فيها كل أحد، والسبب أنها دار الابتلاء، أما دار الجزاء فهي الآخرة، وإنهم -أي الكفار- لن يفوتوه، بل سيلاقون جزاءهم يوم القيامة.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ في الدنيا ﴿يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾ فيذهبوا بكل خلاقهم، ويتمادوا في الذنوب حتى يأتوا في الآخرة لا خلاق لهم، وقد فعلوا ما يستحقون به المزيد من العقاب والعذاب، فإن فرصتهم أنى بدت طويلة فهي محدودة بالدنيا. ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ يعني يوم الجزاء عندما يلاقون الإذلال والعذاب. ومن مصاديقه يوم يتوفاهم الله. أوليس إذا مات ابن آدم قامت قيامته؟ أوليس الموت يضع حدا لخوضهم ولعبهم؟ و أصل الخوض دخول الماء، يقال: خاض بالفرس إذا أورده الماء، والغمرات اقتحمها، وكذا المهالك، ولعله الدخول في الشيء بالكامل، وخوض الكافرين هو دخولهم في الذنوب واتِّباعهم الأهواء والشهوات مسترسلين بلا ضوابط أو حدود. واللعب كل ما يُقدم عليه الإنسان بأهداف شهوانية تافهة. وقول الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ هو تحديد لموقف الرسول ومن يتبعه تجاه الفريق المذكور من الكافرين، ولا يعني ذلك أن يعتزل الرساليون ساحة الجهاد والعمل في سبيل الله. بلى؛ إنهم من الناحية الدينية العقائدية ليسوا مسؤولين عن دعوتهم لقبول الحق والإيمان بالآخرة عن طريق الجبر،

---

(١) التبيان: ج١٠، ص١٢٩.

بل يتركونهم فالخيار لهم، كما لا ينبغي أن يُذهبوا أنفسهم حسرات على عدم إيمانهم واختيارهم طريق النار. هذا من جانب، ومن جانب آخر يجب ألَّا تدعوهم تحديات الأعداء واستفزازاتهم إلى التعجل بردات الفعل غير المدروسة، وإنما يجب أن يصبروا صبر جميلا، في الوقت الذي يواصلون فيه مسيرة الجهاد، حسب ما يوحي إليه السياق العام لهذه السورة الكريمة.

[٤٣-٤٤] ويبين القرآن صفات اليوم الذي يوعد الكافرون وأعداء الله، مصورا مشاهد منه، تبعث في القلوب رهبة وتدعو الإنسان إلى التفكير في اتقاء سوء عذابه. ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ بإرادة الله، فإذا بجسد تتصل به روحه، ويصير بشرا سويًّا واعيا في ساعات معدودة، ﴿سِرَاعًا﴾ بحيث لا يحتاج الأمر أن يمر كل واحد بمراحل خلقه الأولى.. نطفة فعلقة فمضغة.. الخ. والجدث هو القبر. وإن الكافرين الذين تنكبوا عن الصراط ورفضوا دعوة الله عن طريق رسله في الدنيا لا يملكون يومئذ حيلة ولا قدرة للصد عن دعوة الحق، بل يجيبون دعوة الداعي مسرعين. ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي يَعْدُون ويسرعون. وللنصب معان:

الأول: العلامات، فكل ما نُصِبَ وجُعِلَ عَلَمًا وعلامة فهو «نصب» وما أشبه إسراعهم يومئذ بإسراع الضائع في الصحراء حينما يقع بصره على العلامات الهادية إلى الطريق!.

الثاني: الأصنام، جاء في كتب اللغة: الأنصاب حجارة كانت حول الكعبة تنصب، فيُهَلُّ عليها ويُذْبَحُ لغير الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]. قال صاحب التبيان: «شبههم في إسراعهم من قبورهم إلى أرض المحشر بِمَنْ نُصِبَ له عَلَمٌ أو صنم يستبقون إليه»[١]، وقال الفخر الرازي مثله: «كما كانوا يستبقون أنصابهم»[٢].

الثالث: قصب السبق الذي ينصب حدًّا لميدان السباق أو علامة لمعرفة السابق من المسبوق، وكأن أهل النار يومئذ يسرعون سرعة المتسابق الذي يسعى للوصول قبل غيره من المنافسين.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ فالموقف منعكس عليهم من الناحية المادية حيث يعلوهم الوجوم، ولا يرتد إليهم الطرف، وترجف أطرافهم من شدة الموقف.. ومن الناحية المعنوية أيضا حيث يشملهم الصغار والذل ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾.

---

(١) التبيان: ج١٠، ص١٢٩.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ج٣٠، ص١٣٣.

سُورَةُ نُوحٍ

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٢٨.

* ترتيبها النزولي: ٧١.

* ترتيبها في المصحف: ٧١.

* نزلت بعد سورة النمل.

فضلُ السُّورة

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَ يَقْرَأُ كِتَابَهُ فَلَا يَدَعُ قِرَاءَةَ سُورَةِ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ فَأَيُّ عَبْدٍ قَرَأَهَا مُحْتَسِباً صَابِراً فِي فَرِيضَةٍ أَوْ نَافِلَةٍ أَسْكَنَهُ اللهُ مَسَاكِنَ الْأَبْرَارِ وَ أَعْطَاهُ ثَلَاثَ جِنَانٍ مَعَ جَنَّتِهِ كَرَامَةً مِنَ اللهِ وَ زَوَّجَهُ مِائَتَيْ حَوْرَاءَ وَ أَرْبَعَةَ آلَافِ ثَيِّبٍ إِنْ شَاءَ اللهُ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص١٤٣)

الإطار العام

منهج النبوة في الدعوة

في الوقت الذي تبين هذه الآيات من السورة الملامح العامة لرسالة نوح عليه السلام ومن خلالها ملامح الرسالات الإلهية جميعا (الآيات: ١-٤) تشير إلى قصته مع قومه والتي انتهت بهلاكهم غرقا بالطوفان (الآيات: ٥-٢٨)، فإن محورها الأساسي كما يبدو ليس ذلك وإنما هو التركيز على أن نوحا عليه السلام ضرب مثلا رائعا للمعاناة في سبيل الله، والاستقامة على نهج الرسالة رغم التحديات الخطيرة المتمادية، حيث بقي عليه السلام ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، يكابد مرارة نفور قومه الذين أصرُّوا على الباطل، واستكبروا عن الحق، ومكروا مكرا كُبَّارا، لا ينثني عن أهدافه، ولا يتراجع عن نهجه.

وتلك الاستقامة درس عظيم لنا، لأنها كانت من الثوابت التي لا تقبل التغيير.. بلى؛ كان يغيِّر من أساليبه فمرة يدعو جهارا، وأخرى إعلانا، وثالثة إسرارا، لا يدخله أدنى شك في الحق الذي بين يديه بسبب تكذيب قومه، والبشرية يومئذ معارضة لدعوته، ولا بسبب تأخر نصر الله عنه، وإنما كان على عكس قومه تماما، يزداد مُضِيًّا على الحق، وتسليما لأمر ربه، ويقينا بنصره.

إن العناد المقدس الذي اتصف به نوح عليه السلام جعله رمز الرساليين (دعاة وقادة) عبر التاريخ، ومن ثم واحدا من أولي العزم من الرسل، وأي عزم ذاك الذي واجه به عناد البشرية كلها.. فلله درك يا شيخ المرسلين! ولعمري إنك لآية العزم والاستقامة!.

أن اعبدوا اللّه واتقوه وأطيعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا [1] وَلَا سُوَاعًا [2] وَلَا

---

(١) وَدًّا: صنم اتخذته قضاعة فعبدوه بدومة الجندل، ثم توارثوه حتى صار إلى كلب حتى جاء الإسلام وهو عندهم، قال الواقدي: كان وَدًّا على صورة رجل.

(٢) سواعاً: كان صنمًا لآل ذي الكلاع، وقيل: هو صنم لهذيل برهاط، وقال الواقدي: إن سواعاً على صورة امرأة.

يَغُوثَ(١) وَيَعُوقَ(٢) وَنَسْرًا(٣) (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا(٤) (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (٢٨)﴾.

بينات من الآيات:

[١] إن اتباع الحق ضرورة حياتية ليس في الأفق المعنوي (الروحي والعلمي) وحسب، وإنما في الواقع المادي أيضا، وهذه الحقيقة أعظم تجليًا في حياة المجتمع منها في حياة الفرد، والذي يستقرئ تاريخ البشرية يجد شواهدها ماثلة في الأمم الغابرة، وهكذا حينما ينظر إلى الحياة من حوله. وحيث تسير البشرية بأقدام الضلال والفساد إلى هاوية العذاب الأليم ونهاية الهلاك، بين الحين والآخر يعطف الرب عليها بلطفه ورحمته فيبعث الأنبياء برسالاته لإنقاذها قبل أن تحين ساعة الصفر، وذلك من أظهر آيات رحمته، والتي تتجلى في الرسالات والرسل الذين هم قمة الرحمة الإلهية للناس.

ولقد انحرف قوم نوح عليه السلام وكان الخط البياني لمسيرتهم يتجه نحو الموت الجماعي، ولكن الله الرحمن الرحيم أبى إلا أن يرسل إليهم رسولا منهم رأفة بهم، وإقامة للحجة عليهم، وإمضاء لسنته في خلقه، إذ ما كان الله معذبا قوما حتى يبعث فيهم رسولا، وعلى هذا الأساس ولهذه الأهداف جاء نوح يحمل رسالة الإنذار إلى قومه.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ وقومه يومئذ كل البشر الذين عددهم على بعض الأقوال (٧٠٠) ألفا، ونهتدي إلى ذلك من طبيعة العذاب إذ عم الأرض كلها طوفانه، وفي الحديث عن

(١) يغوث: كان يعبده بطنان من طيّ، فذهبوا إلى مراد فعبدوه زماناً، ثم إن بني ناجية أرادوا أن ينزعوه منهم ففروا به إلى بني الحرث بن كعب، وقيل: إن يغوث كان لبني غطيف من مراد، وقال الواقدي: كان يغوث على صورة أسد.

(٢) يعوق: صنم لكهلان ثم توارثوه حتى صار إلى همدان. وقال الواقدي: إنه على صورة فرس.

(٣) نسراً: صنم لخثعم، وقيل لآل ذي الكلاع من حِمْيَر، وعن الواقدي: إنه على صورة نسر من الطير.

(٤) ديّاراً: ديار من فيعال، من الدوران، ونحوه القيام، والأصل: قيوام وديوار، فقلبت الواو ياءً، وادغمت إحداهما في الأخرى، قال الزجاج: يقال: ما بالدار ديار، أي ما بها أحد يدور في الأرض، وقال الرغب: إنه الساكن.

الإمام الباقر عليه السلام قال: «كَانَ بَيْنَ آدمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ آبَاءٍ كُلُّهُمْ أَنْبِيَاء، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ بُعِثُوا خَاصَّةً وَعَامَّةً فَأَمَّا نُوحٌ فَإِنَّهُ أُرْسِلَ إِلَى مَنْ فِي الْأَرْضِ بِنُبُوَّةٍ عَامَّةٍ، وَرِسَالَةٍ عَامَّةٍ»[1].. وفي الأخبار أن اسمه ليس «نوحا»[2]، بل «السَّكن» عن الإمام علي عليه السلام [3]، وقيل: «عبد الأعلى»[4] وقيل: «عبد الملك»[5] عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «وَإِنَّما سُمِّيَ نُوحاً لِأَنَّهُ نَاحَ عَلَى قَوْمِهِ ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾»[6]. كما قال أمير المؤمنين للشامي، وفي معاني الأخبار: «مَعْنَى نُوحٍ أَنَّهُ كَانَ يَنُوحُ عَلَى نَفْسِهِ وَبَكَى خَمْسَمِائَةِ عَامٍ وَنَحَّى نَفْسَهُ عَمَّا كَانَ فِيهِ قَوْمُهُ مِنَ الضَّلَالَةِ»[7]. وقال الصادق عليه السلام عن النبي: «عَاشَ نُوحٌ أَلْفَيْ سَنَةٍ وَأَرْبَعَ مِائَةِ سَنَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَة»، وعنه عليه السلام أنه قال: «كَانَتْ أَعْمَارُ قَوْمِ نُوحٍ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ، ثَلَاثَمِائَةِ سَنَة»[8].

والآية تشير إلى أن الأمم تسير عبر دورة حضارية، ففي البدء يكونون على فطرة الإيمان والاستقامة ثم ينحرفون، وعند منعطف خطير من حياتهم وبالضبط عند الانحدار القاتل يبعث الرسل والمصلحون لكي يوقفوا مسيرة السقوط، ولذلك يبدأ الأنبياء في الغالب بالإنذار باعتبارهم يُرسَلُون إلى قوم ضلوا وانحرفوا ليُحذِّرونهم مغبة استمرارهم في الضلال.

﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، لأن العذاب لا يأتي من الفراغ، بل هو سنة إلهية وقانون تكويني له أسبابه ومبرراته التي يستطيع الإنسان بإزالتها تلافيه والنجاة منه، ولهذا فإن الاستجابة للإنذار تنفع مادام العذاب لم يحن أجله، حيث الفرصة لا تزال قائمة، يمكن فيها الإصلاح والتغيير. ومعرفتنا بخلفيات انبعاث الرسل في الأمم المختلفة وأهدافهم.. وبالذات أنهم ينهضون للتغيير ويتصدون لقيادة الإصلاح حينما تتردى أوضاع المجتمعات وتسير إلى العذاب، إن تلك -المعرفة- يحمّلنا بالتأكيد مسؤولية التصدي للتغيير إذا كنا نريد اتباع الأنبياء ومواصلة مسيرتهم، وإذا كنا نريد للناس الخير والصلاح. بلى؛ إن النبوة سمة غيبية يختص بها الله من يشاء من عباده، ولكن الرسالة أمانة ومسؤولية يمكن لأي إنسان أن يرتفع إلى مستوى حملها والتصدي لها، فيكون قائدا رساليًا بالتزام الحق، واتباع النهج الإلهي الذي مشى على هداه الأنبياء والرسل عليهم السلام.

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ج١، ص٢١٩.
(٢) راجع بحار الأنوار: ج ١١، ص ٢٨٦-٢٨٧.
(٣) بحار الأنوار: ج١٠، ص٧٨.
(٤) بحار الأنوار: ج١١، ص٢٨٧.
(٥) بحار الأنوار: ج١١، ص٢٨٦.
(٦) بحار الأنوار: ج١١، ص٢٨٦.
(٧) معاني الأخبار: ص٤٨.
(٨) بحار الأنوار: ج١١، ص٢٨٩.

[٢-٤] إن أحدا لا يستطيع أن يَدَّعي العصمة، أو حضور جبرائيل عنده، ولا حتى بلوغ درجة الأنبياء، ولكن يستطيع أن يحمل رسالة الله إلى قومه. إذن فللرسالة وجهان: وجه خاص يتفرد به من اصطفاهم لوحيه مباشرة، ووجه عام يتسع لأتباعهم والسائرين على نهجهم وخطاهم (...) فما هو نهج الأنبياء في ضلوعهم بدورهم الخطير؟.

إن حديث القرآن في هذه السورة يبين لنا الخطوط العامة للنهج الذي تلتقي عليه كل الرسالات والزعامات الإلهية، وذلك بعرض قصة نوح عليه السلام.

أولاً: التصدي لقيادة التغيير

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ إن نوحا لم ينظر للأوضاع نظرة لا أبالية -كما هو شأن الكثير من الناس الذين لا يهمهم سوى أنفسهم ومصالحهم- إنما تحسس الانحراف بكل أبعاده (الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والأخلاقية)، ولم ينتظر من الأقدار أن تُغيِّر أحوال الناس، ولم يُلقِ بالمسؤولية على غيره، بل كان متيقنا بأن الواقع رهن إرادة الإنسان ذاته، فبدأ بمسيرة الإصلاح، متحملا من أجل ذلك كامل المسؤولية، ومتحديا كل العقبات والضغوط مع إصرار على إبلاغ الرسالة، والاستقامة في طريق ذات الشوكة. ومن هنا كان القائد والرمز للتغيير، وبدأ بالعمل الدؤوب المبرمج، والمخلص لوجه الله. إن القيادة أمانة ومسؤولية قبل أن تكون شرفاً ظاهراً، فكان أول طريقه مصارحة المجتمع بالحقيقة، وتوجيهه إلى وجود الانحراف، باعتبار أن وضع اليد على الداء، والقناعة بأصل الخطأ أول خطوة في طريق الإصلاح، فإن الأمة التي يأخذها الغرور، ولا تنتهج النقد الذاتي تبقى إلى الأبد سادرة في انحرافها وأخطائها وتخلفها.

ولم يكن نوح عندما طرح نفسه غير مدرك لمدى التحديات التي سيواجهها، وإنما هي إرادة الإصلاح وروح المسؤولية، وقد تحمل ذلك استجابة للمسؤولية الإلهية، إذ أمره الله بإنذار قومه، وإذ يدعوه ضميره إلى القيام بذلك الدور الحضاري الهام، وحيث نهض ينذر قومه اعتمد الأسلوب الواضح والبليغ، إيمانا منه بأن حقانية الدعوة وحدها لا تكفي، بل لا بد حتى يستجيب الناس لها أن يكون الإنذار بها بَيِّنًا، يمتاز به الحق من الباطل وتتم به الحجة. وقد أعطى ذلك بصيرة واضحة لمن قد يطلع على عاقبة قومه بأن عدم استجابتهم لم يكن بسبب الغموض في البيان، ومن ثم فإنهم يستحقون ما حل بساحتهم من العذاب.

ومن تكرار كلمة «القوم» ثلاث مرات في هاتين الآيتين: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ... أَنذِرْ قَوْمَكَ... يَٰقَوْمِ﴾ نهتدي إلى بصيرة مهمة وهي: أن الإنسان الفرد مسؤول عن قومه ومجتمعه، كما أنهم

مسؤولون عنه، ولا يجوز لأحد أن يعيش فردا لا يبالي بغيره، وأيضاً أن الإنسان قادر على الخروج عن سياق المجتمع الفاسد وتحدي الانحراف، وأن نوحا عليه السلام بوقفته الرسالية الشجاعة لآية على بطلان حتمية التوافق الاجتماعي.

ثانياً: تشخيص أسس الواقع المنحرف وطرح البدائل الصالحة

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ و بهذه الجملة حدد نوح عليه السلام معالم النظام القائم والنظام البديل معا (ثقافيًا واجتماعيًا وسياسيًا) فإن الآية تهدينا إلى البصائر التالية:

الأولى: إن انحراف المجتمع (كفرا وشركا وفسادا) ومشكلة الإنسان (فردا ومجتمعا) ليست الجهل بالخالق من الأساس، بل هي في الدرجة الأولى عدم الخضوع لإرادته تعالى، وتلقي القيم من لدنه. ولقد كان مجتمع النبي نوح عليه السلام متورطا بالفعل في الوثنية والشرك بتصريح الآية الكريمة: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾. وما أكثر ما يؤدي إليه الانحراف المبدئي عن عبادة الله والتوحيد من تعويق لمسيرة الإنسان نحو الرقي والتحضر الحقيقي، ومن ضلال كبير في الحياة وبالذات في جانبها الروحي والأخلاقي والثقافي، مما يجعله عاجزا عن الوصول إلى أهدافه وطموحاته الحقيقية التي لا يبلغها أحد إلا بعبادة ربه.

الثانية: أن المجتمع يومئذ لم يكن ضالا عن المبادئ الأولية وحسب، بل كان بعيدا عن ربه حتى في التفاصيل العملية لمفردات الحياة، إذا لم يكن يخشى الله ويتقيه، وذلك يعني انفلاته من كل الضوابط، واسترساله مع الهوى، حيث إن ضمانة الالتزام بالقيم الإنسانية والدينية على السواء مرهونة بمدى التقوى عند الفرد والمجتمع.

كما تكشف لنا الكلمة الأخيرة ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ عن وجود الفساد في النظام السياسي ومن ثم الاجتماعي، باعتبار أن النظام السياسي إطار للنظام الاجتماعي وسائر النظم. والمتدبر موضوعيًا فيما ورد عن قوم نوح من آيات القرآن يجد فيها بيانا واضحا لطبيعة القيادة السياسية والاجتماعية التي ترمز بدورها إلى الانحراف المبدئي والعملي، فهي لم تكن قائمة على أساس الكفاءة، إنما على أساس الأموال والأتباع، الأمر الذي قَسَّم المجتمع إلى طبقتين: الأولى: طبقة المترفين الحاكمين، والأخرى: طبقة المعدمين (الأراذل بتعبير المترفين) ولا ريب أن القيادة في أي مجتمع رمز لقيمه الواقعية، ومن المعالم الأساسية لمسيرته. وحيث رأى نوح عليه السلام الوضع المتخلّف والفاسد عقد العزم على تغييره، فجعل خطوته الأولى تشخيص العوامل الأساسية للانحراف باعتباره المصلح وبيانها للناس. وواضح للمتدبر أنه عليه السلام لم تخدعه المظاهر والنتائج، إنما توجه إلى الجذور الأولية، لأن علاجها هو النهج السليم لعلاج الأعراض والظواهر التي لا

تعدو كونها مجرد نتائج لها، وهذه من أهم خصائص الحركات الرسالية.

ومع أننا نقرأ في الآية معالم الوضع القائم إلا أن الظاهر منها هو الإشارة إلى البدائل الحضارية الثلاثة ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ مما يؤكد أن التفكير في البدائل من قبل المصلحين لا يقل أهمية عن التفكير في جذور التخلف، بل إنه الأهم، إذ كيف يعرف الناس أن المسيرة تكون إلى الأمام بعد هدم الواقع إذا لم تكن البدائل مطروحة بوضوح كاف!. ولقد جسَّد نوح عليه السلام هذه القيمة في حركته فأكد: أن تحكيم القانون الإلهي -(بعبادة الله) والذي لا يتم إلا (بالتقوى) وتطبيق تفاصيل النظام الاجتماعي من جهة، والطاعة للقيادة الرسالية من جهة أخرى- هو البديل القويم للوضع الفاسد، ومن ثم السير بالمجتمع نحو الحياة الأفضل.

ونستطيع القول: إن عبادة الله بديل للأصول المنحرفة، والتقوى بديل للفروع الخاطئة، والطاعة للقيادة الرسالية من أجل إصلاح الممارسات اليومية والسلبية، وبالتعبير القانوني الحديث تمثل عبادة الله الدستور (الخطط الأصولية العامة) وتمثل التقوى القانون (مجموعة القوانين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية و...)، وتمثل الطاعة للقيادة اللوائح (مفردات الأمور والتطورات) ومن هنا قال بعض المفسرين: «وفي الآية ندب إلى أصول الدين الثلاثة: التوحيد المشار إليه بقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، والمعاد الذي هو أساس التقوى، والتصديق بالنبوة المشار إليه بالدعوة إلى الطاعة المطلقة»[1].

وفي قول نوح عليه السلام: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ دلالة واضحة وأكيدة على ضرورة بل وجوب أن يطرح القائد المصلح نفسه بديلا للقيادة المنحرفة، لأنه مادام قادرا على تخليص المجتمع من بليته فهو مسؤول عن النهوض بمهمته ودوره، وفي الإسلام تفريق بين حب الرئاسة الذي يبغضه الله، وطموح الإمامة الذي يندب إليه ويفرضه على أهل الكفاءة، حيث إن مثل الآية: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. فكيف عن تطلع الرساليين أن يكونوا القدوة للطليعة وليس مجرد الطليعة. وأنهم يحملون روح التنافس على الخير والاستباق إليه. ويؤول الأمر برمته إلى السعي لنفع عباد الله واستصلاحهم.

ثالثاً: التأكيد على المعطيات

وهذا من الأصول في كل دعوة، أن يبين الداعية المعطيات التي تنبثق عن اتباع دعوته، ولا ينبغي للرساليين الغفلة عن ذلك، لأنه يساهم بصورة إيجابية فعالة في دفع المجتمع للالتزام بالمنهج المطروح، وخلق ديناميكية التطبيق في نفوس أفراده، ولعل ذلك من دواعي تفصيل

(١) تفسير الميزان: ج٢٠، ص٢٧.

القرآن في التشويق إلى الجنة بوصفها نتيجةً للعمل بالحق، والتخويف بالنار بوصفها عاقبةً لاتباع الباطل، وبالمنهج والمنطق ذاتهما حدَّث نوح قومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهذان المعطيان أهم ما تحتاجه الأمم والمجتمعات التي تتجه نحو الهلاك والنهاية حضاريًّا وماديًّا، ذلك أن العذاب الأليم الذي يحل بالأقوام ليس إلا نتيجة للذنوب والانحرافات التي يتورطون فيها، فتكون سببا في هلاكهم، والسؤال: لماذا قال الله: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ وليس ذنوبكم، مع أن ﴿مِّن﴾ تفيد التبعيض؟ لعل ذلك لأمور ثلاثة:

الأول: إن مجرد العبادة والتقوى والطاعة للرسول لا تَجُبُّ عن الإنسان كل ذنوبه، لأن منها ما هو متعلق بحقوق الناس، فلا تُغفر إلا بإرضائهم وأدائها، ومنها ما لا يغفر إلا بالعمل الصالح بعد الإيمان. بلى، إن (العبادة والتقوى والطاعة) تسبِّب غفران الله لأهم الذنوب، أي التي تؤدي إلى الهلاك، وهي بعض ذنوب الناس وليس كلها.

الثاني: إنه تعالى لا يريد أن يعطي أحدا صك الأمان المطلق حتى لا يغتر بإيمانه وعمله، إنما يوازن فيه الخوف إذ من الممكن أنه لم يغفرها، والرجاء بما غفر له، ويعبر القرآن عن هذه المنهجية الإلهية بصورة أخرى مثل: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، والتي تفيد الترجي لا القطع.

الثالث: وإذا فسرنا الغفران بأنه محو الآثار السلبية للذنب، فإنه يمكننا القول: بأن لبعض الذنوب آثارا واقعية لا تنمحي بمجرد الإيمان، بل يمحو الله ما يترتب عليها من الآثار الأخروية وبعض الآثار الدنيوية السيئة.

وقيل المعنى: «يغفر لكم ذنوبكم السالفة، وهي بعض الذنوب التي تضاف إليهم، فلما كانت ذنوبهم التي يستأنفونها لا يجوز الوعد بغفرانها مطلقا، لما في ذلك من الإغراء بالقبيح»[1].

ولأن الأجل الذي ينتظر قوم نوح مترتب على منهجهم الخاطئ في الحياة، وبالتالي ذنوبهم الفظيعة، فإن عدولهم إلى المنهج الرسالي سوف يجنبهم الأخطاء، ومن ثم يؤخر أجلهم إلى مدته الطبيعية أو أكثر، وهذا من أعظم الأهداف التي ينشدها الأنبياء باعتبارهم يأتون منقذين.

ومن قوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ نهتدي إلى أن للإنسان (فردا أو أمة) أجلين: أجل حتمي وآخر معلَّق، فأما الحتمي فهو الأجل الاعتيادي الذي يوافيه كل فرد فرد عند انتهاء مدته المقدرة له بالموت بعد ستين سنة، أو سبعين أو أقل أو أكثر، وأما المعلَّق

(١) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٣٤.

فهو الأجل الذي يكتب للمجتمعات بسبب من الأسباب سلبا بتقصير الأجل المسمى نتيجة الذنوب، وإيجابا بمده وإطالته نتيجة الأعمال الصالحة جاء في الحديث عن الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ قال: «**الْأَجَلُ الَّذِي غَيْرُ مُسَمًّى مَوْقُوفٌ يُقَدِّمُ مِنْهُ مَا شَاءَ وَيُؤَخِّرُ مِنْهُ مَا شَاءَ وَأَمَّا الْأَجَلُ الْمُسَمَّى فَهُوَ الَّذِي يُنْزَلُ مِمَّا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ**»[1].

وعنه عليه السلام أنه قال: «**الْأَجَلُ الْمَقْضِيُّ هُوَ الْمَحْتُومُ الَّذِي قَضَاهُ اللهُ وَحَتَمَهُ، وَالْمُسَمَّى هُوَ الَّذِي فِيهِ الْبَدَاءُ يُقَدِّمُ مَا يَشَاءُ وَيُؤَخِّرُ مَا يَشَاءُ، وَالْمَحْتُومُ لَيْسَ فِيهِ تَقْدِيمٌ وَلَا تَأْخِيرٌ**»[2].

والذي يظهر من الآية الأولى والرابعة: أن قوم نوح حينما ضلوا وكفروا قُدِّر لهم الهلاك السلبي (الأجل المسمى) حيث كان يمكن رفعه بالتوبة واتباع نبي الله نوح عليه السلام، وثمة التقاء بين الأجلين هو أنهما حينما يأتيان ويتقرر ان في تقدير الله وقضائه لا يمكن دفعهما بشيء أبدا إلا أن في الأجل المسمى (الموقوف) يمكن تداركه حتى مع تباشير الهلاك ضمن توبة عامة تعُمُّ المجتمع كما فعل قوم يونس عليه السلام، لكن هذه حالة استثنائية بمعنى صعوبة حصول توبة جماعية.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ويؤكد الله هذه الحقيقة لأن الإيمان بها يزرع الخشية في النفس، ويدفع الإنسان إلى المزيد من الجد والعزم واستغلال الفرصة.

[٥-٧] تلك كانت رسالة شيخ المرسلين عليه السلام التي تصدَّى لإبلاغها، وأَعْمَلَ كل جهده وصبره وحكمته لكي يؤمن قومه بها، ولكنهم رفضوه ورفضوها إصرارا على اتباع المستكبرين، وعلى ضلالات الشرك، بالرغم من أنهم وهم يسيرون إلى الهلاك أحوج ما يكونون إليه وإليها.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ وهذه من صفات المجاهدين الرساليين أنهم لا يعرفون وقتا مخصوصا يحصرون فيه دعوتهم وجهادهم، إنما يسخِّرون كل طاقاتهم، ويصرفون كل أوقاتهم من أجل رسالتهم وأهدافهم، يدفعهم إلى ذلك أمران مهمان:

الأول: الرغبة في ثواب الله وخشية عقابه.

الثاني: إحساسهم بعظمة أهدافهم وتطلعاتهم، وأن بلوغها لا يمكن إلا بالجد والاجتهاد والمزيد من السعي، إذ الأهداف كبيرة والإمكانات محدودة، فلا بد من سد النقص الكمي في

(١) تفسير العياشي: ج١، ص٣٥٤.
(٢) تفسير القمي: ج١، ص١٩٤.

العدد والعدة بالكيف، الأمر الذي لا يجعل حتى ليلهم -كما يتصور البعض- وقت راحة واسترخاء، فإنهم إن لم يشتغلوا فيه بدعوة الناس والأدوار الاجتماعية المباشرة، فسيجعلونه فرصة للتفكير في شأن رسالتهم ومسؤولياتهم، والاتصال بربهم تعرضا لنفحاته ومرضاته، وتلقيًّا لإرادة العمل الدؤوب في سبيله، وتزودا بالإيمان وروح التسليم.

ولكن جهود نوح ما كانت تنفع قومه لأن بينهم وبين دعوته حُجُبًا سميكة من الإصرار والتحدي الأعمى للحق، بل كانت تزيدهم فرارا منه، وبُعْدًا عن الحق، وهذه من خصائص الصراع بين الحق والباطل، أنه كلما صعدت جبهة الحق من تحركها ونضالها ازدادت جبهة الباطل في عنجهيتها وعنادها ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾، وقد احتار المفسرون بسؤالهم: كيف يعقل أن تكون دعوة نوح سببا لفرار قومه من الحق؟. بيد أن هذه الحالة ليست بدعاً في حياة البشر عندما يتمادون في الطغيان، وقد أكدنا في مواضع من التفسير على القول بأن في داخل الإنسان ضميرا يدعوه إلى الحق (فطرته ونفسه اللوامة وعقله) وحينما يعقد الكفار عزمهم على رفض الإيمان فإنهم يواجهون حربا نفسية باطنية مع الضمير، مما يدعوهم لتحدي عقولهم ووجدانهم. ومن جملة وسائل التحدي للحق التهرب من مجالس الدعوة والدعاة، وذلك لإقناع النفس بعزة الإثم. وفي عالم السياسة لا يخفى على المراقب أن وجود الحركات الرسالية في مجتمع ما تؤثر على النظام القائم بصورة معاكسة، حيث يقوم بالمزيد من القمع والظلم.

وقد سمى نوح عليه السلام دعوته بالدعاء لأنها في حقيقتها طلب لنجاتهم من العذاب الأليم ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ وبالتالي يتأخر عنهم العذاب الأليم، والأجل المعلق.

﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ كناية عن الحجب التي تمنعهم عن سماع الدعوة والاستجابة لها، وربما كان بعضهم يضعها بالفعل. ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي استتروا بها فهي حجاب كالغشاء تمنعهم من الاتصال بالدعوة، بل حتى من مجرد النظر إلى الداعية، وإلى جانب هذه الحجب الظاهرة، هناك حجب باطنة تغشى قلوبهم، أهمها: الإصرار على الباطل، والضلال، والاستكبار عن التسليم للحق ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾، والمفعول المطلق ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ يفيد التأكيد والتهويل. أي استكبروا أيما استكبار فاحش، تحدوا به الحق رمزا وقيما، وهذا تمهيد لتبرير الحكم الإلهي بعذابهم تبريرا موضوعيًّا، فإن من يعرف مدى تودد نوح لهم وتلطفه بهم من جهة، ومدى عنادهم وجحودهم من جهة أخرى لا يستبعد العذاب عن ساحتهم، ولا يشك في عدالة الله. وفي الدر المنثور عن قتادة قال: «بلغني أنه كان يذهب الرجل بابنه إلى نوح فيقول لابنه: احذر هذا لا يغرنك، فإن أبي قد ذهب بي وأنا مثلك فحذرني كما حذرتك»[1] ومن

---

(١) الدر المنثور: ج ٦، ص٢٦٨.

ظاهر الأخبار أنه عليه السلام عاصر ثلاثة أجيال، كلها كانت لا تؤمن به إلا قليلًا منهم. لأن معدل الأعمار يومئذ كان ثلاثمائة سنة تقريبا. قال الصادق عليه السلام: «**كَانَتْ أَعْمَارُ قَوْمِ نُوحٍ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَة**»[1].

[٨-١٢] وأمام الموقف الصلف الذي اتخذه قوم نوح عليه السلام ضد شخص النبي عليه السلام وضد رسالته لم يجعل خياره الهزيمة والتراجع، ولا التوافق والمداهنة، إنما أصر بعزيمة الإيمان على المضي قدما نحو الهدف، وأداء الرسالة بأكمل وجه، فهو متيقن من الحق الذي بين يديه، ولا يساوره أدنى شك فيه، فالأهداف والقيم بالنسبة إليه ثوابت لا تقبل التبديل أو التحويل، وهذه من أهم خصائص الخط الرسالي الأصيل. ولذلك عمد شيخ المرسلين إلى تغيير أسلوبه.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ أي صارح قومه بأمره، فبدلاً من أن يطرح أهدافه وقيمه لمن يتصل بهم بصورة غير مباشرة، خشية ردات الفعل، أو خشية عدم استيعابها جاهرهم بها.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ ومن الآيتين يتضح لمن يدرس تاريخ الحركة الرسالية في عصر نوح عليه السلام أنها كانت تنتقل بين الحين والآخر من أسلوب إلى غيره تبعا لمقتضيات الظروف، وهذه مسيرة طبيعية عند الحركات الرسالية وبالخصوص تلك التي يمتد عمرها أجيال وتعاصر تطورات كثيرة، فليست إذن العلنية صحيحة على طول الخط، كما أن التقية والعمل السري ليست أسلوبا ثابتا إلى الأبد؛ لأن الحركة الرسالية حركة واقعية، فقد لا تعلن الدعوة لأن الظروف السياسية والاجتماعية والتربوية لا تسمح بذلك.

وقد احتار المفسرون في التفريق بين الجهار والإعلان، والذي يبدو: أن الجهار يعني التصريح الواضح والمباشر بأفكار الدعوة وقيمها للناس، وقد تكون هذه العملية محدودة فيمن يتصل بهم الرساليون اتصالا خاصًا، فالقيم الرسالية كالتغيير الجذري والجهاد المسلح أمر صعب ومستصعب لا يحتمله الناس من البداية مما يضطر الداعية الرسالي إلى الارتقاء بهم نفسيًّا وفكريًّا حتى يتسنى له مجاهرتهم بالبصائر الرسالية وحقيقة التطلع للحركة الرسالية. فمن الحكمة التلطف بالمقبلين على الدعوة بإيصالهم إلى حقيقة أهدافها شيئا فشيئا لكي يمكن لهم استيعابها. أو أن الجهر مرحلة بين الكتمان والإعلان فليست سرية مئة في المئة ولا العكس.

أما الإعلان فهو أشبه ما يكون بالإعلام -حسب المصطلح الحديث- أي الطرح الجماهيري السافر للدعوة الرسالية، وقوله في الأخير: ﴿وَأَسْرَرْتُ﴾ يدلنا على أن هذه المراحل والتكتيكات ليست ذات مراتب حتمية (إسرار، ثم إجهار، ثم إعلان) كلا.. وإنما هي معطيات

(١) بحار الأنوار: ج١١، ص ٢٨٩.

يمليها الواقع، فقد ينتقل العمل الرسالي من الإعلان إلى الكتمان الشديد مباشرة لسبب من الأسباب. ومع هذه التغيرات الظاهرية تبقى الاستراتيجيات المحورية واحدة وثابتة؛ إنها دعوة الناس إلى العودة إلى الله، والترغيب في معطيات الإيمان، واتباع الرسالة، والتحريض على نبذ الأنداد الموهومين من دونه عز وجل.

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ أي دعاهم إلى الاستغفار، وطمأنهم بأن الغفران صفة الله الرحمن، ولا ريب أن المعنى من الاستغفار ليس مجرد القول: أستغفر الله، إنما هو الندم على الخطايا في النفس، والرجوع منها بالقول والعمل، واللجوء إلى الله استجارة به منها ومن عواقبها، وبتعبير آخر: إن الاستغفار برنامج متكامل وهذا ما تفصح عنه المعطيات التي يأتي بها.

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي مطرا كثيرا متواصلا، تدره السماء كما يدر ضرع البقر الحليب، وقد قدَّم القرآن ذكر الماء لأنه عصب الحياة والحضارة. ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ يعني أن الاستغفار يتسبب في النمو اقتصاديًا وبشريًا، وقيل: «إنهم كانوا قد قحطوا، وأسنتوا (أجدبوا) وهلكت أموالهم وأولادهم (قبيل العذاب الأليم) ولذلك رغَّبهم في رد ذلك بالاستغفار مع الإيمان والرجوع إلى الله»[1]. وإلى ذلك ذهب أكثر المفسرين، ونهتدي من هذا السياق إلى أن الإيمان والاستغفار ليس من شؤون الآخرة وحسب بل هو متصل أيضا بحياة الإنسان في الدنيا. وعن قتادة قال: رأى نوح عليه السلام قوما تجزعت أعناقهم حرصا على الدنيا، فقال: هلموا إلى طاعة الله فإن فيها درك الدنيا والآخرة[2] وإلى الحقيقة ذاتها أشار الإمام علي عليه السلام في خطبة الاستسقاء حيث قال: «**وقَدْ جَعَلَ الله تَعَالَى الاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ ورَحْمَةِ الْخَلْقِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾**»[3].

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ تستوعب المياه وتُقلُّها للشاربين إنسا وحيوانات، وسقاء للجنات والأشجار والمزارع. وثابت علميًا وعمليًا أن وجود الأنهار من العوامل الحضارية الأساسية، لأنه سبب الزراعة التي هي بدورها من مظاهر الحضارات ومقوماتها، والجنات والأنهار يشبع كلاهما حاجات مادية ومعنوية عند الإنسان. ولا ريب أن الجعل هنا لا يتم عن طريق المعجزة بحيث تتنزل الجنات من السماء بأشجارها وأثمارها أو تزداد الأموال

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٥٧.

(٢) الدر المنثور: ج٦، ص٢٦٨.

(٣) نهج البلاغة: خطبة ١٤٣.

والأولاد بعوامل غيبية مجردة، إنما تحدث البركة وتكون الحضارة بعاملين (سعي الإنسان الذي قمته ورمزه الاستغفار + بركة الله وفضله).

وينبغي للمتأمل أن يقرأ في ثنايا دعوة نوح عليه السلام حينما قال: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ كل عوامل التقدم والترقي من سعي وإتقان وجد.. أوليس الاستغفار غاية سعي الإنسان نحو الفضيلة والكرامة؟!، أوليس يعني تجنب الأخطاء، والسير على المنهج القويم؟، وكما أن الاستغفار يجلب الخير والتقدم للأمم فإن الذنوب تسلبهما، وتصير بها إلى الشر والتخلف. ويبدو من سياق الآيات ومن الأحاديث: أن قوم نوح عليه السلام أصيبوا بنقص في الأموال والأنفس والثمرات، بل نضب ماؤهم، فجاءت دعوة النبي نوح عليه السلام بهدف إصلاح مسيرتهم وانتشالهم من حضيض هذه المشاكل إلى آفاق البركة والرفاه، قال العلامة الطباطبائي معلقا على هذا السياق: «أي أن هناك ارتباطا بين صلاح المجتمع الإنساني وفساده وبين الأوضاع العامة الكونية المربوطة بالحياة الإنسانية، وطيب عيشه ونكده»[1]. وإلى ذلك أشار الفخر الرازي مستدلّا بقول الله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] وبقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

[١٣-١٤] ويخاطب نوح قومه بلغة الوجدان، مذكّرا بنعم الله وآياته لعلهم يعودون إلى فطرتهم، فيعبدوا الله ويتقوه، ويطيعوه بدل الطاعة للمترفين.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ قال ابن عباس: «الوقار هو الثبات، من وقر إذا ثبت واستقر، ومنه قوله: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] ووقاره تعالى ثبوته واستقراره في الربوبية، المستتبع لإلوهيته ومعبوديته»[2]. وقيل: «المعنى ما لكم لا توحدون الله تعالى؛ لأن من عظّمه فقد وحّده، وعن الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقًّا، ولا تشكرون له نعمة»[3]. وقد ذهب أكثر المفسرين إلى القول بالعظمة. ويبدو أننا نهتدي إلى معنى الآية لو قارناها بقول الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، فإن توقير الله بحق هو معرفة قدره بمعرفة أسمائه وصفاته الحسنى، والعيش في الحياة على ضوء هذه المعرفة، وذلك لا يمكن إلا بعبادته وتقواه واتباع رسله ورسالاته. وتكشف لنا الآية عن مدى الضلال المتورط فيه أولئك القوم، ونستوحي ذلك من كلمة ﴿لَا تَرْجُونَ﴾ إذ تبين أنهم ليسوا لا يوقرون في أنفسهم ربهم وحسب، بل لا يرجون أن يوقره الآخرون، ولا أن يأتي يوم يوقرونه في أنفسهم، فليس ثمة ولا بصيص نور في

(١) تفسير الميزان: ج ٢٠، ص٣٠.

(٢) تفسير البصائر: ج ٤٩، ص٢٠١.

(٣) راجع تفسير البصائر: ج٤٩، فقد أورد (١٥) رأياً في الآية.

فكرهم يمكن أن يوقروا ربهم به في المستقبل.

ثم يذكر نوح بعض الآيات والنعم الإلهية الهادية إلى الإيمان بالله والتسليم، ومن ثم توقيره لو أن الإنسان توجه إليها وأراد شكرها، وأولها خلق الإنسان ونظام خلقته. ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، و لهذه الكلمة معانٍ من بينها:

١- المراحل التي يمر بها الإنسان في خلقه، حيث يبدأ نطفة ثم علقة ثم مضغة... وهكذا، حتى يصير شيخا كبيرا، وأن خضوع البشر الحتمي لهذه الأطوار دليل أكيد على أنه لا يملك أمر نفسه في كل شيء؛ إنما حياته محكومة بالقانون والنظام، الذي يهديه إلى المقنن والمنظم، كما يدله على الحساب والجزاء، حيث إن الإخراج من الأرض كما أطوار الخلق حقيقة لا يمكن لأحد أن يرفضها أو يدَّعي القدرة على مقاومتها.

٢- التنوع البشري الذي يؤدي إلى التكامل، فقد خلق الله الناس مختلفين في مواهبهم وقدراتهم وتوجهاتهم، مما يكامل مسيرتهم في الحياة، فلم يخلقهم كلهم أمراء ولا أطباء. وذلك من عظيم نعم الله، وإلا أصبحت الحياة قسرية، وذات لون واحد مما يؤدي إلى فشلها، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، وثابت -بالتجربة التاريخية للبشرية وبالتحليل العلمي- أن النظريات القسرية نظريات خاطئة فاشلة، فقد خطط بعض الزعماء وسعى لجعل المجتمع على نمط واحد، وغفل عن أن المجتمع بحاجة إلى التنوع لكي يتقدم ويتطور، ولذلك وجدنا كيف أن من جاء بعده خطَّأه وخطط للتغيير. قال الإمام الباقر عليه السلام في معنى الأطوار: «**عَلَى اخْتِلَافِ الْأَهْوَاءِ وَالْإِرَادَاتِ وَالْمَشِيَّاتِ**»[1].

[١٥-٢٠] وينطلق السياق بنا يعرِّفنا ببعض نعم الله ومننه علينا في الآفاق، وذلك ليطمئن الإنسان إلى أنه إذا جال ببصره وفتش في الوجود فإن آيات الخلق تهديه إلى ربه، حيث آثار قدرته وحكمته ورحمته مطبوعة على كل جزء جزء فيه، ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ إنها سبع سماوات ولكنك لا تجد فيها فطورا ولا تناقضا، إنما هي منسجمة يكمل بعضها بعضا، كما الأطوار في الخلق والناس، والآية تهدينا إلى أن من بين المقصود بالسماوات السبع تلك التي تُظلِّل الأقاليم السبعة، وذلك بدلالتين:

الأولى: أنه قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ مما يعني أن المقصود مما يراه الإنسان ويشاهده وذلك لا يمكن لو قصدت السماوات التي تنقَّل بينها النبي صلى الله عليه وآله في رحلة المعراج لأنها طبق فوق آخر ولا يظهر منها سوى الأولى.

(١) تفسير القمي: ج٢، ص ٣٨٧، بحار الأنوار: ج١١، ص٣١٥.

الثانية: أن التعبير في الآية اللاحقة (جعل القمر نورا) فيها كلها، في حين أطلق سراجية الشمس، لأن دور القمر محدود في آفاق الأرض فقط، في حين أن دور الشمس يشمل كواكب وآفاقا أخرى فكلمة ﴿فِيهِنَّ﴾ إذن إشارة إلى سماوات الأقاليم وليست السماوات التي بعضها فوق بعض حسب الظاهر، إذ القمر في واحدة منهن وليس فيهن جميعا.

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ وبهذه الآية كشف القرآن للبشرية جانبا من أسرار الكون في وقت كانت تحلم بالتطلع إلى معرفة طبيعة الأرض فكيف بالأجرام التي حولها كالقمر والشمس؟. إن القمر يختلف عن الشمس في خلقته ودوره، فبينما خلقت من كتل النيران حتى توفر الطاقة الحرارية، والإضاءة فيها ذاتية، نجد القمر كالمرآة التي تعكس أشعة الضوء الساقطة من الشمس، وكما أنه تعالى لم يترك الأرض والسماء تكوينيًّا مظلمتين من دون نور وسراج، كذلك لن يدع المجتمع البشري من دون إمام ونهج يهتدى بضوئه، فلا غرابة إذن أن نجد بعض الروايات تُؤوِّل القمر والشمس في أئمة الهدى عليهم السلام وكل إمام حق.. قال أبو ذر عليه السلام: «**إِنَّ أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ فِينَا كَالقَمَرِ السَّارِي**»[1].

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ قال شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي: «فالإنبات إخراج النبات من الأرض حالا بعد حال، والنبات هو الخارج بالنوى حالا بعد حال، والتقدير في ﴿أَنۢبَتَكُم نَبَاتًا﴾ أي فنبتم نباتا، لأن (أنبت) يدل على نبت من جهة أنه متضمن له»[2]. وعلّق صاحب المجمع فقال: يعني مبدأ خلق آدم، وآدم من الأرض والناس ولده، وهذا كقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١] وقيل: «أنبت جميع الخلق باغتذاء ما تنبته الأرض، وقيل معناه: أنبتكم من الأرض بالكبر بعد الصغر، وبالطول بعد القصر»[3].

فالإنسان إذن ابن الأرض، لا فرق بين آدم وبين كل فرد فرد من أبنائه، فمع أنه عليه السلام خُلِق مباشرة من التراب إلا أننا عند التحليل العلمي الواقعي نهتدي إلى أن كل ذرات الجسم أصلها الأرض.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ كما أنبتكم منها حيث يذوب البدن بالموت وتتحلل أعضاؤه في التراب. ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ بالبعث والنشور، وإننا نعرف أن هناك تشابها بين الإنسان والنبات في أطواره، حتى في الإخراج من الأرض التي تصير يوم البعث كما رحم الأم يمطرها الله أربعين صباحا، فإذا بك ترى الأرض تنشق عن الناس سراعا.

---

(١) تفسير البرهان: ج٤، ص٢٧٠.
(٢) التبيان: ج١٠، ص١٣٨.
(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٦٠.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ نفترشها ونمشي على ظهرها، والجعل يعني التمهيد الذي تم بلطف الله ورحمته من خلال القوانين الطبيعية، وخلق الأرض بالكيفية التي تجعل الحياة عليها ممكنة وميسرة. ﴿لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أي طرقا كثيرة واسعة، وقيل: «طرقا مختلفة، والفج المسلك بين الجبلين»[1]. وهذه الآية تأكيد على أنه تعالى بسط الأرض لنا، إذ لو لم يبسطها ما كنا نجد لنا طرقا للمشي فيها والتنقل بين بقعها المختلفة، ومن الآيات الإلهية أنه لا توجد بقعة إلا وفيها سُبُلٌ يستطيع البشر أن يسلكها، وقوله: ﴿سُبُلًا﴾ بالجمع يهدي إلى الكثرة والتنوع في الوقت نفسه، فبسط الله للأرض يعم اليابسة والماء والهواء. وإذا قلنا: إن الفجاج هي الطرق بين الجبال فإنه ثابت عمليًا أن أغلب الطرق البرية بين البلدان تمر من خلال السلاسل الجبلية، وذكر الله للطرق التي بين الجبال بالذات لأنها أظهر آية ودلالة من التي في السهول والصحاري.

[٢١] وهكذا ذكَّرنا سبحانه بتلك النعم لعلنا نعرف عظيم مَنِّهِ علينا فلا نعبد سواه، وتذكير نوح عليه السلام لقومه بمنائح الله ونعمه يأتي في سياق استثارة عقولهم وضمائرهم التي حجبها الضلال لعلهم يتذكرون الحق ويتبعونه ويعرفون أن تلك النعم من عند الله رب العالمين، وأنها تدعو الإنسان إلى التسليم بالحق قيما وقيادة، وبعبارة أخرى: تفرض القيم الأساسية التي تتضمنها رسالات الأنبياء على البشر (عبادة الله وتقواه والطاعة للقيادة الرسالية) إلا أن قوم نوح بلغوا من الانحراف عن الحق والجحود ما لا تنفع معهم الموعظة. ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ وهذا لوحده ذنب عظيم أن يرفض الإنسان التسليم لقيادة الحق، ولأن أحدا لا يستطيع أن يعيش فراغا قياديًا فإنهم اتبعوا قيادات الباطل والضلال.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ ونستوحي من الآية: أنهم كانت تحكمهم طبقة الأغنياء المترفين، ومن الطبيعي أن يقف هؤلاء ضد دعوة الأنبياء والقيادات الرسالية وطرحهم القيادي لأنهم حريصون على رئاسة المجتمعات والسيطرة على أفرادها وخيراتها ومقدراتها، قال العلامة الطبرسي: «أي اتبعوا أغنياء قومهم اغترارا بما آتاهم الله من المال، فقالوا: لو كان هذا رسولا لكان له ثروة وغنى، وقيل: اتبع الفقراء السفلة الرؤساء الذين لم يزدهم كثرة المال والأولاد إلا هلاكا في الدنيا، وعقوبة في الآخرة»[2]. وذلك مما يدلنا على مدى ارتكاسهم في المادية والشيئية، إذ اعتبروا الأموال والأولاد مقياسا لاختيار القائد وليس الحق، وهنا نصل إلى فكرة هامة وهي: أن الخطأ الفظيع الذي وقع فيه قوم نوح عليه السلام أنهم لم يسلكوا السبيل القويم في الحياة مما أدى بهم إلى الخسران العظيم، مع أنه تعالى فرض على الإنسان أن يختار طريقه

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٦٠.
(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٦٠.

تشريعيًّا وفي الحياة المعنوية والاجتماعية كما يختار طريقه بين فجاج الأرض ومناكبها.

وقد أكد نوح ذنب معصيتهم له بالذات، فلم يقل مثلا: إنهم لم يعبدوا الله أو لم يتقوه؛ لأن معصية القيادة الإلهية في الواقع معصية لله وعنوان كل انحراف وفساد، وإنما لم يعبدوا ربهم ولم يتقوه لأنهم لا يريدون الطاعة للرسول واتباعه، بل إن العصيان هنا شامل لعدم استجابتهم للأهداف الثلاثة كلها (عبادة الله وتقواه واتباع القيادة الرسالية) لأنه هنا يعني رفض الدعوة والداعية كلًّا وتفصيلًا.

والسؤال: لماذا يتبع الإنسان المترفين؟.

والجواب: لأنه ينبهر بالمال أو القدرة فيلهث وراء من يملكهما، لعله يحصل على بعض الفتات من الخبز، أو تصيبه عزة من عزته، ولكن الأمر على العكس من ذلك بالضبط إذ المجتمع الذي تشيع فيه هذه الثقافة سوف يصبح فريسة مُيسَّرة للمترفين، فيمتصون جهوده ويستغلونه استغلالا بشعا. ولو أننا حققنا في ظاهرة تسلط المستكبرين من أصحاب الثروة والقدرة على المجتمعات والشعوب المستضعفة لوجدناها متأسسة على هزيمة المحكوم نفسيًّا أمامهم، ولا يزيد المستضعفين ذلك إلا خسارة، لأنه كلما زاد الانبهار زاد المستكبر استكبارا، واستغلالا لجهود المستضعفين، وقمعا لتطلعاتهم المشروعة، وطبيعي أن من لا يسخر المال من أجل مصالحه الحقيقية سوف يزداد خسارة كلما ازداد مالا، ومن هنا قال ربنا سبحانه: ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ لأن المعنى هنا شامل لخسارة الطرفين التابع والمتبوع، وقد لا يشملهما لو جاء التعبير بما هو مفترض (لم يزدهم) ذلك أنه إذا خسر المتبوع فستنجر الخسارة نفسها على التابع الذي يلحق به في كل شيء.

[٢٢] في قلب الإنسان عقل يتوهج بقيم الصدق والصلاح، ووجدان يقظ يحاكم صاحبه عند كل انحراف، وفي المجتمع الإنساني عرف عام يلاحق المجرم باللائمة واللعنة.. كل ذلك يدعو المجرم إلى صنع ثقافة تبريرية للتهرب من وخز الضمير ومحاكمة الفطرة كما يدعوه إلى مقاومة المصلحين وإسكات أصواتهم المعارضة، لعلهم ينجون من لومهم وإدانتهم ولعل هذا هو السبب في أن الإنسان كلما ازداد إجراما ازداد مكرا وكيدا لأنه تزداد حاجته إلى الفرار من لوم ذاته وإدانة العرف العام. ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ بنسبة عصيانهم وضلالهم، وهذا ما يفسر مدى اهتمام المستكبرين وأذنابهم في هذا العصر الذي تزداد فيه الجريمة، ويطغى فيه المستكبرون بأجهزة الإعلام ووسائله، حتى تكاد الميزانية الإعلامية تضاهي أحيانا الميزانية العسكرية.

[٢٣-٢٦] ومن عظيم مكرهم تواصيهم بالباطل وتضليلهم لبعضهم، إبقاء على

الانحراف وإصرارا على الضلال ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، وقد اختلف المفسرون في هذه الأسماء، وأقرب الآراء: أنها ترمز إلى رجال عظماء من أبناء آدم، أوحى إبليس إلى تابعيهم باتخاذ تماثيل لهم، ثم أمرهم بعبادتهم، وبهذا وردت بعض النصوص.

وقولهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ﴾ حتى نهاية الآية: (٢٣) مما لاكته ألسن المترفين الذين أحسوا بخطر الرسالة على زعامتهم ومصالحهم، وهم لا يدعون الناس للتمسك بتلك الأصنام إيمانا بها إنما لأنها رمز للثقافة التي تمكنهم من السيطرة على المجتمع، كما ينفخ دعاة العنصرية فيها وفي رموزها لمواجهة الحركات التحررية.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ بهذه الدعوات الباطلة، حيث وجدوا بين الناس من اتبعهم بسبب الجهل أو انسياقا وراء المصلحة الدنيوية ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ قيل: إن الضمير في ﴿تَزِدِ﴾ راجع إلى الأصنام، فالمعنى أنها لا تزيد الظالمين باتباعها إلا ضلالا، وقيل: إن الجملة استئنافية، وهي دعوة من نوح على قومه بألّا يزيدهم الله إلا ضلالا، وهي دعوة عليهم بكل شر مستطير، أوليس الضلال أصل كل شر، وقد استجاب الله دعاء نبيه الذي أيقن أن الحياة لا تصلح لهم، وأن الموت أولى بهم، وكذلك أوحى إليه ربه: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، فأهلكهم غرقا بالطوفان. وهنا يلفتنا السياق إلى حقيقة أساسية، وهي أن سنة الجزاء مرهونة بالإنسان نفسه، فهي تجري في سياق العدالة الإلهية، وإن كانت مظهرا لقدرة الله أيضا، ولو أننا فتشنا في الأسباب لهلاك أي قوم لوجدناها أعمالهم ومساعيهم لا غير، وهذه بالضبط قصة قوم نوح مع الطوفان.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ أصابهم الغرق في الدنيا، ونقلهم الموت إلى سوء العذاب في الآخرة، حيث نار جهنم التي تنتظر كل كافر ومشرك، وما كان موتهم في لجة الأمواج ينجيهم من نيران جهنم في البرزخ، لأن تلك النار تكمن في وجودهم. ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ يحجزون عنهم العذاب، أو يقاومون بهم سلطان الله ومشيئته، كما يزعم المشركون بعبادتهم الأصنام بشرا أو حجرا أو غيرهما.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ والدَّيَّار -كما يبدو- هو من يسكن الدور والدِّيار، وإنما حقًّا دعوة بعذاب الاستئصال الذي حقت به كلمة الله عليهم، فما بقي يومئذ أحد إلا من آمن بنوح وركب السفينة، ومن هنا نهتدي إلى أن عذاب الاستئصال يأتي بهدف تطهير الأرض من العناصر الفاسدة التي لا تنفع معها النصيحة، وإن مبرر وجود الإنسان هو ما يشتمل عليه من الحق في كيانه فإذا صار خلوًّا من أي حق فَقَدَ مبرر الوجود

تشريعيًّا وتكوينيًّا مما يؤدي به إلى الهلاك، وهذه الحقيقة تنطبق بصورة أجلى على الإنسان (المجتمع) منها على الإنسان (الفرد) ومن هنا نفهم الآية الكريمة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وكذلك الروايات التي تقول: «إِنَّ الله لَيَدْفَعُ بِالْمُؤْمِنِ الْوَاحِدِ عَنِ الْقَرْيَةِ الْفَنَاءَ»[1] لأنه لولا وجود المؤمنين من الناس لما بقي مبرر لوجود الآخرين.

[٢٧] ثم يبين شيخ المرسلين الخلفيات والحيثيات وراء دعوته على قومه، فهو لم يدعُ عليهم لأنه مَلَّ وتعب من الجهاد في سبيل الله، ولا لأنه يحمل العداء الشخصي ضدهم لما لقيه من الأذى والمعاناة على أيديهم، إنما كان منطلقه في ذلك رساليًّا خالصا لوجه ربه. ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ الموجودين، فيزيدون الضالين ضلالة، ويؤثرون على من آمن ليعود كافرا مشركا مثلهم، وفي هذه الآية يجب أن نقرأ مدى الضغط الذي يواجهه المؤمنون حينما يستقلون برأيهم ومسيرتهم عن مجتمع الضلال والفساد.. إنه يبلغ حدًّا يُخشى عليهم من الانحراف بسببه، هذا من جانب، ومن جانب آخر إنه لا يُرتجى خير ولا مستقبل سليم للأجيال التي تنسل منهم، باعتبارهم قد أحكموا أساليبهم التربوية السيئة التي من شأنها بناء شخصية الأولاد على أساس الباطل والعداء للقيادة الرسالية ولخط المؤمنين ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ بالوراثة وبالتربية، والفاجر هو من لا يقف عند حد شرع أو عرف، ولا يقيم وزنا لقيمة لا في نفسه ولا في المجتمع، إنما يطلق لشهواته العنان، والكَفّار صيغة مبالغة من الكفر وهو خلاف الإيمان، والكفور خلاف الشكر.

ولقد انتهى نوح إلى هذه النتيجة بتجربته المرة الطويلة التي عاصر فيها ثلاثة أجيال على الأقل وخبرهم بتمام المعرفة، وكذلك بإخبار الله له، قال الراوي: قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: «ما كان علم نوح حين دعا على قومه أنهم ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ فقال: أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الله لِنُوحٍ: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾»[2]. وقد ذهب أغلب المفسرين إلى القول: «بأن الله تعالى أخرج من أصلابهم كل من يكون مؤمنا، وأعقم أرحام نسائهم، وأيبس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعين سنة»[3].

والآية تبين أن الإنسان قد يرحمه الله ليس لذاته بل لآخرين يتعلقون به كالأولاد.

[٢٨] وختاما لهذه السورة المتضمنة للحديث عن المعانات الصعبة، ودعاء شيخ المرسلين

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٤، ص١٤٣.
(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٣٨٨، بحار الأنوار: ج١١، ص٣١٥.
(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٦٢.

على قومه نجد آثار اللطف وحب الخير يجليها لسان نوح عن قلبه الحنون، وذلك حتى لا يظن أحد أنه عليه السلام يحمل العداء الشخصي ضد قومه بالذات، فإنه وازن بين الدعاء سلبا ضد الكفار الفاجرين، والدعاء إيجابيًا لصالح المؤمنين الصالحين.

﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ وهذه قمة العبودية لله والخشية منه، فبالرغم من الجهاد الطويل في سبيل الحق الذي امتد طيلة حياته إلا أنه لم يَمُنَّ على الله بشيء من طاعاته لإيمانه بأنها ما كانت تكون لولا لطفه وتوفيقه، وأن الخضوع له والاعتراف بالتقصير تجاهه خير وسيلة للمزيد من القرب منه والسعي في خدمته وإنه حقًا درس يحتاجه كل مجاهد في سبيل الله ليقاوم به الغرور وهمزات الشيطان، وبالذات أولئك الذين يتطاول بهم العمر في خدمة الرسالة. و لكنه بأخلاق النبوة التي تدعوه للخروج من قوقعة الذات، والتفكير في نجاة الآخرين بمقدار التفكير في نجاة نفسه، لم ينس غيره بالرغم من أن ساعة دعائه كانت صعبة حرجة، سواء قلنا بأنه دعا ربه قبل الطوفان أو أثناءه أو بعده.. فهذا هو يلتفت لأولي الفضل عليه (أبوه وأمه) ولشركاء الصف والمسيرة (المؤمنين) لا فرق عنده بين من عاصروه وبين من سبقوه أو يأتون بعده، ويلتفت مرة مؤكدا براءته من الظلم والظالمين، كما أكد بسابقتها ولاءه للحق وأهله. ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ إذ لها الفضل فطريًّا وتربويًّا في وجوده وبناء شخصيته، وهكذا نتعلم درس الوفاء لأول معلم يلتقيه الإنسان في الحياة، إنه لم ينسَ عناء والديه، حيث حملته أمه وَهْنًا على وهن، ثم سهرت ليلها وتعبت نهارها من أجل راحته، وحيث أجهد أبوه نفسه في طلب المعاش له وأكله وشربه وكسوته، وفوق ذلك كله ما تلقاه من تربية طيبة على الإيمان وحب الله.

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا﴾ يعني المؤمنين الذين انتموا إلى خطه ومسيرته ممن عاصروه. ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ﴾ في كل زمان ومكان لأنهم وإن اختلفت الظروف والأزمنة إخوته الذين تجمعه بهم وحدة الهدف والخط والمسيرة. ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾ أي هلاكا وعذابا وضلالا، وهذه الجملة تأكيد للبراءة من الباطل قيما وأناسا في مقابل تأكيد الولاء للانتماء للحق الآنف.



* مكيّة.

* عدد آياتها: ٢٨.

* ترتيبها النزولي: ٤٠.

* ترتيبها في المصحف: ٧٢.

* نزلت بعد سورة الأعراف.

فضلُ السُّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ أَكْثَرَ قِرَاءَةَ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ لَمْ يُصِبْهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا شَيْءٌ مِنْ أَعْيُنِ الْجِنِّ وَلَا نَفْثِهِمْ وَلَا سِحْرِهِمْ وَلَا مِنْ كَيْدِهِمْ وَكَانَ مَعَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فَيَقُولُ يَا رَبِّ لَا أُرِيدُ بِهِ بَدَلًا وَلَا أُرِيدُ أَنْ أَبْغِيَ عَنْهُ حِوَلًا».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص٢٥٧)

الإطار العام

الشرعية لله ولرسوله وللمؤمنين فقط

إن التخرصات بوجود قوى غيبية قاهرة تؤثر في مجريات الحياة من الأفكار التي لا تكاد تخلو منها ثقافة من الثقافات البدائية، وهي عامل رئيس في الشرك بالله وعبادة الأصنام والأوثان، فالذي يعبد شجرة فإنما لظنه أن فيها حلولا من عالم الغيب، والذي يعبد الحجر لا يعبده بذاته وإنما يعبد الروح التي يزعم أنها تحوم حوله.

والجن من بين تلك الأرواح التي أثير ولا يزال حولها الكثير من الجدل إلى حد الخرافة والخيال المبالغ فيه، فقد زعم البعض أنها أرواح خلقت ذاتيًّا من غير خالق، وقال آخرون إنها تقوم بدور الخير والشر في الحياة، وعلى هذا الأساس ارتأوا ضرورة إرضائها فأشركوا بها.

وقد فَصَلَ الوحي الإلهي الخرافة عن الواقع، فبيَّن الحق، ونسف الثقافات الباطلة حول الجن، كما كشف في هذه السورة التي سميت باسمهم عن جوانب من حضارتهم اعتمادا على علم الله المحيط بكل شيء، وليس على الظنون والتخرصات، وتحدثنا آياته بلسانهم: (الآيات: ١-١٤).

والذي يدقق النظر في آيات هذه السورة يهتدي إلى وجوه تشابه أساسية بين حضارتهم وحضارة البشر:

١- فهم مخلوقون مكلفون من قبل الله بالإذعان للحق، واتباع رسالته المتمثلة في القرآن.

٢- وإن واقعهم الاجتماعي والسياسي يشبه إلى حد بعيد واقع المجتمع البشري، ففيهم الزعماء الذين يتسلطون على المجتمع ويَشْطُون طغيانا وسفها.. كطواغيت الناس وحكامهم الفاسدين.

٣- كما أنهم يقعون في الأخطاء ذاتها التي يتورط فيها ضُلَّال الناس كالشرك بالله عز وجل.

٤- وبالتالي فإن فيهم الصالحين ودون ذلك والمسلمين والقاسطين كما هو حال البشر.

وفي البين يشير القرآن إلى أن الالتقاء بين حضارتي الإنس والجن القائم على الشرك بالله وزيادة الانحراف والرهق فإنه منبوذ ومحرم في شرع الله.. ومنه استعاذة السحرة والمشعوذين بالجن، مما يزيدهم بعدا عن الحق وتوغلا في الباطل.

ويفضح الوحي مجموعة التخرصات والخرافات التي صورت الجن قوى خارقة، ورفعتهم إلى مستوى الربوبية، مما دعا بعض جُهَّال الناس لعبادتهم والشرك بهم، فيؤكد:

أولاً: أنهم لا يحوزون على العلم الحق المطلق، فلا يصح الاعتماد على ما يُلقُونه من ثقافتهم وأفكارهم في روع من يعوذ بهم، لأن علمهم محدود إذ يجهلون الكثير من الأمور.. وواضح تأكيد القرآن على أن كثيرا من تصوراتهم وثقافاتهم قائمة على الظن لا على العلم الواقعي القاطع (يلاحظ تكرار كلمة ﴿ظَنَنَّآ﴾ بلسان حال الجن مرات عديدة)، كما أنهم لا يدرون بمصير من في الأرض أريد بهم شرًّا أم أراد بهم ربهم رشدا. وحيث جاء القرآن كشف لهم عن مدى ضلالتهم وجهلهم بجملة من أهم الأمور وأوضحها.. أعني الإيمان بالله وتوحيده.

ثانياً: وأنهم ليسوا قوى ذات قدرات خارقة حتى يخشى منهم البشر أو يعوذون بهم طمعا في نيل القدرة، ودليل ذلك اعترافهم أنفسهم بعجزهم عن اختراق الحجب واستراق السمع من الملأ الأعلى، وعجزهم عن مقاومة إرادة الله، أو حتى الهرب من حكومته وسلطانه.

وحيث تتمحور السورة حول الحديث عن الجن الذين أُشرِك بهم ولا يزال بعض الإنس؛ تؤكد الآيات الأخيرة على حقيقة التوحيد، وأنه تعالى الذي يملك الضرر والرشد، وهو أهل الاستعاذة به، وعالم الغيب لا يشاطره أحد فيه إلا من ارتضى من رسله.. مما يعطي الشرعية لخط الأنبياء فقط، أما الجن ومن يتصل بهم -سواء كانوا كهنة أو سحرة أو منجمين- فلا يجوز اتباعهم أبدا (الآيات: ١٥-٢٨).

إنا سمعنا قرآنا عجبا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ[1] رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا[2] (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا[3] (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا[4] (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ

---

(١) جد: الجد العظمة، قال الطبرسي في مجمع البيان: الجد أصله القطع، ومنه: الجد العظمة لانقطاع كل عظمةٍ عنها لعلوها عليه.

(٢) شططاً: أي قولاً بعيداً عن الحق، جاء في مفردات الراغب: الشطط الإفراط في البُعد، يقال شطّت الدار، وأشطّ يقال في المكان وفي الحكم وفي السَّوم، وشطُّ النهر حيث يبعد عن الماء من حافته.

(٣) رهقاً: تعباً شديداً، وسمّي بذلك لأنه يعلو المرهق كالغشاوة، وقال البعض: رهقاً أي طغياناً حيث إنهم رأوا الجن ظهيراً لهم، أو زاد الإنسُ الجن طغياناً حيث إنهم ظنوا أن لهم مدخلاً في الأمور الكونية حتى استعاذ بهم الإنس، وأصل الرهق اللحوق، ومنه غلام مراهق، فكأن الإثم والطغيان يلحق الإنسان.

(٤) قدداً: جمع قدّة وهي القطعة، فالجن على مذاهب مختلفة وقطع متعددة، وكل قطعةٍ مخالفة للأخرى.

أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ(١) رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا(٢) ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا(٣) ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا(٤) ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ(٥) أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

بينات من الآيات:

[١-٣] إن علاج القرآن لموضوع الجن ليس ترفًا فكريًّا يهدف إعطاءنا مجرد رؤية عن خلق غريب، بل هو علاج لمشكلة حقيقية موجودة في ثقافات الناس، ومنعكسة على واقع بعضهم بصورة خطيرة، حيث الخرافات والأساطير، وحيث الشرك بالله عز وجل. ومع أن القرآن كله موحى به من عند الله إلى رسوله إلا أن مطلع هذه السورة المباركة يؤكد أن الحديث عن الجن الذي تتضمنه الآيات ليس حديثا من الرسول عن تجربة شخصية حدثت له، ولا

(١) تحرّوا: التحرّي تعمّد إصابة الحق، وأصله طلب الشيء والقصد له.

(٢) غدقاً: كثيراً، وغدق المكان يغدق غدقاً كثر فيه الماء.

(٣) صعداً: شاقاً شديداً غليظاً متصعداً في العُظم ومنه التنفس الصعداء، وقال البعض: ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي عذاباً يصعد عليه ويعلو بحيث يشمل جميع جسمه من قرنه إلى قدمه.

(٤) لبداً: متكاثرين عليه ليمنعوه عن الدعوة. الواحدة لُبْدَة كاللبد المتلبّد أي المجتمع، وجمع اللُّبد ألباد ولبود، وقد ألبدتُ السرج جعلتُ له لبْداً، وألبدتُ الفرس ألقيتُ عليه اللبد نحو أسرجتُه وألجمتُه وألببتُه، وألْبَدَ البعير صار ذا لِبْدٍ من الثّلط، وقد يكنّى بذلك عن حسنه لدلالة ذلك منه على خصبه وسِمَنه.

(٥) إن أدري: ما أدري.

كسائر كلام البشر عن الجن الذي لا يتأسس إلا على الخيال والظنون، بل هو حديث لعالم الغيب والشهادة أطلع عليه رسوله ﷺ عبر الوحي الذي لا ريب فيه.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ قال ابن عباس: «انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حِيْلَ بين الشياطين وبين خبر السماء فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حِيْلَ بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي ﷺ وهو بنخل عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له، وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم وقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ فأوحى الله تعالى إلى نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ ورواه البخاري ومسلم»[(١)]. قال الزمخشري في النفر: «جماعة منهم ما بين الثلاثة والعشرة»[(٢)].

والاستماع على الأظهر هو مرحلة متقدمة من السماع حيث يعني التركيز والتدقيق فيما يسمع، ولقد انبهر النفر من الجن بإعجاز القرآن وعظمة آياته، انبهارا قادهم إلى التسليم له، واكتشاف ما هم فيه من الضلال والباطل بنور آياته البينات. وهكذا يُجلي الاستماع والتدبر عظمة القرآن لقارئه. أما الذي يَهُذُّه هَذَّ الشعر، وينثره نثر الرمل، أو يكون همه آخر السورة، فإنه لا يتجاوز الحروف والكلمات إلى المعاني المعجزة، كما تجاوز إليها أولئك الجن ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾، وهذا الإعجاب يشبه إلى حد بعيد إعجاب السحرة بمعجزات موسى عليه السلام ومن ثم إيمانهم به ونبذهم للسحر. وحري بالإنسان أن يبحث عما حملهم على ذلك من القرآن، وأن يعجب إذا عجب به وليس بهم.

إن الجن كما الإنس لديهم ثقافات، وبينهم مدَّعُو العلم (السفهاء بحد تعبيرهم) وهم يضلونهم دائما عن الحق، ولكنهم حينما استمعوا للقرآن وأنصتوا بدا لهم الفرق واضحا بين رسالة الله التي تحمل العلم والهدى، وبين الثقافات الشائعة عندهم والتي لا تنطوي إلا على الجهل والضلال. ولعل هذه المفارقة من أهم عوامل الإعجاب بالقرآن إذ استمعوا له. ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ أي يُعرِّف بالحق، ويرسم للإنسان المنهج السليم الذي يوصله إليه.

وإن القرآن ليعلِّمنا الحق، وينمِّي فينا العقل والضمير وسائر حوافز الخير، مما يدفعنا إلى تطبيق الحق بالصورة الأكمل، وأين تجد هذه في غير كتاب الله؟ هل تجدها في أفكار الفلاسفة

---

(١) صحيح البخاري: ج١، ص١٨٧، صحيح مسلم: ج٢، ص ٣٥-٣٦.
(٢) الكشاف: ج٤، ص٦٢٣.

الغامضة التي تحتجب وراء الكلمات الكلية لإخفاء الجهل والتناقض، أم في ثقافة البدائيين والشعراء؟ كلا... وهذا ما دفع النفر من الجن إلى الإيمان بالقرآن ونبذ كل الأفكار والثقافات الأخرى، فهم وجدوه وحده الذي يهدي إلى الرشد. ومع أن للرشد معنى عامًّا يتسع لكثير من المفردات، فالقرآن يهدي إلى معرفة الحقائق العلمية، والسنن الطبيعية، والأنظمة الحكيمة التي أجراها الله في سائر الحقول الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.. إلا أن أعظم الرشد الذي يهدي إليه هو التوحيد باعتباره سنام الهدى وقمة الرشد.

وقد أشار بعض من المفسرين إلى ذلك، قال الفخر الرازي: «﴿يَهْدِيَ إِلَى الرُّشْدِ﴾ إلى الصواب، وقيل إلى التوحيد. ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك به، وهذا يدل على أن أولئك الجن كانوا مشركين»[1].

ولأن الهداية لا تتم بمجرد معرفة الحق بالضمير والعقل، بل لا بد من الشجاعة الكافية لنقد الذات، وتحدي الواقع المنحرف، وبالتالي تحمل مسؤولية الصراع ضد كل باطل، لذلك بادر الجن إلى الإيمان بالحق من جهة، ونبذ الباطل بعزيمة الإيمان من جهة ثانية.

﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ والإيمان بالقرآن يعني رفضا قاطعا للقوى الأخرى غير الله، وعزما على المضي قدما في طريق التوحيد أنى كانت التحديات.. وقد فهم النفر من الجن الإيمان بهذه الكيفية وعزموا على رفض الأنداد المزعومين فقالوا: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، وهذا يعني الاستعداد لدخول الصراع، والاستقامة على الحق، وتقديم التضحيات من أجل الإيمان وقيمة التوحيد، وكذلك ينبغي أن يكون كل من يختار الحق، فالرشد غاية يجب أن يسترخص المؤمنون في سبيلها كل شيء، كما فعل السحرة (عند مواجهة عصا موسى) إذ ألقوا ساجدين، وتوجهوا إلى فرعون بخطاب الرفض والتحدي: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢]، وقدموا أنفسهم قرابين في طريق ذات الشوكة، حيث قطع فرعون أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبهم في جذوع النخل صبرا.

ونفي الجن القاطع المؤبد بأنهم لن يشركوا ربما يهدينا إلى وجود قوى تضغط عليهم باتجاه الشرك بالله بما قد يصل إلى حد الإكراه، مثلما أكره فرعون السحرة على السحر، وكما يُكرِه الطغاةُ اليوم أشياعهم (من جنود وإعلاميين وهكذا) على ممارسة الظلم ضد الشعوب. ولأن أعظم الضغوط التي تمارس وأخطرها هو ضغط التضليل عن الحق، والإيحاء بالشرك من خلال التربية الفاسدة والإعلام المضلل، فقد أعلن أولئك النفر المؤمنون أنهم لن يقبلوا التغرير بوجود الشركاء أو التشكيك في عظمة الله.

(١) التفسير الكبير للرازي: ج٣٠، ص١٥٤.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ و فكرة الصاحبة والولد آتية من تصور المخلوق المحدود للخالق العظيم تصورا معتمدا على مقايسته بذاته، وهذا بالضبط العامل الفكري الرئيس الذي تقوم على أساسه النظريات والفلسفات البشرية التي خاض أصحابها في الحديث عن ذات الله وصفاته فشبهوه بخلقه سبحانه وتعالى عما يصفون. إن الجاهل ينكر وجود آفاق متسامية لا يبلغها علمه، فيريد تشبيه كل شيء بما يعرفه، فإذا به يتخيل أمورا لا واقع لها، ويصبح هذا التخيل -بدوره- حاجزا بينه وبين معرفة الحقائق. لذلك ينبغي تسبيح الله وتقديسه عن الشبه، لأن ذلك السبيل الوحيد لمعرفته سبحانه.

وهناك عامل نفسي للشرك يتمثل في أن المشركين يريدون الزعم أنهم أبناء الله، كما قالت اليهود والنصارى: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]. فلا بد من التأكيد على وجود الصاحبة باعتبار الأبناء نتيجة للعلاقة بين الطرفين، تعالى الله علوا كبيرا. ولا ريب أن دعاة هذه الفلسفة هم أول من يريد تعريف نفسه ابنا للرب حتى يعطي لنفسه شرعية خضوع الناس وتقديسهم وطاعتهم له أو ربط نفسه بابن الله حتى يخلصها من المسؤولية. مما يعني أن نفي الشرك ليس رفضا لفكرة مجردة، بل هو رفض لنظام ثقافي واجتماعي وسياسي ثقيل.

وفي كلمة ﴿جَدُّ﴾ اختلاف بين المفسرين، ففي البرهان عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ قَالَهُ الْجِنُّ بِجَهَالَةٍ فَحَكَى اللهُ عَنْهُم**»[1]، وعلى هذه الرواية يكون المعنى هو المتعارف أي الجد أبو الأب والأم. وقال الرازي: «الجد الغنى، ومنه الحديث: «**لَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَد**» أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه، وكذلك الحديث الآخر: «**قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَإِذَا عَامَّةَ مَنْ يَدْخُلُهَا الْفُقَرَاءُ، وَإِذَا أَصْحَابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُون**» يعني أصحاب الغنى والدنيا، فيكون المعنى: وأنه تعالى غني عن الاحتياج إلى الصاحبة، والاستئناس بالولد»[2]. ولا نجد في السياق ما يشير إلى أن الكلام جاء على سبيل الحكاية، وإنما يهدينا السياق إلى أنه تقرير للحق الذي جرى على ألسن أولئك النفر من الجن. والذي يبدو لي أن الجد هنا بمعنى العظمة بحيث يمكن أن نجعل الغنى عن الصاحبة والولد في إطارها أيضا، وقد أشار العلامة الطبرسي في بيان لغوي لطيف إلى هذا المعنى فقال: الجد أصله القطع، ومنه: الجد العظمة لانقطاع كل عظمة عنها لعلوها عليه، ومنه: الجد أبو الأب لانقطاعه بعلو أبوته وكل من فوقه لهذا الولد أجداد، والجد الحظ لانقطاعه بعلو شأنه، والجِدُّ خلاف الهزل لانقطاعه عن السخف، ومنه: الجديد لأنه حديث عهد بالقطع في غالب الأمر»[3]، فالمعنى من ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي سمت عظمته وعلت. والفرق بين تعبير الآية

---

(١) تفسير البرهان: ج٤، ص٣٩١.
(٢) التفسير الكبير: ج ٣٠، ص١٥٥.
(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٦٥.

الكريمة والتعبير الدارج أي: (ربنا تعالى) أن ما في الآية يُصرِّح بالمتعلق وهو العظمة (الجد)، ونحن نطلق في قولنا دون المتعلق علو الله على كل شيء وعن كل ما يصفه المشركون.

وقد خصَّص القرآن في الآية ذكر العظمة بالذات لأن مشركي الجن يعملون من خلال نسبة الشركاء لله على الطعن في عظمته والتقليل من شأنه. وكيف لا تقل عظمة من يحتاج إلى الصاحبة والولد!.

ونفي الصاحبة عن الله هو نفي قاطع لوجود أي شريك له عز وجل، لأن المزاعم بوجود الشركاء مبنية على أساس بنوتهم له والتي لا تكون إلا بوجود الصاحبة. أما نفي الولد فهو نفي للوالد أيضا لأن من يلد فهو مولود مخلوق بالقطع، قال الإمام علي عليه السلام في صفة الله: «**لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداً ولَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً**»[1]، وقال: «**لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكاً ولَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هَالِكاً**»[2].

[٤] ويؤكد القرآن على وجود التشابه بين المجتمع البشري ومجتمع الجن من الناحيتين الفردية والاجتماعية، فهم خلق مكلفون عاقلون مختارون، ومحدودة علومهم كما نحن، ولذلك يقعون في الأخطاء المقاربة لأخطائنا كالشرك، وهذا يهدينا إلى خطأ الاعتقاد باطلاعهم على كل شيء، والاعتماد على ما يقولون، إذ قد يقولون شططا. هذا من الناحية الفردية، ومن الناحية الاجتماعية يتشابهون معنا في كونهم فرقا مختلفين، وطبقات مستضعفة ومستكبرة، بل ويعيشون في ظل أنظمة اجتماعية وسياسية متشابهة.. حيث يترأسهم سفهاء منهم، كما يتزعم المجتمعات البشرية الحكام والملوك.

﴿**وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا**﴾ و الشطط في الأصل: الكلام الذي يبعد عن الحق، قال الراغب الأصبهاني: «الشطط خفة النفس لنقصان العقل، والشطط: القول البعيد من الحق»[3]. والكلمة تستوعب كل قول يحيد عن الصواب إلى الخطأ، ولكن أظهر مصاديقها فيما يتصل بالله عز وجل هو قول الشرك، وإلى ذلك أشار القرآن على لسان أصحاب الكهف: ﴿**فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا**﴾ [الكهف: ١٤]. وأما السفيه فمعناه لغة الجاهل الذي لا يحسن رأيا ولا تصرفا، ففي كتب اللغة: سَفِهَ سَفَهًا: كان عديم الحلم أو جاهلا أو رديء الخلق فهو سفيه، والسافه الأحمق. ويبدو أنها كلمة جامعة لمساوئ الصفات والأخلاق. وفي السياق -المعنى الذي يريده الجن من الكلمة-

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٨٦.

(٢) نهج البلاغة: خطبة: ١٨٢.

(٣) مفردات غريب القرآن: مادة شطط، ص ٢٦٠.

هو كل زعامة سياسية أو اجتماعية أو علمية شطّت بها الأفكار نحو الباطل، وسعت في تضليل المجتمع كالحكام الطغاة وعلماء السوء. وما أكثر ما يقوله سفهاؤنا -نحن البشر- على رب العالمين، من على منابرهم، وفي وسائلهم التضليلية، في كل زمان ومكان! فما أحوجنا أن نكون كأولئك النفر من مؤمني الجن؛ نستمع القرآن، ونؤمن بما يهدي إليه من الرشد، ونرفض الشرك بالله بجميع ألوانه وصوره، وننتفض على سفهائنا تحت راية التوحيد وعلى هدى الوحي!

ونخلص هنا إلى الحقائق التالية:

الأولى: أن الجن ليسوا مجرد أرواح شريرة وحسب، وإنما فيهم المؤمنون الصالحون، وبهذا يعالج القرآن مزاعم البشر وتصوراتهم الخاطئة عن طبيعة عالم الجن بأنه شر محض.

الثانية: أن الهداية والرشد لا تتحقق لأحد بمجرد وجود الكتاب الهادي إلى الحق، بل لا بد من التقاء بين العقل الباطن وبين رسالة الله، وذلك بحاجة إلى المزيد من الإصغاء للآيات، واستماعها، والتدبر في معانيها.

الثالثة: أننا إذا فسرنا الشرك بالتشريع من دون الله فإن الآيات تدل على أن الجن كما الإنس يبتدعون لهم تشريعات غير هدى الله وآياته، وأن القرآن جاء بديلا عن مناهجهم الضالة، وعلاجا لكل انحراف في حياتهم.. فهو رسالة الله للعالمين إنسا وجِنًّا.

وإذا فسرناه بالخضوع لغير حاكمية الله، فإن الآية الرابعة بالذات تدل على أن الجن -كما نحن- مبتلون بالحكام السفهاء والأنظمة الفاسدة، وأن رسالة الله التي تهدف الهداية إلى الرشد وغايته التوحيد تهدف قبل كل شيء إلى تحرير المجتمعات إنسية وجنية من ربقة الطواغيت والحكومات الظالمة (الحاكميات السفيهة).

الرابعة: أن أصل أكثر الأفكار الشركية -كما تقدم القول- وأصل قبول استعباد السلطات المنحرفة، وأصل التمييز العنصري وغيره، يعود إلى الزعم بولادة الله، ومن ثم وجود شيء أو شخص أقرب من شيء أو شخص قربًا ذاتيًا إلى الله عز وجل.

[٥] ويوصل السياق كلام النفر عن طبيعتهم بما يكشف لنا واقع الجن ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ و لعل الظن هنا يعني العلم، ولكن ليس العلم القائم على الحجة والبرهان، وإنما هو العلم المتأسس على التصور المجرد. والآية تبين صفتين سلبيتين كانتا وراء تورطهم في الضلال:

الأولى: السذاجة المغرقة إلى حد الوثوق في الآخرين وتصديقهم فيما يقولون، بحمل ما

يصدر عنهم على محمل الصدق والصواب.

الثانية: التقليد الأعمى للآخرين، قال العلامة الطبرسي مُعلّقا على الآية: «وفي هذا دلالة على أنهم كانوا مُقَلِّدة حتى سمعوا الحجة، وانكشف لهم الحق فرجعوا عما كانوا عليه، وفيه إشارة إلى بطلان التقليد، ووجوب اتباع الدليل»(١).

وكلتا الصفتين نتيجة لإلغاء دور العقل وفقدان الاستقلال بالتوافق مع تيار المجتمع والتبعية العمياء له. إلا أن القرآن الذي أنزله الله لإثارة دفائن العقول فجَّر فيهم لما استمعوا آياته كوامن قدراتهم، العقلية والروحية، وخلق في أنفسهم إرادة التحرر من أغلال السذاجة والجهل والتبعية، وإرادة التحدي للانحراف بكل كيانه قيما (السفه) وأشخاصا (السفهاء).

إن مشكلة الكثير من الإنس والجن أنهم يتخذون الأشخاص لا القيم مقياسا، فمتى ما ضلَّ أولئك وانحرفوا ضلوا وانحرفوا معهم، في حين يجب أن تكون القيم هي المقياس، لأنها الضمانة الأصيلة والوحيدة لمعرفة الحق والاستقامة على هداه. و فيما يتصل بالكذب تهدينا الآية إلى أن الإنسان يرفضه ويستقبحه بالفطرة بحيث لا يتصور أن أحدا يجرؤ على التورط فيه، وهذا ما يجعله فريسة للكذابين المرة بعد الأخرى.

[٦-١٠] ثم يحدثنا النفر بآية محورية عن التظاهر بين بعض الإنس وبعض الجن على الباطل، بوصفها صورةً من صور الشرك لدى بعض أبناء حواء، حيث الهالة الكبيرة من الأساطير والأوهام تدعو البعض إلى الاعتقاد بأن الجن قوى خارقة لديها العلم والقدرة المطلقين، مما يحدو بهم إلى الاتصال بالجن وطلب العون منهم. ويجهلون أن الأمر على العكس، يضيف جهلا إلى جهلهم وتعبا إلى تعبهم، إلى حد الرهق الشديد ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، والرهق: الغشاوة، وقيل للتعب الشديد إرهاق لأنه يعلو المرهق كالغشاوة فلا يكاد يبصر بقلب ولا بعين. وإذا كان المعنيون بالآية كل من غرتهم خرافة الاستعاذة بالجن وتعظيمهم فإن الكهنة والسحرة ومن يتصل مباشرة بالجن مخصوصون بقول: ﴿رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أوليسوا يستعينون بهم في الشعوذة وسحر أعين الناس والكهانة؟!.

ولأن الجن ليسوا -كما يتوهم هؤلاء الرجال- يعلمون كل شيء، ويقدرون على صنع المستحيل، فإنهم يزيدونهم رهقا في أبدانهم وأنفسهم، وضلالا عن الحق باتباع أخبارهم الكاذبة، وخوض اللجج اعتمادا على وعودهم التي يعجزون عن الوفاء بها. أما من جانب الجن فلعلهم كانوا كرجال الإنس يتمادون في الغي والضلالة، حيث يُكْبِرون أنفسهم، ويتوهمون

---

(١) مجمع البيان: ج ١٠، ص٤٦٧.

أنهم أنصاف آلهة نتيجة تقديس رجال الإنس لهم واستعاذتهم بهم. و الكهنة والسحرة بدورهم كانوا يضللون من حولهم من الناس، قال الإمام الباقر عليه السلام: «كَانَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ إِلَى الْكَاهِنِ الَّذِي يُوحِي إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: قُلْ لِشَيْطَانِكَ فُلَانٍ قَدْ عَاذَ بِك»[1].

والعياذ الاعتصام وهو: «الامتناع بالشيء من لحاق الشر»[2]، وللاستعاذة هنا أحد معنيين:

الأول: أنهم كانوا يعتقدون بأن الجن قوى شر في الطبيعة، وبالتالي يجب إرضاؤها للتخلص من شرها وأذاها.

الثاني: أنهم كانوا يعتمدون على الجن في مواجهة الأخطار والمشاكل، أو في مقاومة القوى التي يخشونها، ظنا منهم أنهم ينفعونهم أو يضرونهم.. فبدل أن يفكروا في حل مشاكلهم من خلال العقل والسعي تراهم يلجؤون للخرافة والأساطير، وبدل أن يتقربوا إلى الله عز وجل بالطاعة تراهم يعوذون بالجن، ظنا أنهم قادرون على صد غضب الله أو التأثير على أمره سبحانه وتعالى. وهكذا عوض أن يشحذوا إرادتهم ويُعْمِلوا فكرهم لمواجهة العدو عسكريًا يتوسلون بهذه الثقافة الميتة والمضللة.. فلا يصلون إلا إلى الشر والرهق.

ومن وجوه التلاقي بين الإنس والجن -بالإضافة إلى التعاون على الباطل- تشابه وجوه الانحراف والضلال في الأفكار والثقافات، ومن بين ذلك الكفر بالآخرة نتيجةً للثقافة القائمة على الظنون والتصورات، لا على الوعي بالواقع والمنهجية العلمية المعتمدة على الدليل والحجة.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾، في المجمع: «أن لن يبعث الله رسولا بعد موسى أو عيسى»[3]، وفي التفسير الكبير: «ويحتمل أن يكون المراد أنه لن يبعث أحدا للرسالة على ما هو مذهب البراهمة»[4]، ومع إمكانية صحة هذا الرأي إلا أن الأقرب بعث الناس للحساب والجزاء، وهذا هو جذر كل انحراف وفرار من إطار المسؤولية. والآية تنسف الاعتقاد الواهي بأن الجن آلهة خلقوا ذاتيًا ولا يموتون، كلا.. إنهم يموتون -كما يموت بنو آدم- ويبعثون كما يبعث البشر. بلى، وبعضهم يشك في البعث مما يدعوه إلى الشرك والمزيد من الزيغ.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٠، ص٩٨.
(٢) التبيان: ج ١٠، ص١٤٨.
(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٦٧.
(٤) التفسير الكبير للرازي: ج ٣٠ ص ١٥٧.

وقد جرى جدل بين المفسرين حول هذه الآية هل هي من جملة ما حكاه النفر من الجن، أم هي قول الله؟ فقال بعضهم: إنها قول من الله، وقال آخرون -وهو الأقرب-: إنها قول الجن، قال الفخر الرازي: «واعلم أن حمله على كلام الجن أولى لأن ما قبله وما بعده كلام الجن، فإلقاء كلام أجنبي عن كلام الجن في البين غير لائق»[1]. ولعل التعبير اختلف من المتكلم ﴿وَأَنَّا﴾ إلى الضمير الغائب ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ لأن المتكلم نفر من المؤمنين، وهم ليسوا من جملة الكافرين بالبعث، مما دعاهم إلى نسب الأمر إلى غيرهم.

ثم يعود السياق إلى مجراه (ضمير المتكلم) باعتبار أن ما يأتي أمر عام وشامل حتى للنفر الذين آمنوا من الجن، باعتبارهم كسائر الجن سعوا لاستراق السمع، إلا أنهم حيث احتجبوا عن ذلك تحسسوا قدرة ربهم، وآمنوا به تائبين. ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ والحرس هم الملائكة، والشهب أسلحتهم التي يرمون بها كل من يحاول استراق السمع، فهي مشحونة جنودا وعتادا إلى حد الامتلاء، بحيث لا يجد مسترق ثغرة ينفذ منها إلى الملأ الأعلى. وقال: ﴿لَمَسْنَا﴾ ولم يقل: (رأينا) لأن اللمس صفة مادية مما يؤكد المعنى ويُقرِّبه. وحقًّا: إنهم لمسوا السماء وعرفوا تلك الحقيقة من خلال التجربة العملية.. إذ هلك الكثير منهم بالشهب وهم في مهمة الاستراق. ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ سابقا قبل أن يشاء الله منعهم تماما، ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾. ومن كلمة ﴿مَقَـٰعِدَ﴾ نستفيد أنهم كانوا يسترقون السمع من ثغرات معينة يقعدون فيها. ويشير أئمة الهدى إلى الحكمة التي أغلق الله أبواب الاستراق بسببها عن الشياطين والجن، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**وَأَمَّا أَخْبَارُ السَّمَاءِ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ كَانَتْ تَقْعُدُ مَقَاعِدَ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ إِذْ ذَاكَ وَهِيَ لَا تُحْجَبُ وَلَا تُرْجَمُ بِالنُّجُومِ، وَإِنَّمَا مُنِعَتْ مِنِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ لِئَلَّا يَقَعَ فِي الْأَرْضِ سَبَبٌ يُشَاكِلُ الْوَحْيَ مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ وَلُبِسَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ مَا جَاءَهُمْ عَنِ اللهِ لِإِثْبَاتِ الْحُجَّةِ وَنَفْيِ الشُّبَهِ**»[2].

إذن فالجن لا يعلمون الغيب حتى يعوذ بهم الناس. قال صاحب البصائر بتعبير لطيف عن صلة هذه الآية بما قبلها من الآيات: «فالإنس كانوا يعوذون بالجن لأنهم يعلمون الغيب أو خبر السماء فجاءت هذه الآية لتقول: إنهم (لا يعلمون الغيب، وأن السماء ممنوعة عنهم)»[3].

واختلف في حراسة السماء، فمن قائل إنها لم تكن قبل بعث النبي صلى الله عليه وآله ومن قائل غير ذلك، وظاهر الآية يشير إلى ما ذهب إليه العلامة الطباطبائي إذ قال: «إن الحادث هو الملء

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي: ج٣٠، ص١٥٧.

(٢) بحار الأنوار: ج١٠، ص١٦٨.

(٣) تفسير البصائر: ج ٤٩، ص ٣٧٦.

وكثرة الحرس لا أصل الحرس، وظهور قوله: ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ في أنا نجد فيها بعض المقاعد خاليا من الحرس والشهب، والآن ملئت المقاعد كلها، ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾»[1]. وفي الأحاديث: أنهم كانوا يحجبون عن سماء بعد أخرى حتى وُلِد خاتم المرسلين فحُجِبُوا تماما، وعن الإمام علي عليه السلام قال: «**وَلَقَدْ هَمَّ إِبْلِيسُ بِالظَّعْنِ فِي السَّمَاءِ لِمَا رَأَى مِنَ الْأَعَاجِيبِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَكَانَ لَهُ مَقْعَدٌ فِي السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ وَالشَّيَاطِينُ يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ فَلَمَّا رَأَوُا الْأَعَاجِيبَ أَرَادُوا أَنْ يَسْتَرِقُوا السَّمْعَ فَإِذَا هُمْ قَدْ حُجِبُوا مِنَ السَّمَاوَاتِ كُلِّهَا**»[2] إذن فمن يدعي معرفة الغيب[3] من الكهنة والمنجمين باعتبارهم يتصلون بالجن فإنما يزعمون باطلا حيث حجبوا باعترافهم أنفسهم.

والسورة الكريمة تهدينا إلى طبيعة المنهج القرآني الواقعية، فآياته لا تدور في الفراغ، ولا تطرح الأساطير كما يقول الكفار والمشركون، وإنما يعالج قضايا ومشاكل نفسية واجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية حقيقية، وحيث تنزلت سورة الجن فمن أجل اجتثاث جذور الكهانة والشرك والاتصال بالجن والشياطين، وهكذا يعالج القرآن تلك النظريات الشائعة في المجتمعات.

ولعل سائلا يقول: وهل عالج القرآن المذهب الوجودي والشيوعي وغيرهما من الفلسفات التي تجددت في القرون الأخيرة؟. ونقول: بلى؛ لأن هذه المذاهب ليست إلا تطويرات للنظريات القديمة، فقد كانت الوجودية موجودة تاريخيًّا -وإن كانت بصورة أخرى- مبثوثة في الأفكار اليونانية التي دعت الإنسان لإثبات وجوده والالتذاذ الدائم، وهي مشابهة لدعوة سارتر[4] وتلامذته الآن، كما كانت الفلسفة الاشتراكية حاضرة في عهد من عهود إيران تحت عنوان (المزدكية) وهي اشتراكية بلغت حد الشيوعية والإباحية.

وتخصيص القرآن سورة باسم الجن صورة حية لواقعيته، لأن استعاذة رجال من الإنس بهم وتلقيهم لهمزاتهم كان ولا يزال من الأسباب الرئيسية لانحراف البشر وضلالهم عن الحق، حيث الخلط بين تلك الإلقاءات وبين الوحي. والتطلع إلى معرفة الغيب من الدوافع الملحة للإنسان نحو الاتصال بأي جهة يتوقع معرفتها به لعله يعلم بعضه، ولكن قسما من الناس يخطئون إذ يعوذون بالجن بدل أن يربطوا أنفسهم بوحي الله، مع أنهم لا يعلمون من الغيب

---

(١) تفسير الميزان: ج ٢٠ ص ٤٣.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٠، ص ٤٥.

(٣) الحجب عن معرفة المستقبل واخبار السماء، أما ما يقع بين البشر الذي اخبار عن ماض وكائن فليس من الغيب ولا يظهر من الآية نفيه. وهو غير منفي عن البشر كذلك، وهو نظير اخبار العيون.

(٤) فيلسوف وجودي وأديب فرنسي، كان أدبه المتميز بوابته للشهرة (١٩٠٥-١٩٩٠م).

شيئا، وما أدل على ذلك من اعترافهم أنفسهم بهذه الحقيقة.

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ إنهم بهتوا بالإرهاصات والتحولات الكونية التي رافقت بعث خاتم الأنبياء، كامتلاء السماء حرسا وشهبا، وعجزهم عن استراق السمع بعدئذ، فلم يستوعبوا الأمر، وتخبطوا في تفسير تلك الظواهر هل هي شر لسكان الأرض كأن تكون من أشراط الساعة أم خيرا أراده الله؟!، وهذا يؤكد قصورهم عن علم الغيب، وجهلهم بتفسير الظواهر الكونية المتجددة كما يجهلون كثيرا من تلك الظواهر، فلا ينبغي التعويل عليهم في تفسير شيء من الظواهر كالمرض والفقر والهزيمة وما أشبه مثلما هو شأن بعض المستعيذين بهم.

ولا ريب في أن بعث الرسول ﷺ خير عظيم لمن في الأرض، حيث ينقذهم برسالته وقيادته من ظلام الباطل والضلال والجهل، إلى نور الحق والهدى والعلم، وهكذا مَنعُ الشياطين من الاستراق نعمة عظيمة لهم حيث يزول السبب الذي تتشاكل به حقائق الوحي وتتشابه مع أباطيل الجن. قال ابن جريح: قالوا: «لا ندري لم بُعِثَ هذا النبي، لأن يؤمنوا به ويتبعوه فيرشدوا، أو لأن يكفروا به ويكذبوه فيهلكوا كما هلك من قبلهم من الأمم؟»[1]، وقيل معناه: «إن هذا المنع لا يدرى ألعَذابٍ سينزل بأهل الأرض أم لنبي يبعث ويهدي إلى الرشد، فإن مثل هذا لا يكون إلا لأحد هذين الأمرين»[2]. قال العلامة الطباطبائي: «وقد صرحوا بالفاعل لإرادة الرشد وحذفوه في جانب الشر أدبا، ولا يُراد شرٌّ من جانبه تعالى إلا لمن استحقه»[3]. ولقد قال الله: ﴿رَشَدًا﴾ ولم يقل (خيرا) في مقابل الشر إشارة للرسالة التي تُعطي الهدى، ولأن الرشد سبب كل خير وسنامه، بل هو المصداق الأعظم للخير.

[١١-١٢] وينسف ربنا نظرة التقديس المطلق للجن ببيان اختلافهم، وأن فيهم من لا يستحق الاحترام لتخلفه عن الصلاح وتورطه في الفساد العريض ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أقل مرتبة. وكلمة ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ تتسع لدرجات مختلفة يلي بعضها بعضا في التسافل حتى آخر درك من الانحراف والضلال، ويعلوا بعضها فوق بعض حتى درجة الصلاح. ثم يضيفون: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي مذاهب وجماعات مختلفة متفرقة، من قَدَّ الثوب يَقُدُّه إذا شقَّه وقطعه، ففرَّقه خرقا بعد أن كان قطعة واحدة. ومن الآية نهتدي إلى أن الاختلاف في مدى الصلاح بين الجن أفرادا وجماعات راجع إلى اختلاف مذاهبهم، وأنهم كالبشر مختلفون في

(١) الدر المنثور: ج٦، ص٢٧٣.
(٢) مجمع البيان: ج ١٠، ص٤٦٨.
(٣) تفسير الميزان: ج ٢٠، ص٤٤.

توجهاتهم ونظراتهم إلى الحياة.

ولعل تأكيد القرآن على التشابه بين الخلقين (الإنس والجن) يأتي لبيان أنهم خلق من خلقه تعالى يتعرضون لما يتعرض له الناس، وليسوا آلهة كما يزعم البعض فيعبدهم ويشرك بهم من دون الله. ومادام الجن صالحين ودون ذلك فإن الاتصال بهم قد يعود إلى الإنس بالخير لو كان طرفه الصالحين، وقد يعود عليهم بالشر العظيم إذا كان طرفه الضالين الفاسدين منهم، وهذا ما يجعل الاعتماد على قول الكهنة وأخبارهم محل إشكال وشك، باعتبار مصادره تحتمل الصواب والخطأ والصدق والكذب.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: «على مذاهب مختلفة، مسلم وكافر، وصالح ودون الصالح». وقال شيخ الطائفة: «والطرائق جمع طريقة، وهي الجهة المستمرة مرتبة بعد مرتبة، والمعنى: إنا كنا على طرائق متباينة، كل فرقة يتباين صاحبها كما بين المقدود بعضه من بعض»[1].

وخلاصة القول: أنهم مختلفون في مذاهبهم وتوجهاتهم، وفي كل فرقة يختلف الأفراد عن بعضهم صلاحا وانحرافا.

وإلى جانب بيان القرآن تصور الجن عن علم الغيب، مما ينفي المزاعم بأنهم آلهة أو أنصاف آلهة، يبين ضعفهم وعجزهم باعتبارهم مخلوقين عن مقاومة إرادة الله، بل عجزهم حتى عن الهرب من سلطانه وحكومته، الأمر الذي يهدم ثقافة الشرك بهم من أساسها.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بصورة مباشرة من خلال مواجهة إرادته، أو بصورة غير مباشرة من خلال القفز على سننه أو خرقها، ولو كانت هذه القدرة موجودة عند الجن لأظهرها شياطينهم، ولخربوا كثيرا من قوانين الطبيعة ونظمها، ولكنهم عاجزون عن ذلك.. مما يهدينا إلى أنهم محكومون مثلنا بإرادة الله وسننه، فخطأ إذن أن يعتمد بعض الإنس عليهم ويعوذ بهم زعما أنه يحتمي بهم عن مشيئة الله، على أساس أنهم قوى قاهرة وضاغطة!، تعالى الله عما يصفون، فإن وجودهم كسائر المخلوقين مرتكز في الضعف والعجز، فهم لا يستطيعون أن يدفعوا عن أحد إرادة الله، ولا يجدون أنفسهم سبيلا للهرب منه.

﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾؛ لأن إرادته تعالى ليست محدودة بالأرض حتى يفلت من يطير إلى غيرها من إرادته، ويعجزه سبحانه، إنما هيمنته شاملة للوجود كله دون استثناء أو فرق بين كوكب وآخر، ولا بقعة وبقعة أخرى. قال الزمخشري: «أي لن نعجزه كائنين في الأرض

(١) التبيان: ج١٠، ص١٥٢.

أينما كنا فيها، ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء»[1]. و الظن في الآية ليس بمعنى الشك، فإن الجن على يقين تام علميًّا بأنهم لا يعجزون رب العزة، بل هو بمعنى اليقين الذي يصل إلى حد التصور والاستحضار للحقيقة بالظن وكأنها حقيقة مادية قائمة، أي تركيز قوة التخيل والتصور بصورة شديدة.

[١٣] ولقد عرف النفر من الجن أنفسهم المحدودة بالجهل والعجز فتحسسوا الحاجة الفطرية الملحة بضرورة الاستعاذة بالخالق المتعالي عن أي عجز أو حد فعرفوا ربهم فاتخذوا معرفة النفس وسيلة لمعرفة الرب. أوليس من عرف نفسه فقد عرف ربه كما في الحديث؟ فآمنوا به، وراحوا يعوذون به إيمانا منهم بأن الاطمئنان والسعادة لا يوجدان إلا عنده عز وجل.

وحيث سمعوا آيات الذكر الحكيم وهم في مخاض الشك المنهجي والبحث عن سبيل الرشاد أصغوا لها مسامع قلوبهم، وسلمت لحقائقها أفئدتهم، فآمنوا به. ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ و لعلنا نستشف من هذا المقطع أن المتكلمين كانوا يعانون من مشكلة التعتيم والتضليل، لأنهم كانوا في بيئة جاهلية كجاهلية البشر قُبيل بزوغ فجر الرسالة. ويشير النفر إلى الخلفية التي دعتهم إلى اختيار الهدى بالإيمان بالله، ألا وهي كون الإيمان سبيل السعادة ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾، وعلى عكس ذلك الشرك بالقوى المخلوقة كالجن والأوثان التي لا تزيد المشرك بها سوى الخسارة بعد الخسارة، لأنها محدودة وعاجزة عن تحقيق الضر والنفع لنفسها فكيف للآخرين؟!.

إن البعض كالفرقة اليزيدية قدسوا الشيطان، وفلسفوا موقفهم على أساس أنه رمز قوى الشر الذي ينبغي اتقاؤه بعبادته وكسب رضاه، في حين تركوا عبادة الله لأنه كما يزعمون رب الرحمة الذي لا خوف من جانبه.. وراحوا يعظمون الطاووس لأنه في معتقدهم مسكون بالشيطان! والحال أن الإيمان بغير الله لا يُؤَمِّن للإنسان الاطمئنان، بل يضاعف خسارته وتعبه. بلى؛ إن الإيمان بالله وحده الذي يملأ القلب بالاطمئنان إلى حسن الجزاء ونعم العاقبة، فلا بخس ولا رهق.

قال صاحب المجمع: «البخس النقصان، والرهق العدوان»[2]، ووافقه التفسير الكبير إلا أنه أضاف: «والرهق الظلم، ثم فيه وجهان:

الأول: لا يخاف جزاء بخس ولا رهق، لأنه لم يبخس أحدا حقا ولا ظلم أحدا فيخاف جزاءهما.

---

(١) الكشاف: ج٤، ص ٦٢٧.

(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٧٠.

الثاني: لا يخاف أن يُبخَس، بل يقطع بأنه يُجْزَي الجزاء الأوفى، ولا يخاف أن ترهقه ذلة، من قوله: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾»[1]، وأصل البخس القلة، قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠]، وإنما قيل كذلك لأن مادفعوه ثمنا ليوسف أقل من ثمنه حتى في السوق لو كان عبدا يباع. وسمي البخس بخسا لأنه في حقيقته الأخذ من مال الناس بما هو تقليل لحقوقهم الواقعية[2]. وما تنفيه هذه السورة (البخس والرهق) بالنسبة للمؤمنين بالله على عكس ما أثبتته الآية السادسة في شأن المستعيذين بالجن من الإنس.

[١٤-١٥] ويعود النفر المؤمنون من الجن للتأكيد بما يشبه الآية الحادية عشر على أنهم مختلفون ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ والمسلم هو الذي يُسْلِمُ نفسه بكل كيانها للحق، فيكيفها معه معنويًا وعمليًا، وأما القاسط فهو الظالم الذي يضم قسط الآخرين إلى نفسه بغير حق، على خلاف المقسط الذي يُعطي حق الآخرين، وإنما قابل القرآن كلمة المسلم بالقاسط مع أنها تقابل الكافر عادة لأن من أظهر معاني الإسلام هو العدل، ولأن التسليم للحق هو العامل الرئيسي في تجسيد قيمة العدالة في الواقع، ولأن المطلوب من الإسلام ليس مجرد التسليم اللفظي بل كبح جماح النفس الأمَّارة السوء.

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ قال الراغب: «حرى الشيء يحرى، أي قصد حراه، أي جَانِبَهُ وتحرَّاه»[3]، وفي تفسير البصائر تحرى تحرّيًا: «طلب ما هو أحرى بالاستعمال في غالب الظن، وطلب أحرى الأمرين وأولاهما، وتحرى الأمر توخاه وقصده، والتحري هو الاجتهاد في تعرف ما هو أولى وحق، وفي الحديث: «تَحَرَّوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ» أي تعمدوا طلبها فيها»[4]. وعلى هذا التفسير للكلمة يكون المعنى أن من اختار الإسلام وسَلَّم له فقد قصدوا الرشد والهدى، وهذا مُسْلِم به لأنه حينئذ سيهديه الله بنور الوحي وآيات الرسالة، مما يُكمل عقله وعلمه فيجعله راشدا. والآية تأكيد على أن الإسلام ليس مجرد تسليم النفس للحق، بل هو إضافة إلى ذلك وعي الحق بعد البحث عنه طلبا للرشد.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ ومن هنا نهتدي إلى أن أظهر معاني (تحري الرشد) طلب النجاة من النار ومن غضب الله، بمعرفة طريق الهدى بالنفس والعقل، وكذلك بتجنب الذنوب والخطايا والقيام بالصالحات، وذلك ما لم يفعله القاسطون مما أدى بهم إلى العذاب. ولا يقول القرآن أنهم سيكونون حطبا لجهنم، بل قال: ﴿فَكَانُوا۟﴾ بصيغة الماضي، والسبب

(١) التفسير الكبير للرازي: ج ٣٠ ص ١٥٩.

(٢) لقد مر بيان لمعنى الإرهاق عند الآية (٤٣) من سورة القلم فراجع.

(٣) مفردات غريب القرآن: مادة حري، ص١١٥.

(٤) تفسير البصائر: ج٤٩، ص٣٢٠-٣٢١.

أن مرتكب الذنوب والفواحش قد جعل نفسه وقودا للنار لحظة اقتحامها، بالفعل. قال الزمخشري: «القاسطون الكافرون الجائرون عن طريق الحق، ونقل طريفة عن سعيد بن جبير رضي الله عنه: أن الحجاج قال حين أراد قتله: ما تقول فيّ؟ قال: قاسط عادل، فقال القوم: ما أحسن ما قال! حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل، فقال الحجاج: يا جهلة! إنه سماني ظالما مشركا، وتلا قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]»[1].

وجرى جدل بين المفسرين في عذاب الجن، فقد أجمعوا على إمكان تعذيب القاسطين من الإنس بجعلهم حطبا لجهنم، ولكنهم اختلفوا في كيفية تعذب الجن بالنار وهم من جنسها، فقال بعضهم كالفخر الرازي: «إنهم وإن خلقوا من النار لكنهم تغيروا عن تلك الكيفية وصاروا لحما ودما هكذا»[2]، ومن أطرف ما قرأته في هذا الشأن: «أن بهلول أتى إلى المسجد يوما وأحد الخطباء يقرر للناس علومه، فقال في جملة كلامه: إن جعفر بن محمد (يعني الإمام الصادق عليه السلام) تكلم في مسائل ما يعجبني كلامه فيها:

الأولى: يقول: إن الله سبحانه موجود ولكنه لا يُرى لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهل يكون موجود ولا يُرى؟ ما هذا إلا تناقض!.

الثانية: إنه يقول: إن الشيطان يُعذَّب في النار مع أن الشيطان خُلِق من النار، فكيف يعذب الشيء بما خلق منه؟!.

الثالثة: إنه يقول: إن أفعال العباد مستندة إليهم، مع أن الآيات دالة على أنه تعالى فاعل كل شيء!.

فلما سمعه البهلول أخذ مدرة وضرب بها رأسه وشجه، وصار الدم يسيل على وجهه ولحيته، فبادر إلى الخليفة يشكو من بهلولا، فلما أحضروا بهلولا وسئل عن السبب قال للخليفة: إن هذا الرجل غَلَّط جعفر بن محمد عليه السلام في ثلاث مسائل:

الأولى: أنه يزعم أن الأفعال كلها لا فاعل لها إلا الله، فهذه الشجة من الله تعالى وما تقصيري؟!.

الثانية: أنه يقول: كل شيء موجود لا بد أن يُرى، فهذا الوجع في رأسه موجود مع أنه

---

(١) الكشاف: ج ٤، ص ٦٢٨.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ج ٣٠، ص١٦٠.

لا يراه أحد.

الثالثة: أنه مخلوق من التراب وهذه المدرة من التراب وهو يقول: أن الجنس لا يتعذب بجنسه، فكيف يتألم من المدرة؟ فأعجب الخليفة كلامه، وتخلص من شجة الخطيب»[1].

[١٦-١٧] ويستثير الواحد إنسيًّا أو جنيًّا فكره بحثا عن الأسباب التي أدت إلى انحطاط حضارته، وتخلفه عن ركب التقدم، فلا يجد مهما أنعم الفكر والنظر سوى إجابة واحدة هي الانحراف عن النهج السليم والتفرق بالسبل الملتوية، وبتعبير القرآن: الانحراف عن الطريقة لأنها وحدها التي تأخذ الإنسان إلى السعادة ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي كثيرا فراتا. فما هي تلك الطريقة؟.

إن تعريف القرآن لها بألف ولام العهد والجنس يهدينا إلى أنها طريقة معينة للإنس والجن، وليس سواها طريقة حتى يستريب فيها ذهن السامع أو ينصرف عنها. ولقد كثرت الأقوال في بيان المقصود بالطريقة إلا أن أقربها -كما يبدو لي- الحق المتمثل في:

١- الفطرة التي أركزها الله في خلقه، حيث الإيمان والتسليم للحق.. فإن الاستقامة عليها هي السبيل إلى كل خير وسعادة.

٢- خط الرسالات الإلهية والأنبياء، قال العلامة الطبرسي: لو استقاموا على طريقة الهدى بدلالة قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦][2]، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ... يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠-١١][3].

والفطرة والرسالات مع الأنبياء يكمل واحدهما الآخر في هداية الإنسان إلى الطريقة السليمة ويثبتانه عليها لو اتبعها، وهي -أي الطريقة- واضحة عند كل مكلف بالاستقامة عليها، إلا أن القليل هم الذين يلتزمون بها كما يريد الله، ويستقيمون عليها حتى النهاية رغم المصاعب والعقبات. بلى؛ إن النتائج الحضارية للرسالة قد لا تظهر في اللحظة الأولى التي يقرر المجتمع فيها الالتزام بقيمها والاستقامة عليها، لأن القيم الرسالية تشبه إلى حد بعيد البذرة

(١) شجرة طوبى: ج١، ص٤٩.
(٢) راجع مجمع البيان: ج١٠، ص٤٧١.
(٣) راجع: التفسير الكبير للرازي: ج٣٠، ص١٦١.

التي يزرعها الفلاح في الأرض.. لا بد من الصبر عليها حتى تؤتي أكلها ورعايتها في الأثناء، مما يفرض الاستقامة أساسًا في السعي الحضاري، ووعي هذه القيمة الواقعية من شأنه تثبيت الإنسان على الهدى، ودفع روح القنوط واليأس من الرسالة عن فكره ونفسه. أترى لو يئس الرعيل الأول من الإسلام حيث لم يكونوا يرون منه سوى التضحيات تلو التضحيات فهل كانوا يبنون حضارته على امتداد المعمورة؟، أو هل كانوا يحققون تلك الأهداف والمنجزات العظيمة التي وصلوا إليها بفضل الصبر والاستقامة؟ كلا.. وما أحوج الأمة الإسلامية وهي تعيش مخاض الصحوة والعودة إلى رسالتها أن تلتفت إلى هذه الحقيقة، وتعزم السير إليها قدما مهما حاول الأعداء ثنيها عن الطريقة بتهويل التضحيات والمشاكل التي تواجهها كل أمة ناهضة في السنين الأولى للنهضة، فإن الاستقامة وحدها التي توصل الأمم إلى موسم الحصاد حيث يكسبون المعطيات بكل شموخ واقتدار، فلا يطعم الماء الغدق إلا من تذوّق مرارة الاستقامة وتحمّل تحدياتها وجراحاتها.

ولقد توقف المفسرون عند الشطر الثاني من الآية ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ متسائلين: كيف يَعِدُ الله الجن والإنس بالماء الغدق نتيجةً للاستقامة على الطريقة، والحال أن الجن ليسوا ذوي أبدان إنسية أو لا يحتاجون إلى الماء -ربما يزعم عدم الاحتياج بوصف أنهم مخلوقون من النار- فيكون الوعد به مغريًا عندهم؟ والجواب:

أولاً: إننا نفهم من عموم القرآن أن الحاجة إلى الماء مرتكزة في كل كائن حي، لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] بغض النظر عن المقدار والكيفية.

ثانياً: يبدو أن الماء رمز للحضارة حيث الماء عصبها، فأي تقدم حضاري لا غنى له عن الماء.

ثالثا: كما إن أجلى مصاديق الماء ليس ما نشربه ونسقي به الزرع، إنما هو العلم الحق الذي تحيا بالاستجابة له النفوس والعقول، وتنعش به الحياة. قال الإمام الصادق عليه السلام: «**يَعْني لَأَمْدَدْنَاهُمْ عِلْماً كَيْ يَتَعَلَّمُونَهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ** عليهم السلام»[1] وعن بريد العجلي قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ قال: **يَعْني عَلَى الْوَلَايَةِ** ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ قال: **لَأَذَقْنَاهُمْ عِلْماً كَثِيراً يَتَعَلَّمُونَهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ** عليهم السلام»[2] وعن الباقر عليه السلام قال: «**لَأَشْرَبْنَا قُلُوبَهُمُ الْإِيمَانَ، والطَّرِيقَةُ هِيَ الْإِيمَانُ بِوَلَايَةِ عَلِيٍّ والْأَوْصِيَاءِ**»[3].. ولا غرابة في تأويل

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٤، ص٢٨.
(٢) بحار الأنوار: ج٢٤، ص٢٩.
(٣) الكافي: ج١، ص٤١٩.

الآية على هذا النحو، لأن الاستقامة على الطريقة في النفس بالإيمان، وفي الفكر باتباع آيات الله ورسالته، وفي المجتمع بالانتماء إلى حزبه واتباع أوليائه.

ومن كلمة ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم﴾ يتبين أنهم ظمأى، وعطشهم إلى الإيمان والمعرفة أشد من عطشهم إلى الماء، وبالاستقامة على الطريقة الآنف ذكرها يُؤَمّن للبشرية كل ذلك، حيث الإيمان بالله وحيث بصائر الوحي التي تروي القلوب والعقول، وتبني حضارة السعادة، ومستقبل الفلاح.

ولأن هدف الحياة هو الابتلاء لاستظهار معدن المكلفين وكوامنهم فإن المسألة لا تنتهي عند حدود الاستقامة على الطريقة من قبل المخلوقين وإسقاء الماء الغدق من قبل الله، بل لا بد من الفتنة، بوصفها قضية أساسية يفرضها هدف الخلق، وكون الدنيا ليست الدار الأخيرة. ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ بهدف معرفة طبيعتهم، ومواقفهم العملية من نعم الله عز وجل، بالذات وأن المسيرة الحضارية للأمم تبدأ بجيل ملتزم مستقيم يشيد صرح الحضارة ثم ينحرف ببطر النعمة، أو يرثه من بعده خلف يضيع القيم ويتبع الأهواء. فأما الأمة التي تفلح في الاستقامة على الطريقة قبل الرغد وبعده فإنها تصبح محل عناية الله، والمزيد من فضله بالزيادة جزاء للشكر، وعلى عكسها الأمة التي يأخذها الغرور بمنجزاتها، وتنخدع بزينة الحياة الدنيا، وفضل الله عليها، فإنها تدخل نفق الانحطاط والعذاب.

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ قيل: هو العذاب الذي يزداد ويتصاعد بمرور الزمن، وإن الأمة التي تضل عن مسيرة الحق لترى الأهوال وألوان العذاب المتكاثرة في أنواعها، والمتزايدة في كيفيتها، وقيل: هو العذاب الأليم الذي يصعد إلى المخ، وقيل: صعود جبل في جهنم يُجبَر المجرمون على صعوده مُحمَّلين بالأثقال، فكلما بلغوا قمته أعيدوا للأمر كرة وأخرى دون استراحة.. وفي الأثناء تضربهم ملائكة العذاب بمقامع الحديد النارية.

ومن الناحية الواقعية لو أردنا أن نتصور مسيرة أمة خالفت الطريقة السليمة واتبعت السبل المنحرفة فسنجدها كمن يصعد الجبال الوعرة يخالف سنة الله في الجاذبية، فيلقى في طريقه العقبات التي لا تطاق. قال ابن عباس: «إن صَعَدًا جبل في جهنم، وهو صخرة ملساء فيكلف الكافر صعودها، ثم يجذب من أمامه بسلاسل ويضرب من خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها في أربعين سنة، فإذا بلغ أعلاها جذب إلى أسفلها ثم يُكَلَّف الصعود مرة أخرى»[1].

وإنما يُسلك المعرض عن ذكر الله عذابا صعدا لأن ذكره تعالى وسيلة الاستقامة على

(١) التفسير الكبير للرازي: ج ٣٠، ص١٦٢.

الطريقة، ولا يقدر الإنسان على الاستقامة من دونها، فإذا ما أعرض أحد عن الوسيلة لم يبلغ النتائج فإذا بالماء الغدق يصبح عذابا صعدا. ولعمري إن الأمة الإسلامية حين استقامت على الطريقة سقيت الماء الغدق، وصارت إلى السعادة والسلام، ولكنها حيث افتتنت بالمعطيات والنعم فشلت في الامتحان، إذ أعرضت عن ذكر ربها وأوليائه فصارت ولا تزال إلى العذاب الصعد.

[١٨-٢٠] وفي سياق الحديث عن الجن الذين اتخذهم البعض آلهة فأشركوا بهم، وعبدوهم من دون الله، يؤكد ربنا حقيقة التوحيد هدفًا رئيسًا من وراء نسف المزاعم الموغلة في الخرافة حول هذا الخلق من خلقه تعالى، مما يهدينا إلى كون الآية الثامنة عشرة آية محورية في سورة الجن.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ و الأنبياء وكل من يسيرون على خطهم ويتبعون منهجهم حيث يقومون لله بالدعوة وينهضون للتغيير يجعلون محورهم توحيده عز وجل عن أي شريك من خلقه، إلى حد التجرد له عن أية ذاتية، يتجردون عن الأرض والعشيرة وكل قرابة وأية علاقة بشيء أو بشخص، ويسلمون أنفسهم بصورة مطلقة له، ويكيفونها حيث التوافق مع رسالته وهذا من أهم الفوارق بين الدعوات الإلهية الخالصة وبين الدعوات البشرية التي يسعى أصحابها في الغالب إلى الانتفاع منها لصالحهم.

إنك لو درست حركة الكهنة فستجدهم يسعون لجعل أنفسهم محورا من وراء ثقافاتهم ودعوتهم، فهم دائما يريدون إقناع الناس بأنهم عظماء، وأن لديهم قبسا من عظمة الله سبحانه وعلما من علمه. أما الأنبياء والرسل فإنهم لا يدعون مع الله أحدا أبدا. ويتفرع من ذلك أن الدعوات البشرية عادة ما تكون وسيلة لارتزاق أصحابها بها. أما أولياء الله فإنهم لا يسألون أحدا أجرا. بل يأتون ليعطوا الناس الأجر والخير.

وقد استفاد أئمة الهدى من هذه الآية حكما شرعيًا جنائيًا بحرمة قطع المساجد كالكف في حوادث السرقة مثلا، وقد جاء في الرواية في قصة سارق أحضر إلى المعتصم العباسي فاستفسر: من أي حد يجب أن يقطع؟ فقال الراوي (وهو ابن أبي داود): من الكرسوع، قال: وما الحجة في ذلك؟ قال: قلت: لأن اليد هي الأصابع والكف إلى الكرسوع، لقول الله في التيمم ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾، واتفق معي على ذلك قوم. وقال آخرون: بل يجب القطع من المرفق، قال: وما الدليل على ذلك؟ قالوا: لأن الله لما قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ في الغسل دَلَّ على أن حد اليد هو المرفق.

قال: فَالْتَفتَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام فَقالَ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا يَا أَبَا جَعْفَرٍ؟ قَالَ عليه السلام: قَدْ تَكَلَّمَ الْقَوْمُ فِيهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: دَعْنِي مِمَّا تَكَلَّمُوا بِهِ أَيُّ شَيْءٍ عِنْدَكَ؟ قَالَ عليه السلام: اعْفِنِي عَنْ هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِالله لَمَّا أَخْبَرْتَ بِمَا عِنْدَكَ فِيهِ فَقَالَ عليه السلام: أَمَّا إِذْ أَقْسَمْتَ عَلَيَّ بِالله إِنِّي أَقُولُ: إِنَّهُمْ أَخْطَئُوا فِيهِ السُّنَّةَ، فَإِنَّ الْقَطْعَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مِنْ مَفْصِلِ أُصُولِ الْأَصَابِعِ فَيُتْرَكُ الْكَفُّ، قَالَ: لِمَ؟.

قَالَ عليه السلام: لِقَوْلِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله: السُّجُودُ عَلَى سَبْعَةِ أَعْضَاءٍ: الْوَجْهِ والْيَدَيْنِ والرُّكْبَتَيْنِ والرِّجْلَيْنِ، فَإِذَا قُطِعَتْ يَدُهُ مِنَ الْكُرْسُوعِ أَوِ الْمِرْفَقِ لَمْ يَبْقَ لَهُ يَدٌ يَسْجُدُ عَلَيْهَا، وقَالَ الله تَبَارَكَ وتَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ يَعْنِي بِهِ هَذِهِ الْأَعْضَاءَ السَّبْعَةَ الَّتِي يَسْجُدُ عَلَيْهَا ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ ومَا كَانَ لله لَمْ يُقْطَعْ. قَالَ فَأَعْجَبَ الْمُعْتَصِمَ ذَلِكَ فَأَمَرَ بِقَطْعِ يَدِ السَّارِقِ مِنْ مَفْصِلِ الْأَصَابِعِ دُونَ الْكَفِّ. قَال ابن أبي داود: قامت قيامتي، وتمنيت أني لم أكُ حيا»[1].

ونستفيد من الآية بصيرة عملية وهي حرمة جعل المساجد محلا لدعوة غير الله، واستخدامها بغير غرض العبادة له عز وجل، كالدعوات الانتخابية، الحزبية وما أشبه. ومن الفوارق الأساسية بين دعوة أولياء الله (رسله وأنبيائه ومن يسير على نهجهم) وبين الدعوات البشرية كالكهانة والسحر والفلسفات المنحرفة أنهم لا يبحثون عن التيار الاجتماعي ليسبحوا معه، إنما يهمهم العمل بالحق مهما كان ذلك مخالفا لتوجهات المجتمع، في حين نجد الكهنة والسحرة ومن أشبه يسيرون في ركاب السلاطين، وأصحاب النفوذ في المجتمع، ويخشون من الاصطدام مع الواقع. فالرساليون لا يعرفون المداهنة والمساومة، بل ينهضون لتغيير الواقع الفاسد، ويصطدمون مع كل قيمة منحرفة بغض النظر عن العواقب مادام الأمر يرضي الله، فإذا بواحدهم كإبراهيم -بل هكذا كل واحد منهم- يقف أمة لوحده في قبالة مجتمع بكامله وقد تظاهر عليه وتلبد كما تتلبد الغيوم بعضها مع البعض الآخر.

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ أي يدعو ربه نابذا كل الأفكار والقيم الشركية الضالة ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ قال الشيخ الطوسي: «جماعات متكاتفات بعضها فوق بعض، ليزيلوه بذلك عن دعوته بإخلاص الإلهية»[2]. ولعل في الآية إشارة من بعيد إلى تظاهر المشركين من الإنس ومن الجن مع بعضهم ضد داعية الحق، ولكن ذلك ليس بالذي يثني الأنبياء والرسل ولا بالذي يفل عزائمهم وعقائدهم الراسخة، فقد وقف نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وكما أمره الله متحديا جبهة الضلال المتلبدة ضده، ومعلنا بأنه لن يغيِّر مسيرته، ولن يتنازل عن قيمه وأهدافه

(١) تفسير العياشي: ج١، ص ٣١٩، بحار الأنوار: ج٥٠، ص٥.

(٢) التبيان: ج١٠، ص ١٥٥.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ وهذه الآية رمز لتحدي الرساليين لكل عامل واحد يضغط باتجاه المداهنة في قيمة التوحيد أو التنازل عنها. أوليست الاستجابة للضغوط لونا من ألوان الشرك؟!

[٢١-٢٢] وتمتاز الدعوة الإلهية من غيرها بأنها تثير في الإنسان كوامنه، وتدفعه إلى السعي لا التمنيات، كما يفعل الكهنة ودعاة الأديان والمذاهب البشرية، الذين يوزعون صكوك الجنة والأمان المزعومة على الناس إزاء المال! كلا.. إن أولياء الله يصارحون الناس بأننا لسنا بدائل عنكم، ولا يغني إيماننا عن سعيكم.. حتى لا يتخذهم الناس أربابا من دونه تعالى، ولا شفعاء بالطريقة الموجودة في نظرية الفداء عند بعض النصارى.

﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ وهذه قمة التجرد لله وتوحيده، ودليل إخلاص المساجد له من قِبَل الرسول ﷺ. والآية تحريض على التوجه لله وحده لأنه الذي يملك الضر والرشد، كما أن فيها تحريضا على الاعتماد على مواهب الله للنفس البشرية والسعي الذاتي بوصفها منهجيةً سليمة وجزءًا من الطريقة.

وتلاحظ في السورة تكرر كلمة الرشد أربع مرات في الآيات: (٢، ١٠، ١٤، ٢١) واستخدامها محل النفع الذي يقابل الشر والضر، ولعل السبب يكمن في معالجة السياق لمشكلة الضلال والانحراف التي تسببها المزاعم والفلسفات البشرية الباطلة حول الجن وغيرهم، فأراد تعالى التأكيد على دور الوحي في الهداية والرشد، بل التأكيد على الرشد بذاته في مقابل علاج مشكلة الضلال.

والرسول ليس لا يملك للآخرين ضرا ولا رشدا، بل لا يملك حتى لنفسه شيئا من ذلك، إنما الله وحده منه النفع والضر والإجارة، فخطأ إذن أن يعوذ أحد بغيره جِنًّا أو إنسًا أو سواهما. ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ و هذه العقيدة من أهم دواعي التسليم له عز وجل وتوحيده، وبها يقاوم المؤمنون عوامل الهزيمة والخوف حيث التوكل على رب العزة والاستجارة به من سواه، لا كما يفعل السفهاء فيستعيذون بالأنداد والشركاء من تقدير الله وأمره وعذابه! والمُلتحَد الملجأ الصغير بقدر اللحد، وإن من يجيره الله فلا خوف عليه، وإن من يريده عز وجل بسوء فلن يجد ملجأ ولا بمقدار اللحد يفر إليه منه وقد وسعت قدرته كل شيء.

[٢٣-٢٨] ويبين النبي ﷺ كُنْهَ دوره ومهمته في الحياة، فهو لم يأت ليعطي الناس صكوك الأمان، ولا ليكون شريكا لله في ملكوته، إنما جاء عبدا لله ورسولا من الله يبلغ

رسالته إلى الناس ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾، و ﴿إِلَّا﴾ تفيد هنا الاستثناء الحصري، وقال: ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ بالجمع وليس رسالته بالإفراد لبيان أنه امتداد برسالته لكل رسالات الله السابقة، وأن خط الأنبياء واحد يُكَمِّل بعضه (أفرادا ورسالات) بعضا.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ ولا تكون معصية الرسول إلا باتباع هوى النفس وسفهاء الأمم من القادة المنحرفين الذين يقولون على الله شططا. وإدخال القرآن لعنصر التخويف بالنار في الحديث عن معصية الله والرسول لأن ذلك يُنمّي الحذر من الله في النفس، ويضمن طاعة المؤمنين لله والرسول. والآية هذه توازن الموقف من الرسول القائد، فصحيح أنه لا يملك لأحد ضرا ولا رشدا، إنما يملك الناس أنفسهم ضر أنفسهم ورشدها، ولكنه حيث تجرد لله يعتبر مقياسا، ويتحول بشخصيته وموقعه إلى ميزان وقيمة في المجتمع، بحيث يقرن الله رضاه وغضبه وطاعته ومعصيته برضا الرسول ﷺ وغضبه وطاعته ومعصيته. وهكذا يصير كل قائد واحد ميزانا بمقدار ما يجسده من قيم الحق في حياته.

ولأن العصاة إنما يتمردون على أوامر الله ورسوله اغترارا بما لديهم من القوة، وبمن حولهم من الأنصار، فإن الله يذكِّرهم بأنهما لا يغنيان عنهم شيئا في تحديهم لرسوله وللحق، باعتبارهما الأقوى ناصرا والأكثر جندا.. الأقوى لأن الله ناصرهم، والأكثر لأن الملائكة وقوى الطبيعة تقف إلى جانب الحق، ومهما تأخر وعد الله بدحرهم والانتصار لحزبه ورسالاته في الدنيا والآخرة فإنه آت لا ريب فيه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ من الهزيمة في الدنيا أمام المؤمنين، أو الوعد بالبعث والجزاء الذي راح يشكك فيه ضُلَّال الإنس والجن.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ ومما يزيد في ضلال العصاة لله ولرسوله بالإضافة إلى الاغترار بالقوة والعدد هو تشكيكهم في صحة وعد الله بالجزاء، ولذلك تراهم لا يفترون يسألون مجادلين عن أجل الوعد. وهنا يتدخل الوحي يسدد المؤمنين في مواجهتهم لتلك التشكيكات والجدليات، بأمرهم ألَّا يخوضوا معهم حيثما شاؤوا فيكون زمام الحوار بأيدي أولئك، وإنما إدارته حيث تقتضي القيم والاستراتيجيات الرسالية، فإن الجدليات التي تصبح هدفا بذاتها كجدلية السؤال عن الساعة لا تنتهي عند حد كما أن الرساليين ليسوا مكلفين بالإجابة عن كل سؤال يطرحه الآخرون إلا في حدود المصلحة الرسالية وحدود ما أوتوا من العلم.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ وإنما ترك الرسول الإجابة عن ذلك بالكيفية التي يريدها المجادلون اتباعا للمصلحة الحكيمة، ولأن علم الساعة مما يختص به الله وله فيه البداء، فقد يكون موعدها قريبا، وقد يُعطي الله للناس فرصة لمراجعة الذات بتمديد أجلها لعلهم يتذكرون ويتوبون. والآية إشارة إلى فكرة البداء من حيث إنه تعالى مختار في تحديد وقت الساعة متى شاء، فقد يكون لها في علمه -التقدير- زمن معين ثم يبدو له فيجعل لها أجلا آخر قريبا أو بعيدا. وكفى بجهل الإنس والجن بميقات الساعة وبالمستقبل دليلا على قصورهم عن علم الغيب، وانحصار معرفته برب العالمين، وذلك مما يميز الخالق عن المخلوق.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ وهذه الآية تنفي المزاعم والأباطيل حول علم الجن والكهان بالغيب. بلى؛ قد يُظهر الله بعض أوليائه من الرسل على ما يريد من علم الغيب، وهم بدورهم يحفظون سره تعالى، إذ يعلم أين يضع رسالته، ومن يختار لأمانته، ومع ذلك يحفظهم تماما كما حفظ السماء من استراق السمع.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فلا أحد يفرض على ربنا أن يظهره على غيبه، إنما هو الذي يتفضل برضاه وحكمته على من يشاء فيطلعه على بعض الغيب ومع ذلك لا يدع غيبه يتسرب من مخازنه إلى من لا يستحقه.

﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ يحفظونه ويسددون خطاه، ويراقبون حركاته وتصرفاته، برصد ما يصدر منه في الحاضر والمستقبل ﴿بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ وما صدر عنه في الماضي ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾. وكيف يطلع المنجمون والسحرة والكهان على الغيب وهم مغضوب عليهم عند الله؟! أم كيف تصل معرفة الشياطين به وهم أعداؤه الذين أعد لهم الحرس الشديد والشهب حربا عليهم؟!.

وفي هذا جاءت أحاديث أئمة الهدى على النحو التالي: قال الإمام الباقر عليه السلام لحمران: «فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ عَالِمٌ بِمَا غَابَ عَنْ خَلْقِهِ فِيمَا يَقْدِرُ مِنْ شَيْءٍ ويَقْضِيهِ فِي عِلْمِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ وقَبْلَ أَنْ يُفْضِيَهُ إِلَى الْمَلَائِكَةِ، فَذَلِكَ يَا حُمْرَانُ عِلْمٌ مَوْقُوفٌ عِنْدَهُ إِلَيْهِ فِيهِ الْمَشِيئَةُ فَيَقْضِيهِ إِذَا أَرَادَ ويَبْدُو لَهُ فِيهِ فَلَا يُمْضِيهِ، فَأَمَّا الْعِلْمُ الَّذِي يُقَدِّرُهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فَيَقْضِيهِ ويُمْضِيهِ فَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله ثُمَّ إِلَيْنَا»[1]، وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِنَّ للهِ عَزَّ وجَلَّ عِلْمَيْنِ عِلْماً عِنْدَهُ لَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِ أَحَداً مِنْ خَلْقِهِ وعِلْماً نَبَذَهُ إِلَى مَلَائِكَتِهِ ورُسُلِهِ، فَمَا نَبَذَهُ إِلَى مَلَائِكَتِهِ ورُسُلِهِ فَقَدِ انْتَهَى إِلَيْنَا»[2].

(١) الكافي: ج١، ص٢٥٦.
(٢) الكافي: ج١، ص٢٥٥.

وتهدينا الآية إلى أمرين:

الأول: إذا كان ثمة سبيل للمخلوقين يطلعون بسببه على الغيب فإنه ليس الجن ولا غيرهم لأنهم لا يعلمونه، إنما ينبغي لهم الاستعاذة بالله وطلبه عند رسله وأوصيائه المرضيين عنده.

الثاني: خطأ ما زعمه البعض من أن أحدا لا يعلم الغيب البتة، فإنه يعلمه من ارتضاه الله لغيبه وبقدر ما يُعلِّمه الله بصريح النص. قال الإمام علي عليه السلام وهو يتحدث عن الناس: **«وَأَلْزَمَهُمُ الْحُجَّةَ بِأَنْ خَاطَبَهُمْ خِطَاباً يَدُلُّ عَلَى انْفِرَادِهِ وَتَوَحُّدِهِ وَبِأَنَّ لَهُ أَوْلِيَاءَ تَجْرِي أَفْعَالُهُمْ وَأَحْكَامُهُمْ مَجْرَى فِعْلِهِ، فَهُمُ الْعِبَادُ الْمُكْرَمُونَ الَّذِينَ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾**[الأنبياء: ٢٧] **هُمُ الَّذِينَ ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾** [المجادلة: ٢٢] **وَعَرَّفَ الْخَلْقَ اقْتِدَارَهُمْ عَلَى عِلْمِ الْغَيْبِ بِقَوْلِهِ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ وَهُمُ النَّعِيمُ الَّذِي يَسْأَلُ الْعِبَادَ عَنْهُ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْعَمَ بِهِمْ عَلَى مَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ.**

قَالَ السَّائِلُ: مَنْ هَؤُلَاءِ الْحُجَجُ؟ قَالَ عليه السلام: هُمْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وَمَنْ حَلَّ مَحَلَّهُ مِنْ أَصْفِيَاءِ اللهِ الَّذِينَ قَرَنَهُمُ اللهُ بِنَفْسِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَفَرَضَ عَلَى الْعِبَادِ مِنْ طَاعَتِهِمْ مِثْلَ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْهَا (من الطاعة) لِنَفْسِه»[1].

ويبين الله الهدف من اطلاع رسله المرضيين على الغيب، وسلك الرُّصُد من بين أيديهم ومن خلفهم، ألا وهو كونه مما يقتضي تبليغ الرسالة ويخدم مصلحتها ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾. والآية تهدينا إلى أن الرسالة جزء من ذلك الغيب الذي يُظهر عليه من يرسلهم بها، وأن اطلاعهم على بعض الغيب لدليل على كونهم رسل رب العالمين، مما يُقيم الحجة على العقلاء ويفرض اتباعهم عليهم، فذلك إذن مما يعينهم في إبلاغ الرسالة من جهة، وإقامة الحجة الداعية إلى تبليغها على الأنبياء أنفسهم بحيث لا يبقى لهم عذر لو قصَّروا حاشاهم.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ إحاطة عامة شاملة ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي إحاطة مفصلة بالأرقام والدقائق، وحيث يفعل الله شيئا فإن فعله يرتكز على العلم والحكمة، وإنما يطلع بعض رسله على الغيب لإحاطته بهم ومعرفته بصلاح ذلك وضرورته.

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٠، ص١١٨.

سُورَةُ المُزَّمِّل

* مكية.

* عدد آياتها: ٢٠.

* ترتيبها النزولي: ٣.

* ترتيبها في المصحف: ٧٣.

* نزلت بعد سورة القلم.

فضلُ السُّورة

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُزَّمِّلِ فِي الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ أَوْ فِي آخِرِ اللَّيْلِ كَانَ لَهُ اللَّيْلُ والنَّهَارُ شَاهِدَيْنِ مَعَ سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ، وأَحْيَاهُ الله حَيَاةً طَيِّبَةً وأَمَاتَهُ مِيتَةً طَيِّبَةً».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص١٤٣)

الإطار العام

التوحيد قاعدة الانطلاق

التوحيد هو قاعدة الانطلاق والهدف الرئيسي لكل رسالات الله، ويتمثل عمقه الأصيل في علاقة الإنسان المخلوق بربه الخالق. ولقد تمحورت كثير من الآيات القرآنية فيما تمحورت حول منهجة هذه العلاقة، بالتأكيد عليها بوصفها أصلًا من أصول الإسلام، وبيان خلفياتها ومعطياتها وتفاصيل برنامجها.

والمتدبر في سورة (المزمل) يجدها تعالج هذا الموضوع من زاوية قيام الليل، وأقول: قيام الليل لأن هذا التعبير أوسع من قولنا: صلاة الليل، وأقرب لما يعنيه السياق ويندب إليه.

١- ففي البداية يخاطب الله رسوله المزمل فارضاً عليه قيام الليل فرضاً كالصلاة والصيام والجهاد، حيث قالوا: أنه ﷺ قد خُصَّ بوجوب قيامه الليل دون أمته، ويبين أن الليل عنده -وبالتالي عند عباده الصالحين- ليس كما يزعم الناس.. فرصة للاسترخاء والنوم، لأنها هزيع من عمر الإنسان ينبغي أن يكون مثل النهار ساحة سعي نحو الفلاح والسعادة، ومن ثم فإن الأصل في حياة الفرد الرسالي أنه يقوم الليل إلا قليلاً، نصفه أو ينقص منه قليلاً، أو يزيد عليه، إلا أن تعترضه الأسباب والأعذار الشرعية من مرض وضرب في الأرض وقتال في سبيل الله وما أشبه، كما تبين الآية الأخيرة من السورة (الآيات: ١-٤).

٢- ويعتبر الرب عز وجل ترتيل القران (قراءته بصوت حسن وتدبر) من أهم البرامج في قيام الليل، إلى حد يمكن اعتباره كافياً عن سائر برامج الليل، ذلك لأن القرآن هو الوسيلة العظمى للاتصال برب العزة، ولأنه تعالى لا يريد منا قياماً روحياً مجرداً، بل يريد علاقة تنعكس على كل أبعاد الحياة، حتى تتحول إلى نهج حياة من خلال تدبر القران والعمل بآياته (الآيات: ٤-٥).

٣- ومع أن المؤمن يواجه مصاعب من هذا التكليف الإلهي، حيث تحديات النفس وحب النوم إلا أن ناشئة الليل في مقابل ذلك أنفذ إلى أغوار النفس ﴿أَشَدُّ وَطْئًا﴾ وأصدق، حينما ينبعث الإنسان من النفس لإصلاح الآخرين، ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أقوم لقول الإنسان وسلوكه على طريق الحق والسعادة، وبالذات إذا أخذنا بعين الاعتبار معادلة الزمن اليومي المنشطرة إلى وقتين؛ الليل والنهار، فإن البشر بحاجة ماسة -وهو يكابد مشاكل الحياة وتحدياتها بالنهار- إلى إرادة التحدي والاستقامة على الطريق المثلى دون تأثر بالطبيعة أو بعواملها تاثراً سلبياً، وذلك يعرج إليه ويستلهمه المؤمنون من قيام الليل، فلا يشطّون في سبح النهار الطويل عن الحق والصواب قيد أنملة (الآيات:٥-٧).

٤- وإذا كان الجميع معنيون بقيام الليل؛ فإن الرساليين بالذات مخصوصون بهذا الفرض الإلهي، ويتركز الأمر عند القيادة الرسالية إلى حد الوجوب بالنسبة للإمام المعصوم، وإلى قريب من ذلك عند سواه، والسبب أنهم المستأمنون على رسالة الله وجنوده الذين يخوضون الصراع المبدئي الحضاري ضد الباطل، ويعلم الله كم هي التحديات والضغوط والمشاكل التي يواجهها من يركب هذا الطريق، وبالتالي كم هم بحاجة إلى زاد الإيمان ووقود التقوى. ولن يفلح الرساليون في صراعهم حتى يعرجوا إلى قمة التوحيد، والتوكل على رب العزة، والصبر على الأذى والحق في سبيل الله. ومن هذا المنطلق تأتي أهمية قيام الليل، ويتضح دوره الأصيل في المسيرة الرسالية، باعتباره معراجاً رئيسياً إلى تلك القمة السامقة (الآيات: ٨-١٠)

٥- وبعد أن يحذر الله المكذبين أولي النعمة نفسه مذكراً بالآخرة وعذابه الشديد فيها، يذكرنا تعالى بأن بعثه حبيبه الرسول ﷺ إلينا مظهر لسنته الجارية في الحياة، حيث يبعث الرسل شهداء على الأمم (مبشرين ومنذرين) محذراً إيانا من معصية أوليائه، لأنها تؤدي إلى الأخذ الوبيل في الدنيا، كما انتهت بفرعون وملئه وجنوده، وأعظم من تلك العاقبة عذاب يوم القيامة، يوماً يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به، لا ريب فيه، وإنها لمن عظيم تذكرة الله إلى خلقه، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً (الآيات:١١-١٩).

٦- وفي الخاتمة يبين لنا القرآن اهتمام الرعيل الأول بقيام الليل وفي طليعتهم النبي الأعظم ﷺ الذين كانوا يقومون أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه حسب الظروف، ويقدمهم أسوة للأجيال بعد الأجيال، معالجاً في الأثناء موضوع الظروف الاستثنائية والأعذار الشرعية التي تمنع من قيام الليل، وموجهاً إيانا إلى بعض التكاليف المفروضة، وداعياً إلى الاستغفار.. إن الله غفور رحيم (الآية:٢٠).

قم الليل إلا قليلا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا[1] طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ[2] إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا[3] مَهِيلًا[4] (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا[5] (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (١٩) ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ

---

(١) سبحاً: السبح: المنقلب والمنصرف، وأصل السبح من التقلب ومنه السابح في الماء لتقلّبه فيه.

(٢) تبتل: انقطع إلى الله، وأصله من تبتلت الشيء قطعته.

(٣) كثيباً: الكثيب الرمل المجتمع الكثير.

(٤) مهيلًا: هِلتُ الرمل أهيله هيلًا فهو مهيل إذا حُرِّك أسفله فسال أعلاه.

(٥) وبيلًا: كلُّ ثقيل وبيل، ومنه كلأ مستوبل أي مستوخم لا يستمرأ لثقله، ومنه الوبل والوابل وهو المطر العظيم القطر، ومنه الوبال وهو ما يغلظ على النفس، والوبيل الغليظ من العصي.

عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾.

بينات من الآيات:

[١] ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ لقد وقف المفسرون طويلا عند هذه الآية، واختلفوا في معنى المزمل، فقال بعضهم: «المُتَزمِّل بعباءة النبوة، أي لأثقالها»[١]، وعلق العلامة الطباطبائي على هذا الرأي قائلا: «ولا شاهد عليه»[٢]. وفي الكشاف: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله نائما بالليل متزملا في قطيفته فَنُبِّه ونُودي بما يهجن إليه الحالة التي كان عليها من التزمل في قطيفته واستعداده للاستثقال في النوم، كما يفعل من لا يهمه أمر ولا يعنيه شأن»[٣]، ورُوي في الدر المنثور عن جابر قال: «اجتمعت قريش في دار الندوة، فقالوا: سَمُّوا هذا الرجل اسما نصد الناس عنه، فقالوا: كاهن، قالوا: ليس بكاهن، قالوا: مجنون، قالوا: ليس بمجنون، قالوا: ساحر، قالوا: ليس بساحر، قالوا: يُفرِّق بين الحبيب وحبيبه، فتفرق المشركون على ذلك، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله فتزمل في ثيابه وتدثر فيها»[٤]، وقيل: «كان يتزمل بالثياب أول ما جاءه به جبرائيل خوفا حتى أنس به، وإنما خوطب بهذا في بدء الوحي ولم يكن قد بلَّغ شيئا، ثم خوطب صلى الله عليه وآله بعد ذلك بالنبي والرسول»[٥].

وقبل أن نُبيِّن رأينا في هذه الآية الكريمة نسجل بعض الملاحظات حول بعض من الآراء، فإن ما علَّق به الزمخشري من حيث العبارة (يهجن.. لا يهمه أمر.. لا يعنيه شأن) ومن حيث المعنى لا يليق بمقام حبيب الله وصفوة أنبيائه ورسله وهو المعصوم، والمهتم بأمر الرسالة إلى حد كاد يُهلك نفسه من أجلها، وتحمَّل من الأذى لها حتى خاطبه ربه سبحانه: ﴿طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ١-٣].

(١) تفسير مجمع البيان: ج١٠، ص٣٧٨.
(٢) تفسير الميزان: ج٢٠، ص٦٠.
(٣) تفسير الكشاف: ج٤، ص٦٣٤.
(٤) تفسير الدر المنثور: ج٦، ص٢٧٦.
(٥) تفسير مجمع البيان: ج١٠، ص٤٧٨.

وكذلك لا يليق بمقامه ﷺ ما روي في الدر المنثور من أنه تأثر بإعلام الجاهليين سلبيًا فتزمل وتدثر في ثيابه! أما ما قيل من أن النبي ﷺ كان يتزمل خوفا أو ذهب إلى خديجة قائلا: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي... دَثِّرُونِي دَثِّرُونِي» أول ما اتصل بالله عبر أمينه جبرائيل حتى أنس به.. هذا الرأي الذي تبناه بعض المفسرين، فإنه أبعد ما يكون عن طبيعة الأنبياء عليهم السلام وشخصية سيدهم الأعظم ﷺ. والسبب أن فيه شيئا من نسبة الشك في صحة الرسالة والاتصال بالله عنده ﷺ، وهذا نقيض قول الله عنه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٣-٢٥].

والذي يبدو لي أن كلمة ﴿الْمُزَّمِّلُ﴾ تحتمل معنيين:

الأول: ما أشار إليه عكرمة بأنه المُتَحَمِّل لأعباء النبوة، فإن المتصدي لأمر الرسالة ومسؤولية التغيير بها أحوج ما يكون إلى قيام الليل، يستمد منه روح الإيمان وإرادة الاستقامة على الصراط المليء بالمصاعب والتحديات. جاء في اللغة: «زَمَلَ الشيءَ زَمْلاً: حمله، ازدمل الحمل: حملة بمرة واحدة، الزَّمْلُ: الحمل»[1].

الثاني: الذي لَفَّ عليه ثيابه أو غطاءه على وجه الوصف لحال النبي حين نزل الوحي عليه بهذه الآيات، وهو ظاهر اللفظ وفي الخطاب بهذه الكلمة فائدتان:

ألف: تَلَطُّف وتَعَطُّف ودلالة على قرب الرسول من ربه حتى يخاطبه بمثل هذا التعبير الذي يجري بين الأحبة، كالتلطف في سؤال موسى عليه السلام ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ١٧].

باء: التوسع إلى كل من يتزمل للنوم، فإن الحديث يشمله انطلاقا من قاعدة: (إياك أعني واسمعي يا جارة) التي نزلت بها آيات الذكر الحكيم.

على أن المعنى الأول هو الآخر يتسع لكل من تحمل أعباء الدعوة إلى الله، وليس في هذا التعبير أدنى مساس بعظمة الرسول ﷺ -كما زعم البعض- فإنه بشر مثلنا يحتاج إلى الراحة والنوم. ولعل الرسول كان ينام أول الليل ليقوم في منتصفه وآخره، موصلا قيامه بالليل بصلاة الصبح كما نقل عنه، ويقوي هذا الاحتمال اللغة حيث جاء فيها: «زمل الشيء بثوبه أو فيه: لفه»[2].

[٢] وحيث ينتفض كل مزمل على نداء الوحي الإلهي المتوجه إليه يجد نفسه أمام أمر هام.

---

(١) المنجد: مادة زمل.

(٢) المنجد: مادة زمل.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ ولم يقل: (صَلِّ) لأن التعبير بالقيام أشمل من الصلاة، فالقيام يشمل الصلاة المخصوصة وغيرها، وكذلك الدعاء وقراءة القرآن والتفكر والاستغفار، والذي يستتبع محاكمة الماضي بالمحاسبة الذاتية والتفكير المنهجي في المستقبل. إذن فالليل ليس لمجرد النوم والراحة، كلا.. إنما هو فرصة المؤمنين الذهبية للعروج نحو الكمال الروحي والعقلي، والاتصال برب العالمين.. ومن ثم التخطيط السليم للمستقبل، سواء مستقبل الآخرة البعيد، أو مستقبل الغد القريب في الدنيا، حيث السبح الطويل كل نهار. ويتميز الليل من النهار بهدوئه وصفائه، وكون الإنسان فيه بعيدا عن كثير من المؤثرات التي تواجهه في النهار، ولذلك جعله الله ميعاد لقائه بعباده الصالحين.

إن الإسلام يريد لأتباعه أن يقودوا البشرية، ويشيدوا على هداه سعادتها الخالدة، وذلك بحاجة إلى العزيمة العالية، والإرادة الصلبة، ومناجاة الله الذي من عنده كل خير وسعادة.. وقيام الليل يُؤَمِّن لهم كل ذلك، كما أن بلوغ ذلك الهدف رهين السعي المستمر نحوه والذي لا يكفيه النهار مما يدعو المؤمنين إلى مواصلة السعي في النهار بقيام الليل، فلا ينامون إلا قليلا، بلى: إن الهدف عظيم، والفرصة قصيرة، فلا بد إذن من سعي مضاعف، يُسَخِّرون فيه ما يمكنهم من طاقاتهم، وينتهزون لأجله ما يمكن من الوقت.

﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ من عمرهم يخصصونه لراحة أبدانهم لأن ذلك حاجة طبيعية تفرض نفسها على كل مخلوق، وحيث يستريحون بالنوم فليس لذاته، بل لينهضوا من بعده إلى عمل دؤوب وإنجازات عظيمة، فإذا بك تدرس حياة أحدهم لتقسم إنجازاته على أيام عمره تجده أحيانا يسبق الزمان بإنجازاته الكبيرة، وعلى عكسهم أولئك الذين يستسلمون لحب النوم والراحة، فإن واحدهم يعيش ثمانين عاما في ظاهر الأمر ولكنك حينما تُقَيِّم حياته على أساس الأعمال والمنجزات تجده لم يعش أكثر من عشرين أو ثلاثين سنة، لأنه كان ينام ساعات طويلة في اليوم، أما أوقات يقظته فإنها تضيع بين غفلة ولهو ولعب.

بلى؛ إن الله يريد لنا أن نقوم النصف الآخر من أعمارنا، والذي عادة ما يخسره الناس، قياما نعمره بالعمل الصالح، وأي عمل صالح أفضل من التقرب إليه تعالى، والتدبر في كتابه، واستثارة العقل بآياته فيه وفي الطبيعة؟.

وإذا كان الأمر القرآني ﴿قُمِ﴾ ظاهرا في الوجوب بالنسبة إلى النبي والمعصومين عليهم السلام ومحمولا على الاستحباب لمن سواهم فإن المتقين يتلقونه على وجه الفرض عمليًّا، بحيث يلتزمون قيام الليل كالتزامهم بالصلوات اليومية، انطلاقا من تحسس أهمية هذا الأمر ودوره في حياتهم وشخصيتهم وحركتهم وإيمانا بأن القرآن موجهة آياته إلى كل فرد فرد، وإليهم بصورة أخص من العالمين.

[٣-٤] وبعد أن أمر الله تعالى نبيه ﷺ ومن خلاله كل مؤمن بقيام الليل إلا قليلا بوصفه أعلى وأفضل نسبة للقيام، يضعنا أمام ثلاثة خيارات أخرى: ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ وقد اختلف في الضمير المتصل بكلمة النصف هل هو عائد على الليل أو على القليل، وبالتالي اختُلف نحويًّا في كون [نصْفَهُ] بدلا عن أيهما؟. فقال البعض ومن بينهم شيخ الطائفة: «نصفه بدل من الليل، كقولك: ضرب زيدا رأسه»[1]، وقيل: «إنه بدل من القليل، فيكون بيانا للمستثنى»، ويؤيد هذا القول ما روي عن الصادق عليه السلام قال: «**الْقَلِيلُ النِّصْفُ، أَوِ انْقُصْ مِنَ الْقَلِيلِ قَلِيْلًا، أَوْ زِدْ عَلَى الْقَلِيلِ قَلِيْلًا**»[2]، والأقرب -كما يبدو لي- أن الضمير في ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ عائد إلى الليل، فيكون المعنى: قم كل الليل إلا قليلا، أو نصفه، أو أقل من النصف بالإنقاص منه قليلا، أو أكثر من النصف بالزيادة عليه.

ونستطيع أن نقول: إن المقصود من الليل في قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ هو الجنس، وأن المستثنى بعضه، فيكون المعنى: قم كل الليالي إلا قليلها وبعضها، وهي -كما عبر صاحب المجمع- «ليالي العذر كالمرض وغلبة النوم وعلة العين ونحوها»[3]، ويؤيد ذلك ما رواه محمد بن مسلم عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قَالَ: أَمَرَهُ الله أَنْ يُصَلِّيَ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي لَا يُصَلِّي فِيهَا شَيْئاً**»[4] لعذر من الأعذار.

والسؤال: لماذا أمر الله بالقيام على شبه من التردد بين أربعة خيارات دون تحديد؟ لعله للأسباب التالية:

١- لأن الفرض المحدد أمر مستحيل في بعض الظروف حتى بالنسبة إلى الرسول والمعصومين الذين يجب عليهم قيام الليل وجوبا شرعيًّا عينيًّا، ذلك أن الإنسان من الزاوية الواقعية عرضة للظروف المتغيرة التي لا يمكنه مقاومتها، كالمرض والحرب والظروف الأمنية، قال علي بن أبي طالب: «**خَيَّرَ الله نَبِيَّهُ ﷺ فِي هَذِهِ السَّاعَاتِ الْقِيَامَ بِاللَّيْلِ، وَجَعَلَهُ مَوْكُولًا إِلَى رَأْيِهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَطَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ يَقُومُونَ عَلَى هَذِهِ الْمَقَادِيرِ، وَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِم، فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُم لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى، وَكَمْ بَقِيَ مِنَ اللَّيْلِ، فَكَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ مَخَافَةَ أَلَّا يَحْفَظَ الْقَدْرَ الْوَاجِبَ حَتَّى خَفَّفَ الله عَنْهُم بِآخِرِ السُّورَةِ**»[5] الذي يشير القرآن فيه إشارة واضحة لواحد من أسباب تعدد الخيارات.

---

(١) التبيان: ج١٠، ص١٦٢.
(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٧٨.
(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٧٨.
(٤) وسائل الشيعة: ج٨، ص١٤٨.
(٥) مجمع البيان: ج١٠، ص٣٧٨.

٢- ثم إن وضع المكلف أمام خيارات متعددة تختلف في ثقلها على النفس وفضلها عند الله، لا فرق بين درجة التكليف هل هي الوجوب أو الندب والاستحباب، يكشف عن مدى إيمانه وإرادته حين يختار بنفسه أيها شاء، وفي ذلك نوع من الامتحان الإلهي للمؤمنين.

٣- كما نهتدي من ذلك بالنسبة لغير النبي ﷺ إلى استحباب قيام الليل لا وجوبه شرعًا، وقد اعتبر الفقهاء الاختلاف في النصوص ضيقا وسعة، وكثرة وقلة، دليلا على الاستحباب، وذلك أن الفرض الواجب يكون محددا.

وقيام الليل -كما تقدمت الإشارة- لا ينحصر في عدد من الركعات والأذكار وحسب، بل هو برنامج متكامل للجسم والروح والعقل، وذلك بما يتضمنه من صلاة ومناجاة وتلاوة للقرآن، يعرج من خلالها القائمون بالليل إلى آفاق الإيمان والمعرفة، وبالذات منها ترتيل القرآن الذي يحقق تسامي الروح وانفتاح العقل معا، مما يسبب في آن واحد عروج الإنسان إلى مراتب الكمال.

وإن قراءة القرآن وتدبر معانيه روح قيام الليل، فهو عهد الله للإنسان، وحبله الممدود من السماء إلى الأرض، ونهجه الذي يداوي به أدواءه ويصل إلى السعادة عبره، فمنه يستمد روح التوحيد والتوكيل والصبر، ومن آياته يستلهم بصائر الهدى والحق في كل ميدان من الحياة، لينطلق بالنهار على هدى من ربه، وبين يديه بلسم لكل داء، وحل لكل مشكلة، ورؤية صائبة في كل قضية وحركة في الحياة، فردية أو اجتماعية، وفي أي حقل من حقولها. بلى، إن قراءة القرآن بذاتها بركة وحسنة عظيمة، ولكن هدف القرآن أعظم من مجرد التبرك، بل إن خيره الأكبر لا يحصل إلا باستثارة العقل به، وتدبر معانيه. أولم تسمع قول الله عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]؟. والتدبر فيه ليس لمجرد الفهم وإنما للعمل والتطبيق أيضا، ولهذا يربط القرآن نفسه بين ترتيله بالليل والسبح الطويل بالنهار. ولأن القراءة بذاتها ليست هدفا يأمرنا الله بقراءة آياته على وجه مخصوص هو الترتيل. ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ والترتيل هي القراءة الحسنة والمتأنية المصحوبة بالتفكر والتدبر، فعن عبد الله بن سليمان قال: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: بَيِّنْهُ تِبْيَاناً ولَا تَهُذَّهُ هَذَّ الشِّعْرِ ولَا تَنْثُرْهُ نَثْرَ الرَّمْلِ، ولَكِنْ أَفْزِعُوا قُلُوبَكُمُ الْقَاسِيَةَ ولَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ»(١).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ الْقُرْآنَ لَا يُقْرَأُ هَذْرَمَةً، (بسرعة) وَلَكِنْ يُرَتَّلُ تَرْتِيلًا، فَإِذَا مَرَرْتَ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ فَقِفْ عِنْدَهَا وسَلِ الله عَزَّ وجَلَّ الْجَنَّةَ، وإِذَا مَرَرْتَ بِآيَةٍ فِيهَا

(١) الكافي: ج٢، ص٦١٤.

ذِكْرُ النَّارِ فَقِفْ عِنْدَهَا وتَعَوَّذْ بِالله مِنَ النَّارِ»[1]، وقال عليه السلام: «هُوَ أَنْ تَتَمَكَّثَ فِيهِ وتُحَسِّنَ بِهِ صَوْتَكَ»[2] وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً»[3]، وعن أنس قال: «كان يمد صوته مدا»[4]، ويصف الإمام علي عليه السلام المتقين كيف يتعاملون مع القرآن عند قيام الليل فيقول: «أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ ويَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً وتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وأَكُفِّهِمْ ورُكَبِهِمْ وأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ يَطْلُبُونَ إِلَى الله تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ، وأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ»[5].

والمعنى اللغوي للترتيل يلتقي مع ما تقدم، يقال: رَتِلَ الشيءُ: تناسق وانتظم انتظاما حسنا، فهو رَتِل، ورَتَّلَ الكلامَ: أحسن تأليفه إلى بعضه، والقرآن تأنق في تلاوته، والرَّتَلُ في المصطلح العسكري صف الجنود أو الآليات المتراص، وقيل: خَفْضُ الصوت عند القراءة.

[٥-٦] ويبين الله واحدة من الخلفيات الأساسية التي تكشف أهمية قيام الليل، وذلك ببيان دوره الأساسي في بناء الشخصية الرسالية القادرة على تحمل مسؤولية الوحي، فالأمانة الإلهية ثقيلة لأنها تخالف أهواء الإنسان وحبه للراحة والاسترسال، والموقف السليم منها ليس الهروب من حملها، وإنما العروج بالنفس إلى مستوى حملها بالتزكية والتربية والتعليم من خلال البرامج المختلفة، ومن بينها وأهمها قيام الليل على الوجه الذي أشارت إليه الآيات الآنفة.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ قال عبد الله بن عمر: «أي سنوحي إليك قولا يثقل عليك وعلى أمتك»[6]، وقيل: «﴿ثَقِيلًا﴾: لا يحمله إلا قلب مُؤَيَّد بالتوفيق، ونفس مُؤَيَّدة بالتوحيد، وقيل: عظيم الشأن، كما يقال: هذا كلام رصين، وهذا الكلام له وزن إذا كان واقعا موقعه»[7]، وقيل هو: «ثقيل في الميزان يوم القيامة»، وقال القرطبي: «هو متصل بما فُرِض من قيام الليل، أي سنُلقي بافتراض صلاة الليل قولا ثقيلا يثقل حمله، لأن الليل للمنام، فمن أمر بقيام أكثره

---

(١) وسائل الشيعة: ج٦، ص٢١٥.
(٢) وسائل الشيعة: ج٦، ص٢٠٧.
(٣) وسائل الشيعة: ج٦، ص٢٠٨.
(٤) تفسير مجمع البيان: ج١٠، ص١٦٢.
(٥) نهج البلاغة: خطبة: ١٩٣.
(٦) نور الثقلين: ج٥، ص٤٤٧.
(٧) مجمع البيان: ج١٠، ص٣٧٩.

لم يتهيأ له ذلك إلا بِحِمْلٍ شديد على النفس، ومجاهدة الشيطان، فهو أمر يثقل على العبد»[١]، وذهب البعض إلى تفسير مادي لمعنى الثقيل مستدلا بمرويات غير محققة كقول عائشة: «إنه كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها»[٢] (أي تضرب بمقدم عنقها إلى مذبحها الأرض) وفي رواية: «كانت تبرك الدابة على الأرض من ثقل الوحي». وأخرى: «ولقد رأيته ينزل في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه لَيَرْفَضُّ عرقا»[٣].

والذي أختاره: أن الثقل هو الثقل المعنوي قبل أن يكون الثقل المادي، وإذا صحت الروايات المتقدمة حول ما يتركه نزول الوحي من أثر مادي على رسول الله ﷺ وعلى دابته من باب ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢٠] فإنها مظاهر ودلالات على الآثار والحقائق المعنوية ليس إلا. ولا ريب أن القرآن قول ثقيل باعتباره يحمل الإنسان مسؤوليات عظيمة كمسؤولية الاستقلال والتغيير والتزكية وتحدي الباطل، ولذلك فالإنسان بحاجة إلى قيام الليل ليسمو إلى احتماله، وهكذا تجد السياق يبين الصلة بين ثقل القرآن وبين قيام الليل، فيبين أن الصلاة والتهجد والحالة النفسية المنبعثة منها إذا نشأ كل ذلك بالليل كان أفضل منه إذا نشأ بالنهار.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ والناشئة في اللغة من نشأ الليل أي أحدثه، والله: خلقه، والحديث أو الكلام: وضعه وابتدأه، وسُمِّيت ساعات أول الليل ناشئة لابتداء الليل بها، وعندنا: ما ينشأ بالليل من عبادة روحانية أو بصيرة عقلانية أو حكمة ربانية. أما المفسرون فذهبوا إلى قولين:

الأول: أنها ركعتان بعد صلاة المغرب (لعلها الغفيلة، وقيل غير ذلك)[٤].

الثاني: أنها قيام الليل، ففي مجمع البيان عن الباقر والصادق عليهما السلام: «**هِيَ الْقِيَامُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى صَلَاةِ اللَّيْلِ**»[٥]، وهو الأقرب إلى سياق السورة كما سبق.

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ وشدة الوطء بمعنى ثبات القدم الذي يعكسه ثقل الوطأة وشدتها، فالوطأة الشديدة على الأرض أثبت للقدم، قال قتادة: «أثبت في الخير»[٦]، وقال الفَرَّاء: «أشد

---

(١) الجامع لأحكام القرآن القرطبي: ج١٩، ص٣٨.
(٢) تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٤٤٧.
(٣) المصدر السابق: ص٤٤٧.
(٤) المصدر السابق: ص٤٤٨.
(٥) مجمع البيان: ج١٠، ص٣٧٩.
(٦) الدر المنثور: ج٦، ص٢٧٨.

ثبات قدم، لأن النهار يضطرب فيه الناس، ويتقلبون فيه للمعاش»[1]. ولا ريب أن الاستقامة على طريق الرسالة أمر مستصعب بحاجة إلى الإرادة الصلبة والروح العالية، حتى يواجه الإنسان بهما تحديات الاستقامة على الحق.. وقيام الليل بقراءة القرآن والتدبر فيه والدعاء والاستغفار يعطي إرادة الثبات وروح التحمل وعند هذه الآية ينبغي أن ندرس حياة الأجيال الأولى من المسلمين الذين صنعوا المنجزات العظيمة في التاريخ، وغيروا مسيرة الإنسانية، فإنهم لا ريب كانوا يستلهمون من قيامهم الليل وما إلى ذلك همتهم العالية، وإرادتهم الصلبة، فكانوا رهبان الليل وفرسان النهار. كما أن ناشئة الليل ثقيلة على النفوس لأن القائم لأدائها يواجه تحدي النفس التي يغالبها النعاس، وتحن إلى الفرار من المسؤولية، وتفضل الراحة الجسدية على لقاء ربها الجبار، وتواجه كذلك تحدي الشيطان الذي يوسوس إليها بالتسويف، لها بالنوم بعذر أو آخر، وهكذا يكون قيام الليل منطلقا لإصلاح جذري في النفس والمجتمع، فهو إذن عملية صعبة، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿**وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ**﴾ [البقرة: ٤٥].

وهكذا رأى بعضهم أن المراد من شدة الوطء صعوبة صلاة الليل ذاتها، قيل أثقل وأغلظ على المصلي من صلاة النهار، وهو من قولك: اشتدت على القوم وطأة السلطان.. فأعلم الله نبيه أن الثواب في قيام الليل على قدر شدة الوطأة وثقلها، ونظير قوله ﷺ: «**أَفْضَلُ العِبَادَاتِ أَحْمَزُهَا**»[2]، وقيام الليل حمز (صعب) لأنه يخلق توازن الشخصية عند الإنسان لتكون قائمة على أسس رشيدة على قيم الوحي وهدى العقل وتجارب البشر، فإذا برهبان الليل طاهرة ألسنتهم عن الغيبة والشتم وسائر الأخطاء والذنوب المنطقية التي من بينها شهادة الزور، لأن قيامهم بالليل يزيل من قلوبهم العُقَد، ويزرع فيها التقوى، كما يجعلهم يفكرون في كلامهم قبل النطق به، ويزنونه بميزان الحق والصواب، الأمر الذي يجعلهم يصيبون الحق حين يتكلمون، فإذا سكتوا تفكروا، وإذا نطقوا تفجرت الحكمة من جوانبهم، كما وصفهم سيدهم أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ**»[3].

﴿**وَأَقْوَمُ قِيلًا**﴾ أي إنهم أصوب للحق بجهاته المختلفة من غيرهم على الإطلاق، فهم الأقوم (يعني الأفضل)، قال الفخر الرازي مفسرا الآية: أحسن لفظا، وقال أنس: «أصوب وأهيأ وأحَدُّ»[4]، وهذا أمر طبيعي لأن القائم بالليل يتصل بقول الله ووحيه (القرآن) ويؤسس

---

(١) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٧٥.
(٢) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٧٦.
(٣) نهج البلاغة: خطبة: ١٨٣.
(٤) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٧٦.

به تفكيره ومنطقه في الحياة، وهو الذي يهديه للتي هي أقوم كما نعته عز وجل، ولأن إثارة العقل بالتفكير في آيات الله ليلا يرسم السبيل للمنطق الأقوم عند السبح والكلام في النهار، وكأن الليل في أواخره أنسب للعلم. وإذا اعتبرنا القرآن من مصاديق القول الثقيل الذي ألقاه الله على رسوله وعلى أتباعه فإن ناشئة الليل التي تهيئ القلب لاستقباله تجعله أهيأ وأصلح لفهم معانيه وثبوته فيه والعمل به.

[٧] إن مسؤوليات الليل تتكامل -في منهج المؤمن- مع مسؤوليات النهار الذي يستوعب انتشارا واسعا، وسبحا طويلا ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ هناك رأيان كلاهما ينتهي لعلاج التوهم بالتناقض بين مهام الإنسان في الليل ومهامه في النهار، فالإسلام يعتبر الاثنين يتكاملان:

الرأي الأول: السبح بمعنى: المهام والعمل، يقال: سبح القوم: تقلبوا وانتشروا في الأرض، فكأن القرآن يريد القول لنا: أن للمؤمن مسؤوليتين: إحداهما بالنهار على عشرات المهام والأمور، والأخرى بالليل تتحدد بقيامه، ومهما كانت المسؤولية في النهار كبيرة: طلب علم، أو جهاد في سبيل الله، أو سعي للرزق الحلال، فإنه من الخطأ استعاضة مسؤولية الليل بالنهار، لأن العالم لو لم يخلص لكان ضرر العلم عليه وعلى الناس أكبر من نفعه، والذي يجعل العلم مفيدا، والعالم ملتزما برسالته في الحياة -فلا يُزَيِّف الحقائق، ولا يبيع نفسه وعلمه على أية حكومة وطاغية ومترف- هو الإيمان الذي يستلهمه من قيام الليل. إن حاجة المؤمن لقيام الليل في أي خندق كان هي حاجة ملحة وأكيدة، لأن سبحه الطويل بالنهار جسد لا بد له من عقل وروح لا يجدهما إلا في الاتصال بالله واتباع وحيه. وإنه لخطأ فظيع أن يقبل الإنسان على سبح النهار الطويل ويخوض لججه من دون إعداد كاف، وإن الإمام عليًّا عليه السلام ليؤكد أن ما يصير إليه المتقون من الفضيلة بالنهار إنما هي ثمرة قيامهم بالليل، وذلك حينما قال وقد وصف شأنهم بالليل كما سبق: **«وأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى ومَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، ويَقُولُ: لَقَدْ خُولِطُوا، ولَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ، لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْقَلِيلَ ولَا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ، فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ ومِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ، إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي ورَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي، اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ واجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ واغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ»**[١].

الرأي الثاني: السبح بمعنى الفراغ والفرصة، قال الجبائي: «إن فاتك شيء بالليل فلك

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٩٣.

في النهار فراغ تقضيه»[١]. وجدير أن ننقل هنا ما قاله العلامة الطبرسي: «إن مذاهبك في النهار ومشاغلك كثيرة، فإنك تحتاج فيه إلى تبليغ الرسالة، ودعوة الخلق، وتعليم الفرائض والسنن، وإصلاح المعيشة لنفسك وعيالك، وفي الليل يفرغ للتذكرة والقراءة، فاجعل ناشئة الليل لعبادتك، لتأخذ بحظك من خير الدنيا والآخرة، وفي هذا دلالة على أنه لا عذر لأحد في ترك صلاة الليل لأجل التعليم والتعلم، لأن النبي ﷺ كان يحتاج إلى التعليم أكثر مما يحتاج الواحد منا، ثم لم يرض أن يترك حظه من قيام الليل»[٢]، فلا يصح أن يتعلل المؤمن بشيء عن قيامه، ففي النهار فرصة كافية للمهام الأخرى، أما الليل فإنه بالدرجة الأولى موضوع للقيام.

[٨] في حديث معروف: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يُحْدِثَ رَبَّهُ فَلْيَقْرَأْ الْقُرْآنَ»[٣] وهكذا المؤمنون في قيامهم الليلي تراهم يبادلون ربهم الحديث، فمرة يتلون الكتاب وأخرى يذكرون ربهم بالدعاء، كما أمرهم الله فقال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ وذكر الله هو مخ العبادة، بل هو الهدف الرئيسي في الإسلام، لأن نسيانه تعالى سبب كل انحراف في حياة الإنسان. وقال: ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ لأن المخلوق عاجز عن معرفة الذات والاتصال بها مباشرة، فجعل الله أسماءه ذرائع العباد ووسائلهم إليه، وذكر أسماء الله ليس بتلفظ حرفها وحسب، بل بالإيمان بها ومعرفته من خلالها، إذ لكل اسم منها انعكاس في خلقه.

ولقوله: ﴿ٱسْمَ﴾ بالإفراد دلالة على الإطلاق الذي يفيده استخدام أي اسم من أسمائه الحسنى، وهو الأقرب، لأن ذكر الله يتم بذكر أيٍّ من أسمائه، كما قال عز وجل: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

والذكر الحقيقي ليس مجرد التلفظ بأسماء الله، بل هو إضافة إلى ذلك تعميق الصلة به، في آفاق توحيده، والانقطاع إليه، ولذلك يردف الله مع الأمر بالذكر أمرا بالتبتل.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ روى أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام: «وَأَمَّا التَّبَتُّلُ فَإِيمَاءٌ بِإِصْبَعِكَ السَّبَّابَةِ»[٤]، وروى زرارة وحمران عن أبي جعفر وعن أبي عبد الله عليه السلام: «التَّبَتُّلُ هُنَا رَفْعُ الْيَدَيْنِ فِي الصَّلَاةِ»[٥]، وعن الإمام الكاظم عليه السلام قال: «التَّبَتُّلُ أَنْ تُقَلِّبَ كَفَّيْكَ فِي الدُّعَاءِ إِذَا دَعَوْتَ»[٦]، وقد أشار جملة من المفسرين إلى أن المعنى هو الإخلاص في الدعاء، وما

---

(١) التبيان للطوسي: ج ١٠، ص١٦٣.
(٢) مجمع البيان: ج ١٠، ص٤٨٠.
(٣) كنز العمال: ج١، ح٢٢٥٧، ص٥١٠.
(٤) الكافي: ج٢، ص٤٨٠.
(٥) وسائل الشيعة: ج٦، ص٢٨٣.
(٦) وسائل الشيعة: ج٧، ص٥٠.

الإيماء بالإصبع، ورفع اليدين، وتقليب الكف إلا مظاهر له، فمثلها مثل الركوع والسجود والقنوت، والأصل اللغوي للكلمة يهدينا إلى هذا المعنى، قال شيخ الطائفة: فالتبتل الانقطاع إلى عبادة الله، ومنه: مريم البتول وفاطمة البتول، لانقطاع مريم إلى عبادة الله، وانقطاع فاطمة عن القرين (لولا علي). وقيل: «الانقطاع إلى الله تأميل الخير من جهته دون غيره»[1]، وأضاف الفخر الرازي: «وقيل: صدقة بتلة منقطعة من مال صاحبها، وقال الفَرَّاء: يقال للعابد إذا ترك كل شيء وأقبل على العبادة قد تبتل، أي انقطع عن كل شيء إلى أمر الله وطاعته»[2]، وفي الدر المنثور عن قتادة: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ قال: أخلص له الدعوة والعبادة، وعن مجاهد: «أي أخلص المسالة والدعاء إخلاصا».

واختلف في ﴿تَبْتِيلًا﴾ لماذا جاءت بهذه الصيغة المصدرية ولم تكُ في هيئة مفعول المطلق المعهودة (تبتلاً)، فذهب البعض إلى ما لا يليق بأدب الوحي وعظمته، إذ قالوا: «لمراعاة الفواصل» ﴿ثَقِيلًا﴾.. ﴿قِيلًا﴾.. ﴿طَوِيلًا﴾.. ﴿وَكِيلًا﴾.

ويبدو أن التبتل مصدر كلمة أخرى أشير إليها، فكانت العبادة تحتمل معنيين:

الأول: الانقطاع الجدي، وعبر عنه بكلمة ﴿وَتَبَتَّلْ﴾.

الثاني: الانقطاع المرة بعد الأخرى، وعبر عنه بالمصدر ﴿تَبْتِيلًا﴾، على أن الكلمة الأولى جاءت بصيغة التفعل، والثانية بصيغة التفعيل. ويبدو أن الكلمة تفيد التأكيد على التبتل وأن يكون حقيقيا، فليس كل مظهر تبتل يحسب تبتلا عند الله، والتبتل على وزن التفعل الذي يعني المداومة والعود إليه حينا بعد حين، وذلك أن الإنسان عرضة للانحراف وللتأثر بالعوامل السلبية في كل لحظة.. إذن فهو بحاجة إلى مداواة هذه المعضلة بالإلحاح على الانقطاع إلى الله، والتبتل إليه حينا بعد حين.

[٩] ويتعمق ذكر الله والتبتل إليه في نفس الإنسان وفي جوارحه حينما يتأسسان على المعرفة به سبحانه، وغاية معرفته توحيده والتوكل عليه، وهذه هي الزاوية التي تنتظم من خلالها الآية التاسعة في سياق السورة حيث تعرفنا بربنا ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ قال صاحب المجمع: «أي رب العالم بما فيه لأنه بين المشرق والمغرب، وقيل: رب مشرق الشمس ومغربها»[3]، والإطلاق هو الأقرب بصرف المعنى للمشرق والمغرب وما بينهما، فكل الكائنات بمفرداتها

---

(١) التبيان: ج١٠، ص١٦٤.
(٢) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٧٨.
(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٨٠.

آيات على ربوبيته، وإنها مخلوقات له عز وجل. وفي الآية تناسب بين الإشارة إلى حركة الشروق والغروب الكونية وبين اسم (الرب) باعتبارهما مظهر وآية للربوبية التي تعني الإنماء والتجديد والإضافة في الخلق، كما هناك تتناسب مع قيام الليل والسبح بالنهار لارتباطهما بشروق الشمس وغروبها.

وحيث يطوف الإنسان بنظره وفكره متدبرا في المشرق والمغرب وما بينهما تتأكد له حقيقة التوحيد، إذ يكتشف أن كل شيء مخلوق لا يصح الاعتماد عليه ؛ لأن له شروقا وغروبا، إلا الرب الواحد الأحد الذي كان قبل الإنشاء، ويبقى بعد فناء الأشياء ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ ولا تتخذ غيره، لأن الغير متغير، لا ينبغي الاعتماد عليه ؛ لأن ما سوى الله عرضة للزوال والفناء. قال العلامة الطبرسي: «أي حفيظا للقيام بأمرك، وقيل: فاتخذه كافيا لما وعدك به، واعتمد عليه، وفوّض أمرك إليه تجده خير حفيظ وكافٍ»[1]، وفي فتح القدير: «أي إذا عرفت أنه المختص بالربوبية فاتخذه وكيلا»[2].

[١٠] وحاجة الإنسان الرسالي إلى التوكل على الله وتوحيده والتبتل إليه وذكره، وبالتالي حاجته إلى قيام الليل، حاجة ملحة تفرضها مسيرته الجهادية الصعبة، حيث التحديات التي يواجهها. ولولا التوكل على الله والاستمداد منه انحرف عن الصراط المستقيم شيئا كثيرا أو قليلا.

ومن أعظم تلك التحديات والضغوط ما يقوله الأعداء ضد المؤمنين وبالخصوص قيادتهم، وذلك أن الإعلام السلبي من أهم أسلحتهم الخطيرة التي يوجهون حرابها ضدهم، فإذا بهم يسعون لتشويه سمعة الرساليين، وعلى المؤمنين أن يواجهوا ذلك بالصبر والهجران الجميل ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ والهجر الجميل هو المقاطعة بحكمة، وبعيدا عن الإثارة، لأن الهجر حينما يخرج عن سياق الحكمة قد يتحول إلى صراع مادي حادٍ في ظروف غير مناسبة، مما يضر أكثر مما ينفع، قال الفخر الرازي: «الهجر الجميل أن يجانبهم بقلبه وهواه، ويخالفهم مع حسن المخالفة والمداراة والإغضاء، وترك المكافأة»[3].

إن الإسلام يريد للإنسان أن يبني شخصيته ومواقفه على أساس الاستقلال فلا يتأثر بردات الفعل كالكلام السلبي الذي يوجه ضده، بل يمضي قدما في تنفيذ خطته الحكيمة التي رسمها لنفسه، دون أن يستفزه الآخرون، ويُسَيِّروه حسب خطتهم، ويفرضوا عليه ساعة المعركة

---

(١) مجمع البيان ج١٠، ص٤٨٠.

(٢) فتح القدير: ج٥، ص٣١٨.

(٣) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٨٠.

وطريقتها وأرضها، ومن هنا فإن الصبر لا يعني عدم اتخاذ الخطوات اللازمة تجاه تحديات الأعداء، بل يعني الانتظار حتى تحين الفرصة المناسبة حسب الخطة المرسومة، وكل ذلك يوفره قيام الليل والتوكل على الله. والتعبير القرآني دقيق للغاية حيث قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي أن ما يقوله الآخرون لا ينبغي أن يزلزل الرساليين عن مواقفهم الصحيحة إلى غيرها، فقد يصعد المستكبرون والمترفون حربهم الإعلامية ضد قيمة من القيم الإلهية كالحجاب على أساس أنه لون من ألوان الكبت، وهكذا الجهاد من أجل التحرر والاستقلال.. فيجب على الرساليين أن يصبروا ويتجرعوا كلمات الشتم والتجريح، وضغط الإعلام، لا أن يتنازلوا عن قيمهم ويداهنوا فيها.

وقد نستوحي من الهجر الجميل أنه القائم على أساس العدل والحكمة، فلا ينبغي أن يهجر المؤمن طرفا هجرا كاسحا، فيبخس الناس أشياءهم، ولا يعترف لهم بأية إيجابية، أو يقطع صلته معهم إلى حد يحرم نفسه من إيجابياتهم.. وبتعبير آخر: ينبغي أن ننصف الناس -حتى أعداءنا- من أنفسنا، فلا تصحب المقاطعة والهجر عملية إسقاط للآخرين بعيدة عن حدود الله وشرائعه.

[١١] ويستلهم المؤمنون روح الصبر من أمرين هما: التوكل على الله، والإيمان بأنه سوف يجازي أعداءهم شر مجازاة، فلماذا الاستعجال وعدم الصبر ما دام الفوت غير ممكن؟! بلى؛ قد لا يعاصر جيل من المؤمنين انتقام الله من أعدائهم وأعداء الرسالة، وقد لا ينتقم منهم في الدنيا، ولكن الأمر واقع لا محالة إن فيها أو في الآخرة، حيث عذاب الخزي الذي يلحق بالمترفين والمستكبرين المكذبين بالرسالة ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ أي المترفين الذين يعارضون الرسالة، ويكذبون بآيات الله. وكلمة ﴿وَذَرۡنِي﴾ تفيد التهديد والوعيد، كما تشير إلى معنى التوكل على الله نعم الوكيل، حيث ينبغي للمؤمن وهو يصبر على ما يقوله الأعداء أن يطمئن اطمئنانا تاما بأن صبره لن يذهب هباء، لأن المتوكل عليه سوف ينتقم له وللحق منهم. ولعل ذكر تنعمهم يهدينا إلى أن العذاب الذي سيحل بهم يشمل تغيير ما هم عليه من النعيم، وإلى ذلك أشار صاحب الميزان فقال: «والجمع بين توصيفهم بالمكذبين وتوصيفهم بأولي النعمة للإشارة إلى علة ما يهددهم به من العذاب، فإن تكذيبهم بالدعوة الإلهية وهم متنعمون بنعمة ربهم كفران منهم بالنعمة، وجزاء الكفران سلب النعمة، وتبديلها بالنقمة»[1].

ومهما استطال شوط الصبر في تصور المؤمنين، وامتد ترف المكذبين ونعيمهم، إلا أنه

(١) تفسير الميزان: ج ٢٠، ص ٦٧.

قصير بالقياس إلى معادلة الزمن الحقيقية عند الله، بل هو قصير بالفعل، والذي يدرس تاريخ الصراع بين الحق والباطل يصل إلى قناعة راسخة بهذه السنة الإلهية، تقول عائشة: «لما نزلت ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ لم يكن إلا قليل حتى كانت وقعة بدر»[1] التي أذل الله فيها المشركين، وقيل: «نزلت في المطعمين ببدر وهم عشرة، وقيل: نزلت في صناديد قريش والمستهزئين»[2]، وأضاف الزمخشري في الكشاف: «وكانوا أهل تنعم وترفه»[3]، وما ذلك إلا شاهد ومصداق لسنة الله في الحياة التي تمتد إلى الوراء من أعماق التاريخ وإلى الأمام إلى المستقبل البعيد.

[١٢-١٤] ويكشف لنا القرآن حجابا عن غيب ما أعد الله للمترفين المكذبين من عذاب أليم ومهين في الآخرة، يوم ترجف الأرض والجبال. ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴾ قال أهل اللغة: أنكال ونكول: «القيد الشديد من أي شيء كان، وحديدة اللجام»[4]، وقيل وهو الأقرب: «الصنيع الفظيع من العذاب الذي يخشاه من يراه ويحذر منه، وَنَكَّلَ به صنع به صنيعا يُحَذِّرُ غيره، ويجعله عبرة له»[5] ولعل الكلمة تحمل في طياتها معنى الشدة والانتقام والإذلال، والقيود والأغلال مظهر للتنكيل يرافقها عذاب الحريق بجهنم، وما يلقاه الإنسان في الآخرة من أنواع العذاب ليست مفروضة عليه وآتية من خارج القوانين والسنن الطبيعية، بل هي من صنع يده، قدَّمها لنفسه، فالكذب الذي يمارسه في الدنيا يتحول إصرا ونارا عليه في الآخرة، وهكذا الغيبة والسرقة، والسباب، وأكل أموال الناس بالباطل.. كلها تصير أنكالا وجحيما ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي الطعام الذي لا يتهنأ الآكلون بأكله ولا طعمه ولا رائحته، بل يصعب عليهم مضغه وبلعه لما فيه من العذاب وأسباب الأذى. قال أكثر المفسرين: «إن به شوكا، وقيل: لشدة خشونته»، وأوّله الزمخشري والرازي على أنه شجرة الزقوم، وبهذا عبر صاحب الكشاف: «الذي لا يساغ يعني الضريع وشجر الزقوم»[6]. ومن أنواع العذاب المذكورة في الآيتين يتبين لنا أنها تأتي نقيضا لما هم فيه من النعمة والراحة في الدنيا جزاءً لتكذيبهم، وعدم شكرهم ربهم عليها.

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ أي: «تتحرك باضطراب شديد، وترجف الجبال معها

(١) الدر المنثور: ج٦، ص٢٧٩.
(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٨١.
(٣) الكشاف: ج٤، ص٦٤٠.
(٤) المنجد: مادة نكل.
(٥) المنجد: مادة نكل.
(٦) الكشاف: ج٤، ص٦٤٠.

أيضا، وتضطرب بمن عليها»[1]، من هول ذلك اليوم، الأمر الذي يكشف عن عظمة الموقف ومدى رهبته، فما بالك بهذا الإنسان الضعيف في يوم أحداثه ترجف بالأرض والجبال؟! إنه يكون أدنى من ريشة في ريح عاصف يتقاذفها التيار الكاسح. إن تصور هذا الموقف والحضور عند هذه الحقيقة بالقلب يكفي وسيلة يقتلع الإنسان بها جذور الغرور بنفسه وقدرته في شخصيته، واتكاله على الدنيا وما فيها، ويتعرف عن طريقها على ربه وقدرته المطلقة، فيؤمن به وبرسالته بدل التكذيب كما هو شأن أولي النعمة المبطرين بها. إن الجبال الراسية والمتماسكة تستحيل يومئذ كذرات الرمل نتيجة الرجف الشديد المتتالي الذي تتعرض له ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ قال القمي: «مثل الرمل»[2]، وفي مجمع البيان: «أي رملًا سائلًا متناثراً عن ابن عباس، وقيل: المهيل الذي إذا وطأته القدم زَلَّ من تحتها، وإذا أخذت أسفله انهار أعلاه»[3]، وفي اللغة: انكثب الرمل: «اجتمع وانتشر بعضه فوق بعض»، وكل ما انصب في شيء فقد انكث فيه، والمهيل الذي يهال فيقع بعضه على بعض، يقال: أهال التراب: إذا هَدَّه من أساسه فانهار على بعضه منتثرا، ويسمى التراب الناعم الذي تجمعه الرياح في الصحراء كثيبًا، وجمعه كُثبان، ومن خصائصه أنه سريع وسهل الانهيار والانتشار والتطاير في الهواء. وإذا كانت الجبال الصخرية الراسية تستحيل كثيبا مهيلا فما بال الإنسان الضعيف عندما ترجف به الأرض؟ ولماذا يتحدى قدرة ربه؟!.

والعلاقة بين سياق السورة عن قيام الليل وبين الحديث عن مشاهد عذاب الآخرة هذه أن الخوف من أهوال ذلك اليوم يدفع المؤمنين إلى السعي من أجل الخلاص، ومن ثم ينفخ فيهم روح القيام بالليل. وإنها حقًا لَتَقُضُّ مضجع كل ذي لب وضمير حيين، إذ كيف تنام عينه وهو مطالب باقتحام هذه العقبات، وتجاوز أهوالها بنجاح؟!.

وثمة علاقة بين أمر الله للرسول ﷺ بالصبر على ما يقوله المكذبون وبين كلامه عما أعد لهم من العذاب ؛ وهي: أن عدم التصبر (الاستعجال) إنما يندفع إليه الإنسان بهدف الانتقام ورد الفعل، والمؤمن يصبر ولا يتعجل لأنه لا يخاف الفوت، ويعلم أن سوف يأتي اليوم الذي ينتقم الله (وكيله) له من أعدائه.

[١٥-١٩] وإلى جانب التحذير من عذاب الآخرة يحذر الله المترفين وغيرهم من عواقب التكذيب التي تنتظرهم في الدنيا، وذلك من خلال التذكير بالسنن الثابتة في الحياة ومصير

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٨٢.
(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٣٩٢.
(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٨٢.

إحدى الأمم التي عصت رسولها فأهلك الله أهلها وأخذهم أخذا وبيلا ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ أي يقوم بالشهادة الحقة فيكم، ويجسد القيم الإلهية، مما يجعله ميزانا لمعرفة الحق والباطل، وأسوة لمن أراد الهداية إلى الصراط المستقيم. وقد ذكر الله قوم فرعون لأن وجوه التشابه بين واقع أولئك والواقع الذي عاصره الرسول كثيرة، ومن أبرزها: أن المترفين هم الذين يمثلون جبهة الباطل في الصراع في كلا المقطعين التاريخيين. وكما أن لله سنة ماضية في حياة المجتمعات في إرسال الرسل في الأمم بعد الأمم، والأجيال بعد الأجيال، فإنه -عز وجل- جعل سنة الجزاء لا تنفك عنها أبدا، فإذا ما استجابت الأقوام لقيادة الرسول وقيم الرسالة جُزيت خيرا وسعادة في الدنيا والآخرة، أما إذا عصت وكذبت فستعرِّض نفسها للانتقام وسوء العذاب، كقوم فرعون الذين عصوا رسولهم موسى عليه السلام فأُغرقوا وأهلكوا.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي أخذا شديدا منكرا، وفي الآية تحذير للمشركين ولأمة محمد صلى الله عليه وآله من معصيته، وتلويح بأن سنة الآخذ ليست منحصرة في زمان دون آخر، ولا في قوم دون غيرهم. وإذ يذكِّرنا القرآن بصورة من الانتقام الإلهي في التاريخ فلكي يسد بابا من أبواب الشيطان الذي يوغل بالإنسان من خلاله في الانحراف والضلال البعيد، حيث يهمز في أذنه وفكره: أن الله رحيم بعباده، ويستحيل أن يعذبهم في الآخرة، وأن هذه الوعود ليست إلا لمجرد التخويف لا أكثر.. ولهذا يوجه الله الخطاب مباشرة لمعاصري الرسول ورسالة الإسلام بأنكم لا تستطيعون الهروب من سطوات الله إذا أراد الانتقام:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ وذلك لشدة أهواله ورهبة مشاهده، قال القمي: «تشيب الولدان من الفزع حيث يسمعون الصيحة»[1]، وفي الدر المنثور عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «**إِذَا كَانَ يَومُ القِيَامَةِ فَإِنَّ رَبَّنَا يَدْعُو آدَمَ فَيَقُولُ: يَا آدَمُ! أَخرِجْ بَعْثَ النَّارِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ لا عِلْمَ لِي إِلَّا مَا عَلَّمْتَنِي: فَيَقُولُ الله: أَخرِجْ بَعْثَ النَّارِ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ يُسَاقُونَ إِلَى النَّارِ سَوْقًا مُقَرَّنِينَ كَالِحِينَ، فَإِذَا خَرَجَ بَعْثُ النَّارِ شَابَ كُلُّ وَلِيدٍ**»[2]، وفيه عن ابن عباس: فاشتد ذلك على المسلمين، فقال حين أبصر ذلك في وجوههم: «**إِنَّ بَنِي آدَمَ كَثِيرٌ، وَإِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِنْ وِلْدِ آدَمَ، وَإِنَّهُ لَا يَمُوتُ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى يَرِثُهُ لِصُلْبِهِ أَلْفُ رَجُلٍ فَفِيهِمْ وَأَشْبَاهِهِمْ جُنْدٌ لَكُم**»[3]، وقد حذر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام من ذلك اليوم فقال: «**احْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ الأَعْمَالُ ويَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزَالُ وتَشِيبُ فِيهِ الأَطْفَالُ**»[4]،

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٩٣.

(٢) الدر المنثور: ج٦، ص٢٧٩، صحيح البخاري: ج٤، ص١٠٩.

(٣) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٨٤.

(٤) نهج البلاغة خطبة: ١٥٧.

وكيف لا يشيب الوليد من أهواله وهو اليوم الذي يفصل الله فيه بين الخلائق ويقرر مصائرهم، فمن صائر إلى الجنة ومن صائر إلى النار خالدين فيها أبدا.

بلى إنه يوم عظيم، بل هو أعظم يوم في وجود العالمين إنسا وجِنًّا، وكيف لا يسرع الشيب إلى من يقف بين يدي جبار السماوات والأرض ينتظر المسير إلى مصيره الأبدي، وبالذات أولئك المجرمون الذي سوَّدوا صحائفهم بالسيئات والفواحش، وبعدهم المذنبون، أما المؤمنون والمتقون فإنهم في مأمن من رحمة الله، بل هو يوم سعادتهم وفرحتهم العظمى. أوَليسوا يلتقون حبيبهم وسيدهم رب العالمين؟.

والشيب: «ليس كناية عن الشدة والمحنة»(١) وحسب، بل لعله حقيقة مادية تقع يوم القيامة، حيث إن حوادث ذلك اليوم الفظيع أعظم من قدرة احتمال جسد الإنسان، ولولا أن الله لم يقدر عليهم الموت لكانت كل حادثة منها تقضي عليهم جميعا.

إن حوادث ذلك اليوم لا تنعكس فقط على الإنسان بل على الطبيعة الصامتة أيضا، فتأخذ الرجفة الأرض والجبال لرهبة الموقف، وهكذا تشقق السماء ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ وليس في حدوث هذا اليوم شك وتردد، لأنه مما وعده الله الوفي المقتدر، وهذا ما يجعل التعبير عن وقائع القيامة يأتي بصيغة الماضي في الأغلب وكأنها وقعت ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ إذن فالأمر ليس كما يتمنى الإنسان، ولا كما يضله الشيطان الغرور بأن وعوده تعالى للتخويف فقط، كلا.. فوعود الله صادقة وواقعة لا محالة، ولا بأس أن نشير هنا إلى أن بعض الفلسفات المادية ذهبت في الضلال بعيدا حينما زعمت أن الآخرة لا واقع لها، وإنما طرحتها الفلسفات الدينية لكي تكون عاملا في توجيه أتباعها نحو التقيد بمبادئها لا غير! وهذه الآية الكريمة ترد ردًّا حاسما وناسفا على هذه الظنون والمزاعم الخاطئة بالتأكيد على أن وعد الله مفعول قطعا.

ثم يقول الله مشيرا إلى ما تقدم من بيان الآيات الكريمة ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ تذكّر الإنسان بالحق، وتثير فيه العقل وكوامن الخير التي تهديه إلى رب العزة وترسم له الصراط المستقيم والنهج القويم إليه سبحانه.. فدور التذكرة إذن هو بيان الخطوط العامة، ورسم معالم الطريق للإنسان، لا فرض خيار معين كُرْهًا، لأن الاختيار من خصائص الإنسان نفسه، فهو الذي يريد الحق والباطل أو لا يريد ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ قال الفخر الرازي: «إن التذكرة ما تقدم من السورة كلها، واتخاذ السبيل عبارة عن الاشتغال بالطاعة، والاحتراز عن المعصية»(٢)، واختار صاحب الميزان تعميم التذكرة على كل ما سبق، وخص صلاة الليل

(١) راجع التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٨٤.
(٢) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٨٥.

«بالسبيل، لأنها تهدي العبد إلى ربه»[١]، والأصح: أن السبيل عموم الصراط المستقيم الموصل إلى رضوان الله، وقيام الليل خطوات فيه، إلا أن أبرز مصاديق السبيل القِيَم الإلهية، وأظهرها القرآن، والقيادة الرسالية، ومصداقها الرسول الأعظم ﷺ وأئمة الهدى عليهم السلام كما جاء في دعاء الندبة: «ثُمَّ جَعَلْتَ أَجْرَ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَوَدَّتَهُمْ فِي كِتَابِكَ فَقُلْتَ: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وَقُلْتَ: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ وَقُلْتَ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فَكَانُوا هُمُ السَّبِيلَ إِلَيْكَ وَالْمَسْلَكَ إِلَى رِضْوَانِكَ»[٢].

[٢٠] وفي ختام السورة يعود القرآن للحديث عن قيام الليل، بالإشارة إلى برنامج القيام عند الرعيل الأول وبالذات عند أسوة المؤمنين وسيدهم حبيب الله النبي محمد ﷺ وببيان سماحة دين الإسلام وواقعيته، حيث يعتبر الظروف الحقيقية عاملا مؤثرا في التشريع، بحيث يرتفع التكليف بقيام الليل عن ذوي الأعذار المشروعة بصورة تامة، أو يخفف إلى حد الاكتفاء بقراءة ما يتيسر من القرآن، وممارسة مجموعة من الواجبات العامة التي من بينها الصلاة والزكاة والإنفاق والاستغفار.

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ ﴾ أي أقل من الثلثين، وأكثر من النصف بعض الأحيان ﴿وَنِصْفَهُۥ﴾ أحيانا أخرى ﴿وَثُلُثَهُۥ﴾ أحيانا.. وهذا يعني أنه ﷺ يطبق أمر الله بقيام الليل، والذي مر بيانه في الآيات: (٢-٤). وللآية واحدة من دلالتين:

الأولى: أن رسول الله ﷺ كان يقوم كل ليلة باختلاف في مدة القيام بين ليلة وأخرى، فمرة يقوم أقل من الثلثين، وثانية يقوم النصف، وثالثة الثلث.

الثانية: أنه ﷺ كان ينهض لقيام الليل ثلاث مرات يستريح بينها، كل ليلة (أدنى من الثلثين، ومنتصف الليل، وثلثه).

وهناك رواية تشير إلى الاحتمال الثاني ذكرها العلامة الطوسي في التهذيب: قال الإمام الصادق عليه السلام -وقد ذكر صَلَاةَ النَّبِيِّ ﷺ-: «كَانَ يُؤْتَى بِطَهُورٍ فَيُخَمَّرُ (أي يغطى بخمار) عِنْدَ رَأْسِهِ وَيُوضَعُ سِوَاكُهُ تَحْتَ فِرَاشِهِ ثُمَّ يَنَامُ مَا شَاءَ الله فَإِذَا اسْتَيْقَظَ جَلَسَ ثُمَّ قَلَّبَ بَصَرَهُ فِي السَّمَاءِ ثُمَّ تَلَا الآيَاتِ مِنْ آلِ عِمْرَانَ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ﴾ الآيَةَ، ثُمَّ يَسْتَنُّ (أي يعمل بسنة السواك) وَيَتَطَهَّرُ، ثُمَّ يَقُومُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ عَلَى

---

(١) تفسير الميزان: ج٢٠، ص٦٩.

(٢) بحار الأنوار: ج٩٩، ص١٠٤.

قَدْرِ قِرَاءَتِهِ رُكُوعُهُ وسُجُودُهُ عَلَى قَدْرِ رُكُوعِهِ، يَرْكَعُ حَتَّى يُقَالَ: مَتَى يَرْفَعُ رَأْسَهُ؟ ويَسْجُدُ حَتَّى يُقَالَ: مَتَى يَرْفَعُ رَأْسَهُ؟ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى فِرَاشِهِ فَيَنَامُ مَا شَاءَ الله ثُمَّ يَسْتَيْقِظُ فَيَجْلِسُ فَيَتْلُو الْآيَاتِ مِنْ آلِ عِمْرَانَ ويَقْلِبُ بَصَرَهُ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يَسْتَنُّ ويَتَطَهَّرُ ويَقُومُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيُصَلِّي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ كَمَا رَكَعَ قَبْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى فِرَاشِهِ فَيَنَامُ مَا شَاءَ الله ثُمَّ يَسْتَيْقِظُ فَيَجْلِسُ فَيَتْلُو الْآيَاتِ مِنْ آلِ عِمْرَانَ ويَقْلِبُ بَصَرَهُ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ يَسْتَنُّ ويَتَطَهَّرُ ويَقُومُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيُوتِرُ (يصلي الوتر) ويُصَلِّي الرَّكْعَتَيْنِ (يعني ركعتي الشفع أو نافلة الفجر) ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى الصَّلَاةِ»[١].

وعلى خطا الرسول ﷺ كان خُلَّص أصحابه من الرعيل الأول يقومون الليل كما يقومه النبي ﷺ تأسيا به، إذ جعله الله أسوة المؤمنين، وكأن الآية تبين معنى المعية بأنها ليست مجرد الزعم، ولا الانتماء الديني والاجتماعي الظاهر لقيادة الرسول وخطه، بل الصحبة الحقيقية تتمثل في الاتباع العملي لقيادته ورسالته ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ ونحن الأجيال الحاضرة إذا فاتتنا صحبة النبي ﷺ بالأبدان ومعيته فإننا نستطيع أن نكون معه باقتفاء أثره، ومن أثره جهاده وقيامه بالليل، قال الحسكاني: «﴿ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ علي وأبو ذر»[٢].

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ قال صاحب المجمع: «أي يقدر أوقاتها لتعملوا فيها على ما يأمركم به، وقيل: لا يفوته علم ما تفعلون، والمراد: أنه يعلم مقادير الليل والنهار، فيعلم القدر الذي تقومونه من الليل»[٣]، ولعل في التقدير إشارة إلى اختلاف الليالي والأيام في الجانب الزمني، حيث تطول وتقصر، وربنا هو الذي يُعيِّن المقادير المختلفة. ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ وفي معنى الإحصاء قولان:

الأول: الظاهر أي لن تعدوه.

الثاني: لن تطيقوا قيامه، وهو الأقرب بدلالة السياق، حيث يجري الحديث مباشرة عن التوبة والتخفيف، وحيث يشير القرآن إلى جانب من الأعذار المشروعة التي تُعيق عن قيام الليل بصورته الأولية.. قال مقاتل: «كان الرجل يصلي الليل كله مخافة ألَّا يصيب ما أُمِرَ به من القيام، فقال سبحانه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي لا تطيقون معرفة ذلك»، وقال الحسن: «قاموا حتى انتفخت أقدامهم، فقال سبحانه: إنكم لا تطيقون إحصاءه على الحقيقة»، وقيل معناه: «لن تطيقوا المداومة على قيام الليل، ويقع منكم التقصير فيه»[٤]. ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أي رحمكم

---

(١) تهذيب الأحكام: ج٢، ص٣٣٤.
(٢) تفسير البصائر: ج٥٠، ص١٣٢، شواهد التنزيل: ج٢، ص٣٨٧.
(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٨٣.
(٤) مجمع البيان: ج١٠ ص٤٨٣.

وتلطف بكم، لأن من تاب الله عليه فقد رحمه. وإذا أخذنا بالمعنى الأصيل للتوبة وهو الرجوع فإن المعنى يكون: إنه تعالى بدا له أمر فعاد لكم وحيه بحكم آخر غير الحكم الأول الذي يقتضي قيام الليل كله إلا قليلا، أو الذي كان القيام فيه واجبا لا مستحبا[١].

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ وتأكيد الله على قراءة القرآن يهدينا إلى عظمته، وأن تلاوته وتدبر معانيه روح قيام الليل ومن أهم أهدافه، حيث يعود الإنسان إلى كلام ربه وعهده إليه، فيستلهم منه بصائر الحق، ومناهج حياته في كل بعد وجانب. إن غاية قيام الليل هي تكامل الإنسان، تكاملا روحيًا بالتهجد والتبتل والصلاة، وتكاملا عقليًا بالتفكر في خلق الله وتدبر آيات قرآنه.. نعم. إن الظروف قد لا تسمح بقيام الليل على صورته الأولية، ولكن لا ينبغي للمؤمن أن يترك قراءة القرآن على أية حال، ولو قراءة ما تيسر منه. فما معنى قول الله: ﴿مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ [المزمل: ٢٠]؟.

لقد اختلف المفسرون والقراء في القدر الذي تضمنه هذا الأمر من القراءة، فقال سعيد بن جبير: خمسين آية، وقال ابن عباس: مائة آية، وقال السدي: «مائتا آية، وقال جويبر: ثلث القرآن لأن الله يسره على عباده»[٢] إشارة لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾[القمر: ١٧]، وليس بين الأقوال الأربعة تناقض، لأن ما تيسر هو ما يجده القارئ يسيرا على نفسه، سواء كان آية واحدة أو القرآن كله، وإن كانت الكلمة في ظاهرها إشارة إلى القليل، وقد ذهب البعض بعيدا حينما فسروا الآية بالصلاة وقال معناه: «فصلوا ما تيسر من الصلاة، وعبَّر عن الصلاة بالقرآن لأنها تتضمنه»[٣].

ويجدر التساؤل عن السبب في التيسير بعد التشدد في منهجية التشريع الإسلامي، الأمر الذي يكاد يصبح ظاهرة في أحكام الله لكثرة شواهده، فقد فرض الله على المؤمنين تقديم صدقة بين يدي نجواهم الرسول[٤] ثم ألغيت الصدقة، وحَرَّم عليهم مقاربة أزواجهم حتى ليالي الصيام ثم أحلها[٥]، وفي الجهاد فرضه واجبا إذا كانت نسبة المؤمنين إلى أعدائهم تعادل واحدا إلى عشرة، أي أنهم يجب عليهم الجهاد وخوض الحرب إذا كانوا مائة وكان العدو ألفا، ثم

(١) مع أنه لا توجد روايات صريحة بأن قيام الليل كان واجبًا شرعيًا على المسلمين في أول الدعوة، إلا أنه محتمل، أو هكذا استقبلوه ثم تبين لهم غير ذلك.

(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٨٤.

(٣) نقل هذا القول صاحب مجمع البيان: ج١٠، ص٤٨٤ وبه قال صاحب الكشاف: ج٤، ص٦٤٣، والفخر الرازي: ج٣٠، ص١٨٧.

(٤) المجادلة: ١٢-١٣.

(٥) البقرة: ١٨٧.

خفف الحكم بنسبة واحد إلى اثنين[١]، ومثل ذلك أحكام عديدة والتي من بينها قيام الليل الذي نحن بصدد الكلام عنه.

إن هذه الظاهرة في التشريع الإسلامي تهدينا إلى أن إصلاح الإنسان -وبالذات في الانطلاقة- بحاجة إلى برنامج مركّز وصعب حتى يصلح نفسه إصلاحا جذريًا، كما المقاتل في دورته العسكرية الأولى، فإذا ما استمر قطاره على السكة يُخَفَّف عنه، وهذه منهجية الإسلام في بناء أفراده ومجتمعه، وإذا صح هذا التحليل فإننا يجب أن نستفيد من ذلك في حياتنا ومسيرتنا، ففي بداية التغيير ينبغي أن تؤخذ الأمة بالشدة حتى تذوب في بوتقة الإيمان والعمل الرسالي، ثم يأتي دور التخفيف عنها شيئا ما.

ويلفتنا القرآن إلى خصيصة تشريعية في الإسلام وهي واقعيته، وأخذه ظروف المشرَّع له بعين الاعتبار، فهو ليس نظامًا قسريًا، بل تشريعًا واقعيًا مرنًا، وذلك مما يؤكد حقانيته.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ يعيقهم مرضهم عن القيام، أو يجعله أمرا مكلفا. وهذه كناية عن المعوقات البدنية التي تصيب الإنسان بالضعف، ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ طلبا للرزق. والضرب في الأرض كناية عن التنقل والترحل والسعي الحثيث، وعلل الرازي تخفيف الفرض على هذا الفريق ومن يلونهم (المقاتلين في سبيل الله) قائلا: «وأما المسافرون والمجاهدون فهم مشتغلون في النهار بالأعمال الشاقة، فلو لم يناموا في الليل لتوالت أسباب المشقة عليهم»[٢]. ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إعلاء لكلمته، وإنفاذا لأمره، وتحكيما لشرعه، ودفاعا عن ثغور المسلمين ،وهؤلاء لا شك لهم من الأجر الشيء العظيم، ولعمري إن جهادهم بمثابة قيام الليل أجرا وقدرا عند الله ؛ لأنهم لولا جهادهم وقتالهم لكان الأمر كما حكى الله تعالى: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾[الحج: ٤٠]. قال الفخر الرازي: «ومن لطائف هذه الآية أنه تعالى سَوَّى بين المجاهدين والمسافرين للكسب الحلال»[٣]، وهذا يؤيد قول رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا رَجُلٍ جَلَبَ شَيْئًا إِلَى مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ الْمُسْلِمِينَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا فَبَاعَهُ بِسِعْرِ يَوْمِهِ كَانَ عِنْدَ اللهِ مِنَ الشُّهَدَاءِ»[٤]، وهو تأكيد لقول الإمام الصادق عليه السلام: «الْكَادُّ عَلَىٰ عِيَالِهِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ»[٥]، ويؤكد الله مرة أخرى أمره بتلاوة القرآن. ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ ولو بضع آيات، المهم

(١) الأنفال: ٦٥-٦٦.
(٢) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٨٧.
(٣) المصدر السابق: ص١٨٧.
(٤) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٨٧.
(٥) الكافي: ج٥، ص٨٨.

أَلَّا يترك المؤمن رسالة ربه، لأنه قد يستغني عن قيام الليل ولكنه لا يستغني عن بصائر الوحي في حياته مهما كانت الظروف. ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بممارسة شعائرها وفروضها، وحقيقيّاً بالتزام مضامينها، وتحقيق أهدافها على الصعيد الشخصي وفي المجتمع. ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ كناية عن كل إنفاق واجب، يزكي المؤمن نفسه وماله بإعطائه. ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو كل إنفاق مستحب في سبيل الله[1] الذي لا يضيع عنده عمل عامل أبدا.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا والآخرة. وفي الآية إشارة ليس إلى العمل الصالح الذي يمهد للمؤمنين آخرتهم وحسب، بل إن كثيرا من التوفيقات والبركات التي ينالها الإنسان في الدنيا، وهكذا المكاره التي تدفع عنه، ليست إلا نتائج قائمة على مقدمات سابقة بادر إليها، والتي من بينها الإنفاق في سبيل الله، فالمكروه الذي يرتفع عن المتصدق إنما ترفعه صدقته التي قدمها قبل حدوثه.. فالمنفق في حقيقة الأمر يقدم بإنفاقه خيرا لنفسه ﴿هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ حيث يتضاعف خيره وأجره بفضل الله تعالى، وكيف لا يتضاعف والمجازي رب المحسنين؟! بلى؛ إن الصدقة القليلة لا ينحصر خيرها وأجرها في الدنيا، بدفع الشر عن صاحبها، وجلب البركة والتوفيق إليه، بل يمتد إلى الآخرة أيضا، فإذا بالدرهم الواحد يستحيل جنة عالية وحورا ونعيما لا ينقطع، بل يضاعفه الله يوما بعد يوم.

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ هناك قال وقد خفف حكم قيام الليل: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ وهنا يأمر المؤمنين بالاستغفار، مما يوحي لهم بأن ترك القيام بالليل غير محمود عند ربهم في حال وجود العذر، فكيف بتركه دونه؟! كما يثير في أنفسهم الشعور بالتقصير، ومن ثم يدفعهم للمزيد من السعي والعمل الصالح والتقرب إليه بالاستغفار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذه الخاتمة تملأ القلوب أملا وطمعا في غفرانه ورحمته تعالى، حيث أمرهم بالاستغفار، وأكد إليهم أنه الغفور الرحيم، وكأن الخاتمة ضمانة بالإجابة بعد الأمر المتقدم بالاستغفار، ولعل القرآن يريد أن يقول لنا إن أداء المؤمن للفروض الواجبة - كإقامة الصلاة والزكاة والإنفاق- ينبغي أَلَّا يشحنه بالغرور وشعور الاكتفاء، فيقتصر على ذلك من دون المستحبات المشرَّعة في الدين ومن بينها قيام الليل.

---

(١) لقد مر تفصيل في معنى القرض الحسن في سورة الحديد، آية: ١١ فراجع.

سورة المدّثّر

* مكية.

* عدد آياتها: ٥٦.

* ترتيبها النزولي: ٤.

* ترتيبها في المصحف: ٧٤.

* نزلت بعد سورة المدثر.

فضل السورة

عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ فِي الْفَرِيضَةِ سُورَةَ الْمُدَّثِّرِ كَانَ حَقّاً عَلَى الله عَزَّ وجَلَّ أَنْ يَجْعَلَهُ مَعَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فِي دَرَجَتِهِ ولَا يُدْرِكُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا شَقَاءٌ أَبَداً إِنْ شَاءَ الله».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص١٤٨)

الإطار العام

الإنسان؛ حاضر ومستقبل، سعي ومصير

بعد أن يستنهض الوحي النبي المدثر لتحمل أعباء الرسالة بالإنذار، وتكبير الله، وتطهير ثيابه من كل نجاسة مادية ومعنوية، ومقاطعة الرجز بالهجران، ينهاه عن المنة على الله لأنها تقطع الخير، ويأمره بالصبر له بوصفه ضرورة تفرض نفسها على كل داعية حق وحامل رسالة. أوليس يريد الثورة على الواقع المنحرف والمتخلف؟ إذن يجب أن يتوقع الكثير من المشاكل والضغوط المضادة في هذا الطريق، وعليه يجب أن يتحمل ويصبر شرطًا للاستقامة وتحقيق الهدف (الآيات: ١-٧).

ولأن المؤمن يؤلمه تسلط الطغاة والمنحرفين من قوى سياسية واقتصادية واجتماعية وعسكرية، وبالتالي يستعجل لهم الهلاك والجزاء، فإن القرآن يسكّن ألمه هذا بتوجيهنا إلى يوم القيامة حيث الانتقام الأعظم من أعداء الرسالة والمؤمنين، إذ ينقر في الناقور إيذانا ببدء يوم عسير لا يُسْرَ فيه على الكافرين وأشباههم، يلاقون فيه ألوانا من العذاب الخالد الذي لا يطاق.. وأنى يطيق المخلوق الضعيف انتقام رب العزة؟! (الآيات: ٨-١٠).

وهكذا نهتدي إلى أن محور السورة -فيما يبدو لي- صراع الرسول مع مراكز القوة التي لا بد أن يتحداها بكل اقتدار.

ويعالج السياق طائفة من الأفكار الخاطئة التي يتشبث بها المتسلطون والمترفون لدعم مواقعهم القيادية، منها الزعم أنه لولا رضا الله عنهم لما أوسع عليهم نعمة.

إذن فما في يد الكفار والطغاة من نعيم ليس دليلا على حب الله لهم، ولا على صحة منهجهم في الحياة.. بلى؛ إن عندهم مالا ممدودا، وأتباعا كثيرين وأبناء، وممهدة لهم وسائل العيش الرغيد، الذي لا يشبعون منه، بل يطمعون في زيادته.. ولكنهم ضالون عن الصراط

السوي، جاحدون لآيات الله.. وبالتالي مستحقون لعذابه وانتقامه، والمقياس السليم للتقييم ليس المادة، بل القيم، وليس الدنيا بل الآخرة، والمترفون على عناد مع قيم الحق، وخاسرون في الآخرة، فهنالك لا يبقى لهم نعيم ولا أنصار، ولا مقام احترام كما هم في الدنيا، بل يتبدل واقعهم إلى قطع من العذاب الأليم والمهين، وتصبح كل نعمة أعطيت لهم وبالا عليهم حيث لم يؤدوا شكرها.. فهم أشد الناس عذابا لأنهم قد أملي لهم من فضل الله، ومن ألم ما يلقون عذابا الصعود المرهق (الآيات: ١١-١٧).

وليس إرهاقهم بالعذاب مجرد انتقام عبثي، بل هو انتقام متأسس على الحساب الدقيق والحكمة والعدل، فإنك حيث تحقق في سببه تجده منهجيتهم الخاطئة والضالة في الحياة، والتي ترتكز على التفكير المنحرف والتقديرات الخاطئة.. فإنها حقًا هي المسؤولية عما يحل بهم من اللعن والقتل والعذاب، فهم الذين عبسوا وبسروا ثم أدبروا واستكبروا، وكان هذا موقفهم من الحق قيما وقيادة وحزبا، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما رموا الحق بالتهم الرخيصة الباطلة، فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، وقالوا: بل هو من صنع البشر وليس رسالة من الله.. من دون دليل إلا للطعن فيه والتهرب من مسؤولية الإيمان، وإلا لتضليل الناس عن طريق الهدى وسبيل الرشاد (الآيات: ١٨-٢٥).

من هنا كان حقًّا أن يعذب الله الكفار المعاندين باعتبارهم يبارزون رب العزة ويحاربون الحق، وبالذات كبراؤهم والملأ المترفين منهم، كالحكام الطغاة، وأصحاب الثروة، وأدعياء العلم، ولذلك يتوعد الجبار واحدهم بأشد العذاب، ويؤكد ذلك لرسوله ﷺ وكل رسالي يقف على خط المواجهة وفي جبهة التحدي والصراع ضد الباطل بأنه سيصلي أعداءه وأعدائهم سقر، وهي أشد أقسام النار تلظِّيا وحرارة ورهبة بحيث لا يمكن لبشر أن يتصورها ويدري ما هي، إلا أن القرآن يشير إلى بعض صفاتها الرهيبة حيث إنها لا تبقي ولا تذر، لواحة للبشر.. ومنظر آخر مخيف منها يمثله ملائكة غلاظ شداد، النار نفسها فرقة منهم.

إنهم تسعة عشر.. هكذا يقول الله.. فأما المؤمنون فإنهم تقشعر جلودهم ثم تلين، وهكذا يزداد خوفهم وتقواهم لمجرد سماعهم قول رب العزة، لأن المهم عندهم حقيقة الأمر لا تفاصيله حتى يختلفون في ألوان أولئك النفر الموكلون بسقر من الملائكة، ولا في أحجامهم وأوزانهم وعددهم.. كما اختلف الكفار والذين في قلوبهم مرض، وفتنوا أنفسهم قائلين: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟! فضلوا عن الهدف والحكمة ألا وهي التذكرة (الآيات: ٢٦-٣١).

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ هكذا يقسم ربنا أقساما غليظة عظيمة مترادفة، ويؤكد أن القضية كبيرة ومشتملة على موعظة وإنذار عظيمين للبشر لو كانوا يعقلون..

بل إنها ركيزة أساسية وملحة للإنسان في مسيرته ومصيره، وذلك أن تقدمه (فردا وأمة) وكذلك تأخره رهين موقفه من حقائق هذه الذكرى الإلهية للبشر (الآيات: ٣٣-٣٧).

وفي سياق الحديث عن الآخرة وعذاب سقر ينعطف بنا القرآن إلى آية مهمة في سورة، بل في المنهجية الإسلامية بصورة عامة، وذلك حينما يربط بين مستقبل الإنسان وحاضره وبين سعيه ومصيره مؤكدا أنه المسؤول عن نفسه، فهو الذي بيده حبسها في العذاب كما بيده فك رهانها منه، والدخول بها إلى جنات الخلد والنعيم. ويضع الله الناس فردا فردا أمام حقيقة عظيمة ومهمة يجب أن يضعوها نصب أعينهم، ويتحركوا في الحياة على إيحاءاتها ومستلزماتها.. ألا وهي أن الأنفس كلها رهينة.. شهواتها وضلالها وقراراتها المنحرفة الخاطئة، إلا أن يعتصم البشر بحبل الإيمان ويتبع منهجه فيخلصها الله من سجنها الخطير، كما صنع ويصنع بأصحاب اليمين (الآيات: ٣٨-٣٩).

ومن خلال حوار قصصي يدور بين أصحاب الجنة والمجرمين - ينقله القرآن - تبصرنا الآيات الربانية بأهم ركائز الجريمة التي تؤدي إلى سقر والتي حذرنا ربنا منها، وبذلك يجيب القرآن عن سؤال يفرض نفسه على كل من يعرف حقيقة سقر، حيث يبحث عن النجاة من شرها، ويسعى لتجنب أسباب التورط فيها، وهي أربعة أساسية كما يقر المجرمون أنفسهم: (عدم كونهم من المصلين، وعدم إطعامهم المسكين، وخوضهم مع الخائضين، والتكذيب بالآخرة) وماذا يرتجى لمن يوافيه الأجل، ويلقى ربه على هذا الضلال البعيد والجريمة؟ (الآيات: ٤٠-٤٧).

ومن يتورط في الذنوب الأربعة الكبيرة التي مر ذكرها فإن مصيره النار لا محالة، لأنه لا عمل صالح عنده ينجيه من العذاب، ولن تدركه رحمة من الله وقد بارزه وحاربه، ولن يشفع له أحد، ولو استشفع له أحد -جدلا- فلن تنفعه شفاعة أبدا، لأن الشفاعة تنفع من تكون مسيرته العامة في الحياة مسيرة سليمة، ثم يرتكب بعض الذنوب والمعاصي.. وليس المجرمون كذلك (الآية: ٤٨).

وفي خاتمة السورة يستنكر القرآن على المجرمين (الكفار ومرضى القلوب) إعراضهم عن تذكرة الله لهم ورحمته المتمثلة في آيات وحيه الهادية، مع أنهم مستقبلون أمرا عظيما ونارا لا تبقي ولا تذر.. ولا خلاص لهم إلا بالإقبال على التذكرة، والعمل على ضوء بصائرها وهداها!! إنهم حقًّا يشبهون -حيث يعرضون عن آيات الله- قطيع حمر انقضَّ عليه ليث قسورة لا يدرون إلى أين يفرون منه، وما الحيلة للخلاص.. والحال أن آيات الله على عكس ذلك جاءت لتأخذ بأيديهم إلى ساحل الأمن والرحمة والسعادة، وأولى بهم أن يستقبلوها كما يستقبل الظمأى

والمجدبون غيث السماء.. ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ ولن يكون ذلك أبدا، ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ وهذا في الحقيقة -أعني الكفر بالآخرة وعدم حضورها في وعي الإنسان- أكبر عامل في الانحراف، وعدم الاهتمام بالتذكرة والتأثر بها (الآيات: ٤٩-٥٣).

ويرد القرآن على أباطيل المدبرين عنه والمستكبرين على الحق، الذين قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ ردًّا موضوعيًا حاسمًا في آيات ثلاث: (٥٤، ٥٥، ٥٦) تبين في الوقت نفسه دور القرآن بأنه التذكرة بالله وبالحق، وأن الإنسان مكلّف بالاستجابة لهداه، ولكنه غير مجبور على ذلك بل مخيّر، وإن كان توفيق التذكر والهداية لا يحصل ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ ومعرفة هذه الحقيقة أمر ضروري بالنسبة للإنسان، لأنها تحيي فيه روح التوكل على الله والتضرع إليه، وتبعده عن الغرور الناشئ من الاعتماد على الذات.

خلاصة القول: إن الموضوع الرئيسي في السورة هو: تصدي الرسول لمراكز القوى الجاهلية، ولكنها تعالج أيضا قضايا هامة أخرى وهي: أن الغنى والقدرة وسائر نعم الله مجرد ابتلاء، وليست دليلا على رضا الله عن أصحابها، وأن الإنسان رهن سعيه، وأن عليه هو أن يسعى نحو الهداية، وأنه لا يُكره عليها إكراها.

ولربك فاصبر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١)﴾.

هدى من الآيات:

في البداية تبين الآيات الكريمة أهم الصفات التي يجب توافرها في كل منذر يتصدى لهداية الناس وتغيير الواقع بالرسالة، وهي: تكبير الله وحده، وتطهير الثياب من كل دنس ونجاسة، ومقاطعة الرجز بكل أشكاله وصوره، وعدم المنة على الله، والصبر والاستقامة في

الطريق الشائك، فالمنذر الرسالي لا يكون منذرا إلا إذا تحلى بهذه الصفات اللازمة، وكذلك لا يمكنه تحقيق أهدافه (الهداية والتغيير) إلا بها (الآيات: ١-٧).

ثم تنذر الكفار بيوم عسير عليهم لا يسر فيه، يوم الانتقام، الذي يُشفي به الله صدور المؤمنين الذين يتذوقون مرارة الأذى منهم، وبالتالي يبعث فيهم روح الصبر والاستقامة (الآيات: ٨-١٠).

ومن هذا الوعيد العام لكل الكافرين ومرضى القلوب، يخص الله بوعيده أقطاب الضلال وأئمة الكفر.. بصيغة الإفراد.. وكأنه يهددهم واحدا واحدا بالذات، لا فرق بين من عاصر النبي منهم ومن يأتي بعدهم، مؤكدا أن ترفهم وما هم فيه من نعمة ليس دليلا على قربهم منه وسلامة منهجهم، كلا.. بل هو كيد عظيم ضدهم كما يأتوا في الآخرة ما لهم من خلاق ولا نصيب سوى العذاب الأليم، لأنهم جحدوا بالآيات وفكروا وقدروا فما أسوأ ما فكروا فيه وقدروا فأصيبت مقاتلهم، ودفعوا أنفسهم في نار سقر لا تبقي ولا تذر، عليها تسعة عشر من ملائكة الله الغلاظ الشداد (الآيات: ١١-٣١).

بينات من الآيات:

[١-٢] مع اختلاف الكلمتين (ٱلْمُزَّمِّلُ * ٱلْمُدَّثِّرُ) في معناهما، واستقلال السورتين في موضوعهما وسياقهما، إلا أن البعض خلط بينهما إلى حد التطابق في النصوص الواردة في أسباب التنزيل مما يضعف رواياتها عندي. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ لقد أجمع المفسرون على أن ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ هو رسول الله ﷺ سماه ربه بذلك، قال الكلبي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قَالَ قَالَ لِي: «كَمْ لِمُحَمَّدٍ اسم في القُرآنِ؟. قُلْتُ: اسْمَانِ أَوْ ثَلَاثٌ. فَقَالَ عليه السلام: يَا كَلْبِيُّ لَهُ عَشَرَةُ أَسْمَاء:

- ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾.
- ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾.
- ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.
- وَ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾،
- وَ﴿يس ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، و﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾،

- وَ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾، وَ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، وَ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١٠﴾ رَّسُولٗا﴾»[1]. ووقع الاختلاف في أنه ﷺ لم سُمِّي مدثرا، فمنهم من أَوّل الظاهر، ومنهم من بقي عليه، وتساءل: لماذا تدثر الرسول بثيابه؟.

قال جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**جَاوَرْتُ بِحِرَاءَ شَهْراً، فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي نَزَلْتُ فَاسْتَبْطَنْتُ الْوَادِيَ، فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ أَحَداً، ثُمَّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ** - يَعْنِي جَبْرَئِيل- **فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي دَثِّرُونِي فَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾»[2]، وفي الدر المنثور: «**فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاء عَلَى كُرسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَجِئْتُ رُعْبًا فَقُلْتُ:.. إلخ**»[3]. ونقل الفخر الرازي: «أن نفرا من قريش آذوا رسول الله ﷺ وهم: أبو جهل، وأبو لهب، وأبو سفيان، والوليد، والنضر بن الحرث، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل فقالوا: إن محمدا لساحر، فوقعت الضجة في الناس: إن محمدا ساحر، فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك اشتد عليه، ورجع إلى بيته محزونا، فتدثر بثوبه، فجاءه جبرائيل عليه السلام وأيقظه، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾»[4]، وضعَّف السيوطي ذلك: «في أسباب النزول»[5]. ولقد سبق النقد في سورة المزمل لأسباب النزول هذه لما فيها من إشارة إلى شك أصاب الرسول في رسالته، وضعف في الموقف قبالة ضغوط المشركين. بلى، قد يكون النبي ﷺ حين نزول هذه الآيات متدثرا لأسباب عادية.

ومن المفسرين من تَأَوَّل لكلمة المدثر غير ظاهرها فقال: «إن المراد كونه متدثرا بدثار النبوة والرسالة، من قولهم ألبسه الله لباس التقوى، وزيَّنه برداء العلم، ويقال: تَلَبَّس فلان بكذا»[6]، وقد نقل العلامة الطباطبائي هذا الرأي في تفسيره وقوَّاه، وقيل: «المراد به الاستراحة والفراغ، فكأنه قيل له: يا أيها المستريح الفارغ قد انقضى زمن الراحة، وأقبل زمن متاعب التكاليف وهداية الناس»[7]، وهو بعيد عما نعرفه من خُلُق الرسول الذي ما كان ليستريح ولا يني يجاهد لإعلاء كلمة الله قبل وبعد البعثة.

---

(١) بحار الأنوار: ١٦، ص١٠١.
(٢) بحار الأنوار: ج١٨، ص١٦٦.
(٣) الدر المنثور: ج ٦، ص٢٨٠.
(٤) التفسير الكبير: ج ٣٠، ص١٩٠.
(٥) أسباب النزول: ص٢٢٣.
(٦) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٩٠.
(٧) تفسير الميزان: ج ٢٠ ص٧٩-٨٠.

وفي اللغة: المُدَّثِّر: «المتفعل من الدثار، إلا أن التاء أدغمت في الدال لأنها من مخرجها، وهو المتغطي بالثياب عند النوم»[١]، «مع أن الدال أقوى بالجهر فيها»[٢]، يقال: «تَدَثَّر تَدَثُّرا، ودَثَّره تدثيرا، ودثر الرسم يدثر دثورا إذا محي أثره»[٣]، والقوي عندي في معنى المدثر ثلاثة آراء:

الأول: ظاهر الكلمة أي المتدثر بغطاء، فإن الوحي كان ينزل على رسول الله ﷺ في مختلف حالاته، راكبا وراجلا، ونائما ويقظا وهكذا.

الثاني: المتدثر بدثار النبوة، وقد بَيَّنَّا ما يشبه ذلك في تفسير الآية الأولى من سورة المزمل.

الثالث: المتكتم والمتخفي، وإنما سمي الدثار دثارا لأنه يخفي النائم، من باب دثرت المعالم إذا انمحت واختفت، وعليه يحتمل أن تكون سورة المدثر فاتحة المرحلة العلنية من الدعوة الإسلامية، التي مرت في بدايتها بظروف السرية والكتمان.. وإذا صح هذا الرأي قد نكون وصلنا إلى حل للاختلاف بين المفسرين في أنه هل (العلق) هي أول ما نزل من القرآن أم سورة المدثر؟ حيث يوصلنا هذا الرأي إلى أن (العلق) هي أول سورة نزلت على الإطلاق، أما (المدثر) فهي أول إيذان بإعلان الدعوة من الله.

﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ قال الرازي: «في قوله: ﴿قُمْ﴾ وجهان: قم من مضجعك، وقم قيام عزم وتصميم»[٤]. ويتسع المعنى لقيام الجهاد والتغيير والثورة لوصفه تعالى المتقاعسين والساكتين بالقاعدين في قوله: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥]، وهكذا في مواضع أخرى من القرآن[٥]. والإنذار والتحذير من عواقب الضلال والانحراف إنه من أهم أهداف الحركة الرسالية الأصيلة ومنطلقاتها، لأنه يعكس في الحقيقة تحسس الطلائع للواقع الفاسد، ومن ثم تحركهم للتغيير إيمانا بالمسؤولية الربانية.

بلى؛ قد يكون الإنسان نفسه على الطريق السوي، ولكن مسؤوليته شاملة لا تنحصر في ذاته وحسب، بل هو بوصفه فردًا من المجتمع مسؤول عن واقعه، ليس من زاوية إنسانية ودينية فقط بل من زاوية واقعية أيضا، فإن تخلف مجتمعه وأمته يؤثر عليه شاء أم أبى، وإن

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٨٦.
(٢) التبيان: ج١٠، ص١٧٦.
(٣) التبيان: ج١٠، ص١٧٦.
(٤) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٩٠.
(٥) المائدة: ٢٤، التوبة: ٤٦-٨٦.

القوانين والسنن الجزائية تطال الجميع دون استثناء ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥]. ولا ريب أن نشر القيم الصالحة، وتوعية المجتمع، ومن ثم تغيير مسيرته نحو الصواب، يجعل الإنسان أقرب إلى أهدافه، وأقدر على بلوغها بصورة أسرع وأفضل حيث يتحرك في محيط صالح ممهد للنهضة والتقدم.

ومن الناس من يتوانى عن أداء مسؤوليته الاجتماعية، ويتعلل بفهمه الخاطئ لقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[المائدة: ١٠٥] ويزعم أنه يأمر بالتقاعس والتساهل إزاء تخلف المجتمع وانحرافه، كلا.. أليس الظاهر القرآني حجة؟ أوليس هذا القرآن ينادي فينا بالقيام والنهضة للتغيير؟ أوليس القرآن رسالة الله إلى كل إنسان مكلف؟ أوليس الرسول ﷺ أسوة حسنة لنا جميعا.. فقد قام وأنذر وأصلح بذلك مجتمعه وأسس حضارة الإسلام؟.

إن الطلاق بين الأمة ورسالتها، وتقليد الشرق والغرب، وسبات العقل، وحالة الفردية والتفرق، والجهل، والقعود عن الجهاد في سبيل الله و.. كلها خطوات نحو أسوء العواقب، ويجب علينا أن ننذر أنفسنا وأمتنا من مخاطرها، وأعظم ما ينبغي التحذير منه هو نسيان الله عز وجل فإنه لما كان لا مخافة أشد من الخوف من عقاب الله كان الإنذار منه أَجَلَّ الإنذار، كما يقول شيخ الطائفة[1]. وعلّق صاحب الميزان على أمر الله للنبي بالإنذار فقال: «والتقدير: أنذر عشيرتك الأقربين لمناسبة ابتداء الدعوة كما ورد في سورة الشعراء»[2]، والأقرب إطلاق الإنذار، لأن التخصيص لا دليل عليه، مع أن سياق السورة وَجوَّها العام يوحيان بأن الإنذار موجه إلى الكفار جميعا، وهكذا يجب إنذار جميع الناس على كل مسلم.

[٣-٧] وبعد الأمر الإلهي بالقيام والإنذار يبين القرآن أهم الصفات التي يجب توافرها في المنذر، حتى يكون عند الله منذرا بتمام المعنى، ولكي تثمر جهوده ومساعيه.. فليس المهم أن ينهض الواحد للجهاد والتغيير وحسب، بل الأهم أن يؤدي دوره على الوجه الصحيح والأكمل، وذلك بالتزامه بخمس صفات في شخصيته ومسيرته:

الأولى: تكبير الله

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ إن المؤمن حينما يقوم منذرا لله يواجه في طريقه عشرات العقبات النفسية والتحديات الاجتماعية، كما يواجه القوى المضادة اقتصادية وسياسية واجتماعية، وواجبه

(١) التبيان: ج١٠، ص١٧١.
(٢) تفسير الميزان: ج٢٠، ص٨٠.

تحديها ورفض الخضوع لها، إلا أنه يجد نفسه عادة أمام أحد خيارين: إما الانهزام وإما التحدي والنصر، فكيف يسير باتجاه خيار التحدي؟ إنها يرتكز الانتصار ذلك على مدى رسوخ توحيد الله في نفسه، وذلك بأن يكبره في وعيه ويعظمه في نفسه قبل أن يكبره بلسانه، فآنئذ يصغر كل شيء دونه، وتتساقط في داخله كل الأصنام. وهذا هو سر انتصار المؤمنين على العقبات والتحديات والضغوط والقوى المضادة. وإنها لصفة أصيلة فيهم يصفها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ**»[1]، وعلى ضوء هذه المعادلة يجب أن نفهم معنى التكبير في حياتنا الفردية والاجتماعية والسياسية.

وإنما تتعمق هذه الحقيقة في وعي الإنسان بالمعرفة السليمة بالله، وأنه الكبير المتعال، وأنه فوق أن يوصف أو ترقى إلى ذاته كلمات البشر أو تصوراته، ولهذا ورد في معنى (الله أكبر) عن أئمة الهدى عليهم السلام أنه «**الله أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ**»[2]، وفيما يلي ننقل رواية تبين نورا من أنوار عظمة الله عز وجل: روى الإمام الصادق عليه السلام عن جده المصطفى صلى الله عليه وآله أنه قال: «**وَالأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي الْعَرْشِ كَحَلْقَةٍ فِي فَلَاةٍ، وَإِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مَلَكاً يُقَالُ لَهُ خرقائيل لَهُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفَ جَنَاحٍ مَا بَيْنَ الْجَنَاحِ إِلَى الْجَنَاحِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، فَخَطَرَ لَهُ خَاطِرٌ هَلْ فَوْقَ الْعَرْشِ شَيْءٌ، فَزَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِثْلَهَا أَجْنِحَةً أُخْرَى فَكَانَ لَهُ سِتٌّ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ جَنَاحٍ مَا بَيْنَ الْجَنَاحِ إِلَى الْجَنَاحِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ.**

ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَيُّهَا الْمَلَكُ طِرْ فَطَارَ مِقْدَارَ عِشْرِينَ أَلْفَ عَامٍ لَمْ يَنَلْ رَأْسَ قَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، ثُمَّ ضَاعَفَ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَاحِ وَالْقُوَّةِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَطِيرَ فَطَارَ مِقْدَارَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ عَامٍ لَمْ يَنَلْ أَيْضاً، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَيُّهَا الْمَلَكُ لَوْ طِرْتَ إِلَى نَفْخِ الصُّورِ مَعَ أَجْنِحَتِكَ وَقُوَّتِكَ لَمْ تَبْلُغْ إِلَى سَاقِ عَرْشِي، فَقَالَ الْمَلَكُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: **اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**»[3].

ولعل من مفاهيم تكبير الله أن يسعى الإنسان المؤمن لتحطيم كيان الضلال والكفر، كي تتهاوى أنظمة الاستكبار والإفساد، وتبقى كلمة الله هي العليا في الواقع السياسي والاجتماعي، ويكون هو الأكبر في نفوس الناس ووعيهم، وتكبره ألسنتهم بالغدو والآصال، قال الفخر الرازي: «وهذا تنبيه إلى أن الدعوة إلى معرفة الله ومعرفة تنزيهه مقدمة على سائر أنواع الدعوات»[4]. والذي يريد أن يدعو الناس إلى التوحيد يجب عليه أن يسقط كل الأصنام

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٩٣.
(٢) الكافي؛ ج١، ص١١٧.
(٣) بحار الأنوار: ج٥٥، ص٣٤.
(٤) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٩١.

في نفسه بالتكبير أولا، ثم يقدم نفسه نموذجا حقيقيًا لرسالته، فإن ذلك يعظِّم الله ويكبِّره في نفوس الآخرين. ومن معاني تكبيره الله أن يتجرد الفرد الرسالي في دعوته لربه، فلا يتخذ رسالته وسعيه وسيلة لتكبير أحد دونه، كالحكومات الجائرة، أو الذات والعشيرة والقومية.. كما يصنع علماء السوء الذين يتخذون الدين ذريعة لمصالحهم وتضخيم أنفسهم في المجتمع.

الثانية: تطهير الثياب

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ويبدو أن الثياب هي عموم ما يتصل بشخصية الإنسان ظاهريًا، ولذلك مصاديق ذكر المفسرون بعضها، ومنها:

١- اللباس، فإنه يجب على الداعية الرسالي أن يهتم بأناقته ونظافته في جو العمل الرسالي الحاد، وليس صحيحا أن ينسى مظهره بحجة خوضه الصراع الاجتماعي والسياسي، والتحديات المضادة، ولا بد أن يعلم أن تصرفاته وسلوكه ومظهره كل ذلك مقياس عند البعض ودليل على شخصيته ومن ثم رسالته.

وتطهير اللباس يعني رفع النجاسة عنه، ومراعاة القواعد الصحية العامة، وهناك روايات فسرت التطهير بأنه تقصير الثياب كي لا تعلق النجاسات والأوساخ الأرضية بها، قال الإمام علي عليه السلام: «ثِيَابَكَ ارْفَعْهَا لَا تَجُرَّهَا»[1]، وعن طاووس: «وثيابك فقصر، قال الزجاج: لأن تقصير الثياب أبعد من النجاسة، فإنه إذا انجر على الأرض لم يؤمن أن يصيبه ما ينجسه»[2]، فالغرض إذن ألَّا يطال الأرض، وليس كما فهم بعض المتزمتين الذين راحوا يقصرون ثيابهم إلى قريب الركبة!، وقيل في معنى تطهير الثياب: «اتخاذها من الحلال دون الحرام لأنه نوع من الطهارة»[3].

٢- الأزواج، قال في المجمع: «وقيل معناه: وأزواجك فطهرهن من الكفر والمعاصي حتى يصرن مؤمنات»[4]، ولعل في قول الله عن الزوجات: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ١٨٧] إشارة إلى هذا المعنى، ومن الناحية الواقعية -الاجتماعية- فإن أسرة الإنسان وبالذات زوجه مظهر لشخصيته كما الثوب.

٣- وقيل إن البدن من مصاديق الثياب باعتباره ثوب الروح ووعاءها، وقيل معناه:

---

(١) نور الثقلين: ج ٥ ص٤٥٣.
(٢) مجمع البيان ج ١٠، ص٤٨٨.
(٣) المصدر السابق: ص٤٨٨.
(٤) المصدر السابق:ص٤٨٨.

«ونفسك فطهر من الذنوب، والثياب عبارة عن النفس»[١]، يقال: «طاهر الثياب أي طاهر النفس منزه عن العيب، ودنس الثياب أي خبيث الفعل والمذهب»[٢].

ولعل التكبير هو عنوان الطهارة الباطنية ووسيلتها، وأمر الله بتطهير الثياب بعد الأمر بالتكبير يهدينا إلى ضرورة الطهارتين الباطنية والظاهرية عند الداعية الرسالي، فإن الآخرين وبالذات المغرضين منهم قد لا يجدون ثغرة في رسالة المؤمن ومبادئه وحتى شخصيته الذاتية ولكنهم يجدون بعض الثغرات في مظاهره (ثيابه) يطعنون من خلالها، ويشوهون شخصيته وسمعة رسالته عبرها.

الثالثة: مقاطعة الباطل مقاطعة تامة وشاملة

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي اقطع صلتك به. واختُلف في الرجز فقيل: «هو الأصنام والأوثان عن ابن عباس، وقيل: المعاصي عن الحسن، وقيل معناه: جانب الفعل القبيح والخلق الذميم، وقيل معناه: أخرج حب الدنيا من قلبك لأنه رأس كل خطيئة»[٣]، وقيل: «اهجر ما يؤدي إلى العذاب»[٤]، وقال الرازي: «الرجز العذاب، قال الله تعالى: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾[الأعراف: ١٣٤] أي العذاب، ثم سُمّي كيد الشيطان رجزا لأنه سبب للعذاب، وسميت الأصنام رجزا لهذا المعنى، فعلى هذا القول تكون الآية دالة على وجوب الاحتراز عن كل المعاصي»[٥]، ومثله صاحب الكشاف والميزان. وعن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هِيَ الأَوْثَانُ**»[٦].

وكل ما ذكره المفسرون صحيح، إلا أنه مصاديق لشيء واحد هو الباطل، وأظهر مفردات الرجز التي يجب على الداعية الرسالي مقاطعتها التالية:

ألف: على الصعيد الفردي.. العقائد والأفكار الباطلة، والأخلاق والصفات السيئة، والممارسات والسلوكيات الخاطئة.

باء: وعلى الصعيد الاجتماعي.. الفواحش ما ظهر منها وما بطن، كالزنا والسرقة

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص٤٨٨.
(٢) المنجد مادة ثوب.
(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٨٨.
(٤) التبيان: ج١٠، ص١٧٣.
(٥) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٩٣.
(٦) الدر المنثور: ج٦، ص٢٨١.

وشهادة الزور وظلم الناس وأكل أموالهم بالباطل.. ويدخل في الرجز الاجتماعي مجالس البطالين ورفاق السوء، فإنهما يفسدان أخلاق المؤمن، ويؤثران سلبا في مسيرته.

جيم: وعلى الصعيد السياسي.. التعاون مع الطاغوت والحكومات الفاسدة، والركون إلى الظالمين، وهكذا الانتماء إلى التجمعات السياسية المنحرفة، والخضوع للقيادات الضالة والجائرة.

الرابعة: عدم المنة على الله بل الإحساس الدائم بالتقصير تجاهه

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾، والمؤمن الصادق لا يُتْبع جهاده وسعيه بالمن والاستكثار أبدا، ذلك لأنه يَعُدُّ عمله الصالح شرفا وفَّقه الله إليه، وأنه الذي يستفيد من العمل في سبيل الله في الدنيا والآخرة وليس العكس، لأنه المحتاج إلى الله والفقير لرحمته، وإلى ذلك أشار القرآن بقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]. ثم إن المؤمن إنما يعمل صالحا لينال ثواب الله ورضوانه، والمن يبطل الأجر فلماذا يَمُنُّ على ربه؟ قال الإمام علي عليه السلام يوصي مالك الأشتر لما ولاه مصر: «**وإِيَّاكَ والمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ.. فَإِنَّ المَنَّ يُبْطِلُ الإِحْسَانَ**»[1]. ثم كيف يَمُنُّ المؤمن على ربه وهو يعلم أنه لولا فضله ورحمته لما صدر منه الإحسان ولما استطاع إليه سبيلا؟!.

ولكلمة ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ معنيان يهتدي إليهما المتدبر:

الأول: لا تَمُنَّ على الله باستكثار عملك، قال الرازي: «لا تمنن على ربك بهذه الأعمال الشاقة كالمستكثر لما تفعله.. ونقل عن الحسن قوله: لا تمنن على ربك بحسناتك فتستكثرها»[2].

الثاني: لا تَمُنَّ على الله لكي تستزيد عملا صالحا وأجرا بعد أجر، فإن أصل المن هو القطع، والذي يَمُنّ على ربه عمله في سبيله فإنه لا يستزيد عملا، والسبب أنه حينئذ يشعر بالاكتفاء والإشباع فلا يجد حاجة تدعوه إلى المزيد من السعي والاستكثار من الخير. وعلى الصعيد الاجتماعي فإن المن على الناس يدعوهم إلى النفور من الداعية، كما أن عدمه يدعوهم للالتفاف حوله بكثرة. وما أكثر ما منع المن ولا يزال الخير والتكامل عن الكثير من الناس!، أما المؤمنون المخلصون والواعون فإنهم لا يمنون على الله أبدا لعلمهم أن الإنسان مهما عمل صالحا فإنه قليل بالنسبة إلى أهدافه، وبالنسبة للجزاء الذي سوف يعطيه إياه ربه أجراً على أعماله.

---

(١) نهج البلاغة: كتاب: ٥٣.

(٢) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٩٤.

الخامسة: الصبر والاستقامة في طريق الحق

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾، وهذه الآية تكشف لنا طبيعة المسيرة الرسالية بأنها مليئة بالضغوط والمشاكل، لأنها الطريق إلى الجنة التي حُفَّت بالمكاره، ويجب على كل داعية إلى الله وكل مجاهد أن يعي هذه الحقيقة حين اختار الانتماء إلى حزب الله والعمل في سبيله، ومن ثم يُعِدُّ نفسه لمواجهة كل التحديات والمكاره بسلاح الصبر والاستقامة.

إن الذي يتصور طريق الحق خاليا من الأشواك يُخطئ فهم الحياة وسنن التغيير. أوَلستَ تريد بناء كيان الحق على أنقاض الباطل؟ بلى؛ فأنت إذن في صراع جذري مع الباطل بكل أثقاله وامتداداته.. مع النظام الفاسد، والطاغوت المتسلط، مع الثقافة التبريرية، مع الإعلام التخديري، مع التربية الفاسدة، مع العلاقات المتوترة بين الناس.. وبكلمة: مع تخلف المجتمع الفاسد الذي تسعى لعلاجه، فلا بد أن تتوقع ردات الفعل المضادة، والضغوط والتحديات المتوالية والمركزة في طريقك.

وحيث يحتدم الصراع ويصعد مرحلة بعد مرحلة تتضاعف التحديات والضغوط، الأمر الذي يضع الرسالي (فردا وحركة) أمام خيارين: الهزيمة أو الصمود، وخياره الأصيل هو الاستقامة، فيجب إذن أن يصبر لربه، والذي يعني عدة أمور:

الأول: أن يجعل صبره خالصا لوجه الله، لا يريد إلا رضوانه وثوابه.

الثاني: أن يستقيم على الحق حتى لقاء ربه عز وجل، كما قال الله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، فالصبر إذن ليس له حد كما يزعم البعض الذين يبررون هزيمتهم وتراجعهم، بل يجب أن يصبر المؤمن ويصبر حتى يلقى ربه.

الثالث: أن يصبر لحكم ربه ويُسَلِّم لقضائه بعد أن يقوم بما ينبغي عمله ثم يترك الأمر لله يُقدِّر فيه ما يشاء، وهذا معنى التسليم لله والتفويض إليه، وهو درجة عالية من اليقين تُضَمِّد جراحات الداعية، وتطمئنه بأن الله ليس بغافل عما يلاقيه، وهو رقيب على كل شيء، وسوف ينتقم في المستقبل من أعدائه. وتتضمن الآية تحذيرا موجَّها إلى الكفار والمعاندين بالانتقام، وهذا ما يفسر العلاقة بينها وبين الآيات القادمة.

[٨-١٠] ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ في اللغة: «الناقور جمعه نواقير، وهو العود أو البوق ينفخ فيه»، والنقر هنا بمعنى النفخ، وكانت هذه الآلة تستخدم قديما لجمع الناس والجيوش في المناسبات، والذي يقصد بالناقور في هذه الآية الصور، الذي ينفخ فيه إسرافيل مرة فيصعق من

في السماوات والأرض، وأخرى فيبعثون للحساب والجزاء، وهو كهيئة البوق. وقد اختلف المفسرون في النفخة هذه هل هي الأولى أو الثانية، فقوّى صاحب التبيان كونها الأولى، وقال: «قيل: إن ذلك في أول النفختين، وهو أول الشدة الهائلة»[1]، وقيل: «إنها النفخة الثانية»[2].

والأقرب عندي حمل النقر على الإطلاق، فإن كلا النفختين عسيرتان على الكافرين، فأما الأولى فإنها تسلبهم ما في أيديهم من نعيم وحياة، وأما الثانية فهي تبعثهم للوقوف بين يدي جبار السماوات والأرض للحساب والجزاء. ولا ريب أن النفخة التي يعقبها الحساب أعسر من الأخرى التي تُميت الناس فقط. وقد يكون التعبير مجازيًّا أيضا، بحيث يصير النقر في الناقور كناية عن يوم الانتقام.. كما نقول قُرِعَت طبول الحرب.

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ فهو يوم عُسْرٍ مطلق لا يسر فيه على الكافرين، أما المؤمنون فإنهم مخصوصون بلطف الله ورحمته، مما يهدينا إلى أن الجزاء والانتقام الإلهي قائم على أساس الحكمة والتدبير الدقيق. ومن الآيتين مجتمعتين يتبين أن ذلك اليوم بذاته عسير جدًّا لما فيه من أحداث ومواقف عظيمة لولا أنه تعالى ييسره على المؤمنين. وحضور ذلك اليوم في وعي المؤمنين، وبالذات الطلائع والقيادات الرسالية الذين يخوضون الصراع، ويواجهون آلاف الضغوط والتحديات، من شأنه أن يثبتهم على الطريقة، ويُصبِّرهم على الأذى في جنب الله، إذ لا يخشون الفوت فيستعجلوا، بل هم على يقين بأن في ضمير المستقبل يوم انتصار على الأعداء وانتقام حتمي منهم للحق، وأن السبيل لدفع عسره تَجَرُّع آلام الجهاد من أجل الحق، والصبر لله في الحياة الدنيا.

[١١-١٦] وليس بالضرورة أن يتحقق هذا الوعد غدا أو بعد غد، وليس صحيحا أن نشكك فيه لو تأخر عنا قليلا ونترك الجهاد في سبيل الله، أو إنذار الكفار. كلا.. فإن تدبير الأمور بيد الله ذي الحكمة البالغة والعلم المحيط، وخطأ أن يعترض أحد على تقديراته، بل يجب أن نُسلِّم له تسليما مطلقا بأنه يفعل ما فيه الخير والصلاح وبأن له أن يمتحن عباده ويبتلي بعضهم ببعض. أما نحن فقاصرون عن إدراك حكمة كل قضاء وقدر، فلعله لحكمةٍ ما تَرْكُ طاغية يتسلط على رقاب الناس، ويعيث فسادًا في الأرض، أو جَعْلُ أمر شعب من الشعوب رهن أسرة فاسدة طاغية يتوارثون الحكم والظلم. فليفعل ربنا ما يشاء مُسلِّمين بقضائه كما أمرنا بذلك وقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾.

إن حمل أمانة الرسالة ومن ثم مسؤولية الإنذار والتغيير واجب إنساني شرعي، مُكلَّف

(١) التبيان: ج١٠، ص١٧٤.
(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٨٩.

به كل مؤمن، بل كل إنسان عاقل مستطيع، أما متى وكيف يتغير النظام الحاكم، وينتصر أهل الحق على حزب الشيطان، فإنه أمر يختص به رب العزة وما ينبغي لنا الإيمان به هو حكمته البالغة، وبذلك نزداد صبرا واستقامة.

وللآية عدة تفاسير أهمها وأقربها:

الأول: أنها وعيد للكفار، أي دعني وإياه فإني كافٍ له في عقابه، كما يقول القائل: «دعني وإياه، وعن مقاتل: معناه: خلِّ بيني وبينه فأنا أفرد بهلكته»[1].

الثاني: أنها إشارة إلى أصل خلقة الإنسان، فمعناه: «دعني ومن خلقته في بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد»[2]، شبيه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:٩٤]، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أنه تعالى سوف يسلب منه ما أعطاه من النعيم، فهو في الأصل كان وحيدا جاء إلى الدنيا لا شيء معه، فَمَنَّ الله عليه بالأموال الممدودة والبنين الشهود.

الثالث: أنها طعن في نسب الوليد بن المغيرة بصورة خاصة إذ كان مجهول الوالد، فعن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إِنَّ الوَحِيْدَ وَلَدُ الزِّنَا**»[3]، وقَالَ زُرَارَةُ ذُكِرَ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ أَحَدِ بَنِي هَاشِمٍ أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ أَنَا ابْنُ الْوَحِيدِ (يعني المتميز المنقطع عن النظير، وهكذا كان هذا المخزومي يفتخر بالوليد الذي لعنه الله من فوق عرشه)، فَقَالَ -الباقر عليه السلام-: «**وَيْلَهُ لَوْ عَلِمَ مَا الوَحِيْدُ مَا فَخَرَ بِهَا**» فَقُلْنَا لَهُ وَ مَا هُوَ؟!. قَالَ عليه السلام: «**مَنْ لَا يُعْرَفُ لَهُ أَبٌ**»[4]. وقيل معناه: «دعني ومن خلقته متوحِّدا بخلقه لا شريك لي في خلقه».. هكذا في مجمع البيان والتفسير الكبير[5]، وعن ابن عباس: «كان الوليد يسمى الوحيد في قومه»[6]، قال الفخر الرازي: «وكان يلقب بالوحيد، وكان يقول: أنا الوحيد بن الوحيد، ليس لي في العرب نظير، ولا لأبي نظير، فالمراد ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ أعني ﴿وَحِيدًا﴾ وطعن كثير من المتأخرين في هذا الوجه، وقالوا: لا يجوز أن يصدِّقه الله في دعواه: أنه وحيد في هذه الأمور.. ذكر ذلك الواحدي، والكشاف، ورد عليه ثلاثة ردود»[7].

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص٤٨٩.
(٢) المصدر السابق: ص٤٨٩.
(٣) تفسير القمي: ج٢ ص٣٩٥، بحار الأنوار: ج٣١، ص١٠٨.
(٤) بحارالأنوار: ج٣٠، ص١٧٠.
(٥) راجع: مجمع البيان: ج١٠، ص٤٩١، التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٩٨.
(٦) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٩١.
(٧) التفسير الكبير: ج٣٠، ص١٩٨.

ولقد كان الوليد بن المغيرة من طغاة الجاهلية المترفين، الذين أقبلت عليهم الدنيا بزينتها (المال والبنون) كما وصف الله بقوله: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ وما دام الله هو الذي جعله فإنه قادر على سلبه والذهاب به، لأنه لم يجعله إلا لحكمة بالغة. والمال الممدود هو الكثير والمتنامي، قال الطبرسي في المجمع: «ما بين مكة إلى الطائف من الإبل المؤبلة -المُجمَّعة- والخيل المسوَّمة، والنعم المرحَّلة، والمستغلات التي لا تنقطع غلتها، والجواري والعبيد والعين الكثيرة، وقيل: الذي لا تنقطع غلته عن سنة حتى يدرك غلة سنة أخرى فهو ممدود على الأيام، وكان له - يعني الوليد - بستان بالطائف لا ينقطع خيره في شتاء ولا صيف»[١].

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ إذ كان له عشرة أولاد ﴿شُهُودًا﴾ حضورا معه بمكة، «لا يغيبون عنه لغناهم عن ركوب السفر للتجارة»[٢]. وقد كانت كثرة الأولاد -الذكور بالذات- تُعَدُّ من أكبر النعم في ذلك العصر بالخصوص بسبب العادات والظروف الاجتماعية والأمنية الحاكمة. أضف إلى ذلك أن مشيهم مع والدهم وسيدهم من مظاهر العزة والهيبة بين الناس، فكيف إذا كان نفسه شيخ عشيرة وصاحب جاه وثروة؟! وإلى هذا المعنى أشار الرازي فقال: «إنهم رجال يشهدون معه المجامع والمحافل»[٣].

وكلمة ﴿وَبَنِينَ﴾ شاملة تتسع لأكثر مما تتسع إليه كلمة الأولاد، فهي تشمل الأولاد من الصلب، والأولاد بالتبني، والأتباع، لأن بين التابع والمتبوع علاقة التبني ذات الطرفين، وما أكثر أولئك المصلحيين الذين تحلَّقوا حول الوليد، ولا يزالون يتبعون المترفين طمعا في أن يصيبهم فُتات من طعامهم.

ثم إنه تعالى حيث أراد به كيدا فتح عليه أبواب الخيرات كي يلقاه في الآخرة وما له من خلاق، فبالإضافة لنعمتي المال الممدود والبنين الشهود بسط له من فضله ما مهد به سبل العيش الرغيد وذلل العقبات ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾، قال أهل اللغة: «مَهَّدَ الفراش: بسطه ووطَّأه، والأمر سَوَّاه وسَهَّله وأصلحه، وتَمَهَّد الرجل: تمكَّن، والمَهْدَة جمعها مُهُد وهي ما انخفض من الأرض في سهولة واستواء بحيث يتمكن الناس من المشي عليها بسهولة وراحة». وعلى مثل هذا أجمع المفسرون، قال الرازي: «أي وبسطت له الجاه العريض والرياسة في قومه، فأتممت عليه نعمتي المال والجاه، واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا، ولهذا يُدْعَى بهذا فيقال: أدام الله تمهيده، أي بسطته وتصرفه في الأمور»[٤]، ومن التمهيد صحة البدن وراحة البال وما أشبه.

---

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص٤٩١.
(٢) المصدر السابق: ص٤١٩.
(٣) التفسير الكبير: ج ٣٠ ص١٩٩.
(٤) المصدر السابق: ص١٩٩.

والمفعول المطلق ﴿تَمۡهِيدٗا﴾ يفيد التأكيد والمبالغة في الاستغراق.

وكانت هذه النعم داعية إلى الشكر والإيمان لكل عاقل وصاحب ضمير حي، فهي بمثابة عامل يُعَبِّد طريق الهداية للإنسان ويُمَهِّده له لو تفكر وعقل، ولكن الوليد كان مريض القلب، ولذلك كان يزداد ضلالا وإصرارا على الكفر بنسبة طردية كلما توالت عليه النعم، والسبب أن غير المؤمن يقف عند حد الدنيا، وتسيطر عليه الروح المادية بحيث يصبح جمع حطامها هدفا بذاته، فإذا به يفكر في الاستزادة بدل العمل على الشكر لصاحب النعمة ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾. أما المؤمن فإنه يَتَطَلَّع عند كل نعمة إلى توفيق الشكر وأداء حقها لله وإلى الناس، وصدق رسول الله ﷺ حينما قال في حق طالب الدنيا: «**مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ طَالِبُ دُنْيَا وطَالِبُ عِلْم فَأَمَّا طَالِبُ الْعِلْمِ فَيَزْدَادُ رِضَا الرَّحْمَنِ وَأَمَّا طَالِبُ الدُّنْيَا فَيَتَمَادَى فِي الطُّغْيَانِ**»[1] «**بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ لَهُ طَمَعٌ يَقُودُهُ إِلَى طَبَعٍ**»[2] (أي طبع قلبه بالرين)، وصدق الإمام علي عليه السلام إذ قال: «**أَكْثَرُ مَصَارِعِ الْعُقُولِ تَحْتَ بُرُوقِ الْمَطَامِعِ**»[3]. وإنما أعشى قلب الوليد تقادم الخير عليه وطمعه في زيادته، وإنه لمكر الله بالمترفين، الذي يزيدهم ضلالا عن الحق، وخسارة في الدنيا والآخرة، فلا يشكر ربه ولا هو يصل إلى غايته (الزيادة) لأن توسيع الله على أحد ليس مطلقا أبدا بل له حد وقيد، وليس خارجا عن سننه وقوانينه في الحياة، فكيف يزيد من لا يؤدي شكر النعمة وهو القائل: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧]؟! قال صاحب التبيان: أي لم يشكرني على هذه النعم، وهو مع ذلك يطمع أن أزيد في إنعامه والتمهيد والتوطئة والتذليل والتسهيل.

﴿كَلَّآۖ﴾ أي لن يكون ذلك أبدا، فهذه كلمة تفيد النفي القاطع والعنيف، والسبب هو عناده للآيات الربانية ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾، ومعاندتها يمنع الزيادة لسببين:

الأول: السبب الغيبي، فإنه تعالى يدافع عن رسالاته وآياته، وينتقم للحق من جاحديه، بالإهلاك والاستئصال تارة، وبالقحط وسلب البركة تارة أخرى.

الثاني: السبب الظاهر وذلك أن آيات الله هي النهج القويم الذي يهدي الإنسان إلى كل خير مادي ومعنوي، ويأخذ بيده إلى الرفاه والنمو الاقتصادي لو عمل بها وطَبَّقَها في حياته، وحيث يعاندها الكفار ومرضى القلوب فكيف يستزيدون، وكيف تُوَطَّأُ لهم سبل العيش، وتُمَهَّد أسباب السعادة؟! قال المفسرون: «ولم يزل في نقصان -يعنون الوليد- بعد قوله: ﴿كَلَّآۖ﴾ حتى

(١) بحار الأنوار: ج١، ص١٨٢.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٤، ص١٣٧.
(٣) بحار الأنوار ج٧٠، ص١٧٠.

افتقر ومات فقيرا»[١]، وقال العلامة الطبرسي عند تفسيره للآية: «أي لا يكون كما ظن، ولا أزيده مع كفره»[٢]، وإلى مثله ذهب الزمخشري في الكشاف. والعناد مرحلة من الكفر والنفور تشبه الجحود، فإن الإنسان حينما يكفر بالحق يكفر تارة لأنه لما تتوافر الآيات الدالة عليه، أو لأنه يكفر للتهرب من مسؤولية الإيمان به، ولكنه تارة بلا مبرر سوى محاربة الله والاستهزاء بآياته وهذا هو العناد.. أو تأخذه العزة بالإثم، ويخلط بين الأمور كأن يكفر بالإسلام والقرآن لصراع شخصي بينه وبين الداعية إلى الله، قال الرازي: «وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ يدل على أنه من قديم الزمان كان على هذه الحرفة والصنعة»[٣].

[١٧-٣١] ومعاندة آيات الله ومن ثم محاربته ليس تمنع عن العنيد النعمة والخير وحسب، بل وتؤدي به إلى الشر والعذاب في دنياه وآخرته ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ أي سأجعله يتكلف الصعود حتى يُرهق إرهاقا شديدا، والصعود كناية عن المشقة، ففي التحقيق نقلا عن التهذيب: «ويقال لأرهقنَّك صعودا، أي لأُجشمنَّك مشقة من الأمر، لأن الارتفاع في صعود أشق من الانحدار في هبوط، ومنه اشتق تَصَعَّد في ذلك الأمر أي شق عليه»[٤].

ولا ريب في أن من يعاند آيات الله وشرائعه ثم يتَّبع هواه وشرائع البشر فإنه سيلاقي أنواع المصاعب والمشاكل باعتباره يسبح خلاف قوانين الله وسنن الطبيعة، فهو يشبه من يصعد الجبال الرفيعة الوعرة يرهقه الصعود. أترى كيف لقيت ولا تزال تلاقي أمتنا الإسلامية من العقبات كالتمزق والظلم والتخلف الحضاري حينما هجرت كتاب ربها؟ فهي إذن حقيقة واقعية يواجهها كل من يعاند آيات ربه فردا أو مجتمعا أو أمة وفي الجانبين المادي والمعنوي. ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد، بل يمتد العذاب إلى الآخرة ويتجلى بصورة أشد وأكثر وأوضح حين يتبين للمعاندين خطؤهم الكبير في صورة جبل مخيف من العذاب، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**صَعُودٌ جَبَلٌ فِي النَّارِ مِنْ نُحَاسٍ يُحْمَلُ عَلَيْهِ** (الكافر) **لِيَصْعَدَهُ كَارِهاً، فَإِذَا ضَرَبَ بِيَدَيْهِ عَلَى الجَبَلِ ذَابَتَا حَتَّى تَلْحَقَا بِالرُّكْبَتَيْنِ، فَإِذَا رَفَعَهُمَا عَادَتَا فَلَا يَزَالُ هَكَذَا مَا شَاءَ اللهُ**»[٥]، وفي فتح القدير عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «**الصَّعُودُ جَبَلٌ مِنْ نَارٍ يَصَّعَّدُ فِيهِ الكَافِرُ سَبْعِينَ خَرِيفاً ثُمَّ يَهْوِي، وَهُوَ كَذَلِكَ فِيهِ أَبَدًا**»[٦]، وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**إِنَّ فِي جَهَنَّمَ جَبَلاً يُقَالُ لَهُ**

---

(١) التفسير الكبير: ج ٣٠، ص١٩٩.
(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٩٢.
(٣) التفسير الكبير: ج١٠، ص٢٠٠.
(٤) التحقيق في كلمات القرآن: ج٦، ص٢٧٣.
(٥) بحار الأنوار: ج٢٤ ص٣٢٥.
(٦) فتح القدير: ج ٥، ص٣٢٩

صَعُودٌ وَإِنَّ فِي صَعُودٌ لَوَادِيًا يُقَالُ لَهُ سَقَرٌ وَإِنَّ لَفِي قَعْرِ سَقَرِ لَجُبًّا يُقَالُ لَهُ هَبْهَبٌ كُلَّمَا كُشِفَ غِطاءُ ذَلِكَ الجُبُّ ضَجَّ أَهْلُ النَّارِ مِنْ حَرِّهِ وَذَلِكَ مَنَازِلُ الجَبَّارِيْنَ»[1]، ويقال للألم الذي يصل إلى الرأس صعود لأنه يرتفع إليه ولأنه شديد أثره، وربما تتسع الكلمة إلى معنى التزايد فإن العذاب الإلهي في تصاعد مستمر.

ويبين القرآن السبب الرئيسي الآخر الذي يؤدي بالإنسان إلى الشقاء والعذاب في الحياة وهو:

أولاً: فقدانه بركة رسالات الله وآياته.

ثانياً: اتباعه المناهج البشرية الضالة، واعتماده على فكره الضحل وتقديره الخاطئ.

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ والتفكير هو تقليب وجوه الرأي، والتقدير هو تحويل التفكير إلى خطة بعد الدراسة، يقال: فَكَّر في الأمر وتَفَكَّرَ، إذا نظر فيه وتدبر، لما تفكر رتب في قلبه كلاما وهيأه، وهو المراد من قوله: ﴿وَقَدَّرَ﴾[2]، وقال العلامة الطباطبائي: «والتقدير عن تفكير نظم معاني وأوصاف في الذهن بالتقديم والتأخير، والوضع والرفع لاستنتاج غرض مطلوب، وقد كان الرجل يهوى أن يقول في أمر القرآن شيئا يبطل به دعوته»[3]. ولقد توهم الوليد بتفكيره وتقديره أن تهمة السحر ستدحض الحق.. وليس الأمر كذلك ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، ولقد ذم الله تفكره لأنه «فكر فكرا يحتال به للباطل، لأنه لو فكر على وجه طلب الرشاد لم يكن مذموما بل كان ممدوحا»[4]، لأن التفكير والتخطيط بإعمال العقل على ضوء المعلومات والمعطيات أمر حسن بذاته، وإنما جاءت رسالات الله وبعث الأنبياء لغرض إصلاح الناس وهدايتهم باستثارة العقول.

بلى؛ إن العقل بذاته وسيلة خير وصلاح، وهو يعمل لصالح الإنسان، ولكن بشرط أن يكون خياره الأول صحيحا، أما لو اختار الباطل ثم استثار عقله في هذه القناة فلن يجني من تفكيره وتقديره سوى الضلال والعذاب، ويُسمَّى ذلك بالمكر وهي حيل الشيطان، وهكذا الفكر، وذلك أنه سلاح ذو حدين، يكون تارة لصالح صاحبه وخير البشرية إذا كان قائما على أساس العقل، ويكون أخرى أداة لدمارها ووسيلة لإشعال الحروب، كما تفعل خبرات القوى الاستكبارية في هذا العصر. إن الإنسان قادر على نيل الحياة بالتفكير والتقدير إذا اختار مسبقا

---

(١) المحاسن: ج١، ص١٢٣.
(٢) التفسير الكبير: ج٣٠، ص٢٠٠.
(٣) تفسير الميزان: ج٢٠، ص٨٦.
(٤) التبيان: ج١٠، ص١٧٧.

هدفا نبيلا واتخذ فكره وسيلة لتحقيقه، فالمهم ليس أن تفكر وتُقدِّر بل الأهم لماذا تمارس التفكير والتقدير، وإلى ذلك يوجهنا القرآن بطرح السؤال: ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ مكررا؟.

ويصف علي بن إبراهيم القمي حالة الوليد عندما فكَّر وقدَّر ويقول: «فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَ كَانَ شَيْخاً كَبِيراً مُجَرَّباً مِنْ دُهَاةِ الْعَرَبِ وَكَانَ مِنَ الْمُسْتَهْزِءِينَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْعُدُ فِي الْحِجْرِ وَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَاجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، فَقَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ مَا هَذَا الَّذِي يَقُولُ مُحَمَّدٌ شِعْرٌ أَمْ كِهَانَةٌ أَمْ خُطَبٌ فَقَالَ دَعُونِي أَسْمَعْ كَلَامَهُ فَدَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْشِدْنِي مِنْ شِعْرِكَ. قَالَ ﷺ: مَا هُوَ شِعْرٌ وَلَكِنَّهُ كَلَامُ اللهِ الَّذِي ارْتَضَاهُ الْمَلَائِكَةُ وَأَنْبِيَاؤُهُ وَرُسُلُهُ. فَقَالَ: اتْلُ عَلَيَّ مِنْهُ شَيْئاً فَقَرَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ حم السَّجْدَةَ فَلَمَّا بَلَغَ قَوْلَهُ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يَا مُحَمَّدُ قُرَيْشٌ ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾. قَالَ فَاقْشَعَرَّ الْوَلِيدُ وَقَامَتْ كُلُّ شَعْرَةٍ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ وَمَرَّ إِلَى بَيْتِهِ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى قُرَيْشٍ مِنْ ذَلِكَ فَمَشَوْا إِلَى أَبِي جَهْلٍ فَقَالُوا يَا أَبَا الْحَكَمِ إِنَّ أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ صَبَأَ إِلَى دِينِ مُحَمَّدٍ أَ مَا تَرَاهُ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْنَا، فَغَدَا أَبُو جَهْلٍ إِلَى الْوَلِيدِ فَقَالَ لَهُ يَا عَمِّ نَكَّسْتَ رُءُوسَنَا وَفَضَحْتَنَا وَأَشْمَتَّ بِنَا عَدُوَّنَا وَصَبَوْتَ إِلَى دِينِ مُحَمَّدٍ قَالَ: مَا صَبَوْتُ إِلَى دِينِهِ وَلَكِنِّي سَمِعْتُ كَلَاماً صَعْباً تَقْشَعِرُّ مِنْهُ الْجُلُودُ.

فَقَالَ: لَهُ أَبُو جَهْلٍ أَ خُطَبٌ هِيَ؟ قَالَ: لَا إِنَّ الْخُطَبَ كَلَامٌ مُتَّصِلٌ وَهَذَا كَلَامٌ مَنْثُورٌ وَلَا يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضاً!. قَالَ: فَشِعْرٌ هُوَ؟ قَالَ: لَا أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ أَشْعَارَ الْعَرَبِ بَسِيطَهَا وَمَدِيدَهَا وَرَمَلَهَا وَرَجَزَهَا وَمَا هُوَ بِشِعْرٍ قَالُوا: فَمَا هُوَ؟! قَالَ: دَعْنِي أُفَكِّرْ فِيهِ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، قَالُوا لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ مَا تَقُولُ فِيمَا قُلْنَاهُ؟!. قَالَ قُولُوا: هُوَ سِحْرٌ فَإِنَّهُ أَخَذَ بِقُلُوبِ النَّاسِ..»[1]. لقد انتهى به تفكيره القائم على أساس العناد إلى هذه النهاية الخاطئة، فتفوَّه بهذا الباطل، وكان من الممكن أن يوصله العقل إلى ساحل الأمن والهدى، ولكنه لم يفكِّر ويقدِّر حينما فكَّر وقدَّر بمنهجية موضوعية ومنطلقات سليمة، إنما مارس كل ذلك بهدف تضليل الآخرين، وتبرير ما هو عليه من الباطل والضلال لنفسه أمام وجدانه أولا ثم للناس المغرورين به، فأوقع نفسه في الشقاء، واستحق بذلك اللعنة والعذاب.

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ وتكرار اللعنة بالقتل عليه دلالة على استحقاقه ضعفا من العذاب، الأول على عناده الآيات الربانية، والآخر على اتباعه هواه وبنات فكره بدل تشريع الله، أو يكون أحدهما جزاء التفكير المنحرف، والثاني جزاء التقدير الخاطئ. قال العلامة الطبرسي: هذا تكرير للتأكيد، أي لُعِنَ عُذِّب، وقيل: لُعِنَ بما يجري مجرى القتل، وقيل: معناه لعن على أي

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٩٣، بحار الأنوار: ج٣٠ ص٤٥١.

حال قدَّر ما قدَّر من الكلام، كما يقال: «لأضربنه كيف صنع، أي على أي حال كان عليه»[١].

بلى؛ إن الناقد المنصف لا يستطيع إلا التسليم بصدق الرسول، وأن الرسالة حق، ولكن الوليد وأمثاله من المترفين وأعداء الحق لم يكونوا كذلك، بل سعوا إلى الانتقاد عبر منهجية خاطئة تتركز على العزة بالإثم، والمواقف العدائية السابقة، وهذه من المؤثرات السلبية على نتيجة أي بحث وتفكير، ولعل السبب يعود إلى حالتهم الاجتماعية إذ هم من المستكبرين الذين يبنون كيانهم على أساس الظلم واستثمار المحرومين وقهر المستضعفين، فأنى لهم القبول بقيادة ربانية تفتخر بأنها من الفقراء، وتسعى من أجل إسعاد المحرومين، وتحرير المستضعفين من نير المترفين.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ والأقرب أن النظر هنا بمعنى إعمال الفكر والبصر، فإن الطغاة المستكبرين حينما يريدون تضليل الناس عن الحق يفكرون ويقدرون أولا ثم ينظرون مفتشين عن ثغرات وأساليب لبث أفكارهم وتقديراتهم ونشرها بين الناس، فوسائل الإعلام المضللة من إذاعات وتلفزة وصحافة وحتى وسائل التثقيف والتربية التي تروِّج ثقافة الباطل، وتبث الإشاعات ضد المؤمنين والقيادات الرسالية.. إنها لا تتحدث اعتباطا، بل هناك وراء القناع خبراء إعلاميون ونفسيون وسياسيون.. يخططون للتضليل، وهذه سمة للأنظمة الفاسدة.. فإلى جانب فرعون كان هامان وجنود كثيرون متخصصون في كل جانب من الجوانب، ومن قصة قريش وأبي جهل مع الوليد يتضح أنه من قياداتهم وعقولهم المدبرة، وهناك إشارات إلى هذا التفسير وجدتُها لدى بعض المفسرين ففي البصائر: «أي نظر في وجوه قومه»[٢]، وفي الميزان: «أي ثم نظر بعد التفكير والتقدير نظر من يريد أن يقضي في أمر سئل أن ينظر فيه»[٣].

وبعد أن اختمرت الفكرة الشيطانية في رأسه بدأ حركته نحو الإنتاج والإخراج كي تكون أمضى أثرا في نفوس الآخرين، فإذا بكل ملامحه مشحونة بأمارات الحقد والغيظ على الرسالة والرسول ﷺ. ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ وهذه المظاهر الخارجية وأخرى غيرها ملامح لحالات نفسية من الحقد والعناد يعكسها القرآن بأسلوبه التصويري البديع، وإنها لطبيعة في الإنسان أن تبدو على مظهره علامات مخبره بحيث يقول علماء النفس أنك تستطيع قراءة داخل الإنسان بمظاهره. وفي الحديث الشريف قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ وصَفَحَاتِ وَجْهِهِ**»[٤].

---

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص٤٩٢.
(٢) تفسير البصائر: ج ٥٠، ص٣٦٢.
(٣) تفسير الميزان: ج ٢٠، ص٨٧.
(٤) بحار الأنوار: ج ٧٢، ص٢٠٤.

قال القمي: «عبس وجهه، وبَسَرَ القى شدقه»[١]، وعن قتادة قال: «قبض ما بين عينيه وكلح»[٢]، وفي فقه اللغة للثعالبي: «إذا زوي ما بين عيني الرجل فهو قاطب عابس، فإذا كشرَّ عن أنيابه مع العبوس فهو كالح، فإذا زاد عبوسه فهو باسر مكفهر»[٣]، وذكر اللغويون الاستعجال واحدًا من معاني البسور، يقال: «بَسَرَ الغريم أي تقاضاه قبل الأجل، وبسر الدمل: عصره قبل نضجه، وبسر الفحل الناقة قبل الضبعة أي قبل أن تطلب اللقاح»[٤]، فكأن الباسر في وجه أحد يستعجل به الأذى والشر، وبذلك قال الراغب في مفرداته[٥]. وقد تُعَبرِّ عن العبوس والبسور المفردات والتصرفات التي تصدر عن الإنسان بقلمه وفمه ومواقفه، فالطاغوت قد يُعبرِّ عن عبوسه وبسوره وجهه، وقد تظهر في قمعه الجنوني للمعارضة بل ولعامة الناس، وما يقصه القرآن الكريم عن الوليد بن المغيرة ليس إلا شاهدا على طبيعة الموقف الذي يتخذه المترفون في كل مكان وزمان ضد الدعوات الإصلاحية، فإنهم باعتبارهم بؤرة الفساد في المجتمع أول المتضررين بهذا التغيير، ولهذا يكونون طليعة المعارضة للحق.

﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ بلى؛ إنه فكَّر في الموقف من الرسالة، كان يريد الوصول إلى أفضل طريقة للمعارضة والتضليل.. بل وتبرير كفره أمام عقله وضميره، ولكنه كلما أعمل فكره ونظره تجلَّت له الحقيقة وعاد بصره خاسئا وهو حسير، وكان من المفروض أن يُقْبِل على الإيمان بالحق، ويتواضع له عن مراتب النفور والاستكبار والاعتزاز بالإثم، إلا أنه أصر على الكفر من لحظته الأولى فازداد إدبارا، وحيث اختار موقف الكفر فكَّر مرة أخرى لتبرير موقفه من الحق المبين، فما وجد تهمة أصلح -في نظره- من قذف الرسالة بالسحر.

﴿فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾ ولكلمة ﴿يُؤۡثَرُ﴾ هنا معنيان ربما أرادهما السياق معا:

الأول: ينقل عن الآخرين، وقد اتفق أكثر المفسرين عليه، أي يؤثره عن غيره من القوى القادرة عليه كالسحرة والشياطين، من قولهم: «أثرت الحديث أُثْرَةً وَأَثْرًا إذا حدثت به عن قوم في آثارهم، ومنه قولهم: حديث مأثور عن فلان».

الثاني: تميل إليه النفوس وتفضِّله على غيره، قال في المجمع: «وقيل هو من الإيثار، أي سحر تُؤْثِره النفوس، وتختاره لحلاوته فيها»[٦]، وبذلك سعى الطاغية للتقليل من شأن أمرين مهمين:

---

(١) تفسير القمي: ج ٢، ص٣٩٤ بتصرف.
(٢) الدر المنثور: ج ٦ ص٢٨٣.
(٣) فقه اللغة للثعالبي: ص١٤٠.
(٤) تفسير البصائر: ج ٥٠، ص٢٨٠.
(٥) مفردات غريب القرآن: مادة بسر.
(٦) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٩٢.

الأول: معجزة القرآن العظيمة بظاهره ومحتواه.

الثاني: ظاهرة الاستجابة للرسالة الجديدة والدخول في دين الرسول، ومن ثم كان الوليد -كما هو حال أي طاغية ومترف- يسعى لتحقيق عدة أهداف خبيثة من وراء هذه الشائعة الضالة:

١- تبرير هزيمتهم في الصراع المبدئي والحضاري مع الإسلام بقيمه وقيادته وحزبه.

٢- تضليل الناس عن الحق ووضع حد لزحفهم باتجاه الدخول في الدين الجديد.

وقد جعل تهمة القرآن بالسحر مدخلا إليه لحل عقدة تواجه كل من يحارب الذكر الحكيم، ألا وهي أن آثار الحكمة والعلم الإلهيين واضحة في آياته، وأنها لتهدي كل ذي لب منصف إلى كونها متنزلة من عند رب العزة، وباعتراف الوليد نفسه حينما قال: سمعت منه - يعني الرسول ﷺ- كلاما صعبا تقشعر منه الجلود.. لا خطب ولا شعر، فمستحيل إذن أن ينسبه إلى المخلوقين من دون مقدمة، فالمسافة بينه وبين كلام المخلوقين لا تُحَدُّ وفضله عليه لا يوصف، وهو كفضل الله على سائر خلقه.. ومن هذه المقدمة انطلق إلى ما أراد قوله بالضبط.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ فمتى ما أوصل هذه القناعة إلى أذهان الناس تقدم خطوات أساسية في الصراع ضد الرسالة في زعمه، ومن أجل هذا الهدف جند طاقاته.. ففكَّر وقدَّر.. أنه يستطيع إلى ذلك سبيلا، وغاب عنه أن معجزة القرآن أعظم من أن يحجب نورها تقدير الإنس والجن لو تظاهروا، فكيف بجاهل سفيه كالوليد بن المغيرة ﴿قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾؟!.

من هنا فشلت كل جهوده ومساعيه الرامية إلى تضليل الناس عن الحق وحجبهم عن نوره، بل وحكم على نفسه بتفكيره وتقديره الخاطئين بالخسارة وباللعنة التي خلَّدها القرآن في الأجيال بعد الأجيال في الدنيا، وجر نفسه إلى الهلاك والعذاب المهين في الآخرة، وأعظم منه غضب الله الذي توعده بسقر فقال: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ قال في التبيان: «أي أُلزمه جهنم، والاصطلاء إلزام موضع النار.. وأصله اللزوم»[1]، وصليَ الكفار بالنار جعلها أكثر وأشد مساسا بهم، قال الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ فِي جَهَنَّمَ لَوَادِياً لِلْمُتَكَبِّرِينَ يُقَالُ لَهُ سَقَرُ شَكَا إِلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ شِدَّةَ حَرِّهِ وسَأَلَهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ أَنْ يَتَنَفَّسَ فَتَنَفَّسَ فَأَحْرَقَ جَهَنَّمَ»[2]، وعن ابن عباس قال:

(١) التبيان: ج١٠، ص١٨٠.
(٢) الكافي: ج٢، ص٣١٠.

«سقر أسفل الجحيم، نار فيها شجرة الزقوم»[1]، وإنها من رهبتها وما تتميز به من الصفات لا يستطيع بشر أن يتصور مداها ويعي حقيقتها.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ وفي هذه الصيغة استثارة للإنسان نحو السعي إلى المعرفة ولو بصورة إجمالية، والقرآن يبين بعض صفات سقر فيقول: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ قيل: لا تبقيهم أحياء فهي تميتهم، ولا تترك لأبدانهم أثرا فهي لا تذرهم، أي أن لها أثرين: الأول على الروح، والآخر على الجسم، وقيل: «إن الكلمتين مترادفين في المعنى مختلفتين في الدرجة والأثر»، وذكرهما معا يفيد المبالغة والتأكيد، وقال في التبيان: «قيل: لا تبقي أحدا من أهلها إلا تناولته، ولا تذره من العذاب»[2]، وفي الميزان قال العلامة الطباطبائي: «لا تبقي شيئا ممن نالته إلا أحرقته، ولا تدع أحدا ممن ألقي فيها إلا نالته، بخلاف نار الدنيا التي ربما تركت بعض ما ألقي فيها ولم تحرقه»[3]، وعن مجاهد قال: «لا تحيي ولا تميت»[4]، واستدل صاحب الميزان على هذا الرأي بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٢ -١٣]، والأقرب عندي أن معنى ﴿لَا تُبۡقِي﴾ لا تدع أحدا من الناس الذين فيها باقيا بل تفنيهم جميعا، ومعنى ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ أي لا تذر شيئا من أي واحد منهم، فالأول يشمل كل من فيها، والثاني يتسع لكل جزء ممن فيها، وهو أعظم، وهذه -فيما يبدو لي- صفة النار مع قطع النظر عن صفة جهنم التي يجدد الله فيها ما تحرقه النار، فلا منافاة بينها وبين قوله سبحانه: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه: ٧٤] إذ الحديث عن النار هنا جاء بقدر فهمنا لها وحسب مقاييسنا. ولعل من المعاني: أن سقر من حيث شدة العذاب ونوعيته لا تبقي من يُلقى فيها، ومن حيث المدة والملازمة فإنها لا تترك أهلها أبدا، وهذا يهدينا إلى أن أهلها من الخالدين في العذاب، فلا تترك سقر أهلها بل يبقون خالدين في العذاب، لأن الاحتراق هناك ليس احتراقا عاديًا وإنما هو احتراق يشبه الاحتراق الذري الذي لا ينتهي، والله العالم.

وصفة أخرى لسقر هي تلويحها أهلها ﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ﴾ في اللغة: ألاح فلانا: أهلكه، فهي المُهلِكة للبشر، ويقال: «لوّح فلانا بالعصا والسيف والسوط والنعل: علاه بها وضربه»، وقيل: المُعطِّشة، تقول العرب: إبل لوحى، ورجل ملواح أي سريع العطش، ويقال لمن ضربته الشمس وغيرت لونه لوَّحته تلويحا، وكأن سقر من حرارتها تغيِّر جلود أهلها ووجوههم.

وحين يرد المجرمون وادي سقر يستقبلهم ملائكة غلاظ شداد.. «هم خزنتها مالك

(١) الدر المنثور: ج٦، ص٢٨٣.
(٢) التبيان: ج١٠، ص١٨٠.
(٣) تفسير الميزان: ج٢٠، ص٨٨.
(٤) الدر المنثور: ج٦، ص٢٨٣.

ومعه ثمانية عشر، أعينهم كالبرق الخاطف، وأنيابهم كالصياصي، يخرج لهب النار من أفواههم، ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة، تَسَعُ كَفُّ أحدهم مثل ربيعة ومضر، نُزعت منهم الرحمة، يرفع أحدهم سبعين ألفا فيرميهم حيث أراد من جهنم»[١]، ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ وتحتمل الآية معاني عدة:

الأول: المعنى الظاهر وهو أن خزنة سقر هذه عدتهم، وليس ذلك بالقليل إذا كانت صفتهم كما ذكر صاحب المجمع، بل إنه تعالى قادر أن يجعل عليها واحدا يدير شؤونها ويعذب أهلها أشد أنواع العذاب.

الثاني: أن التسعة عشرة خَزَنَةُ وادي سقر فقط، ولبقية أجزاء جهنم خزنة آخرون.

الثالث: أن العدد المذكور هم بمثابة القواد والمدراء، وتحت إمرتهم مالا يدرك عددهم إلا الله من الملائكة، وإلى هذا المعنى إشارة في قول الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، والجهل بهذه الحقائق هو الذي دفع المشركين إلى الاستهزاء، وكفرهم بالغيب.. «قال أبو جهل يوما: يا معشر قريش! يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عددا، أفيعجز مائة رجل منكم عن رجل منهم؟!... وقال رجل من قريش يُدعى أبا الأشد: يا معشر قريش! لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة، وبمنكبي الأيسر التسعة، فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾»[٢].

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ إن الله يمتحن عباده بما يشاء، ومما يمتحنهم به أمرهم بالإيمان بالغيب، وكلما كان الغيب أشد غموضا صَعُبَ الإيمان به، وكان أرفع درجة في القرب من الله، ولذلك جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّا صُبَّرٌ وَشِيعَتُنَا أَصْبَرُ مِنَّا، قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ كَيْفَ صَارَ شِيعَتُكُمْ أَصْبَرَ مِنْكُمْ قَالَ: لِأَنَّا نَصْبِرُ عَلَى مَا نَعْلَمُ وَشِيعَتُنَا يَصْبِرُونَ عَلَى مَا لَا يَعْلَمُونَ**»[٣]، ولقد جعل الله الإيمان بالغيب ركنا أساسيًا في الشخصية الإيمانية، ومن هذا المنطلق أخفى كثيرا من الحقائق كالموت والبرزخ والآخرة، فأما الكفار والمشركون والذين في قلوبهم مرض فإن الغيب يزيدهم فتنة ونفورا، ليس لأنه لا واقعية له، فالآيات الهادية إليه كثيرة، وإنما لأن الإيمان به درجة رفيعة من العلم والإيمان، لا يصل إليها إلا عباد الله المتميزون المتقون ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣]، وسبيل المؤمنين إلى اليقين بالغيب أمران:

---

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص٤٩٢.
(٢) أسباب النزول للسيوطي: ص٢٢٤.
(٣) الكافي: ج٢، ص٩٣.

الأول: الآيات والحجج الهادية إليه، فمن آثار الحكمة والعلم والنظام المتجلية في الكون يهتدون إلى الإيمان بربهم، ومن شواهد سنة الجزاء في التاريخ والواقع يؤمنون بالجزاء الأعظم في الآخرة، فهم لا ينتظرون أن تلامس جلودهم النار، وتبصر أعينهم الملائكة، ويقعون في قبضة الموت حتى يؤمنوا بكل ذلك، إنما يكتفون بظهور الآيات والحجج.. وهذه من أهم الخصائص التي تُميِّز العاقل عمن سواه.

الثاني: إيمانهم بالله عز وجل كما وصف نفسه وتجلى في كتابه وخلقه بأسمائه الحسنى، فهم يؤمنون بالله القادر، القاهر، العليم، الرحمن الرحيم.. إيمانا قائما على اليقين والمعرفة. ومتى ما بلغ الإنسان هذه الغاية صار مسلما بكل الحقائق الغيبية، فلا يشك في الجنة والنار وما فيهما من النعيم والعذاب، لأن الله الذي وعدنا بهما مطلق القدرة لا يعجزه شيء أبدا، ولا يدخل في نفق الجدال والشك في عدد أصحاب النار وصفاتهم، بل يُسلِّم بما يسمعه عن الله تسليما مطلقا. ولأن الكفار والمشركين ومرضى القلوب لم يبلغوا هذه الغاية الأساسية صاروا إلى الشك في حقائق الغيب، بل في حقائق الشهود أيضا، فإذا بواحدهم يشك في أصل وجوده، كما فعل السوفسطائيون!.

إن المؤمن ليس مسلما لله بفعله وقوله فقط، بل هو مسلم بعقله وعلمه أيضا، ففي سلوكه ومواقفه لا يخالف الحق، وفي داخله لا يثير أدنى تساؤل شكي حول آيات ربه.. وهذه من أهم مرتكزات الإيمان والإسلام، كما قال الله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].. بلى؛ قد لا ندرك خلفيات بعض الأحكام الإلهية، وقد لا نستوعب بصورة تامة بعض الحقائق، ولكن ذلك ليس مبررا للكفر بها أبدا في منطق الإسلام ولا عند العقلاء، وهذه قيمة علمية مسلمة، ومن صفات الراسخين في العلم، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧]. فالراسخون في العلم -غير أهل البيت- قد لا يدركون تأويل بعض الآيات ولكنهم لا يكفرون بها، فلذلك ليس من منطق العقلاء وأصحاب الألباب، وإلا لكان الكفر بالله أولى من كل شيء لأننا قاصرون عن إدراك كنهه ومعرفة ذاته!.

إن في قلوب الكفار والمشركين لمرضا عضالا هو كفرهم بالله، وذلك الكفر الذي تأباه عقولهم وفطرتهم ومن ثم اتباعهم الباطل بصورة مفضوحة، ولذا فإنهم يبحثون دائما عما يبرر

لهم هذا الموقف، فإذا بهم يختلفون في عدد الملائكة وألوانهم وأشكالهم، بدل أن يسلموا لآيات الذكر الحكيم. وماذا ينفعهم الاطلاع على ذلك؟ هل ينجيهم من عذاب النار؟ كلا.. ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهي من جهة تزيدهم ضلالا ونفورا، ومن جهة أخرى تظهر حقيقة معدنهم وشخصيتهم، كما تظهر النار طبيعة المعدن ذهبا وغيره، والحال أن هذه الآية وما تبينه من حقيقة ترفع المؤمنين درجة رفيعة في الإيمان.. حيث اليقين والتسليم بآيات الله ووعوده ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ قيل: هم اليهود والنصارى، وسبب استيقانهم أنه مذكور في كتابهم (التوراة والإنجيل) أن هذه عدة ملائكة سقر، وحيث يبينها القرآن فذلك يدعوهم لليقين بأنه من عند الله، والأقرب حمل المعنى على أنهم العلماء الذين حُمّلوا رسالة الله، أو الذين أُعطُوا الكتاب، والكتاب هنا كناية عن العلم الذي يسطر فيه. وإنما يستيقنون لأن ما تطرحه الآية يكشف لهم عن حقيقة جديدة من الغيب تزيدهم إيمانا باعتبار كل حقيقة من الغيب يؤمنون بها يرتفعون بها درجة في معراج اليقين. ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ لأن المؤمن كلما اطلع على شيء من الغيب تكاملت معرفته به، ولا ريب في أن هذه المعرفة تعكس أثرها الروحي في شخصيته، فيزداد خوفا من ربه، وإيمانا به، وعملا بأحكامه وشرائعه.

﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي يصلون إلى مرتبة من الإيمان لا شك معها، وهذه من الدرجات الرفيعة، لأن القليل من المؤمنين هم الذين يستطيعون تطهير قلوبهم من رواسب الشك والتردد. وإذا بلغ أحد ذلك فإنه يتجاوز كل ابتلاء وفتنة لأن «**الشُّكُوكَ وَالظُّنُونَ لَوَاقِحُ الْفِتَنِ وَمُكَدِّرَةٌ لِصَفْوِ الْمَنَائِحِ وَالْمِنَنِ**» كما قال الإمام زين العابدين عليه السلام [١].

﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني المنافقين وضعاف الإيمان، الذين يخالط إيمانهم الشك والريب والشرك ﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، وبكلمة: إن الحكمة من وراء ذكر عدة التسعة عشر ابتلاء الناس ليعلم من يؤمن بالغيب فيزداد درجة في إيمانه حتى يبلغ مستوى اليقين الذي لا ريب معه، وليعلم المنافق والكافر بالغيب فيزداد شكا وضلالا. وهكذا نجد هذه الحكمة في سائر شرائع الدين. وإشارة القرآن لسؤال الكافرين ومرضى القلوب: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ يكشف عن جهلهم ومدى ضلالهم وطريقتهم الاستهزائية بالآيات، فإن هدفهم من وراء ذلك ليس البحث عن الحق، بل هو مجرد السؤال بوصفه طريقًا للهروب من مسؤولية الإيمان، وتشكيك أنفسهم والمؤمنين في الحق.. فهم لا يعلمون الغيب حينما راحوا يشككون في صحة قول الله عن عدة أصحاب النار، ولا يستطيعون إنكار ذلك إذ لا دليل عندهم على خلافه.. ولذلك تساءلوا عن الخلفيات لهذه الحقيقة. ولو أجابهم القرآن ببيان سر

(١) الصحيفة السجادية: مناجاة المطيعين.

هذا العدد لاختلقوا سؤالا آخرا، وهكذا.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ أي أن ما طرحته الآيات هو مثل حي للضلال والهداية، فالحقيقة التي بيّنها الله في كتابه واحدة، والمعطيات لدى الفريقين ومن بينها العقل والإرادة واحدة، إلا أن الموقف مختلف تماما، وهذه الصورة العملية للموقفين تكشف عن أن الهدى والضلالة وإن كانا بيد الله إلا أن العامل الرئيسي فيهما هو الإنسان نفسه.. بإرادته واختياره، وليس كما يزعم الجبرية أبدا.

﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ لأنهم غيب مستور، ولأنهم من الكثرة بحيث لا يستطيع عدهم أحد، فكيف وربنا يخلق كل لحظة من ملائكته ما لا يحصيه إلا هو سبحانه وتعالى؟! ففي الأخبار أن لكل قطرة غيث تنزل من السماء إلى الأرض ملكا موكلا بها، وأنه عز وجل خلق ملكا اسمه الروح له ألف رأس في كل رأس ألف لسان وكل لسان ينطق بألف لغة يسبح الله تعالى، فيخلق الله بكل تسبيحة من تسبيحاته ملكا يسبح الله إلى يوم القيامة، أي أنه يخلق عند كل تسبيحة واحدة مليار ملك (سبحان الله).

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾ قيل: «إن الضمير عائد إلى سقر»، وقيل: «عائد إلى عدة الملائكة»، وكلاهما صحيحان لأن الحقيقة واحدة، فكلاهما ذكرى للناس ومتصلان بموضوع الجزاء والعذاب. فالمهم إذن أن يتذكر الإنسان ربه وحقائق الغيب، لا أن يجادل في القشور.. وقد حذرنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من النار مُبيِّنًا صفة واحد من صفات خزنة جهنم فقال: «**وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا الْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارْحَمُوا نُفُوسَكُمْ فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا، أَفَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ وَالْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ؟! فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ: ضَجِيعَ حَجَرٍ وَقَرِينَ شَيْطَانٍ؟ أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ؟ وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ؟... فَاللهَ اللهَ مَعْشَرَ الْعِبَادِ وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ وَفِي الْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا**»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٣٠٦.

كل نفس بما كسبت رهينة

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

هدى من الآيات:

﴿كَلَّا﴾.. بهذا الرد القاطع والعنيف يواجه القرآن أباطيل الكفار في شأن الوحي، إذا زعموا أنه سحر يؤثر، وأنه قول البشر، ويوجهنا إلى ثلاث من آيات الله في الطبيعة، وهي القمر، وحين إدبار الليل، وعند إسفار الصباح، فعندما يتدبر الإنسان في هذه الآيات تتجلى له الحقيقة العظمى ذاتها التي تهدي إليها آيات الذكر وهي حقيقة التوحيد، بل يجدها شهادات هادية إلى الإيمان بالرسالة.. وكأنها تقرأ عليه الآيات الثلاث: (٣٥، ٣٦، ٣٧) من المدثر، وهكذا نجد القرآن في كثير من آياته يربط بين التفكر في الطبيعة والإيمان بالحق المنزل في الكتاب، ذلك أن القرآن ينطق بسنن الله في الخليقة، والكائنات تجسد آيات الله في القرآن، وهنا وهناك نجد تجليات أسماء الله سواء بسواء، وكل واحد منهما يهدي إلى الآخر، فكما أن آياته تكشف

عن حقائقها والأنظمة الحاكمة فيها، وتفسر ظواهرها، فإنها هي الأخرى تهدي إلى الإيمان به (الآيات: ٣١-٣٤) من خلال توافقها مع الكتاب ،و تمثيلها لما فيه.

ولأن سبيل الكتاب قويم وقائم على التوازن بين السلب والإيجاب فإنه يؤكد صدق آياته ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ وذلك مباشرة بعد أن يُسَفِّه مزاعم الكفار حول الرسالة، مؤكدا أن الموقف منها هو العامل الرئيسي في تقدم البشرية أو تأخرها، وذلك أن النفس البشرية رهينة في سجن الجهل والظلم والهوى والشيطان و..وسعيها لا يزيدها إلا ارتهانا وقيودا على قيودها، إلا أن تفك رهانها وتصلح سعيها بالسير على هدى ذكر الله ونذيره للبشر وهو كتابه الكريم، كما فك رهانهم به أصحاب اليمين (الآيات: ٣٥-٣٩).

ومن خلال حوار بين هذا الفريق المفلح وبين المجرمين الذين سلكوا سقر المحرقة والمخزية يبين لنا القرآن معالم الطريق إليها، فهي وإن كانت في الآخرة دركة من النار إلا أنها منهجية عملية في الدنيا تتمثل في ترك الصلاة، وعدم مساعدة المحتاجين والضعفاء، والخوض من الخائضين، والتكذيب بالآخرة، ولقاء الله على هذا الضلال البعيد، والذي لا ريب أن أحدا لا يشفع لصاحبه عند الله، بل لا تنفعه فيه شفاعة الشافعين (الآيات: ٤٠-٤٨).

ويستنكر ربنا على الكفار حماقتهم واستحمارهم بالإعراض عن التذكرة التي جاءت لإنقاذهم من سقر الجهل والتخلف والضلال في الدنيا ومن سقر النار في الآخرة، ولكن هزيمة الإنسان أمام هوى نفسه وهمزات الشيطان، وعدم حضور الآخرة في وعيه، هما اللذان يدفعانه إلى الإعراض عن التذكرة المبينة (الآيات: ٤٩-٥٣).

ولأن المقياس السليم لمعرفة الحق ليس موقف الناس، بل معرفته بذاته، فإن إعراض المجرمين عن القرآن لا يعني من قريب ولا بعيد أنه باطل، ولا يُغَيِّر من واقعه.. ﴿كَلَّا﴾ إنه تذكرة أقبل عليه الناس أو أدبروا عنه، فمن شاء تذكر به ربه والحق، ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ بلطفه وتوفيقه (الآيات: ٥٤-٥٦).

بينات من الآيات:

[٣٢-٣٧] إن الرسالة الإلهية ذكرى للبشر، ولكن الكفار -وبالذات المترفين وأصحاب السلطة منهم- يخشون من الاعتراف بها، لأنها تفضح ما هم عليه من الإثم والضلال، ولذلك تجدهم لا يعترفون؛ تمنعهم عن ذلك عزة الجاهلية، كما أنها تفرض عليهم مجموعة من المسؤوليات والتنازلات كمسؤولية الإنفاق في سبيل الله، والطاعة للرسول ﷺ، والتنازل

عن السلطة، وذلك مما لا تطيقه أنفسهم الضيقة المستكبرة.. فلا بد إذن من إخراج موقفهم الباطل من هذه الذكرى، ولما فكَّروا وقدَّروا بهذه الخلفية الثقيلة تمخضت أفكارهم وتقديراتهم عن نتائج خاطئة، فزعموا أن الرسالة ﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ وأنها ليست ﴿إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، وحتى إنذار الله لهم بالسقر لم ينفعهم، بل اتخذوه تبريرا جديدا لكفرهم، حيث قالوا: إن العدد المذكور عن حُرَّاسها التسعة عشر: عدد قليل يمكن مواجهتهم! وهكذا يفعل كل مترف ومتسلط، لا تزيده الحجج إلا لجاجا، إذ يبحث فيها عن تبرير جديد يزعم أنه يُسوِّغ له الكفر وحتى الاستهزاء، حتى أنك تجد مثلا بعض المتصوفة يستهزئ بالنار ويقول: سوف أطفئها بطرف ردائي! وهكذا توالت كلمات القَسَم في السياق لعلنا نستجيب لها، ونفكر جديًّا بأمر العقاب.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾ قيل: «معناه ليس الأمر على ما يتوهمونه من أنهم يمكنهم دفع خزنة جهنم وغلبتهم»[1]، وقال الرازي (وهو بعيد): «إنه إنكار -بعد أن جعلها ذكرى- أن تكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون»[2]، ومثله الزمخشري في الكشاف. ووجه استبعاد هذا الرأي أن نفي الذكرى بعد إثباتها بقوله: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ يحتاج إلى تبعيض وتخصيص يفرد الكفار ومرضى القلوب عن عموم البشر، ولا دليل عليه. والأفضل أن نقول: إن كلمة ﴿كَلَّا﴾ تأتي لردع الإنسان عن الجهل والغفلة وعن مجمل الأفكار الباطلة التي كان أولئك يؤمنون بها، لأنها تأتي في سياق الجدال مع الخصم فيتأول -عند السامع- إلى نفي أفكاره.

وقسم الله بهذا الكوكب كقسمه بأي شيء آخر يعطيه أهمية وشأنا في وعي الإنسان المؤمن بالذات، ونحن على ضوء هذه الإشارة الإلهية القرآنية ينبغي أن نتحرك لفتح آفاق من المعرفة بهذا الكوكب وأهميته، وعلاقة القسم به بما يريد بيانه القرآن في هذه الآية وسياقها. إن القمر وهكذا الليل بإدباره والصبح عند تنفسه كل هذه الظواهر الكونية تهدينا عند التفكر فيها إلى عظمة الرسالة، وأنها فعلا لإحدى الكُبَر، وأن أباطيل الكفار ليست صحيحة أبدا. ولعل القسم بالقمر جاء للأغراض التالية: أن الحقيقة -وجزء منها رسالة الله- قضية واقعية لا تنتفي بمجرد إنكارها، كما أن القمر والحقائق الأخرى لا تنمحي من واقع الوجود بإنكار البعض لها. وهكذا تبقى الرسالة كالقمر المنير تفرض نفسها على ظلام الكفر أنى حاولوا إنكارها. إنها رسالة عظيمة لو وعوا حقيقتها لتذكروا بها، وعرفوا كم هي إنذار شديد وعظيم للبشر.

﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ قال أكثر المفسرين أن ﴿أَدْبَرَ﴾ بمعنى وَلَّى وذهب، أي قسما بالليل إذ سحب

---

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص٤٩٦.

(٢) التفسير الكبير: ج ٣٠ ص٢٠٨.

ذيوله مؤذنا بطلوع الفجر. وفي التفسير الكبير قال قطرب: «إذا أقبل بعد مضي النهار»[١]، على أساس أنه يقع في دبر النهار ويحل ظلامه على خطا رحيله الأخيرة، وهذا رأي بعيد، وقد عجز البعض عن إدراك وقع ﴿إِذْ﴾ في هذه الآية ودورها في أداء المعنى، فافترض ما يشاء، واعترض على قول الله سبحانه. قال القرطبي بعد بيان الاختلاف في القراءات والمصاحف: «واختار أبو عبيد إذا أدبر (وليس إذ) قال: لأنها أكثر موافقة للحروف التي تليه، أتراه يقول: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾، فكيف يكون أحدهما ﴿إِذْ﴾ والآخر ﴿إِذَآ﴾؟ وليس في القرآن قسم تعقبه ﴿إِذْ﴾ وإنما يتعقبه ﴿إِذَآ﴾»[٢]. ويبدو لي أن ﴿إِذْ﴾ هنا ظرفية لا شرطية كما في ﴿إِذَآ أَسْفَرَ﴾، فيكون المعنى أنه تعالى يقسم باللحظة المباشرة لجمع الليل فلول ظلامه، وكأنه يريدنا أن نعيش ظاهرة إدبار الليل وبزوغ الفجر.

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أي أضاء وانبلج نوره، لأن الصبح له مراحل يتدرج عبرها ويتضح شيئا فشيئا، حتى تطلع الشمس فتطرد كل فلول الظلام، وتكشف للناظر عن وجه الطبيعة من حوله، وفي اللغة: سفرت المرأة سفورا: كشفت عن وجهها فهي سافر، وأسفر مقدم رأسه: انحسر عنه الشعر، وأسفر الغيم تفرق فأبدى وجه السماء، ويقال للصبح (أسفر) لأنه حينما يتشعشع نوره يكشف عن نفسه وعن الطبيعة بكل وضوح. وربنا يقسم به في مرحلة الإسفار وليس في أي مرحلة أخرى من مراحله لتعلّق شرط ﴿إِذَآ﴾ بها بالذات.

وحينما يلتفت الإنسان ببصره إلى هذه الظواهر الكونية الثلاث، ويتفكر فيها بعقله، فإنه يجدها آيات هادية إلى حقيقة التوحيد والربوبية العظمى، وإلى هذه الحقيقة ذاتها بتفاصيلها تهديه آيات القرآن، وحديثه عن سقر وملائكتها وتذكيره بها يؤكد أن الذي خلق هذا الكون هو الذي أنزل ذلك التشريع، وأنه إذا كانت هذه الظواهر وأمثالها كبيرة في نفس الإنسان وعظيمة فإن القرآن والآخرة واحدة من أعظم الحقائق المنذرة.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ قال القرطبي: «روي عن بن عباس ﴿إِنَّهَا﴾ أي أن تكذيبهم بمحمد ﷺ ﴿لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ أي لكبيرة من الكبائر»[٣]، وليس في السياق ما يؤيد هذا الرأي، بالذات إذا وصلنا الآية بما يليها، وقيل: «أي إن قيام الساعة لإحدى الكبر»[٤]، وهذا صحيح مُسَلَّم به إلا أنه لا دليل عليه لا في النص ولا في السياق، وقيل: «يعني سقر، وفيه وجه لأنها واحدة من أعظم شُعَب النار، وأكبر النُّذُر للناس، وقد ذكرت، وقيل: آيات القرآن لإحدى

(١) التفسير الكبير: ج ٣٠ ص٢٠٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩، ص٨٤.
(٣) المصدر السابق: ص٨٥.
(٤) المصدر السابق: ص٨٥.

الكبر في الوعيد»[١]، وهو أقرب الآراء والمصاديق إلى الآية. كما أوّلها أئمة الهدى في الولاية، عن أبي الحسن الماضي (موسى بن جعفر) قال: «**الْوَلَايَةُ**»[٢] باعتبارها سنام الإسلام، وواحدة من أكبر أركانه وأهمها، وعن الباقر عليه السلام قال: «**يَعْنِي فَاطِمَةَ عليها السلام**»[٣] لأن ولاءها وحبها جزء من تولي الله ورسوله وحبهما؛ بإجماع كل المذاهب الإسلامية التي تواترت أحاديث فضلها في كتبهم.

ثم يقول الله: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ عن كل ضلال وتقصير وذنب، وإنما يتمُّ الإنذار ببيان العواقب السيئة لكل ذلك، وبيان طريقة تجنبها. وقد اختُلف في من هو النذير إلى أقوال أقربها ثلاثة:

الأول: أنه النار التي ما جعل الله أصحابها إلا ملائكة.

الثاني: أنه رسول الله صلى الله عليه وآله.

الثالث: وهو أقربها جميعا: أنه القرآن باعتباره المنذر الأعظم والثقل الأكبر على مر الدهور والأجيال.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ فالرسالة الإلهية إذن لا جبر فيها لأحد على اختيار طريقها، بل الناس بالخيار بين الإيمان والكفر، والتقدم والتأخر، وعلى هذا الأساس يجب على كل مصلح ممارسة التغيير والإنذار في مجتمعه وأمته. هذا واحد من معاني الآية وهناك تفاسير أخرى:

ألف: فمن شاء أن يتقدم في الإيمان بالرسالة فيكون من السابقين أو يتأخر فيكون من اللاحقين فإن القرآن نذير له.

بـاء: أن ﴿سَقَرَ﴾ نذير وجزاء لكل من تقدم إلى أئمة الهدى ونهجهم فآمن أو تأخر فكفر بهم لا فرق. وعن أبي الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام قال: «**مَنْ تَقَدَّمَ إِلَى وَلَايَتِنَا أُخِّرَ عَنْ سَقَرَ وَمَنْ تَأَخَّرَ عَنَّا تَقَدَّمَ إِلَى سَقَرَ**»[٤]، وإلى قريب من هذا المعنى أشار ابن عباس بقوله: «من شاء اتبع طاعة الله، ومن شاء تأخر عنها»[٥]، وقال

(١) مجمع البيان: ج ١٠، ص٤٩٦.
(٢) الكافي: ج١ ص٤٣٤.
(٣) تفسير القمي: ج ٢ ص٢٩٦، بحار الأنوار: ج٢٤ ص٣٣١.
(٤) الكافي: ج١ ص٤٣٤.
(٥) الدر المنثور: ج ٦ ص٣٨٥.

العلامة الطبرسي: «وقيل إنه سبحانه عبّر عن الإيمان والطاعة بالتقدم لأن صاحبه متقدم في العقول والدرجات، وعن الكفر والمعصية بالتأخر لأنه متأخر في العقول والدرجات»[1].

جيم: التقدم والتأخر الحضاريين في الدنيا، والتقدم والتأخر في الدرجات في الآخرة، فإنهما مرهونان بموقف الإنسان (فردا ومجتمعا وأمة وبشرية) من كتاب الله وذكراه للبشرية، فإن استمعت للنذر واتبعت الآيات وصلت إلى السعادة في الدارين وتقدمت مسيرتها، وإلا صارت إلى الشقاء والتخلف وواقع المسلمين في التاريخ والآن خير دليل على هذه الحقيقة، فهم لما اتبعوا القرآن سعدوا وتقدموا وقادوا ركب الحضارة البشرية، ولكنهم الآن حيث هجروه تورطوا في أنواع المشاكل والبلاء، وصدق رسول الله ﷺ حينما قال: «**الْقُرْآنُ هُدًى مِنَ الضَّلَالِ، وتِبْيَانٌ مِنَ الْعَمَى، واسْتِقَالَةٌ مِنَ الْعَثْرَةِ، ونُورٌ مِنَ الظُّلْمَةِ، وضِيَاءٌ مِنَ الْأَحْدَاثِ، وعِصْمَةٌ مِنَ الْهَلَكَةِ، ورُشْدٌ مِنَ الْغَوَايَةِ، وبَيَانٌ مِنَ الْفِتَنِ، وبَلَاغٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ، وفِيهِ كَمَالُ دِينِكُمْ** (قال الإمام الصادق عليه السلام فهذه صفة رسول الله للقرآن) «**ومَا عَدَلَ أَحَدٌ عَنِ الْقُرْآنِ إِلَّا إِلَى النَّارِ**»[2].

[٣٨-٤٧] ومع أننا نقول: أن للرسالة الإلهية دورًا أساسيًا في تقدم البشرية أو تخلفها ولكن بشرط أن يسعى الإنسان جاهدا في العمل بها ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾، وتأكيد القرآن على هذه الحقيقة في كثير من المواضيع وبصيغ مختلفة ينطلق من كونها بصيرة أساسية يجب على الإنسان وعيها في حياته، إذ هي روح المسؤولية، والدافع الحقيقي لتحملها.. فمتى ما آمن أحد بالعلاقة بين واقعه وبين سعيه ومستقبله وبين سعيه في الحياة تحمل مسؤوليته بتمامها. ومن الآية الكريمة نهتدي إلى البصائر التالية:

ألف: أن فكرة الجبر فكرة خاطئة، فإن الله قد جعل مصير البشر بأيديهم ولم يشأ أن يحتم عليهم مصائرهم، بل إنهم هم الذين يرتهنون أنفسهم في النار بسعيهم السيئ كالمجرمين أو يفكون أسرهم ويصيرون إلى الجنة بأعمالهم كأصحاب اليمين، وهذا من أبرز مظاهر العدالة والحكمة الإلهية. قال الإمام الصادق عليه السلام يعظ واحدا من أصحابه: «**اقْصُرْ نَفْسَكَ عَمَّا يَضُرُّهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُفَارِقَكَ، واسْعَ فِي فَكَاكِهَا كَمَا تَسْعَى فِي طَلَبِ مَعِيشَتِكَ، فَإِنَّ نَفْسَكَ رَهِينَةٌ بِعَمَلِكَ**»[3].

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٩٦.
(٢) تفسير العياشي: ج١، ص٥، بحار الأنوار: ج٨٩، ص٢٦.
(٣) الكافي: ج٢، ص٤٥٥.

بـاء: أن هذه القاعدة جارية على كل نفس من دون استثناء أو تمييز بين أبيض وأسود، أو ذكر وأنثى، أو عربي وأعجمي، فلا قيمة أسمى من العمل الصالح. هكذا يُشرِّع الله لعباده، وذلك يعني أن كل الفلسفات الضيقة العنصرية والعرقية والقومية و.. مرفوضة.

جيم: أن أغلب المآسي التي تصيب النفس وتصبح رهينة لها هي من كسبها وسعيها، كما قال ربنا سبحانه: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، فالحوادث إنما نذوق طعمها لقلة انتباهنا وضعف وعينا بأمور الحياة وقوانينها، والأمراض إنما تتسلل إلى أجسادنا لعدم اهتمامنا بالقواعد الصحية، والتخلف والتمزق وسيطرة الطغاة والظالمين، وحتى الزلازل والانهيارات وسائر الكوارث الطبيعية.. إنها جميعا من عند الإنسان نفسه، وهكذا الجزاء الأخروي، فإن أصحاب النار هم المسؤولون عن تورطهم فيها لما أقدموا عليه من الجرائم والسيئات، كما أنهم كانوا قادرين قبل انقضاء فرصة العمر على افتداء أنفسهم وفك أسرها بعمل الصالحات، كأصحاب اليمين الذين يمتازون من سائر الناس بذلك.

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ قال الإمام الباقر عليه السلام: «نَحْنُ وَشِيعَتُنَا أَصْحَابُ اليَمِينِ»[1]، وفي الكشاف: «وعن علي عليه السلام أنه فَسَّر أصحاب اليمين بالأطفال، لأنهم لا أعمال لهم يرتهنون بها»[2]، ورجَّحه الرازي في تفسيره، وليست هذه إلا مصاديق لحقيقة واحدة، فالأصل من اليُمْن نقيض الشؤم، كما مر علينا في سورة الواقعة عند قول تعالى: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ [الواقعة: ٨-٩]، وإرجاع التعبير إلى أصله يجعله يتسع لمصاديق أخرى كثيرة. وقد استثنى ربنا أصحاب اليمين باعتبارهم من دون كل الناس ليسوا رهائن لأن كسبهم وسعيهم محمود، بل هم في نعيم واسع مقيم.

﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والسؤال: ما هي أهمية التساؤل عن المجرمين بالنسبة لأصحاب الجنة؟.

أولاً: لأن ذلك يزيد المؤمنين لذة بالنعم مادية ومعنوية، فكما أن تحسس الغني لأوضاع الفقراء يزيده شعورا بفضل الله عليه فإن أصحاب اليمين تزداد لذتهم بنعم الجنة ونعمة الهداية حينما يطَّلعون على نقيضهم.

ثانياً: هذا الحوار المستقبلي نافع للمؤمنين في الدنيا، لأنه يكشف لهم عن مكامن الخطر،

(١) بحار الأنوار: ج٢٤، ص٩.
(٢) الكشاف: ج٤، ص٦٥٥.

ومعالم طريق النار، مما يُمكّنهم من تجنب الأخطاء والمزالق، فإن المعرفة بها لا تقل أهمية عن المعرفة بالصواب والحق. والذي يسعى لبناء شخصية إيمانية في نفسه ينبغي له أن يعرف صفات أهل النار ليتجنبها.

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ أي شيء (عمل ومنهج) قادكم إلى النار؟.

وإجابتهم تبين معالم الشخصية المجرمة من جهة، وتؤكد عمليًا ارتهان كل نفس بكسبها من جهة أخرى، فما هي الأسباب التي أدت بهم إلى الجريمة ومن ثم إلى عذاب سقر؟.

أولاً: تركهم الصلاة ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾، والآية تشمل التاركين للصلاة من الأساس كالكفار والممسوخين من المسلمين، كما تشمل أولئك الذين يمارسون طقوس العبادة ولكنهم لا يلتزمون بقيمها وأهدافها، وهم الذين قال عنهم ربنا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤-٥]، فإنهم عند الله ليسوا من عداد المصلين، لأن تارك الصلاة إنما يصبح مجرما لأنه ترك أعظم دافع نحو الخير وأفضل رادع عن الشر وهو الصلاة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[العنكبوت: ٤٥] وذلك أنها عمود الدين، وروح الإيمان، وصلة التقرب بالله. قال الإمام علي عليه السلام يعظ محمد بن أبي بكر: «**وَاعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ تَبَعٌ لِصَلَاتِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ ضَيَّعَ الصَّلَاةَ فَهُوَ لِغَيْرِهَا أَضْيَعُ**»[1]، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لَا يَزَالُ الشَّيْطَانُ يَرْعَبُ مِنْ بَنِي آدَمَ مَا حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ فَإِذَا ضَيَّعَهُنَّ تَجَرَّأَ عَلَيْهِ وَأَوْقَعَهُ فِي الْعَظَائِمِ**»[2]. وقد أعطى أئمة الهدى بُعْدًا سياسيًا واجتماعيًا لهذه الآية، من خلال تفسير ترك الصلاة في ترك الانتماء إلى حزب الله ورفض القيادة الرسالية، قال إدريس بن عبد الله سألته -يعني الإمام الصادق عليه السلام- عن تفسير هذه الآية، قال: «**عَنَى بِهَا لَمْ نَكُ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ**»[3]، وقال: «**أَمَا تَرَى النَّاسَ يُسَمُّونَ الَّذِي يَلِي السَّابِقَ فِي الْحَلْبَةِ مُصَلِّي، فَذَلِكَ الَّذِي عَنَى حَيْثُ قَالَ: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ لَمْ نَكُ مِنْ أَتْبَاعِ السَّابِقِينَ**»[4]، وهذا واضح في نص الآية الكريمة عند قوله: ﴿مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾.. فالمصلون إذن نهج وحزب وقيادة، وعدم الانتماء إليهم يستوجب عذاب سقر.. ومن هذه الفكرة نهتدي إلى أن اللا أبالية في الصراع بين الحق والباطل في المجتمع دون الانتماء إلى فريق الحق مسألة مرفوضة في الإسلام. ومع أن الكفار والمشركين كافرون بأصول الدين إلا أن الله يشير إلى كفرهم بالصلاة وهي فرع من فروع الدين بوصفها واحدة من الكبائر. لماذا؟! لأنها عمود

(١) بحار الأنوار: ج٨٠، ص٢٤.
(٢) المصدر السابق: ص٢٠٢.
(٣) الكافي: ج١، ص٤١٩.
(٤) المصدر السابق: ص٤١٩.

الدين، فلو كانوا مؤمنين حقًّا لكانوا من المصلين ولأنهم ليسوا كذلك سواء بتركها أو السهو عنها فهم من المجرمين، ولأن الكفار يُحاسبون على الفروع أيضاً بناءً على مطالبتهم بالأصول، فهم قد أضاعوا الصلاة بكفرهم وسوء اختيارهم لا بمعنى أن عبادة الكفار مقبولة، فالقانون واحد لا فرق فيه بين المؤمنين والكفار.

ثانياً: عدم إطعام المسكين ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾، والمسكين أشد حاجة من الفقير، لأنه الذي يُسْكِنُهُ الفقر ولا يملك قوت يومه، ومساعدة هذه الطبقة من الناس واجب شرعي إنساني اجتماعي يفرضه الإسلام كما يفرضه العقل والعرف، فحينما يصل العوز بفرد من الأفراد إلى حد الضروريات الأولية كالطعام اللازم للحياة فإن المجتمع مسؤول أمام الله عن رفع حاجته بأية طريقة ممكنة. وقد عكس الإسلام هذا المبدأ في نظامه الاقتصادي وتشريعاته الجنائية والقضائية، بحيث رفع حد السرقة عمن تدفعه إليها الحاجة الضرورية وقد تخلَّف مجتمعه عن أداء مسؤوليته تجاهه. واعتبر دراسة الأحوال الشخصية والظروف الاجتماعية والاقتصادية جزءا من نظامه القضائي في المجتمع. وتأخذنا الآية الكريمة حينما نتدبرها ضمن سياقها (صفات المجرمين) إلى أبعد من ذلك حينما تعتبر الإنسان الذي لا يتحمل مسؤولية الفقراء والمساكين (فردا ومجتمعا) هو مجرما أيضا، لأن اندفاع المسكين إلى ممارسة السرقة والفساد تحت مس الجوع والحاجة ليس بأعظم جريمة من جريمة عدم إسعافه من قبل ذوي الاستطاعة. إن موقف الإسلام الحازم والواضح من مساعدة المساكين والمحرومين جزء من نهجه الأقوم لعلاج مشكلة الظلم والطبقية، وقد ربط القرآن بين العاقبة (سلوك سقر) وبين الأسباب (الآيات: ٤٣-٤٨) لبيان أن عذاب سقر ليس إلا سلوكيات وأخلاق تتجسد في الآخرة. ولتقريب الفكرة نقول: لو افترضنا (سقرا) سجنا ذا أربعة جدران من نار فإن كل واحدة من صفات المجرمين الأربع تمثل واحدا منها.

ثالثاً: الاسترسال مع التيار ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾، قال قتادة: «معناه كلما غوى غاو للدخول في الباطل غوينا معه، أي كنا نُلوِّث أنفسنا بالمرور في الباطل كتلويث الرِّجل بالخوض، فلما كان هؤلاء يخرجون مع من يكذِّب بالحق مُشيِّعين لهم في القول كانوا خائضين معهم»[(١)] وَمَثَّل لذلك ابن زيد فقال: «نخوض مع الخائضين في أمر محمد ﷺ وهو قولهم: كاذب، مجنون، ساحر»[(٢)].

الاستقلال من أهم أهداف الإنسان في الحياة، باعتباره محتوى التوحيد، وجوهر

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٩٧.
(٢) فتح القدير: ج٥، ص٣٣٣.

العبودية لله، ولباب حرية الإنسان.. من هنا كان الخوض مع الخائضين والاسترسال مع التيار الغالب أنى اتجه كان ذلك جرما عظيما يرتكبه الإنسان في حق نفسه، وهو يعتبر كذلك من مصاديق الشرك بالله، الذي يستوجب عند الله أشد العذاب، لأنه عامل رئيسي من عوامل خطأ الإنسان وانحرافه وضلاله[1]. وقد جاءت رسالات الله تهدي الإنسان إلى ذاته، ومعرفة كرامته عند الله، وآفاق عالمه الكبير، في حين الشيطان، وأولياءه يريدون تضليل الإنسان عن نفسه، وتجهيله بقيمتها وكرامتها ودورها المرسوم في انتخاب الخير ومحاربة الشر، ومن هنا نجد الطغاة والمترفين اليوم قد تسلحوا بأجهزة إعلامية فائقة الكفاءة من أجل سلب الاختيار من الإنسان الفرد، وقولبة شخصيته ضمن المسارات التي يختارونها له، وتَلَقِّي المواقف والأفكار الجاهزة من خلال وسائل السلطة. ولقد استطاعت الأنظمة الاستكبارية في الغرب ربط شعوبها بوسائلها الإعلامية بالخصوص في القضايا السياسية، فهي تخوض حينما خاضت حكوماتها وأحزابها. والشاشة الصغيرة وشبكات الصحف الكبيرة أصبحت اليوم آلهة تُعْبَد من دون الله، وتفرض آراءها على الناس في شتى الأمور. وحتى اختيار لون فستان زوجته، وتسريحة شعرها وطبيعة العلاقة معها، يستمده الإنسان الغربي من وسائل الدعاية والإعلام لا من اختيار حر مستقل.

أما كيف يؤدي حس التوافق إلى الجريمة؟ فالأمر واضح جدًّا، إذ إن الفرد الذي فقد الاستقلال سوف يشارك مجتمعه في أخطائه حينما يتجه مركبه صوب الجريمة والضلال، فإذا فسد أخلاقيًّا فسد معه، وإذا شن حربا ظالمة على الآخرين خاض في دمائهم كما يخوضون، وإذا جلس مجالس الغيبة والبهتان والنميمة أدلى بدلوه في لهو الحديث ولغوه دون أن يملك شجاعة المعارضة.

رابعاً: التكذيب بالآخرة: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ واليقين هنا بمعنى العلم، وقد فُسِّرت الكلمة بالموت لأن الإنسان حينما يموت يرتفع عن بصره كل حجاب، فيرى الآخرة والجزاء وكل الحقائق التي ذكرت بها رسالات الله عين اليقين. وفي الآيتين إشارة إلى أن فرصة النجاة قائمة ما دام حَيًّا، فلو وقع في خط الباطل والإجرام ثم تاب وأصلح قبل الموت نفعه ذلك وإلا فلا. وحيث لا يعلم الإنسان موعده مع الموت ولقاء ربه وجزائه فإنه ينبغي له ملازمة الطاعة والعمل الصالح بلا انقطاع، فلعله وقد فكر في المعصية وواقعها وافاه الأجل فصار إلى سوء العاقبة. هكذا أوصى أمير المؤمنين ابنه الحسن عليه السلام محذرا إياه من الموت: «**فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ فَيَحُولَ**

---

(١) لقد بينا دور حس (التوافق الاجتماعي) السلبي في كتابنا (المنطق الإسلامي): ص٢٣٥-٢٦٢، ط٢: ١٩٩٢م، عن دار البيان العربي، لبنان.

بَيْنَكَ وبَيْنَ ذَلِكَ فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ»(١).

ويعتبر الإسلام التكذيب بالآخرة وجزائها من أهم العوامل التي تدعوا البشر إلى التحلل من المسؤولية، والإفراط في الانحراف والذنوب، والتعبير القرآني الوارد في الآية دقيق جدًّا إذ يقول الله ﴿نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وكأن التكذيب بالآخرة وسيلة إلى كل تكذيب. بلى؛ إن خشية العقاب تردع الإنسان من مخالفة القوانين، ومن لا يخشى عقاب ربه كيف يلتزم بشرائعه؟، من هنا يؤكد العلماء على ضرورة القوانين الجزائية، لأنها ضرورة ملحة في تنظيم علاقات المجتمع. وقد أطلق الله على يوم القيامة أسماء كثيرة قد تتفق في حيثياتها الأولية، ولكنها بلا شك تختلف في إيحاءاتها النفسية والمعنوية، بحيث يمكن لنا القطع بأن التعبير بـ (يوم الدين) في هذا السياق أصلح من أي تعبير آخر، ونكتشف ذلك في المفردات ضمن السياق الذي ترد فيه.

ولأن سياق سورة المدثر عن تبليغ الرسالة وتكذيب الكفار ومرضى القلوب بحقائق الدين كان من الحكمة التأكيد على (يوم الدين) بالذات، لبيان أن الدين هو المحور والميزان في الآخرة، وأن حقائقه التي يُكَذِّب بها أعداء الرسالة سوف يأتي اليوم الذي يجليها، وبالتالي التأكيد على أن التدين ضرورة مصيرية لكل إنسان.

[٤٨-٥٣] ويبين لنا القرآن صفة خامسة لأصحاب سقر هي في الحقيقة عامل رئيسي من عوامل الجريمة والمعصية، وهو الفهم الخاطئ لمفهوم الشفاعة الذي تنادي به كل رسالات الله، حيث التمنيات التي تُحَوِّلها إلى مبرر لممارسة الخطايا.

وإذا كان هذا الفهم تبلور لدى اليهود في نظرية البنوة وشعب الله المختار، ولدى النصارى في نظرية الفداء، فإن بعض المسلمين أيضا انزلق إلى مثل هذه المفاهيم والتمنيات، ولكن بقوالب وتعابير مختلفة، فقال البعض: إن المسلمين خير أمة أخرجت للناس، وإن الله لا يعذب أمة فيها حبيبه النبي محمد ﷺ، وقال فريق: إن الأولياء يشفعون له الخطايا من دون قيد وشرط، والقرآن ينسف كل هذه التمنيات الباطلة حتى لا يدع مجالا للإنسان يفر عبره من تحمل المسؤولية، وقد حَذَّر أئمة الهدى من هذا الفهم الخاطئ للشفاعة، قال أبو بصير: «دَخَلْتُ عَلَى حُمَيْدَةَ أُعَزِّيهَا بِأَبِي عَبْدِ الله عليه السلام فَبَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ لَوْ شَهِدْتَهُ حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ وقَدْ قَبَضَ إِحْدَى عَيْنَيْهِ ثُمَّ قَالَ عليه السلام: **ادْعُوا لِي قَرَابَتِي وَمَنْ يَطُفُّ بِي، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا حَوْلَهُ قَالَ عليه السلام: إِنَّ شَفَاعَتَنَا لَنْ تَنَالَ مُسْتَخِفّاً بِالصَّلَاةِ**»(٢).

(١) نهج البلاغة: كتاب: ٣١.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٩، ص٢٣٦.

والآية القرآنية قوية في وقعها ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ لأن أحدا لا يشفع لهم، وعلى افتراض ذلك لا تنفعهم، فكيف وأن أولياء الله لا يشفعون إلا لمن ارتضى رب العزة؟ وإنما عبر القرآن بهذه الصيغة لينسف تصوراتهم الخاطئة والمغرقة في الأماني، وليس لبيان أن أحدا قد يتقدم للشفاعة في المجرمين، بلى؛ إن الشفاعة حقيقة واقعية ولكنها تنفع من تكون مسيرته الكلية مسيرة صحيحة فتسقط عنه سيئاته الجانبية، ولا تكون مسيرة الإنسان العامة سليمة إلا بالإقبال على رسالة الله، واتباع رسله وأوليائه، من هنا يستنكر الله على الكفار والمشركين إعراضهم عن تذكرته في الوقت الذي يتطلعون إلى ذلك.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ قال مقاتل: «الإعراض عن القرآن من وجهين: أحدهما الجحود والإنكار، والوجه الآخر ترك العمل بما فيه»[1]، مع أن التذكرة إنما جاءت من أجل نجاتهم (البشر) بتعبير القرآن، وليس ضدهم، فحق أن يستنكر القرآن موقفهم اللئيم من إحسان الله إليهم بالرسالة، وأن يشبههم بالحمير وصفا لواقعهم وحطًّا من قدرهم.

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ والاستنفار من النفور المختلط بشعور الخوف والخطر، والكلمة دخلت مصطلحا في علم العسكرية، يقال: استنفر الجيش إذا توقع عدوًا وتأهب لدفعه، وفي اللغة: «المستنفر الشارد المذعور»، والكلمة على وزن مُسْتَفْعِل مما يهدينا إلى أن المعرضين عن التذكرة يزيد أحدهم الآخر إعراضا ونفورا عن الحق، كما يزيد أفراد القطيع من حمار الوحش بعضهم بعضا ذعرا وشرودا من سطوة الأسد الهصور حينما يهجم عليهم. «والقسورة على الأقرب اسم الأسد حينما ينقض على طريدته، من القسر بمعنى القهر، أي أنه يقهر السباع، والحمر الوحشية تهرب من السباع»[2] كأشد ما يكون، وسُمِّي الرامي والصياد قسورة لأنه بسهمه يصطاد الصيد ويقهره، وتقول العرب لكل رجل قوي شديد قسورة لأنه يصرع الأقران، ويخافه الآخرون، وما أبلغه من تشبيه تصويري رائع.

ولعل سائلا يسأل: لماذا يفر البشر من التذكرة؟.

والجواب: إن وجدان الإنسان وعقله يرفضان كفره وعصيانه، ويعيش المجرم صراعا دائما معهما ولكنه قد عقد عزمه على المضي قدما مع شهواته، فيتهرب من الوعظ والإرشاد حتى لا يدعم جانب عقله ووجدانه، لأن الرسالة تكبح جماح الهوى، وتحدد تصرفات النفس بالأحكام والنظم، وتحمله كامل المسؤولية في كل بعد من أبعاد الحياة الفردية والاجتماعية. ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ قال ابن عباس: «كانوا يقولون: إن كان محمد

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج١٩، ص٨٨.
(٢) المصدر السابق: ص٨٩، بتصرف يسير.

صادقا فليصبح عند كل رجل منا صحيفة فيها براءته وأمنه من النار، قال مطر الوراق: أرادوا أن يُعطَوا بغير عمل»، وقال الكلبي: «قال المشركون: بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يصبح عند رأسه مكتوبا ذنبه وكفارته، فاتنا بمثل ذلك»، وقيل: «إن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا: يا محمد! ائتنا بكتب من رب العالمين مكتوب فيها: إني قد أرسلت إليكم محمدا ﷺ. نظيره: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الاسراء: ٩٣]»[1]. وما يريدونه محمول على ثلاثة أوجه:

الأول: أنهم يريدون مشاهدة الرسالة الإلهية تتنزل في قرطاس يلمسونه، ويكون متميزا معجزا من كل جهاته، وما ذلك إلا شرط تبريري للفرار من مسؤولية الإيمان والطاعة للرسول، وقد فضح الله هذه النوايا الخفية، وكشف عما في قلوبهم من مرض فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

الثاني: أن الخضوع لقيادة الآخرين، وبالذات الخضوع الشامل لجوانب الحياة، كما في الأطروحة الإسلامية للقيادة، من أصعب الأمور على الإنسان، باعتباره يفرض عليه الخروج من شح النفس وحب الذات، ويحدد مواقفه وتصرفاته، هذا في سائر الناس، أما إذا كان من المترفين وأصحاب الوجاهة فالأمر أثقل عليه وأصعب، حيث تتوق نفسه للرئاسة على الآخرين، في حين النظام الإسلامي يفرض عليه الانصياع لأوامر القيادة الرسالية، وربما التنازل عن المراكز الاجتماعية التي لا يستحقها والأموال التي جمعها من غير حِلِّها.. وهذا ما لا يطيقه أبو جهل وأمثاله، لذلك ترى كل واحد منهم يتمنى لو يكون هو الرسول الذي يختاره الله فينزل عليه وحيه، ومن ثم يفرض قيادته على الناس، ويوجب عليهم الخضوع له. قال مجاهد: «أرادوا أن ينزل على كل واحد منهم كتاب فيه من الله عز وجل: إلى فلان بن فلان»[2]. وفي الآية اعتراف ضمني من المشركين والكفار بأن الرسالة فضل عظيم، تمناها كل واحد منهم لنفسه لما فيها من الشرف.

الثالث: أن هذه الآية كشفت عن عقدة مستعصية عند الإنسان لا بد من الجهاد حتى يتغلب عليها، وهي تلك العقدة التي أشارت إليها آيات عديدة في الذكر تبين طلبات الكفار الإعجازية، مثل قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢]، ومثل قوله:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج١٩، ص٩٠ بتقديم وتأخير.
(٢) المصدر السابق: ص٩٠.

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، فهذه الآيات ونظائرها تكشف عن عقدة أساسية عند الإنسان وهي أنه ينتظر ما يجبره على اتباع الحق جبرا، فتراه دائم الطلب بما يراه علة لإيمانه أو يُسوِّف الإيمان والعمل الصالح إلى أيام يزعم أن يجد فيها ما يكون سببا تامًّا لهما. وكما تتجلى هذه الطبيعة في الإنسان الفرد فإنها قد تتجلى في شعب كامل وأمة كاملة، وثابت عمليًّا في تاريخ البشر ولدى علماء النفس أن بعض الشعوب تنتظر حالة الكره على القانون حتى تلتزم به، وهو انتظار سخيف، إذ شرف الإنسان وكرامته (فردًا أو أمة) يتمثل في انتخابه الحر للخير والفضيلة، وليس في تحويله إلى أداة طيِّعة لإرادة قاهرة حتى ولو استخدمت في الطريق الصحيح.

هكذا كانت الهداية من مسؤولية الإنسان ذاته، أن يختارها، ويسعى جاهدا إليها، ويجأر إلى ربه لتوفيقه إليها.. ويكون دليله في كل ذلك عقله الذي يميز له وبوضوح كاف سبيل الهدى عن طريق الضلال، مما لا يدع له مجالا للتبرير، وهو أكبر حجة لله عليه، ولعل الكلمة التالية توحي بذلك: ﴿كَلَّا﴾ ليس تبريرهم مقبولا، وليس سبب استمرارهم على الكفر عدم وجود هذا الشر أو ذاك. وقوله في الآية السابقة ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ﴾ إشارة إلى كون هذه الصفة مرتكزة في كل فرد فرد من البشر إلا ما شاء الله، وإلا مَنْ ينتصرون عليها ويصلحون أنفسهم. ثم يبين ربنا بقول فصل العامل الرئيسي في موقف الكفار من قيم الدين وقيادة الرسول، ألا وهو عدم حضور الآخرة في وعيهم.

﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ إذن فطلبهم صحفا منشرة والمعجزات الأخرى ليس إلا تبريرا لموقفهم، وغطاء لشيء آخر هو عدم الخوف من الآخرة، فالآخرة إذن ليست فكرة مجردة يكفي الإنسان أن يلقلق بها لسانه، ويحفظها في ذاكرته، بل هي حقيقة كبيرة يجب أن يتفاعل معها عمليًّا، فتعكس آثارها في سلوكه وشخصيته، وأظهر آيات ذلك الخوفُ من الآخرة، بالخوف من عذاب الله وغضبه، فإنها أحق بأن يخافها البشر. وعدم الخوف من الآخرة قد يكون نتيجة للكفر المحض بها، وقد يكون نتيجة للأفكار التبريرية التي ينسجها الإنسان بخياله، كالشرك بالله، وأفكار الفداء الخاطئة.

[٥٤-٥٦] ثم يقول الله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ أي إن الإعراض والنفور عن القرآن لا يُصيِّره باطلا، فهو بآياته وحقائقه يذكِّر البشر بأعظم الحقائق، بل بها كلها، إذ فيه تبيان لكل شيء. والرسول هو الآخر مصداق للتذكرة، حيث يقوم بالأهداف ذاتها التي جاء من أجلها القرآن، وأعظمها تذكير الإنسان بربه عز وجل، عبر الأدلة والآيات التي تثير فيه العقل وتوقظ الضمير ولكن من دون جبر، فالرسول ما عليه إلا البلاغ المبين، والقرآن ليس دوره إلا بيان

الحق والباطل معا، ووضع الإنسان بكل وجوده المادي والمعنوي أمام الاختيار ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ بإرادته ووعيه، فإن أي اختيار آخر مرفوض عند الله، ولا ينفع صاحبه بشيء لا في الدنيا ولا في الآخرة. ولعمري إنها لمن أظهر الآيات على أن الرسالة حق، أن تعترف للإنسان بحريته واختياره ومسؤوليته، وألّا يمارس معه أي لون من ألوان الإكراه إذ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] انطلاقا من حاجته هو إلى الحق، وليس العكس. وهذه في الوقت نفسه خصيصة تميز الرسالة الإلهية عن الدعوات البشرية المرتكزة على الجبر والإكراه، ومن ثم تجاهل دور الإنسان وحقه في تعيين مصيره.

وتوازن الآيات بين الجبر والتفويض، لأن بصيرة القرآن تهدي إلى أمر بين أمرين، وذلك من خلال تذكيرنا بحقيقة مهمة بقرار الإنسان واختياره في الحياة، ألا وهي أن مشيئته لا تكون إلا بالله. أوَليس الله خلق الإنسان وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فلولا خلقه هل كان شيئا حتى يشاء!، ثم إنه منحه العقل والإرادة، ووفَّر له فرصة المشيئة، ولو كان الإنسان كالحجر لا يملك عقلا أو إرادة فهل كان يشاء شيئا!، وعندما وُفِّرت له فرصة المشيئة وفي لحظة المشيئة لولا نور التأييد الذي ينمي إرادته لم يكن يمضي في مشيئته قُدُمًا في مقاومة جواذب الشهوة وركائز النقص والعجز والجهل التي هو فيها. أليس كذلك!، وحينما تكون الهداية محور المشيئة أفيمكن للإنسان أن يبلغها من دون تذكرة ربه وتوفيقه!، كلَّا.. وهكذا قرار الإنسان مركب من أمرين: أحدهما متصل به، والآخر متصل بربه، فحيث يختار الهداية ويسعى إليها سعيها يهديه الله ويبارك سعيه، وهذا معنى قول الإمام الصادق عليه السلام: «**لَا جَبْرَ وَلَا تَفْوِيضَ وَلَكِنْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ** قَالَ: قُلْتُ: وَمَا أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ؟ قَالَ: **مَثَلُ ذَلِكَ رَجُلٌ رَأَيْتَهُ عَلَى مَعْصِيَةٍ فَنَهَيْتَهُ فَلَمْ يَنْتَهِ فَتَرَكْتَهُ فَفَعَلَ تِلْكَ الْمَعْصِيَةَ فَلَيْسَ حَيْثُ لَمْ يَقْبَلْ مِنْكَ فَتَرَكْتَهُ كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي أَمَرْتَهُ بِالْمَعْصِيَةِ**»[1].

وقال عليه السلام: «**الله أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُكَلِّفَ النَّاسَ مَا لَا يُطِيقُونَ** (يجبرهم) **والله أَعَزُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي سُلْطَانِهِ مَا لَا يُرِيدُ**»[2] (فيفوض لهم الأمر).

وقال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام لما سأله المأمون: يا أبا الحسن! الخلق مجبورون؟: «**اللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُجْبِرَ خَلْقَهُ ثُمَّ يُعَذِّبَهُمْ. قَالَ: فَمُطْلَقُونَ؟ قَالَ: اللَّهُ أَحْكَمُ مِنْ أَنْ يُهْمِلَ عَبْدَهُ وَيَكِلَهُ إِلَى نَفْسِهِ**»[3]، وهذا البيان العميق للأئمة عليهم السلام في شأن إرادة الإنسان وقراره هو الحق الذي تهدينا إليه الأدلة والحجج البالغة، وأهداها وجدان الإنسان نفسه وتجاربه الشخصية، فإن الجبرية وإن جادلوا عن رأيهم إلا أن كل واحد واحد منهم يعلم علم يقين -وجدانا- أنه

(١) بحار الأنوار: ج٥، ص١٧.
(٢) الكافي: ج١، ص١٦٠.
(٣) بحار الأنوار: ج٥ ص٥٩.

هو الذي يقرر ما يريد لا يكرهه أحد على ذلك، وإن المفوضة ليعلموا أن الأمور ليست كلها بأيديهم لا في أصل المشيئة؛ حيث أنها هبة منه تعالى، ولا في إعمال المشيئة؛ حيث إن المهيمن يفسخ العزائم وينقض الهمم ويحول بين المرء وما يريد إن شاء تعالى.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي أنه -عز وجل- أهل أن يتقيه خلقه ويخافوه، وأهل أن تُرجى رحمته ومغفرته، وهذه اللمسة القرآنية الأخيرة تضع الإنسان على الصراط السوي بين الخوف والرجاء، كما وضعته الآيات بين الجبر والتفويض، على أن مغفرة الله تسبق غضبه.

سُورَةُ القِيَامَةِ

* مكية.

* عدد آياتها: ٤٠.

* ترتيبها النزولي: ٣١.

* ترتيبها في المصحف: ٧٥.

* نزلت بعد سورة القارعة.

فضل السُّورة

عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «مَنْ أَدْمَنَ قِرَاءَةَ ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ وَكَانَ يَعْمَلُ بِهَا بَعَثَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله مِنْ قَبْرِهِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَيُبَشِّرُهُ وَيَضْحَكُ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَجُوزَ عَلَى الصِّرَاطِ وَالْمِيزَانِ».

(بحار الأنوار: ج٨٩، ص٣١٩)

الإطار العام

دور القيامة في تعميق الإيمان

أيحسب الإنسان أن يترك سدى؟ أي شيء في كيانه يدل على العبثية واللهو؟ خَلْقُه أطوارا، أم فطرته القويمة، أم نفسه اللوّامة التي تُبَصِّره بنفسه رغم المعاذير التي يلقيها، أم الحجج البالغة وأعظم بها كالقرآن الذي تكفل الرب بجمعه وبيانه؟.

هكذا تترى آيات السورة تُعمِّق في وعينا المسؤولية التي تتجلى في يوم القيامة حيث يُسَوِّي الله حتى البنان، وحيث تترى فيه الفواقر والدواهي.. ولا يجد الإنسان مفرًّا ولا وَزَرًا يلجا إليه.

هكذا نهتدي إلى محور السورة المسؤولية، وهدفها تعميق الشعور بها، والآية التي تتجلى بها قوله سبحانه: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾.

وتفصيل هذه الحقيقة أن القرآن يذكرنا في مطلع السورة بحقيقتين: القيامة والنفس اللوامة، ويربط بينهما على أساس أنهما مظهر للمسؤولية، فكما يستحث الإيمان بالقيامة الإنسان لتحملها فإن النفس اللوامة هي الأخرى تقوم بالدورذاته من بُعْدٍ آخر، إذ تقف أمام تراجعاته، وتنهره عن التقصير في أداء الواجب، وعن اقتحام الخطيئات (الآيات: ١-٢).

ويستنكر السياق زعم الإنسان أنه لن يبعث تارة أخرى بعد أن يصير أشلاء موزعة ورميا. هل يحسب أن قدرة الله محدودة مثله؟ كلا.. قدرته تفوق تصور البشر.. فهو ليس قادرا على جمع عظامه وحسب، وإنما يقدر أن يسوي بنانه أيضا، والإنسان حينما يراجع نفسه ويتفكر في آيات قدرة الله في الطبيعة فإنه يعرف تلك الحقيقة، ولكنه إنما يخترع تلك الأفكار تبريرا للهروب من عرصة المسؤولية، والإيمان بالرسالة التي تحدد تصرفاته ولا تجعله مطلقا يتبع الهوى كما يريد.. ويؤكد القرآن مرة أخرى أن هذه هي الخلفية الحقيقية لسؤاله عن القيامة (الآيات: ٣-٦).

ويداوي ربنا هذا المرض المستعصي في النفس البشرية بالتأكيد للإنسان أنه وإن استطاع مؤقتا (في الدنيا) تبرير ضلاله والفرار من المسؤولية تحت غطائه فإنه لن يجد في المستقبل مفرًّا من ربه حينما تقوم القيامة ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ وعبر قنطرة الدنيا الفانية إلى دار الاستقرار عند الله، فهنالك يجد نفسه وجها إلى وجه مع حقيقة أمره حيث يجد ما عمل محضرا أمامه (الآيات: ٧-١٣).

ويثير الوحي فينا حس النقد الذاتي، عن طريق تذكيرنا بحقيقة وجدانية مُسَلَّمة، ألا وهي بصيرة الإنسان على نفسه، فإنه قبل الآخرين شاهد عليها وعالم بواقعها، مهما توسَّل بالأعذار والتبريرات الواهية، وإنما يؤكد القرآن هذه الحقيقة لأن المراقبة الذاتية أعظم أثرا، وأرسخ للتقوى في شخصية الفرد (الآيات: ١٤-١٥).

ثم ينعطف السياق إلى الحديث عن القرآن نفسه، داعيا الرسول إلى عدم التعجل به من قبل أن يُقضى إليه وَحْيُه، مؤكدا تكفله تعالى بجمعه وقرآنه ثم بيانه للناس.. وهذا مما جعل المفسرين يتحيرون في فهم العلاقة بين سياق السورة وبين هذا المقطع، إلا أن هناك علاقة متينة ستتعرض لإيضاحها في البينات (الآيات: ١٦-١٩).

وتهدينا الآيات إلى واحد من عوامل الانحراف وعدم تحمل المسؤولية عند الإنسان، والذي لو استطاع التغلب عليه لاهتدى إلى الحق، وسقط الحجاب بينه وبين الآخرة، ألا وهو حب العاجلة (الدنيا) على حساب الآخرة، والبحث عن النتائج الآنية وإنكار الجزاء الآجل ولو كان الأفضل، بل ولو كان مصيريًّا بالنسبة إليه، فهو يعيش لحظته الراهنة دون التفكير في المستقبل، وهي نظرة ضيقة خطيرة. وحين يفشل الإنسان في الموازنة بين الحاضر والمستقبل، وبين الدنيا والآخرة فإنه يخسرهما معا (الآيات: ٢٠-٢١).

والحل الناجع لهذه المعضلة عند البشر يتم بإعادة التوازن بينهما إلى نفسه، ولأن العاجلة شهود يعايشه بوعيه وحواسه فإن حاجته الملحة إلى رفع الغيب إلى مستوى الشهود عنده، ولذلك يضعنا القرآن أمام مشاهد حية من غيب الآخرة حيث الناس فريقان: فريق السعداء الذين تُجَلِّل وجوههم النضارة، ويصلون إلى غاية السعادة بالنظر إلى ربهم عز وجل، وفريق البؤساء الخاسرين أصحاب الوجوه الباسرة، الذين ينتظرون بأنفسهم العذاب والذلة (الآيات: ٢٢-٢٥).

ويمضي بنا السياق شوطا آخر يحدثنا فيه عن لحظات الموت الرهيبة حيث تبلغ النفس التراقي فيعالج الإنسان سكرات الموت حيث يلف ساقا بساق، ويقبض كَفًّا ويبسط أخرى.

بلى، إنه أول مشهد من الآخرة، والنافذة على عالمها الواسع.

وكما أن تكذيب أحد بهذه الحقيقة لا يدفعها عنه ولا يُغَيِّر من شأنها فإن التكذيب بالآخرة هو الآخر لا يُغَيِّر قدر ذرة من أمرها، لأنها حقيقة واقعة وقائمة (الآيات: ٢٦-٢٩).

ولأن مشكلة الإنسان ليست إنكار الموت، ولا زعم القدرة على دفعه، بل الشك فيما بعده أو الكفر به، انعطف القرآن نحو إنقاذه من حيرة الشك في المستقبل والجهل به، وكأنه يحل لغزا رجع صداه في أكثر النفوس البشرية، ببيان أن مسيرته في الحياة لا تنتهي بالموت، وإنما الموت جسر إلى عالم أبدي أوسع، هو عالم لقاء الله والحساب والجزاء بين يديه، وذلك مما يعمق الشعور بالمسؤولية في النفس (الآية: ٣٠).

وغياب هذه الحقيقة من وعي الإنسان هو المسؤول عن عدم تصديقه وعن تركه للصلاة، وهو يدفعه إلى التكذيب، وركوب مطية الغرور، وإن من يكون على هذه الصفات الموت أولى به من الحياة، والعذاب من الرحمة (الآيات: ٣١-٣٥).

ويرجعنا القرآن إلى الجذر الأصيل لكفر الإنسان بالبعث والجزاء: إنه جهله بقدرة ربه سبحانه، فليتفكر في أصل خلقته حين كان ﴿نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ فخلقه الله وسوَّاه، متكاملا في ذاته، ومتكاملا مع الجنس الآخر بأن خلق ﴿مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ فهذه آية واضحة للعقل على قدرة الله ﴿عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، لأن أصل الخلق أعجب وأدل على قدرته تعالى من الإعادة (الآيات: ٣٦-٤٠).

بل الإنسان على نفسه بصيرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ (١) وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ (٣) بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ[١] (٤) بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ (٥) يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ (٩) يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ[٢] (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ (١٥) لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ[٣] (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ[٤] (٢٥) كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ[٥] (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ[٦] (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ[٧] (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ

---

(١) بنانه: البنان الأصابع، واحدها بنانة.

(٢) لا وزر: لا ملجأ يلجأ إليه، والوزر ما يتحصن به من جبل أو غيره.

(٣) باسرة: كالحة متغيرة، وقال الراغب في معنى البسور: إنه إظهار العبوس قبل أوانه وفي غير وقته، ويدلُّ على ذلك قوله عز وجل: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.

(٤) فاقرة: هي الكاسرة لفقار الظهر، وقيل: الفاقرة الداهية والآبدة.

(٥) التراقي: العظام المكتنفة بالحلق.

(٦) راق: طبيب.

(٧) يتمطى: جاء في مفردات الراغب: أي يمدُّ مطاه أي ظهره، والمطية ما يُرْكَب مطاه من البعير، وقد امتطيتُه ركبتُ مطاه، والمِطْوُ الصاحب المعتمد عليه، وتسميته بذلك كتسميته بالظهر.

لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

بينات من الآيات:

[١-٢] حتى يتعمق الإيمان عند الإنسان ويتحمل مسؤولياته في الحياة لا بد أن يستثار فيه حافزان: وعي الآخرة بما تعنيه من بعث وجزاء، ثم نفسه اللوامة التي تثير في داخله النقد الذاتي بما يعني ردعه عن اقتحام الخطيئة، فالمسؤولية إذن هي الجذر الأصيل الذي تلتقي فيه فكرة القيامة وحقيقة النفس اللوامة، من هنا يذكرنا القرآن بهما جنبا إلى جنب في سياق علاجه لموضوعها.

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ وإن لكلمة ﴿الْقِيَامَةِ﴾ تعبيرا عن الآخرة هنا إيحاء نفسيًّا خاصًّا، يُذكِّر الإنسان بالبعث في واحد من أعظم مشاهد تلك الحياة حيث القيام من وهدة القبر للحساب والجزاء والقيام أظهر تجليات الحياة إذ لا يقوم الشيء حتى يستوي تماما ويكتمل. أما في القسم المنفي فإن أكثر المفسرين على أن ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ﴾ زائدة، و أن التقدير: ﴿أُقْسِمُ﴾. بيد أنهم لم يذكروا لهذه الزيادة وجها معقولا. والذي يقطع التأوُّل المُتكلَّف؛ أن الزيادة في الدلالة لا معنى لها في كلام الحكيم. ومع أن النظام النحوي يفترض الزيادة لكنها زيادة نحوية لا دلالية، بل إن هذا الافتراض إنما يكون مع تباين النحو الإعرابي عن النحو الدلالي. فـ ﴿لَا﴾ هذه على حالها بلا تكلف نافية، وتأتي في معرض نفي القسم وذلك لأحد أمرين:

الأول: إجلالا لقدر المُقْسَم به، أن يُقْسَم به على أمور واضحة بَيِّنة، لا تحتاج إلى سند يسندها من قسم أو نحوه.

الثاني: لأن المقسم لأجله أوضح من أن يحتاج إلى قسم، فالإجلال لـ«المُقْسَم لأجله» بخلاف الاحتمال الأول.

والاحتمال الثاني أوجه وأقوى، وذلك لأن (المقسم لأجله) ذو شأن يليق القسم لأجله، وسيلاحظ المتتبع ذلك، فلاحظ سورة الواقعة إذ المقسم لأجله أعظم شأنا من مورد المقسم به﴿ ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٧]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾

وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ [الانشقاق:١٦-١٩]، وقوله سبحانه:﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير:١٥-٢٠]، وقوله جل شأنه:﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة:٣٨-٤٠]، وأيضا:﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ [المعارج:٤٠-٤١]، وقوله عزّ من قائل:﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد:١-٤].

وذلك أن في القسم المنفي -هنا- مؤشرين:

الأول: أن الإشارة للقسم ولو نفيا يفيد معنى القسم أي التأكيد والتقرير للحقيقة (المقسم لأجله) وذلك لعدم الحاجة للقسم فلا أقسم لشدة الوضوح. وهنا في نهاية المطاف نلتقي مع الرأي السائد (أي معنى القسم) وإن اختلفنا في المسلك.

الثاني: في أهمية المقسم به، والمناسبة بينه وبين المقسم لأجله.

أما عن النفس اللوامة فهناك أقوال كثيرة، فعن قتادة: «(إنها النفس) الفاجرة يقسم بها»[1]، وعن ابن عباس قال: «المذمومة»[2]، وهما رأيان بعيدان جدًّا تخالفهما النصوص التي جرى استخدام الكلمة فيها على وجه الإيجاب، كما يخالفهما المعنى اللغوي للوامة، وعن مجاهد: «تندم على ما فات وتلوم عليه»[3]، وعن الحسن قال: «إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه،... وإن الفاجر يمضي قُدُمًا لا يعاتب نفسه»[4]. والذي أختاره وتدلل عليه النصوص أن في الإنسان نفسين:

الأولى: تختار الباطل والفساد وهي الأمارة.

الثانية: تدعو إلى الحق والصلاح وهي اللوامة، ونعبر عنها في الأدب الحديث بالضمير والوجدان، وهذه النفس تستيقظ داخل الإنسان لتعاتبه على عدم العمل بالحق، وتنهره عن اقتحام الباطل.

وإنما عَبَّر القرآن عنها بصيغة المبالغة (فَعَّالة) لأنها كثيرة الملامة لصاحبها والنصيحة إليه، فإذا ما استجاب لها نمت وأخذت موقعها ودورها الإيجابي في حياته، وإذا أدمن الصد عن

---

(١) الدر المنثور: ج ٦ ص ٢٨٧.

(٢) المصدر السابق: ص٢٨٧.

(٣) المصدر السابق: ص٢٨٧.

(٤) المصدر السابق: ص٢٨٧.

نداءاتها ومخالفتها تباطأت عن العمل فلا تعود تلومه على خطاياه كثيرا.

وبرامج الإسلام تهدف تنمية هذه النفس، وتعتمد عليها في كثير من تشريعاته جنبا إلى جنب اعتمادها على العقل، وهكذا يكون للإنسان محكمتان: محكمة نفسه اللوامة، ومحكمة الآخرة، قال الإمام الصادق عليه السلام: **«أَلَا فَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، فَإِنَّ فِي الْقِيَامَةِ خمسين مَوْقِفاً كُلُّ مَوْقِفٍ مُقَامُ أَلْفِ سَنَةٍ»**(١)، وقال الإمام السجاد عليه السلام: **«ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَا تَزَالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَكَ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِكَ وَمَا كَانَتِ الْمُحَاسَبَةُ مِنْ هَمِّكَ»**(٢). ولأن النفس اللوامة تقوم بدورها في حياة الإنسان تجعل الرسالات الإلهية والمواعظ الخارجية تلقى تجاوبا منه، وإلا فهي لا تؤثر شيئا إذا عُطِّل العقل ومات الضمير، قال الإمام الصادق عليه السلام: **«مَنْ لَمْ يَجْعَلْ (نَفْسَهُ لَهُ) مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظاً فَإِنَّ مَوَاعِظَ النَّاسِ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُ شَيْئاً»**(٣).

[٣-٤] وكما أن القيامة يوم البعث وجمع العظام فإن النفس اللوامة آية وجدانية على القيامة باعتبارها صورة مصغرة عن تلك المحكمة العظمى، بل إنها تصبح بلا مبرر لولا أن الإنسان سيلاقي حسابه الأوفى في يوم من الأيام. من هنا يكون كفر البشر بالآخرة مع وجود النفس اللوامة فيه موضع استنكار، ودليل ضلال فيه مبين، ما توحي به الآية: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ والمتتبع لموارد استخدام كلمة (حسب) على صيغها المختلفة في القرآن يجد أنها تعني الظن والزعم الذي لا أساس له، وذلك يعني أن تشكيك الإنسان بالآخرة لامبرر له أبدا، وإنما يعتمد على التمنيات الواهية، والخيال البعيد، كما توحي الآية بأن مشكلة الإنسان ليست في عدم إيمانه بخطئه، إذ إنه إن لم يعترف به للناس فإنه لا يستطيع الفرار منه أمام محكمة الضمير، ولكن مشكلته كفره بالحقيقة الثانية ألا وهي القيامة، التي تعني البعث والحساب والجزاء، وذلك أنه لا يستطيع استيعاب حقيقة العودة إلى الحياة بعد أن يموت ويصير أشلاء موزعة وعظاما بالية تستحيل ذرات تراب مع الأيام.

وجذر هذا التصور نجده حينما نبحث عنه في جهل الإنسان بقدرة ربه التي لا تحد، وتقييم شؤون الخلائق بما فيها البعث والنشور من خلال قياساته الذاتية وقدراته المحدودة، دون أن يعرف أن للكائنات العظيمة التي خلقها الله من جبال ووهاد وأراضٍ وبحار وسماوات ومجرات.. أن لها مقاييس أخرى لا تقاس بذاته. ولهذا فإنه حيث يجد نفسه عاجزة عن جمع عظام الموتى يحسب الأمر مستحيلا أما لو عرف ربه لتغير تصوره وموقفه، وآمن بالآخرة مصدقا قول

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٦٤.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٦، ص٩٦.

(٣) مستدرك الوسائل: ج١١، ص١٤٠-١٤١.

ربه: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ عن سعيد بن جبير قال: «سألت ابن عباس عن الآية فقال: لو شاء لجعله خُفًّا أو حافرًا.. ولكن جعله الله خلقًا سويًا حسنًا جميلًا»[1]، وعنه قال: «نجعلها كَفًّا ليس فيه أصابع»[2]، والأقرب منه أن تكون التسوية هنا بمعنى الخلق الكامل، بإعادة البنان على خلقها وكمالها الأول بعد الموت والتحلل في التراب، وهذا رَدٌّ على شك الإنسان في قدرة الله على جمع الأعظم المتفرقة الرميمة، أي أنه تعالى ليس قادرا على جمعها وحسب، بل هو قادر على كسوها لحما وإعادة الحياة إليها. وإذا كانت اليدان من خصائص الحضارة البشرية فإن الأصابع هي ميزة اليد عند الإنسان بما فيها من دقة وقوة وأناقة، وخصوصا البنان الذي يقوم بدور عظيم في حياة الإنسان.

وقد اعتبر البعض هذه الآية سبقا في بيان حقيقة علمية يستفاد منها كثيرا في القانون الجنائي، وهي: اختلاف خطوط أطراف الأصابع من إنسان إلى آخر، والتي أصبحت بذاتها علما مستقلا يسمى بعلم البصمات، ترتكز عليه الدوائر الأمنية في مكافحة الجريمة ومعرفة المجرمين.

وتعبير الله في الآية الثالثة ﴿نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ يهدينا إلى أن الإنسان مهما تحلل في التراب إلا أنه لا يتحول إلى العدم، بل يبقى أجزاء وذرات صغيرة متفرقة هنا وهناك، والخلق الثاني بالبعث يبدأ بجمعها إلى بعضها عبر قوانين دقيقة وإرادة إلهية تجعل ذرات كل فرد وعضو وجزئياته تجتمع وتلتحم مع بعضها، والله العالم.

[٥-٦] أما سبب كفر الإنسان بالآخرة فهو أنه لا يريد الالتزام بالشرائع والحدود، بل يريد أن يطلق العنان لأهوائه وشهواته ومن ثم لا يتحمل مسؤولية في الحياة. ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ قال الإمام الصادق عليه السلام: «أَيْ يُكَذِّبَهُ»[3]، وعلى هذا أجمع جل المفسرين قال العلامة الطبرسي: «فالفجور هو التكذيب»[4]. وقال الفخر الرازي: «أي يُكَذِّب بما أمامه من البعث والحساب، لأن من كَذَّب حقًّا كان كاذباً وفاجراً»[5]. والذي يبدو لي أن الكلمة بمعناها الأصلي وهو الشق والتحطيم، وإنما سمي الفجر فجرا لأنه يشق الظلام ويحطمه، والفجور في الأخلاق والسلوك مثل ذلك، حيث إن الفاجر لا يلتزم بقيمة ولا قانون، بل يشق عصا المجتمع والشرع باقتحام اللذات والخطايا، ولا يريد أمامه شيئا يعيقه أبدا، وهذا التفسير لا يعارض حديث الإمام ولا أقوال المفسرين لأن التكذيب مقدمة ومصداق للفجور. ولم أجد من المفسرين

(١) الدر المنثور: ج ٦، ص٢٨٧.

(٢) المصدر السابق: ص٢٨٧.

(٣) بحار الأنوار: ج٢٤، ص٣٢٧.

(٤) مجمع البيان: ج ١٠، ص٥٠٢.

(٥) التفسير الكبير: ج ٣٠، ص٣١٨.

من قال ذلك، إلا إشارة عند الرازي إذ قال: «من أنكر المعاد بناء على الشهوة فهو الذي حكاه الله تعالى بقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، ومعناه: أن الإنسان الذي يميل طبعه إلى الاسترسال في الشهوات، والاستكثار من اللذات، لا يكاد يقر بالحشر والنشر، وبعث الأموات، لئلا تتنغص عليه اللذات الجسمانية، فيكون أبدا منكرا لذلك»[1]. والضمير في ﴿أَمَامَهُۥ﴾ إما أن يعود إلى يوم القيامة، أو إلى الله عز وجل، حيث إن الفاجر يمارس فجوره في حضور وشهادة الله، أو يكون عائدا على الإنسان نفسه باعتباره يفجر أمام ضميره وبشهادة من جوارحه التي تُدلي بشهادتها عليه عند الحساب. والأصح أن الضمير يرجع إلى الإنسان، لأن الحديث حوله وسائر الضمائر ترجع إليه، ولعل هذا جعل ذلك مستساغا إذ يقال عادة: أمام نفسه.

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لأن الكفر بالقيامة هو الذي يُبَرِّر له التحلل من المسؤولية، فهو في سعي حثيث وجدل دائم من أجل إنكارها، وصناعة قناعة ولو داهية لنفسه وللآخرين بذلك، فسؤاله ليس سؤال استهزاء وسخرية فقط، بل هو سؤال تبرير وجدل أيضا. وإنها لصفة كل من يترك العمل بالحق ويخالف القيم، إذ لا بد من تبرير لموقفه، فكيف إذا كان فجورا؟ ولصيغة السؤال هذه استبعاد وتسويف بالتوبة، قال الزَّجَّاج: «ويجوز أنه يريد أن يُسَوِّف التوبة، وَيُقَدِّم الأعمال السيئة، وقيل: معناه أنه يتعجل المعصية ثم يُسَوِّف التوبة، ويقول: أعمل ثم أتوب»[2].

[٧-١٣] ويبقى المكذب بالآخرة مسترسلا مع أهوائه وشهواته، في فجور بعد فجور، لأنه لا يحسب حسابا للقاء ربه، ووقائع القيامة التي تطبع آثارها المذهلة والرهيبة عليه وعلى الطبيعة من حوله، فهنالك لا يجد مفرًّا من حكومة الله وجزائه، لأن الوضع يختلف في الآخرة عن الدنيا، حيث تنتهي فرصة الامتحان والحرية. ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ قال في التبيان: «يقال برق البرق إذا لمع، وأما برق بالكسر فمعناه تَحَيَّر، وقال الزجاج: بَرَقَ إذا فزع، وبَرِقَ إذا حار»[3]، وفي المجمع للعلامة الطبرسي: قال أبو عبيدة: «بَرِقَ البصر: إذا شق وانشد»، وقال ﷺ: «أي شَخَصَ البصر عند معاينة ملك الموت، فلا يطرف من شدة الفزع، وقيل: إذا فزع وتحيَّر من شدة أهوال القيامة»[4]، وقال الرازي بعد أن نقل رأي الزجاج: «والأصل فيه أن يُكثِر الإنسان من النظر إلى لمعان البرق، فيؤثر ذلك في ناظره، ثم يستعمل ذلك في كل حيرة، وإن لم يكن هناك نظر إلى البرق»[5]. وما أختاره أن بروق البصر يحمل معنى الحيرة والدهشة لحالة الذهول

(١) التفسير الكبير: ج٣٠، ص٣١٩.
(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٠٢.
(٣) التبيان: ج ١٠، ص١٩٢.
(٤) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٠٢.
(٥) التفسير الكبير: ج٣٠، ص٣١٩.

والخوف التي تصيب الإنسان لسبب من الأسباب. وأنه يحدث بعض الأحيان نتيجة الإرهاق أو الصدمات الروحية والمادية أن يرى الواحد أمام ناظريه ما يشبه النجوم الصغيرة، ولعل هذه الظاهرة لون من بروق البصر. وفي المنجد: «برق برقا تحيَّر وَدُهِشَ فلم يبصر، البرقة: الدهشة والخوف»[١]. وبصر الإنسان يبرق يوم القيامة.. ومع أنه يبرق عند الموت إلا إن حمل المعنى على القيامة أقرب إلى السياق فالحديث عنها، والمشاهد التالية متصلة بها لا بالموت.

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ قال الزمخشري: «ذهب ضوؤه، أو ذهب بنفسه»[٢]، وجاء الفعل معلوما في حين يقال عادة خُسِفَ ببناء الفعل للمجهول، ولعله للدلالة على أنه في الحالات الطبيعية يحجب نوره بعوامل خارجية كوقوع الأرض بينه وبين الشمس في حركتها السنوية، مما يتسبب في حجب شعاعها عنه ووقوع ظل الأرض عليه. أما في الآخرة فإن القمر نفسه ينخسف ولا يُخْسَفُ بشيء خارجي، فهو فاعل الخسف وليس غيره.

ومشهد مريع آخر يُلفت القرآن نظرنا إليه، وهو اختلال النظام الكوني في الحياة، ومن مظاهره جمع الشمس والقمر، وهذه النتيجة حتمية وطبيعية في ذلك اليوم، فالكون والنظام إنما أوجدهما الله للإنسان، وحيث ينتهي دوره في الدنيا ينتهي معه كل متعلق به ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، وعلماء الفلك يدركون الآثار التي يُخلِّفها مثل هذا الأمر على الكائنات.

وما هو أعظم وأرهب بالنسبة للإنسان من هذه الأحداث الكونية تلك الحقائق التي يمثلها يوم القيامة ويكشف عنها، وأهمها حقيقة الجزاء والمسؤولية، التي طالما كَذَّب بها وسعى للفرار منها بشتى الحيل والذرائع، فهناك يجد نفسه وجها لوجه أمامها ولا سبيل له للهرب منها ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾، وإنما يكشف القرآن للإنسان مشاهد الآخرة حتى يزرع التقوى في نفسه فيضع بذلك حدًّا لفجوره وغروره، ولأن المعرفة بالمستقبل والإيمان بحقائقه يخلِّفان توازنا في مسيرته الدنيوية الحاضرة، فهو إنما يَفْجُر زعما منه أنه سيجد مهربا من المسؤولية، ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ أي ملجأ ومأوى. قال المبرد والزجاج: «أصل الوَزَر الجبل المنيع، ثم يقال لكل ما التجأتَ إليه وتحصنت به وَزَر»[٣]، «ومنه الوزير الذي يُلجأ إليه في الأمور»[٤]، يقال وَزَرْتُ الحائطُ، إذا قَوِيَت بأساس يعتمد عليه، وقال الحسن: «لا جبل، لأن العرب إذا دهمتهم الخيل بغتة قالوا: الوزر، يعنون الجبل»[٥].

---

(١) المنجد: مادة برق.

(٢) الكشاف: ج ٤، ص٦٦٠.

(٣) التفسير الكبير: ج ٣٠، ص٢٢١.

(٤) مجمع البيان ج ١٠، ص٥٠٢.

(٥) التبيان: ج ١٠، ص١٩٤.

وفي الآخرة لا يجد أحد مفرًّا ولا ملجأ من جزائه، وعذاب ربه. بلى، هناك مفر واحد فقط ينفع الإنسان، وهو أن يفر إلى ربه الذي منه العذاب، وإليه المصير، ولا يكون ذلك فجأة، إنما يحتاج الأمر إلى تمهيد في الدنيا قبل الآخرة ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، قال صاحب المجمع: «أي ينتهي الخلق يومئذ إلى حكمه وأمره، وقيل ﴿ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾: المكان الذي يستقر فيه المؤمن والكافر، وذلك إلى الله لا العباد»[1]. والأصح إطلاق الكلمة كي تتسع إلى كل المعاني التي توحي بها هذه العبارة، كالقرار، والمصير، والمقر، والحكم، والأمر.. إلخ، وفي ذلك تنبيه للإنسان إلى أن الدنيا ليست محلًّا للخلود والاستقرار، ولا محطة أخيرة، فيجب أن يُكَيِّف نفسه مع هذه الحقيقة الهامة، وليس معنى الآية أن المستقر دون ذلك اليوم ليس لله ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾[النجم: ٢٥]، ولكن حكمته اقتضت أن تكون لنا الحرية في الدنيا، ويومئذ يكشف لنا الغطاء بصورة أوضح وأجلى عن هيمنته وسلطانه المطلقين، ونكتشف فيها نكتشف علمه وإحاطته التامَّين حينما يعرضنا للحساب والجزاء فنجد أنه أحصى كل صغيرة وكبيرة لنا وعلينا.

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، في التبيان ومثله المجمع: «أي يُخبر الإنسان يوم القيامة بأول عمله وآخره فيجازى به، وقيل: بما قدَّم من العمل في حياته، وما سَنَّه فَعُمِلَ به بعد موته من خير أو شر، وقيل: بما قدَّم من المعاصي (على الطاعات) وأخَّر من الطاعات»[2]، (على المعاصي). قال الإمام الباقر عليه السلام: «**بِمَا قَدَّمَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَمَا أَخَّرَ مِمَّا سَنَّ مِنْ سُنَّةٍ لِيُسْتَنَّ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ فَإِنْ كَانَ شَرًّا كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِهِمْ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ وِزْرِهِمْ شَيْءٌ، وَإِنْ كَانَ خَيْرًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أُجُورِهِمْ وَلا يُنْقَصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**»[3]. وحضور مشهد الحساب الأخروي في وعي الإنسان في الدنيا له دور كبير في بعثه على التقوى والطاعة، وممارسة النقد الذاتي البناء. والله قادر أن يجازي الناس مباشرة بعد بعثهم ولا أحد يسأله عما يفعل، ولكنه يأبى إلا أن يُجلي علمه وعدالته لخلقه.

[١٤-١٥] والسياق مَهَّد السبيل للحديث عن البصيرة الأساسية التي تعتبر محورا هاما في السورة، وهي وعي الإنسان بمسؤوليته عبر استثارة نفسه اللوامة، التي تجعله عليها شاهدا ورقيبا مما يصلح مسيرته ويوجهه إلى تحمل المسؤولية بتمام المعنى، فلا يمارس الخطيئة لأنها تحتاج إلى التبريرات والأعذار، وهي لا تنفع شيئا عند الله ولا عند محكمة نفسه ﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ وهنا نهتدي إلى عده بصائر:

١- يهدف الإسلام عبر منهجه التربوي تنمية وازع الضمير عند الإنسان بوصفه ضمانة

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٠٢.
(٢) المصدر السابق: ص٥٠٢.
(٣) تفسير القمي: ج٢، ص٣٩٧.

أساسية لالتزامه بالشرائع. من هنا القرآن يذكّره بالحقائق الوجدانية المرة بعد الآخرة.

٢- كما أن الإنسان لا يجد مفرًّا من حكومة الله يوم القيامة ولا تنفعه الأعذار، فإنه حين يراجع ذاته (ضميره وعقله) يواجه الموقف نفسه، حيث يعلم أن الأعذار التي يقدمها لا واقع لها، فهي قد تخدع غيره ولكن لن تخدع وجدانه.

٣- إن الأعذار التي يلقيها الإنسان أكثرها كاذبة، يلجأ إليها لتبرير أخطائه وسلوكياته المنحرفة، وهي لا تغيِّر من الواقع شيئا لا عند الله ولا عنده. وورود الكلمة بالجمع ﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾ فيه دلالة على أنه يتقن فن صناعة التبرير، وأنه حينما يريد تبرير موقف أو عمل ما متصل به لا يكتفي بعذر واحد بل يختلق أعذارا كثيرة.

وهذه البصائر تنسف الثقافة التبريرية التي هي أهم أسباب التخلف والإجرام، ذلك لأن الإنسان الذي خُلِق في أحسن تقويم، وأُنشئت نفسه على فطرة الاستقامة، ثم زُوِّد بالنفس اللوامة التي تراقب انحرافه بمقياس دقيق، إنه لا يقفز -مرة واحدة- من قمة الحق إلى حضيض الباطل، إنما يهبط إليه عبر سُلَّم التبرير وتقديم الأعذار، فإذا بنفسه الأمارة بالسوء تُسَوِّل له الخطيئة، تقول له مثلا: أنّى لك النقاء الكامل، أنت طَيِّب أكثر من اللازم، ولا يمكنك أن تعيش من دون ظلم أحد، كل الناس يظلمون بعضهم.. وهكذا يُقَدِّم الأعذار لانحرافه حتى يبتعد كليًّا عن طريق الحق ويتسافل إلى الحضيض.

وإذا عرف الإنسان الدور السلبي للأعذار وأنها غطاء رقيق لارتكاب الجرائم الخطيرة وأنها لا تعني شيئا، فإن ذلك يساهم في استقامته على الحق.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**مَا يَصْنَعُ أَحَدُكُمْ أَنْ يُظْهِرَ حَسَناً وَيُسِرَّ سَيِّئاً أَلَيْسَ يَرْجِعُ إِلَى نَفْسِهِ فَيَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ كَذَلِكَ وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾، إِنَّ السَّرِيرَةَ إِذَا صَحَّتْ قَوِيَتِ الْعَلَانِيَةُ**»[1]، وقال عليه السلام: «**مَا يَصْنَعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَعْتَذِرَ إِلَى النَّاسِ بِخِلَافِ مَا يَعْلَمُ اللهُ مِنْهُ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ** صلى الله عليه وآله **كَانَ يَقُولُ: مَنْ أَسَرَّ سَرِيرَةً أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَهَا إِنْ خَيْراً فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرّاً فَشَرٌّ**»[2].

واختُلف في تاء ﴿بَصِيرَةٌ﴾ فقيل: إنها للتأنيث وتعود على الجوارح، فكأن الآية تقول: إن جوارح الإنسان على نفسه بصيرة، وقيل: هي للمبالغة فإن العرب تقول: فلانة علَّامة، وفلان علَّامة. والذي يبدو لي إضافة إلى ذلك أنها راجعة إلى النفس، فنفس الإنسان عليه بصيرة، ولم

(١) الكافي: ج٢، ص٢٩٥.

(٢) المصدر السابق: ص٢٩٦.

أجد من المفسرين من قال ذلك.

وقد اعتمد الفقه الإسلامي هذه البصيرة القرآنية في تحديد بعض التشريعات والتكاليف، بإيكال تشخيص موضوعها وحكمها إلى الإنسان نفسه من دون حاجة إلى مراجعة الفقيه أو المختص، قال زرارة: سألت أبا عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام): ما حد المرض الذي يفطر صاحبه؟ قال: «**بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يُطِيقُ**»[1]، وفي رواية أخرى: «**هُوَ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ ذَاكَ إِلَيْهِ**»[2]، وقد ذهب بعض الفقهاء في فهمه لهذه إلى حد القول: إن كلام المختص ليس حجة ملزمة دائما، فلو أمره بالصيام على أساس أن المرض لا يضره ولكنه ارتأى الضرر فله الحق في مخالفته، والعكس كذلك صحيح.

[١٦-١٩] لكي تتبلور نظرة الإنسان إلى نفسه، وتتميز في وعيه حوافز الخير والصلاح عن شهوات الشر والفساد، لا بد أن يعي الآخرة وأهوالها، وينتبه إلى نفسه اللوامة، ويستضيء بالقرآن الذي هو حجة ظاهرة فيما العقل حجة باطنة، وهما يلتقيان في الحق وفي إعطاء الإنسان مقياسا سليما فيه. من هنا ينعطف السياق إلى الحديث عن تبليغ الرسالة داعيا النبي صلى الله عليه وآله إلى عدم الاستعجال بالقرآن.

وقد تحيّر المفسرون في العلاقة بين الآيات: (١٦-١٩) وبين السياق العام للسورة، حتى قاد الجهل بعضهم إلى آراء بعيدة كل البعد عن حقيقة الرسالة، فزعم أن القرآن تعرَّض إلى التغيير عن مواضعه، إذ لا ينبغي أن ترد الآيات المذكورة في مثل سورة القيامة، وقال آخرون: إن الحديث هنا ليس عن القرآن وإنما هو عن كتاب الإنسان الذي يلقاه يوم القيامة منشورا، ... فقال القفال: وإن قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ ليس خطابا مع الرسول صلى الله عليه وآله بل هو خطاب مع الإنسان المذكور في قوله: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ فكان ذلك للإنسان حالما يُنبأ بقبائح أفعاله، وذلك بأن يعرض عليه كتابه، فيقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] فإذا أخذ في القرآن تلجلج لسانه من شدة الخوف، وسرعة القراءة فيقال له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ فإنه يجب علينا بحكم الوعد وبحكم الحكمة أن نجمع أعمالك عليك، ونقرأها عليك، فإذا قرأناه عليك ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ بالإقرار بأنك فعلت تلك الأفعال»[3]. ومثل ذلك قال العلامة البلخي ونص كلامه: «وإنما أراد قراءة العباد لكتبهم يوم القيامة، يدل على ذلك ما قبله وما بعده، وليس منه شيء يدل على أنه القرآن، ولا شيء من أحكام الدنيا»[4].

---

(١) بحار الأنوار ج٩٣، ص٣٢٦.

(٢) المصدر السابق: ص٣٢٦.

(٣) التفسير الكبير: ج ٣٠ ص ٢٢٣.

(٤) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٥٠٤.

والذي يبدو لي في الصلة بين الآيات ما سبق من أن القرآن -إلى جانب يوم القيامة والنفس اللوامة- حجة على الإنسان ومحكمة لعمله، يكشف للإنسان الحق عندما يرجع إلى آياته، ويعرض نفسه عليها، وينبغي للرسول ألّا يستعجل به بهدف إكمال الحجة على الناس، بل يجب أن يتبع ما يُقضى إليه بشأنه، فإن ذلك يكفي لهداية من يريد الهداية ويبحث عنها، أما الذين لا يريدون تحمل المسؤولية، ويسعون دائما لإلقاء الأعذار والتبريرات (فلا يخافون يوم القيامة، ولا يسمعون ملامة أنفسهم) فإن الاستعجال بالقرآن وعرضه كله عليهم مرة واحدة لا يغيّر في حياتهم شيئا أبدا، والسبب أن مشكلتهم ليست قلة الآيات، بل كونهم لا يريدون الإيمان وتحمُّل المسؤولية، فلماذا العجلة إذن؟

كما أن علاج الإنسان المشتمل على كثير من الصفات السلبية، كالجدل، وحب الراحة، والتبرير، وإرادة الفجور، ومن ثم التكذيب بالقيامة وبما تعنيه من مسؤولية في الدنيا، وبعث وحساب وجزاء في الآخرة، إن علاجه من كل هذه الأدواء لا يتم مرة واحدة، بل لا بد من منهجية تربوية مخططة ومتدرجة، تنتشله من حضيض الباطل إلى قمة الحق لتسمو به في آفاق الكمال والهدى. وهذا يقتضي التدرج في طرح الإسلام عليه.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ قال ابن عباس: «كان النبي ﷺ إذا نزل عليه القرآن عجل بتحريك لسانه لحبه إياه، وحرصه على أخذه وضبطه مخافة أن ينساه، فنهاه الله عن ذلك»[1]، وفي الدر المنثور عن مجاهد قال: «كان الرسول ﷺ يستذكر القرآن مخافة النسيان، فقيل له: كفيناك يا محمد»[2]، وعلى هذا الرأي مؤاخذات عدة:

الأولى: أن نهي الرسول ﷺ عن فعل شيء ما لا يعني أنه ﷺ قد أتى به من قبلُ، فليس صحيحا أنه كان يخشى النسيان وهو على يقين بأن الله يلهمه القرآن ويثبته في قلبه. وقد نهى الله نبينا الأكرم ﷺ عن أمور كثيرة من قبيل إطاعة الكفار والمنافقين فهل نفهم من ذلك أنه خضع لهم؟!، حاشا لحبيب الله. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

الثانية: أنه تعالى بيّن لنبيه ﷺ أنه لا ينسى فقال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، والزعم أن رسول الله ﷺ كان قد خشي النسيان يعني (والعياذ بالله) أنه شك في وعد الله وكلامه هذا له.

الثالثة: أن القرآن يشير بوضوح إلى باعث النبي على التفكير في الاستعجال بالقرآن،

---

(١) مجمع البيان ج ١٠ ص٥٠٤.
(٢) الدر المنثور: ج ٦ ص ٢٨٩.

وهو خشيته من أن تحول الظروف دون أن يُجمع القرآن ويُقرأ على الناس وتَبيُّن معانيه لهم. أو كان شديد الاهتمام بهداية الناس بالقرآن حتى كاد يهلك نفسه، حتى قال ربنا سبحانه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]. ويبدو أن الذين أخطؤوا فهم الآية قادهم إلى ذلك التصوير الفني في تعبير القرآن: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾، والذي هو أسلوب شائع في آياته الكريمة.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي جمع آياته فلا يضيع شيء منها، والكلمة تتسع إلى معنى التأليف والنظم مما يهدينا إلى أنه تعالى حفظ القرآن عن التحريف بزيادة أو نقيصة، وتكفَّل هو بتأليف آياته سورا سورا، فليس ترتيبه على هذه الطريقة التي بين أيدينا من فعل المسلمين، بل من فعل رسول الله ﷺ بأمر الله عز وجل، الذي تكفَّل إضافة إلى ذلك بقراءته للناس بالكيفية الصحيحة التي يريدها هو أن يقرأ بها كتابه.

ولعل في ذلك إشارة إلى بطلان نظرية القراءات السبع، وإلى أنها من عند القراء أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان. بلى؛ هناك قراءة صحيحة علَّمها الله لنبيه فعلمها بدوره المسلمين، وهي الشائعة بين المسلمين. وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا﴾ لا يعني أنه بذاته يجمعه ويقرأه، كلا.. بل إنه سبحانه قد هَيَّأ الأشخاص الذين يقومون بهذا الدور والظروف التي تساعد على تحقق هذه الغاية، فلم يَتَوفَّ نبيه ﷺ حتى بَلَّغَ كامل رسالته وقرأها للناس، بل وكُتِبَتْ بأمره مُبيِّنًا ترتيب السور والآيات. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإمام علي عليه السلام كان أول من كتب كامل القرآن وجمعه في حياة الرسول ﷺ وبعده، وهذا من أهم الأدوار الحضارية التي قام بها عليه السلام، لأن اندثار القيم الحضارية لأية أمة يعني نهاية الأمة، فقد تنحرف مسيرتها ومسيرة قيادتها لفترة من الزمن فتبقى القيم ضمانة العودة، أما لو خُرِقت القيم نفسها فلا ضمانة لعودتها.. وهذا ما يجعل تعهد الله بجمع القرآن وبقرآنه وبيانه ضرورة حكيمة تقتضيها حكمته البالغة باعتبار الإسلام دين الإنسان إلى يوم القيامة، لا يجوز له أن يبتغي غيره، فكيف يسمح ربنا اللطيف أن تضيع على البشرية فرصة الهداية بتحريف القرآن؟.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ قال في المجمع: «أي قرأه جبرائيل عليك بأمرنا ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي قراءته، والمعنى: اقرأه إذا فرغ جبرائيل عن قراءته، وقيل: أي فاعمل بما فيه من الأحكام والحلال والحرام»[1]، وفي النصوص أن القرآن أُنزل جملة واحدة على الرسول في ليلة القدر في شهر رمضان، فكان يأمره الله حسب حكمته بقراءته على الناس في المناسبات المختلفة. وكانت الحكمة الإلهية تفرض على الرسول التحرك في المجتمع على ضوء ما يُقضى إليه من الآيات

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٠٤.

وبقدره: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]، ليبني المجتمع الإسلامي النقي، ومن ثم الأمة الإسلامية الحنيفة على ضوء آيات الوحي، ويتم -بالتالي- تثبيت فؤاد النبي وسائر المؤمنين عبر القرآن، وهكذا لم ينزل القرآن لمجرد قراءته وحفظه، بل حتى يطبقه الناس ويتبعوا هداه في الحياة. وهذا يهدينا إلى أن الله يوفق الإنسان لفهم آيات الذكر بما يتم عليه حجته البالغة، فإن آمن واتبع هداه نور قلبه بالمزيد من المعرفة، وإن كفر جعل قلبه قاسيا، وطبع عليه بكفره. ولعل في ذلك بصيرة يحتاجها كل داعية رسالي ألا وهي ضرورة تحدي انفعالاته وردود فعله، بل يجب أن يتبع خططه الحكيمة، وينتظر بكل خطوة وموقف الإذن والأوان المناسب.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «يَا مُفَضَّلُ إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، وَقَالَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، وَقَالَ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، قَالَ الْمُفَضَّلُ: يَا مَوْلَايَ فَهَذَا تَنْزِيلُهُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَكَيْفَ ظَهَرَ الْوَحْيُ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً؟ قَالَ: نَعَمْ يَا مُفَضَّلُ أَعْطَاهُ الله الْقُرْآنَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَكَانَ لَا يُبَلِّغُهُ إِلَّا فِي وَقْتِ اسْتِحْقَاقِ الْخِطَابِ وَلَا يُؤَدِّيهِ إِلَّا فِي وَقْتِ أَمْرٍ وَنَهْيٍ»[1].

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ إيضاح معانيه، وبيان حقائقه وتأويلاته، حتى لا تبقى للإنسان حجة على الله، ولكي تكون لله الحجة البالغة عليه في الدنيا والآخرة. أما كيف يبين ربنا قرآنه الكريم لكافة الناس فلعل من أسبابه: أنه يَقَيِّض الدعاة إليه، والأَدِلَّاء عليه، وأهل البصائر النافذة لتفسيره وبيانه، ثم إن لله حجتين على الإنسان واحدة باطنة هي عقله، وأخرى ظاهرة هي رسالة الله ورسله، وهما يلتقيان في وجدان كل إنسان سوي، فما يأمر به القرآن من قيم الصدق والعدل والإحسان يأمر به العقل أيضا، وهذا من سبل بيان القرآن لأنه يتطابق ووجدان الإنسان وفطرته وعقله والعرف العام عند العقلاء.

وهناك سبب آخر لبيان القرآن: أنه يفسر بعضه بعضا، فلا تكاد كلمة تذكر في سياق إلا ويفسرها السياق ذاته قبله وبعده، ببيان مصاديقها وأمثلتها التاريخية وشواهدها الواقعية، فلا يدع الناس في حيرة من أمرهم، وأبرز مثل لذلك سورة الإخلاص حيث تأتي كل كلمة فيها تفسيرا لما سبقتها، فتفسير ﴿قُلْ﴾ يأتي بما بعده من قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾، وتأويل ﴿هُوَ﴾: ﴿ٱللَّهُ﴾، وتفسير ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو أنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، كما أن مجملات القرآن في سورة تفسرها مُفَصَّلاتها في سور أخرى، وهكذا جعل الله القرآن مُيَسَّرا للذكر بسبل شتى.

---

(١) بحار الأنوار: ج٨٩، ص٣٨.

[٢٠-٢٥] ولكن هل يقتنع الإنسان بذلك البيان ويلزم نفسه بالحجج؟ ﴿كَلَّا﴾ لأنه يريد أن يفجر أمامه، ومن ثم لا يتبع عقله باعتباره يحدد سلوكه وأفعاله، وإنما يتبع هواه، وتابع الهوى لا يعرف حدًّا ولا قيمة. وعنوان اتباع الهوى هو حب الدنيا الذي يترتب عليه ترك الآخرة ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ وهذا هو جذر كل خطيئة عند الإنسان، كما بيّن رسول الله ﷺ في حديثه المشهور: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»(١). وقد قال الله: ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ولم يقل: (الدنيا) لأنه يريد الحديث عن صفة عند البشر هي التي تدعوه للّهث وراء حطام الدنيا وترك الآخرة، وهي كونه يحب كل مقدَّم معجَّل، ويقدمه على كل مؤخَّر مؤجَّل، دون النظر إلى المصلحة العامة والأساسية في أيهما تكون، فقد يختار دينارا معجلا على ألف مؤجلة، مع أنه قد لا يجد دليلا ينفي ما في المستقبل.

وعلاج هذه المعضلة البشرية يتم بإيجاد التوازن في وعيه بين الحاضر والمستقبل، وينتهج القرآن من أجل ذلك نهج التذكرة والتصوير لمشاهد الآخرة مما يزيدها حضورا في وعيه، وهذا ما نقرؤه في الآيات التالية:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ والكلمة تتسع لجميع معاني الحسن والجمال والبشر التي تعبر عن نفس مطمئنة راضية تفيض سرورا وأملا برحمة الله. قال أهل اللغة: نضر الوجه، نَعُمَ وَحَسُنَ وكان جميلا، فهو ناضر ونَضِر ونضير، وجاء في سورة [المطففين الآية ٢٤]: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي بريقه ورونقه. ووجوه المؤمنين يوم القيامة ناضرة فرحا وسرورا بلقاء ربهم، ورضوانه، وجزائه الحسن، وغاية ذلك نظرهم إلى ربهم حيث يعرفون من أسماء ربهم الحسنى، ويرون من آيات بهائه وجلاله، وينتظرون من آلائه ونعمائه ما يجعلهم في بحبوحة الرجاء، وعنفوان الرضا، ومهرجان الحب والقرب، وشلال لا ينقطع من نور الله البهي.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال العلامة الطبرسي: «اختلف فيه على وجهين:

الأول: أن معناه نظر العين، واختلف مَنْ حَمله على نظر العين على قولين:

ألف: أن المراد إلى ثواب ربها ﴿نَاظِرَةٌ﴾ أي هي ناظرة إلى نعيم الجنة حالا بعد حال فيزداد بذلك سرورها.

بـــاء: أن النظر بمعنى الرؤية، والمعنى تنظر إلى الله معاينة، رووا ذلك عن الكلبي ومقاتل وعطاء وغيرهم، وعموم رأي أهل السنة، وردَّ على هذا الرأي فقال: وهذا لا يجوز، لأن كل منظور إليه بالعين مشار إليه بالحدقة واللحاظ، والله يتعالى عن أن يشار إليه بالعين، كما يجل سبحانه عن أن يشار إليه بالأصابع.

(١) الكافي: ج٢، ص١٣٠.

الثاني: أنه الانتظار، واختلف مَنْ حَمَلَه على هذا المحمل على أقوال:

ألف: أن المعنى منتظرة إلى ثواب ربها، وروي ذلك عن مجاهد والحسن وسعيد بن جبير والضحاك وهو المروي عن علي عليه السلام، وساق ما قاله شيخ الطائفة من الرد على من اعترض على إمكان تعدي النظر بإلى.

بـاء: أن معناه مؤملة لتجديد الكرامة، كما يقال: عيني ممدودة إلى الله تعالى، وإلى فلان، وأنا شاخص الطرف إلى فلان.

جيم: المعنى أنهم قطعوا آمالهم وأطماعهم عن كل شيء سوى الله تعالى»[١].

وما يبدو لي أن النظر هنا بكلا المعنيين المجازي والحقيقي، فأما المجازي فإن المؤمنين يوم القيامة يتأملون من ربهم الثواب والكرامة، ويقطعون أملهم إلا منه، وأما الحقيقي فإنهم ينظرون إلى ربهم ببصائرهم لا أبصارهم من خلال آياته ونوره الذي يتجلى لهم إكراما منه تعالى لعباده المتقين. أما النظر إلى ذات الله فهو مستحيل، والقول بذلك يستدعي التجسيد، وهو من الثقافة الشركية التي تسربت إلى بعض المسلمين من الثقافات الدخيلة[٢]. وكيف يجوز النظر إلى الله والعين لا تستوعب بعض آياته؟ هل نظرت إلى عين الشمس لحظات؟. هل تفكر في أن تحدق في الشمس من قرب أوَلا تحترق عينك؟ والشمس آية صغيرة متناهية في الصغر إذا قيست بأنوار قدس الرب! لقد تجلى الله للجبل فجعله دكًّا، فكيف يتحمل هذا البشر الضعيف تجليات الرب

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٠٥، مع تصرف ترتيباً وتنقيطاً واختصاراً.

(٢) عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَحْيَى قَالَ: «سَأَلَنِي أَبُو قُرَّةَ الْمُحَدِّثُ أَنْ أُدْخِلَهُ عَلَى أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام فَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي ذَلِكَ فَأَذِنَ لِي، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْأَحْكَامِ حَتَّى بَلَغَ سُؤَالُهُ إِلَى التَّوْحِيدِ، فَقَالَ أَبُو قُرَّةَ: إِنَّا رُوِّينَا أَنَّ اللهَ قَسَمَ الرُّؤْيَةَ وَالْكَلَامَ بَيْنَ نَبِيَّيْنِ فَقَسَمَ الْكَلَامَ لِمُوسَى وَلِمُحَمَّدٍ الرُّؤْيَةَ. فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: فَمَنِ الْمُبَلِّغُ عَنِ اللهِ إِلَى الثَّقَلَيْنِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ وَ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ وَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أَلَيْسَ مُحَمَّدٌ؟!. قَالَ: بَلَى. قَالَ عليه السلام: كَيْفَ يَجِيءُ رَجُلٌ إِلَى الْخَلْقِ جَمِيعاً فَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَأَنَّهُ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ بِأَمْرِ اللهِ فَيَقُولُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ وَ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ وَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا رَأَيْتُهُ بِعَيْنِي وَأَحَطْتُ بِهِ عِلْماً وَهُوَ عَلَى صُورَةِ الْبَشَرِ، أَمَا تَسْتَحُونَ!، مَا قَدَرَتِ الزَّنَادِقَةُ أَنْ تَرْمِيَهُ بِهَذَا؛ أَنْ يَكُونَ يَأْتِي مِنْ عِنْدِ اللهِ بِشَيْءٍ ثُمَّ يَأْتِي بِخِلَافِهِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ.

قَالَ أَبُو قُرَّةَ: فَإِنَّهُ يَقُولُ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: إِنَّ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا رَأَى حَيْثُ قَالَ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ يَقُولُ: مَا كَذَبَ فُؤَادُ مُحَمَّدٍ مَا رَأَتْ عَيْنَاهُ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِمَا رَأَى فَقَالَ: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ فَآيَاتُ اللهِ غَيْرُ اللهِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ فَإِذَا رَأَتْهُ الْأَبْصَارُ فَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ الْعِلْمُ وَوَقَعَتِ الْمَعْرِفَةُ. فَقَالَ أَبُو قُرَّةَ: فَتُكَذِّبُ بِالرِّوَايَاتِ!. فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: إِذَا كَانَتِ الرِّوَايَاتُ مُخَالِفَةً لِلْقُرْآنِ كَذَّبْتُهَا، وَمَا أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يُحَاطُ بِهِ عِلْماً وَ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ وَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾». الكافي: ج١، ص٩٥.

إلا بقدر ما يشاء الله سبحانه وتعالى عن وصف الواصفين. جاء في الحديث عن صفوان عن ابن حميد قال: ذاكرت أبا عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام) فيما يروون من الرؤية (لذات الله عز وجل) فقال: «الشَّمْسُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نُورِ الْكُرْسِيِّ، والْكُرْسِيُّ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نُورِ الْعَرْشِ، والْعَرْشُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نُورِ الْحِجَابِ، والْحِجَابُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نُورِ السِّتْرِ، فَإِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فَلْيَمْلَئُوا أَعْيُنَهُمْ مِنَ الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»[1].

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ وهي وجوه المجرمين حيث القيامة موعدهم مع الفضيحة والعذاب والذل، وَبُسُور وجوههم يحكي باطن نفوسهم المنطوية على اليأس والتشاؤم والخوف مما ستلاقيه. ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ قال أهل اللغة: الفاقرة جمعها فواقر: الداهية الشديدة، فكأنها تكسر فقره الظهر، والفقرة: الأمر العظيم، وإن المجرمين يوم القيامة ليساورهم هاجس ورعب ينتظرهم من الدواهي، وهذا الهاجس يعد عذابا عظيما بذاته.

[٢٦-٣٠] تلك هي حقائق يوم القيامة التي يجب على الإنسان أن يتذكرها دائما، باعتبار الإيمان بها يجعله متوازنا في التفكير، ويسوقه نحو التسليم للحق والعمل به، ولكن الحُجُب تحول بينه وبين الإيمان بذلك المستقبل فيكذب به، ولكن هل يغيِّر تكذيبه من الحقائق شيئا؟ كلا.. فليكذب بالموت فهل يمكنه أن يلغيه، أو يجد مفرًّا من ملاقاته؟ بالطبع كلا.. فحركته نحونا وحركتنا نحوه سنة حتمية، وكذلك بالنسبة لمواقف القيامة. وعندما يواجه الإنسان المحنة الفاقرة في الدنيا تتساقط الحجب من عينيه فيرى الحقائق بوضوح ويعترف بها بصراحة، ويندم حتى الأعماق على ما كذب به، ولا محنة أعظم من الموت، ولا ساعة أشد على الإنسان في الدنيا من ساعة السكرات.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ «وهي عظم وصل بين ثغرة النحر والعاتق من الجانبين»[2]، وقال صاحب المجمع: «التراقي جمع الترقوة، وهو مُقَدَّم الحلق من أعلى الصدر، تترقى إليه النفس عند الموت، وهناك تقع الحشرجة»[3]، ويقال: «بلغت الروح التراقي كناية عن صعودها وقرب خروجها من البدن ومفارقتها له، ولعلها حقيقة يعانيها الميت عند سكرات الموت. ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي وقال أهله: من راق؟ أي طبيب شاف يرقيه ويداويه، وقيل: تختصم ملائكة الرحمة وملائكة العذاب أيهم يرقى بروحه»[4]، وبه قال الرازي والزمخشري وصاحب تفسير فتح القدير. ولعل المعنى من الرُّقية (الأدعية والتعويذات التي تكتب في قرطاس للتشافي بها) وكأن المعنى أن أهله أو هو نفسه يسألون عمن يكتب له ذلك طمعا في الشفاء. ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾

(١) بحار الأنوار: ج٥٥، ص٢٨.
(٢) التفسير الكبير: ج٣٠، ص٢٣٠.
(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٠٨.
(٤) المصدر السابق: ص٤٠١.

ظن يقين يصل إلى حد التصور وشبه الرؤية، فإنه حينئذ يعاين حقيقة الموت والآخرة فإذا به يقبض يدا ويبسط أخرى، وهكذا يعالج سكرات الموت بروحه وحركاته اليائسة ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ عن قتادة: «هما ساقاه عند الموت، أما رأيته في النزع كيف يضرب بإحدى رجليه على الأخرى؟ وقال الحسن وسعيد بن المسيب: هما ساقاه إذا التفتا في الكفن، (وقيل): إنه إذا مات يبست ساقاه والتصقت أحداهما بالأخرى»[(١)]، وعن الشعبي وأبي مالك: لأنه يذهب بالقوة فيصير كجلدة يلتف بعضها ببعض، وقيل: يضطرب فلا يزال يمد أحدى رجليه ويرسل الأخرى. ولعل الآية كناية عن الشدائد والصعاب التي يواجهها الإنسان عند الموت، وقد وجدت إشارة إلى هذا المعنى في تفسير القرطبي قال: «أي فاتصلت الشدة بالشدة، شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما.. وقال الضحاك: اجتمع عليه أمران شديدان.. والعرب لا تذكر الساق إلا في المحن والشدائد العظام، ومنه قولهم: قامت الدنيا على ساق، وقامت الحرب على ساق»[(٢)].

وحينما يفارق الإنسان هذه الدنيا بما فيها ومن فيها فإنه لا يصير إلى العدم، وإنما ينتقل من فراقها إلى لقاء عظيم بربه ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ قيل: يعني إليه المنتهى أو غاية سوق الملائكة لكل نفس، وهو صحيح، ولكن يبدو لي أن ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾ هنا يعني المصير، حيث إن الأنفس بعد الحساب تسوقها الملائكة إلى مأواها ومصيرها، فإما تسوق الإنسان ملائكة الرحمة إلى الجنة، وإما تسوقه ملائكة العذاب إلى النار، وإلى الله وحده وبيده الأمر بكلا المساقين، فما أحوجه إلى معرفة هذه الحقيقة والإيمان بها، فإن ذلك يبعث فيه روح التسليم إليه والسعي إلى القرب منه.

[٣١-٣٥] وحين لا يؤمن الإنسان بلقاء ربه ينحرف عن الصراط المستقيم ويترك الواجبات التي عليه ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ قيل: «لا صدق بماله ذخرا عند الله، ولا صلى الصلوات التي أمره الله بها»[(٣)]، والأصح حمل التصديق هنا على معناه الأصلي، وهو تصديق الإيمان بالعمل والباطن بالظاهر والعكس، وهذا الفهم يجعل الكلمة تتسع لكثير من المفردات والمصاديق ومن بينها الإنفاق. كما أن الصلاة رمز الصلة والقرب مع الخالق ورمز التواصل مع الخلق، وهكذا الآيتان تفسران بعضهما، فالتكذيب نقيض التصديق، والتولي نقيض التواصل، والمكذِّب بالحق يرتكب ذنبين: أحدهما عدم التصديق والصلاة، والآخر التكذيب والتولي، وابتعاد الإنسان عن الحق ليس يقطع علاقته بالله وبرسوله فقط، وإنما يفسد علاقته بالناس أيضا، فهو يركب مطية الغرور والتكبر بينهم ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أصل

---

(١) التفسير الكبير: ج ٣٠، ص ٢٣٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ج١٩، ص ١١٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ج١٩، ص ١١٣.

التمطي تمدد البدن من الكسل، وهو من لوى مَطَاه أي ظهره. قالوا: إنه إشارة إلى التبختر على نهج القرآن في ذكر الصفات بالتصوير الظاهر. ولعله أعم من ذلك حيث يدل على حالة اللامسؤولية والاشتغال باللهو واللعب عن الجد والاجتهاد.

ثم يتوعد الله من تكون صفاته التي مر ذكرها بالعذاب بعد العذاب فيقول: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ عَبْدِ الْعَظِيمِ الْحَسَنِيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الثَّانِي عليه السلام قَالَ: «سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَ جَلَّ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ قَالَ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بُعْداً لَكَ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَبُعْداً لَكَ مِنْ خَيْرِ الْآخِرَةِ»[1]. وأصل الكلمة وعيد وتهديد، ومعناه: أن المكروه يقترب منك وأنت صاحبه وجاءت الرواية «أن رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ بيد أبي جهل ثم قال له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا وإني لأعز أهل هذا الوادي، فأنزل الله سبحانه كما قال له رسول الله صلى الله عليه وآله»[2]، وقال القرطبي: «وقيل: معناه الويل لك»[3].

[٣٦-٤٠] ويستنكر القرآن على الإنسان شذوذه عن الحق وكفره به ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ كل شيء في حياة الإنسان يهديه إلى إحاطة تدبير الله به، وشمول رعايته لحياته، وإلا لأعدمت أو تحولت جحيما لا يطاق، وأبرز ذلك خلقته: كيف حملته يد اللطف من صلب أبيه حيث كان حيوانًا منويًا لا يرى إلى رحم أمه، وأجرى له الطعام والشراب، وضمن له السلامة والأمن حتى أصبح علقة، ثم رعاه وحماه ورباه حتى جعله خلقًا سويًا.. فهل يُعقَل أن يُترَك في المستقبل سدى وهو لم يُترَك كذلك سلفا، بل لا شيء في كيانه تُرِك بلا هدف أو غاية؟.

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ وكما أن هذه المراحل حتمية بالنسبة للإنسان فإن الآخرة هي الأخرى حتمية، والفكرة هذه تفسر ربط القرآن الدائم بين الحديث عن الآخرة والحديث عن مراحل خلقة الإنسان وأطواره، التي يهتدي المتدبر فيها إلى معرفة ربه حيث هي آيات لطفه وحكمته وقدرته. وبعد تفكُّر البشر في نفسه وخلقه يجب أن يطرح على نفسه هذا السؤال الحاسم: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ ولن يجد أحدنا جوابا لهذا السؤال إلا أن يقول: بلى؛ وحينئذ سيؤمن بيوم القيامة وحقائق الآخرة، لأن الشك في فكرة الآخرة منبعث من الجهل بقدرة الله النافذة التي لا تحد.

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٠، ص١٤٢.

(٢) بحار الأنوار: ج١٨، ص١٦٨.

(٣) تفسير القرطبي: ج١٩، ص١١٥.

سُورَةُ الإنسَان

* مدنيّة.

* عدد آياتها: ٣١.

* ترتيبها النزولي: ٩٨.

* ترتيبها في المصحف: ٧٦.

* نزلت بعد سورة الرحمن.

فضل السُّورة

عنه ﷺ أنه قال: «ومَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ كَانَ جزَاؤُهُ عَلَى اللهِ جَنَّةً وحَرِيراً».

(مستدرك الوسائل: ج٤ ص٣٥٥)

***

روي عن أبي جعفر (الإمام الباقر) عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ فِي كُلِّ غَدَاةِ خَمِيسٍ زَوَّجَهُ اللهُ مِنَ الحُورِ ثَمَانِمِائَةِ عَذْرَاءَ وَأَرْبَعَةَ آلَافِ ثَيِّبٍ وَحُوراً مِنَ الحُورِ الْعِينِ وَكَانَ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ».

(بحار الأنوار: ج٨، ص١٩٢)

الإطار العام

من عرف نفسه فقد عرف ربه

إذا عرف الإنسان ربه، عرّفه الله تعالى نفسه. كذلك إذا عرف نفسه، عرف ربه، حيث أنه حين يتفكر فيها لا يجد فيها إلا آيات الصنع وشواهد التدبير. ولعل أهم إثارة علمية يلقيها القرآن على الإنسان هي حقيقة حدوثه بعد العدم، وأنه أصبح شيئاً مذكوراً بعد أن كان عدماً خاملاً مجهولاً. تَفَكَّرْ حين لم تكن شيئاً مذكوراً ثم خلقك الله الحكيم المقتدر من نطفة أمشاج؛ تفكر في هدف ذلك، هل هو سوى الابتلاء؟.

هكذا تفتتح سورة الإنسان التي تزرع في النفس خشية الآخرة، وتجعلها معراجاً للشخصية إلى التكامل والسمو حتى تبلغ درجة الأبرار، الذين تصبغ شخصيتهم الفذة صفة الوفاء بالنذر، والخوف من يوم القيامة، والإيثار، والترفع عن شهوة المدح وحب التسلط على الآخرين.

وتمضي آيات السورة المباركة التي نزلت في شأن أهل الرسول عليهم السلام، تمضي في بيان نعيم الجنة التي تختمها بوصفها بالملك الكبير، وبأن ربهم الرحمن يسقيهم شراباً طهورا. ولكيلا يعيش الإنسان في أحلام التمني والتظني؛ يذكّره السياق بأن ثمن الجنة الصبر لحكم الله، والاستقامة ضد ضغوط الآثمين الكفار، وذكر الله بالليل والنهار. ويبين أن الضالين والظالمين انتهوا إلى هذه العاقبة السوأى بسبب تركهم ذكر يوم القيامة، ذلك اليوم الثقيل.

وفي خاتمة السورة يذكرنا الرب بأن الإنسان حر في اتخاذ سبيل الله بتلك المشيئة التي منحه الله إياها، وأن مشيئته بالله العظيم الحكيم في عطائه وجزائه.

إنما نطعمكم لوجه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ (١) نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا (٢) ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (٣) ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (٤) ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ (٥) ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾

(١) أمشاج: مختلطة، ومشجتُ هذا بهذا أي خلطته، وواحد الأمشاج مشيج.
(٢) مستطيراً: أي فاشياً منتشراً ذاهباً في الجهات بلغ أقصى المبالغ.
(٣) قمطريراً: الشديد في الشر.
(٤) زمهريراً: هو أشد ما يكون من البرد.
(٥) قوارير: زجاجية.

عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ(١) وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

بينات من الآيات:

[١-٤] إذا عرف الإنسان ربه عرفه الله نفسه. كذلك إذا عرف نفسه عرف ربه، حيث إنه حين يتفكر فيها لا يجد فيها إلا آيات الصنع وشواهد التدبير.

وأهم أثارة علمية يلقيها القرآن على الإنسان: حقيقة حدوثه بعد العدم، وأنه أصبح شيئا مذكورا بعد أن كان خاملا مجهولا ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾، وهذه الإثارة التي تنفذ في أغوار الإنسان، والتي تعبِّر عنها صيغة الاستفهام، إنها تجعلنا عندما نتفكر في أبعادها نعيش وعي الصيرورة الزمنية في نشأتنا، هذا الوعي الذي يزيد العقل، ويقضي على الغرور، ويرفع الإنسان إلى مستوى الحكمة. وقد اختلفوا في حرف ﴿هَلْ﴾، فقال بعضهم: أنه هنا بمعنى (قد)، وقال آخرون: بل هو استفهام تقريري، يعرف السائل الجواب سلفا وإنما يطرح الكلام لأخذ الإقرار من الطرف الآخر. ويبدو لي أن الكلمات تبقى بمعناها اللغوي عند الاستعمالات الأدبية المختلفة، إلا أن هدف الاستخدام يختلف حسب السياق، فـ﴿هَلْ﴾ هنا -مثلا- جاءت بمعنى الاستفهام، أما لماذا جاء الاستفهام؟ فهو ليس شأن الكلمات -خصوصاً وهي مفردات- إنما هو شأن الذي استخدمها، وإنما هو السياق ومعاريض الكلام الذي يكشف عن بعض أغراض المتكلم. ويكون مثل ذلك في عالم الماديات: السيارة التي تقوم بحمل الإنسان. أما إلى أين ولماذا يتحرك الإنسان؟ فهذا ليس شأنها إنما هو شأنه.

---

(١) وشددنا أسرهم: أي أحكمنا خلقهم بتنظيم الأجهزة، فإن الأسر أصله الشد، ومنه سُمّي الأسير أسيراً لأنه يشد بالحبال.

ولقد فسر أئمة الهدى هذه الآية عدة تفاسير مما كشف عن أبعادها المتنوعة، فعن مالك الجهني قال: «سألت أبا عبد الله الإمام الصادق عليه السلام عَنْ قَوْلِهِ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ فَقَالَ: كَانَ مُقَدَّراً غَيْرَ مَذْكُورٍ»[1]، وعن زرارة قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ فقال: كَانَ شَيْئاً وَلَمْ يَكُنْ مَذْكُوراً»[2]، وعن الباقر عليه السلام قال: «كَانَ مَذْكُوراً فِي الْعِلْمِ وَلَمْ يَكُنْ مَذْكُوراً فِي الْخَلْقِ»[3]. وهكذا روايات أخرى كثيرة تهدينا إلى أن الإنسان يمر قبل وجوده المادي في الحياة بمرحلتين هما:

الأولى: عالم التقدير في علم الله.

الثانية: عوالم النشأة، مثل عالم الأشباح (الأرواح)، عالم الذر، عالم الأصلاب، ثم عالم الأرحام، فعالم الدنيا، وفي تلك العوالم وقبل عالم الدنيا كان الإنسان شيئا - في علم الله - ولم يكن مذكورا عند الخلق لضآلته المتناهية.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي مختلطة، قال الإمام الباقر عليه السلام حول كلمة أمشاج: «مَاءُ الرَّجُلِ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ اخْتَلَطَا جَمِيعا»[4]، كما أنها مختلطة من الناحية المعنوية إذ تحمل الصفات الوراثية والنفسية والشكلية من الطرفين بما يمثلانه من امتداد في التاريخ والمجتمع كالأجداد والآباء والأخوال، وقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى هذا المعنى إذ وصف الإنسان بقوله: «وَمَحَطٌّ الْأَمْشَاجِ مِنْ مَسَارِبِ الْأَصْلَابِ»[5]، ومن ناحية ثالثة يعيش الإنسان ثنائية هامة، فهو في البداية خليط من تطلعات الفطرة والعقل والإيمان، وشهوات الهوى والجهل والجحود، بين جنود الرحمن، وأعوان الشيطان.

وهكذا كل شيء في الإنسان يحتمل نزعتين، وصبغتين، ومنهجين، ووجهتين: الحق والباطل، الله أو الشيطان، العقل أو الجهل، الإيمان أو الجحود، الجنة أو النار، ويبدو أن هذه الثنائية أقرب إلى كلمة الأمشاج لأن شأن الثنائيات (الاختلاط بين ماء الرجل وماء المرأة، أو بين مختلف العوامل الوراثية من الآباء والأمهات) مقدمة لهذه الثنائية، ويدل على ذلك بيان حكمة الابتلاء بعد بيان الثنائية. ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ ولا يصدق الابتلاء في حياة الإنسان حتى يكون مختارا، وذلك بأن تكون خلقته خليطا من نزعتين وتطلعين: أحدهما الخير والآخر الشر. ومن

---

(١) الكافي: ج١، ص١٤٧.
(٢) المحاسن: ج١، ص٢٤٣.
(٣) بحار الأنوار: ج٥٧، ص٣٢٨.
(٤) بحار الأنوار: ج٥٧، ص ٣٧٦.
(٥) بحار الأنوار: ج٥٤، ص١١٢.

الضروري للإنسان وهو يمارس الحياة ونعمة الوجود أن يعرف أن الابتلاء جزء من وجوده، من دونه تصبح حياته بلا معنى بلا روح وبلا هدف.. تماما كتفاحة فاسدة لا تغني أو تسمن من جوع، أو كماء آسن لا ينفع سقيا ولا طهورا. وإطلاق كلمة الابتلاء يدلنا على أن الإنسان ممتحن بكل شيء يتصل به خيرًا كان أو شرّا، وأول ما يبتلى به نعمة الخلق، فهل يشكر ربه عليها حيث خلقه وأوجده ولم يكن شيئا مذكورا أم يقابله بالجحود والكفران؟ قال الإمام الباقر عليه السلام: «إن النبي قال لعلي عليه السلام: **قُلْ مَا أَوَّلُ نِعْمَةٍ بَلَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنْعَمَ عَلَيْكَ بِهَا، قَالَ: أَنْ خَلَقَنِي جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَلَمْ أَكُ شَيْئاً مَذْكُوراً قَالَ: صَدَقْتَ**»[١].

وحيث أراد ربنا امتحان الإنسان وَفَّر من جهته الشروط والمستلزمات التي تجعل البشر مسؤولا عن الامتحان فتكون حجة عليه عندما يكفر، ووسيلة لصالحه عندما يريد الإيمان والشكر ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، والسمع والبصر نافذتان لعقل الإنسان على الخليقة، وهما أهم أدوات المعرفة عنده، وبالتالي أبرز وسائل الاختيار، فبسمعه يتلقى نصائح الآخرين وتجاربهم، وببصره وبصيرته يرى ويقلّب وجوه الأمور ثم يختار لنفسه الموقف والطريق، وذلك يكفي دافعا يحمّله المسؤولية ويقيم عليه الحجة، ولكن الله أبى إلا أن تكون له الحجة البالغة عليه فهداه السبيل مبينا له الحق والباطل والصواب والخطأ ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ فمعالم الطريق الصحيح بيّنة وواضحة للبشر، هداه الله إليها بالفطرة والعقل والرسالات والرسل، ولكنه لم يجبره لكيلا يتنافى وحكمة الابتلاء، وإنما جعل القرار موكولا إليه يختار أحد الطريقين:

﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ يتبع فطرته وعقله وهدى ربه، الذي هو السبيل الذي يسّره له، فيشكره على كل نعمة، ومن شكره طاعته. ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ لا يسمع نداء الحق، ولا يبصر الطريق ولا يسلكه، فلا يشكر ربه على نعمه. وإنما عبَّر الله بالشكر والكفر عن الهدى والضلال لأنهما الأساس والمعول، فكل ضلال وكفر وانحراف في حياة البشر هو كفران لنعم الله عليه، وكل هدى وإيمان وعمل صالح هو شكر. قال حمران بن أعين: «**سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ قَالَ: إِمَّا آخِذٌ فَهُوَ شَاكِرٌ وَإِمَّا تَارِكٌ فَهُوَ كَافِرٌ**»[٢]. وحينما يكفر الإنسان بربه ونعمه فإنه يصير إلى عذاب شديد أعده الله لكل كفور.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ قال القرطبي: «السلاسل: القيود في جهنم طول كل سلسلة سبعون ذراعا»[٣]، وقال الرازي: «السلاسل تشد بها أرجلهم، وأما

(١) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٢٠.
(٢) الكافي: ج٢ ص٣٨٤، تفسير القمي: ج٢ ص٣٩٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩، ص ١٢٣.

الأغلال فتشد بها أيديهم إلى رقابهم»[١]. ولعل السلاسل ما يُشهدُ بها المجرمون إلى بعضهم ويسحبون بها، والأغلال ما يُقيَّد بها الواحد من يديه ورجليه ورقبته. وهذا جزاء مناسب للكافرين، لأنهم يسيئون الاستفادة من الحرية المعطاة إليهم في الدنيا فيقيدون في الآخرة. وسلاسل الآخرة وأغلالها تجسيدات لمثلها في الدنيا، لأن من يخالف قيم الحق وسبيل الهدى ويتبع المناهج البشرية يتورط في أغلال العبودية والعقد والمشاكل المختلفة.

[٥] أما الشاكرون الذين يهبهم ربهم وسام الأبرار فإنهم لا يتحررون من سلاسل الضلال وأغلاله وسعيره في الدنيا فقط، بل ويكسبون الحرية الكاملة في الآخرة والثواب الجزيل جزاء شكرهم واتباعهم رسالة الله عز وجل. ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ قيل: «هو جمع بَرّ، وفي الصحاح: وجمع البَر الأبرار، وفلان يبر خالقه ويتبرره أي يطيعه»[٢]. والقرآن يفسر معنى ﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ من خلال بيانه لصفاتهم، وهذا يقرِّب المعنى ويرسِّخه في الأذهان بصورة أوضح وأفضل.

وما يشربه الأبرار في الجنة يختلط طعمه ومزاجه بصفات الكافور الحسنة، وهو اسم «عين ماء في الجنة» عن ابن عباس[٣]، وقال سعيد عن قتادة: «تمزج لهم بالكافور، وتختم بالمسك، وقيل: أراد كالكافور في بياضه وطيب رائحته وبرده، لأن الكافور لا يشرب»[٤]، وقال مقاتل: «ليس بكافور الدنيا، ولكن سمى الله ما عنده بما عندكم حتى تهتدي لها القلوب»[٥]. ومن فوائد الكافور طبعه البارد، وتسكينه للعطش، وحين يمتزج بشراب يكون أنفع للجسم. وقوله ﴿مِن كَأْسٍ﴾ كناية عما في الكأس من الشراب.

[٦] ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ لماذا استخدمت هنا كلمة ﴿بِهَا﴾ أوليس الإنسان يشرب من العين وليس بالعين؟ قالوا: إن الكلمة قد أُشربت معنى الارتواء أي يشربون منها ويرتوون بها.. أما عن هذه العين فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: قال: «**هِيَ عَيْنٌ فِي دَارِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله تُفَجَّرُ إِلَى دُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ**»[٦]. ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ فمتى ما أرادوا توجهوا تلقاء العين التي لا تزال مختومة ففجروها -بإذن الله- وشربوا من باكورة رفدها الطاهر ما شاؤوا. وفي تفسير القرطبي: «إن الرجل منهم ليمشي في بيوتاته ويصعد إلى قصوره، وبيده قضيب يشير

---

(١) التفسير الكبير: ج٣٠، ص٢٤٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩، ص ١٢٥.
(٣) المصدر السابق: ص١٢٦.
(٤) المصدر السابق: ص١٢٦.
(٥) المصدر السابق: ص١٢٦.
(٦) تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٤٧٧.

به إلى الماء فيجري معه حيثما دار في منازله على مستوى الأرض في غير أخدود»[1]. وإلى مثل هذا الجزاء تتطلع النفوس بصورة فطرية، من هنا يوجهنا القرآن إلى حقيقة هامة وهي أن ذلك النعيم لم يصل إليه الأبرار عبثا ومن دون سعي، وإنما لما جسدوا في حياتهم من صفات الخير، فإن ما عند الله لا ينال بالتمني والتظني بل بالسعي والاجتهاد.

[٧] ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ أيّ نذر وعهد يقطعونه على أنفسهم، وأظهر مصاديق النذر في حياة الإنسان عهده الذي أخذه الله منه، وتعهَّد هو بالوفاء به في الميثاق الأول في عالم الذر حيث قطع على نفسه بتوحيد ربه وطاعته وتولي أوليائه، وحينما تنبني شخصية المجتمع على أساس الوفاء بالتعهدات فذلك مما يزيد الثقة والاطمئنان بينهم، ويجعل المجتمع مُهيّأً للتقدم والتحضر، لأن الحضارة في حقيقتها مجموعة من القيم التي يؤمن بها المجتمع ويتعهد الوفاء بها، وأصل الحضارة تكاثف الجهود، وتراكم الانجازات، وتركُّز الخبرات، وكل أولئك رهين الثقة المتبادلة والتي يزرعها الوفاء بالعهود. أما لماذا يلتزم الأبرار بالعهد ويوفون بالنذر فلأنهم يعيشون أهوال القيامة فيخشونها، ويرتفعون إلى الحالة الجدية التي يتطلبها مثل ذلك اليوم!

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ قال الإمام الصادق عليه السلام: «عَابِسًا كَلُوحًا»[2]، وعن علي بن إبراهيم قال: «المستطير العظيم»[3]. فالخوف الحقيقي من الآخرة إذن هو الذي يتحول إلى إيمان يردع الإنسان عن الخيانة ونقض العهد والكذب وكل خطيئة، ويدفعه إلى كل فضيلة وصفة حسنة في الدنيا، وبتعبير آخر: إن الخوف من الآخرة وقود الإنسان في مسيرته الصاعدة نحو الكمال. وهكذا تجد القرآن يذكِّرنا بها المرة بعد الأخرى لتصبح جزءا من كياننا الثقافي، ومزيجة مع شخصياتنا، وصبغة أساسية لحياتنا.

[٨] وصفة أخرى تقرِّب الأبرار إلى ربهم وإلى ذلك النعيم الكبير هي تحمل المسؤولية الاجتماعية تجاه الضعفاء وأهل الحاجة بالرغم من حاجتهم الماسة إلى الطعام ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ قيل: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي على حب الله، وهذا صحيح من ناحية المعنى، أما سياق الكلام فيدل على حب الطعام -لأنه أقرب إلى الضمير، ولأن حب الله (ووجهه) ذكر في الآية التالية بصورة مستقلة لأهميته فلا داعي للتكرار-. وهذا يعني أن المراد من حب الطعام هنا: أن الأبرار لا يطعمون الآخرين من فاضل طعامهم، بل مما يطعمونه أنفسهم وإلى حد الإيثار، بحيث يتصدقون بها عندهم وينفقونه مع حاجة وحب إليه، وهذه من

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ص ١٢٦.
(٢) بحار الأنوار: ج٣٥، ص٢٤٠.
(٣) تفسير القمي: ج٢، ص٣٩٨.

أرفع مراحل التضحية والعطاء، ويؤكد ذلك أن الإنفاق مما تحبه النفس من شروط القرآن لبلوغ درجة البر، كما قال سبحانه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

[٩] قد يكون الإنفاق بهدف الاستكبار والتعالي على الآخرين وبسط السلطة عليهم. إنه إنفاق المن والرياء، ولكن الأبرار يخلصون في إنفاقهم ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ إن الأبرار لا يتطلعون إلى شيء وراء إنفاقهم وخدماتهم للآخرين إلا رضا الله وثوابه، مما يعكس تمحض التوحيد في أنفسهم، فلا يطالبون حتى بكلمة الشكر (شكرًا وأحسنتم) وما إلى ذلك، قال الإمام الصادق عليه السلام: «وَاللهِ مَا قَالُوا هَذَا لَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ أَضْمَرُوهُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَأَخْبَرَ اللهُ بِإِضْمَارِهِمْ، يَقُولُونَ: لَا نُرِيدُ جَزَاءً تُكَافِؤُنَنَا بِهِ، وَلَا شُكُورًا تُثْنُونَ عَلَيْنَا بِهِ وَلَكِنْ إِنَّمَا أَطْعَمْنَاكُمْ لِوَجْهِ اللهِ وَطَلَبَ ثَوَابِهِ»[1]، وهذا ما يجعلهم في عطاء دائم، لأنه لا ينقطع بسبب عدم مجارات الآخرين لهم أو حتى وقوفهم من إحسانهم موقفًا سلبيًا.

[١٠] كيف يتجرد الأبرار من حب الذات إلى هذه الدرجة السامية؟ كيف ينتزعون من أنفسهم حب الأموال التي يحتاجونها لطعامهم وقد فُطِرت الأنفس على حب المال، وبالذات حينما يكون ثمن أهم حاجة عند الإنسان حاجة الطعام؟ وأعظم من هذا: كيف يسيطرون على غريزة حب السلطة والعلو في الأرض التي هي أعظم غريزة عند الإنسان، وكانت وراء خروج آدم عليه السلام من الجنة، حتى تراهم لا يبحثون عن كلمة شكر تقال لهم، أو أي جزاء من أي نوع يكافؤون به؟.

الجواب: إنهم يعيشون أهوال القيامة، وكل همهم النجاة منها. إنهم يعيشون -إذن- عالما آخر له همومه وتطلعاته المختلفة عن هذا العالم المادي المحدود، وهم يعرفون أن ثمن النجاة في ذلك اليوم المرعب الرهيب الفظيع إنما هو باتقاء شح الذات وإيثار الضعفاء والمحتاجين، إذا إن المسؤولية الاجتماعية تجاه المحرومين والبؤساء ليست اختيارية يتحملها الإنسان أو لا يتحملها، وإنما هي واجب ديني يتصل بمصيرة في الآخرة، وعاقبته عند الله، وإذا ما دخلت هذه الحقيقة إلى وعي الإنسان فسوف لن يتوانى في أدائها. ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ أي شديدا وعسيرا، قال الأخفش القمطرير: «أشد ما يكون من الأيام وأطوله في البلاء»[2]، وقال الكسائي: «يوم مُقَمْطِر إذا كان صعبا شديدا»[3].

ويجدر بنا أن ننقل هنا شأن نزول السورة حسب الرواة والمفسرين من كل الفرق

(١) الأمالي للصدوق: ص٢٦٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ج ١٩، ص١٣٥.
(٣) المصدر السابق: ص١٣٥.

الإسلامية، لكي نعرف أن هذه الصفات المذكورة في القرآن قد جسَّدها فعلا بشر أمثالنا، قد خُلقوا من لحم ودم وكانت فيهم الحاجات والغرائز فتغلَّبوا عليها بحول الله وقوته وبفضل وعي الآخرة. إنهم ذرية رسول الله فاطمة وبعلها وبنوها وخادمتهم فضة عليهم السلام.

قال العلامة الطبرسي: «نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وجارية لهم تسمى فضة، وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد وأبي صالح، والقصة طويلة جملتها أنهم قالوا: مرض الحسن والحسين فعادهما جدهما ووجوه العرب، وقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك نذرا؟ فنذر صوم ثلاثة أيام إن شفاهما الله سبحانه، ونذرت فاطمة عليها السلام وكذلك فضة، فبرئا وليس عندهم شيء، فاستقرض علي عليه السلام ثلاثة أصوع من شعير من يهودي، وروي: أنه أخذها ليغزل له صوفا، وجاء به إلى فاطمة فطحنت صاعا منها فاختبزته وصلى علي عليه السلام المغرب وقربته إليهم فأتاهم مسكين يدعوهم وسألهم فأعطوه ولم يذوقوا إلا الماء، فلما كان اليوم الثاني أخذت صاعا وطحنته واختبزته وقدمته إلى علي عليه السلام فإذا يتيم بالباب يستطعم فأعطوه ولم يذوقوا إلا الماء، فلما كان اليوم الثالث عمدت إلى الباقي فطحنته واختبزته وقدمته إلى علي عليه السلام فإذا أسير بالباب يستطعم فأعطوه ولم يذوقوا إلا الماء، فلما كان اليوم الرابع وقد قضوا نذورهم أتى علي ومعه الحسن والحسين عليهم السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله وبهما ضعف فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله ونزل جبرائيل بسورة: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾»[1].

[١١] ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ قال الحسن ومجاهد: نضرة في وجوههم وسرورا في قلوبهم، وقوله ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ يدل على أن النجاة من عذاب ذلك اليوم والفوز بجنة الله ورضوانه نتيجة لأمرين هما: الخوف من الآخرة والعمل الخالص لوجه الله. وفي الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام؛ قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِرَجُلٍ فَيُقَالُ: احْتَجَّ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ خَلَقْتَنِي وهَدَيْتَنِي فَأَوْسَعْتَ عَلَيَّ فَلَمْ أَزَلْ أُوسِعُ عَلَى خَلْقِكَ وأُيَسِّرُ عَلَيْهِمْ لِكَيْ تَنْشُرَ عَلَيَّ هَذَا الْيَوْمَ رَحْمَتَكَ وتُيَسِّرَهُ، فَيَقُولُ الرَّبُّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وتَعَالَى ذِكْرُهُ: صَدَقَ عَبْدِي؛ أَدْخِلُوهُ الْجَنَّةَ**»[2].

[١٢] وهكذا يؤكد ربنا -سبحانه- على أن ثمن نعيم الآخرة الصبر في الدنيا فيقول: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟﴾ على الطاعة، وعن المعصية، وعند المصائب والنوائب ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ ولعل في الآية إشارة إلى أن إخلاص الإنسان في عمله، وخروجه من حب الذات (حب التظاهر والإطراء) عند الإنفاق بالذات، بحاجة إلى إرادة عالية وصبر عظيم يقاوم بهما تحديات

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٥١٤.

(٢) الكافي: ج٤، ص٤٠.

النفس والشيطان.

[١٣-١٩] ويفصِّل القرآن في بيان نعيم جنة الآبرار تشويقا لنا في الرغبة إليها والعمل على الفوز بها ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة، وهي الأَسِرَّة المحشوة على أفضل وجه. ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ والشمس كناية عن الحر، أما الزمهرير فهو البرد الشديد، قال الإمام الرضا عليه السلام: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ يَجْرِيَانِ بِأَمْرِهِ مُطِيعَانِ لَهُ ضَوْؤُهُمَا مِنْ نُورِ عَرْشِهِ وَحَرُّهُمَا مِنْ جَهَنَّمَ، فَإِذَا كَانَتِ الْقِيَامَةُ عَادَ إِلَى الْعَرْشِ نُورُهُمَا وَعَادَ إِلَى النَّارِ حَرُّهُمَا فَلَا يَكُونُ شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ**»[١]، فالجنة إذن مكيفة أجواؤها بربيع دائم.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ ليس لأن فيها شمسًا وحرًّا، بل هي كناية عن تناسب أشجار الجنة وحالة الرفاه المهيأة لأهلها بحيث تغطي فوقهم. ولكنها في الوقت نفسه قريبة ثمارها إليهم، ميسرة عليهم تناولها ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ والمفعول المطلق ﴿تَذْلِيلًا﴾ يفيد التأكيد والمبالغة، أي إنها مذللة أيما تذليل، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مِنْ قُرْبِهَا مِنْهُمْ يَتَنَاوَلُ الْمُؤْمِنُ مِنَ النَّوْعِ الَّذِي يَشْتَهِيهِ مِنَ الثِّمَارِ بِفِيهِ وهُوَ مُتَّكِئٌ، وإِنَّ الْأَنْوَاعَ مِنَ الْفَاكِهَةِ لَيَقُلْنَ لِوَلِيِّ الله: يَا وَلِيَّ الله كُلْنِي قَبْلَ أَنْ تَأْكُلَ هَذَا قَبْلِي**»[٢].

وحيث تغمر الأبرار فرحة الفوز والبهجة بها في حياتهم من النعيم يتقدم إليهم خدمهم من الولدان بأواني وأكواب في غاية الروعة معدنا ومنظرا وشرابا ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾ ولعل الآنية المطاف بها هي التي ينقل الولدان فيها أكواب الشراب، أو التي يكون فيها الشراب الذي يصب في الأكواب بعدئذ، أو هي أواني الأكل والفواكه التي يحملها الولدان إلى أولياء الله عز وجل. والأكواب هي الكؤوس التي لها مقبض وعروة، وفي صنعتها الرائعة تتجلى قدرة الله وكرامته لأوليائه. ﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ﴾ قال الإمام الصادق عليه السلام: «**يَنْفُذُ الْبَصَرُ فِي فِضَّةِ الْجَنَّةِ كَمَا يَنْفُذُ فِي الزُّجَاجِ**»[٣]، وعن قتادة قال: «صفاء القوارير في بياض الفضة»[٤] وقال ابن عباس: «لو أخذت فضة فضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم ير الماء من ورائها، ولكن قوارير الجنة بياض الفضة في صفاء القوارير»[٥]. ولن يستطيع بشر تصور شيء من نعيم الجنة على حقيقتها أبدا.

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٤٣، بحار الأنوار: ج٧ ص١٢٠.
(٢) الكافي: ج٨، ص٩٩.
(٣) بحار الأنوار: ج٨، ص١١١، تفسير القمي: ج٢، ص٣٩٩.
(٤) الدر المنثور: ج٦، ص٣٠٠.
(٥) المصدر السابق: ص٣٠٠.

ثم يشير القرآن إلى صفة أخرى في الأكواب التي يطاف بها على المؤمنين فيقول: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ قال ابن عباس: «أتوا بها على قدرهم، لا يفضلون شيئا، ولا يشتهون شيئا بعدها»، وعن مجاهد: «إنها ليست بالملأى التي تفيض، ولا ناقصة بقدر»، وقال ابن عباس: «قَدَّرتها السُّقاة»[1]، وقيل: «قدروها في أنفسهم قبل مجيئها على صفة فجاءت على ما قدروا، والضمير في قدروها للشاربين»[2]. والذي يبدو لي أن المراد من الآية هنا أن الأكواب التي يطاف بها مقدرة ومحكمة من كل جوانبها، في شكلها وحجمها وشرابها وعددها وكل شيء. قال الزمخشري: «فإن قلت ما معنى كانت في قوله: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾؟ قلت: هو من (يكون) في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أي تكونت قوارير بتكوين الله، تفخيما لتلك الخلقة عجيبة الشأن، الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين»[3].

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ والزنجبيل يُعطي ما يُمزَج إليه نكهة طيبة، كما إنه بذاته فيه فوائد كثيرة، قال في التبيان: «الزنجبيل ضرب من القرفة، طيِّب الطعام، يلذع اللسان، يُربَى بالعسل، يُستَدفَع به المضار، إذا مزج به الشراب فاق في الإلذاذ، والعرب تستطيب الزنجبيل جدًّا»[4]. وربنا يقول: ﴿عَيْنًا فِيهَا﴾ قيل: ﴿فِيهَا﴾ عائدة إلى الكأس، وقيل: يعني في الجنة. ﴿تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ قال في المجمع: «والسلسبيل الشراب السهل اللذيذ، يقال: شراب سلسل وسلسال وسلسبيل، قال ابن الأعرابي: لم أسمع السلسبيل إلا في القرآن، وقال الزجاج: هو صفة لما كان في غاية السلاسة»[5]، وفي الكشاف: «يعني أنها في طعم الزنجبيل، وليس فيها فيه لذعة، ولكن نقيض اللذع وهو السلاسة»[6].

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ قيل: يعني مُلَبَّسون الخَلَدَة وهي ضرب من القرط من الذهب أو الفضة، ويبدو لي أن ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ بمعنى أنهم يبقون على نضارة الغلام دائما لا يتداركهم شباب ولا هرم، وإنما يبقيهم الله كذلك لأن خدمة الصغار على هذا السن ألذ لأهل الجنة من خدمة غيرهم، والولدان في تطواف دائم يترقبون أمر المؤمنين لهم، على استعداد تام لخدمتهم، بل إن مجرد تطوافهم أمامهم يبعث فيهم البهجة والسرور، لما يمثله الولدان من نعمة الخدمة، ولمنظرهم الأنيق والجميل. ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ قال العلامة الطبرسي: «إنما

---

(١) الدر المنثور: ج٦، ص٣٠١.
(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٢٣.
(٣) الكشاف: ج٤، ص٦٧١.
(٤) التبيان: ج١٠، ص٢١٤.
(٥) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٢٣.
(٦) الكشاف: ج٤، ص٦٧٢.

شبههم بالمنثور لانتشارهم (وتوزعهم) في الخدمة، فلو كانوا صفًّا لشُبِّهوا بالمنظوم»[١]. كما أن للؤلؤ حينما ينثر منظرا رائعا في الجمال والجاذبية خصوصا في المروج الخضراء، وتنقل الولدان للخدمة من موقع لآخر يعطي المنظر روعة جديدة كما يتجلى اللؤلؤ بتحريكه.

[٢٠-٢٢] ولا ينتهي نعيم الأبرار إلى هذا الحد فهو كبير جدًّا، وواسع بحيث لا يستطيع بشر أن يستوعب تعداده وبيانه، وإلى هذه الحقيقة يهدينا القرآن الكريم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾، وحتى نفهم معنى كلمة ﴿كَبِيرًا﴾ يجب أن ننظر إليها على أساس أنها تعبير عن أربعة أمور، هي: الكثرة، والحجم، والتنوع، والعظمة. وتكرار كلمة ﴿رَأَيْتَ﴾ يأتي لبيان أنك مهما تكرر نظرك وتعيد الرؤية فإنك لا تستطيع أن تصل إلى حد ملك الأبرار من النعيم في الجنة، وإنما تعلم بصورة مجملة أنه نعيم وملك كبير. وكفى به عظمة وسعة أنه يزداد مع الزمن بفضل الله وكرمه المتتابع على أهل الجنة. قد أشار الإمام الصادق عليه السلام في حديث له إلى تفسير الكبير بالعظمة، قال عباس بن يزيد: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ الله عليه السلام ذَاتَ يَوْمَ جُعِلْتُ فِدَاكَ قَوْلُ الله عَزَّ وَجَل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ ما هذا الملك الذي كبر الله عز وجل حتى سماه ﴿كَبِيرًا﴾؟! قَالَ فَقَالَ لِي: إِذَا أَدْخَلَ اللهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ أَرْسَلَ رَسُولًا إِلَى وَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَائِهِ فَيَجِدُ الْحَجَبَةَ عَلَى بَابِهِ فَيَقُولُونَ لَهُ قِفْ حَتَّى نَسْتَأْذِنَ لَكَ فَمَا يَصِلُ إِلَيْهِ رَسُولُ الله إِلَّا بِإِذْنٍ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾»[٢]، وقال عليه السلام مبينا معنى الآية: «لاَ يَزُولُ وَلَا يَفْنَى»[٣]، وقيل: «هو أنهم: لا يريدون شيئا إلا قدروا عليه»[٤]، وعن الحسن البصري عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً الَّذِي يَرْكَبُ فِي أَلْفِ أَلْفٍ مِنَ الخَدَمَةِ مِنَ الوِلْدَانِ المُخَلَّدِينَ عَلَى خَيْلٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ لَهَا أَجْنِحَةٍ مِنْ ذَهَبٍ»[٥].

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قال شيخ الطائفة: «السندس الديباج (الحرير) الرقيق الفاخر الحسن، والإستبرق: الديباج الغليظ الذي له بريق»[٦]. وفي ﴿عَالِيَهُمْ﴾ اختلفوا، فمنهم من جعلها ظرفا بمنزلة قولك: فوقهم ثياب سندس، ومنهم من جعلها حالا فهو بمنزلة قولك: يعلوهم ثياب سندس، وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «تَعْلُوهُمْ الثِّيَابُ فَيَلْبَسُونَهَا»[٧]. ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ والتحلية بمعنى الزينة، أي زينوا بإلباسهم حللا

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٢٣.
(٢) بحار الأنوار: ج٨، ص١٩٧.
(٣) بحار الأنوار: ج٨، ص١١٣.
(٤) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٢٣.
(٥) الدر المنثور: ج٦، ص٣٠١.
(٦) التبيان: ج١٠، ص٢١٧-٢١٨.
(٧) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٢٤.

أساور من فضة، ويعلم الله كم هو جمال تلك الأساور التي صنعتها يد القدرة الإلهية وأبدعتها، وكم هو الرونق والجمال الذي تعطيه للابسها حينما يتزين بها.

﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ قال في المجمع: «أي طاهرا من الأقذاء، لم تدنسها الأيدي، ولم تدسها الأرجل كخمر الدنيا، وقيل: طهورا لا يصير بولا نجسا، ولكنه يصير رشحا في أبدانهم كريح المسك، وإن الرجل من أهل الجنة يقسم له شهوة مائة رجل من أهل الدنيا، وأكلهم ونهمتهم، فإذا أكل ما شاء سقي شرابا طهورا فيطهر بطنه، ويصير ما أكل رشحا يخرج من جلده، أطيب ريحا من المسك الأذفر، ويضمر بطنه، وتعود شهوته. رواه أبو قلابة. وقيل: «**يُطَهِّرُهُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَى اللَّهِ إِذْ لَا طَاهِرَ مِنْ تَدَنُّسٍ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَكْوَانِ إِلَّا اللَّه**» عن الصادق عليه السلام»[1]. وقد يكون هو شراب نهر الكوثر الذي يعطيه الله لأهل الجنة بيد رسوله صلى الله عليه وآله ووليه أمير المؤمنين عليه السلام قبل دخولهم إلى الجنة فيطهرهم من كل عيب ودنس. وقال الرازي: «وإنه المطهر»[2].

ويبدو لي أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يسقي الأبرار ذلك الشراب بصورة غيبية، لا عن طريق الولدان، إكراما لهم منه عز وجل. ولكن ما هذا الشراب الطهور الذي يسقيهم إياه الرب بيده؟ هل شراب سائل كالماء والخمر والعسل واللبن، أم هو شراب الود والقرب والحب والنجوى؟ لأن الأدب القرآني أدب تصويري يهدينا من ظاهر الأحداث إلى غيب الحقائق فإن لنا أن نتصور أن الشراب الرباني ليس مجرد شراب مادي، وحتى لو كان كذلك فإنه حين يكون الساقي هو الرب الباقي فإنه يتحول من نعمة مادية إلى درجة معنوية دونها كل درجة، فأي كرامة أعظم من إقامة صلة قريبة بين العبد هذا المخلوق المتضائل المتناهي في الضعف والعجز وبين الرب العظيم المتعال، وأي نشاط يسري في نفس العبد هذا، وأي جمال يغمر فؤاده، وأي سكينة تغشى نفسه، وأي عزة تحيط كيانه.. سبحانه الله! لا علم لنا، ولا ندري ما نقول. إن مثل الإمام زين العابدين عليه السلام حري بوصف تلك اللحظات التي يقترب العبد فيها من الرب حين يقول: «**فَقَدِ انْقَطَعَتْ إِلَيْكَ هِمَّتِي، وَانْصَرَفَتْ نَحْوَكَ رَغْبَتِي، فَأَنْتَ لَا غَيْرُكَ مُرَادِي، وَلَكَ لَا لِسِوَاكَ سَهَرِي وَ سُهَادِي، وَلِقَاؤُكَ قُرَّةُ عَيْنِي، وَوَصْلُكَ مُنَى نَفْسِي، وَإِلَيْكَ شَوْقِي، وَفِي مَحَبَّتِكَ وَلَهِي، وَإِلَى هَوَاكَ صَبَابَتِي، وَرِضَاكَ بُغْيَتِي، وَرُؤْيَتُكَ حَاجَتِي، وَجِوَارُكَ طَلَبِي، وَقُرْبُكَ غَايَةُ سُؤْلِي، وَفِي مُنَاجَاتِكَ رَوْحِي وَرَاحَتِي، وَعِنْدَكَ دَوَاءُ عِلَّتِي، وَشِفَاءُ غُلَّتِي، وَبَرْدُ لَوْعَتِي، فَكُنْ أَنِيسِي فِي وَحْشَتِي... وَلَا تَقْطَعْنِي عَنْكَ، وَلَا تُبْعِدْنِي مِنْكَ، يَا نَعِيمِي وَجَنَّتِي، وَيَا دُنْيَايَ وَآخِرَتِي**»[3]. وفي مناجاة كريمة أخرى يقول عليه السلام: «... **وَغُلَّتِي لَا يُبَرِّدُهَا إِلَّا وَصْلُكَ، وَلَوْعَتِي لَا يُطْفِئُهَا**

(١) مجمع البيان: ج ١٠، ص٢٢٣.

(٢) التفسير الكبير: ج ٣٠، ص٢٥٤.

(٣) الصحيفة السجادية: مناجاة المريدين.

إِلَّا لِقَاؤُكَ، وَشَوْقِي إِلَيْكَ لَا يَبُلُّهُ إِلَّا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِكَ، وَقَرَارِي لَا يَقِرُّ دُونَ دُنُوِّي مِنْكَ، وَلَهْفَتِي لَا يَرُدُّهَا إِلَّا رَوْحُكَ، وَسُقْمِي لَا يَشْفِيهِ إِلَّا طِبُّكَ، وَغَمِّي لَا يُزِيلُهُ إِلَّا قُرْبُكَ... فَيَا مُنْتَهَى أَمَلِ الْآمِلِينَ، وَيَا غَايَةَ سُؤْلِ السَّائِلِينَ، وَيَا أَقْصَى طَلِبَةِ الطَّالِبِينَ، وَيَا أَعْلَى رَغْبَةِ الرَّاغِبِينَ... أَسْأَلُكَ أَنْ تُنِيلَنِي مِنْ رَوْحِ رِضْوَانِكَ وَتُدِيمَ عَلَيَّ نِعَمَ امْتِنَانِكَ»[١].

ونلاحظ أن إيحاء الآيات ينتهي إلى هدف واحد هو بيان أن الأبرار في راحة تامة عند ربهم في الآخرة، ﴿مُّتَّكِـِٔينَ ... وَدَانِيَةً ... وَذُلِّلَتْ ... وَيُسْقَوْنَ ... وَيُطَافُ عَلَيْهِم ... وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾، وذلك لأنهم في الدنيا يتعبون أنفسهم في خدمة الناس وبالأعمال الصالحة لوجه الله، ويمسهم من ذلك الكثير من التعب، وليس أنسب لتسكين أنفسهم وإشباع تطلعاتهم من بيان ما يصيرون إليه من الراحة في الآخرة ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ وهذا جواب نيتهم الخالصة لوجهه تعالى وقولهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾، فحيث ترفَّعوا عن أي رياء ومطمع مادي من وراء عملهم الصالح وإنفاقهم في سبيل الله جازاهم ربهم على ذلك خير الجزاء وشكر سعيهم بأفضل الشكر.

وإن إشعار المؤمن في الجنة بأن كل تلك النعم العريضة الواسعة هي شكر لأعماله وجزاء أخلاصه أن هذا الإشعار بذاته كرامة جديدة لأهل الجنة ونعمة كبيرة، إذا يجعلهم في نهاية الراحة النفسية أن اختيارهم في الدنيا كان صائبا وأعمالهم كانت مقبولة.

[٢٣-٢٦] وحيث حدَّثنا ربنا عن نعيم الأبرار فإن نفوسنا لا ريب ستتوق إليه، والقرآن يستجيب لهذه الصفة الفطرية بتوجيه تمنيات الإنسان وتطلعاته ضمن قناتها الصحيحة حيث العمل بالمنهج الحق الموصل إلى ذلك النعيم، ومن هذا المنطلق تأتي الإشارة إلى القرآن الكريم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ أي مُنَجَّمًا وليس دفعة واحدة، وذلك يتماشى مع هدف القرآن، وهو بناء شخصية الأبرار في كل الأبعاد، حتى ترتقي إلى قمة ذلك الرضوان والنعيم الإلهي السامقة درجة درجة. ومن أراد الوصول إليها فإن الطريق واحد، وهو أن يترك الأماني والظنون المجردة إلى السعي والاجتهاد على هدى كتاب الأبرار والسمو عبر معراج آياته. وهذا بحاجة إلى الصبر على العقبات، فإن طريق الجنة عموما محفوف بالمكاره فكيف إذا كان الهدف هو أعلى درجاتها وأفضلها (درجة الأبرار)؟.

إن بلوغ هذا الهدف العظيم يستدعي الحقائق التالية:

أولاً: التسليم المطلق لقضاء الله وقدره، وسننه في الخليقة وشرائعه ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾،

---

(١) الصحيفة السجادية: مناجاة المفتقرين.

وحكم الله هو تدبيره لخلقه ورسالته إلى الناس، والمؤمن بحاجة إلى الاستقامة والتحمل كي يجني ثمار التوكل على ربه والتسليم لأمره ورسالته، فقد نطبق رسالة الله ولكن ليس بالضرورة أن نحصل على النتائج مباشرة؛ إذن يجب أن ندع الاستعجال ونفوِّض أمرنا إلى الله سبحانه دون أن نتأفف مِمَّا يقدره الرب أو نضجر من طول الانتظار. ثم إن تطبيق القرآن يستلزم روح الصبر، لأنه يضع الإنسان أمام قرارات صعبة وتحديات كثيرة في ذاته وفي المحيط، وتجرُّع مرارة الصبر على كل ذلك ضرورة أساسية لبلوغ أهداف الرسالة وتطلعاتها.

ثانياً: الاستقامة أمام الضغوط، لأن الإنسان حينما يقرر العمل بالقرآن وتغيير نفسه وواقعه على هدى آياته فسوف تتوالى عليه الضغوط المختلفة من قبل الآخرين الذين لا يريدون الإصلاح ولا التغيير اجتماعيًّا وسياسيًّا، وبالذات أولئك الذين تقوم مصالحهم على أساس الواقع المتخلف والفاسد كالمترفين وأصحاب السلطة، أو الذين تتعارض أفكارهم وثقافتهم المبدئية مع خط الرسالة وقيمها. أما وسائلهم في الضغط فهي تختلف فقد تكون مباشرة، كما يفعل الحكام الطغاة ضد المؤمنين تارة بالترغيب وتارة بالترهيب، وقد تكون عبر الإعلام والمواقف الاجتماعية والاقتصادية و...، ولا بد لكل مؤمن يختار طريق الحق أن تكون هذه الصورة الواقعية حاضرة في وعيه، حتى لا يتفاجأ من جهة، ولكي يستعد نفسيًّا وعمليًّا لمواجهتها. ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ قال الزمخشري: «معناه: ولا تطع منهم راكبا لما هو إثم داعيا لك إليه، أو فاعلا لما هو كفر داعيا لك إليه، لأنهم إما أن يدعوه لمساعدتهم على فعل ما هو إثم أو كفر، أو غير إثم ولا كفر، فنُهي أن يساعدهم على الاثنين دون الثالث»[1].

والذي يظهر لي أن الآية تشمل المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام ولكنهم يرتكبون الإثم ويريدون الباطل، كما تشمل الكفار الذين يبالغون في الكفر ويعادون الحق بصورة صريحة وظاهرة.

ثالثاً: الروحية العالية، وذلك لأن هزيمة الإنسان وانتصاره واستقامته وتراجعه كل أولئك يرتكز على قوة إرادته وصلابة شخصيته، فعلى المؤمنين أن يشحذوا عزائمهم، ويوفروا إرادتهم، وينمُّوا قوة شخصياتهم، حتى يرتفعوا إلى مستوى الالتزام بالرسالة ومقاومة التحديات في الدنيا، وإلى مستوى الأبرار ونعيمهم في الآخرة. وذِكْرُ الله الدائم وصلاتهم بالليل هما معراج المؤمنين إلى تلك الفضيلة والمنزلة، لذا يدعو القرآن رسول الله وكل فرد مؤمن إلى الذكر والصلاة. ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٢٥ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ والبكور هو أول الصباح، والأصيل هو أول الليل وأصله، والمراد هو المداومة على الذكر نهارا وليلا.

---

(١) الكشاف: ج٤، ص٦٧٤.

وقيل: ﴿بُكْرَةً﴾ يعني صلاة الصبح، و﴿وَأَصِيلًا﴾ يعني صلاتي الظهر والعصر، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ إشارة إلى صلاتي المغرب والعشاء اللتين تقعان في بعض الليل من أوله، ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ يعني «صَلَاةَ اللَّيْلِ»[1] روي ذلك عن الإمام الرضا عليه السلام. وتأكيد الله على مفردات معينة في الآيتين لحكمة، فقد قال الله: ﴿وَٱذْكُرِ ... فَٱسْجُدْ ... وَسَبِّحْهُ﴾ وكلها تتمحور حول قيمة التوحيد وتأكيد العبودية لله، وذلك هو سر الفضيلة والتسامي على الضغوط والتحديات التي تدعو الإنسان إلى الشرك.

[٢٧-٣١] وبعد أن فصَّل لنا القرآن الحديث عن الأبرار الذين يختارون سبيل الشكر والهدى، وأن إيمانهم باليوم الآخر وخوفهم منه عامل رئيس في اختيارهم طريق الحق وسلوكهم السليم في الحياة، يؤكد لنا أن مشكلة الكفار التي دعتهم إلى الإثم والضلال تتمثل في حبهم الشديد للدنيا وكفرهم بالآخرة ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾، ومن الآية نفهم أن حب الدنيا هو الحجاب الذي يحول بين الإنسان وبين الإيمان بالآخرة، وأن الطريق لخرق هذا الحجاب هو حضور يوم القيامة العصيب في وعيه بتذكر مواقفه الرهيبة ومشاهدة الثقيلة.

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ قال صاحب المجمع: «الأسر أصله الشد، ومنه قَتَبٌ مأسور: أي مشدود، ومنه الأسير: لأنهم كانوا يشدونه بالقيد، وقولهم: خذ بأسره بشده»[2]، ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي قوَّينا وأحكمنا خلقهم عن قتادة ومجاهد، وقيل: «أسرهم: أي مفاصلهم عن الربيع، وقيل: أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب، ولولا إحكامه إياها على هذا الترتيب لما أمكن العمل بها والانتفاع منها، وقيل: جعلناهم أقوياء عن الجبائي، وقيل معناه: كلَّفناهم وشددناهم بالأمر والنهي كيلا يجاوزوا حدود الله، كما يشد الأسير بالقيد لئلا يهرب»[3]. ولعل المعنى هو ظاهر الأسر، فإن ذلك يتناسب مع الشطر الثاني للآية، وينسجم مع السياق، فحيث بيَّن الله حب الكفار للعاجلة، ومن ثم تركهم الآخرة والالتزام بأوامر الله ونواهيه، وإطلاقهم العنان لأنفسهم في الأهواء والشهوات، أراد أن يؤكد أنه لا يُعصى عن غلبة أبدا. وهذا ما يستدعي التأكيد على حاكمية الله في الإنسان وهيمنته عليه، وأن حوله منه وقوته به، وأنه لا حول ولا قوة له ذاتية. ولعل استخدام كلمة الأسر هنا للإيحاء بأن الإنسان مقيد بقدرة الله وقوته حيث إن شد أسره بيده (وبهذا تجتمع معاني الأسر في الآية).

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٩٩.
(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٢٥.
(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٢٦.

والذي يتفكر في وجود الإنسان يجد أنه أسير لله تكوينيًّا وعمليًّا، فهو من جهة محكوم بقوانين تكوينية كالنمو والتنقل من مرحلة إلى أخرى قسرا عنه، والدورة الدموية ودقات القلب وحركة الجهاز الهضمي والكبد و..، ومن جهة أخرى هو أسير تدبير الله وسننه في الحياة، لا يستطيع أن يقاوم الموت مثلا.. وقد وجدت إشارة إلى هذا التفسير لدى العلامة الطباطبائي إذ قال: «والآية في معنى دفع الدخل، كأنَّ مُتَوَهِّمًا يتوهم أنهم بحبهم للدنيا وإعراضهم عن الآخرة يعجزونه تعالى، ويفسدون عليه إرادته منهم أن يؤمنوا ويطيعوا، فأجيب بأنهم مخلوقون لله، خلقهم وشد أسرهم إذا شاء أذهبهم وجاء بآخرين، فكيف يُعجزونه وخَلْقُهم وأمرهم وحياتهم وموتهم بيده؟!»[1]. وأظهر آيات أسر الله للبشر هو الموت الذي قهرهم به، فهو يُميتهم حيثما شاء وكيفما أراد، ويأتي بغيرهم دون أن يقدر أحد على رد إرادته، إذ «**تَوَحَّدَ بِالْعِزِّ وَالْبَقَاءِ وَقَهَرَ عِبَادَهُ بِالْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ**»[2].

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي جئنا بآخرين أمثالهم بديلا عنهم، بإهلاكهم، أو بجعل الجدد حاكمين عليهم. وإنما ذكرت كلمة الأمثال هنا -وفي موارد متشابهة- للإشارة إلى صفاتهم وأن من كان بصفة العجز والضعف والمحدودية -أمثال هؤلاء- لا يُعجزون الله شيئا، لأن بيده أسرهم وهو قادر على تبديلهم. علما بأن كلمة المثل تدل على الشبيه ولكن بلحاظ مواصفاته وطبائعه، والله العالم.

وحري بالإنسان الذي يأتي عليه الموت أن يفكر فيما بعده من مستقبل، ويستعد له، باتباع الحق والصراط المستقيم الذي هو السبيل إلى رضوان الله، الذي بيده الأمر والحكم وإليه المصير. ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي التي طرحتها الآية السابقة وكل آيات السورة. والموقف السليم منها أن يهتدي بها البشر إلى الإيمان بربه، واتباع سبيله المتمثل في رسالته وأوليائه وحزبه.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ وتأكيد مشيئة الإنسان هنا هو تقرير لحرية الاختيار عنده، ومسؤوليته عن مصيره، فالاختيار بيده يتبع أي سبيل شاء سبيل الشكر أو سبيل الكفر، وله الغنم وعليه الغرم. ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ لأن المخلوقين لا يمكنهم أن يملكوا إرادة ذاتية أبدا، فهم حيث يشاؤون فوسائل مشيئتهم من عقل وإرادة وجوارح كلها من عند الله، ولا تنشأ لمخلوق مشيئة دون إذنه، فيسلب البعض توفيق الهداية ويهبه لآخرين. ولكن ليس اعتباطا، بل على أساس علمه بحال المخلوق وحكمته البالغة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فتعليقه لمشيئة المخلوق على مشيئته لا يعني الجبر، لأن ذلك يلغي دور الإنسان ومسؤوليته، كما

(١) تفسير الميزان: ج٢٠، ص١٤٢.

(٢) بحار الأنوار: ج٩١، ص٢٤٢. من دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام.

ينفي حكمة الله حين خلقه وابتلاه، فتعالى الله عما يصفون. ولكن إعطاءه المشيئة لهم لا يعني استطالتهم على ربهم واستقلالهم عنه، فإن هذا من التفويض الباطل، إنما أعطاهم المشيئة وهو المدبر المحيط بهم علما وقدرة. ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ ولكنه حين علق مشيئته بعلمه وحكمته فلن يدخل في رحمته من ليس أهلها إنما الذي سعى وعمل صالحا. وهذا ما يبرر عدم ذكر النقيض للظالمين، واقتصار القرآن على ذكرهم، لأنه لا يدخل رحمة الله إلا من كان مؤمنا وطاهرا من دنس الضلال والظلم ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ جزاء لظلمهم، كما أن النعيم والملك الكبير كان للأبرار جزاء وكان سعيهم مشكورا.

سُورَةُ المُرْسَلات

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٥٠.

* ترتيبها النزولي: ٣٣.

* ترتيبها في المصحف: ٧٧.

* نزلت بعد سورة الهُمزة.

فضل السورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ الله بينه وبين محمد صلى الله عليه وآله».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص٢٥٧)

الإطار العام

من هو الخاسر الأكبر؟

بتكرار آية: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يظهر أنها المحور الرئيسي للسورة الكريمة، والتي تهدف -فيما يبدو- تأكيد وعد الله الواقع في أن الويل للمكذبين به. فبعد القسم بالمرسلات والناشرات يؤكد ربنا أن وعده تعالى واقع لا محالة (الآيات: ١-٧).

ومع أن قول الله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ شامل لكل ما يعد الله به أن يقع، إلا أن يوم القيامة وما يُجلي من الحقائق وما يعنيه من بعث وحساب وجزاء هو أظهر مصاديق الوعود الإلهية الواقعة، وحين يحل أجل ذلك الوعد يشهد الوجود حوادث كونية رهيبة، فتطمس النجوم، وتشق السماء، وتنسف الجبال، وأعظم من ذلك شهادة الرسل على أممهم عند الحساب والفصل بين الناس وفي مصائرهم، إذ أَجَّلها الله ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝١٣ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾؛ إنه يوم رهيب ومهول، لأنه يوم الفصل في مصائر العباد، فويل لأولئك الذين كَذَّبوا رسل الله من شهادتهم ضدهم عنده، وما يتلو ذلك من عذاب شديد يصبه عليهم ربهم صباً (الآيات: ٨-١٥).

وبالرغم من أن القرآن يوجهنا إلى مشاهد ذلك اليوم الأخروي ومصير المكذبين فيه، علاجًا لموقف التكذيب بحقائق المستقبل عند الإنسان، إلا أنه لا يكتفي بذلك؛ بل يدعونا إلى الاعتبار بعاقبة المجرمين الآخرين بعد الأولين. فإن المتفكر في هذا الأمر يهتدي إلى واقعية سُنَّة الجزاء، وذلك بدوره يهديه إلى واقعية الآخرة باعتبارها التجلي الأعظم والأشمل لها في واقع الحياة فـ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (الآيات: ١٦-١٩).

ويربط القرآن بين خلقة الإنسان وبين حقيقة الآخرة، وذلك أن خلقته بما فيها من أطوار وتقديرات تكشف عن حكمة الخالق؛ وأنه لم يخلق الخلق عبثاً، ولن يتركهم سدى، والتي لا تكتمل من دون الإيمان بالآخرة التي هي عنوان الحكمة الإلهية، ومنتهى الإنسان وغايته التي تقتضيها تلك الحكمة، كما تقتضي العذاب الأليم للمكذبين بالحق (الآيات: ٢٠-٢٤).

ومن رحلة الإنسان في آفاق نفسه ينطلق به السياق إلى آفاق الكون من حوله بموجوداته وظواهره، حيث جعل الله الأرض كفاتاً تضمه حياً وميتاً، وجعل فيها جبالاً راسية بأصولها في الأرض، شامخة بقممها في آفاق السماء، وسقانا منها ماءً فراتاً سائغاً للشاربين، وكل ذلك آيات لحكمة الله، وعلامات تهدي إلى ذلك اليوم، فالويل للمكذبين به (الآيات: ٢٥-٢٨).

ولقطع دابر التبرير والكيد، اللذين يتخذهما المكذِّبون وسيلة لتكذيبهم، يصور السياق عاقبة المكذِّب، إذ يأتي النداء الإلهي إلى المكذبين في حال تكاد الحسرة تهلكهم لولا مشيئته تعالى؛ يقال لهم: ﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (يعني جهنم وعذابها) ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ (وحيث النار، وما أدراك ما هي النار؟) إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾ فويل يومئذ للمكذبين من غضب الله وعذابه (الآيات: ٢٩-٣٤).

وهنالك تنطق الحجة البالغة لله، ولا ينطق المكذبون باعتبارهم مُلْجَمَين بالحجج من جهة، ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ من جهة أخرى، وكفى بهذا عذابا مهينا لهم بين يدي جبار السماوات والأرض، وأمام الخلائق في محشر يوم القيامة (الآيات: ٣٥-٣٧).

ويتحدى السياق المكذبين من الأولين والآخرين، بهدف إذلالهم وإظهار صغارهم أمام الناس، حيث كانوا يتكبرون في الدنيا بما عندهم من السلطة والمال؛ يقول لهم: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ﴾ الذي طالما كذبتم واستهزأتم به، وأنتم مجموعون إلى بعضكم (أولين وآخرين) ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾ وذلك جزاء كيدهم ومحاربتهم لله ولأوليائه في الدنيا، فالويل لهم من ذلك الموقف وعذابه (الآيات: ٣٨-٤٠).

ويبين القرآن سبيل النجاة من مصير المكذبين السيء، ألا وهو تقوى الله، وهذا البيان يملأ قلوب المتقين أملاً في رحمة الله، واطمئناناً إلى لطفه بالذات. والسورة ظلال لغضب الله ووعيده بكل آياتها ومفرداتها عدا الآيات: (٤١-٤٤) فالمتقون في مأمن من العذاب، وهم ﴿فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ (يدعوهم ربهم إلى مائدة فضله ورحمته) كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وإنه لجزاء كل تقي محسن عنده تعالى (الآيات: ٤١-٤٤).

ويعود السياق موصولاً بما سبق من الوعيد للمكذبين، وهو يهددهم بالعذاب، ويحذرهم من عواقب انتهاجهم سبيل التكذيب والجريمة، مؤكداً أنهم لن يطول بهم المقام في متعهم الإجرامية حتى يقع بهم غضبه الذي لا تقوم له السماوات الأرض (الآيات: ٤٥-٤٧).

وكيف لا يلحق بهم الويل والثبور وهم يتمردون على أوامر الله وأحكامه، فلا يتبعون رسله ولا يصدقون آياته ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾!، بلى؛ سوف يلحقهم العذاب (الآيات: ٤٨-٤٩).

ويختتم ربنا سورة المرسلات متسائلاً سؤال استنكار: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾؟، وذلك مما يؤكد القول بأن الإيمان بالآخرة وحديثها حجر الأساس في صرح الإيمان بكل المبادئ والحقائق الأخرى، وهذا ما يجعل حديثها مذكوراً على الدوام في آيات الوحي وبصورة مفصلة (الآية: ٥٠).

ويل يومئذ للمكذبين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ (١) ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢) ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ (٣) ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ (٤)

---

(١) طُمِسَتْ: قال البعض: أي أن النجوم يذهب ضياؤها حتى تصير بلا ضياء أو نور، والأصح: أن النجوم ذاتها تُطمس فلا يبقى منها شيء أو أثر، جاء في مفردات الراغب: الطمس إزالةُ الأثر بالمَحْو، قال – تبارك وتعالى–: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]، أي أزل صورتها، ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦]، أي أزلنا ضوءها وصورتها كما يطمس الأثر.

(٢) مكين: مُستحكم، وقال القرطبي: أي في مكان حريز وهو الرحم.

(٣) كالقصر: قيل: هو البنيان الضخم، وقيل: أصل الشجر، وقال البعض: إن الأول أظهر والثاني أنسب.

(٤) جمالةٌ صُفرٌ: جَمَلٌ أصفر، قال البعض: شرر النار كالجمل الأصفر في لونه، بعدما كان بقدر القصر في حجمه، وتشبيه الشرر بالجمالة لأنه لتتابعه وتطايره كالجمالات التي ترتع هنا وهناك.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٣) هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)﴾.

بينات من الآيات:

[١ - ١٠] أرأيت الذي يكذب بوعد الله؛ أيلغيه؟. كلا.. إنه يرتكب أكبر جريمة بتكذيبه بالحق، فله الويل ثم له الويل. وأنى له التكذيب بها تواترت شواهده، وتضافرت آياته، بوعد الله الواقع الذي تكررت مصاديقه على امتداد التاريخ، وهذه الرياح التي يرسلها ربها بالعذاب حينا وبالخيرات أحيانا؛ إنها بعض آيات الوعد الإلهي. قسما بها وبالملائكة الموكلين بها وبما تقدمه لنا من الإعذار والإنذار: إن وعد الله لواقع. هكذا ترى كلمات القسم التي اختُلف في تفسيرها وتأويلها، إلا أنها تتصل -أنى كان تأويلها- بتلك الحقيقة العظمى: وقوع وعد الله، كاتصال الشاهد الحاضر بالغائب المنتظر، وكاتصال الحجج بالحقائق، والإرهاصات بالوقائع.. وهكذا سائر ما في الذكر الحكيم من قسم يتصل بما يُقْسَم عليه اتصالًا واقعيًّا. بلى، قد نجهل علاقة بعضه ببعض، ولكنا نعرفها عند التدبر العميق فيها.

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ اختلفوا في تأويل ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾ إلى رأيين أساسيين:

الأول: أنها الرياح، قال في المجمع: «والمرسلات يعني الرياح، أُرسلت متتابعة كعرف الفرس عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة وأبي صالح، فعلى هذا يكون ﴿عُرْفًا﴾ نُصب على الحال من قولهم: جاؤوا إليه عرفا واحدا، أي متتابعين»[1]. وقد استدل أصحاب هذا الرأي بقول رسول الله ﷺ: «**الرِّيَاحُ ثَمَانٌ: أَرْبَعٌ مِنْهَا عَذَابٌ، وَأَرْبَعٌ مِنْهَا رَحْمَةٌ، فَالْعَذَابُ مِنْهَا: الْعَاصِفُ، وَالصَّرْصَرُ، وَالْعَقِيمُ، وَالْقَاصِفُ، وَالرَّحْمَةُ مِنْهَا: النَّاشِرَاتُ، وَالْمُبَشِّرَاتُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَالذَّارِيَاتُ. فَيُرْسِلُ اللَّهُ الْمُرْسَلَاتِ فَتُثِيرُ السَّحَابَ، ثُمَّ يُرْسِلُ الْمُبَشِّرَاتِ فَتُلْقِحُ**

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٢٨.

السَّحَابَ، ثُمَّ يُرْسِلُ الذَّارِيَاتِ فَتَحْمِلُ السَّحَابَ فَتَدِرُّ كَمَا تَدِرُّ اللَّقْحَةُ، ثُمَّ تَمْطُرُ وَهِيَ اللَّوَاقِحُ، ثُمَّ يُرْسِلُ النَّاشِرَاتِ فَتَنْشُرُ مَا أَرَادَ»[1]، وفي المصدر نفسه: «قَامَ رَجُلٌ إِلَى عَلِيٍّ عليه السلام فَقَالَ: مَا الْعَاصِفَاتُ عَصْفاً؟ قَالَ: الرِّيَاحُ»[2].

الثاني: «أنها الملائكة، وفسرت ﴿عُرۡفٗا﴾ على أنها أرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه»[3]، وقيل: «إنهم الأنبياء والرسل، الذين أرسلوا بالوحي المشتمل على كل خير ومعروف، فإنه لا شك أنهم أرسلوا بـ (لا إله إلا الله)، وهو مفتاح كل خير ومعروف»[4].

والذي يبدو لي إمكانية الجمع بين القولين، إذا عرفنا أن للرياح ملائكة موكلة بها ترسلها وتزجرها بأمر الله، بالذات وأن الصيغة جاءت للمبني للمجهول. ومن هذا المنطلق نستطيع القول:إن الآيات ظاهرها الرياح وباطنها الملائكة، أما عن إلقاء الذكر الذي نتلوه في السياق فيمكن تأويله بالرياح والملائكة معا، فإذا أَوَّلنا ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾ بالملائكة فإنها تُلقي وحي الله وآياته إلى الأنبياء ثم إلى الناس. وإذا أَوَّلناها بالرياح فإنها الأخرى تلقي الغيث الذي يعد تذكرة للناس. ويمكن أن يقال: إن ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ تعني الرياح التي تكون في صالح الناس وخيرهم، أي المرسلات بما يعرفه الناس ويستسيغونه من غيث وبشارة. وأنى كان فإن إجمال مثل هذه الكلمات يجعلنا نوصل الحقائق ببعضها، فلا نميز بين الرياح المرسلات بالغيث والبركة وبين الملائكة الموكلين بها أو المرسلين بالوحي والرسالة، فإن فائدة القسم تتحقق بهما، كما أنهما معا من شواهد وعد الله، ويصح القسم بهما، وهذا من روائع النهج القرآني في الأدب.

﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا﴾ في التبيان: «يعني الرياح الهابة بشدة، والعصوف مرور الريح بشدة، وعصفت الريح تعصف عصفا وعصوفا إذا اشتد هبوبها»[5]، وإذا صرفنا المعنى إلى الملائكة فللعصف وجهان:

الأول: السرعة، فإن العرب تقول: «فرس عصوف أي سريع الحركة»، قال العلامة الطباطبائي: «والمراد بالعصف سرعة السير، استعارة من عصف الرياح أي سرعة هبوبها، إشارة إلى سرعة سيرها إلى ما أرسلت إليه»[6].

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٧، ص٢١.
(٢) بحار الأنوار: ج٥٧، ص٢١.
(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٢٨.
(٤) التفسير الكبير: ج٣٠، ص٢٦٦.
(٥) التبيان: ج١٠، ص٢٢٣.
(٦) تفسير الميزان: ج٢٠، ص١٤٦.

الثاني: الإهلاك والتدمير، قال الرازي: «يعني أن الله لما أرسل أولئك الملائكة فهم يعصفون بروح الكافر، يقال: عصف بالشيء إذا أباده وأهلكه»[1]، وعصفت الحرب بالقوم أي ذهبت بهم وأهلكتهم، ويقال: «عصف الدهر بهم أي أبادهم»[2]. ويبدو أن الأقرب إلى السياق تأويل العصف بسرعة الرياح في حمل الغيث، وليس في سرعتها في الإهلاك.

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ إذا قلنا إنها الرياح فهي تنشر السحاب في الآفاق، وتنشر الغيث والرحمة الإلهية من زرع وغيره، كما أنها تنشر الحبوب واللقاح في بقاع الأرض المختلفة، كما أن الملائكة «ينشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي»[3]، «وتنشر الكتب عن الله»[4]، أو «تنشر الرحمة والعذاب، أو تنشر الكتب يوم الحساب»[5].

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ قيل: «إنها الرياح التي تفرق بين السحاب فتبدده (بعد اجتماع، ليقف المطر، وتطلع الشمس، ويظهر وجه السماء بعد الغيب) عن مجاهد»[6]، كما تفرّق الملائكة «بين الحق والباطل بما تتنزل به من الآيات والوحي عن الله على رسله، هكذا في التبيان»[7] والتفسير الكبير[8].

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ الملائكة تلقي رسالات الله على الأنبياء، ولكن الملائكة ليست وحدها التي تذكرنا بالله إنذارا وإعذارا فإن الرياح تفعل ذلك أيضا، لا فرق إن كانت رياح عذاب أو رياح رحمة، والغيث النازل منها هو الآخر ذكر عظيم باعتباره يذكرنا بالبعث والخروج عندما يسقي الأرض فتراها اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، وهذه الفكرة تفسر لنا اقتران الكلام عن القرآن ورسالات الله كثيرا بالحديث عن منظر الغيث وما يتلوه من ظواهر طبيعية على الأرض.

﴿عُذْرًا﴾ عذرا بإقامة الحجة حيث ألقى الله الذكر عبر الملائكة، أو حذّرهم وذكّرهم بالرياح العاصفة.. كل ذلك قبل أن ينزِّل عليهم العذاب. ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ والإنذار معروف.

ولكن نتساءل عن الفرق بينه وبين الإعذار؟.

---

(١) التفسير الكبير: ج٣٠، ص٢٦٤.
(٢) المنجد: مادة عصف.
(٣) الكشاف: ج٤، ص٦٧٧.
(٤) التبيان: ج١٠، ص٢٢٣.
(٥) التفسير الكبير: ج٣٠، ص٢٦٤.
(٦) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٢٨.
(٧) التبيان: ج١٠، ص٢٢٤.
(٨) التفسير الكبير: ج٣٠، ص٢٦٦.

ولعل الجواب: أن الإعذار يأتي عندما لا يستجيب الإنسان للإنذار، والإنذار أعم، وربما يكون عند الاستجابة إذا قورن بالإعذار، وقد قيل: لقد أعذر من أنذر، وربما يعود إلى هذا المعنى جملة ما ذكره المفسرون، قال شيخ الطائفة: «وقيل: إعذارا من الله، وإنذارا إلى خلقه ما ألقته الملائكة من الذكر إلى أنبيائه، وأضاف: فالعقاب على القبيح بعد الإنذار يوجب العذر في وقوعه، وإن كان بخلاف مراد العبد الذي استحقه»[١]. وقيل: «عذرا يعتذر الله به إلى عباده في العقاب أنه لم يكن إلا على وجه الحكمة، ونذرا: أي إعلاما بموضوع المخالفة، عن الحسن»[٢]. وإن أهم ما تلقيه المرسلات ملائكة ورياحا تذكيرها بالآخرة وبأن وعد الله صادق. أَوَليسَت تتلاحق الظواهر الطبيعية في الكائنات فتاتي الرياح مرسلات عاصفات ناشرات فارقات، وتأتي بعدها المواسم الخيرة والسنين المباركة، أو تأتي العواصف الهوج ويأتي من بعدها الدمار؟ أَوَليسَت هذه الظواهر يشهد أولها على آخرها؟ كذلك شواهد العذاب تنذرنا بوعد الله الواقع به، كما شواهد الرحمة تبشرنا بوعد الله الواقع بها.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ وهذا جواب القسم المتقدم في الآيات السابقة، وهو مدعوم بثلاثة تأكيدات: إن، والحصر في ﴿إِنَّمَا﴾، واللام في: ﴿لَوَٰقِعٌ﴾. ومع أن البعض حصر الوعد في القيامة واحتج: «بأنه تعالى ذكر عقيب هذه الآيات علامات يوم القيامة»[٣]، إلا أنني اختار الإطلاق الشامل لكل وعد إلهي، كوعده بنصر المؤمنين ودحر الظلمة، وإحياء الأرض بعد موتها بالمؤمنين، وغلبة دينه ورسله والمؤمنين على الدين كله في آخر الزمان بظهور منقذ البشرية الإمام الحجة المنتظر -عجل الله فرجه- والذي يهدينا إلى هذا التفسير الشامل هو أن القرآن ذو تخوم وآفاق ومطالع، وتفسيره يكون أصح كلما كان أشمل حيث يتم الاقتراب من المعاني الأساسية التي هي أم لتطبيقات وإطلالات متعددة. وقد وجدت من المتقدمين من قال بإطلاق الوعد؛ وهو الكلبي حيث نقل عنه الرازي قوله: «المراد أن كل ما توعدون به من الخير والشر لواقع»[٤]. وحيث إن وعد الله بالبعث والحساب والجزاء هو أظهر مصاديق الوعد وأقربها إلى الأذهان كما إلى دلالة السياق فإنه الأظهر تأويلا من أي مصداق آخر.

وإن اطمئنان الإنسان لوعد ربه -وبالذات الآخرة- أمر في غاية الأهمية، باعتباره يبعث روح التسليم لله في كل أبعاد الحياة، ويبعث فاعلية العمل وتقوى الالتزام بشرائعه ومناهجه.. فلو يئس المؤمنون من الانتصار والتغيير لما أكملوا مسيرة الجهاد والإصلاح، ولو كفر الإنسان

---

(١) التبيان: ج١٠، ص٢٢٤.
(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٢٨.
(٣) التفسير الكبير: ج٣٠، ص٢٦٩.
(٤) التفسير الكبير للرازي: ج٣٠، ص٢٦٩.

بالآخرة (البعث والحساب والجزاء) لما التزم بالنظم والشرائع الإلهية، ذلك أن الإيمان بسنة الجزاء الممتدة من الدنيا إلى الآخرة هو الذي يحرك فيه روح الانضباط والمسؤولية.

والذي يتدبر آيات القرآن في موضوع الآخرة يلاحظ أنها أصبحت من الكثرة والتفصيل والتأكيد من أبرز خصائص هذا الكتاب مما يبعث السؤال عن سبب ذلك وخلفياته. لعل أهم الأسباب هي التالية:

أولاً: أهمية موضوع الآخرة، فإن الآخرة -كما سبق وأن قلنا في مواضع كثيرة- تعتبر حجر الأساس في تفكير الإنسان المؤمن وإيمانه.

ثانياً: إن الآخرة غيب في المستقبل والإسلام يريدها حاضرة في وعي المؤمنين، من هنا يفصّل الحديث فيها وينوعه ويكرره حتى يوصل ذلك الغيب إلى مستوى الشهود عندهم، لذا نجد القرآن بعد الإشارة إلى الآخرة يبين الأمر ويفصل في توجيهنا إلى مشاهدها العظيمة.

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ قال القمي: «يذهب نورها وتسقط»[1]، وقال العلامة الطوسي: «والطمس محو الأثر الدال على الشيء، والطمس على النجوم كالطمس على الكتاب، لأنه يُذهب نورها والعلامات التي كانت تعرف بها»[2]، وقال الفخر الرازي: «يحتمل أن يكون المراد محُقت ذاتها، وهو موافق لقوله ﴿ٱنتَثَرَتْ﴾ و﴿ٱنكَدَرَتْ﴾ وأن يكون المراد: محقت أنوارها، والأول أولى لأنه لا حاجة فيه إلى الإضمار»[3]. والأقرب عندي ما قاله الرازي لأن أصل الطمس من المحو وغياب المطموس. كما يظهر من ملاحظة الآيات القرآنية التي تناولت موضوع القيامة من زاوية حال النجوم يومئذ أنها كما الجبال تمر بمراحل حتى تنتهي وتزول، فهي تنتثر عن بعضها ونسقها بسبب اختلال نظامها الكوني أولاً، ثم تنكدر واحدة واحدة، ثم تُطمس تماما فلا يبقى منها شعاع يدل عليها.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ في تفسير القمي: «تَنْفَرِجُ وَتَنْشَقُّ» هكذا جاء في رواية عن أبي الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام [4]، وفي مجمع البيان: «أي صارت فيها فروج»[5]، بعد أن كانت محبوكة محكمة لا ثغرة في نظامها ولا منفذ في بنيانها أبدا (لا تفاوت ولا فطورا)، ولعل هذه مرحلة أولية تعقبها مراحل متتالية أخرى. وحسب ما يظهر من آيات كريمة أخرى: أن

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٤٠٠.
(٢) التبيان: ج ١٠، ص٢٢٥.
(٣) التفسير الكبير: ج ٣٠، ص ٢٦٩.
(٤) تفسير القمي: ج٢ ، ص٤٠٠.
(٥) مجمع البيان: ج١٠ ، ص٥٢٩، بتصرف.

مراد القرآن من ذكر تبدل نظام الخليقة سلب اعتماد الإنسان عليه، ليصبح وجها لوجه أمام مسؤولياته، فالسماء التي كانت سقفا محفوظا تصبح يومئذ واهية، والجبال التي كانت ملاذا وكهفا تصبح كثيبا مهيلا، والأرض التي كانت مهدا مطمئنا تميد بزلزال عظيم، وهكذا.

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ قالوا: نسف البناء: قلعه من أصله، والجبال: دكها.. ونحن ندرك ماذا يعني نسف الجبال التي جعلها الله أوتاد الأرض، فلا تستقر وتميد بأهلها ويتحطم نظامها بحيث لا تصلح للعيش. وتلك كلها بعض مشاهد القيامة الرهيبة، ولك أن تتصور هذا المخلوق الضعيف كيف يعاصر تلك الأهوال الكونية، وأنى له بركن يأوي إليه منها؟ إلا أن يكون قد سعى سعيا صالحا يخلّصه منها.

[١١-١٩] ويبقى المشهد الأهم من ذلك والموقف العصيب حينما يحين ميعاد الشهادة فيأتي الرسل شهداء على المكذبين من أممهم ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ جُعِل لها ميعاد محدد في وقت معلوم للابتعاث وفي أرض معلومة ولهم وقت معلوم للشهادة، وذلك يهدينا إلى أن حركة الأنبياء وبعثهم ليست اعتباطية بل هم في الدنيا والآخرة يسيرون على أساس حكمة إلهية، فلو أننا درسنا حركتهم التاريخية من جميع جهاتها وحيثياتها لوجدنا أن بعثهم قائم على مجموعة من القوانين الاجتماعية والحضارية، بحيث إن زمن بعث نبينا محمد ﷺ ومكان بعثته مثلا كانا مناسبين تماما لرسالته ودوره، وربما أشار إلى ذلك الإمام الباقر عليه السلام في رواية أبي الجارود عنه قال: «**بُعِثَتْ فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ**»[١]. كما أن شهاداتهم في الآخرة لا تبدأ في أي وقت أو بمجرد أن تقوم القيامة بالبعث، كلا.. بل للرسل ميقات معلوم لا تؤدي دورها المناسب إلا فيه.

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ قال العلامة الطباطبائي: «الأجل المدة المضروبة للشيء، والتأجيل جعل الأجل للشيء، ويستعمل في لازمه وهو التأخير، كقولهم: دَيْنٌ مؤجَّل أي له مدة بخلاف الحالّ، وهذا المعنى هو الأنسب للآية»[٢]. وقد اختُلف في الشيء الذي يعود عليه الضمير من ﴿أُجِّلَتْ﴾، فقال صاحب الميزان إنه: «للأمور المذكورة قبلا، من طمس النجوم، وفرج السماء، ونسف الجبال، وتوقيت الرسل، والمعنى: لأي يوم أُخِّرت هذه الأمور»[٣]، وقيل: هو عائد إلى الرسل فقط. ومع أن لرأي صاحب الميزان محمل في الآيات حيث تفيد ﴿وَإِذَا﴾ الواردة في الآيات كلها معنى التأجيل، إلا أن الأقرب هو عودة الضمير إلى الرسل باعتبار التصاق كلمة ﴿أُقِّتَتْ﴾ بهم دون النجوم والسماء والجبال، ولأنهم أصحاب الشهادة وميزان الفصل بين

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٤٠٠.
(٢) تفسير الميزان: ج٢٠، ص١٤٩.
(٣) المصدر السابق: ص١٤٩.

الناس عند رب العزة، الذي جعل لهم شهادتين متكاملتين: إحداهما في الدنيا بقيامهم شهداء لله بالقسط وقد تقدمت، والأخرى في الآخرة، وبجعلهم الحجة والمعيار في محكمة القيامة، وقد أجَّلها ربنا لذلك اليوم.

﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾ بين الناس في اختلافهم من كل الجهات، وبين أهل الجنة وأهل النار، وسميت القيامة بيوم الفصل لأنها اليوم الذي يفصل فيه الخطاب ويحكم الناس في مصائرهم. وإذا كانت الآخرة مقسمة أياما ومراحل فإن الرسل يدلون بشهاداتهم ليس في يوم البعث عموما -حسب ما يبدو- بل في ساعات الفصل عند الميزان.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ إنه يوم رهيب لا يمكن لبشر أن يستوعب أحداثه ووقائعه على طبيعتها وبحجمها أبدا مهما عُرِّف له، وذلك لأن تلك الحقائق كبيرة ليست بحجم معارفنا، فهل نقدر أن نستوعب -مثلاً- معنى انفجار ألف قنبلة نووية في لحظة واحدة؟ كلا.. من هنا يؤكد ربنا في مواضع كثيرة بعد الحديث عن الآخرة القول: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ تارة ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ تارة أخرى.

ولا يفصِّل السياق في بيان أحوال الناس ومصائرهم يومئذ، بل يكتفي بإشارة تتضمن الوعيد والإنذار بمصير أولئك المكذبين بالآخرة، الذين أبعدوا عن أفكارهم مشاهد الحساب وحقائق الجزاء الأكبر فيها، فأطلقوا لأنفسهم عنان الهوى والشهوة، وتخبطوا في الجريمة والفاحشة خبط عشواء، دون أدنى حساب أو إحساس بالمسؤولية ﴿وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ وكلمة ﴿وَيۡلٌ﴾ كما تكرَّر القول مطلقة تشمل ألوان العذاب المادي والمعنوي، تتجسد في واد من أشد أودية جهنم خزيا وعذابا، ولهذا تخصص الويل بقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ حيث لا يعني أنهم لا ويل لهم هنا في الدنيا، ولكنه يحمل على أشد ألوان الويل هناك، باعتبار ذلك اليوم أظهر مصاديق ورطتهم في الويلات والثبور. وأي ويل هذا الذي يهدد به القرآن المكذبين؟ لكي نعرفه دعنا نتذكر نموذجا صغيرا منه يتمثل في عذاب المكذبين في الدنيا.

وهكذا يذكرنا القرآن بعاقبة المكذبين في الدنيا عبر أرقام وحقائق مادية محسوسة لا تقل حقيقة الآخرة عنها وضوحا لدى العقلاء إن لم تكن أشد وأصفى، فيتساءل السياق سؤال مستثير لأولي الألباب نحو التفكير في مصائر المكذبين من خلال دراسة التجارب التي خلَّفها الآخرون ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ ويمكننا حمل الهلاك على محملين:

الأول: أنه الهلاك بالموت، ونحن لا نكاد نقرأ آيات تحدثنا عن سنة الجزاء وحقيقة الآخرة إلا ونقرأ إلى جانبها حديثا عن سنة الموت، والسبب أنه تعالى يريد هدايتنا إلى أن الآخرة والجزاء حق كما الموت حق، وأن تكذيب أحد بها لا يمكن أن يغير من واقعها شيئا، كما لا يغير تكذيبه

بوعد الله الواقع بالموت ذلك الحق، والدليل واضح في مسيرة البشرية حيث أهلك الله الأولين وأتبعهم بالآخرين والحبل على الجرار حتى لا يبقى أحد إلا وجهه عز وجل.

الثاني: الهلاك بالآخذ والعذاب المتأسس على سنة الجزاء الإلهي في الحياة، وهذا أقرب إلى السياق الذي يتوعد المكذبين ولا يزال بالويل ويؤكد على الجزاء، كما تؤيده الآية التالية: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فهي إذن سنة جارية في الحياة لا تتغير مع الزمن، وهكذا تضع الآية الإنسان في كل عصر ومكان أمام تلك السنة لكيلا يتصور أنها محدودة في المجرمين التاريخيين وحدهم. ويعود السياق يصل حقائق الماضي بالمستقبل من خلال سنة الجزاء في الآخرة، إذ إنها أشد وقعا على المجرمين من أخذهم في الدنيا. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وكفى بإهلاك المجرمين في الدنيا دليلا على عذابهم في الآخرة. وإنما يصيرون إلى الويل نتيجةً طبيعيةً لتكذيبهم بقيادة الحق ونهجه في الحياة، وانصرافهم عنهما إلى قيادة ضالة ومنهج خاطئ يقودان الإنسان إلى الويل بعد الويل.

[٢٠-٢٤] ولماذا يكذب الإنسان بآيات ربه وبالذات حقيقة الآخرة؟ لماذا يكذب بالبعث والنشور بعد الموت؟ هل لأن الآيات الهادية إلى ذلك غير قائمة، أو لأن معرفته بربه وبقدرته الواسعة التي لا تحد ناقصة؟ كلا.. فلنتفكر في أصل خلقتنا، وكيف أنها آية بينة تهدي إلى الإيمان بقدرته تعالى على كل شيء، فلقد انطلقنا في الحياة الدنيا من حويمن صغير وحقير ومستقذر لا يرى إلا بالمجاهر المكبرة، استقر ليس بإرادتنا بل بمشيئة الله في رحم أمهاتنا، ثم نماه الله ضمن ملايين القوانين والسنن التي نجهل أكثرها فضلا عن ادّعاء التحكم فيها، حتى خلقنا بشرًا سويًّا ذكرًا أو أنثى. وربنا يضعنا أمام هذه الحقائق الفطرية التي لا سبيل لأحد إلى إنكارها.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ قال القمي: «منتن»[1]، وقيل: حقير، وعليه أكثر المفسرين، وإن المتأمل ليرى كل أسباب الهوان في ذلك الماء، فحجمه صغير، ورائحته منتنة، وهو مستقذر عند الإنسان نفسه فلا يقيم له وزنا، ولك أن تعجب إذا عجبت من البشر حينما يتكبر ويركب مطية الغرور، ليس في مقابل بني جنسه وحسب، بل في مقابل ربه العظيم أيضا!! وحقَّ لأمير المؤمنين علي عليه السلام أن يعجب فيقول: «**وعَجِبْتُ لِلْمُتَكَبِّرِ الَّذِي كَانَ بِالأَمْسِ نُطْفَةً وَيَكُونُ غَداً جِيفَةً، وعَجِبْتُ لِمَنْ شَكَّ فِي اللهِ وهُوَ يَرَى خَلْقَ الله، وعَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ وهُوَ يَرَى الْمَوْتَى، وعَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الأُخْرَى وهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الأُولَى**»[2]، وإنه لعجب حقًّا أن ينسى

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٤٠٠.
(٢) نهج البلاغة: حكمة: ١٢٦.

الإنسان فضل ربه عليه وإكرامه له بعد أن كان مهينا، فإذا به وهو المخلوق الضعيف يكذب رب العزة جبار السماوات والأرض!.

ثم إنه تعالى جعل ذلك الماء المهين في رحم الأم يحفظه وينشأ فيه ناميا صفة بعد صفة ومرحلة بعد الأخرى، تحوطه وترعاه يد الغيب بما يعجز الإنسان نفسه عن إحصائه من السنن والقوانين المحكمة التي تثبته في الرحم، وتمكنه من العيش والنمو فيه، دون أن يكون للأبوين شأن في ذلك الحمل.

﴿فَجَعَلْنَهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ في التبيان: «القرار: المكان الذي يمكن أن يطول مكث الشيء فيه، ومنه قولهم: قر في المكان إذا ثبت على طول المكث فيه»[1] واستقر. وغض أكثر المفسرين الطرف عن المكين، في حين ذكر أهل اللغة أنه: «المتمكن، والمكين ذو المكانة، واستمكن استولى، وتمكَّن من الشيء قدر عليه»[2]، وقال صاحب الميزان هذا النص: «والمكين: المتمكن، وصفت به الرحم لتمكنها في حفظ النطفة من الضيعة والفساد، أو لكون النطفة مستقرة متمكنة فيها، والمعنى: ثم جعلنا الإنسان نطفة في مستقر متمكن وهي الرحم»[3]. وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَهُ﴾ تأكيد على الفعل الإلهي في الأمر إذ هو بعيد عن كل فاعل ومريد سواه سبحانه، وذلك ما يؤكده الإمام علي عليه السلام في واحدة من خطبه التي تطرّق فيها إلى هذا الأمر، قال: «**أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ والْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ ومُضَاعَفَاتِ الْأَسْتَارِ. بُدِئْتَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ووُضِعْتَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ وأَجَلٍ مَقْسُومٍ، تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِيناً لا تُحِيرُ دُعَاءً ولا تَسْمَعُ نِدَاءً، ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا ولَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا، فَمَنْ هَدَاكَ لاجْتِرَارِ الْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ وعَرَّفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وإِرَادَتِكَ؟!**»[4]. والملاحظ استخدام الإمام في الأفعال صيغة البناء للمجهول (بدئت، وضعت، أخرجت) وكذلك هداك وعرفك، والهدف هو التأكيد على الإرادة الإلهية في الخلق.

ثم إن خلقة الإنسان لا تتحرك في الفراغ ولا على أساس الصدفة، إنما هي قائمة على الحكمة الدقيقة، والتدبير الإلهي المتين، حيث القوانين التي تُجلي إرادة الله وحكمته للمتدبر، فالجنين لا ينمو ولا يمكث بلا قدر ولا قانون في بطن أمه، بل كما وصف الله تعالى: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ وحيث يخرج يكون مُهيَّأً لممارسة الحياة خارج الرحم، وتكون أمه مستعدة نفسيًا وبدنيًا لاستقباله وهكذا عائلته. قال الزمخشري: «إلى مقدار معلوم، قد علمه الله وحكم به وهو تسعة

---

(١) التبيان: ج١٠، ص٢٢٨.

(٢) المنجد: مادة مكن.

(٣) تفسير الميزان: ج١٥، ص٢٠.

(٤) نهج البلاغة: خطبة: ١٦٣.

أشهر أو ما دونها أو ما فوقها»[1]، وقال القمي: «منتهى الأجل»[2]. وحين يحل الأجل فإن الأم لا تستطيع أن توقف التحويل النفسي والبيولوجي الذي يحدث في كيانها وتوقف حركة الجنين باتجاه الخروج، كما لا يملك الجنين نفسه من أمره شيئا، بل هي الإرادة الإلهية وحدها تصنع ما تشاء. وتتسع كلمة القدر إلى معانٍ عدة نجملها في اثنين:

الأول: المقدار والحد، فيكون المعنى أن الجنين من الناحية النفسية والعضوية وهكذا الزمنية محدد بمقادير ومقاييس إلهية حكيمة يعلمها عز وجل.

الثاني: القدر والمصير، فقد جعل الماء في قرار مكين لكي ينتهي إلى قدر إلهي يعلمه تعالى، فقد يكون قدره أن يصبح ذكرا أو أنثى أو بينهما، أو يخرج تاما أو معيبا، أو حَيًّا أو ميتا، ثم إذا خرج إلى الحياة الدنيا فإنه يتحرك وفق أقدار يعلمها الله، وإلى مصير محدد، ربما يكون السعادة والجنة، وربما يكون الشقاء والنار، أو يكون الفقر والصحة، أو الغنى والمرض.

ولا تعني الآية أن كل إنسان يأتي إلى الحياة الدنيا ليعيش ضمن أقدار محددة يجبر عليها من كل الجهات، بل هي تكشف عن علم الله المطلق بما يؤول إليه من خير أو شر. وقوله: ﴿مَّعْلُومٍ﴾ يفيد التحديد من جهة، والإطلاق من جهة ثانية، فأما التحديد فإن مسيرة الإنسان في وضعها الطبيعي والنسبي محكومة بمعطيات وأقدار محددة يمكن لنا معرفتها عبر العلم والتجربة، كميعاد الولادة وما أشبه..، وأما الإطلاق فإن العلم اليقين بكل شيء وبالذات بعض الأمور فهو لله وحده يقدره ويعلمه، بحيث لا يستطيع بشر تحديده ومعرفته.

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ قال ابن جرير: «فملكنا فنعم المالكون، وعن الضحاك قال: فخلقنا فنعم المالكون»[3]، وفي التبيان: «معناه فَقَدَرنا من القدرة فنعم القادرون على تدبيره»[4]، وفي مجمع البيان: «أي قَدَّرنا خلقه كيف يكون قصيرا أو طويلا، ذكرا أم أنثى، فنعم المقدرون نحن، ويجوز أن يكون المعنى إذا خُفِّف (لأن المفسرين قرؤوها بالتخفيف والتثقيل) من القدرة، أي قَدَرنا على جميع ذلك فنعم القادرون على تدبير ذلك، وعلى ما لا يقدر عليه أحد إلا نحن، فحذف المخصوص بالمدح»[5]، وهذا ما احتمله العلامة الطباطبائي في الميزان وقال: «من القدرة مقابل العجز، والمراد فقدرنا على جميع ذلك»[6].

---

(١) الكشاف: ج٤، ص٦٧٩.
(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٤٠٠.
(٣) الدر المنثور: ج٦، ص٣٠٦.
(٤) التبيان: ج١٠، ص٢٢٨.
(٥) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٣١.
(٦) تفسير الميزان: ج٢٠، ص١٥٣.

والذي أختاره أن الكلمتين: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ و ﴿ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ مشربتين اثنين من المعاني في آن واحد: أحدهما التقدير بالحكمة والعلم، والآخر القدرة بالقوة والمشيئة، ولعمري إن المتفكر في خلقة البشر يجد اسمي الحكيم والقادر متجليين فيها بما لا يقبل ذرة من الشك، لو لا أن الإنسان يجعل بينه وبين الحقيقة حجاب التكذيب بالحق للهروب من المسؤولية، فله الويل من الله إذا فعل ذلك.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وفي الآية ملاحظة لطيفة عند قوله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فهذه الكلمة ينبغي أن تكون إشارة إلى يوم الفصل الذي أشار إليه السياق في السورة، وهو كذلك، بالإضافة إلى إيحاء الكلمة بمعنى آخر، هو أن تلك الآيات الإلهية المتجلية في الخلقة تهدينا إلى أن الويل للمكذبين، فأي جريمة كبرى هي التكذيب بحقيقة عظمى كحقيقة الغيب وقدرته وحكمته! والإشارة إلى ذلك بـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ هو ترتيب على تلك النتيجة الحاصلة، إذ لا يعقل أن الخالق الحكيم لا يُقدِّر آخرة بعد الدنيا وذلك من مسلمات الحكمة الأولية.

[٢٥-٣٧] من التفكر في آفاق النفس الذي يقود الإنسان إلى التسليم لله والإيمان بيوم الفصل، تنطلق الآيات موجهة أبصارنا إلى آفاق الطبيعة من حولنا، فهي الأخرى تعكس أسماء الله وآياته الهادية إلى الحقائق ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ والكفات السكن والوعاء، ففي الخبر نظر أمير المؤمنين عليه السلام في رجوعه من صفين إلى المقابر فقال: «**هَذِهِ كِفَاتُ الأَمْوَاتِ**» أي مساكنهم، ثم نظر إلى بيوت الكوفة فقال: «**هَذِهِ كِفَاتُ الأَحْيَاءِ ثُمَّ تَلَا قَوْلَه**: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾»[1]، وفي مجمع البيان: «كَفَتَ الشيءَ يَكْفِتُهُ كَفْتًا وكِفَاتًا إذا ضمه، ومنه الحديث: «**اكْفُتُوا صِبْيَانَكُم**» أي ضموهم إلى أنفسكم، ويقال للوعاء: كفت وكفيت، وقال أبو عبيده كفاتا: أي أوعية، وعن قتادة ومجاهد والشعبي: أي تحوزهم وتضمهم»[2]، والأرض وعاء وسكن للخلائق تضم الناس والأحياء والأموات، سواء بالمعنى الظاهر أو بالمعنى المجازي للكلمة حيث المؤمنين والكفار، والعلماء والجهلة.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ﴾ قال القمي: «جبال مرتفعة»[3]، ولعل الآية تبين حقيقة جيولوجية وهي أن للجبال قمتين: قمة راسية في أعماق الأرض كقاعدة البناء، وقمة صاعدة شامخة في آفاق السماء.

﴿وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ وهناك علاقة بين الحديث عن الجبال وبين الحديث عن الماء

(١) تفسير القمي: ج ٢ ص ٤٠٠.
(٢) مجمع البيان: ج ١٠، ص٤١٦-٤١٧.
(٣) تفسير القمي: ج ٢ ص ١٣٢.

الفرات، فإن أفضل المياه وأعذبها ما تتفجر به ينابيع الجبال، وما ينحدر منها إلى جوف الأرض وسفوحها وأنهارها. قال الإمام علي عليه السلام يصف الأرض: «**فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنَافِهَا وَحَمْلِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ الشُّمَّخِ الْبُذَّخِ** (الطاغية في الارتفاع) **عَلَى أَكْتَافِهَا فَجَّرَ يَنَابِيعَ الْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينِ أُنُوفِهَا** (العرنين: ما صلب من عظم الأنف، والمراد أعالي الجبال) **وَفَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ بِيدِهَا** (جمع بيداء وهي الصحاري) **وَأَخَادِيدِهَا**»[١]، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**انْظُرْ يَا مُفَضَّلُ إِلَى هَذِهِ الْجِبَالِ الْمَرْكُومَةِ مِنَ الطِّينِ وَالْحِجَارَةِ الَّتِي يَحْسَبُهَا الْغَافِلُونَ فَضْلًا لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا وَالْمَنَافِعُ فِيهَا كَثِيرَةٌ فَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَسْقُطَ عَلَيْهَا الثُّلُوجُ فَيَبْقَى فِي قِلَالِهَا لِمَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَيَذُوبَ مَا ذَابَ مِنْهُ فَتَجْرِيَ مِنْهُ الْعُيُونُ الْغَزِيرَةُ الَّتِي تَجْتَمِعُ مِنْهَا الْأَنْهَارُ الْعِظَامُ**»[٢].

وَجَعْلُ الله الأرض كفاتا، وجعله فيها الجبال الراسية الشامخة، وسقينا بها الماء الفرات من ينابيع مخازنها، وذوبان ما تقله من الثلوج، كلها نعم إلهية تستوجب الشكر والحمد له، ومن شُكْرِهِ اتِّباعُ رسله ورسالاته، إلا أن الإنسان غالبا لا يفعل ذلك، بل تراه كفورا مكذبا، ويل له يوم القيامة من شديد العذاب على قلة حمده، ومقابلته إحسان ربه بالتكذيب ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ من غضب الله وعذابه، فإن غضبه عليهم وتكذيبهم لرسله وكتبه يستحيلان في الآخرة ألوانا من العذاب الذي لا يطاق، ينطلقون إليه بزجر خزنة جهنم ومقامع من نار تلظى، ولسان الحال قولا وفعلا ما حكى رب العزة: ﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ قال الشيخ الطوسي: «يعني من العقاب على الكفر، ودخول النار جزاء على المعاصي»[٣]، وعلّق الرازي بالقول: «والظاهر أن القائلين هم خزنة النار»[٤]، والذي يكذبون به هو الجزاء والنار، والتكذيب بذلك يعني إنكاره، وإنكار الحقائق الأخرى بسبب هذا التكذيب.

﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ ولعل الظل بسبب الدخان الذي يحجب النور، أو هو الظلام الحالك، وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾، فقيل معناه: «يتشعب من النار ثلاث شعب: شعبة فوقه، وشعبة عن يمينه، وشعبة عن شماله فتحيط بالكافر»[٥]، وقيل: «يخرج من النار لسان فيحيط بالكافر كالسرداق، فينشعب ثلاث شعب فيكون فيها حتى يفرغ من الحساب»[٦]، وفي اللغة: «الشُّعْبَةُ جمعها شُعَب وشِعَاب: الفرقة والطائفة من

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ٩١.
(٢) بحار الأنوار: ج٣، ص١٢٦.
(٣) التبيان: ج١٠، ص٢٣٠.
(٤) التفسير الكبير: ج ٣٠ ص ٢٧٤.
(٥) التبيان: ج١٠، ص٢٣٠.
(٦) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٣٢.

الشيء، يقال: اشعب لي شعبة من المال أي أعطني قطعة من مال كذا»، ويسمى الغصن من الشجرة شعبة، ونفهم من ذلك أن الظل ينشعب إلى ثلاثة أقسام، ولعل المكذب يلقى في كل شعبة ألوانا من العذاب تختلف عما في الشعبتين الأخريين شدة ونوعا. ويختلف ذلك الظل عن ظل الدنيا بصورة تامة، فإننا نأوي إلى الظلال فيها طلبا للراحة، وهربا من حر الشمس ولفحها، أما الظل المقصود في الآية فإنه قطعة من عذاب جهنم ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ معناه: «غير مانع من الأذى ولا يستر عنه.. فالظليل من الظُّلة وهي السترة»[1]، وسمي الظّلال بذلك لأنه يحجب الشمس ويسترها ويمنع الحر. وليس الظلال المشار إليه في الآية يسبب الراحة لأهله ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ واللهب ما يعلو من ألسنة النار وحر لفحها، وليس ذلك الظل يدفع عنهم حر لهب جهنم ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ قيل: «مثل القصور والجبال»[2]، وفي حديث طويل عن النبي ﷺ في شأن النار: قال: «تَرْمِي النَّار بِمِثْلِ الجِبَالِ شَرَرًا»[3]، وقيل: «مثل أصول الأشجار المتشعبة الجذور، قال ابن عباس: كجذور الشجرة، وعن مجاهد قال: حزم الشجر، وعن الضحاك قال: أصول الشجر العظام»[4]. «والعرب تشبه الإبل بالقصور»[5]، والمهم أن التشبيه بالقصر كناية عن الضخامة والتشعب معا وهما مجتمعتين في مثل القصور. ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ وقد ذهب أغلب المفسرين إلى القول بأنها الجمال، وقيل: «هي قطع النحاس وهو مروي عن الإمام علي عليه السلام»[6]، والنحاس يسمى صُفْرًا عند العرب، وبناء على هذا القول ينبغي حمل الجمالة على أنها جمع جمل وهو الحبل والسلك العظيم، لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وهذه الألوان من العذاب هي بعض ما يلقاه المكذبون من الويل في الآخرة، والذي يشير إليه القرآن بتكرار الآية الكريمة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ومن ويلاتهم يوم الفصل أنهم تُسلب حرياتهم التي طالما أساؤوا استخدامها وفهمها في الدنيا، إلى حد لا يستطيعون النطق، ولا يؤذن لهم من قبل الله عز وجل. ولعل ذلك جزاء إطلاقهم العنان لأنفسهم في الأهواء والشهوات، وعدم التزامهم بحدود الله وشرائعه.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ وفي الأحاديث: أن أهل جهنم يُلجمون بِلُجُم من نار، وتُحبس

---

(١) التبيان: ج١٠، ص٢٣٠.
(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٤٠٠.
(٣) بحار الأنوار: ج٧، ص١١٠.
(٤) الدر المنثور: ج٦، ص٣٠٤.
(٥) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٣٣.
(٦) التفسير الكبير: ج٣٠، ص٢٧٦.

ألسنتهم التي سخَّروها لحرب رسالة الله وحزبه، بل لا يستطيعون النطق للحجج الإلهية البالغة التي لا تدع لهم مجالا للتبرير ولا قدرة على الكلام في محضر رب العزة[1].

إن النفس اللوامة تخز ضمير الكاذب المنحرف، وإن عقله يهديه إلى الاعتبار بمصير الغابرين، ولكن نفسه الأمارة بالسوء تلح عليه بأتباع الشهوات وامتطاء مركب الغرور والجحود، وهنا يقدم الشيطان بالحل الوسط، هو التسويل والتزيين، فيؤول آيات الذكر، ويعتذر للدعاة إليها، ويبرر للناصحين، ويخادع نفسه.. وهكذا تجد أكثر المكذبين والمجرمين يعدون تبريرات وأعذارا لأنفسهم كما للآخرين بما يزعمون أنها سبب انحرافهم وفسادهم، ولكن في يوم القيامة ليس لا تقبل منهم تلك المعاذير الباطلة بل ولا يسمح لهم بسردها لأنها محكومة سلفا بالسفاهة والدجل، مما يدعونا إلى إعادة النظر وبصورة جدية فيما نعتذر به للآخرين أو نخدع به أنفسنا انطلاقا من الثقة بأنها لا تغني عنا شيئا في يوم القيامة.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ لأن الاعتذار النافع هو اعتذار الإنسان لربه في الدنيا عن الخطيئات بالتوبة الخالصة، أما الآخرة فهي للفصل والجزاء فقط، من هنا لا يؤذن لهم للاعتذار، والإمام الصادق عليه السلام يهدينا إلى فكرة دقيقة في الآية فيقول: «**الله أَجَلُّ وأَعْدَلُ وأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِعَبْدِهِ عُذْرٌ لَا يَدَعُهُ يَعْتَذِرُ بِهِ ولَكِنَّهُ فُلِجَ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ عُذْرٌ**»[2]. بلى، إنهم لا يريدون الجدال عن حقهم بالمنطق السليم، وإنما يريدون التوسل بالأعذار الواهية، ولذلك لا يؤذن لهم. وهذا من حكمة الله عز وجل إذ لو كان يترك الإنسان يفعل ما يشاء في الحياة الدنيا، ثم يفتح له يوم الفصل باب التبرير لفسدت حكمة الخلق، كلا.. بل لهم الويل بعد الويل ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ومن هذه الآية نكتشف أن الأعذار الواهية هي بدورها كذب ولصاحبها الويل.

[٣٨-٤٤] وبعد أن عرض القرآن مشاهد من يوم الفصل يضع النفوس المكذبة في

---

(١) جاء في بحار الأنوار: ج١٤، ص٣٢٢، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «بَيْنَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فِي سِيَاحَتِهِ إِذْ مَرَّ بِقَرْيَةٍ فَوَجَدَ أَهْلَهَا مَوْتَى فِي الطَّرِيقِ وَالدُّورِ قَالَ: فَقَالَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ مَاتُوا بِسَخْطَةٍ وَلَوْ مَاتُوا بِغَيْرِهَا تَدَافَنُوا، قَالَ: فَقَالَ: أَصْحَابُهُ وَدِدْنَا أَنَّا عَرَفْنَا قِصَّتَهُمْ، فَقِيلَ لَهُ: نَادِهِمْ يَا رُوحَ اللهِ، قَالَ: فَقَالَ: يَا أَهْلَ الْقَرْيَةِ، قَالَ: فَأَجَابَهُ مُجِيبٌ مِنْهُمْ لَبَّيْكَ يَا رُوحَ اللهِ، قَالَ: مَا حَالُكُمْ وَمَا قِصَّتُكُمْ؟ قَالَ: أَصْبَحْنَا فِي عَافِيَةٍ وَبِتْنَا فِي الْهَاوِيَةِ، قَالَ: فَقَالَ: وَمَا الْهَاوِيَةُ؟ فَقَالَ: بِحَارٌ مِنْ نَارٍ فِيهَا جِبَالٌ مِنَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَلَغَ بِكُمْ مَا أَرَى؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَعِبَادَةُ الطَّاغُوتِ، قَالَ: وَمَا بَلَغَ مِنْ حُبِّكُمُ الدُّنْيَا؟ قَالَ: كَحُبِّ الصَّبِيِّ لِأُمِّهِ إِذَا أَقْبَلَتْ فَرِحَ وَإِذَا أَدْبَرَتْ حَزِنَ، قَالَ: وَمَا بَلَغَ مِنْ عِبَادَتِكُمُ الطَّوَاغِيتَ؟ قَالَ: كَانُوا إِذَا أَمَرُونَا أَطَعْنَاهُمْ، قَالَ: فَكَيْفَ أَنْتَ أَجَبْتَنِي مِنْ بَيْنِهِمْ؟ قَالَ: لِأَنَّهُمْ مُلْجَمُونَ بِلُجُمٍ مِنْ نَارٍ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ وَإِنِّي كُنْتُ فِيهِمْ وَلَمْ أَكُنْ مِنْهُمْ فَلَمَّا أَصَابَهُمُ الْعَذَابُ أَصَابَنِي مَعَهُمْ، فَأَنَا مُتَعَلِّقٌ بِشَعْرَةٍ عَلَى شَفِيرِ جَهَنَّمَ أَخَافُ أَنْ أُكَبْكَبَ فِي النَّارِ، قَالَ: فَقَالَ عِيسَى عليه السلام لِأَصْحَابِهِ: إِنَّ النَّوْمَ عَلَى الْمَزَابِلِ وَأَكْلَ خُبْزِ الشَّعِيرِ خَيْرٌ كَثِيرٌ مَعَ سَلَامَةِ الدِّينِ».

(٢) الكافي: ج٨، ص١٧٨.

موقف الشاهد لذلك المستقبل بزمانه، ولكنه حاضر بحقائقه وشواهده ومواقفه ولحظاته الحرجة، لعلها ترجع عن غيها وضلالها ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ وللجمع هنا معنيان:

الأول: هو البعث بجمع الأوصال والعظام وجمعها مع الروح ليكون بشرًا سويًا بعد الموت، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في آيات عديدة منها قوله في سورة القيامة: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]. وإنما ذكر الأولين لأن المشركين عادة ما كانوا يستبعدون البعث، وبالذات بعث أولئك الأولين الذين اضمحلت أبدانهم وتبددت أوصالهم.

الثاني: أن يكون الجمع بالمعنى الظاهر للكلمة، فإن الناس (أولين وآخرين) يجمعون في عرصة القيامة للفصل بينهم وفي مصائرهم. وإنما ذكر الأولين والآخرين من المكذبين تمهيدا لتحديهم في الآية اللاحقة، إذ لا يريد الله أن يتحدى بعض المكذبين وحسب بل كلهم مجموعين إلى بعضهم عددا وعدة.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ تدعون الغلبة به وتعتمدون عليه ﴿فَكِيدُونِ﴾، وهذا رد على ما أجمعوا عليه وتوارثوه من الخبرة في الكيد ضد الحق (قيما وقيادة وحزبا) في الحياة الدنيا. وما عسى أن يبلغ كيد هذا الإنسان الضعيف والجاهل حتى يبارز ربه عز وجل؟! ولكن يتكبر ويأخذه الغرور فيلقي بنفسه في مهلكة المكايدة مع الله، فالويل للمكذبين مما يصيرون إليه نتيجة حربهم لله الملك الجبار المتكبر ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، وهل ثمة ويل أعظم من كيد الله العظيم بأحد؟! كلا.. فهو حق بكل ما تتسع له الكلمة من معنى. وهكذا يُسَفِّه السياق القرآني الظن الذي يبعثهم نحو التكذيب وهو أنهم قادرون على مقاومة جزاء أعمالهم بكيدهم وما يستخدمونه من خطط وأساليب. أما المتقون الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسالاته، واتبعوا رسله وأولياءه، فمصيرهم إلى رضوانه وجزائه الحسن.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ وليس الظلال كالظل ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠-٣١]، بل هو ظلال رضوان الله الذي يلقى فيه المتقون غاية الأمن والسعادة، حيث اللذة ببرد لطف الله ورحمته، وحيث التمتع بنعيم الجنة كالمناظر البديعة للعيون التي تستريح العين لرؤية مائها المتفجر.

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ بكل ما تنطوي عليه كلمة الاشتهاء من معنى، ففي الجنة يطلق الله بفضله ومشيئته عنان الشهوة لأولئك الذين عقلوها بعقال أحكام الله وحدوده، فالمتقون هناك يجدون ما يحبونه من الفواكه في كل مكان وزمان، إذ تسقط معادلة الفصول والمواسم، كما

يبلغون شهوتهم كيفما يريدون، إذ تأتي الفواكه بالحجم واللون والطعم والشكل الذي يتخيله واحدهم وأحسن منه. والعلاقة واضحة بين هذه النعم الثلاث، فإن الظل والعيون والفواكه المتنوعة هي أبرز معالم الجنة، وإنما ذكرها الله كناية عن الجنة، وتفصيلا في المعنى للمزيد من التشويق والترغيب للمتقين في نعيمها.

ومن سمات المنهج الإسلامي أنه يصل بين السعي والجزاء، وذلك لكيلا يتحول الشوق إلى جنات الله ورضوانه إلى مجرد أماني وظنون، وإنما تكون الرغبة لبلوغها نهج عمل وسعيا حثيثًا من أجل الوصول إليها وتحقيقها في الواقع. هذا على صعيد الدنيا، أما على صعيد الآخرة فإن بيان الله للمتقين علاقة عملهم بجزائهم نوع من الإكرام لهم، وإلا فإن ما يلقاه المتقون في جنات الله من الناحية المادية والموضوعية أعظم من أن يبلغه بشر بسعيه، إنما هو فضل من الله ورحمة. ومن هذا المنطلق يخاطب المتقون في الآخرة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ خاليا من كل أسباب النكد والنغص اللذين يمكن أن يكونا في طعام أو شراب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يحسنون الصنع من الالتزام بالقيم، والتعامل مع الآخرين، والاستفادة من نعم الله عليهم، وقد ذكر الله صفة الإحسان في المتقين سببًا لاستحقاقهم الفضيلة والرضوان عنده تأكيدا على أنها أرفع درجة يبلغها أحد في القرب من الله ،و العروج في آفاق الإيمان والعمل الصالح، وذلك لما يشتمل عليه الإحسان:

الأول: إنه من أعظم صفات الله وأخلاقه.

الثاني: إنه مرتبة رفيعة في الكمال البشري، إذ يعني خروج الإنسان من شح النفس إلى حب الآخرين وإيثارهم.

[٤٥-٥٠] وفي ختام السورة التي تهدف علاج موقف التكذيب عند الإنسان من خلال توجيهه إلى آيات الله، وتخويفه من عذابه، يؤكد القرآن عاقبة الويل لكل مكذب، مُبَيِّنًا لهم أن متعتهم لن تمتد إلا قليلا ثم يعقبها مصير سيئ نتيجة إجرامهم وعدم استجابتهم لداعية الحق ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، وكفى بتكرار هذه الآية عشر مرات في السورة تأكيدا للحقيقة الهادية إليها (أن الويل للمكذبين). والمكذبون يختلفون عن المتقين في المصير يوم الفصل، فبينما يصير هؤلاء في ظل وعيون وفواكه مما يشتهون، يصير أولئك إلى الويل والثبور ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾، كما يتهنأ المتقون بأكلهم وشربهم حيث لا يساورهم خوف انقطاعه أو انقطاعهم عنه، أما المكذبون المجرمون فلا تطول بهم المتعة إلا قليلا ثم تنتهي راحتهم إلى عذاب مقيم.

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ وإذا كان المكذبون مترفين، وفي أيديهم نعم الله وألوان المتع، فإنه لا يعني حضوتهم برضوان الله، لأنهم مجرمون، فلا جريمة أكبر من تكذيب الإنسان بالحق وممارسته الباطل في الحياة، سواء فعل ذلك الفقير أو صاحب الثروة والأتباع. والآية تهدينا من جهة أخرى إلى أن لهث البشر وراء حطام الدنيا ومتعها هو العامل الرئيسي في ضلاله واقتحامه كل جريمة.. وليس لهذا الأمر من علاج في نفس المكذب المجرم إلا بالتفكير في العاقبة يوم الفصل، لأن ذلك مدعاة للعاقل أن يترك المتع القليلة في ذاتها ومدتها والموجبة للويل المقيم يومذاك، وهذا ما يفسر علاقة الآية: (٤٦) بقول الله بعدها: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وحينما يستحضر الإنسان في وعيه وتصوره حقائق ذلك اليوم فسوف يجد نفسه مدفوعا لترك الجريمة وكل أكلة ومتعة لا ترضي الله، ومن ثم يتحول من التكذيب إلى الإحسان، ويطمع في نعيم الآخرة، ويسلم لله ولرسله ورسالاته، لأن جاذبية شهوات الدنيا لا تقاوم إلا بمثل جاذبية الجنة وخشية مصير المكذبين والمجرمين، ووعي العذاب الشديد الذي ينتظر المكذبين.

ويبين القرآن صفة أخرى للمكذبين إضافة إلى لهثهم وراء حطام الدنيا ومتعها، وإضافة إلى كونهم مجرمين، ألا وهي عدم تسليمهم لأوامر الله وعدم خضوعهم لها ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ قال مقاتل: «نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله ﷺ بالصلاة فقالوا: لا ننحني»، وأضاف العلامة الطبرسي: «والرواية لا نتحني فإن ذلك سبة علينا، فقال رسول الله: لَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ وَلَا سُجُودٌ»[1]، ذكر ذلك أغلب المفسرين. وقد ذكر الركوع بالذات لأمرين رئيسين:

الأول: أنه ذكر كناية عن الصلاة، لأن الركوع أبرز ما فيها، ولذلك تسمى وحدات الصلاة بالركعات، والصلاة تمثل عمود الدين، وذكر مخالفتهم وعصيانهم لله في أبلغ أوامره وشرائعه أوضح دلالة على عصيانهم وتكذيبهم.

الثاني: لأن الصلاة هي مظهر العبودية لله، والركوع منها رمز الخضوع والتسليم ومظهره العملي، وبيان تكذيب المكذبين وتمردهم عن التسليم لله وللقيادة الرسالية يكون أجلى عند التمثيل له بالركوع والسجود من التمثيل له بأي شيء آخر، وعلى هذا الأساس نستطيع حمل الركوع هنا على أنه رمز للتسليم بكل مفرداته لا كونه محصورا في ركوع الصلاة فقط، ولذلك فإن رفض التسليم -بجميع معانيه- يستلزم الويل للمكذبين ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين يكذبون بالحقائق، ومن أبرزها وأهمها:

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٣٤.

أولاً: الآخرة، فإن الإيمان بها أساس إيمان الإنسان بسائر القيم والحقائق الإلهية، وأساس التزامه بكل مفردات الدين في الحياة.

ثانياً: القرآن الكريم وهو حديث الله للناس، والذي لا يصلحه حديث ربه، ولا تداوي أدواءَه آياتُه، فلن تجد له علاجا أبدا، وهكذا فإن من لا يؤمن به ويُسلِّم له على ظهور حججه ودلائله فبماذا يؤمن بعده؟!.

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأن الأحاديث غيره كلها لا تصل إلى مستواه في الصدع بالحق، واشتمالها عليه، ولا في بيانها وهدايتها له، وكيف يرتفع حديث مخلوق إلى صحة حديث الخالق وبلاغته؟! ومن الآية نهتدي إلى أن من لا يؤمن بحديث القرآن، ومنه بالذات حديث الآخرة، فإنه يبقى في شك من كل شيء وحديث، بل يبقى في التباس من وجوده ووجود أوضح الموجودات كالشمس الساطعة في الآفاق! أما عن رأي المفسرين في الآية الكريمة فقد اتفقوا على أن الحديث هو القرآن، ويمكن حمله على أنه حديث الآخرة، وبتعبير أصح نقول: هو القرآن الذي من أبرز أحاديثه بعد تعريف الإنسان بربه حديثه عن الآخرة، التي يحتل موضوعها أهمية كبيرة في القرآن كمًّا وكيفًا، وفي الثقافة الإسلامية بصورة عامة.



* مكية.

* عدد آياتها: ٤٠.

* ترتيبها النزولي: ٨٠.

* ترتيبها في المصحف: ٧٨.

* نزلت بعد سورة المعارج.

فضلُ السّورة

عن رسول الله ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ سَقَاهُ الله بَرْدَ الشَّرَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(مستدرك الوسائل: ج٤، ص٣٥٥)

***

عَنْ أَبِي عَبْدِالله عليه السلام قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ لَمْ تَخْرُجْ سَنَتُهُ إِذَا كَانَ يُدْمِنُهَا كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى يَزُورَ بَيْتَ الله الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ».

(وسائل الشيعة: ج١١، ص١٦١)

الإطار العام

المسؤولية حكمة الخلق

يعرض البشر عادةً عن التفكير الجدي في الحقائق الكبرى التي ترسم الخطوط العريضة في حياته، لماذا؟ هل لأنها غامضة؟ كلا! بل لأن في نفسه نزوعاً عنها.. أوَليست معرفتها تُحمِّله مسؤوليات كبيرة؟ إذن لماذا يكلف نفسه عناء ذلك؟ دعه يمر على آياتها غافلاً، عساه يتهرب من مسؤولياتها، ولكن هل الإعراض عنها يغنيه شيئاً؟ كلا! إنه بالغها فمواقعها، شاء أم أبى، آمن أم كفر وعاند!.

الحقائق الكبرى تحيط بلب البشر إحاطة السوار بالمعصم، كلما أراد منها هروباً وجدها أمامه. ولا ريب أن النشور للحساب والولاية من تلك الحقائق. فبالرغم من محاولات الفرار منها تراهم يتساءلون عنها، لأنها من النبأ العظيم،والنبأ العظيم يجده الإنسان أمامه أنى اتجه، ولأهميته يختلفون فيه؛ في تفاصيله مرة، وفي محاولات التهرب منه أحياناً.

كلا؛ إنه يفرض نفسه عليهم حتى يعلموه علم اليقين، ثم كلا سيعلمونه حين يرون عواقب تكذيبهم به (الآيات: ١-٥).

بعد هذه الفاتحة الصاعقة تمضي السورة تذكّرنا بآيات الله في الخليقة التي تهدينا إلى أنه عليم حكيم، وأنه لم يخلق العباد سدىً، إنما بحكمة بالغة تتجلى في المسؤولية. لقد خلق ما في الأرض للإنسان، فلأي شي ء خلق الإنسان نفسه؟ ألم يجعل الأرض مهاداً، والجبال أوتاداً، بل وجعل في ذات الإنسان ما يدل على بديع الصنع، وبالغ الحكمة؟ لقد خلقنا أزواجاً، وجعل لنا النوم استراحة عن العمل، وجعل الليل لنا ستراً والنهار معاشاً للنشاط والحركة (الآيات: ٦-١١).

أما السماء فقد جعلها سقفاً محفوظاً بسبع طبقات شداد، وعلّق فيها لأهل الأرض سراجاً وهاجاً، ثم أنزل منها ماءً متواصلاً مندفعاً، ثم جعل هذا النظام مترابطاً ببعضه، فأنبت

من الأرض حَبًّا ونباتاً، وجنات ألفافاً (الآيات: ١٢-١٦).

كل ذلك من أجل الإنسان، والإنسان من أجل المسؤولية، ولكي يقدم للمحاكمة غداً في يوم الفصل الذي كان ميقاتاً للحساب، يوم ينفخ في الصور فتَوافد الخلائق أفواجا أفواجاً. أمّا السماء فإنها تتحول إلى أبواب لتنزل الملائكة بالعذاب أو الثواب. أما الجبال التي أكَنَّتْ البشر فتكون سراباً (الآيات: ١٧-٢٠).

هنالك الحساب، فبينما يساق الطغاة إلى جهنم ليبقوا فيها أحقاباً بلا برد ولا شراب، تجد المتقين في مفاز، حيث يدخلون الجنة ليتمتعوا بنعيمها وأمنها وخلودها. وهذا وذاك يكون تجسيداً لمسؤوليتهم في الدنيا، وجزاءً وفاقاً لأعمالهم (الآيات: ٢١-٣٦).

ترى هل وراء ذلك اليوم الرهيب أمر آخر؟ بلى؛. هناك ما هو أخطر منه.. إنه النار أو الجنة.

أَو ليست جهنم مرصاداً للطاغين، والجنة مفازة كريمة للمؤمنين؟.

إن الطغاة تغافلوا عن السنة الإلهية والقانون الرباني، ثم كفروا بكل الحقائق، ومن ثم التحذيرات السماوية، ووعى المتقون السنة ففازوا بالجنة وأمنها وسلامها.

وتختم السورة بتصوير مشهد من مشاهد القيامة، حيث يقوم الروح والملائكة صفًّا لا يتكلمون، ويذكرنا ربنا بأن فرصة الاختيار السليم لا تزال قائمة، فقد أنذرنا عذاباً قريباً، يوم يرى المرء أعماله التي قدَّمها متجسدة أمامه. أماالمؤمن فيفرح بها، وأما الكافر فيقول: يا ليتني كنت تراباً، ولم أُقدِّم مثل هذه الأعمال أو أتحمل تلك المسؤوليات (الآيات: ٣٧-٤٠).

إن يوم الفصل كان ميقاتا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَمَّ[١] يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا[٢] (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا[٣] (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا[٤] (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا[٥] (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ[٦] مَاءً ثَجَّاجًا[٧] (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا[٨] (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا[٩] (٢٠)﴾.

---

(١) عمَّ: أصلها: عن ما، مركّبة من (عن) الجارّة وما الاستفهامية، ثم أُدغمت النون في الميم لقرب مخرجها، وحُذِفت الألف من (ما) على ما هي عليه القاعدة من حذفها مطلقاً إذا دخل على ما حرف الجر.

(٢) مهاداً: وطاءً وقراراً مهيأً للتصرف، كالمهد الذي يتصرف فيه الطفل من غير أذية.

(٣) أوتاداً: جمع وتد وهو المسمار إلا أنه أغلظ منه، فالجبال هي مسامير للأرض تحفظها من التشقق والتبعثر في الهواء من جراء الحركة والجاذبيات.

(٤) سباتاً: قاطعاً للعمل لأجل الاستراحة، ومنه سبت أنفه إذا قطعه.

(٥) وهاجاً: الوهّاج الوقّاد المشتعل بالنور العظيم، من وهج بمعنى أنار وأضاء.

(٦) المعصرات: السحائب تُعْتَصر بالمطر كأن السحاب يحمل الماء ثم تعصره الرياح وترسله كإرسال الماء بعصر الثوب، وعُصِر القوم: مُطِروا.. وقال البعض: إنها أُودع فيها من الطاقات العاصرة حتى تمطر.

(٧) ثجاجاً: الثجاج الدفّاع في انصبابه كثج دماء البدن، من ثجّ بمعنى انصبّ بكثرة.

(٨) ألفافاً: الألفاف الأخلاط المتداخلة يدور بعضها على بعض، وهكذا الجنّات فأشجارها يلتف بعضها على بعض.

(٩) سراباً: السراب هو خيال الماء في الصحراء وقت الظهيرة.

هدى من الآيات:

أتراهم يتساءلون عن النبأ العظيم، عن يوم الجزاء (عن مسؤولية الولاية) ويختلفون فيه؛ ثم لا يبحثون بجد عن الإجابة الصحيحة؟ كلا.. دعهم في غيهم فسوف يعلمون، ثم كلا.. ليس الأمر بهذه البساطة فسيعلمون.

أفلا يبصرون شواهد التدبير والحكمة: في الأرض التي مُهِّدت لهم ووُتِّدت بالراسيات، في خلقهم أزواجا تتكامل أبعاد وجودهم ببعضهم، في حياتهم كيف نظمت فجعل الليل لهم سكنا وجعل النهار لمعاشهم مبصرا، وفي السماوات التي تحفظهم عن الطوارق، وكيف جعل الله فيها سراجا وهاجا، وفي تدبير رزقهم بالغيث الذي ينزل عليهم ماء ثجَّاجا فيُخرِج الله به حَبًّا ونباتا وجنات ألفافاً؟!.

بلى؛ لو أنهم أبصروا شواهد الخلقة وآيات الحكمة لعلموا أن يوم الفصل آت وأنهم لمجموعون إليه عندما ينفخ في الصور فيتوافدون على ربهم أفواجا.. ويومئذ تفتح أبواب السماء فتنزل الملائكة بالجزاء. أما الجبال فتسير ثم تتلاشى كما السراب!.

بينات من الآيات:

[١] يُعرض البشر عادة عن التفكير الجدي في الحقائق الكبرى التي ترسم الخطوط العريضة في حياته، لماذا؟ هل لأنها غامضة؟ كلا.. بل لأن في نفسه نزوعا عنها، أوليست معرفتها تحمِّله مسؤوليات كبيرة. إذا لماذا يكلِّف نفسه عناء ذلك؟ دعه يمر على آياتها غافلا عساه يتهرب من مسؤولياتها. ولكن هل الإعراض عنها يغنيه شيئا؟ كلا.. إنه بالغها فمواقعها شاء أم أبى، آمن أم عاند وكفر. من تلك الحقائق يوم الفصل وميقاته، وما فيه من أهوال عظيمة تدع الولدان شيبا، وما يفرضه علينا من مسؤولية التسليم للحق ولقيادته، فهل يمكن الإعراض عن كل ذلك؟ كلا.. لأن آياته ملأت آفاق حياتنا، وإننا لا زلنا نتساءل عنها ونختلف فيها ولكن ليس بصورة جدية، وغدا حين نواجهه نعلم مدى الخسارة في هذا التساهل، ولا يسعفنا الندم يومئذ شيئا ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

[٢] وإذا كان الإنسان يعرض عن النبأ العظيم فلماذا يتساءل عنه؟ ربما لأن شواهده تفرض عليه التساؤل، فهو من جهة يتهرب من التسليم له لأنه يحمِّله مسؤولية التسليم للحق ولقيادته، ومن جهة ثانية لا يستطيع الفرار من آياته التي تحيط به، فيظل يتساءل عنه: كيف ومتى وأين ولماذا!؟ ومراده من كل ذلك الفرار منه. وفي الذكر الحكيم بيان لتساؤلاتهم عن

يوم الفصل: أنى هو، ومتى هو، وكيف يحيي الله فيه الأموات، وما أشبه.

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فما هو ذا النبأ العظيم؟. هل هو مجمل الحقائق العظيمة كالتوحيد والرسالات والبعث والجزاء، أم أنه يوم الفصل الذي يذكره السياق لاحقا، أم أنه ولاية الإمام علي عليه السلام حسب ما ذُكِرَ في رواية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله؟.

كل ذلك محتمل، لا سيما ونحن نعرف أن الحديث عن موضوعات الرسالة متواصل بعضها مع بعض، فمن تساءل عن يوم الفصل فإنما يتساءل عنه ليعرف هل عليه أن يُسَلِّم للنذير به وهو الرسول ولمن يأمره الرسول باتباعه. وإذا كان الفرار من المسؤولية هو الباعث نحو جحد يوم الفصل فإن أعظم المسؤوليات التسليم للقيادة الشرعية والتي تمثلت في ولاية أئمة الهدى وفي طليعتهم الإمام علي عليه السلام. وهكذا روي عن الحافظ أبي بكر محمد بن المؤمن الشيرازي عن رسول الله صلى الله عليه وآله في تفسير هذه الآية أنه قال: «**وِلَايَةُ عَلِيٍّ يَتَسَاءَلُونَ عَنْهَا فِي قُبُورِهِمْ**»[1]. وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**النَّبَأُ الْعَظِيمُ الْوَلَايَةُ**»[2]. وقال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «**قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: مَا للهِ نَبَأٌ أَعْظَمُ مِنِّي، وَمَا للهِ آيَةٌ أَكْبَرُ مِنِّي**»[3]. وروي عن الإمام الحسين بن علي عليه السلام أنه قال: «**قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله لِعَلِيٍّ عليه السلام: يَا عَلِيُّ! أَنْتَ حُجَّةُ اللَّهِ، وَأَنْتَ بَابُ اللَّهِ، وَأَنْتَ الطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ، وَأَنْتَ النَّبَأُ الْعَظِيمُ، وَأَنْتَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَأَنْتَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى**»[4].

[٣] واختلافهم في النبأ العظيم دليل على أنهم لا يملكون حجة دامغة لنفيه فإذا بهم يترددون في أمره، تدعوهم آياته للإيمان به وتدعوهم أهواؤهم إلى الجحود ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ ولعل اختلافهم يكون أيضا في تفسير دلائله وكيف يتهربون منها. ألا تجد كيف ضربوا للرسول الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا فقالوا: إنه مجنون بل هو شاعر بل افتراه، وهكذا يكون الاختلاف دليل عجزهم عن تفسير آيات الحقيقة التي ينكرونها.

[٤] وهل إنكارهم للحقيقة يلغيها أو اختلافهم فيها يخفف عنهم وطأتها حين تنزل بهم!؟ ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ يوم يساقون إلى الجزاء فلا يجدون عنه محيصا.

[٥] بل إنهم سيجدون الجزاء في الدنيا قبل الآخرة ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وقال بعضهم: إن

---

(١) إحقاق الحق وإزهاق الباطل تعليقات السيد المرعشي النجفي: ج٣، ص٤٨٤، نهج الحق وكشف الصدق، العلامة الحلي: ص٢١١.

(٢) الكافي: ج١، ص٤١٨.

(٣) تفسير القمي ج٢، ص٤٠١.

(٤) بحار الأنوار: ج٣٦ ص٦.

هذه الآية تشير إلى أنهم سيعلمون الحق في الآخرة والآية السابقة تشير إلى ما يعلمونه في الدنيا. ويحتمل أن يكون الإتيان بمفهوم واحد للتأكيد.

[٦] أوَلا يبصرون آيات الله في الخلق فيعرفون حكمته وأنه لم يخلقهم عبثا ولن يتركهم سدى؟ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ أوَلا تراها كيف ذُلِّلت لمعاشك تذليلا؟ انبسطت عليها طبقة من التراب تستخدمه للسكنى والزراعة، وتسويه لحركتك، ويحتضن أجسادنا بعد الموت، ويستوعب سائر أنشطتنا في الحياة. وإذا أمعنا النظر رأينا أن سائر ما في الأرض هُيِّئ لحياة الإنسان، ولا نعرف مدى أهمية الأنظمة التي أجراها الرب في الأرض إلا بعد قياسها بسائر الكرات القريبة التي لم نعهد في أي منها أثرا للحياة ولا فرصة للعيش. أوَليس في كل ذلك دليل على التدبير والحكمة؟ أوَلا نهتدي بها إلى أن الله لم يخلقنا عبثا؟.

[٧] ولكي تستقر الأرض وما فيها، ولا تتعرض لأمواج الأعاصير التي تحيط بها، ولا لتناوب المد والجزر الناشئين من جاذبية القمر كما البحر، ولكي تتحصن قشرة الأرض من أخطار الزلازل والبراكين والانهيارات بسبب الغازات التي تتفاعل في نواتها الداخلية، لكل ذلك ولأسباب أخرى عديدة نعرف بعضها ونجهل الكثير جعل الله للأرض وأوتادا هي الجبال ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ هذه القمم السامقة، وتلك السفوح المنبسطة، وهذه الشبكة من الصخور التي تتصل ببعضها من فوق الأرض ومن تحتها. إنها تحصن الأرض كما الدروع السابغة. أفلا نبصر آثار القدرة ولمسات الحكمة على الطبيعة من حولنا؟ فسبحان الله وتعالى عن العبث واللغو.

[٨] وإذا عدنا إلى الأنظمة التي تسود حياتنا أبصرنا المزيد من آثار القدرة والحكمة فيها، فهذه سنة الزوجية التي تكشف من جهة مدى حاجتنا إلى بعضنا، كما تعكس من جهة ثانية حسن تدبير الخالق، ودقة تنظيمه ﴿وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ لو كنا قد خلقنا أنفسنا لكنا جعلناها أكمل وأقوى منها الآن، مثلا ربما لم نوجد فيها حاجة إلى الجنس الآخر أو إلى الطعام والشراب والراحة والسكن وما أشبه. ولو أوجدتنا الصدفة لم نجد فيها هذا التكامل مما نجده مثلا بين الزوجين، تكاملا في الروح والجسد، في الغرائز والشهوات والحاجات حتى اغتدى كل جنس سكنا للجنس الآخر يجد فيه ما يفتقر إليه، قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

[٩] وبمناسبة الحديث عن الزوجة وعن السكن الذي توفره يذكِّرنا الرب بنعمة النوم الذي هو نوع من السكن، يهيمن على ذرات وجودنا ويقطعها عن التفاعل المجهد مع المحيط، ويبسط على أرجاء الجسد غلالة من الهدوء والراحة ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، ويبدو أن معنى

السبات هو الفراغ المؤقت أو التعطيل وقطع تيار النشاط. ما هو النوم، وكيف يحدث، وما أسراره؟ إن العلم الحديث لا يزال يتوغل في رحاب هذه الظاهرة العامة من حياة الإنسان ويكشف المزيد من أسرارها، إلا أن الثابت أهمية دور النوم في تهدئة أعصاب البشر، ومساعدة مخه على تنظيم المعلومات وتخزينها، وعودة الجسم إلى أنظمته الذاتية بعد تعرضه للمؤثرات الخارجية، وبسط قدر من الهدوء إلى مختلف الأعضاء، وبكلمة: النوم استراحة الجسم بعد جهد متواصل.

[١٠] ويتم النوم عادة في الليل حيث يسدل أستاره على الطبيعة، ويضفي عليها جو الهدوء والسكينة ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أرأيت لو كانت الأرض بمن فيها وما فيها تتعرض لأشعة الشمس باستمرار أفلم تكن تؤثر الأشعة فيها وتجهدها؟ هكذا نظم الله الأرض بحيث يتناوب عليها الليل والنهار لضمان استمرار الحياة فيها. والتعبير بـ (لباس) بالغ في الروعة والدقة. أَوَليس اللباس يستر الشيء عما يشينه ويضره، كذلك ظلام الليل يستر الطبيعة والأحياء عن استمرار تعرضهما للأشعة.

[١١] وبعد أن تسترخي الطبيعة فوق فراش الظلام، يستنهضها النهار لمسيرة متجددة، فها هي خيوط أشعة الشمس توقظ الروابي والسهول، وتبعث في النبات والأحياء النشاط والحيوية لتجديد نفسها، وتواصل حركتها ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي ميعادا للعيش، ووقتا مناسبا للاسترزاق، وهكذا جعل الله في كل حي حاجة إلى النمو والاستمرار، وأودع فيه إحساسا بهذه الحاجة لكي يسعى إليها، ووفر له فرص تحقيقها. أفلا يهدينا ذلك إلى أنه المدبر العليم، وأنه قادر على نشرهم إلى يوم الفصل ومحاسبتهم؟.

[١٢] وهكذا جعل الله الأرض دارا مُهَيَّأة لحياتنا وبنى فوقها سقفا محفوظا لكيلا تتساقط علينا النيازك والأحجار السابحة في الفضاء ولا ينزل علينا ما يضرنا من أشعة النجوم الضارة ومن حرارة الشمس المهلكة ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ ما هي هذه السبع الشداد؟ هل هي المجرات المحيطة بمجرتنا أو المنظومات الشمسية القريبة منا، أم هي السماوات التي زُيِّنت واحدة منها بالنجوم وهي التي نعرف عنها شيئا قليلا أما الست الباقيات فعلمها عند الله.. أم ماذا؟ لعل أقرب المعاني هو ذلك الغلاف الجوي المحيط بالأرض ذو الطبقات المختلفة التي تمتد في عمق مائة كيلومتر، وتشكل سقفا متينا للأرض، يحفظها من الأجرام التائهة في رحب الفضاء ومن الأشعة الضارة.

[١٣] من أين تستقي الأرض قدراتها؟ إنها أُمُّنا فمن هي أمها التي تُغدق عليها بالطاقة؟ إنها الشمس التي ترضعها عبر مسافة مئة وخمسين مليون كيلومتر تقريبا بالنور والحرارة، ومن

خلال أشعة الشمس تتغذى النباتات والأحياء وتتكون في الأرض المعادن المختلفة.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ ويبدو أن المراد من الوهج هو الأشعة حسب الراغب في مفرداته[1]. أفلا نهتدي إلى أسماء ربنا الحسنى من خلال آياته التي ذكَّرنا بها القرآن، فإذا لم نتعرف على قدرة ربنا وحكمته وعلمه وتدبيره من خلال آية الشمس فبماذا نهتدي؟.

«لقد سخر الله الشمس لحياة البشر، وأشعل هذه الكرة الملتهبة في الفضاء. إن درجة حرارة الشمس تناهز ستة آلاف درجة فهرنهايت. هذا عن سطحها، أما العمق فإن درجة حرارتها تبلغ الملايين، وهكذا تنفث هذه الكرة اللاهبة أشعة قد تمتد أكثر من مئة ألف كيلومتر وذلك بسبب التفاعلات الذرية التي تلتهم من جرمها في كل ثانية زهاء أربعة ملايين طن»[2].

وقد جعل الله بين الشمس والأرض هذه المسافة المحدودة لكي تستفيد منها الأرض دون أن تضرَّ بها، ولو كانت المسافة أبعد لتجمدت أو أقرب لاحترقت.

[١٤] وإذا كانت الأرض تتغذى بأشعة الشمس ككل فإن حياة البشر تعتمد عليها أيضا، وأقرب مثل لذلك دورة الماء. أوليست أشعة الشمس التي تشرق على المحيطات هي التي تسبب تصاعد الغيوم عنها، ثم إنها تكوِّن الرياح التي تحملها، ثم تتمخض السحب عن الغيث الذي يرزقنا الله به كل خير؟ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ لماذا سميت السحب معصرات؟ هل لأنها تتراكم على بعضها فتسبب الأمطار، أم لأن نظاما طبيعيًّا يسودها حين هطول المطر بسبب اعتصارها (كما قالوا) أم أن ذلك إشارة إلى حالة نزول الغيث الشبيهة بعصر الثياب؟ كل ذلك محتمل. أما الثجاج فقد قالوا إنه المتتالي في السقوط.

[١٥-١٦] هكذا يرفع الله مياه البحر بعد تحليتها إلى عنان السماء، ويبسطها في صورة السحب المتراكمة فوق مساحات شاسعة، ثم يسوقها إلى حيث يشاء من الأرض فيسقيها، لكيلا يبقى سهل أو جبل إلا وتشمله بركاتها.. ثم إنها تصفِّي الجو من الأدران والغبار، وتساعد في قتل الجراثيم. أما على الأرض فينبت الله بها ألوانا من المواد الغذائية كالحبوب التي تشكل أهم مصدر للغذاء عند البشر الخضروات ثم الثمار ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ أرأيت البساتين والغابات كيف تلتف أشجارها ببعضها؟ إنها من بركات الغيث. إن هذا النظام الذي لا نجد فيه ثغرة أو فراغا، ويمتد من أعماق الفضاء حيث تشع الشمس بوهجها، إلى كف المحيطات حيث تتبخر بفعل الحرارة، وإلى الصحاري المترامية حيث تنبت الأرض زرعا

(١) مفردات غريب القرآن: ص٥٣٣.
(٢) تفسير الأمثل: ج١٩، ص٣٣٥، عن طائفة من الكتب العلمية، نقلًا بتصرف.

وشجرا. أليس يهدينا هذا النظام إلى وحدة التدبير وحكمة المدبر؟! أفلا نؤمن بقدرته على أن يعيدنا للحساب؟ وهل من المعقول أن يترك ربنا الحكيم خلقه سدى؟.

[١٧] لا نجد في أي بقعة من أطراف الخليقة ثغرة أو تفاوتا إلا فيما يتصل بهذا الإنسان الذي سلَّطه الله على الطبيعة، وأكرمه بالعقل والحرية، فقد أخذ يعيث في الأرض فسادا، فهل يعقل أن يكون ذلك من عجز؟ وهل يُعجِز رب السماوات والأرض شيء؟ أم سوء تدبير؟ ولا نجد في تدبيره شينا أو نقصا. أم ماذا؟ يهدينا التفكر في كل ذلك إلى أن هذا الإنسان الذي هو محور حكمة الخلق وهدف سائر ما في العالم لم يكن ليُخلَق بلا حكمة، فما هي حكمة خلقه؟ فإذا لم نجد ذلك في الدنيا نهتدي (بنور العقل) إلى أنها تتحقق في يوم الفصل ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ عندما يلتقي الإنسان بجزائه، ويجتمع الأولون بالآخرين، وتُنصب موازين القسط، ويُحاكَم الظلمة والمجرمون، ويقوم الأشهاد بالحق، عندئذ تتجلى حكمة خلقه. في ذلك اليوم يتزيل المؤمنون عن المجرمين، وتتميز الأعمال الخالصة لله عن أفعال الرياء والنفاق، وتنفصم عرى الأرحام ووشائج الصداقات والولاءات، ولا تنفع شفاعة الأحبة والأولياء.

[١٨] ويتقاطر الناس على صحراء المحشر زمرا، كل وفد يقوده إمامهم الذي اتبعوه في الدنيا. ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ تلك النفخة الثانية التي يُحيي بها الله العباد جميعا ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ كل فوج يأتون تحت راية إمامهم. وفي الحديث عن البراء بن عازب قال: «كَانَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ جَالِساً قَرِيباً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَنْزِلِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ فَقَالَ مُعَاذٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ الْآيَاتِ فَقَالَ: يَا مُعَاذُ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ مِنَ الْأَمْرِ، ثُمَّ أَرْسَلَ عَيْنَيْهِ ثُمَّ قَالَ: تُحْشَرُ عَشَرَةُ أَصْنَافٍ مِنْ أُمَّتِي أَشْتَاتاً قَدْ مَيَّزَهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَدَّلَ صُوَرَهُمْ، فَبَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ، وَبَعْضُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ، وَبَعْضُهُمْ مُنَكَّسُونَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ فَوْقُ وَوُجُوهُهُمْ مِنْ تَحْتُ ثُمَّ يُسْحَبُونَ عَلَيْهَا، وَبَعْضُهُمْ عُمْيٌ يَتَرَدَّدُونَ، وَبَعْضُهُمْ بُكْمٌ لَا يَعْقِلُونَ، وَبَعْضُهُمْ يَمْضَغُونَ أَلْسِنَتَهُمْ يَسِيلُ الْقَيْحُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ لُعَاباً يَتَقَذَّرُهُمْ أَهْلُ الْجَمْعِ، وَبَعْضُهُمْ مُقَطَّعَةٌ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، وَبَعْضُهُمْ مُصَلَّبُونَ عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَارٍ، وَبَعْضُهُمْ أَشَدُّ نَتْناً مِنَ الْجِيَفِ، وَبَعْضُهُمْ يَلْبَسُونَ جِبَاباً سَابِغَةً مِنْ قَطِرَانٍ لَازِقَةٍ بِجُلُودِهِمْ، فَأَمَّا الَّذِينَ عَلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ فَالْقَتَّاتُ مِنَ النَّاسِ، (أي النمامون) وَأَمَّا الَّذِينَ عَلَى صُورَةِ الْخَنَازِيرِ فَأَهْلُ السُّحْتِ، وَأَمَّا الْمُنَكَّسُونَ عَلَى رُءُوسِهِمْ فَأَكَلَةُ الرِّبَا، وَالْعُمْيُ الْجَائِرُونَ فِي الْحُكْمِ، وَالصُّمُّ الْبُكْمُ الْمُعْجَبُونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالَّذِينَ يَمْضَغُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ فَالْعُلَمَاءُ وَالْقُضَاةُ الَّذِينَ خَالَفَتْ أَعْمَالُهُمْ أَقْوَالَهُمْ، وَالْمُقَطَّعَةُ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْجِيرَانَ، وَالْمُصَلَّبُونَ عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَارٍ فَالسُّعَاةُ بِالنَّاسِ إِلَى السُّلْطَانِ، وَالَّذِينَ هُمْ أَشَدُّ نَتْناً مِنَ الْجِيَفِ فَالَّذِينَ يَتَمَتَّعُونَ بِالشَّهَوَاتِ

وَاللَّذَّاتِ وَيَمْنَعُونَ حَقَّ اللهِ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَالَّذِينَ يَلْبَسُونَ الْجِبَابَ فَأَهْلُ التَّجَبُّرِ وَالْخُيَلَاءِ»[1].

[١٩] ولأن الإنسان محور خلق عالمنا فإن سائر ما في الخليقة يتصل به ويتغير معه، فترى الأرض والسماء المحيطة بها تخضع لتطورات هائلة. ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ فتلك السماء التي جعلها الله سقفا محفوظا غدت منفطرة منشقة، ولعل تلك الأبواب تكون مهبطا ظاهرا للملائكة، ومعراجا للمؤمنين إلى الجنة، ومخرجا للكفار إلى النار.

[٢٠] أما الجبال التي كانت تحافظ على توازن الأرض فإنها تفقد وزنها وتسير، وتنبث كما الهباء في الفضاء الأرحب، ثم تتلاشى وتصبح سرابا ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ وهكذا ينهار نظام عالمنا، ذلك أنه إذا كانت الخليقة قد نُظِّمت لمصلحة الإنسان وسُخِّرت لحياته وفُرِضت عليها السنن إكراما له فها هو يسحب إلى قاعة المحاكمة للحساب والجزاء، فلم يعد هنالك سبب لاستمرار النظام السائد في الطبيعة.

---

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص٥٣٩، بحار الأنوار: ج٧ ص٨٩.

إن جهنم كانت مرصادا

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا[١] ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا[٢] ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا[٣] ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا[٤] ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ[٥] أَتْرَابًا[٦] ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا[٧] ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾﴾.

---

(١) مرصاداً: هو مكان على صراط جهنم ترصد فيه الملائكة الناس، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «الْمِرْصَادُ قَنْطَرَةٌ عَلَى الصِّرَاطِ لَا يَجُوزُهَا عَبْدٌ بِمَظْلِمَةٍ» بحار الأنوار: ج٨ ص٦٤.

(٢) أحقاباً: جمع حقب والمراد الزمان الطويل والدهور المتتالية.

(٣) غساقاً: هو صديد أهل النار وقيحهم.

(٤) وفاقاً: الوفاق الجاري على مقدار الأعمال في الاستحقاق.

(٥) كواعب: جمع الكاعب، وهي الجارية التي نهد ثدياها واستدارا لكونها في أول زمان رشدها.

(٦) أتراباً: جمع ترب، وهن المستويات في السن، وقيل: على مقدار أزواجهن في الحسن والصورة والسن.

(٧) دهاقاً: الدهاق الكأس الممتلئة التي لا مجال فيها للماء أو الشراب وأصل الدهق شدة الضغط، وأدهقت الكأس ملأتها.

هدى من الآيات:

هل وراء ذلك اليوم الرهيب أمر آخر؟ بلى؛ ما هو أخطر منه النار أو الجنة. أوليست جهنم مرصاد الطاغين، والجنة مفازة كريمة للمؤمنين؟ ولكن لماذا يلبث الطغاة في جهنم أحقابا متمادية قد تصل إلى درجة الخلود؟ لأنها سنة إلهية كما هي سنة أن النار تحرق والماء يتبخر، وحيث إنهم لم يعوا هذه السنة، بل وكذبوا بها وبآيات الله التي حذرتهم منها، فإنهم انتهوا إليها، وقد وعى المتقون هذه السنة فاتقوا النار وتجنبوا ما يؤدي بهم إليها، فإنهم فازوا بالجنة التي استقبلتهم بحدائقها وفواكهها وكواعبها وأمنها وسلامها. إنها أيضا الجزاء المناسب الذي أعده الله لهم.

ويمضي السياق في تحذير الإنسان من يوم النشور، ويصوِّر بعض مواقفه بعد أن يذكِّرنا بالله سبحانه رب السماوات والأرض وما بينهما، ففي ذلك اليوم تخشع أصوات العباد وأصوات الروح والملائكة الذين يقفون صفًا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن. في ذلك اليوم يتساقط زيف الباطل، ويتجلى الحق بكل أبعاده، ولا تزال فرصة الاختيار للإنسان في هذه الدنيا قائمة، فمن شاء عاد إلى ربه تائبا خشية ذلك اليوم. أما من يكفر فإن الله ينذره بعذاب قريب -بالرغم من أن الشيطان يبعده عن ذهن البشر- يقع في ذلك اليوم الرهيب الذي يرى الإنسان ما قدمت يداه من خير وشر متجسدين في جزاء حسن أو عذاب شديد، وحين يرى الكافر حقائق أعماله يتمنى لو بقي ترابا ولم يحشر لمثل ذلك الجزاء.

بينات من الآيات:

[٢١] يتعامل الإنسان مع سنن الله العاجلة في الطبيعة من حوله، فتراه يتجنب النار أن يحترق بها، والحيات أن تلدغه، والجراثيم أن تغزوا جسده فتهلكه، فلماذا يا ترى لا يتجنب تلك السنن الآجلة، وما الفرق بين نار تحرقه اليوم وأخرى تحرقه غدا، أو حية تلدغه من جحر في الصحراء وأخرى يصنعها بعمله لتلدغه غدا في الآخرة، ومن ميكروب يتكاثر في جسمه اليوم وآخر يزرعه في حياته الدنيا ليحصده في تلك الدار الحق؟!.

إن سنن الله في الدنيا تذكِّر بما يماثلها في الآخرة ولكن الإنسان يؤمن بواحدة ويترك أخرى. لماذا؟ يبدو من آيات القرآن عموما، وهذا السياق بالذات، أن الجزاء يوم النشور نوعان:

الأول: هو العمل ذاته الذي يرتكبه اليوم ويتجسد له جزاء وفاقا في الآخرة، كمثل نار

يوقدها الإنسان في بيته فتحرقه، أو ثمرة يغرسها في أرضه فيتمتع بثمراتها.

الثاني: الجزاء الذي يقدّره الرب للصالحين في الجنة من فضله ويحسب الحسنة بعشرة. والآية التالية تشير إلى النوع الأول: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ فهذه كانت مركز رصد ومرتع الجزاء في الآخرة. إنها سنة إلهية ونظام مقدر لن يفلت منها من يكذب بها، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**ولَئِنْ أَمْهَلَ (الله) الظَّالِمَ فَلَنْ يَفُوتَ أَخْذُهُ وهُوَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ عَلَى مَجَازِ طَرِيقِهِ وبِمَوْضِعِ الشَّجَا مِنْ مَسَاغِ رِيقِهِ**»[1].

[٢٢] والطغاة الذين يتجاوزون حدهم، ولا يتجنبون ما يقربهم إلى النار، سوف يعودون إلى النار التي صنعوها بأفعالهم ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ ولعل كلمة مآب توحي بأنهم سبب إيقاد النار التي عادوا إليها، لأنها منزلهم الذي بنوه ووطنهم الذي اختاروه لأنفسهم.

[٢٣] كم يبقون في هذه النار؟ ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ جاء في روايات أهل البيت أن الآية تخص المذنبين الذين يقضون في النار فترة من الوقت بقدر ذنوبهم[2]، وعلى هذا فمعنى الأحقاب الدهور المتتالية أو السنين المتلاحقة. وقال بعض المفسرين: معنى الآية أنهم يلبثون في النار أحقابا متتالية لا تنقطع، فكلما مضى حقب أدركهم حقب آخر. قالوا: وإنما استعاضت الآية بالأحقاب عن السنين لأنها أهول في القلوب وأدل على الخلود، وإنما كان الحقب أبعد شيء عندهم، وقالوا: الحقب ثمانون سنة. وإذا كانت السنة ثلاث مئة وخمسة وستين يوما وكان اليوم في الآخرة كألف سنة مما نعده من سني الدنيا فلك أن تتصور أيام الطغاة في جهنم! وجاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**لَا يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ دَخَلَهَا حَتَّى يَمْكُثَ فِيهَا أَحْقَاباً وَالْحُقْبُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ سَنَةً وَالسَّنَةُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَسِتُّونَ يَوْماً كُلُّ يَوْمٍ ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فَلَا يَتَّكِلَنَّ أَحَدٌ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ النَّارِ**»[3].

[٢٤] خلال هذه الأحقاب المتتالية والدهور المتطاولة لا يجد الطغاة هنالك سوى العذاب الذي لا يفتر عنهم أبدا ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ فلا يجدون طعم البرد وبرد الشراب، ولا لحظة واحدة ولا بقدر بسيط. قالوا: «البرد هنا بمعنى النوم، واستشهدوا بما تقوله العرب: منع البرد البرد، أي منع النوم البرد»[4]، وقال بعضهم: «بل هو عامٌّ يشمل برد

(١) نهج البلاغة: خطبة: ٩٧.

(٢) روى العلامة المجلسي في البحار: ج٨ ص٢٩٥ عَنْ حُمْرَانَ بْنِ أَعْيَنَ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام: عَنْ قَوْلِ الله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا﴾ قَالَ عليه السلام: هَذِهِ فِي الَّذِينَ يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ».

(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٥٤٠، بحار الأنوار: ج٨، ص٢٧٦.

(٤) تفسير القرطبي: ج١٩، ص١٨٠.

ريح أو ظل أو نوم، وأنشدوا»[1]:

فـلا الظل من بـرد الضحى تستطيعه ولا الفـيء أوقـات العـشي تـذوق

[٢٥] إنها يتواصل لهم شراب يغلي وماء نتن ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ الحميم: الماء الحار. أما الغساق فهو ماء نتن، وقيل: صديد أهل النار وقيحهم.

[٢٦] أترى هل ظلمهم ربهم حين أوقعهم في النار؟ كلا.. لقد ظلموا أنفسهم. أوليس قد واتر عليهم رسله؟ إن هذا جزاء أعمالهم، ونهاية مسيرتهم ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي جزاء موافقا لأعمالهم بلا زيادة أو تغيير.

[٢٧] لماذا انتهى بهم المطاف إلى هذه العاقبة السوأى؟ لأنهم لم يتوقعوا الحساب فأفرطوا في السيئات، كما المجرم حين لا يفكر في العدالة يتوغل في اقتراف الموبقات ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾.

[٢٨] وإذا أنذرهم الرسل والدعاة بالحساب وإذا جاءتهم آيات النشور تترى، كذَّبوا به وبآياته ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾.

[٢٩] بلى؛ كان الحساب قائما، وكانت أعمالهم وأنفاسهم ولحظات حياتهم وهواجس نياتهم كل أولئك كانت محسوبة عليهم ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا﴾ فلم يغادر كتاب ربنا صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

[٣٠] واليوم جاء يوم الجزاء بعد الإحصاء الشامل ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ إنها النهاية المريعة، ومعرفة الإنسان في الدنيا بهذه الحقيقة: أن عذاب جهنم يزداد كما أن نعيم الجنة في اضطراد، هذه المعرفة تجعل هذه الزيادة حكيمة وعادلة لأن الإنسان باختياره الحر بلغ هذه العاقبة. حقًّا إن تصور هذه الحقيقة يجعلنا أكثر حذرا من جهنم وأشد شوقا إلى الجنة، وقد روي عن النبي ﷺ: «**هَذِهِ الآيَةُ أَشَدُّ مَا فِي القُرآنِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ**»[2].

[٣١] بإزاء ذلك نجد المتقين الذين تحذروا موجبات النار في الدنيا، وتجنبوا السيئات التي تدخلهم جهنم، نجدهم بعيدين عنها بعدهم عنها في الدنيا ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ وأعظم فوز لهم نجاتهم من نار جهنم. أوَلا ترى قول الله سبحانه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]؟.

---

(١) تفسير القرطبي: ج١٩، ص١٨٠.
(٢) عن تفسير الكشاف: ج٤، ص٦٩٠.

[٣٢] وبالإضافة إلى النجاة من النار فإنهم يحظون بنعيم الأبد ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ ولعل ذكر العنب بين سائر الثمار لأنه طعام وفاكهة وفيه من الفوائد ما ليس في غيره، حتى جاء في الحديث النبوي: «خَيْرُ فَاكِهَتِكُمُ الْعِنَبُ»[١].

[٣٣] الزوجة الموافقة تكمل السعادة، ليس لأنها فقط للتمتع الجنسي، وإنما أيضا لحاجة الروح إلى تفاعل مع روح أخرى، تكون لها كالمرآة تنظر فيها نفسها والعكس، وقد وفَّر الله لعباده الصالحين الحور العين في الجنة، بأفضل ما يتصوره البشر، بل وأفضل ما قد يتصوره جمال قمة في الروعة والجمال الظاهري، ومثل أعلى لجمال الروح، والخلق الفاضل والأدب الرفيع حتى يصلحن للمؤمنين ومستواهم السامي ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ الكاعب: البنت عند استدارة صدرها، وتفتح أنوثتها مما تكون ألذ للرجل وأشهى، فهن كواعب، ثم هن أتراب موافقات لروح الرجل خلقا وعقلا وشهوات. ويملك المؤمن أكثر من واحدة منهن حسب أعماله الصالحة مما يستحيل مثل ذلك في الحياة الدنيا.

[٣٤] جلسات الإنس لا تصفوا دون شراب منشط، وقد وفره الله للصالحين بأحسن ما يشتهون ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قالوا: الدهاق ما امتلأت من الشراب، وقيل: ما تواصلت، وقيل: ما صفت. وكلها تصدق في شراب الجنة.

[٣٥] ولا تكتمل نعم الحياة بسوى الأمن، والجنة دار السلام فلا اعتداء ولا ظلم ولا مرض ولا سبات ولا خشية فناء النعم وزوالها.. وحتى الكلمات الجارحة التي تبعث الرعب والقلق والألم في النفس لا وجود لها ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ وإنما يتبادلون العلم والمحبة وذكريات الماضي ويحمدون ربهم على النعم. ولماذا قول اللغو من غيبة وتهمة وفحش أو كلام يخلو من الفائدة ما دامت نفوسهم طيبة والخيرات متوافرة لهم وعقولهم موفورة؟ ولماذا الكذب وهو لا يكون إلا لخبث أو خوف أو طمع وأهل الجنة مَبَرَّؤون من كل ذلك؟ والسياق يؤشر بسلامة "الكأس" من التأثير في العقول، أي أن الجنة عامة ليس فيها اللغو أو الكذب بالرغم من وجود الشراب. ونستفيد أن السلامة النفسية والاطمئنان وتمام الراحة يكون بعدم اللغو والكذب، وأن الحديث الحسن هو الخالي منهما.

[٣٦] كل هذه النعم تترى عليهم بفضل الله لأنهم اختاروا الصراط المستقيم والعمل الصالح ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ يبدو أن معناه أن هذا العطاء العظيم يكون حسب أعمالهم حيث إن درجات المؤمنين تختلف هناك حسب درجاتهم هنا. وقيل: ﴿حِسَابًا﴾ بمعنى الجزاء الوافي بحيث يقول المجزي: حسبي، يقال: أحسبت فلانا أي كثرت له العطاء حتى قال حسبي.

(١) مستدرك الوسائل: ج١٦، ص٣٩٣.

وقيل: ﴿حِسَابًا﴾ لما علموا، فالحساب بمعنى العد أي بقدر ما وجب له في وعد الرب، فإنه وعد للحسنة عشرا، ووعد لقوم بسبع مئة ضعف، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مقدار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: ١٠]. وتعود الأقوال جميعا إلى حقيقة واحدة هي العطاء الجزيل، والرأي الثالث يجمع بين الأولين.

[٣٧] ولكيلا يستكثر الإنسان هذه النعم بيّن الله أنها من عند الرب العظيم، الذي له ملك السماوات والأرض وهو الرحمن؟ ﴿رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ﴾ وما ظنك بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء إذا شاء أن يجزل العطاء؟ وأسماء الله كلها مظاهر رحمته، ورحمته واسعة ومستمرة. ونعبر عن الرحمة الشاملة التي وسعت كل شيء بـ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾، فهي صبغة التدبير والهيمنة وإطار سنن الكون العامة، إذ الرحمة غاية الخلق. وكأنها الآية الشريفة كما تُعقِّب على ما سبق بالتعليل فهي أيضا تمهد لما يلي: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ إنه عظيم إلى درجة تعاليه عن تخاطب خلقه، لولا رحمانيته التي ينزل بها وحيه على عباده عبر رسول أو من وراء حجاب. ولولا أن الله سبحانه أذن لعباده بدعائه، وألقى في قلوب مريديه أنوار محبته ومناجاته، لما استطاع الإنسان -أي إنسان- أن يسموا إلى درجة مخاطبته. أليس الخطاب بحاجة إلى توافق طرفين، أو فرض طرف على آخر؟ والله ليس بمستوى خلقه حتى يتوافق معه، ولن يُفْرَض عليه شيء. وهكذا تشير الآية إلى أن البشر وسائر الخلق ليسوا بمستواه، وأنهم لا يملكون منه شيئا فلا يفرضون عليه شيئا، وهو يملكهم وبرحمته يتفضل عليهم بمخاطبتهم، وقد يأذن لبعضهم إذنا تكوينيًّا وتشريعيًّا بمخاطبته، وذلك حين يعرفهم نفسه ويلهمهم مناجاته. وقد اختلفوا فيمن لا يملك الخطاب، هل المؤمنون الذين ذُكِروا آنفا، أم الكفار باعتبارهم المطرودون عن باب رحمته، أم كلا الفريقين؟. يبدو أن الضمير ليس يعم المؤمنين والكفار فحسب بل ويشمل سائر الخلائق (الجن والمَلَك والروح) بشهادة الآية التالية التي جاءت تفصيلا لهذه الآية، ومثلا ظاهرا.. بالرغم من أن هذه الآية -فيما يبدو لي- لا تخص يوم القيامة. بلى، يوم القيامة تتجلى هذه الحقيقة بوضوح أكبر.

[٣٨] تتجلى عظمة ربنا لعباده يوم البعث الأكبر حين يقوم الروح بكل عظمته وجلاله بين يديه، والملائكة صفًا لا يتكلمون، وقد خشعت أصوات الخلائق لعظمة الرب؟ ثم يأذن الله برحمانيته لبعضهم بالكلام شريطة ألَّا يتكلم إلا صوابا.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ وما الروح؟ اختلفوا في ذلك، فقال البعض: إنه خلق أكبر من سائر الخلق حتى من الملائكة المقربين جبرائيل وميكائيل، جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَلَكٌ أَعْظَمُ مِنْ جَبْرَئِيلَ وَمِيكَائِيلَ»[1]. وعلى هذا فإن الروح هو روح القدس الذي

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٤٠٢.

يؤيد به الله أنبيائه، قال سبحانه: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[النحل: ١٠٢]، وهو حسب تفسيرنا المراد بقوله سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقوله سبحانه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر: ٤]. وقال البعض: إنه جند من جنود الرحمن كما الملائكة، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الرُّوحُ جُنْدٌ مِن جُنودِ الله لَيْسُوا بِمَلائِكَة لَهم رُؤوسٌ وَأَيدِي وَأَرْجُل، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ﴾، قَالَ: هَؤلاءِ جُنْدٌ وَهَؤُلاءِ جُنْد»[1]. وقال بعضهم: إنه جبرائيل أليس يقول ربنا عنه: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤]. وقال بعضهم: «المراد أرواح الخلائق، وقال آخرون: المراد القرآن، وقالوا: أشراف الملائكة، وقالوا: بنو آدم، والمعنى ذوو الروح»[2].

ويبدو لي أن الروح في الأصل خلق نوراني أعظم من الملائكة وله جنود وامتدادات، فمنه تستمد أرواح الناس قوتهم وحياتهم، وبه يؤيد الله أنبياءه وأولياءه، وهو الذي يتنزل في ليلة القدر، وهو الذي يقوم بين يدي الله يوم القيام مع صفوف الملائكة ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ لأن هيبة الله تقفل ألسنتهم، ولأنهم محكومون مربوبون، فمن السَّفَه أن يُتَّخذ أحد منهم إلها لأن كل ما لديهم من الله سبحانه، وحتى الشفاعة لا يقدرون عليها إلا بعد أن يأذن الله لهم بها، والله لا يأذن بها إلا لمن يشاء وبحكمة أي بحساب دقيق ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ وهذه الآية تذكرنا بقوله سبحانه: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه: ١٠٩] والتي قلنا فيها: إن للشفاعة شرطين: إذن الله، وأن تكون مرضية أي عبر مقياس الثواب والعقاب وليس بلا أي ميزان ومقياس، ويبدو أن قوله سبحانه هنا: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ يشير إلى ذلك.

[٣٩] كما تتجلى عظمة الله في ذلك اليوم، يتجلي كذلك الحق، فلا شفاعة بالباطل ولا كذب ولا دجل ولا أحكام جائرة. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ﴾ فهو حق لا ريب فيه، ولأنه رهيب بأحداثه التي تنوء بها السماوات والأرض فكيف بهذا الإنسان المسكين؟! لذلك فإنه يستحق أن يسمى بالحق. وفيه لا ينفع إلا الحق، وهو ابتغاء مرضاة الرب ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي طريقا للعودة إليه. أولسنا قد فُطرنا على الإيمان ثم انحرفت بنا الدنيا وشهواتها؟ تعالوا نعود إلى الطريق الأول، إلى سبيل الله، إلى الرب الودود.

[٤٠] وقبل يوم القيامة عذاب قريب يقع قبل الموت وبعد الموت، فإذا مات ابن آدم

---

(١) عن الدر المنثور: ج٦، ص٣٠٩، تفسير القرطبي: ج١٩، ص١٨٧.
(٢) تفصيل هذه الأقوال مذكورة في تفسير القرطبي: ج١٩، ص ١٨٦-١٨٧ فراجع.

قامت قيامته الصغرى فيرى عمله إن خير فخير وإن شرا فشر ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾، قال بعضهم: المراد الحساب بعد الموت، وقال البعض: إنه يوم القيامة ذاته باعتباره حقا لا ريب فيه وأنه يأتي وأن كل آت قريب، أو باعتبار الإنسان إذا مات انعدم إحساسه حتى يبعث للحساب ففي حسابه يتصل يوم موته بيوم بعثه، إلا إذا محَضَ الإيمان أو محَضَ الكفر فإنه يحس بالثواب أو بالعقاب. وسواء بعد الموت أو بعد النشور فإن أعمال الإنسان تتجسد ثوابا أو عقابا ينظر إليها ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من خير أو شر، والمراد من اليد مجمل ما يقوم به الإنسان. وحين يرى المؤمن عمله يفرح كثيرا، ولكن حين يرى الكافر عمله يتمنى لو كان ترابا ولم يرتكب ذلك العمل السيئ ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ ما أشد هذا الإنسان ندما أن يصل إلى هذه الدرجة فيتمنى لو كان ترابا ولم يقترف تلك الجرائم! هذا الإنسان الذي خلقه الله سبحانه ليكون ضيفا عنده في جنات الخلد بلغ به الحال أن يكون أرذل من التراب. فكيف والتراب يُنْتَفَعُ به وهو لا يُنْتَفَعُ به؟! بل يستحق المزيد من الهوان والأذى.

المحتويات